باتريك ماك غينيس

PATRICK McGUINNESS

أيام تشاوشيسكو الأخيرة

The Last Hundred Days

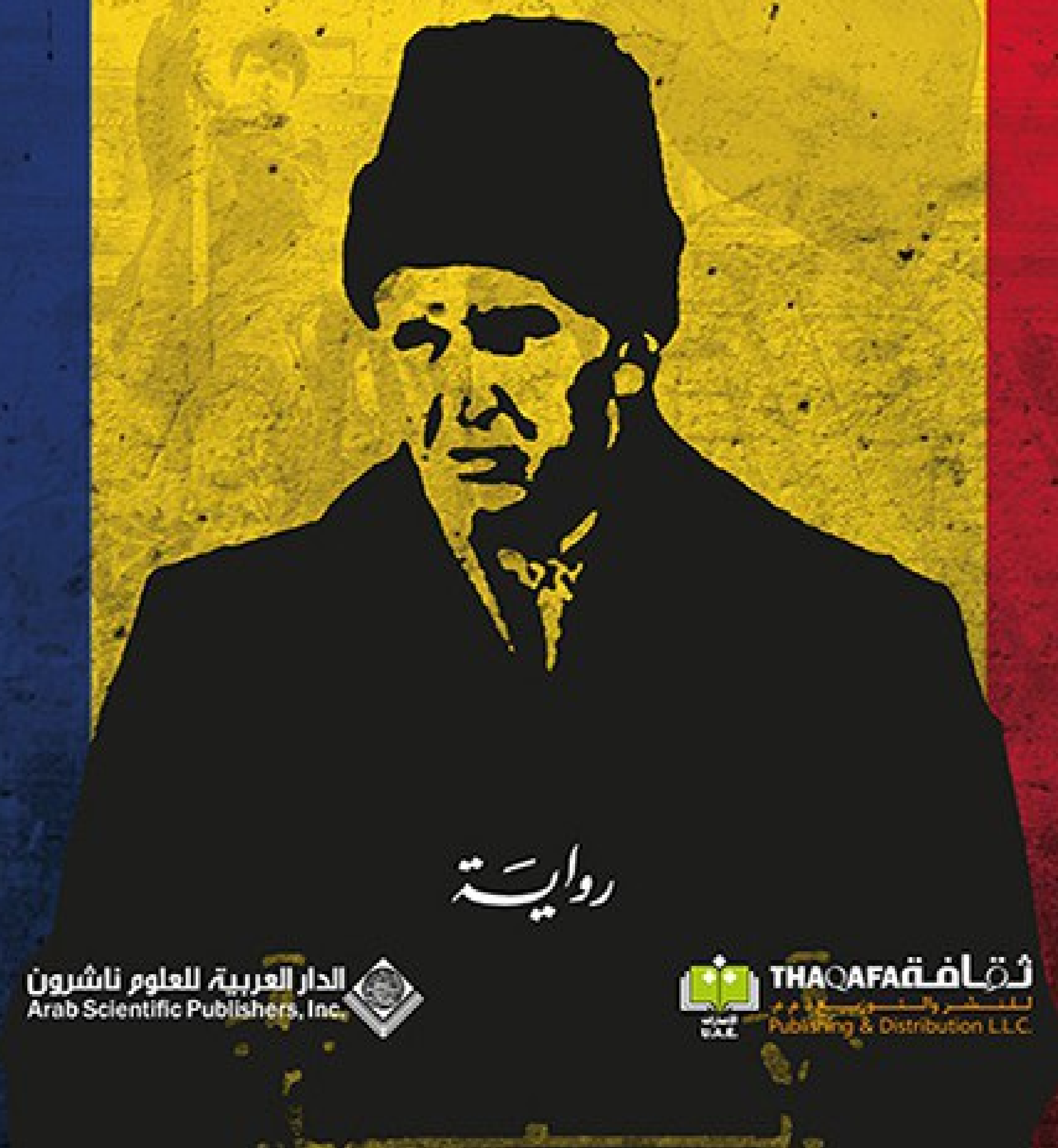

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م

THAQAFA Publishing & Distribution L.L.C.

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

Telegram @read4lead

اقرأ
مكتبة الكندل العربية

أيام
تشاوشيسكو
الأخيرة

The Last Hundread Days

رِوايَة

باتريك ماك غينيس PATRICK McGUNNESS

ترجمة

سعيد الحسنية

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات
U.A.E.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

The Last Hundred Days

Published with the support of a Wales Literature Exchange translation award through Arts Council of Wales National Lottery funding

Cyfnewidfa Lên Cymru
Wales Literature Exchange

«تـم إصدار هـذا الكتاب بدعم من برنامج أضواء على حقوق النشر لمعرض أبوظبي الدولي للكتاب دون تحمل المعرض أي مسؤولية عن محتوى الكتاب».

SPOTLIGHT ON RIGHTS ©

ردمك 978-614-02-3367-6

الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2017 م – 1439 هـ

جميع الحقوق محفوظة

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

أبو ظبي هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

تـوزيـــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)
ص.ب: 13–5574 شوران – بيروت 2050–1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1–961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

إن الناشرين غير مسؤولين عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الناشرين.

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1–961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1–961+)

كلمة حول المؤلّف

وُلد باتريك ماك غينيس في تونس في العام 1968، من والدةٍ بلجيكية ناطقة باللغة الفرنسية وأبٍ إنجليزي من أصل إيرلندي. عاش في بلدان مختلفة بما فيها إيران وفنزويلا وفرنسا وبلجيكا، كما درس في جامعات كامبريدج، ويورك، وأوكسفورد. ألّف الكاتب مجموعتين من القصائد الشعرية، وكانتا بعنوان أقنية المريخ، والمدينة المهجورة، وقد تُرجمتا إلى عدة لغات، وكذلك ألّف عدة كتبٍ حول الأدب الفرنسي والأدب البريطاني.

حاز باتريك على جائزة إيريك غريغوري للشعر، وكذلك على جائزة ليفنسون من مؤسسة الشعر الأميركي، كما مُنِح وسام فارس سعفة النخيل نظراً للخدمات التي قدّمها للتراث الفرنسي. كتب باتريك برامج عديدة وقدّمها للإذاعة، بما فيها حلقات راديو ثري، وكانت تحت عنوان نبذة عن تاريخ الغباء وأدب التكاسل.

باتريك هو أستاذ الأدب الفرنسي والأدب المقارن في جامعة أوكسفورد، ويعيش في كارنرفون، وايلز. تُعتبَر الأيام المئة الأخيرة باكورة روايات الكاتب.

القسم الأول

إن الأشياء التي نفتقدها
في حياتنا هي الحياة...

راندال جاريل

الفصل الأول

خيّم السأم على رومانيا في أواخر ثمانينيات القرن الماضي، وكان حالةً من التطرف في مختلف المجالات، والتي خلت من أي شيء معتدلٍ فيها، وذلك لأنها تجعل المرء عالقاً في زمنٍ لا ينتهي، وتجرّه معها حتى نهاية يومه، فتبدو وكأنها صخرة تحتك ببدن قاربٍ من الأسفل. لكننا اعتدنا، نحن الغربيين، التفكير في هذا السأم وكأنه وقتٌ ضائع، والذي تساهم الموسيقى التي تصدح في آذاننا في التخفيف من الملل الذي يتخلّله. أما السأم في الأنظمة الشمولية فمختلفٌ تماماً، وذلك لأنه حالةٌ من الانتظار الذي يُثقل على النفس بخيبات الأمل التي يجلبها معه، وهكذا يختلط الحدث مع التوقعات التي تسبقه فتشكّل معاً حلقة مفرغة من التوتر، وما يليه بعد الذروة من الهبوط في المعنويات.

تمثّلت تلك الحالة في صفوف الناس الطويلة التي كانت تقف أمام المتاجر عندما كانت صناديق علب السردين تصل إلى البلاد من كوريا الشمالية، وكذلك أنواع الشراب الرخيصة الآتية من يوغوسلافيا (السابقة)، أو حتى أرغفة الخبز المصنوع من البطاطا. كان الناس يقفون في درجة حرارة تعادل الصفر أو أدنى، أو في وسط الحر الشديد الذي لا يطاق، وينتظرون. كانت الأعين شاردة، والأجساد مخدرةً من شدة البرد، بينما أصحابها يتقدمون خطوة خطوة وبتثاقل نحو مقدمة صف الانتظار. لكنّ أحداً لم يكن يعرف كم بقي من أي صنف، حتى إن المرء لم يكن متأكداً من الأصناف الموجودة في المتاجر. وصل الأمر إلى حد وقوف المرء أربع ساعات ليكتشف فور وصوله إلى واجهة البيع أن كل الأصناف قد نفدت. كان بعض الأشخاص ينسون الأصناف التي ينتظرون وصولها وأتوا من أجلها، أو يحتارون في ما إذا كان الصنف الذي بين أيديهم هو الصنف

الذي انتظروه طويلاً. ويحتمل كذلك أن المرء كان يحصل على اللبن الزبادي في حين أنه جاء طلباً للخبز. أما المدمنون على الشراب فكانوا يلحّون بطلب مشروباتهم الرخيصة، أو أصناف تلميع الأحذية، وكان من الصعب التفريق بين الصنفين. كانت الأصناف التي يطلبها الواقفون في الصف تتغيّر في منتصف فترة الانتظار، وهكذا يتحول صف انتظار اللحم إلى صف انتظار أحذية كرة السلة التي كانت من صنعٍ صيني. أما البرتقال الآتي من فلسطين المحتلة فكان يتحوّل إلى صف انتظار آلات التصوير المصنوعة في ألمانيا الشرقية. لم يكن من المهم في ذلك الحين أي صنفٍ يشتريه المرء. يُضاف إلى ذلك أن التعاملات المالية كانت تمهيدية فقط، وهكذا كانت تنشط شبكات المقايضة والسوق السوداء، وسرعان ما تظهر سلعٌ جديدة.

كان يستحيل على المرء معرفة وقت نفاد سلعةٍ كانت وفيرة لوقتٍ طويل وبشكلٍ مفاجئ، وكذلك تحديد متى يتغيّر تصنيف سلعةٍ ما من أساسية إلى كمالية. وصل الأمر إلى حد تأثّر الأموات بذلك الوضع، وذلك بعد البدء بالمشاريع العمرانية العملاقة في أوائل ثمانينيات القرن الماضي، وحيث تطلّب الوضع استيلاء الدولة على أحجار المدافن ورخامها من أجل تجميل واجهات المباني والتصاميم الداخلية. وهكذا، ظهرت في المدافن الألواح الخشبية، وقوائم الطاولات، والكراسي، وحتى عصي المكانس. وكان بالإمكان قياس أبعاد قصر تشاوشيسكو ليس فقط بالأمتار المربعة، بل بأحجار شواهد القبور كذلك. كان الوضع سوريالياً، أو كاد أن يكون كذلك لو لم يكن الواقع هو الوحيد الموجود بالفعل.

وصلتُ إلى البلاد حاملاً معي نوعاً من أنواع التفاؤل، ولكنني أيقنت بعد ذلك أن ذلك الشعور كان علامةً أكيدة على أن الأمور سوف تسوء أكثر. وأنا لا أعني بالنسبة إليّ؛ وذلك لأنني مجرد عابرٍ في البلاد، أو بتوصيفٍ أكثر دقة عابر من

خلال البلاد. كانت الأشياء تحدث من حولي، ومن فوقي، وحتى عبري، ولكنها لم تحدث لي على الإطلاق. يصدق هذا الوضع حتى عندما كنت في وسط الأحداث، أي خلال الأيام المئة الأخيرة.

شعرت بأنني أعود بالزمن إلى الوراء في مطار هيثرو، وذلك عندما دخلت الطائرة التي كانت نصف مقاعدها فارغة. كان أسطول تاروم، وهي شركة الطيران الرومانية الوطنية، مؤلفاً من طائرات من نوع بوينغ كانت شركة الطيران الفرنسية تقوم بتشغيلها في الماضي، أي مثلما كان الحال مع كل شيء آخر في رومانيا، أي الخضوع إلى إعادة التدوير والاستخدام. كان كل شيء يذكّر بستينيات القرن الماضي أكثر ممّا يعطي فكرة عن الثمانينيات. أما المضيفات فقد ارتدين بذلات رسمية واعتمرن قبعات صغيرة.

جلست على مقعدٍ في أحد الصفوف الفارغة في القسم الأمامي من الطائرة، وبدأت بقراءة إحدى المجلات القديمة الموجودة في الطائرة، والتي يعود تاريخها إلى سنتين من الزمن. احتوت المجلة على مقالات عن الأطعمة الرومانية الشهية، كما احتوت على صور لنماذج غير واضحة المعالم عن جادة النصر الاشتراكي؛ وهو مشروع وصفته المجلة بأنه ذروة الرؤية الرومانية الحديثة في عهد الرئيس الرفيق نيكولاي تشاوشيسكو. كانت صورة تشاوشيسكو، التي خضعت إلى بعض التعديلات لتحسينها، موضوعة في الغلاف الداخلي للمجلة. بدا الزعيم الرفيق أصغر من سنّه الحقيقية بعشرين سنة، وذلك بفضل المساحيق السميكة. وهكذا، بدا وجهه مثل وجه جثةٍ محنطة.

بدت طائرتنا وكأنها نموذجٌ عن البلد الذي صُنِعت فيه والعصر الذي نعيش فيه، وهي كذلك حتى في مطار هيثرو الذي يكتظ دوماً بالطائرات التي تهبط لتوها، أو تلك التي تقلع من حولنا بالقرب من لندن الزاهرة التي تتراءى لنا من بعيد. بدا لي أن ذلك البلد والعصر أبعد بكثير من الطيران لمدة ثلاث ساعات ونصف

الساعة التي تستغرقها الطائرة للوصول إلى بوخارست.

لم يتوفّر لديّ الوقت الكافي للعودة إلى منزلي، وخلع بذلتي قبل موعد الرحلة. حضرتُ الجنازة مصطحباً معي حقيبة أمتعتي والحقيبة التي أحملها بيدي، وكنت قد تركت الحقيبتين خلال صلاة الجنازة في ردهة مبنى محرقة الجثث. لكنني لم أقصد التقليل من قيمة الراحل، وإنما فعلت ذلك لأن رحلتي كانت الوحيدة المتوفرة في ذلك اليوم. كان ذلك هو ما شاءته الصدف، حين تقاطع موعد وظيفتي الجديدة مع وصولي إلى ذلك البلد الجديد، وواقع أن تذاكر السفر غير قابلة للاسترجاع. قال لي شخصٌ كان واقفاً بالقرب مني وكأنه يؤنبني: «لا يدفن المرء والده في كل يوم». فقلت له في سري: لا، لكن إذا كنتَ مثلي تأمل كل يوم أن تتمكن من الحصول على وظيفة، فإن هذه المناسبة ذاتها سوف تترافق مع جانبها المعقّد والسلبي. لكنني بالطبع لم أجبه بهذه الطريقة، بل أومأت وراقبت الآخرين الذين تظاهروا بأنهم يشاركون في الصلاة، وبأنهم يتطلعون إلى البعيد؛ وهو أمرٌ لا بد أنه يساعدهم في ما بعد على القول إنهم تصالحوا مع الموت هذا المساء، وإنهم لم يخطئوا عندما فكّروا في طعام العشاء، أو في البرامج المقرر عرضها على شاشات التلفزيون هذه الليلة.

هبطت الطائرة، وانتظرنا نزول الشخصيات الذين تحملهم على متنها، والذين ارتدوا بذلات رسمية رمادية اللون، واصطحبوا زوجاتهم معهم، واللواتي ظهرن وكأنهن تماثيل مصنوعة من الإسمنت والكسترد. لم تتعرض حقائب الشخصيات للتفتيش، بل وُضِعت داخل سيارات ليموزين سوداء اللون. سبق لي أن رأيت سياراتٍ كهذه من قبل، أي سيارات رينو 14 بمحركاتها الموضوعة في الخلف، وهي سيارات من نوع داسيا والتي صنعتها شركة السيارات الوطنية من نماذج فرنسية. علمتُ من قراءاتي القليلة أن هذا الاسم له معنى. يقول التاريخ الرسمي الذي نقّحه رجال تشاوشيسكو، إن رجال داسيا نجوا من حصار

طروادة، وكانوا أقرباء مساكين فُصِلوا عن قبيلتهم، فأسسوا جزيرة لاتنيتي في أوروبا الشرقية، وكانوا محاطين بشعب السلاف، ثم قتلهم الأتراك بعد ذلك، وها هم الآن يدورون في الفلك المظلم للاتحاد السوفياتي.

كان ذلك في شهر نيسان، لكن موجة من الحر الشديد كانت في استقبالنا. أما خارج الطائرة فكان كل شيء يسبح في الحر، فالمدرج كان لامعاً ولزجاً تحت الأقدام، ومتعرقاً بزيوته. امتدت من وراء سياج المطار مساحات واسعة من الأعشاب البيضاء كالطباشير المحاطة بالأسيجة الشبكية، ورأيت محراثاً تجرّه الخيول ويشق الأرض بصعوبة، كما لاحظت وجود حيوانٍ نافق سبق له أن علق بشفرات محراث آلي، بينما تناثرت أشلاؤه فوق الأثلام التي رسمها المحراث. رأيت من الجو كذلك أثلامَ الحقول التي بدت وكأنها نوتات موسيقية. بدا المنظر من الجو مجرد أرض يجري تقليبها مرة بعد أخرى، أرضاً لا ترتاح على مرّ السنين، ويعمل فيها رجالٌ انحنت ظهورهم، وهزمهم الكدح المتواصل فيها.

ابتعد عنا موكب سيارات الشخصيات الرسمية بالطريقة ذاتها التي تتحرك فيها مواكب الأثرياء والنافذين في أي أمكنةٍ تلقاهم فيها، أي من دون التطلع إلى الخلف، فأنظارهم تتجه إلى الأمام دوماً.

وقفت وسط الرائحة التي تُميِّز جميع المطارات في العالم: الرائحة الحادة التي تبعث على الدوار، رائحة الهواء المنبعث من آلات التنظيف الكهربائية، والعطور، والأدخنة، والهواء الفاسد، وأبخرة وقود الطائرات النفاثة، والأوزون المحترق الذي يعطي السماء لونها الأزرق النقي.

يتألف مبنى مطار أوتوبيني من طابقين، ويتميز بجدرانه الزجاجية، وأرضيته الرخامية المخطّطة باللون الأحمر، وكذلك بالعدد الهائل من الموظفين الذين لا يتحركون كثيراً. لكنّ هذا الجو المغلّف بالرهبة وعدم الاكتراث يخيّم على جميع

المباني العامة في كل أنحاء رومانيا. لاحظت كذلك أن الرحلة التالية القادمة من موسكو لن تصل قبل ساعتين من الزمن. أما الرحلة التي سبقت رحلتنا، والتي قدِمت من بلغراد فقد مضت على وصولها ساعتان من الزمن. كان المطار مكاناً للهدهدة الدائمة، والوسطية الدائمة، والأشياء المؤقتة؛ مثل الطائرة التي غادرناها لتونا. لكن هذه الأماكن المؤقتة بالنسبة إلينا هي التي تبقينا معاً لفتراتٍ طويلة وتشدّنا إلى بعضنا بعضاً أكثر فأكثر.

قرأتُ لوحة معلقة ثلاثية الألوان كُتب عليها: «رومانيا ترحب بكم». ظهر كذلك العلم الروماني بألوانه الأزرق والأصفر والأحمر، مع شعار الحزب في الوسط. تدلى العلمُ على ساريته، وكان يرفرف لدى هبوب كل نسمة هواءٍ خفيفة. لاحظت كذلك أن أفراد الميليشيا يفوقون المدنيين عدداً بنسبة اثنين إلى واحد. انهمكت عاملات التنظيف اللواتي انتعلن أحذية عالية بتمرير المماسح الجافة فوق أرضية المبنى، وهكذا كان يُعاد توزيع أعقاب السجائر مع غلافات قطع الحلوى فوق الأرضية الرخامية للمبنى. أما المنافض الأسطوانية الكبيرة ذات الشكل الأنبوبي فكانت تفيض بالسجائر المسحوقة. زِد على ذلك أن غلالةً زرقاء من الأدخنة بقيت معلقةً في الجو.

كان موظفو الجمارك يعملون بتكاسلٍ يتسم بالخبث، ويبدو أنهم يشعرون بقدرٍ من اللّذة غير المبرّرة من البؤس الذي يتسبّبون به. تمكّنت من رؤية سيارات داسيا سوداء اللون من خلال الجدران الزجاجية أثناء ابتعادها في جادة أوتوبيني من دون خضوع أمتعة ركابها للتفتيش، ثمّ اتجهتْ نحو المدينة التي سأمكث فيها في الفترة المقبلة.

وعندما حان دوري، اضطررت إلى إفراغ حقيبتي، والإبلاغ عن محتوياتها التي كانت قليلة. بدا موظفا الجمارك على قدرٍ كبير من الاتزان، وكان وجه أحدهما خالياً من أي تعبيرٍ، بينما أوحى وجه الموظف الثاني بتعابير مختلفة تدل على

التفوق؛ وهي ملامح فشلت في إيصال المقصود منها. تحدّث الموظف الأول بلغةٍ إنكليزية ركيكة، بينما تحدث الموظف الثاني الذي كان يدخن سجائر أميركية بلهجةٍ واضحة. أعتقد أنه لو كان للشرطة الرومانية أن تختار نموذجاً لها لكان هذا الموظف بالذات؛ أي النموذج الخالي من التعابير، وصلب الملامح، والذي لا يشي مظهره بمشاعره.

«ما الذي جاء بك إلى رومانيا؟».

كان ذلك سؤالاً في محله تماماً، ونابعاً عن ذكاء. لكن، لم يكن الوقت مناسباً لاختبار حسّ المرح الذي يتمتع به سكان البلاد. أخذ الموظف مغلف البن، وإصبعين من الشوكولا فتهللت أساريره قليلاً. لم تفارقني نظراته بعد ذلك عندما أضاف إليها بطاريات جهاز الواكمان الذي أستخدمه، بينما سارع زميله إلى اللحاق به ومصادرة صندوق علب السجائر المعفاة من الضريبة الذي جلبته معي.

قال لي بوجهٍ خالٍ من التعابير: «إنها الضريبة».

استقللت سيارة أجرة كانت من نوع داسيا بيضاء اللون، ومخططةً بمساحات من الصدأ، بينما كان باب السائق ذو اللون الأزرق غير مناسب لها. لم ينطق السائق الذي لم أرَ وجهه بكلمة، ولم يتطلع بدوره إلى الخلف لكي يراني ولو لمرةٍ واحدة.

يظهر التباين الذي يميّز بوخارست على الفور عندما ينظر إليها المرء من فوق، فتظهر الجادات ذات الهندسة التقليدية، والتي تمتد على جوانبها المشاريع الإسكانية الجديدة، وكذلك المباني العالية، والمباني الرسمية التي تزيّن الأفق. تظهر بين هذه المباني الجديدة بقايا كنائس قديمة، وطرقات متلوية، ومنازل، ومتنزهات صغيرة. وتَظهر المدينة من الأرض كما تظهر من الجو؛ فالمدينة

القديمة تكشف عن نفسها على شكل طبقات، بينما تظهر المدينة الجديدة على شكل خطوط متقاطعة.

لم تكن بوخارست مدينة تتلاشى تدريجياً حياً إثر حي، وضاحية إثر ضاحية، لتتحول بعد ذلك إلى أرضٍ ريفية. ويصدق الأمر ذاته على المناطق الريفية التي لا تتكاثف شارعاً بعد شارع لتصبح مركزاً مدينياً. اقتصر المنظر، وبكل بساطة، على وجود ميلين من الطرق غير المعبدة والحقول، وذلك إلى أن تصل فجأةً إلى مجمعات الأبنية العالية حيث تتحول الطرقات الوعرة إلى طرقاتٍ معبدة، وتظهر المدينة من حولك.

شكّلت الشقة المخصّصة لي مفاجأة في حجمها وأناقتها، وكانت مؤلفةً من الطابق الثاني بأكمله من منزل كبير يعود عهده إلى القرن التاسع عشر، ويقع في حي آليا ألكساندرو في منطقة هيراستراو، وهي جزءٌ من بوخارست القديمة التي بقيت على حالها حتى الآن، والتي لم يشملها برنامج التحديث الكبير الذي اعتمده تشاوشيسكو. أما سكان هذا الحي الذي سكنتُ فيه، فكان معظمهم من كبار المسؤولين في الحزب، والدبلوماسيين والأجانب. اعتمدت إقامتي هناك على طاقتي على التحمّل، أو على الفترة التي يسمحون لي فيها بالبقاء. لاحظتُ انتشار الكنائس القديمة والمهدّمة في أنحاء المدينة، كما أزيلت الشوارع القديمة ليحلّ الإسمنت مكانها. كان من الممكن هنا أن نتخيّل العكس لولا ضجيج أعمال البناء الجديدة، وعمليات هدم المباني القديمة التي لا تهدأ أبداً.

كان اسم الشاغل القديم للشقة لا يزال مكتوباً على بطاقة داخل إطار معدني صغير، بيلانجر، الدكتور ف. أما اسمي فكان مكتوباً على مظروفٍ يحتوي على مفتاحٍ، وورقة تدعوني إلى التصرّف في كل السلع المتبقية في الشقة. لاحظت أن الخط الهاتف غير مقطوع، كما أن البرّاد والخزائن ممتلئة بشتى الأصناف. أما خزائن الثياب فكانت مليئة بالثياب المناسبة لي. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك

كتب وأسطوانات؛ تلك التي كان من الممكن أن أنتقيها بنفسي، وكذلك جهاز فيديو، وجهاز تلفزيون. أعتقد أن الشاغل السابق لهذه الشقة قد تركها على عجل، أو أنه عرف أنني قادم بعد وقتٍ قصير. رأيت ملصقاً على الجدار يعلن عن المؤتمر العام الثالث عشر للحزب، وكان وجه تشاوشيسكو بارزاً مثل الشمس وراء مقود جرارٍ لامع، بينما انتشرت من فوقه أشعة غامرة من الأنوار. ظهرت وراء هذا المنظر أيقونةٌ صغيرة تمثّل منظر لوحة البشارة. بدت اللوحة قديمة جداً، بينما كان الإطار المذهب شاحباً، ولم تكن شخصيات الأيقونة ظاهرة بوضوح، بالرغم من أن الخطوط الذهبية والحمراء داخل الإطار التمعت مثل النيران بين أجماتٍ محترقة. حملت الأيقونة تاريخ 1989، أي في هذه السنة ذاتها، وحملت توقيع بيتريسكو مترافقاً مع صليبٍ تقليدي صغير تم إدخاله في اللوحة بواسطة عود ثقاب.

أشار عقربا الساعة إلى السادسة مساءً عندما توجّهتُ إلى الثلاجة، وتناولت علبة من علب الشراب التي تركها بيلانجر، ثم خرجت إلى الشرفة. كان البلاط حاراً جداً، لذلك جلست على مقعدٍ قديم العهد لكي أراقب الشارع تحتي.

يبدو أنني استسلمت للنوم طويلاً؛ لأن الظلام كان مخيّماً عندما استيقظت على صوت الجرس لأفتح الباب. كما أن بلاط أرضية الشرفة كان بارداً. سمعت رنين جهاز هاتفٍ لم يسبق لي أن رأيته من قبل ثلاث مرات وسط الظلام المخيّم على الغرفة. توقّف الرنين قليلاً، ثم عاد مجدداً. رفعت سماعة الهاتف الثقيلة التي كانت من نوع بايكلايت وذات لونٍ أسود، لكنني لم أسمع صوت أحد. سمعت قرقعةً خفيفة بعد ذلك، قبل النغمة الطويلة التي تُشير إلى خطٍ مقفل.

كان التيار الكهربائي مقطوعاً عن المدينة بأكملها؛ بالرغم من أن منطقة هيراستراو التي أقطن فيها كانت معفاةً من هذا الانقطاع. هدأت حركة السير في هذا الوقت، ولذلك تمكنت من سماع القرقعة المستمرة للمعادن، وآلات

الحفر والمحركات الهادرة. تعثرت في سيري وسط الظلمة، وعجزت عن العثور على مفاتيح الإنارة ولذلك اكتفيت بتخمين مكان الباب من الطنين المتكرر للجرس.

رأيت أمام الباب رجلاً بديناً قصير القامة وقد انحنى قليلاً. كان وجه الرجل يوحي بالبؤس، وتفوح منه رائحة الشراب. عرفت هوية الرجل بالرغم من عدم رؤيتي له من قبل. أشرتُ له بالدخول بشكل يدل على وجودي في هذا المكان فترة تزيد عن ساعاتٍ قليلة. شعرت كما لو أنني في بيتي في شقة بيلانجر، حتى إن أغراضه بدت مناسبة لي بالرغم من أنها غريبة عني.

قال القادم الجديد مع خبطة عسكرية ساخرة بحذائه: «ليو أوهاي. أتذكرني؟». وانتزع الرجل من جيب سترته نسخة من صحيفة سينتيا، الصحيفة الرسمية للحزب، ثم مدّ إحدى يديه نحوي، إلا أنه نحّاها جانباً قبل أن أتمكن من الإمساك بها. «أنا من أجرى المقابلة معك».

لم أحضر المقابلة التي تحدّث عنها الرجل، وذلك بالرغم من تقديمي طلبات لأكثر من عشر وظائف، فقد استُدعيتُ لإجراء ست مقابلات كانت كلها من دون نتيجة. وعندما سمعت عن الوظيفة في رومانيا شعرت بتشاؤمٍ منعني من التوجّه لإجراء المقابلة. غير أنني تسلّمت بعد مرور يومين على موعد إجراء المقابلة رسالةً بدأت بجملة، من دواعي سرورنا إعلامكم، وهي الجملة التي تفيد بأنه تمّ اختياري للوظيفة. ظننت أن الأمر مجرد مزحة ليس إلا، ولكن بعد وصول التأشيرة بعد مرور أسبوعٍ من الزمن أدركت أنه ليس مزاحاً إطلاقاً، أو أن تأكيد القبول لم يصل بعد. قال والدي حينها: «يُحتمل أنك كنت المتقدِّم الوحيد لتلك الوظيفة؛ لأن الآخرين يحصلون على الوظائف الجيّدة، بينما تحصل أنت على ما تبقى منها». في تلك الفترة، عجز والدي عن القيام بأي شيء من دون مساعدة شخصٍ ما، وحتى تناول الطعام، وغير ذلك من الأمور الروتينية، إلا أنه

تمكّن من توجيه ملاحظاتٍ ساخرة كهذه بين حينٍ وآخر. لكنه في هذه الحالة وجّه لي ثناءً كبيراً، وذلك للمرة الأولى في حياته؛ وذلك عندما قال إنني حسّنتُ مصداقيتي كثيراً بعدم حضوري المقابلة.

كانت فترة العناية بوالدي خلال الأشهر الأخيرة من حياته اختباراً لكلينا في ما يتعلق بقدرتنا على التحمّل. كنت أدفع كرسيه المتحرك عبر أجنحة المستشفى، بينما يسترسل هو بالحديث عن الأخطاء التي تملأ اللوحات الإعلانية المزخرفة للمستشفى، وأخطاء اللغة والقواعد الضعيفة، وأخطاء وضع الفاصلة العليا في الكلمات الواردة في تلك اللوحات. بقيت مع والدي العادات التي كوّنها أثناء عمله؛ وهو الذي عمل طوال عشرين عاماً في شارع فليت ستريت، كما عمل في مطبعة إحدى الصحف، وكان يقوم بصفّ الصفحات يدوياً. كان يتقن مهنته ويتعلّم منها الكثير مع مرور الأيام. كانت الكلمات رفيقة دربه، وأعتقد أن رجلاً أفضل منه حظاً كان بإمكانه الاستفادة بصورة أكبر بكثير من قدراته اللغوية تلك. ولكن عندما صُرِف من العمل مع ستة آلاف عاملٍ آخر من عمال المطابع، وقف أمام السياج الشائك الذي وضعته قوات الشرطة، وبدأ برشق سياراتها بالحجارة. لكنه عاد ذات يوم إلى العمل في حافلة مصفحة مخصّصة لمكافحة أعمال الشغب، وكانت نوافذها مطلية ومزوّدة بشبكةٍ معدنية، كما أن الحافلة حظيت بحماية إحدى الشركات الأمنية الخاصة. أحبّ والدي أن يتسم العمل السياسي بالعنف، شرط أن يكون مرناً وقابلاً للتغيير.

حرصنا في الفترة القصيرة التي سبقت وفاته على وضع مسألة التوافق بيننا جانباً، وذلك عن طريق التحدث عن أمورٍ عادية. عانى والدي في الأيام القليلة التي سبقت وفاته من حالة هذيان، وطلب رؤية والدتي، كما اشتكى من عدم قدومها لزيارته. وصل الأمر إلى حد استمراره في العثور على حججٍ لإثارة غضبه. لكن الطبيب دُهش من طريقة والدي في محاربة مرضه خطوة خطوة، وهو

الذي بقي متمسكاً بالحياة في حين كان يُفترض بمرض السرطان أن يقضي عليه قبل أشهرٍ من الزمن. أطلق الطبيب على طريقة والدي في محاربة المرض وصف حرب الخنادق. أدركت في ذلك الوقت القوة التي أعطت والدي القدرة على الاستمرار في الحياة؛ وكان الغضب تلك القوة.

أنار ليو مصابيح الغرفة، وتوجّه على الفور نحو خزانة المشروبات بطريقةٍ أكثر احترافية من طريقتي. سكب الرجل بعد ذلك لنفسه كوباً من الشراب، ووضع فوقه قدراً قليلاً من شرابٍ منشطٍ آخر، ثم فتح باب الثلاجة وأضاف إلى الكوب عدة مكعبات من الثلج. جلس على الأريكة بعد انتهائه من تحضير كوب الشراب، ووضع رِجلاً فوق رجل ثم تطلّع نحوي. حان دوري الآن.

اعتاد ليو على اعتمار قبعة صوفية، وكانت ضيقةً بعض الشيء إلى حد أنها تركت علامات حمراء اللون على جبهته، بينما بدت جبهته متغضّنة. ارتدى الرجل بنطالاً بلون الفطر المتبقّع، وبالرغم من أن ساقيه كانتا بالطول ذاته إلا أن رجلَي البنطال لم تكونا كذلك. أما قميصه فكان مخططاً بلونٍ رمادي خاص؛ وذلك لأن لونه الأصلي كان أبيض، ولكنه اكتسب ذلك اللون مع تكرار غسله في غسالات تحتوي على ملابس داخلية زرقاء اللون.

«سنخرج لتناول طعام العشاء».

دفعني ليو إلى خارج الشقة، وسرنا في الممر. سمعت خلفي رنين الهاتف، لكن ليو كان قد أغلق الباب وراءه.

قال لي: «أهلاً بك في باريس الشرق». كان ليو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يكون صادقاً وساخراً إزاء الأمور ذاتها وبطريقة متتابعة.

باريس الشرق... كان ذلك تشبيهاً سبق لي أن سمعته من قبل. فقد جرت العادة على تسمية المدن من الدرجة الثانية بأسماء مدن كبيرة أخرى في أمكنة بعيدة.

لكن بوخارست لم تكن تشبه أي مدينة أخرى، وعلى الأخص بالحزن الذي يسودها.

الفصل الثاني

كان ليو يقود السيارة ويتناول مشروبه في الوقت ذاته؛ وهو أمرٌ مسموح به في هذه المدينة، وربما يعود سبب ذلك إلى النقص في الوقود، وإلى فترة سنوات الانتظار السبع التي يتطلبها الحصول على سيارة جديدة من مصنع السيارات التابع للدولة. كان الركوب في سيارة يقودها ليو أشبه ما يكون بركوب سيارة كهربائية صغيرة داخل مدينة أشباح، وعلى الأخص مع وجود شارة هيئة دبلوماسية التي اشتراها من السوق السوداء، ثم قام بتثبيتها على مؤخر سيارة سكودا التي يقودها. أعطت الرافعات والحفارات الكبيرة المنتشرة في كل الأمكنة بوخارست منظر مدينة ملاهٍ مهجورة. كان بعض هذه الآليات فقط ما زال يعمل بنصف عدد المشغلين وبنصف قدرتها، فبدت وكأنها تنقل ظلال العمال نحو قمرٍ شاحب.

بدت الأرصفة خالية، لكن الظلال اشتملت على رجال ميليشيا ارتدوا أزياءهم الرسمية بلونها الرسمي. لكن المرء لا يتمكن من رؤيتهم إلاّ بعد أن يعتاد على الظلمة، فتبدأ أشكالهم بالظهور شيئاً فشيئاً وسط شبه الظلمة التي يعيشون فيها. أما في بوخارست القديمة فإن الحي الباريسي المتهدم بمعظمه مخترقٌ بضواحٍ مبنية على الطراز المعماري السائد في إسطنبول، وهكذا يتعانق الشرق والغرب عناقاً معمارياً أبدياً. رأيت النباتات المتدلية من الشرفات التي يجلس عليها الناس في الظلمة، لكن الضوء الأزرق الخافت الصادر عن أجهزتهم التلفزيونية كان يعطيهم بعض الضوء الذين يحتاجون إليه. أما الكنائس الشرقية فقد تماوجت من خلف نوافذها أنوار الشموع، بينما وقف العمال المناوبون أمام طاولات ليتناولوا مشروباتهم بصمت بعد أن جلسوا متطلّعين

نحو الأسفل.

انعطفت سيارة ليو نحو ساحة خالية من السيارات، فبدت وكأنها قارب صيدٍ صغير مندفعٍ نحو البحر الواسع. كانت تلك ساحة الجمهورية، حيث يواجه قصر الملكة ماري المقر العام للحزب، ويفصل بينهما تقاطع طريق مرصوفٍ بالحجارة. سبق لي أن سمعت أصواتاً كهذه، لكنني أسمعها الآن بشكلٍ أكثر وضوحاً بعد اقترابي منها. وكانت تلك الأصوات ناتجة عن أعمال البناء التي لا تتوقف أبداً، وأصوات إزالة أنابيب البناء المعدنية الفارغة، وأصوات آلات مزج الإسمنت. رأيت أيضاً الضوء الشاحب من جهة الشمال - حيث يزاول العمال أعمالهم ليل نهار - والمسلّط ليل نهار على قصر الشعب وجادة النصر الاشتراكي. رأيت بالقرب من القصر بناية مرتفعة، وهي أشبه ما تكون بناطحة سحاب في ذلك الأفق الهادئ، وكذلك السيارات الغربية، وسيارات داسيا السوداء مركونة أمامها. كان البوابون يتجولون بالقرب من الأبواب الدوارة عند مدخل تلك البناية.

التزم ليو الصمت طوال جولتنا هذه، لكن إمكانية تناول كوبٍ جديد من الشراب دفعته إلى الكلام.

قال لي مشيراً بيده: «هذا هو فندق انتركونتيننتال، مركز ديسكو مادونا، والمكان المفضّل عند الابن المدلل للحزب». تسلّل صوت الموسيقى العميق من باب الطابق الأرضي، وكان يعلو وينخفض بحسب فتح الباب وإغلاقه.

رأيت في الجانب الآخر من الساحة سيارة بورش حمراء اللون مركونةً خارج الملهى الليلي، وكانت لوحتها تحمل الرقم أن آي سي 1، وبدت الأرقام واضحة بسبب وهج مصباح الشارع. ترجّل رجلٌ يرتدي قميصاً أزرق اللون من السيارة، ودخل ردهة الفندق متبوعاً بفتاتين نحيلتين، وقد ارتدت كل منهما تنورة قصيرة

بلونٍ فضي، وانتعلت حذاءً ذا كعبٍ عالٍ، إلى حد أنها كانت تترك صدى وكأنها تتحدى قوانين الجاذبية.

ابتسم ليو ساخراً وقال: «إنه نيقو، الأمير المنغمس باللذات، ابن تشاوشيسكو ووريثه كما يبدو».

يقع مبنى كابسيا المؤلف من ثلاثة طوابق، والمشيّد على الطراز الفرنسي عند زاوية تقاطع كاليا فيكتوريا وسترادا إدغار كوينيت، وكان بمثابة نموذج عن الطراز المعماري الذي كان سائداً في باريس في نهاية القرن التاسع عشر. بدت مجموعة الأبواب الثلاثة الظاهرة في المدخل المتواضع وغرفة الطعام الملتمعة، مثل الأبواب في غرف إفراغ الضغط في غواصة. تمنع هذه الأبواب الضوضاء والروائح ومظاهر الفخامة من التسرّب إلى الشارع في الخارج، كما تمنع المشردين والجائعين والمحرومين الذين يجوبون الشوارع من تلويث كابسيا، وإفساد تجربة تناول الطعام فيه.

جال النُدُل بقمصانهم البيضاء ومراويلهم الخضراء الداكنة وأزرارهم اللامعة، حول موائد الطعام المليئة بالأطباق المصنوعة من الفضة. كانت أزياؤهم الرسمية رائعة، لكن وجوههم غير الحليقة لم تكن كذلك، أي كانوا نماذج قديمة عن النُدل الفرنسيين الذين أصابوا باريس بالشلل في أعوام التسعينيات من القرن التاسع عشر بسبب إضرابهم، والذي طالبوا فيه بمنحهم حق الاحتفاظ بشواربهم. أما بوخارست، وبحسب الدليل الذي كان بحوزتي فكانت على الشكل التالي: جزيرة قواعد السلوك الفرنسية اللاتينية، وأسلوب الحياة الفرنسي، والطعام الفرنسي. أخرجتُ الكتيّب، وتطلعتُ نحو كابسيا. نصح الكتيب بعدة أنواع من الشراب، وأضاف نصيحةً أخرى تقضي بالجلوس على الشرفة، ومراقبة حياة بوخارست بكل وجوهها. ترافقت هذه النصيحة مع تحذير بضرورة تجنّب وضع الكراسي بالقرب من بالوعة الصرف الصحي.

لكن الكتّيب الذي بحوزتي، وهو الوحيد عن رومانيا الذي تمكّنت من العثور عليه في بلدي، كان يعود بتاريخه إلى العام 1899، وكان ثمنه عشرة بنسات، وكنت قد اشتريته من جزيرة دوغز أوكسفام. أخذ ليو الكتيب مني، وقلّب غلافه الهش، وهكذا تدلى الشريط الأحمر من جلدة الكتاب، ثم قال لي: «لا أعرف شيئاً عن الشراب، لكن بالوعة المياه لا تزال في مكانها. أما بالنسبة إلى حياة بوخارست في كل وجوهها، فأعتقد أنه بإمكاني أن أعدك بـ... ».

يعود تاريخ الكتاب إلى العام 1899، أي قبل تسعين عاماً. كان الرومانيون الذين عادوا من فرنسا في ذلك الوقت قد ملأوا رؤوسهم بأحدث الكتب، وكانت أجسادهم ترتدي أحدث الأزياء، وكانوا يُعرَفون بلقب"البونجوريون». كان ملهى كابسيا من بقايا تلك الحقبة، وكذلك كانت كل محتوياته: قوائم الطعام الجلدية المنقوشة، وأغطية الطاولات التقليدية، وأدوات الطعام الفضية الثقيلة. رأيتُ كلمة كابسيا مطبوعة على غلاف قائمة الطعام: أهلاً بكم في المطبخ الروماني. أما الديكور الداخلي للملهى، أي اللوازم الذهبية، وستائر الدمقس، والنباتات الاستوائية الطويلة بأوراقها التي يعلوها الغبار، فكانت تتناسب مع العازفين الأربعة على الآلات الوترية الذين قدّموا معزوفة لشتراوس. كانت الجدران بمثابة مرايا، لكنها كانت داكنة قليلاً بفعل مرور السنين، كما ظهرت فيها بعض التشققات. كان بإمكان المرء أن يشعر بصورته المنعكسة وهي عالقة في التشققات وكأنها وسخ عالق بين بلاطات المنزل.

دفع النُدل العربات المليئة بأصناف الطعام، ورأيت في آخر القاعة مجموعة من كبار السياسيين أثناء استمتاعهم بالشراب القوي، بينما انطلقت ألسنة اللهب من المدفأة فأضاءت وجوههم من الأسفل.

قال ليو مبتسماً بسخرية: «انظر هناك. هل لاحظت أن الحزب قد قام بمحو الفقر!». تطلع السياسيون وابتسموا، ثم استمروا بمضغ طعامهم، فقال لهم ليو:

«هنيئاً لكم يا رفاق!».

تطلّع إلينا رئيس النُدُل بزيّه الرسمي الأنيق، وقادنا بنظراته الماكرة نحو طاولة بمحاذاة نافذة ذات زجاج داكن تشرف على سيركول ميليتاير. كان بإمكاننا رؤية المنظر في الخارج، لكن من دون أن يتمكن أي شخص من رؤية ما في الداخل. أدركت أن هذه هي الطريقة الرومانية، والتي تتمثّل في تقديم أفضل مطعم في المدينة شرائح شاتوبريان المقطّعة بضربات لطيفة، بينما يرى المرء المتاجر التي تُظهر في البعيد الرفوفَ الفارغة فيها التي تلتمع بأوراقها اللاصقة، والشوارعَ التي تبدو بريئة وهي واقعة تحت عبء الفراغ.

أخبرني ليو بأن كابسيا كانت المكان الوحيد الذي تتوافر فيه معظم الأصناف الواردة في قائمة الطعام، وقال: «هذا هو ما يجعل قائمة الطعام قصيرة إلى هذا الحد». أخرج ليو علبة سجائر من نوع كنت ووضعها على الطاولة. كان هذا النوع من السجائر يساوي كمية كبيرة من المال، أو ما يمكن أن نسميه أونصة من التبغ. وهكذا، كان وضعها على الطاولة إشارة إلى رغبة الزبون بالحصول على اهتمامٍ خاص، وإلى قدرته على دفع ثمن هذا الاهتمام. طلب ليو زجاجة من الشراب فأحضرها النادل على الفور.

بدأ ليو كلامه بعد أن تناول جرعة شرابٍ وبلعها بصعوبة: «هناك بعض الأمور التي يجب أن تعرفها... » لم يُكمل جملته، بل تأمّلني صعوداً ونزولاً للمرة الأولى وقال: «تبدو مثل شخصٍ بإمكانه السفر من دون حقيبة، لكنه أضاعها بالفعل».

قلت له إنني أشعر بالتعب نتيجة رحلتي، وبسبب الفارق في التوقيت بين رومانيا وبريطانيا، وإنني جالسٌ في مطعمٍ غامض وسط عاصمة نصفها مُظلِم، وفي دولةٍ بوليسية برفقة رجلٍ ثمل، وإنني موجودٌ هنا بسبب حصولي على

وظيفة لم أتقدّم إليها، وبعد مقابلة لم أشارك فيها على الإطلاق، وإن أمتعتي هي كل ما لدي لأتمسك به في هذه الأوقات التي تبدو غير حقيقية.

«توقف عن الحديث عني. أخبرني شيئاً عنك... » لم يسبق أن قال لي ليو شيئاً عن نفسه. قال لي: «كنتَ مُقنِعاً جداً في المقابلة، كما أنك أشرت بعلامة صح على كل البنود».

«إنه أمرٌ مضحك. لكن، قل لي كيف كان عدم حضوري في مصلحتي؟».

«حسناً، إنني أفتخر بقدرتي على النفاذ إلى ما وراء الانطباعات الأولية... كما أن البروفيسور يونيسكو بدوره يتطلع إلى مقابلتك شخصياً. إننا نعتقد أننا نجحنا في توظيف الشخص المناسب لهذه الوظيفة، وهو الشخص الذي يتمكن من... التمرّس فيها. ستلاحظ أيضاً أننا سمحنا لنفسينا بإضافة درجة بكالوريوس فنون إلى جانب اسمك. كان ذلك هدية ترحيبية من جانبي». دفع ليو الشهادة فوق الطاولة، وكانت شهادة أكاديمية مزخرفة، وتحمل أختاماً عدة بالإضافة إلى ختم الشمع، كما كانت ملفوفة بشريطٍ لامع. كانت تلك شهادة بدرجة شرف. «أريد تذكيرك بأنك إذا أردت الحصول على شهادة دكتوراه في الفلسفة فيتعيّن عليك أن تدفع ثمنها مثل الآخرين».

هزّ ليو كتفيه وأطلق عدة ضحكاتٍ، وبدا لي أنه بدأ بالدخول إلى الموضوع التالي، وكان مستعداً لهذا الدخول. «صدّقني، إنها ليست ذات أهمية عالية». بدت دعابته هذه سخيفة، أو لعلها لم تكن دعابة على الإطلاق، ولكنه لم يتوقف عند هذا الحد. بدأ ليو بالحديث المؤثّر الذي قدّمه مراتٍ عديدة من قبل. يبدو أيضاً أن عشرات الأشخاص قد استمعوا إلى هذا الحديث قبلي، لكن لم يصمد أحد منهم أكثر من أسابيع قليلة. أعتقد أن بيلانجر قد صمد أكثر من غيره، لكن ليو لا يتحدث عنه.

شرح ليو الأمر، ووضع جميع الأمور في سياقها وزخرفها قليلاً. كانت هناك بعض الأشياء التي يُمكن المبالغة فيها قليلاً، وبعض الأمور الأخرى التي يُمكن التقليل من أهميتها. لكنني أعتقد أنه بعد انقضاء أشهرٍ قليلة على وجودي هنا فإن الأمور سوف تستقر على وضعٍ محدّد: العيش في دولةٍ بوليسية تقوم بتعظيم أهمية الخدمات الصغيرة، والتي تتركها على حالها إلى حين لا تعود متناسبة مع الأهمية المعطاة لها، وفي الوقت نفسه تقلّل من أهمية أصغر مظاهر الديموقراطية لتجعل منها مجرد روتين.

تقدّم النادل منا ليسأل بإلحاح عما إذا كان كل شيء لذيذاً. لكن بما أننا لم نكن قد قدّمنا طلباتنا من الطعام بعد، كان ذلك وقتاً مناسباً للاستفسار. رست نظرة النادل على علبة سجائر كنت الموضوعة على الطاولة.

أجاب ليو بلهجةٍ مقنعة: «أجل، كل شيء لذيذٌ جداً».

قال ليو: «يا لهذه الطرائق المراوِغة الجديدة! يسألونك عما إذا كان الطعام لذيذاً، ويطلبون منك الاستمتاع بوجبتك. إنني أفضّل أن يضعوا الطعام على الطاولة وينصرفوا بعد ذلك... أعرف أنهم تعلموا هذه الطريقة حديثاً من المسلسلات التلفزيونية الأجنبية. أتيت إلى هنا عند قدومي من بروكسل للمرة الأولى لكي أتناول طعام الغداء، وكانت إحدى السيدات تقلّم أظافر أصابع رجليها فوق السجادة. كانت تلك رومانيا القديمة. آه! إنها أيام الماضي... أما الآن فلا نسمع إلا هاي! اسمي نيكولاي، وأنا النادل الذي سيخدمك هذا المساء... » كانت لهجة ليو الأميركية مريعة. «إنني ألوم مسلسل داينستي على هذا التغيّر. فقد بدأت المحطات بعرض حلقة منه مرتين في الأسبوع الواحد. ويعني ذلك أنهم يستخدمون ربع فترة البرامج التلفزيونية الليلية، والتي تصل إلى ثلاث ساعات. كان من المفترض أن يدفع هذا الأمر الرومانيين إلى كراهية البذخ الرأسمالي، لكن زعماء الحزب هم الذين استفادوا من هذا المسلسل في أسلوب

حياتهم، وهكذا امتلأت مخازن الحزب وبرك السباحة بأوعية مكعبات الثلج وشراب الكوكتيل... ».

أشار ليو إلى النادل لتسجيل ما نطلبه: طبق من لحم الخنزير على الطريقة اليهودية، وهو طبق يلخّص عدائية قارة بأكملها للسامية.

تناول ليو طعامه مثل طفلٍ صغير، وقطّع الطعام بسكّينه، ثم دفعه إلى طرف شوكته بأصابعه، وذلك قبل أن يدفع لقماته إلى فمه بيديه. «هذه هي البلاد التي يراقب فيها نصف السكان النصف الآخر، ثم يتبادلون الأدوار بعد ذلك».

أصغيت إلى نكاته السمجة مع أنني كنت أعرف أنها ليست نكاتاً على الإطلاق، بل مجرد طرائق لمقاربة الحقيقة من زاوية أقل إيلاماً، أي كما يسير الإنسان إلى جانب الطريق عند هبوب رياحٍ عاتية. تناولت الطعام والشراب بينما كان ليو يصف عالماً من الشك يشعر فيه بالسعادة، والإثارة، والاطمئنان. يبدو أن المكان كان مناسباً له، ولكن ليس لأنه يشبهه، بل لأنه يتمتع فيه بالوفرة.

لكن الأهم من كل شيء هو محبّته لذلك المكان. قال ليو: «كل شيء موجود هنا؛ الشغف، والحميمية، والرفقة الإنسانية. لكنّ كل ما يحتاج إليه المرء هو التأقلم مع هذه الظروف. بصراحة، إنها منطقة رمادية، وبإمكاني أن أقول بصدق إن كل شيء رمادي هنا». وأشار إلى العالم خارج كابسيا وكأنه مرتبط بالعالم الذي نعيش فيه الآن. أشار ليو للنادل ليحضر زجاجة أخرى من الشراب، فتساءلتُ عما إذا كان الأسبرين موجوداً في رومانيا، وتساءلتُ عن طبيعة بداية عيشي في هذه البلاد.

كان ليو محقاً، وذلك لأنه لا يشبه القادمين الآخرين إلى البلاد، والذين يحافظون على تشكيكٍ أبدي تجاه زملائهم الرومانيين، ويكتمون أصواتهم عندما يصلون إلى الغرفة، ويستبعدونهم من الأحاديث، أو لا يختلطون بهم إلا عن بُعد. إنه

الرجل الذي وازن سلوكه إزاء الآخرين الذين يحيطون به، وإزاء ظروفهم الاستثنائية، وكذلك إزاء العنف الذي تركته الظروف على حياتهم اليومية، وذلك بالرغم من تبجّحه وإسرافه في الشرب.

كان ليو يجد متعة خاصة في السخرية من التناقضات القائمة بين زعماء الحزب الذين يحكمون الناس ويمارسون الفساد ولا يتمتعون بالكفاءة ويشعرون بالكراهية من جهة، وبين الغرباء من الدبلوماسيين ورجال الأعمال والمقاولين والذين يعيشون في معسكر يقع إلى الغرب من المدينة ويرتادون ناديهم الإنكليزي الذي يُدعى السفينة والقلعة، والمتجر التابع لسفارة دولتهم من جهة أخرى. تمثلت إحدى دعاباته في تأليف أسماء لعطور خاصة بهم، مثل: عطر الدرج العريض، ورجل بروملي، وستيفن آيج: لها. كان الشراب دائم الحضور في حفلاتهم، وكان هذا مسلياً في بعض الأحيان، ولو أنه اقتصر على تناول كوب واحد من الشراب، وفرصة قراءة أحدث الصحف الإنكليزية، لكن هذه الحلقة على حد وصفه كانت مليئة بالتصرفات السلوكية غير اللائقة.

شعرت بإحساسين اثنين عند جلوسي في كابسيا؛ وإن كانا متناقضَين في الظاهر. وقد أوصلاني إلى حدود ذاتي القصوى: الإحساس بأن العالم يُطبِق عليّ ويُضيِّق عليّ الخناق؛ وهو الإحساس الجسدي بالاختناق، والإحساس بالارتياح والتوق نحو الممكن؛ وهو شيء آخذ بالاتساع من حولي بينما كنت أتطلع إلى تلك الساحة الخالية. بدا الأمر وكأن رهاب الخلاء هو الهدف الذي تواجدت هذه المدينة الجديدة من أجل تكوينه، كما أن النظام السياسي الذي صنع مدينة الإسمنت كان يترجم نفسه داخلياً ليصبح فضاءً داخلياً كثيفاً. كانت هذه الطريقة تشبه إمكانية فلق الذرّة لفتح مجالٍ لا حدود له من الطاقة المعكوسة. وهكذا، بدت حياتي وسط كل هذه القيود والموانع مليئةً بالإمكانيات.

كان أول شيء تعلّمته، والذي تعلّمته من ليو تحديداً، هو الفصل بين الناس وما

يفعلونه. أقول ذلك لأن الناس يتواجدون في عالمٍ منفصلٍ عن أفعالهم. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة للمحافظة على الصداقات في دولةٍ بوليسية. أما عندما فتحت روديكا - وهي أمينة سر في الكليّة - مكاتبنا أمام رجال الشرطة لتفتيش أمتعتنا ونسخ كل أوراقنا، أو عندما لم أعترض على سماح صاحبة المنزل لهم بدخول شقّتي فقد عرفتُ في ذلك الوقت أنهم يعرفون أنني أعرف، لكن ذلك لم يغيّر أي شيء.

كان ذلك أمراً طبيعياً حدّد علاقاتنا بالرغم من كل تلك الغرابة والقسوة، أي قدرتنا كبشر على تكييف أنفسنا بحسب ظروفنا، وليس بحسب النفاق والفساد اللذين يقفان وراء هذه الظروف. كان ذلك في الوقت ذاته أكبر عائقٍ أمامنا، أي روتين الحاجة والأسى والكبت؛ إلى أن تصبح كل هذه الأمور غير مرئية، وإلى حين تخدير المرء حتى إزاء الفظاعات التي تحدث أمامه.

شرع ليو في إخباري شيئاً كنت أعرفه سلفاً عن بوخارست، وكان من بين الأمور القليلة التي قالها لي: «هذا هو المهم. صحيح... يتواجد في بوخارست العدد الأكبر من دور السينما في العالم قياساً إلى الفرد الواحد».

قرّر ليو أن هذا يكفيني لهذه الليلة، كما أن كابسيا كان على وشك إقفال أبوابه لأن الوقت قارب منتصف الليل. أراد ليو الحصول على كوب آخر من الشراب، لكنني كنت بحاجة للنوم، وهكذا تكرّم بنقلي إلى منزلي. قاد السيارة ببطءٍ هذه المرة، وتوقف مراتٍ عدة لكي يعرّفني على بعض الأماكن. كانت الموسيقى لا تزال صادحةً في فندق الانتركونتيننتال. رأينا بعد ذلك بناية أكثر فخامة، أي قصر فندق أثينيه، حيث تلتمع في باحته المصابيح الأمامية ذهبية اللون لسيارات الليموزين. سار ليو في تلك الجادة حيث تتواجد دار للسينما بين بناية وبناية، وعدّد لي أسماءها بستر كيتون، ولوريل وهاردي، وهارولد لويد.

قال ليو: «لا يتواجد شابلن هنا، وهو محظور بسبب فيلم الديكتاتور العظيم. هل تلاحظ ذلك؟ وكذلك الإخوة ماركس. إنني لا أفهم هذا، ويمكن للمرء أن يعتبر... ».

تمتلك الرقابة الرومانية شغفاً بالأفلام الحزينة من مثل بيارو، وكيتون ولويد، والشخصيات المأساوية والمضحكة التي تتصادم مع كمٍّ هائلٍ من الأمور، وكذلك شخصيات هاملت في زمن صعود الغرب وانحداره. يُضاف إلى ذلك أن أفلام الغرب الكوميدية تظهر شخصياتٍ مأخوذة من حياته، والتي تعكس عالماً من الوفرة، حيث تعزل السلع المادية المرء عن الآخرين وتقوم بتهميشه. أما هنا، أي في رومانيا تشاوشيسكو، فكل ما يراه المرء هو نقص السلع وغيابها، والفراغ في المساحات، وينظر إلى الوفرة المادية باعتبارها غريبة عنه مثل فيزياء رحلة بين النجوم.

صعدتُ الدرج من دون أن أعرف أمكنة مفاتيح المصابيح الكهربائية، وتحسّست طريقي بأصابعي صعوداً وسط الظلمة. لكن، ما إن دخلت الشقة حتى عثرت على سريري. لم أكترث بوضع أغطية السرير والوسائد، واستلقيت على البطانية الصوفية الخشنة. كان فمي جافاً، بينما شعرت بألمٍ في رأسي. بحثت عن وسادة، ولكنني لم أعثر على واحدة، وهكذا استلقيتُ في غرفة شعرت بأنها دوارة. تجاوزتُ حالة الثمالة، ووصلتُ إلى حالة أبعد منها.

عندما يُغيّر المرء مكان نومه عادةً، تتسبب الأصوات غير المألوفة لديه بحرمانه من النوم. أما في هذه الليلة، فإن الذي حرمني من النوم كان الصمت الذي لم أكن معتاداً عليه، والحفيف المستمر الذي لا يصل إلى حد الحركة، والسكون في شقة بيلانجر. استيقظتُ مراتٍ عدة للذهاب إلى الحمّام، أو لشرب مياهٍ غير نظيفة من الحنفية. رنّ الهاتف، لكنني لم أكن متأكداً مما إذا كان ذلك في حلمي، أو حقيقياً. لكن الرنين كان يتوقف كل مرة فور استيقاظي. تجمّعتْ في

ذهني بعد ذلك أجزاءٌ من أحداث اليوم: الطائرة، والأواني الفضية الملتمعة في كابسيا، والعينان الوحشيتان لرئيس النُدُل، لكنني تعذّبت لأنني تذكرت الوظائف التي كان بإمكاني الحصول عليها، وكل المدن التي كان بإمكاني التواجد فيها: برشلونة، أو براغ... تجمّعت صور كل واحدة من تلك المدن التي لم يسبق لي زيارتها في صورة واحدة في ذهني، وكان المكان الذي تجمعت فيه كل تلك الصور هو بوخارست؛ وهي المدينة التي لم يمرّ على وجودي فيها سوى ساعاتٍ قليلة. لكنّ بوخارست عبارة عن متاهة شرسة تعاني من الحرّ الشديد، وتذوب فيها جدرانها وأبراجها كما يذوب السكّر، وحيث تخترق جذور الأشجار الأرصفة.

نمتُ متأخراً في تلك الليلة، واستيقظتُ بعد طلوع الشمس وسط جوٍّ حارٍّ وأنا أشعر بثقل في عينيّ. انشغلتُ في أول صباحٍ لي في هذه المدينة بتسليم أوراقي إلى وزارة الداخلية. يشغل المبنى مساحة كبيرة بما يكفي لجعل الرافعات والحفارات الكبيرة المنتشرة في شوارع المدينة تبدو وكأنها عمالقة ميك انو. رأيت عدداً قليلاً من المباني القديمة التي تتواجد على طول الطريق، والتي يمكنها أن تكون غير مستقرة بسبب قدمها. لكن، هل تضرّرت أساساتها بفعل الأعمال التي تلمح إلى ضرورة هدمها؟ أعتقد أن هذه الأبنية سوف تختفي في غضون أشهرٍ قليلة. يبدو مبنى الوزارة من الخارج رمادياً وبشكل صندوق، في حين أن زخرفته الوحيدة هي شعار الحزب من الجص. أما من الداخل، فبالكاد كانت هندسته مفهومة. تذكرت عند دخولي ملصقات إيشكر التي تزيّن جدران الطلاب؛ إذ كان المبنى من الداخل معقداً بالفعل، وبدا المكان مليئاً بالدهاليز، فبيوت الدرج تؤدي إلى الفراغ أو تلتف حول نفسها، والأبواب تنفتح على أبوابٍ أخرى، والشرفات تُشرف على غرفٍ أخرى... كانت هناك في المبنى طاولات كبيرة من دون أي شيء فوقها غير أجهزة الهواتف، ومنافض السجائر، والأوراق البيضاء. وترددت الأصوات عالية بما يكفي كي تُجفِل، ولكنها خافتة جداً حيث لا

يُمكن فهمها، وسُمِعت خطوات أقدام لا يُعرف أصحابها، والذين كانوا يقتربون من دون أن يظهروا، ثم هناك الذين يصلون فجأة من دون إحداث أي صوت. أما الأصوات الناتجة عن الأنشطة غير المرئية، فكانت في كل مكان، وكأنها رفيف حشرات في الظلمة. لا أعرف سبب تذكري القلعة، الكتاب الذي ألّفه كافكا؛ وهو كتاب لم أقرأه ولكنني أعرف أنه يقع ضمن ذلك النوع من الأدب الذي يتحدث باسمك، وينزرع في مكانٍ ما في داخلك. هكذا تخيّلت قلعة كافكا.

ظهر رجلٌ بعد مرور ساعة من الزمن. أغمض الرجل إحدى عينيه، بينما فاحت منه رائحة تُذكِّر بتلك التي يشمّها المرء في الطوابق ما تحت الأرضية. أنهيت تعبئة النماذج التي أعطاني إياها، لكنني تركت خانة الأقرباء فارغة. تعمّدت تركَ هذه الخانة فارغة، وارتحت لأنها خالية ونظيفة. قلت: «لا قريب لي، حتى من بعيد». لكن الرجل أصرّ على أن أكتب شيئاً، وقال لي إنه لا تتواجد في البلاد نماذج خالية، فكتبت اسم ليو.

كانت صورتي مثبتة في بطاقةٍ صغيرة ومختومة، وهي بطاقة السماح لي بدخول المتاجر، ومحطات الوقود، والنوادي المخصّصة للدبلوماسيين من الأجانب.

أما في الخارج، فقد خيّمت سُحُب الغبار المتصاعدة نتيجة الأعمال الجارية في الجادة القريبة، أي حيث يعمل الرجال من دون وضع خُوَذٍ على رؤوسهم، ويرتدون بذلات العمل من دون قمصان تغطي صدورهم، ولا ينتعلون سوى صنادل بسيطة. جلس الجنود في هذه الأثناء على حافة الطريق، وأشعلوا سجائرهم، ووضعوا بنادقهم فوق ركبهم. وكانت الحافلات الصغيرة سوداء اللون، والتي تغطي نوافذها القضبان الحديدية تنتظر بالقرب منهم.

تواجد رجال الميليشيا في فرقٍ، حيث يبتعد الواحد عن الآخر مسافة عشرين ياردة. لاحظتُ أنهم في الليلة السابقة بدوا صغاراً ولا أهمية كبيرة لهم، أي كانوا

مجرد ظلالٍ متحركة، وكانوا يجولون بين مواطنين لا وجود لهم. لكنهم وقفوا الآن مترنحين وسط الحر الشديد، وقد ارتدوا ثياباً غير مناسبة، بينما يبدو الملل عليهم. لا يعمل هؤلاء الرجال كمراقبين فعليين، وإنما لتذكير الآخرين بوجود مراقبة شديدة في مكان آخر. أحسستُ أثناء سيري بغياب شيء ما. إذ غابت عن مسمعيَّ أصوات الموسيقى التي تتصاعد عادة من المنازل أو المتاجر، كما غابت أصوات أجهزة الراديو. لم أسمع صفيراً أو غناء، كما لم أجد مكاناً أتوقف فيه لشرب فنجانٍ من القهوة، أو لكي آكل شيئاً ما. لم أرَ كذلك أشخاصاً يقفون للتحدث مع بعضهم، أما الذين كانوا يسيرون فقد فعلوا ذلك وحدهم. لم يصدر أي ضجيج من ملاعب المدارس، لكنني شاهدتُ كشكاً للصحف يبيع مشروباً بنيّ اللون يدعى روكولا أي كولا رومانية، والسجائر، والأرومات الخضراء لأوراق اليانصيب. لكن، كان من الصعب أن يتخيّل المرء أسعارها.

لاحظتُ جلبةً عندما عدت إلى السير بمحاذاة شقّتي. وعندما اقتربت من المتجمهرين، رأيت بناية وقد بدأت بالتصدع قليلاً بالرغم من مروري بمحاذاتها ثلاث مرات من قبل وعدم ملاحظتي ذلك. كان زجاج نوافذ هذه البناية مثل زجاج كابسيا مبرغلاً وخشناً بعض الشيء. أدركت أخيراً أن هذا المكان كان تحت تصرّف الحزب بكل معنى الكلمة، ويضمّ عيادة خاصة عالية التقنية كان يرتادها زعماء الحزب وأفراد أسرهم من أجل إجراء العمليات كافة؛ بما فيها عمليّات الإجهاض والمفاصل، وحتى جراحة القلب، والعلاج الكيميائي. كان مدخل المبنى مؤلفاً من بواباتٍ حديدية، بينما يؤدي الدرج إلى شرفةٍ مزودةٍ بسقفٍ زجاجي أنيق لكنه غير شفّاف. رأيت كذلك بعض سيارات الإسعاف التابعة للحزب، وسيارات المرسيدس المخطّطة بخطوطٍ حمراء والمزودة بمصابيح إنذار دوارة.

شاهدتُ عمالاً يرتدون أزياء العمل منتشرين أمام واجهة المبنى رمادية اللون،

وكانوا يضعون طلاءً أبيض اللون فوق بعض الكتابات، في حين انشغل بعض الشبان الذين يرتدون بذلات رسمية بمراقبتهم. كانت تلك معركة غير متكافئة لأن الأحرف الحمراء ظلّت ظاهرة من تحت طبقة الطلاء الرقيقة. قرأت كلمة إيبي - ديميا بينما عملت قضبان البوابة السوداء على فصل نصفَي الكلمة، كما أن أحدهم مرّر الفرشاة فوق الكلمات فتشكّلت علامة طويلة. كان القليل من الطلاء الأحمر لا يزال بارزاً، ويبدو كما لو أنه دم يسيل في مشهد من أحد أفلام الرعب الرخيصة. كان مشهداً للعنف المقزز باللون الأحمر في مكانٍ رمادي. أسرع المارّة في طريقهم من دون النظر إلى المبنى مباشرة خوفاً من المساءلة.

سبق لي أن رأيت الكتابة على الجدران التي مرّت عليها شهورٌ من الزمن، كما رأيت آثاراً لها بعد إزالتها، لكنني لم أكن متأكداً مما إذا كنت أتخيّل وجودها أم ظهرت من تحت طبقات الطلاء القديم، لكن الأحرف ظلت باحثة عن الضوء. كانت الكلمة في كل مكان حولي، لكنها أخذت شكلاً بشرياً: الوجوه النحيلة للفقراء، ووجوه المرضى، وأولئك الذين يفتشون عن أي شيء يُمكن الاستفادة منه بين أكوام النفايات التي يرميها المجتمع الروماني. وبعد مرور عدة أيام، في مساء يوم جمعة، رأيت أثناء عودتي من العمل شابة غجرية بدا الإجهاد عليها، وكان من الواضح أنها في ساعاتها الأخيرة. كانت ثيابها ملونة، بينما تدلت قلادة من عنقها. وكانت إحدى يديها ممدودة للتسوّل، بينما كان إبهامها مطبقاً على راحة يدها المفتوحة. بقيت هذه التفاصيل الدقيقة عالقةً في ذهني لأنها الرمز الحقيقي للفقر واليأس. راقبت المشهد من عربة ترامٍ متوقفة، بينما وقف جنديان قربها حيث كانت جالسةً على الرصيف. كان البول يجري بين ساقيها وفوق المنعطف. وضع الجنديان قفازات مطاطية بيضاء اللون في أيديهما، ثم أدخلاها في شاحنة مقفلة صغيرة من نوع داسيا، لكن خطوط حدود جسدها المتعرق بقيت عالقةً على الجدار حيث لفظ جسدها آخر قطرة رطوبة منه.

كانت كلمة إبيديميا ظاهرة في أعين الشبان الشرسين والنحيلين الذين كانوا يجوبون أطراف السوق حيث المنتجات الزراعية نادرة إلى درجة أن معظم الأكشاك كانت تنهي عملها عند الساعة الثامنة صباحاً. كانت المنتجات التي اعتدت على شرائها بوفرة وبالأكياس، والتي تكون وفيرة جداً هناك، معروضة وكأنها مجوهرات، وقد وُضِعت واحدة واحدة على أطراف الطاولات الإسمنتية. رأيت ثمار الفلفل الأخضر ذابلةً وكأنها جوارب قديمة، والجزر بأشكاله المشوهة، والقليل من الخس. أما الشيء الوحيد الذي توافر بكثرة فكان الخضار المخلّلة والجذور التي بدت وكأنها أدمغة داخل مرطبانات، أو أعضاء وزوائد دودية داخل سائل الفورمالديهايد منتظرة صدمة كهربائية لتحويلها إلى أعضاء حية في جسمٍ بشري. لكن أي نوع من التيار الكهربائي سيكون كافياً لتحويل هذه الأشكال البشرية المنحنية والدمى المنكسرة إلى ثوار.

لكن، لماذا لم أرَ أنا، أو أي واحدٍ منا، أن هذا سوف يحدث؟ هل كان سبب ذلك أن ما حدث لم يكن ليحدث بالفعل إلا في وقته المحدد؟ يُحتمل أن يكون هذا صحيحاً. ولكن، بدا لي أن ليو كان يعلم بما سيحدث. إذ كان يقول: «إما أن تصمد بقوة، أو تخرج بسرعة». وكان يقوّس حاجبيه ويشير إلى شيء ما خلف الشخص، أو إلى جانبه ويُكمل: «أيهما تفضّل؟».

الفصل الثالث

يقوم الشخص الذي يصل إلى مكانٍ جديد بتسجيل كل شيء ما عدا الأشياء الهامة. يبدو الهواء خانقاً، لكن أقل التفاصيل تبدو وكأنها مليئة بالمعاني: رائحة الممرات، والخليط المثير من رائحة السجائر، ومواد تلميع الأرضية، والعرق؛ والتي اختلطت كلها معاً بسبب التهوية السيّئة، والجدران المطلية بكثافة بلون قشر البيض، واللينوليوم الممزق هنا وهناك والذي يستحيل إصلاحه، وكذلك اللوحات الإعلانية المصنوعة من الفلّين، والمليئة بالرزات السلكية، والدبابيس المتشبثة بقطع ورقية ممزقة، وكذلك زوايا الملصقات الممزقة، ومذكرات عفا عليها الزمن. بدت لي كل هذه الأشياء - وبالرغم من قيمتها المادية الضئيلة وقدمها - أكثر واقعية (هل هي أكثر واقعية بالفعل؟) من الأمور التي حدثت لاحقاً: حوادث القتل، والجماهير الهائجة، وإطلاق الرصاص والفوضى. يُحتمل أن السبب هو اعتباري أن هذه التفاصيل هي التي تحمل وزر ما تبقّى؛ وكأن كل ما نعتبره تطرفاً مرعباً كان نائماً طوال الوقت، أو كأنه على بعُد فكرة منا، أو انعطافة خاطئة للعقل.

وصلت في أول يوم إلى الجامعة، وأرشدني حمالٌ كبير في السن إلى مكتبي. رأيت اسم ميكو مكتوباً على بطاقة تعريفٍ بلاستيكية، وكان يرتدي بنطالاً رمادي اللون وسترةً زرقاء مثقلة بالأوسمة والشُرابات. بدا صدره جداراً مزيّناً بشكلٍ يتباين مع وظيفته الحالية، أو على أية حال وضعه الحالي. لم أعرف في ذلك الوقت ما إذا كان جندياً مميزاً، أو عاملاً منتِجاً في مصنع، أو مجرد شخصٍ تمكّن من الوصول إلى العمر الذي يُعتبر إنجازاً بحد ذاته في رومانيا. لكن، إذا استمرت توقعات الأعمار في الهبوط بالنسبة ذاتها التي كانت عليه في العقد الماضي، فإن

ميكو يستحق ميداليته بالفعل، ولا بد من أنه وصل إلى عمر الثمانين على الأقل. اعتادت الحكومة منح ميدالياتٍ وشهادات كثيرة للأمهات البطلات، أي اللواتي أنجبن خمسة أولادٍ أو أكثر، والعمّال الأبطال (الذين يعملون ثلاثة أيام من أصل أيام الآحاد الأربعة في الشهر)، أو إلى فلاحي الأرض الأبطال، وهكذا كان يندر وجود الأشخاص الذين لم يحصلوا على ميدالية في البلاد.

كان ميكو يتحرك بسرعة، وذلك بالرغم من عرجه الذي جعله يبدو وكأنه يجتاز عقبات منتظمة؛ وإن كانت غير مرئية. لاحظت أن سيجارة رطبة ومن دون مرشح (فلتر) تلتصق بشفته السفلى بمزيجٍ شديد اللزوجة من اللعاب والقطران. كانت عيناه دامعتين ومنتبهتين. أعطاني الرجل المفتاح، وأشار إلى اللوحة التي تدل على اسم بيلانجر المثبتة على الباب، ثم حرّك يديه بإيماءاتٍ سريعة للدلالة على أن هذه اللوحة سوف تُزال في وقتٍ قريب وسوف تستبدل.

رأيت آلة كاتبة قديمة فوق الطاولة، وكذلك ملصقاتٍ قديمة عن رحلاتٍ لا أعتقد أن أياً من الطلاب قد قام بها، وكانت مثبتةً بالجدار بواسطة شريطٍ لاصق جفّ تماماً. رأيت كذلك صوراً تمثّل شخصيات شهيرة من الأدب الإنكليزي، مثل شكسبير وديلان توماس وفرجينيا وولف. لاحظت أيضاً ورقة ملاحظة لاصقة صفراء اللون ملصقةً على جهاز الهاتف. كانت بعض الأرقام الهاتفية المحلية مكتوبةً على الورقة، ولكن من دون ذكر أسماء أصحابها. نزعتُ الورقة من مكانها وألصقتها على النافذة، ثم رفعتُ سماعة الجهاز الذي كان بلا حرارة.

سمعت صوت عمل آلةٍ كاتبة كهربائية سريعة في الغرفة المجاورة لغرفتي. وسمعت كذلك صوت إرجاع الطابعة إلى الخلف، ثم إلى الأمام بنقراتٍ متسارعة. سمعت بعد ذلك الصوت الناتج عن جعل الورقة كروية الشكل، وتبع ذلك على الفور صوت ارتطام تلك الورقة بسلة النفايات بسرعة صاروخية قبل أن تتدحرج على الأرض. سمعت بعد ذلك كلمات غير مفهومة المعنى باللغة

الإنكليزية، وتبعتها بعد ذلك كلمات باللغة الرومانية، ثم سمعت صوت الطابعة على ورقةٍ أخرى. كان ليو يعمل على الآلة الكاتبة بالطريقة ذاتها التي يقود بها سيارته.

ذهبت لزيارة رئيس الدائرة البروفيسور يونيسكو للمرة الأولى؛ وهو رجلٌ دمثٌ ذو وجهٍ دائري الشكل، ولكنه يخفي وراء ملامحه ميلاً إلى الصراع الشرس على النفوذ تحت حجابٍ من الشرود. أما مساعِدته روديكا أورليان، وهي سيدة حامل في شهرها الثالث، فقد بدت عصبية المزاج ولا تتغذى كما يجب، وكانت تقاوم نزول الدموع من عينيها على الدوام. ابتسمت روديكا، ورحّبت بي ودعتني للدخول، ثمّ بذلت ما بوسعها لطمأنتي.

كان يونيسكو خبيراً متمكناً، وهو الذي أشرف على عملية الصرف الجماعية التي جرت قبل عامين من الزمن، أي عندما تمّ تجديد الدائرة الإنكليزية في الجامعة بشكلٍ شامل. أما رئيس الدائرة السابق والذي كان باحثاً ماركسياً بارزاً فقد أصبح مساعداً في مختبر كلية الكيمياء. كان الأساتذة الجامعيون السابقون يزورون مباني الجامعة بشكلٍ دائم، وكانوا مجرد أشباح يعملون بالأجور الدنيا لإزالة الغبار عن زجاج نوافذ غرفة المحاضرات التي كانوا يحاضرون فيها سابقاً، أو يقومون بتلميع الأرضيات راكعين على أطرافهم الأربعة بينما يقفز زملاؤهم اللاحقون من فوقهم. أفادت دعابة قديمة بأنه بالإمكان العثور على المثقّفين الحقيقيين بين عمال النظافة في جامعات رومانيا. كانت هذه الدعابة تشبه كل الدعابات الشائعة عن الكتلة الشيوعية، وكانت أقرب إلى رمزٍ لتلك الكتلة منها إلى المبالغة في وصف واقع الحال.

لكن ما يدعو إلى الدهشة كان أن أحداً لم يكنّ شعوراً عدائياً إزاء يونيسكو. رأيته ذات مرة مع سلفه في الوظيفة الذي كان مرتدياً زيّ عمل رسمياً أزرق اللون، وكان يتحدث بمودة ويصافح الناس في الشارع. لكن ليو سبق له أن

حذّرني بـأن الناس ليسوا منفصلين عن أفعالهم، كما أن أفعالهم كانت مثل الجسم وظلّه في وقت الغسق. كان ذلك نوعاً من الوجودية المعكوسة التي تفيد في إعطاء سارتر وأتباعه مسألة للمناقشة.

رحّب بي البروفيسور ودعاني إلى مكتبه. كانت الواجهات الفرنسية الكبيرة في غرفته تنفتح على شرفة تطل على الأفق الذي تخترقه الرافعات والسقالات الكبيرة. أما في الأسفل، فكان بالإمكان رؤية حفرة كبيرة حيث يتم تشييد محطة المترو الجديدة. لكنّ أحداً لم يكن يعمل فيها في هذا الوقت، كما أن سلسلة من الأشرطة الحمراء كانت تقوم بفصل الموقع عن السيارات والمارة. كان هذا الموقع يشبه مكاناً لتجميع الحطام، والذي يخترق عمق المدينة. لكن هذا المنظر كان مألوفاً في المدينة، ولم يكن من المستغرب أن يبدأ العمل في مبنى بشكلٍ مفاجئ، ثم يُترك بعد ذلك بشكلٍ مفاجئ كذلك. كان ذلك يجري نتيجة لإرادة تقوم بتحريك مئات الرافعات والحفارات والجرافات، وعشرات آلاف العمال، والأطنان من الإسمنت؛ والتي تجسّد كلها تلك الإرادة... التي سمّاها نيتشه إرادة السلطة.

أما الجهة الأخرى من واجهات مكتب يونيسكو فقد تواجدت فيها لوحاتٌ معلقةٌ تمثّل نيكولاي وإيلينا تشاوشيسكو وقد اعتمرا فيها القبعات وارتديا المعاطف الجامعية، كما تظهر الأيقونات التي تحيط بمذبح. وضع يونيسكو إحدى ذراعيه حول كتفيّ وأشار إلى المنظر، ثمّ أومأ بما يشبه طقس العبادة العلمانية لبوخارست الجديدة، وللقديسين الذين يشرفون على إقامتها.

دُعيت إلى الجلوس، ثم قدّمت لنا روديكا الشاي. تناول يونيسكو جرعةً من الشاي المحلّى والخالي من الحليب، أي على الطريقة التركية.

أشارت الساعة إلى التاسعة صباحاً، وكان الرجل مستمتعاً بالنشوة الصباحية.

كانت حالة الظهيرة من المزاج الجيّد للرجل تأتي لاحقاً (كان ذلك أفضل وقت لطلب أي شيء منه)، لكن حالة من الهبوط كانت تأتي بعد ذلك، والتي نتنحّى خلالها جميعاً عن طريقه.

وصل يونيسكو إلى صلب الموضوع بعد هذه المراحل القليلة من التعارف الاجتماعي؛ أي رحلتي، وشقتي، وانطباعاتي الأولى. كانت لغته الإنكليزية ممتازة، ولكنها مليئة بإعادة صياغاتٍ لعبارات معروفة. حذّرني ذات مرة مشيراً بإصبعه، ومحاولاً أن يكون ودوداً معي إلى أقصى درجة، بأن المرأة الجميلة تحصل على ما تريده بمجرد تحريك عينيها. وتجادل في وقتٍ لاحق اثنان من زملاء يونيسكو حول مكاتب جديدة، ولكنه اقترح حلّ المسألة بواسطة الطرة والنقشة.

«سأطلب منك التعريف بطالبةٍ مجتهدةٍ، وفتاة طيبة». نزع يونيسكو نظّارته وقدّم لي نموذجاً من فوق طاولته، وكان هذا النموذج عبارة عن طلب منحة لمدة أسبوعين من الزمن في إحدى الكليات البريطانية. كان الطلب معبأً بالكامل ومصدّقاً من قِبَله. لاحظتُ أن شخصاً ما قد سمح لنفسه بكتابة اسمي في النموذج بصفتي المدرّب الإنكليزي للمرشحة. ولم يكن عليّ سوى التوقيع.

«لكنني لا أعرف أحداً هنا يا بروفيسور، وهذا هو يومي الأول في العمل. فكيف بإمكاني كتابة توصية؟ لم ألتقِ إلا ليو... ».

«أجل بالضبط، لأن اليوم الأول يوم مناسبٌ مثل أي وقتٍ آخر للتعرّف على المكان. طلبت من روديكا تعبئة النموذج لكي نوفّر عليك مشقة تعبئته. لا يُطلب منك سوى... ما هي العبارة المناسبة؟ وضع توقيعك».

نظرت إلى النموذج الذي كان يحمل اسم امرأة، وكان كاملاً ما عدا توقيعي. لم يسبق لي أن سمعت باسم هذه المرأة التي تحمل اسم سيليا قسطنطين، كما أن اسمها لم يكن وارداً في قائمة طلابي. كانت توصيتي مطبوعةً بوضوح باللغة

الإنكليزية التي يُتقنها يونيسكو، كما احتوت على ثناءٍ حار على طالبتي المزعومة.

قلتُ متعمداً إظهار اعتراضي: «لكنها ليست من ضمن طالباتنا». كان تصرفي ذاك علامة على ضآلة فهمي لأصول الهيمنة، وذلك إلى حد أنني ظننت أنني أتخذ موقفاً. أما عينا يونيسكو الخبيرتان فقد اعتبرتا هذا إذعاناً مسبقاً مني. إن مجرد دخول المرء في جدالٍ مع أشخاصٍ مثل يونيسكو يعني الإذعان لهم سلفاً.

«الأمر ليس كذلك... ».

يا لهذا الجواب المراوغ الذي يوحي بالمرونة! لا أعرف كم من المرات سمعته لاحقاً؛ سواء أكان من يونيسكو، أو من ليو، أو من آخرين كُثُر في الظروف العادية التي لا تحمل إلا القدر القليل من احترام القانون، والخالية من الأخلاق. لم يمضِ وقت طويل حتى بدأتُ باستخدام هذا الأسلوب بنفسي.

في البداية، أظهرتُ بعض المعارضة، وقلت إن الأمر ليس أخلاقياً من الناحية المبدئية. يُضاف إلى ذلك أن كل ما كان عليه فعله هو توقيعه بنفسه لأنه هو الذي أملاه شخصياً. قلت: كلا، الأمر غير جائزٍ، ونقطة على السطر. إن هذه الأشياء لا تحدث في بلادي... حاولت استخدام بعض العبارات الرزينة التي تعبّر عن الاستقامة، والتي بدت لي مناسبةً جداً، لكنها لم تكن عباراتي.

غيّر يونيسكو أسلوبه معي، وقال: «أخبرني الدكتور أوهاي بأنك كنتَ ممتازاً في مقابلة لندن». وابتسم قليلاً، ثم قرّب النموذج مني. هل كذب عليه ليو، أم أنهما اشتركا معاً في كل ما يجري؟ أم هل كانت هذه طريقة يونيسكو ليعرّفني بأنني أتيت إلى هنا نتيجة مقابلةٍ وهمية، وهكذا أدين له بمتابعة تقليد المقابلات الوهمية؟

اقترب مني عندما وقّعتُ النموذج، ووضع ذراعه حول كتفيّ. بدا وكأنه يرحب

بانضمامي إلى أحد النوادي. «أشكرك كثيراً. والآن هيّا، لا أريدك أن تبدو وكأنك مشغولٌ كثيراً لأنك برهنتَ بأنك شخصٌ شديد الأهمية». نادى يونيسكو روديكا لترافقني إلى الخارج، أي كما يفعل نادل في أحد المقاهي عندما يريد طرد أحد الزبائن الذي أنهى شرابه، ولم يعد مرغوباً فيه.

كان توقيع رسالة التوصية لشخصٍ غريبٍ عني تماماً مجرد تلبية لرغبة حزبية، وكان من المفترض أن أشعر وكأنني قطعت نوعاً من أنواع الحدود، كما كان من المفترض بي أن أشعر بأنني منشغلٌ أكثر. لكن هذا لم يحدث لأنني توقفت عن التفكير في الأمر.

بدأتْ حياتي تأخذ شكلاً محدّداً: السير إلى مكان العمل، واستراحة الغداء الطويلة والتي تتعدى حدود غداء قصير، ثمّ العودة سيراً إلى المنزل، وفترة القراءة المسائية. لكن ليو جعل من المستحيل عليّ الشعور بالوحدة، وكان لديه على الدوام شيء ما ليريني إياه، وشخص ما يتعيّن عليّ الاجتماع به، وجولات استطلاعية لأجزاءٍ جديدة من المدينة والتي وردت في كتابه عن بوخارست. شعرتُ لدى عودتي إلى الشقة كل مساء بوجود أشياء كثيرة يتعيّن عليّ العودة إليها: إلى نفسي، وإلى الأشياء التي ستشغلني في حياتي ومهنتي. عملت بكل اجتهاد لتعلّم اللغة الرومانية، وأحببت الطلاب، واستمتعت كثيراً بالتحضير لصفوفي. ووضعت شهادتي الجديدة داخل إطارٍ وعلّقتها على الجدار. وعدا ذلك، تركت شقة بيلانجر كما كانت عليه لأنها ناسبتني كثيراً.

لم أضطر إلى الانتظار كثيراً كي أشهد ظاهرةً تُعرف باسم مواكب المرافقة. لكنني اعتدتُ عليها في النهاية إلى درجة أنني بالكاد لاحظتها بعد ذلك، حتى إنني شاهدتها مراتٍ كثيرة لدرجة أنني تجاهلتها عندما سمعت تحرّكها ذات صباح من شهر كانون الأول، وبعد مرور ثمانية أشهر. كان ذلك آخر موكبٍ سمعته لتشاوشيسكو، وفشلت في الإصغاء إليه. فقد أزيح الرجل عن السلطة بعد مرور

ساعاتٍ قليلة، واستلقى على الرصيف مثل كلبٍ مقتول، لكنني شاهدت ذلك المشهد الذي أُعيد عرضه إلى ما لا نهاية على شاشات التلفزيون على بُعد مئات الأميال داخل ما يُعتبر غرفة انتظار أوروبا. كان من الصعب إضفاء هالة من المشهدية الأخيرة على أصوات صفارات إنذار الموكب الأخير، وهي التي كانت مختلفة عن كل ما سبقها من مواكب.

كانت حركة السير تتوقف في الطرقات، ثم لا تلبث الحفارات والرافعات أن ترتعش أصواتها قبل أن تتوقف تماماً، وكأنها حيوانات تستشعر خطر الموت. كان الرجال الذين يرتدون بذلات يظهرون على الفور، وأعني بذلك أنهم يظهرون من كل مكان، ويخترقون صفوف الذين ينتظرون الحصول على المواد الغذائية. كان المرء يضطر إلى الانتظار عشر دقائق أو عشرين دقيقة، أو حتى نصف ساعة... ثم لا تلبث أصوات صفارات الإنذار الآتية من بعيد - والتي تكون خافتةً في البداية قبل أن تقوى أكثر فأكثر - أن تجبره على سدّ أذنيه. أما الموكب فكان يتألف عادةً من ست سيارات متماثلة من نوع داسيا سوداء اللون مع نوافذ سوداء. أما إذا أراد أحد الشخصيات الأجنبية زيارة بودابست، فكانت شاحنات مقفلة تابعة للشرطة تقوم بتفريغ السلع وعرضها في واجهات المحلات. كانت تلك السلع تشتمل على الخبز والخضار، وشرائح اللحوم، والفواكه التي كاد الناس ينسون وجودها. كانت السيارات تتمهل أمام هذه الواجهات من أجل استيعاب المنظر. أما بعد انصراف الزائرين، فكانت الشاحنات المقفلة ذاتها تعود لتحميل السلع ذاتها إلى المتاجر الخاصة بالدبلوماسيين ومسؤولي الأحزاب. لكن، إذا كان الموكب يضم عائلة تشاوشيسكو فقط، كانت السيارات تسير في الشوارع الخالية بسرعة مئة كيلومترٍ في الساعة. كان تشاوشيسكو وإيلينا لا يحبان رؤية مواطنيهما في صفوف الانتظار. وهكذا، كان من الواجب إخفاء كل مظاهر حاجة الناس، وكل مظهرٍ من مظاهر نفاد السلع. لكن في الوقت ذاته،

وفي أماكن أخرى في بوخارست يتكرّر المشهد ذاته: صفارات الإنذار، والسيارات، وموكب تشاوشيسكو. كانت سيارته، وسيارات التمويه الأخرى تختال في أسوأ ديكتاتوريات أوروبا، بينما كانت إحدى السيارات مخصصة لكلب تشاوشيسكو، كما أنه امتلك كلبين بديلين؛ وهو الأمر الذي اجتذب نكتة لا يمكن لأي شخصٍ كان أن يرويها، وتدور حول عالمٍ لا تتساوى قساوته إلا مع سخافته.

كنت محجوباً عن مرارة الحياة اليومية حتى وأنا أتعمّق فيها، وبدا لي أن أسهل الأمور بالنسبة إلي أن أفصل نفسي عما يحدث من حولي. سبق لي أن أجريت قدراً كبيراً من التمارين قبل مجيئي إلى هنا. يُحتمل أن هذه كانت المهارات الخاصة التي ذكرها ليو عندما واجهتُه وسألته بصراحة عن سبب انتقائه لي. لكنني وجدت صعوبة بالرغم من هذا في تفسير ذلك الفصل العميق بيني والحياة التي تحيط بي مع ما يرافقها من ترددات القمع، أو العنف الروتيني. هل يصعب تفسير هذا الوضع؟ هذا صحيح بالنسبة إلى الآخرين بكل تأكيد، لكن العيش في ظل هذا الوضع ليس صعباً. يضع القمع قواعده الخاصة به، ويخرج منتصراً في كل يوم، وهو يطفو على سطح وجودنا، ولا يلبث وجودنا أن يُطبق عليه، ويتغيّر، أو لا يتغيّر بالعنف الموجود في الداخل.

لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن أبدأ بالتسوّق من المتاجر الدبلوماسية، والسباحة في النادي الدبلوماسي، وممارسة كل ما هو معتاد في أوساط الأحزاب الغربية. اعتدت كذلك على الذهاب إلى المقاهي المشابهة لتلك الموجودة في الغرب، وحيث تقدّم مشروبات الكوكتيل المشابهة للكوكتيلات الأميركية، والتي يقدّمها نُدُلٌ يشبهون زملاءهم في أميركا. وهكذا، اعتدت على ازدواجية المكان وتقليده ما هو موجود في الغرب.

تقلصت كثيراً اتصالاتي مع الوطن، ويعود ذلك غالباً إلى عدم استخدام وسائل الاتصالات. لكن الخدمات البريدية الرومانية، وشبكة الاتصالات الرومانية

ساعدت على ذلك. لم أقطع أبداً اتصالاتي مع الوطن، لكنني لم أقصد ذلك أبداً. كان الأمر أشبه ما يكون بوجودي على متن قارب يبتعد شيئاً فشيئاً عن اليابسة إلى أن لا تعود مرئية. واظبت في هذه الفترة على مراسلة فتاة كنت أعرفها من الجامعة، لكن هذه الرسائل استقرت على تبادل عتاب خالٍ من العاطفة بين الحين والآخر، وما لبثت أن خلت من المضمون، ثم انقطعت المراسلة بالكامل. أما بالنسبة إلى مراسلاتي مع أصدقائي، فإن حياتنا اختلفت كثيراً إلى درجة أننا بالكاد كنا نتحدث عن العالم ذاته في رسائلنا. في تلك الفترة، سمح لي يونيسكو باستعمال جهاز الفاكس في مكتبه، وذلك عندما أردتُ مراسلة أحد الوسطاء الذي كان وكيلاً عما أسماه والداي التركة، وكذلك مع المورّث والورثة، وهي مؤسسة تعنى بشؤون نقل الملكية. كان من المفترض بي الإشراف على المعاملات بعد إتمامها في شهر تموز. وكانت تلك مهمة خشيتها أكثر من كل رجال الميليشيا، والعملاء الأمنيين، والكلاب البوليسية في رومانيا، وذلك لأنني إذا أصبحت حراً، فإن ذلك المنزل سوف يبقى بمثابة المرسى الذي يشدّني إلى الوطن.

لم يكن بإمكاني الشعور بالحنين إلى الوطن، على الأقل ليس بعد حيازتي ذلك المنزل. لكن، كان من الممكن أن أشعر بأنني مقتلعٌ رغماً عني، وأنني نُقِلت إلى مكانٍ آخر؛ وعلى الأخص في تلك الأسابيع الأولى. أم لعلّي كنت خائفاً، لكن الفضول هو الذي سيطر عليّ بدلاً من ذلك. كان انعدام الخيارات متوازناً هنا مع حقيقة أن كل ما يفعله المرء كانت له عواقب محددة. أبلغني ليو ذات مساء: «سوف تحب هذا المكان؛ لأن هامش المناورة ضيقٌ وعميقٌ جداً... » عرفت ذلك من اللحظة التي وطئت فيها قدماي ذلك المدرج اللزج في مطار أوتوبني.

عندما تركت المنزل في العام 1987 للالتحاق بالكلية في شهر تشرين الأول، وبعد انتهاء الإضراب في واينبيغ، لم أشعر بالحرية، بل بالانجراف بعيداً وراء قناعٍ

زائفٍ ولكنه مقنعٌ بما يكفي لخداعي خلال الأشهر القليلة الأولى. اعتقدت أيضاً أن الجامعة ستجعلني أسير في طريق تحقيق أمنيات والديّ. إذ أراد والدي أن يصبح صحفياً، وأرادت والدتي أن تصبح معلمة. كان من الممكن لهما أن يحققا أمنيتيهما هاتين لو أنهما من جيلٍ مختلف، وبالتأكيد لو كانا من طبقة اجتماعية مختلفة.

كانا قريبين، على الأقل بالنسبة إلى القرب الجسدي، لكنّ قربهما كان من النوع الذي يُظهر مسافة لا يُمكن قطعها: فهو قد عمل في أعمال الطباعة، أما هي فكانت تعمل كمساعدة عند الطلب، وتنتقل من مدرسة إلى مدرسة بحسب عقود قصيرة الأجل مع المجلس. عملت والدتي مرتين في مدرستي لفترة أسبوعين في كل مرة. أتذكّر ذات مرة أنني رأيتها خلال استراحة الغداء، وكانت تأكل شطائرها من علبة. كانت تجلس وحيدة، وبعيدة عن زملائها الذين يعملون بدوامٍ كامل، والذين كانوا يتضاحكون ويدخّنون معاً. ارتعشت يداها في ذلك اليوم - لأنه بدأ حربه معها، ومضايقته العدائية والمستمرة لها، والتي تنم عن استصغاره واحتقاره لها - ثم تطلعت نحوي، وابتسمت بخجلٍ من فوق شطيرتها. بدت في ذلك الوقت ضعيفة ومثيرة للشفقة. لكن، لا مكان للشفقة في المدرسة، ولهذا تطلعتُ نحوها وتجاوزتها.

«أليس هذا ابنك؟». سمعت أحدهم يسألها من خلفي. لم أسمع جوابها أبداً.

لم نتحدث في ذلك اليوم عما فعلتُه، ولم نتحدث عن الأمر إلاّ بعد مرور سنة من الزمن، أي في عيد ميلادي الثاني عشر. جاء والدي من عمله باكراً في ذلك اليوم وبدأ يتناول الشراب، وكانت أمي قد اشترت لي هدية عبارة عن نموذج طائرة فبدأتُ في تجميعها على الفور. جلسنا بصمت: أنا مع علبة الغراء والقطع البلاستيكية، وهو مع صحيفته وسجائره وكوب شرابه، أما هي فكانت شاردة كعادتها ومحاولةً ألا تتحرك كي لا تجذب انتباهه لها كما يحصل دائماً. بدأ كل

شيء من جديد: الإهانات، واللعنات، والاتهام بالغباء والتطفّل، وافتقادها إلى الجاذبية والبشاعة، والقول لها إنها امرأة مرتعشة لا فائدة منها.

نهضتُ مقترباً من عينيه، وبينما كانت يده اليمنى تصفع وجهي، أسرعت إلى عضّ إصبعه. وهكذا، ملأت الدماء فمي، بينما شعرتُ بيده اليسرى تشد شعري وتُرجع رأسي إلى الوراء. انتزع إصبعه من بين أسناني، ولكَمني في عنقي بالقدر الكافي من القوة ليطرحني أرضاً، وجهدت كي أتنفّس مثلما يفعل شخص غارق. عندها، وقف والدي وبدأ يرقص ضاحكاً علينا، ثم غادر المنزل. ولكنه قبل رحيله سحق بقدميه نموذج الطائرة الذي كنت قد أتممتُ نصفه، ثم ركل شظاياه فوق السجادة. عانقتني والدتي، وكان كل ما استطعت فعله لها هو الاعتذار عن تجاهلي لها في المدرسة في ذلك اليوم. كرّرتُ اعتذاري لها في حين تظاهرت بأنها لم تلاحظ الأمر، أو أنها نسيته بالرغم من تأكّدي بأنها لا تزال تتذكره. عرفت كذلك أن هذا الأمر قد سبّب لها الأذى، وربما أكثر من أي شيء فعله والدي معها. قرّبت وجهي من عنقها، وشممتُ رائحة مرهم الوجه الذي تضعه في الليل، وكذلك رائحة مسحوق الغسيل الذي تستخدمه في غسل ملابسها، وكذلك رائحة عرقها الناتج عن كبت خوفها. حبستُ دموعي رافضاً البكاء. لكن، لِمَن أبكي؟ لم أرغب في البكاء من أجلي أو من أجلها؛ لأنني اعتقدت أنني إذا فعلتُ فلن أتوقف عن البكاء أبداً.

اعتبرت والدتي أن التحاقي بالجامعة سيكون نوعاً من التعويض الذي تستحقه. أما والدي فقد اعتقد أن التحاقي بالجامعة هو استحواذي على شيء كان يستحقه هو. يُحتمل أن الأمر كان ذاته لكن من زاوية أخرى.

حصلتُ على منحة وما يكفي من المال، وهكذا أصبحت مكتفياً مالياً للمرة الأولى في حياتي. لكنني شعرت بالخجل من هذا الوضع؛ لأنني حصلت على المقدار ذاته تقريباً الذي يحصل عليه والدي في عمله، كما حصلت على أكثر من

حصته.

درستُ العلوم السياسية؛ مع أن كلمة دراسة ليست الكلمة الدقيقة، لأنني كنت أحضر المحاضرات عن النظرية السياسية، ومنها تعلمت الشعارات وأهملت ما وراءها. أقحمت نفسي بعد ذلك في ما بدا لي أنه حياة في ذلك الوقت. وقد وصل بي الأمر إلى حدّ قيامي ببيع صحيفة العامل الاشتراكي خارج مراكز التسوّق حتى مللت من الحقد والغضب، ومن نشر الصحيفة عقيدة المواجهة التي تخفي وراءها تحيّزها الكامل. فضّلت في ذلك الحين التعرّض لإهانة المارة الذين لا يشترون الصحيفة بدلاً من الشعور بالذنب تجاه العدد القليل من الناس الذين كانوا يشترون الصحيفة من دون قراءتها إطلاقاً، والذين كانوا يعمدون إلى دسّها في سلال النفايات بعد ابتعادهم عن مكاني، وذلك عندما كانوا يظنون أن أحداً لا يراقبهم.

لكن عندما أيقنت أننا نتعلّم السياسة ليس بهدف إعادة تصوّر العالم، بل على العكس من ذلك، أي من أجل استمرار تبريرنا لوجوده على هذه الشاكلة وليس لأمرٍ آخر بتاتاً، قررت التحول إلى دراسة تاريخ الفن. وهكذا، أمضيت أيامي في زيارة المعارض الفنية وقراءة الكتالوجات. وأحب أن أقول في هذا المجال إن هذه القراءات قد أفادتني بشيء غير محدد، والذي كان في طور التحقق في داخلي؛ أي الرغبة في الجمال وفهمه من دون الحاجة إلى تملّكه أو كسره، وأعطتني كذلك الفرصة للتحدث عن المشاعر القصوى من دون التعريف بأنها مشاعري الخاصة. يُحتمل أن يكون كل ذلك مجرد جزء من الحقيقة، لكنّ ما استمتعت به بالفعل في تلك الفترة كان كبرياء والدي لأنني استهلكت وقتي وماله، وهو الذي كان يعتبر نفسه التجسيد الحي لشخصية المسيح الحديث. كان هو دافع الضرائب في وظائف وضيعة لا طائل منها، والشارد ذهنياً على الدوام. عدت من الجامعة في إحدى إجازات نهاية الأسبوع، واستجمعت

شجاعتي أثناء تناول طعام العشاء للحديث عن إحدى اللوحات الفنية، واستخدمت أثناء الحديث كلمة رائعة. عندها، لفظ والدي طعامه، ومسح فمه بمنديل، ثم غادر المائدة.

أمّا أهم ما حدث معي في سنتي الأولى، والتي أصبحت الأخيرة في الجامعة، فقد كان تمضيتي ليلة في زنزانة أحد السجون، وذلك لأنني دفعت أحد الركاب إلى الأرض لأنه بصق على كتابي، بينما كان يخطو فوقي في ساحة مترو ترافلغار. تطلعت إلى الأعلى ورأيته مبتسماً، وكان على ما يظهر صاحب عملٍ حر، وثيابه أنيقة مع ربطة عنق مضحكة من أيام عقد الثمانينيات. ويبدو أن الرجل الذي حمل حقيبة يدوية كان مغرماً بإظهار فردية معتدلة من دون أن يؤدي ذلك إلى الإضرار بسمعته بوصفه لاعباً ضمن فريق. جذبتُ ربطة عنق الرجل التي كانت بشكل كرات الروغبي وزجاجات الشراب فوق بساطٍ أخضر. وحين اقترب رأسه مني، أجبرته على وضع وجهه على الأرض. رفع الرجل شكوى ضدي بسبب اعتدائي عليه، كما تمكّن من إحضار شاهد. وهكذا، حمل سجّلي العدلي تحذيراً من تكرار فعلتي هذه. كانت الحادثة فعلاً طائشاً ومُضِراً بي، وكان تصرّفاً جعل الناس من أمثالي يظنون للحظة أنهم الرابحون؛ وهو أمرٌ أعطانا مجالاً إضافياً للفخر في الملهى، أو عند الوقوف في الصف. كان ذلك أول فعلٍ عنيفٍ قمت به. أما الأمر الذي شكّل وسط الطريق نحو السقطة الأولى فقد كان طريقة توصيفه للأمر؛ وهو الأمر الذي فضح في ذلك السياق الطريقة التي ينظر بها إلى العالم.

دخل والدي المستشفى بعد ذلك بأشهر قليلة، وكان قد مضى عامٌ كامل على صرفه من العمل، وهكذا اعتمد على الإعانة الحكومية وبعض المساعدات. اختلطت الدماء مع سعاله، وانهار أثناء تواجده عند بائع الصحف، ثم اتصل بي من المستشفى. رأيت عند وصولي أحد جيراننا وقد أحضر له ثوباً طبياً، وحذاءً خفيفاً، وكيساً يحتوي على بعض القطع النقدية من فئة بنسين من أجل

اتصالاته الهاتفية. كان المساعد الطبي في انتظارنا، ويُحتمل أن الطريقة التي شرح بها عن السرطان باستخدامه تعابير مثل خلايا متنافسة، والنمو غير المنضبط، والاستحواذ العدائي»، هي التي أوحت بأنه لم يكن يتحدث عن جسمٍ بشري بل عن سوق أسهم. يُحتمل كذلك أنه ظنّ أن هذه هي اللغة الوحيدة التي نفهمها.

كان ليو يأمل أن أكون فارغاً من المضمون في شخصي مثلما كنتُ في المقابلة. أعتقد أنني استوعبت صدمة وصولي إلى هذا المكان؛ لأنه زعم بأنه دُهش من الطريقة التي تكيّفتُ فيها مع الحياة في هذه البلاد. اكتشف الرجل أنني لم أشعر بالرهبة من أي شيء، وذلك بالرغم من أن غرابة الحياة الصارمة في بوخارست لم تصدمني بفضل إحساسي بأنني دخلت كياناً تمكّنت من تفصيله في ذهني: الشقة المليئة بالملابس التي تناسبني، والكتب والأسطوانات التي كان من الممكن أن أختارها بنفسي، والصور التي كان من الممكن أن أختارها بنفسي لتعليقها على جدران غرفتي، وكذلك وظيفة أناسبها بالرغم من أنني لم أتخيّل أبداً طبيعتها وما تنطوي عليه، وهي التي مُنحت لي لأنني لم أبذل جهداً للحصول عليها على الإطلاق. كان هناك ليو أيضاً، وهو الذي تمكّن من ضغط عشرين سنة من الصداقة في محادثة امتدت لفترة خمس دقائق فقط. وخرجتُ من أول أمسية لنا معاً بشعور وكأنه زُرِع في وعيي ماضٍ غني ومتماسك، وحيث إن صداقتنا قد سبقت اجتماعنا؛ وكأنها بدأت قبل أن أولد.

امتلك ليو أسباباً وجيهة لرغبته في أن أكون مرتاحاً هنا؛ وهو الذي كان رجل السوق السوداء الأول في بوخارست، وامتلك شبكة واسعة تتألف من موظفين فاسدين، وزبائن أكثر سوءاً منهم. تعاملت تلك الشبكة في مختلف أنواع المشروبات، والسجائر، والملابس، والمواد الغذائية، والعملات، والأشياء القديمة. كان الرجل محتاجاً إلى تغطية بشرية، أي إلى رجلٍ مستقيم، وهكذا كنت

مسروراً بالتعاون معه. وفي المقابل - بالرغم من أن ليو لا يحب كلمة في المقابل - قدّم لي صداقته غير المشروطة.

لم يتأخر ليو عن تخزين مواده المهرّبة في خزائن شقتي. إذ كان يقوم بتوزيع سلعه في مخابئ انتشرت في كل أنحاء المدينة، وفي شقتي، وكذلك في ثلاثة من أكثر أحياء بوخارست اكتظاظاً بالسكان، والتي تحتوي على نقاط شحنٍ مناسبة. لكن بالرغم من مواجهاته مع السلطات، كان ليو فوق القانون وتحته في الوقت ذاته، وكان زبائنه أكثر نفوذاً في العادة من الذين يلاحقونه، ولم يكن يعجزه تحويل أي محققٍ إلى زبون.

اعتاد ليو تزويد السفارات بالعملة الرومانية مقابل السلع الفاخرة مثل الشراب، أو فوا غراس، والثياب من دور الأزياء، وأي شيء يُمكن استبداله أو بيعه. كان أولئك الزبائن يدفعون له في بعض الأحيان بسلعٍ مثل آلات التصوير أو القبعات أو آلات تجفيف الشعر، لكن لم يكن يقبل أي شيء لا يمكنه بيعه أو مقايضته. كان ليو هو الذي يزوّد الدوائر الحكومية بالشراب الاسكتلندي، وكان يشتريه بأسعارٍ رخيصة ويبيعه بضعف ثمنه إلى موظفي الوزارات الذين يستحوذون على سلع رؤسائهم الفاخرة. اعتاد ليو على التعامل مباشرة مع نخبة قليلة من الزبائن، مثل وزير النقل الذي كان مصدره للحصول على قسائم الوقود، وكذلك وكيل وزارة الثقافة، ونائب وزير الداخلية، أو حتى مانيا قسطنطين الذي عرفتُه قبل وقتٍ طويل من التقائي به. امتدت شبكة معارف ليو في كل أنحاء بوخارست، وكان أفرادها يتواصلون بطرائق سرية، وعن طريق خطوط سرية لا يراها أحد، وتمتد عبر المدينة بأكملها؛ وهي التي كانت بمثابة مدينة خاصة بهم.

عُرِف شريك ليو التجاري باسم الملازم أول. كان غجرياً ذا أوشامٍ عديدة، ويرتدي بنطالاً قصيراً، وينتعل حذاء قوقازياً، ويجوب أحياء بوخارست الفقيرة بدراجته النارية من نوع بانثر، وكأنه الراكب المطمئن داخل الستار الحديدي. ارتدى

الرجل سترةً زرقاء اللون تتدلى منها الأشرطة، وذات أزرارٍ ذهبية، ومن هنا أتى لقبه، كما كان يشبه أحد قدماء المحاربين المغول من ضمن فرقة الاغتصاب والنهب. كان الملازم أول يهتم بالأمور اللوجستية، ويرأس جيشاً من البولنديين، وأصحاب القوافل من الرومانيين الذين يجوبون الشوارع في الليل، ويتنقلون عبر الحقول والجبال والبراري المقفرة، ويزحفون تحت الأسلاك الشائكة، ويقفزون فوق الأسيجة المكهربة. وكانت كل تلك العوائق سهلة بالنسبة إليهم، وكأنها الضباب الذي يظهر في الصباح. كان من السهل بالنسبة إليهم سرقة الوقود من المحطات التابعة للدولة، كما سرقوا الآليات من المصانع المتوقفة عن العمل، ونهبوا المحاصيل من المزارع الجماعية، وغيّروا وجهة القوافل الليلية التي تحمل الطحين وزيت الطبخ. وهكذا، كانت كمية مخزونات المواد الغذائية تتغيّر في جميع أنحاء البلاد بحسب تدخّل أفراد تلك الشبكة.

كان الفضل يعود إلى السوق السوداء في حفظ وحدة البلاد؛ وهي التي أبقتها عائمة عن طريق ملء ثغرات كثيرة، وإصلاح البيروقراطية المدمِّرة، ولكنها فعلت ذلك مقابل ثمن كبير. كان ذلك بمثابة الذات الأخرى للنظام، وجهة الظل منه. يُحتمل كذلك أن النظام كان يدين لها بالبقاء، أي مثلما يدين الجدار ببقائه إلى اللبلاب المعرش الذي يبقيه جافاً قبل أن يصبح الشيء الوحيد الذي يبقيه قائماً.

لكن السوق السوداء لم تكن مشروع ليو العظيم، بل كانت بوخارست هي ذلك المشروع، مع الكتاب الذي كان يؤلفه عنها بعنوان مدينة النزهات الضائعة.

سألني ليو بعد مضي شهرٍ من الزمن على قدومي عن النموذج الذي ملأته في الوزارة: «هل أنا قريبك؟ أشعر بالإطراء. هل يجعلني هذا وكيلك؟ أو في مكانة أهلك؟ هل تترتب عليّ... أيّ واجبات؟».

لم يكن هناك أي شيء أبويّ في ليو. على الأقل، ليس أكثر من أي شعور بقي

بالانتماء إلى الأهل عندي. لكنني أدركت أن الفكرة قد انغرست في ذهنه. مات عندي هذا الشعور بالانتماء إلى الأهل مع موت والدتي التي بقيت مريضةً جداً لفترة طويلة، لدرجة أن موتها كان مجرد تأكيد على وفاتها أكثر منه مناسبة رحيلها. عشتُ لفترة عامين من الزمن مع ظلّها، وكانت مثل هالة شخص كان صارماً في الماضي. كان وجودها مهماً إلى درجة أنني لم أشك أبداً بأنها سوف تتغلب على كل الهمجية الأنانية التي أظهرها والدي تجاهها. أمّا ما تعلّمته منها فهو أن الأقوياء عندما ينكسرون، فإنهم ينكسرون إلى غير رجعة لأنهم لم يعرفوا التصدّع من قبل، ولأنهم لم يكيّفوا أنفسهم مع ما يدمرهم. مكتبة الرمحي أحمد

عدت إلى المنزل ذات يوم بعد وقتٍ قصير من عيد ميلادي الثالث عشر، وبعد جولةٍ قمت بها في المتنزه. كنت أمضغ النعناع على شكل سيجارة. رأيتها ترتعش على الأريكة غير قادرة على الكلام، بينما كان وجهها شاحباً، وعيناها تخفيان أسىً يتجاوز ما يُمكن التعبير عنه. كان والدي يهزّها طالباً منها النهوض لتحضير طعام غدائه، وقال لها إن موعد مباراة كرة القدم سوف يحين في غضون دقيقة. شغّل والدي جهاز التلفزيون على نشرة الأخبار لكي يُثبت ما قاله، لكن نشرة الأخبار تحدثت عن السفن الحربية التي تتطاحن في بحرٍ هائج، وطائرات الهليوكوبتر، والطائرات المقاتلة التي تملأ سماء فولكلاند، كما ظهرت خريطةٌ مع سهم يشير إلى بقعة من اليابسة بدت لي غير هامة إطلاقاً جغرافياً وسياسياً، حتى مع وجود العلم البريطاني. لكن عندما أعلنتُ عن ذلك في المدرسة في الأسبوع الفائت تعرضتُ لضربة عصا من مدرس المواد الدينية، ولكمة في عيني سدّدها لي أحد زملائي في الصف. استغرقتْ والدتي في الضحك عندما أخبرتها عن سبب اللون الداكن الذي ظهر تحت عيني. لكنها لم تضحك طويلاً لأن والدي عاجلها بلكمةٍ على عينها بضربة سريعة.

أتذكّر الآن الأسى الذي شعرتُ به عند وفاتها، وحتى أكثر من قدرتي على تذكّرها. كان ذلك حزناً آخر، أي إدراكي أن خيالها سوف يتلاشى لبقية حياتي: سيتلاشى أولاً من الأماكن التي اعتادت على التواجد فيها، ثم سيتلاشى من ذاكرة الطفل الذي أحبها. بقيت على مدى أعوامٍ طويلة أتوقف عن أي شيء أقوم به لكي أتأكد من أن خيالها باقٍ في ذهني. لم يبقَ من ذلك الخيال سوى شكلٍ شاحب يتلاشى من كثرة ما استرجعته. لكنّ الخيال صار ضئيلاً جداً، أي أنني كنت أحزن على الحزن ذاته الذي فقدَ شدّته مع الزمن. وقد أدى ذلك الحزن على الأقل إلى تذكيري بطبيعة المشاعر التي يحسّ بها المرء.

كنت أشعر بالغيرة في ما مضى عندما يصف الناس في الكتب آباءهم بأنهم بعيدون. أما بالنسبة لي، فإن هذا البُعد يُمكن أن يكون نوعاً من أنواع الحلول.

اعتبر والدي أنه أكثر أهمية من الحياة التي يحظى بها. ولكنه لم يكن أهم منها بكثير. وكانت والدتي بمثابة عبدة له، وعندما رضيت بأقل من القليل الذي كانت تحصل عليه أسرع إلى مكافأتها بالاستياء، وبالعنف الذي كان أكثر ترهيباً لأنه من النوع النادر والمتعمّد. غير أنّها عندما انهارت في ذلك اليوم، بدا الأمر وكأنها ماتت بالفعل، ولكنها تركت لنا الجسد لمساعدتنا على تقبّل فقدانها. أما اللطف الذي ترافق مع فقدانها فلم يكن مستغرباً.

بدأت كراهيته تتزايد في داخلي، وهي كراهية زوّدتني بالطاقة. لكنني لم أتمكّن من جعل هذه الكراهية مستمرةً طوال الحياة، حياتي أنا. اكتشفتُ التسامح بهذه الطريقة، واكتشفت الكراهية السرية من ورائه: فأنت لا تسامح الناس انطلاقاً من سمو الروح، بل بوصف التسامح طريقة لتحرير الذات. إذ يشعر المسامِح بأنه يتسامى بحريةٍ على الدوام، أما الشخص الذي حظي بالمسامحة فإنه ينزلق أكثر فأكثر نحو المنحدر الذي يؤدي إلى الجحيم. يُحتمل أن هذا هو السبب الذي يدفع أدياناً عدة إلى استخدام التسامح كسلاحٍ سري. هذا هو

السبب الذي دفعني إلى مسامحته، كما حرصتُ على أن يعرف ذلك. كنت إلى جانبه طوال معاناته من مرض السرطان. تركت الكليّة وتركت أغطية سريري، وثلاث حقائب من الكتب والملابس، ثم ركبت القطار عائداً إلى وابينغ، وإلى منزلي. عدت إلى الغرفة الأمامية حيث اعتاد الجلوس على مقعده المفضّل الخاص به، والثقب الأسود الذي تدور حوله كل الأشياء. اعتدت زيارته في مركز الرعاية كل يوم والإمساك بيده، كما قرأت له الصحف بينما كان يركّز نظراته على الفراغات بين الأحرف. وقد قام بقياس أحرف الطباعة، وتطلع إلى علامات الوقف والهوامش بعينه الخبيرة التي أصبحت ضعيفة. شرحت له كيف كان من الممكن أن يكون وضعنا. إنك لا تدفن أباك كل يوم... بلى، كنت أدفن أبي قليلاً كل يوم.

عدت إلى المنزل من المدرسة أثناء الاضطرابات التي حدثت في وابينغ في السنة التي تلت وفاة والدتي، وساعدتُ رفاقي في الصف على جمع روث الخيول التابعة للشرطة ليأخذوها إلى الأراضي التي يستأجرها أجدادهم قرب البحر. كانت الأكياس حامية وسط الطقس البارد، كما أن عصارة الروث كانت تتقاطر على ظهورنا التي أثقلتها الأكياس، وكنا نتفادى الأحجار والزجاج المتكسر في طريقنا، والبرك الموحلة التي تخلفها خراطيم المياه المضغوط، وكذلك بقايا الملصقات المهملة. كانت محاصيل العامين 1986 و1987 وفيرة، بينما الأراضي المزروعة تلتمع بالخضار. كان كبار السن يحرسون أراضيهم، بينما كانت الجرافات تتقدم لتطوير الأراضي حولهم وتقسيمها، وإعادة تسميتها باللغة الإنكليزية الخاصة بقطاع الخدمات والصناعة: مشروع كواي، ومشاريع الأطلسي، ورصيف الاسترليني. انتشرت النكات بعد ذلك: ثمار الخيار صلبة مثل عصي رجال الشرطة، وصفوف الملفوف تصطف كأنها دروع مكافحة الشغب، وحشائش الخريف حادة مثل الغاز المسيل للدموع.

اكتملت الصورة الكبيرة الآن. كان هذا ما يقوله والدي أثناء رفعه مصراعي نافذة غرفته الأمامية؛ وهو ما كان يفعله كل يوم بغضّ النظر عن حالة الطقس. وبسبب قيامه بذلك مراراً، تعرّض زجاج النافذة للكسر عدة مراتٍ، فما كان منه أخيراً إلا أن ثبّت لوحة من الكرتون المقوى على إطار النافذة بمسامير. كنت أسمعه قبل أن يتناول شرابه الأول وهو يُفلسِف الأمور، لكن ليس على خطأ، بل كان يفعل ذلك بشكلٍ يائس. كنت أراه في الفترة الفاصلة بين فتح زجاجة الشراب وصوت اصطدام الشراب بالكوب، ذلك الرجل الذي أخبرني ذات مرة بأن التفكير في كيفية سير العالم يمنح المرء أدوات تغييره. هكذا تتوضح الصورة: بدءاً من صفوف جزر بادي، وحتى 10 داوننغ ستريت، ومروراً بحصان رجل الشرطة.

أجل، كانت الحياة الأسرية كافية لتعليم الشمولية، والاستغناء عن بعض الحريات، وتعلُّم العيش تحت رادار البغض والفشل. لكنني لا أعتقد أنه يتواجد عددٌ كبير من الناس الذين جاءوا إلى رومانيا تشاوشيسكو من أجل تذوّق الحرية للمرة الأولى.

حدّق إلي ليو بينما كنت أخبره كل تلك الأمور، ولم يسبق لي أن تحدثت عنها مع أي شخص، أو على الأقل بهذه الطريقة. كنت أرتجف أثناء حديثي معه، كما ارتعبت بسبب ضعفي مثلما ارتعبتُ بسبب برودتي. اعتقدتُ للحظة أنه سوف يبدأ بإخباري قصته، أي القصة التي أتت به إلى هنا. لكن كان كل ما قاله لي: «يا إلهي، كنا نأمل أن تكون... لا أعرف ماذا أقول بالضبط، أكثر قليلاً من صفحة بيضاء».

الفصل الرابع

عمل ليو على إتمام كتابه عن بوخارست في ساعات فراغه، أي بين الأيام التي يعلّم فيها والليالي التي يمضيها في إنهاء الصفقات. لكن، كلما تعمّقت معرفتي به أصبحت كتابته حماسيةً أكثر. لم يتمكّن ليو من متابعة أعمال إزالة الأبنية في المدينة، وذلك بسبب السرعة التي كانت تتم بها تلك الأعمال. كانت الأبنية تتعرض للهدم بأسرع من إمكانية وصفها. شاهد ليو في السنوات الثماني التي أمضاها هنا هدم ما يقارب ربع مساحة بوخارست القديمة: الكنائس، والأديرة، والمنازل الخاصة، والأبنية العامة. لم يبقَ من تلك الأبنية أي أثرٍ سوى في الكتب وذاكرات الناس. لكن ذلك الكنز من أوراق الملاحظات والصور المكدسة فوق طاولة غداء ليو كان ينتظر تحويله إلى نصوصٍ نثرية. وخلال ذلك الوقت، تحوّلت تلك النصوص النثرية من مجرّد سرد للأحداث إلى نصوص تهدف إلى تخليد ذكرى تلك الأبنية. وقد حصل ذلك في جزءٍ بسيط من الوقت الذي يتطلّبه القيام بذلك عادة؛ إذ كان القيام بذلك عادة يحتاج إلى أشهر، أو أسابيع، وأحياناً إلى بضعة أيام. فقد بدأ ليو بكتابة دليلٍ عملي لصالح شركة سفريات، ولكنّ الأمر انتهى به بتأليف مرثية للمدينة؛ فقد خلّد ذكرى الأماكن التي اختفت، أو النزهات على الطرقات المرصوفة بالأحجار، وكل النقوش التي كانت تتوج الأعمدة.

رأيت خريطة بمساحة متر مربع واحد تمثّل بوخارست معلقةً على الحائط. ظهرت على هذه الخريطة خطوطٌ، ومجموعات من الدبابيس الملونة التي كانت مثبتة على لوحةٍ من الفلّين. قال لي: «تشير الدبابيس الحمراء إلى النزهات التي قمنا بها، أما الدبابيس الزرقاء فتشير إلى النزهات التي سوف نقوم بها في

المستقبل، في حين أن الدبابيس السوداء هي تلك لا يمكننا القيام بها بعد الآن، أي النزهات المفقودة».

«مدينة النزهات المفقودة... هل هذا عنوان كتابك؟».

كانت الصفحات الجاهزة مكومةً على المائدة، وكانت مقسمةً بحسب الأحياء. قرأتُ أسماء الأحياء بصوتٍ عالٍ: دوروبانتي، ودودستي، وهيراستراو، وليبسكاني... انتقى ليو الصفحات التي تصف المكان الذي أعيش فيه، وناولني ورقة مطبوعة ظهرت فيها الخطوط والأسهم في الهوامش:

تقع المنازل المبنيّة على طراز الفن العثماني خلف آليا ألكسندرا، وهي مرتبةٌ في صفوف. أما المدابغ والمتاجر فانتشرت على الطريق، وحتى شارع الرباط. كانت ملكة رومانيا ماري تزور هذه المتاجر مراراً متخفية؛ ضمن جولاتها في أنحاء المدينة. وكان هناك مسجد صغير يقع إلى الشمال من بوخارست، ويضمّ أقدم مئذنة، كما يعود بتاريخه إلى أواخر القرن السادس عشر. أما كنيسة القديسين سيريل والكنيسة الميثودية فتقعان بالقرب من المسجد، وعلى بُعد مئة ياردة منه، بمواجهة الكنيسة اللوثرية التي تخدم الجالية الألمانية. أما البناية المجاورة التي تعود بعهدها إلى القرن التاسع عشر فتضم فندق بارتكيولار الذي امتلكته أسرة كازانو، كما تضم الآن اتحاد الفنانين.

لا أعرف أي كنيسة لوثرية في هذا المكان؛ علماً أنه لم يسبق لي أن زرت كل الشوارع وكل الباحات. ولا أتذكر رؤية أي برج يشبه الرافعات المتزاحمة التي تخترق الأفق والتي أراها من شرفتي. أما بالنسبة إلى المسجد والمدابغ العثمانية فلم أتمكن من تحديد المكان الذي كان من الممكن أن تتواجد فيه في الماضي، وأقرب شيء إلى المئذنة كان مدخنة قرميدية تابعة لمحرقة مركزٍ صحي قريب. اعتبر الأشخاص من أمثال ليو أن إعادة تخطيط المدينة وهندستها لم تنجحا في

محو الذكرى التي يحتفظ بها المكان عن نفسه. وهكذا، إن المدينة القديمة تؤلم ليو بالطريقة ذاتها التي يشعر بها الإنسان بالألم مكان عضو مبتور من جسده، أي أن العضو المبتور يحتفظ بتأثيره على المكان الذي كان يحتله ذات مرة.

كان نصف المعلومات الواردة في تلك الفقرة مشطوباً باللون الأحمر، بينما ظهرت إلى جانبها كلمات مختزلة للمحرّر، لكن ليو أشار بعناد إلى كلمة ستيت، أي تبقى. كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي بقيت، وتلك الأمكنة سوف تبقى من خلال الكلمات فقط.

اشترى ليو بالأموال التي ابتزّها الكتب واللوحات والأيقونات، كما تمكّن من الحصول على عددٍ كبير من السلع من الأبنية المتهدمة، واشترى الكثير من الأثاث واللوحات الفنية من الرجال الذين يقومون بعمليات الهدم. كان ليو يخرج مع الملازم أول في شاحنة مقفلة مموهة على شكل سيارة إسعاف، ثم يقومان بنهب الأبنية المهدمة قبل وصول آلات الهدم الضخمة والجرافات. أما الأغراض التي لم يكن يريدها فكان يقوم ببيعها، أو مبادلتها في مكانٍ غامض لم يسبق لي أن رأيته من قبل، والذي حمل اسماً بسيطاً: متجر 36. لكنّ ذلك المكان كان معروفاً أكثر بلقبٍ أكثر إثارة، وهو متجر النظام القديم، حيث كانت بقايا رومانيا القديمة تُباع إلى السياح والعصابات ومرتزقة الحزب.

بدا الأمر وكأن كل بقايا الأبنية المتهدمة حولنا كانت تخزّن في شقة ليو، حيث تمّ وضع كل شيء في مجموعات متفرّقة؛ وذلك بدءاً من الثريات غير المتطابقة والمقاعد القديمة، ووصولاً إلى الصور التي تمثّل أشخاصاً عراة، ولوحات كانفا فقدت إطاراتها، أو إطارات فقدت لوحاتها. كان كل شيء هناك، مثل بقايا مزخرفة؛ وهي التي احتلت مساحة الشقة بأكملها، كما ملأت كل دُرج، واحتلت كل زاوية. كان بإمكان كوفييه - وهو عالم أحافير - إعادة تجميع أنواع منقرضة من عظام الفخذ، أو أجزاء من عظمة الساق الأمامية. أيُحتمل أن ليو قد أعاد

بناء بوخارست من تلك البقايا اللامعة التي حشرها في شقته؟ كانت جميع الأيقونات، واللوحات، وأحجار الشوارع، ولوحات المتاجر مرتبةً ومصنّفة وموضوعة على الرفوف. وكانت هناك الملابس والمجوهرات، والمرايا القديمة، ولوحات أسماء الشوارع... كما تواجد أيضاً صندوق مجوهرات صغير يحتوي على عظام إصبع قدّيس منسيّ. كان هذا الصندوق يتربع فوق القطعة الوحيدة غير القديمة في قاعة الجلوس، وكانت عبارة عن خزانة مصنوعة من الزجاج غير الشفاف مع جهاز تلفزيون حديث، وجهاز فيديو هاي - فاي.

كانت الجدران مزدانة بالصور التي التقطها ليو عن الدمار؛ ليس فقط في بوخارست، بل في المناطق البعيدة عنها كذلك، وحيث تم تدمير قرى قديمة وتسويتها بالأرض على يد جزاري تشاوشيسكو المعماريين. لكن ليو استخدم شبكةً من المخبرين التابعة له من أجل تكديس الأدلة من مختلف أنحاء البلاد، والتي كان يقدّمها إلى وكالات الأخبار في أوروبا وأميركا. احتفظ ليو بقصاصات من صحف لوموند، والتايمز، ودي زايت في صفٍ من الكتب التي وضعها على طاولته. يُضاف إلى ذلك صفٌّ من العلب التي تحتوي على أشرطة فيديو لأفلام العنف وأفلام الرعب، والمسلسلات، والبرامج التلفزيونية مثل روكي، ورامبو، والجمعة الثالثة عشرة، وإنديانا جونز. كانت عُلب الأشرطة تحمل التاريخ واسم المكان. وكانت تلك أفلام ليو أو غيره، والتي صوروها عن تدمير القرى وشوارع المدينة، وكذلك عن الكنائس والأديرة.

تحوّلت شقة ليو إلى الجانب المخبّأ من المدينة، أي مثل لوحة خلفية لدوريان غراي: وذلك لأن المكان ذاته قد اختفى من حولنا. وهكذا، أصبحت شقته بمثابة فخامة مضغوطة.

قال لي ليو ذات ليلة وهو يشير إلى مجموعة من المتاجر المقنطرة والمغطاة بالزجاج في ليبسكاني: «هذه الأماكن مهدّدة مثل الغابات المطرية، أو مثل

غالاباغوس... » رأيت صفاً مزدوجاً من الورش الصغيرة التي تختص كل واحدة منها بصنعة مختلفة. كان هذا الصف ينعطف إلى جهة اليسار، ليبدأ صفٌّ آخر من المتاجر الخاضعة لنظامٍ معيّن، والتي يحمل كل منها رقماً خاصاً. تواجدت قبل سنة من الزمن باحة حجرية مع نافورة، وكذلك مسرحٌ على الشارع حيث يتجمع الموسيقيون ومعظمهم من طلاب الكونسرفاتوار، وكذلك المارة من الغجر الذين يعزفون بشكل ارتجالي. زعم ليو أنه ما زال يتمكن من سماعهم، ثم وضع إحدى يديه على ذراعي، وقال همساً بعد أن أغمض عينيه: «اسمع». كان ليو يستغرق في نوعٍ من أنواع الغيبوبة التي يسمع فيها شيئاً ما زال مستمراً. ويعني ذلك أن إيمانه في الوجود المستمر لتلك الأماكن المفقودة لم يكن مجرد وهمٍ لفظي.

كانت المصابيح مضاءة في أحد الأفران القريبة، كما أن رائحة العجين والأفران الدافئة تمكنت من اجتذاب الناس الذين كانوا على استعداد للنوم في الخارج بغية امتلاك فرصة الحصول على خبزٍ طازج. تجاوز الوقت منتصف الليل بقليل، وكنا نجوب الشوارع غير المضاءة مستخدمين مصباحاً قديماً مصنوعاً في العام 1920». قال ليو إننا هكذا نقوم بقياس ما نمتلكه مقابل ما كان موجوداً. «فنحن نسير في ما تبقى منه، ونسمع ضجيج كل ما اختفى من الوجود. إن إصغاءك هو الذي يحييها».

استخدمنا على الدوام الخرائط القديمة، أو كتب الدليل، والتي يعود عهدها إلى تسعينيات القرن التاسع عشر، وأربعينيات وستينيات القرن العشرين. يعتبر ليو الذي يؤمن بالغيبيات وقوى ما وراء الطبيعة أنه بالإمكان استرجاع حقبة مضت وإحياؤها للحظة. كان بإمكاننا عبور الباحات المظلمة والباردة والرخامية لبوخارست تشاوشيسكو، وذلك عن طريق استخدام خريطة تفيدنا بأننا كنا في شارعٍ مزدحم ومليءٍ بالمقاهي والنوادي الليلية. مشينا حتى آخر الجادة

العريضة الجديدة، واسترشدنا بالخريطة التي زعمت أنها ستأخذنا من خلال شبكة من الطرقات الضيقة والملتوية الموجودة بين قسمين من أحد المجمّعات. رأينا حولنا شبكة متجانسة من الطرقات الرئيسة التي تمتد فارغة من كل مظاهر العمران الأخرى. لكن ليو اعتبر أننا نمرّ بمحاذاة جدران ترشح بالمياه، وكانت قطع الزجاج المتكسرة تتطاير أمامنا، بينما فاحت رائحة الدخان بالإضافة إلى روائح أخرى ملأت أنوفنا. أشار ليو إلى الطرقات التي اختفت من الخرائط الجديدة، وكتب ملاحظات فوق فراغاتها ومسافاتها المتماثلة مع الشوارع والأبنية القديمة، وأضاف تعليقاته عليها. كانت تلك الخرائط تشبه الرسوم الجيولوجية؛ حيث الطبقات تشير إلى الأزمنة، وحيث تتواجد كل الحقب التاريخية بحسب تعاقبها، بالرغم من انتهائها واستحالة استرجاعها.

مررنا في جولتي الثانية مع ليو في عمق حي دوروبانتي برجالٍ ونساء كانوا يشوون اللحم. شرب الحاضرون من براميل الشراب، وجلسوا وتحدثوا، أو حتى رقصوا على أضواء المصابيح على أنغام الأكورديون وآلات الكمان. كان المشهد أشبه ما يكون بالحلم. فقد توقف الناس عن الحديث، وتابعوا الرقص أو الغناء أو الإيماء، كما قدموا الطعام والشراب، ويبدو أنهم كانوا يحتفلون بمناسبةٍ ما لم تكن واضحة على الإطلاق. رأينا عدداً من المارة مثلنا صدف أنهم كانوا هناك، ودُهشوا مما يرونه. وقد اعتقدوا مثلي في البداية أنهم يحلمون، لكنّ ليو كان مقتنعاً بأننا نشهد شيئاً من الماضي الذي عبرناه. قال لي إن المدينة كانت مليئة بتقاطعات بين الماضي والحاضر مثل الذي شهدناه، وبدا له أنه بإمكاننا التنقل بين طبقات الزمن. أمضينا الليل بأكمله هناك، وعدنا إلى الصباح الغائم في الوقت المناسب لبدء أعمالنا.

ظننت في البداية أننا انزلقنا إلى هلوسة جماعية، لكن ليو أكّد لي أن كل شيء رأيناه كان حقيقياً. وهكذا، أمضينا النهار بأكمله في الجدال حول هذا الأمر. قال

لي إنه بإمكاننا أن نعود، وإننا سوف نعود في تلك الليلة ذاتها. كان السير في شارعٍ معيّن، والسير في شوارع معينة، وفي ترتيبٍ معيّن يشبه تحضير تعويذة سحرية. تمتلك الطريق التي اختفت ألفاظَها الخاصة بها، وترتيبَها الفريد؛ أي مثل أي تعويذة أخرى. كان الرجل محقاً؛ لأننا عثرنا عليها مجدداً في منتصف الليل، في إحدى باحات المدينة، وتمكنّا من زيارتها مرتين إضافيتين قبل اختفائها. بعد ذلك، بدأ ليو بالبحث عن شيء آخر، مثل الكازينو القائم تحت الأرض، والذي عثرنا عليه بفضل خريطة المدافن، حيث تم فتح غرفة الماكينات المهجورة التي تعود إلى القرن التاسع عشر والواقعة تحت الأثينيوم عند البدء بحفر نفق المترو. كان المكان مليئاً بالنساء والرجال عند زيارتنا له، وكانوا متحلقين حول طاولات اللعب، بينما كان الندل يجوبون المكان مرتدين بذلات لتقديم المشروبات، كما كان أحد عازفي البيانو يعزف موسيقاه على لوحة مفاتيح كهربائية. كان المكان حقيقياً بما فيه الكفاية، لكن ليو كان مقتنعاً بأن ما نراه كان جزءاً من مجتمعٍ يعيش تحت الأرض، وأن بوخارست القديمة أعيد بناؤها؛ وهي مليئة بالناس تحت الأرض. كان بإمكان ليو العثور على هذه الأمكنة، وكان يعتقد أنها ثقوب في نوع من أنواع نسيج الزمكان [الزمان - المكان]، أي أنها زمن خارج الزمن، ومكان خارج المكان.

أراد ليو موازنة حلم المدينة القديمة، فدفعني إلى زيارة بوخارست الجديدة، أي حيث أُجبِر سكان أحياء المزارعين على إخلاء المكان بالقوة، والانتقال إلى ضواحي الإسمنت. تشتتت العائلات التي انتقلت إلى شقق صغيرة، والتي تكون عادة محرومة من الماء أو الكهرباء أو حتى النوافذ. اصطحب عدد منهم ماشيتهم معهم، فجالت حول هياكل معدنية صدئة، وقطع الإسمنت المتناثرة، كما تركت فضلاتها في الباحات. أما الديكة الصغيرة التي تغيّرت أمكنتها، فقد بدأت بالصياح في منتصف الليل تحت المصابيح الكشافة لعمال البناء، بينما ربضت

الدجاجات على أنابيب السقالات. أما كبار السن من ذوي الأيدي الخشنة والعيون الضيّقة فقد انهمكوا بتقشير البطاطا، في حين أن العجائز من النساء جلسن بثيابهن الريفية على مقاعد قابلة للطي لمشاهدة الرافعات التي اخترقت الأفق، والإصغاء إلى أصوات الجبّالات والحفارات، وأصوات الوحوش الجديدة التي بدأت بالتجوال في الحقول التي غطّاها الإسمنت. كان ذلك نقلاً كارثياً بالنسبة إليهم. عاد عدٌد كبير من السكان إلى أراضيهم، أو إلى حيث كانوا، لكنهم وُجدوا بعد ذلك أشباه مجانين يسيرون تائهين على جوانب الطرقات؛ هذا إذا تمكّنوا من تخطي حدود المدينة. وكانوا يبكون على أكواخهم التي سوّيت بالأرض، وعلى الماشية التي فقدوها. أما القلة منهم الذين بقوا في المزارع الممكننة فقد تولوا وظائف على الآلات أو في المسالخ بصفتهم عمالاً، أو عملوا في المستودعات الكبيرة المليئة بالديوكسين السام حيث الماشية مقيدةً بالأرض وتنتظر زيادة وزنها وسط الظلمة والخوف.

كان كل شيء مكتوماً ومتأخراً في هذه البلاد. استمعت بعد ذلك إلى إذاعة القسم العالمي في بي. بي. سي، والتي كان صوت مذيعها المخملي الذي يوحي بالحياد والصبر يُطمئِننا إزاء كل الحقائق التي ترويها الإذاعة، ويوحي بأن كل شيء في هذا العالم كما ينبغي أن يكون عليه. استمعت كذلك إلى راديو أوروبا الحرة، وهي محطة الإذاعة التي تموّلها الولايات المتحدة، والمخصّصة لإحداث الاضطرابات في الكتلة السوفياتية. كانت هذه المحطة مليئة بالأخبار على الدوام، وبالرغم من أنها كانت تُبقي المستمع على اطّلاعٍ دائم بالأحداث التي تجري في الاتحاد السوفياتي، أو تشيكوسلوفاكيا، أو ألمانيا الشرقية، إلا أنها بالكاد كانت تذكر رومانيا. كان كل ما يسمعه المرء هو أن تلك الأماكن التي نسمع عنها معظم قصص القمع هي الأقل ممارسة للقمع نسبياً. أما في رومانيا فقد كان الوضع مختلفاً، لأن الناس كانوا يتحدثون عن الستار الحديدي؛ وكأنه لم

يتواجد سوى واحدٍ من هذا النوع، لكنّ أوروبا الشرقية الشيوعية كانت نظاماً من التقسيمات المتتالية، والستار وراء الستار. كانت رومانيا كوكباً مظلماً في عالم منظمة الكوميكون.

كان المرء يستنتج من العبارات القليلة في قسم موجز الأخبار في الصحف بأن قريةً ما قد جُرِفت هنا، وأعمال شغب بسبب النقص في المواد الغذائية قد قُمعت هناك. وهكذا، كان بإمكان المرء أن يستنتج من بين السطور من عالم رومانيا المغلق وجودَ الصوت المخنوق للشائعات والأحاديث، والذي يتعرض للتشويش والضجيج اللذين يتسللان مثلما يفعل خط هاتفي خارجي سيئ. كانت حياتنا اليومية تجري على هذا المنوال.

استمرت المكالمات الهاتفية الصامتة، وكنت أتلقى في بعض الأحيان مكالمتين أو ثلاث مكالمات في اليوم الواحد، وأحياناً لا أتلقى شيئاً طوال أسبوع. وكان الخط الهاتفي يُصدِر أصواتاً بفعل التشويش المتعمد الصادر عن أجهزة التنصت. لكنني كنت على علمٍ مسبق بأن خطّ هاتفي مراقب، وكنت أسمع دائماً صوت المتصل المتردد، وصوت أنفاسه المرتعشة. كان في إحدى المرات - وأقول كان لأنني متأكد من أنه رجل - على وشك أن يتكلم، وكان هناك شيء ما مثل اسم، أو كلمة، وشيء قريب من الصوت.

اعتدت في أوقات المساء أن أزور متنزه هيراستراو، أو كنتُ أزور المتاحف. كان متحف الحزب الشيوعي الروماني يطغى على كل تلك المتاحف، وكان مكاناً واسعاً لكنه خالٍ، حيث تبقى المصابيح مضاءة طوال النهار بالرغم من برنامج تقنين التيار الكهربائي، بينما متحف التاريخ الروماني، ومتحف التاريخ الطبيعي والعلوم المجاوران كانا غارقَين في الظلمة. أعلن متحف الحزب الشيوعي في هذه الفترة عن إقامة معرض حول بطولة العائلة، وذلك إلى جانب معرضه الدائم أوماجيو عن القائد وزوجته.

قدّم متحف التاريخ الطبيعي في هذه الأثناء معرضاً أكثر إثارة، وكان بعنوان النشوء والفناء، وكان مترافقاً مع ملصق يُظهِر سحليةً عملاقة تحمل نظرة سخرية. زرت ذلك المعرض مرتين، واشتريت الملصق المعلّق الآن على جدار مكتبي.

كان زوار المتحف ينقسمون إلى مجموعات، وذلك بهدف توفير الطاقة الكهربائية، وكانت الغرفة تزوّد بالتيار الكهربائي فور دخول المجموعة، ويُقطع فور خروجها. وهكذا، كانت أصوات القواطع الكهربائية تتردد في القاعات ذات السقوف العالية. بدا الأمر في تلك الأوقات وكأن تيار الظلمة يلاحق المرء، ويغمر بالظلام غرفة إثر غرفة أينما توجّه. مررنا من أمام الهياكل العظمية لحيوانات الماموث والبراكيوسوروس، ورأينا عظامها المثبتة في مكانها بواسطة مفصّلات معدنية، بينما جماجمها مرفوعةً إلى الأعلى، وفكوكها مفتوحة وكأنها تطلق صرخات مكتومة. كان باستطاعة المرء الشعور بثقل الاستنزاف، وأن العالم يتناقص بسرعة أكبر من قدرته على التعويض.

كانت متنزهات بوخارست الحديثة منبسطة، كما كانت مزودة بأجمات نباتات قزمة، ومقاعد طويلة مرتّبة؛ حيث تعطي الجالس أوسع مجالٍ ممكن من المناظر، وأعلى قدرٍ ممكن من عدم الراحة. لم يكن بوسع الزائر المكوث طويلاً في أي مكان، وكان يسرع الخطى في كل الجهات بسبب المراقبة غير المرئية. وكانت كل الينابيع جافة. مررنا من أمام تمثال أحد الذين ماتوا بسلام، مثل الموسيقيين والشعراء والمؤرخين والعلماء، وهي تماثيل أُفرِغت من مضمونها بسبب كثرة النُصب الرسمية التي لا تحمل اسماً. كان ستالين يُطلِق عليها وصف الموتى الآمنين والمفيدين، ولم يشعر بالخجل من المساهمة في زيادة أعدادهم.

أما المتنزهات والحدائق الأكثر قدماً فكانت أكثر ازدحاماً، وكان المتنزه الأقرب إلى مسكني باركول كيسليف مزداناً بالأشجار والممرات المتقاطعة المرصوفة

بالحصى، والمغطاة بأقواس الأغصان التي تفصل المتنزه عن الشارع. كانت تلك ملاذات تمنح المرء الخصوصية التي كانت نادرة في بوخارست. أما الآن، فلا تتواجد هذه المتنزهات إلا في الأحياء الراقية حيث يسكن الأجانب، ومسؤولو الحزب، أو بقايا الطبقة البرجوازية الباقون على قيد الحياة. كانت الرفاهية بالنسبة إلى معظم الرومانيين شيئاً مقنّناً ويخضع لمراقبة الشرطة، وكان نشطاء النظام لا يتوقفون عن العمل حتى في الساعات التي تتوقف فيها كل الأنشطة وتتباطأ الحركة.

لكنّ كبار السن استفادوا من ضآلة الحاجة إليهم، وكنت أتوقف لأراقبهم. كانوا ودودين، ورجالاً صغار الحجم، ولكنهم كانوا أنيقي المظهر وهم يرفعون قبعاتهم لدى مرور السيدات من أمامهم، أو يتنافسون على تقديم مقاعدهم لشخصٍ أكبر منهم سناً، أو لرجلٍ ضعيف البنية. كانت النسوة يجلبن الشاي في الأوعية الحافظة للحرارة، وكذلك الحلوى في علبٍ ملفوفةٍ بالأشرطة، وكن يقمن بهزّ رؤوسهن نفياً إزاء كل الطلبات الوقحة، ويضحكن عند سماعهن النكات المألوفة لديهن. تبادلت السيدات الأحاديث في ما بينهن بلغةٍ دقيقة، وهامسة، ومتحفظة تُعرف باسم فرنسية شمال أفريقيا. أما جماعة التكنوقراط المتقاعدون، ومسؤولو الحزب السابقون، والبونجوريستا الباقون من حقبة ما قبل الشيوعية، فكان رجال الشرطة لا يضيّعون أوقاتهم في مراقبتهم.

كنت ماراً في وقتٍ متأخر من مساء أحد الأيام عندما أشار لي أحد كبار السن بعصاه لكي أنتظره. سألني الرجل الغريب: «أين تسكن؟». أين أسكن؟! «آه، إنه مكان قريب من منزلي، لذلك سوف أسير معك».

عرّف الرجل عن نفسه، سيرجيو تروفيم، ثم مدّ يده للمصافحة. كانت يده صغيرةً وجافة، ومليئة بالعلامات التي يتركها الكبد، ولاحظت أن سبابته وإصبعه الوسطى غير موجودتين. لبس الرجل خاتم زواجٍ ذهبياً ثقيل الوزن يلفت

الأنظار، ويزيّنه حجر فيروزي اللون كبير الحجم. أما كمّا قميصه فكانا مزينين بأزرار قديمة تحمل ماركة ديور.

قلت له بعد أن انحنيتُ قليلاً، وبعد أن أخبرته باسمي: «من دواعي سروري». كان تروفيم يلقي التحية على كل شخص يمرّ أمامه وكأنه يعرفه من قبل، وكأنه رجل شهير.

وضع الرجل على طية صدر سترته شارةً لامعةً قديمة للحزب. أما الشارات الجديدة فكانت ضعف ذلك الحجم، ومصنوعة من البلاستيك، وبلون قرمزي. كانت شارة تروفيم متميزة، وبلونٍ قرمزي باهت، وكان من الممكن أن توصف بأنها أنيقة؛ حتى لو كانت في نوع آخر من المجتمعات. تناسبت الشارة مع باقي مظهره: القميص الأبيض النظيف، والبذلة الرمادية الداكنة، وأسلاك تقويم الأسنان حمراء اللون، والحذاء اللامع وغير الملوث. كان أصلع، ما عدا الشعر الأبيض على الجانبين والذي يسميه الفرنسيون دي غرانيه، كما اعتمر قبعة مطوية من الجانبين يزيّنها قلم رصاص قصير، والذي يبدو مثل ريشة مثبتة بالشريط الذي يلفّها...

اضطررت إلى تخفيف سرعتي لكي نظل معاً، وذلك بالرغم من أن مشيه البطيء كان بسبب رغبته في إطالة حديثنا أكثر من تكاسله الجسدي.

كان تروفيم محدّثاً لبقاً، وكان يُصغي إلى أجوبتي، ويطلب سماع رأيي في الأمور التي لا أعرف عنها شيئاً، والتي حاولت تكوين رأي بشأنها. كانت طريقته في طرح الأسئلة تبدأ على هذه الشاكلة: «أخبرني... » وتلخّصت تقنيته في وضع محدّثه في وضع من يعرف شيئاً، ويجبره بعد ذلك على أن يكون على المستوى الذي كوّنه عنه، أي أنه كان يضع المرء في وضع من يعرف أكثر، ومن هو أكثر نضجاً.

تحدّث تروفيم معي وكأنني أحد الدبلوماسيين العائدين من مهمةٍ في الخارج، وكانت أحاديثه تمتد على كامل الكرة الأرضية. تحدّث معي عن رجال دولة وكأنه يعرفهم، وتكلّم عن الأحداث العالمية وكأنه شاهدٌ عليها شخصياً. كان الرجل شاهداً على بعض الأحداث وليس كلّها، وهذا ما استنتجته بعد زياراتي الأسبوعية إلى شقّته التي تقع بالقرب من متحف التاريخ الطبيعي، وهو المتحف الذي وصفه بأنه بيت الديناصورات. رافقته بعد ذلك إلى المتنزه، حيث كان أصدقاؤه جالسين ويتبادلون الأحاديث. كما أن تروفيم كان يلعب الشطرنج مع صديقه بيترسكو، رسام الأيقونات، وهو رجل طويل القامة ونحيل، ويحب ارتداء الثياب داكنة الألوان، ويضع قلادة يتدلى منها صليب ثقيل. كان تروفيم يقول عندما ينظر إلى تمثال ماموث قائم في ردهة المتحف: «أعتقد أنهم سوف يضعون... » اعتقدت حينها أنه يتحدث عن نفسه.

توقفنا في أول يومٍ ترافقنا فيه عند منزلٍ يقع في جادة هيراسترو، ويقع المنزل على بعد عدة شوارع من الشقة التي أسكنها. رأينا أمام البوابات سيارة ستروين دي أس بلون بني شاحب. «إنها ملكيتي التي أفتخر بها. قدت هذه السيارة من باريس إلى بوخارست في العام 1968، أي بعد قيام الروس بإخماد ربيع براغ، لكنني لم أقد السيارة منذ سنتين، وأنا أنتظر وصول قطعٍ جديدةٍ لها... أي مثلي أنا». وضحك تروفيم عندما رفع يده المعطوبة. كانت طبقة من الغبار تغلّف هذه السيارة المركونة، بينما كان سقفها لزجاً بسبب الصمغ الذي تساقط عليه من الشجرة فوقه. رأيت فوق لوحة القيادة دليل بيديكر عن بوخارست، والذي يعود بتاريخه إلى العام 1929. بدا لي أن الساكنين في هذا الحي يمتلكون كتيبات مثله عن كل العصور، ما عدا العصر الذي يعيشون فيه.

رآني تروفيم عندما لاحظت الكتاب، فأسرع إلى فتح باب سيارة الدي. أس المجاور للسائق، وتناول كتاب بيديكر، ثم أعطاني إياه.

«خذه. إنه هدية لك، لكن الخرائط لم تعد مفيدة للتجوال بعد الآن. يمكنك أن تعتبرها ذكريات المدينة، أي حيث يعيش صديقك ليو».

وفي وقتٍ لاحق، جلسنا في غرفة معيشة تروفيم. كانت ثلاثة من جدران الغرفة الأربعة بمثابة خزائن كتب من الأرض وحتى السقف، بينما الجدار الرابع مغطى باللوحات والصور الفوتوغرافية التي كان تروفيم يظهر فيها مع تروتسكي، ومع فيكتور سيرج، وأخرى مع دييغو ريفيرا، ثمّ تروفيم في مسيرة تضمّ أبطال اليسار المأساوي. كان الرجل يعمل وسط صور أولئك الرجال على طاولة صغيرة بمحاذاة الشرفة، بينما كانت مساعدته بوجهها الداكن الذي يشبه وجه الصقر، وبعبوس اشتراكية واقعية، تطبع على حاسوب غالي الثمن، وكان وعاء الشاي الذي يتصاعد منه البخار قابعاً في زاوية الغرفة.

شرح لي تروفيم في زيارتي الثانية له مأزقه الغريب من نوعه. «إنني أكتب مذكراتي. تكتب مساعدتي كل يوم ما أمليه عليها، ثم تأخذ الأوراق بعيداً إلى... دعنا نقول التحرير. تعود الأوراق من التصحيح وهي مختلفة كلياً عن الكلمات التي أمليتها على مساعدتي. يعني ذلك أنهم يسرقون قصتي مني. أعتقد أنك سمعت حديث العلاج الفرويدي، أي حيث يكفي عرض أي شيء على شخصٍ يصغي. إننا نمتلك على الدوام الشخص الذي يصغي هنا. حسناً، إننا نعيش في دولة فرويدية. هذا هو العلاج الشيوعي بالكلام: إنهم يعالجونني من حياتي. لكن الأحداث التي مضت في حياتي تلاحقني كل يوم. تعرف أيضاً تلك النكتة القديمة: المستقبل مع الشيوعية مؤكّد. إنه الماضي الذي لا يكف عن التغيّر».

قال تروفيم متأسفاً: «لست قادراً على استعادة نصوصي، وهي لا تعود نصوصي عندما يعيدونها إليّ». تقدمتُ نحو الحاسوب، لكنني لم أرَ على شاشته غير أيقونات الخيارات. كانت مساعدته تنسخ كل شيء على قرصٍ مرن، ثم تقوم بمحو ما كتبته طوال اليوم عن الشاشة. لكنها لم تكن تعرف أنها كانت بحاجة

إلى محو ما محته من سلة المهملات في الحاسوب في كل مرة، ولم تعلم أن الملفات تبقى على القرص الصلب في الحاسوب. كانت المساعدة تتعامل مع الحاسوب وكأنه مجرد آلة كاتبة لطباعة الذكريات. قلت لها وأنا أُحرّك السهم المؤشّر نزولاً نحو سلة مهملات الشاشة ضاغطاً بنقرة مزدوجة: «انظري». وعند ذلك، رأينا أيقونات الفصول التي تلي الفصل الأساس. قمت بسحب الفصول بالسهم المؤشّر إلى الشاشة وفتحتها. عثرت على قرصٍ مرنٍ فارغ ونقلتُ كل الفصول إليه. تطلع تروفيم نحوي وكأنني نفذّت معجزة اليعازر بقيامة المعلومات. عندها، شعرت بالفخر، وبأنني رجلٌ لا يُستغنى عني. يعني ذلك أنني شعرت بالطريقة ذاتها التي أراد تروفيم أن أشعر بها.

لم أعلم في ذلك الوقت أن الرجل قد دفعني دفعاً إلى اجتراح تلك المعجزة، وذلك من أجل توريطي بالقيام بمهمة مساعِدِه، وهي مهمة محفوفة بالمخاطر. ولو عرفت لكنتُ قد تجاهلت الأمر، حتى إنني لست متأكداً حتى الآن بأنه قد خطّط لهذا الأمر، ولكنني أعرف أن ذلك لن يغيّر في الأمر شيئاً؛ لأن مجرد كوني رجلاً متشككاً لا يعني أنني أتصرّف بحسب شكوكي. ولو كنت كذلك لكنتُ قد ابتعدت عنهم جميعاً: ليو، وتروفيم، وسيليا، وكل الآخرين. ويُحتمل كذلك أنني كنت قد امتنعت عن المجيء إلى هذا المكان قبل كل شيء. لكنّ كل ما تعلمته من أخطائي الماضية هو كيفية الانزلاق إلى أخطاء جديدة؛ وبالرغم من معرفتي بها. كانت معرفة الذات بالنسبة لي تزيح من أمامي كل تكاسل.

ومع نهاية شهر نيسان، انتهيت من استعادة ملفات تروفيم الملغاة، كما تمكنت من الانتهاء من تصحيحها، ومن كتابة ما يمليه عليّ تروفيم أثناء جلوسه وتدخين سجائره وحديثه عن ذكرياته. كانت مساعدته تأخذ النصوص بعد ذلك لتنقيحها، وعرضها على الرقابة، وإعادة كتابتها في دار النشر التابعة للدولة. أما أنا فقد انشغلت مع تروفيم في استعادة الملفات، كما عملنا على المذكرات

الهامة. وكنت آخذ تلك الملفات بعد ذلك وأطبعها في مكتبة السفارة البريطانية، ثم أعود بها إلى شقّته لتنقيحها معه، وهكذا ظهر كتاب تروفيم.

قال لي ليو: «إذاً، لقد التقيتَ الرفيق تروفيم، أليس كذلك؟ حسناً، إذاً لقد صافحتَ اليد التي صافحت يد ستالين. يُقال إن تروفيم العجوز يقوم بكتابة مذكراته، وهو أمر في غاية الأهمية، لكن سيرجيو تورّط في مأزقٍ خطير. أعتقدُ أنك لاحظتَ أنه لا يعلّق أي صورة لستالين على جدار غرفته. ذلك غريبٌ بالفعل؛ لأننا نعرفه كما نعرف الآخرين، ونحن قدمنا له بعض الخدمات بدورنا... يمكنك أن تسأله عن تلك الخدمات في المرة التالية التي تزوره فيها... ».

الفصل الخامس

التقيتُ سيليا بعد أسابيع قليلة من وصولي إلى البلاد. كنت ألقي محاضرة حول فن كتابة المقالة عندما أتت في وقتٍ متأخر، وجلستْ في آخر القاعة الرئيسة؛ وهي قاعة واسعة مزودة بالأجهزة الصوتية التي تقوم بتحويل الكلام إلى صوت مشتّت. كانت تلك هي الطريقة الرومانية، ووسيلة لتضخيم كل كيان بشري. أبقت سيليا على نظارتها، واحتلت مقعدين في الصف الأخير، ثم تطلعت نحو القبة الزجاجية التي تعلوها طبقة من الغبار.

كان جسدها يشير إلى نفسه. التفت إليها الرجال والنساء الجالسون أمامها على الفور، وكأنهم كلاب تستجيب لصفارة غير مسموعة. لم يقتصر الأمر على أنها جميلة، لأنه يوجد ما يكفي من الجمال في هذه البلاد. ومع أن سيليا افتقدت إلى الجمال الصارخ ومشية القطة، أو حتى إلى الميزات التي نجدها في مجلات الرجال - إذ كان وجهها داكناً - إلاّ أن عينيها كانتا عاصفتين ووحيدتين. كانت بشرتها داكنة، وفمها يلتمع بالحمرة الساطعة، أما شعرها فكان أسود وملتمعاً مثل سيارات الليموزين التابعة للمكتب السياسي للحزب. كانت كلمة ساحرة هي الفضلى لوصفها، وذلك بالرغم من محاولتنا التقليل من استخدامها في هذه الدولة البوليسية. جمعت سيليا بين الجاذبية وعدم قابلية الاقتراب منها، وطريقة ارتدائها أحدث الأزياء الغربية وأفضلها؛ بطريقة تختلف عن طريقة ارتداء الناس للملابس هنا. إنها تفعل ذلك بطريقة ارتجالية، حيث تتدلى بطاقات العلامات التجارية على الثياب، ولكنها تختار ملابسها من مجموعاتٍ لا تنضب. بدت سيليا مثل امرأةٍ من حقبةٍ أخرى، وكذلك من بلدٍ آخر؛ أي كما لو أنها جاءت من إيطاليا ستينيات القرن الماضي، أو فرنسا كما كان يُنظر إليها

خلال فترة القوة الشرائية للولايات المتحدة في أواخر أعوام الثمانينيات من القرن الماضي. كان الجميع يلاحظون وجودها، وبدا كذلك أن الجميع يعرفونها. وكنت أعجز عن العثور على الكلمات المناسبة عند دخول سيليا القاعة متهاديةً بعد بدء المحاضرة، ومركّزة أنظارها عبر صفوف المقاعد الخالية إلى حيث تريد أن تجلس.

تقدّمتْ مني بعد ذلك لتشكرني على توصيتي بها، فشعرت بأنني غبيٌّ نوعاً ما، لكنني تمنيتُ لو أنها أتت خلال إلقائي محاضرة عن الشعر، أي عندما أبدو مختلفاً قليلاً عن أستاذ قواعد فخورٍ بنفسه، أو خلال صفّ الرواية الحديثة. ولكنها أتت عندما كنت أتفوّه بعبارات توضيحية من تلك التي يُمكن إيجادها في أساليب المقالات التقليدية، أي في المقالات الموضوعية، عبارات مثل والخلاصة، من جهة/ ومن جهة أخرى، ويمكننا الاعتراض بأن... لم يعد أحد يكتب بهذه الطريقة إلا عند الكتابة باللغة الإنكليزية الدولية، أي تلك اللغة التي تستخدمها اللجان، والتي تهدف من ورائها إلى الجمع بين التسويات والحيادية.

توجّهنا معاً إلى مطعم موحش لتناول القهوة. كانت هذه بلادها، ولكنها جعلتني أشعر كما لو أنني مضطرٌ لتبرير اختياري هذا المكان؛ وذلك بالرغم من أنها جزء من النظام الذي أراد أن يكون المطعم على هذه الشاكلة، وكان الأحرى بي أن أعرف هذه الحقيقة منذ البداية.

امتدّ صف المنتظرين من مدخل المطعم وحتى صندوق الدفع، وذلك بالرغم من أن ما ينتظرونه لا يستحق كل هذا العناء. أما إذا وجد المرء صفاً من المنتظرين فيجب عليه أن ينتظر معهم. القهوة الوحيدة المعروضة كانت تُعرف باسم إرساتز؛ وهي بديل لا مذاق محدد له لأنه يتغيّر في كل مرة مع التغيّر الدائم لمكوّناته. تجنّبنا الطلاب الذين حوّلوا أنظارهم عنا، والذين كنت على

صداقة معهم.

انتظرنا، لكن حديثنا كان يقلّ شيئاً فشيئاً. وعندما حصلنا أخيراً على قهوة إرساتز، غمزتني سيليا عند أول رشفةٍ لها، ثم دفعت الفنجان بعيداً عنها.

قلت لها: «يتعيّن عليك أن تشكري يونيسكو، فهو الذي طلب مني كتابة التوصية. كان كل ما فعلتُه هو توقيعها».

«أعرف ذلك، لكنه ما كان ليفعل ذلك لولا موافقتك».

«لم أكن لأعطي موافقتي لو لم يضغط عليّ. فأنا لا أعرفكِ، حتى إنك لستِ من طلابنا».

«هذا صحيح. لكن، ما كان لأحد من طلابك أن يحصل على التأشيرة؛ وهذا يعني أنك سوف تضيّع توصيتك على لا شيء. كان يونيسكو عملياً في هذا الأمر: فهو يملأ النماذج، ويفعل ذلك بالطريقة الصحيحة، ولكنه يضيّع المنحة على شخصٍ لا يستطيع استخدامها، أو يكسر القوانين ليستفيد منها. ولكن، هل استفاد أحد؟ ذهبت أنا واستفدتُ منها». أشعلت سيليا سيجارة إنكليزية، وهي عادةٌ اكتسبتها بفضل رحلتها إلى لندن.

تطلعتْ سيليا على ساعتها، فتساءلتُ عمّا إذا كانت تريد العودة إلى مكانٍ ما. تكلّمت باللغة الإنكليزية التي تميّزها على الفور، أي إنكليزية الزائر الدائم، والمعاصرة، والحديثة، وليست اللغة المصطنعة التي تعلمناها في كتب القواعد أثناء الحرب الباردة. لم يكن معظم طلابي على استعدادٍ لمغادرة رومانيا على الإطلاق، لكن سيليا كانت مختلفة. كانت الفتاة على معرفة بمفردات السلع المادية، والتي لا يعرف معظم المعاصرين أنها موجودة. وقد سافرتْ إلى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا. حتى إنها أمضت فترة دراسية في جامعة بوسطن، وذلك بفضل منحةٍ كانت تهدف إلى مساعدة طلاب أوروبا الشرقية على تحقيق طموحاتهم.

تمكّنت سيليا من التحدث عن الأفلام الأميركية، والأطعمة الفرنسية، ومسرح وست إند، ولكنها لم تكن على استعدادٍ أبداً للحديث عن مصدر الأموال التي تحصل عليها، أو عما فعلته لكي تعيش على هذا المنوال، أي غنيةً، ومن دون أن تتأثر بالمآسي التي تمرّ بها بلادها. غير أنها لم تُخفِ عني ذلك المصدر، ولكنْ حتى عندما اكتشفتُه كان يستحيل عليّ معرفة مدى تورطها في النظام، وإلى أي مدى كانت تعيش بحسب فطرتها؛ وهي حياة أفضل وأكثر سعادة من حياة معظم الناس الآخرين. إلا أنها لم تتورط في فظاعات النظام. ولم أسمعها وحتى لمرةٍ واحدة وهي تتلفظ بأي شيء إيجابي عن النظام أو الحزب اللذين يحميانها، ووفّرا لها رفاهية العيش. غير أنها لم تعبّر أيضاً عن أي أسف تجاه الذين يعيشون تحت خطوط الفقر في رومانيا، أو حتى الذين حوكِموا أو تعرضوا للنفي.

قال لي ليو بعد وقتٍ قصير: «آه، سيليا. إنها فتاة بعدة أوجه». وشرح لي الأمر بعد ذلك: «إنها تمتلك وجهاً بعد وجه... » لم أكن متأكداً من أنني عرفت سيليا، أو على الأقل ليس قبل فوات الأوان بالنسبة إلينا كلينا، لكنني أعرف الآن أن ليو كان مخطئاً.

كان من الممكن ألا ألتقيها مجدداً لو لم أرغب في لقاءٍ ثانٍ معها. وكانت تلك هي المحاولة الأخيرة بينما كانت تنهض للمغادرة. دعوتها متردداً، وكانت دعوتي من ذلك النوع المترافق مع بعض الحرج والرغبة الخجولة في سحب الدعوة. ولم تتأخر سيليا في عكس الدعوة، إذ قالت إنها سوف تأتي لتصطحبني في اليوم التالي لكي نتناول طعام الغداء معاً. كان من المقرّر أن أعطي محاضرة في ذلك الوقت، إلا أنني لم أقل لها ذلك لأنني سوف أتغيّب عن محاضرة الغد.

أمضيت اليوم التالي في توقّع بعض الإثارة. فقد أمضيت ساعتين إضافيتين في التعليم، ثم انصرفتُ عند الساعة الرابعة. وكان آخر ما رأيته وأنا أغلق الباب

ورائي هو الورقة التي تعلو مقالات غير مُشارٍ إليها، والتي كانت على طاولتي مرتعشةً أثناء لحاقها بدورة الهواء ذاتها. توجهت بعد ذلك لرؤية ليو في مكتبه، وكان يتلفظ بسرعة بعباراتٍ رومانية. لم أفهم سوى بعض الكلمات القليلة، وأن الحديث يدور حول روديكا التي تتواجد في المستشفى بسبب بعض التعقيدات التي ترافق حملها.

تناول ليو سترته من فوق مقعده وكذلك علبة من سجائر كنت من خزانة الملفات، ثم جرّني معه إلى الممر.

«سأخبرك كل شيء في السيارة».

لكن ليو لم يخبرني شيئاً، وكان يقود السيارة بطريقة تحطّم الأعصاب؛ لأنه حرص على ألاّ يوقفه أحد. انطلقنا من مرأب السيارات التابع للجامعة، ومررنا من أمام المكتبة، ثم سرنا في جادة الأكاديميين، وعبرنا بعد ذلك وسط المدينة واتجهنا نحو الضواحي الشمالية - الشرقية. رأيت من بعيد جادة النصر الاشتراكي؛ وهي جادة هائلة يصعب على المرء رؤية نهاية لها، وتجذب كل شيء إليها. رأيت في إحدى نهاياتها ما يشبه الفانتازيا المدينية، والتي كانت عبارة عن هياكل فولاذية لقصر هائل الضخامة: قصر الشعب. وكان من المقرر أن يكون هذا القصر أكبر مبنى في العالم. أما المباني القديمة التي بقيت إلى جواره، فليس لها أي خيار غير الإذعان لصغرها إزاء ضخامة القصر. بدت الهياكل شفافة بوجود الشمس خلفها، كما بدت طبقة الغبار التي تحيط بها.

انتشرت المجمّعات السكنية في أنحاء المكان، وهي التي كانت مطليةً جميعها بتنويعاتٍ مختلفة من اللون الرمادي. وعلى بُعد عشر دقائق من بوخارست ومن وسط المدينة، بدت الشوارع مستقيمة، وهي التي فقدت أسماءها، واستسلمت للنظام الرقمي: الشارع 4، كاليا 9، وباحة 32. مررنا كذلك أمام

مدرستين حملتا بدورهما أرقاماً، ثم انعطفنا عند مستديرة كبيرة، وكان الناس فيها يبيعون قطع غيار للآلات. كانت القطع معروضة فوق شراشف بيضاء على الأرض، وبين أوعية الزيت وأكوام الأدوات. بدا الأمر مثل مشهد قاعة تشريح الروبوتات. رأيت بعض صفوف الناس المنتظرين أمام بعض المتاجر، لكنّ حركة المارة على الأرصفة كانت قليلة.

كانت حركة السير خفيفة بدورها، واقتصرت على بعض عربات القطارات الكهربائية والحافلات التي أنهكها الزمن والتي تُطلق أدخنة قذرة. سارت السيارة فوق الحافة الخرسانية لقناةٍ خلت من المياه؛ وهي القناة التي تقسم المدينة إلى نصفين، ثم انعطفنا فوق جسر وانتظرنا تغيّر الضوء إلى الأخضر، ما يسمح لنا بالسير عند تقاطع طرق. لم تعبر الجسر أي سيارة في ذلك الوقت، ورأيت إلى يساري ما تبقى من كنيسة قديمة مهدمة، وكانت حجارتها توضع في الصناديق حجراً بعد حجر قبل تحميلها في الشاحنات المنتظِرة. كان كل حجرٍ يحمل بطاقة ورقماً، ورأيتُ رجالاً يرتدون بذلات يُشرفون على هذه العملية الغريبة بأكملها، كما رأيت أيضاً عدداً من الأشخاص الذين يرتدون ثياباً سوداء يشاهدون ما يجري، وكان بعضهم يضعون حول أعناقهم قلائد تتدلى منها صلبان، بينما راح بعضهم الآخر يرسمون علامة الصليب بأيديهم ويتمتمون.

قال لي ليو: «إنهم يفكّكون الكنيسة. وإما أن تبقى صناديق الحجارة في المستودعات، أو تُعرَض في أحد متاحف الهواء الطلق».

«هل ما زالت الكنيسة مفتوحة؟».

«يمكنك القول إنها مصادرة، لكن الأمر يتعلق بما تعنيه بكلمة مفتوحة... فقد أقفلوها قبل أسبوعٍ من الزمن وبدأوا بتفكيكها البارحة. إنها إحدى الكنائس المحظوظة؛ لأن معظمها يُهدم ببساطة، بينما تُستخدم حجارتها كأساساتٍ

للمجمّعات السكنية الجديدة. أما إذا حفر المرء أحد هذه المشاريع السكنية فسوف يجد تحتها بعضاً من أحجار كنيسة أو ديرٍ قديم».

«ومن يكون أولئك الرجال؟».

«إنهم رجال الوزارة، وهم يتعاملون مع المونيين، ومنتظري اليوم السابع، وحتى المسيحيين الغريبين بعض الشيء. لكنهم جميعاً متساوون بالنسبة إلى رجال وزارة الأديان... هذا صحيح: وزارة الأديان». ضحك هنا مع بعض التجهّم قبل أن يُكمل: «كان الفلاحون القاطنون على الحدود في الماضي يعمدون إلى تشييد كنائسهم على عجلات، وذلك لكي يتمكنوا من تغيير أماكنها في كل مرة يتعرّضون فيها لغزو الأتراك. كان من الأفضل لهم أن يفكروا بهذه الطريقة الآن».

شرح لي ليو عندما تحركت السيارة مجدداً إلى وجهة سيرنا، وقال: «يجب أن يتواجد مستشفى في مكانٍ ما هنا، لكن هذا المستشفى ليس له اسم، وبما أنه جديد تماماً فأنا لا أجده على الخريطة. تعرضت روديكا للإجهاض... وزوجها موجود في مكان عمله في كلوج، ولن يستطيع الحضور إلى هنا إلا بعد فترة. لكن هذا ليس كل شيء، فقد نقلها بعض المغفلين من رجال الأمن إلى مركز الشرطة لأنها أجهضت طفلها. إذ يُعتبر فقدان الأطفال مأساة في معظم البلدان، أما هنا فيُعتبر جريمة».

«جريمة!».

«أجل، مثلما قال الرجل بذاته، الرئيس الرفيق، منارة التقدم نيكولاي تشاوشيسكو، دانوب الفكر. كان يعني ذلك، أوه، أجل. قالها بالفعل، وهو يعنيها حرفياً: الجنين هو ملك الشعب... لكن، وبالأساس، لا يريد أحد أن ينجب أولاداً في هذا المكان اللعين، غير أن نيكولاي العجوز أصدر قانوناً يقضي بأن تنجب كل عائلة ثلاثة أطفالٍ على الأقل. وقال إننا بحاجة إلى زيادة عدد

السكان! لا يهم ما إذا كان باستطاعتنا إطعامهم، أو تأمين وظائف لهم، أو إذا عاشوا حياة تعيسة... استعمال وسائل منع الحمل يُعتبر جريمة، والإجهاض جريمة، وحبوب منع الحمل جريمة كذلك. أما الآن، فإن فقدان الانسان لطفله يُعتبر جريمة شنيعة!».

مضى على وجودي في هذه البلاد شهر واحد، وأصبح بإمكاني تصديق أي شيء، وحتى تجريم النساء بسبب خسارتهن أطفالهن. مضت عشر دقائق إضافية قبل وصولنا إلى جادة لا تحمل اسماً، وحيث أيقن ليو أننا تائهان بالفعل.

فجأة، صرخ ليو بأعلى صوته، وصفع عجلة القيادة بيديه، ثم قال: «اللعنة، أين نحن بحق السماء!».

لم أكن بحاجة إلى التطلع نحو الخلاء الممتد حولنا لأعرف أن ما سمعته كان سؤالاً بليغاً. وإذا كان من الممكن تشييد ضواحٍ بهذا الاتساع، وهي التي تخلو من أي علامات حيث لا يستطيع المرء معرفة اتجاهاته فيها، فإن هذا المكان أبرز برهان على نجاح هذه الفكرة. ويعني ذلك أنه من المستحيل العثور على أثرٍ لهذا المكان؛ لأن العين تفشل في العثور على شيءٍ لا يمكنها التركيز عليه، ولكنها تواصل البحث عن أسطحٍ تستقر عليها. وأعتقد أن الساكنين يتيهون هنا، أو معظمهم على الأقل، ولكن ذلك قد يُعتبر نعمة بالنسبة إليهم قياساً إلى الأماكن التي سيعودون إليها.

استعان ليو بخريطة، ولكنها لم تقدّم له أي فائدة: «إن نصف الأماكن الموجودة على الخريطة لا أثر لها في عالم الواقع، علماً أنني اشتريت هذه الخريطة في العام الماضي فقط! اعتقدتُ أن هذا هو المكان الذي نقصده، لكنني لا أستطيع التعرّف على أي شيء هنا. يا إلهي. إنها ساحة الأضواء الحمراء، وكان المكان في ما مضى مليئاً بالمقاهي والفنادق التي تفتح أبوابها ليلاً نهاراً». هزّ ليو رأسه

غاضباً وتابع: «إن الأضواء الحمراء الوحيدة التي يمكننا رؤيتها الآن هي أضواء مكابح الشاحنات التي تعمل على نقل الردميات!».

لم نعثر على أي شخص لنسأله عن الاتجاهات، ولم نرَ أيّ سيارة يمكننا اللحاق بها. نزل ليو من السيارة وعثر على كشك هاتفي. كانت هذه الأكشاك كثيرة في بوخارست، وذلك بعكس ما كان يُسمح للمرء أن يقوله بعد دخوله إليها. رأيته يركل الكشك مراتٍ عدة، ثم بحث عن كشك آخر، وما لبث أن صرخ شيئاً ما في سماعة الهاتف.

بعد ذلك، سارت الأمور بسرعة. ففي غضون عشر دقائق وقفنا عند المدخل القذرة للمستشفى. بدا لي أن هذا المكان يبعد ساعتين ونصف، وعالمين اقتصاديين عن العيادة الفخمة ومزخرفة الجدران التي رأيتها في إبيديميا. رأيت سيارات إسعاف من نوع داسيا مركونة حول المستشفى، بينما وقف سائقوها حولها يدخّنون أو يتناولون الشراب. ركن ليو السيارة أمام المدخل، وصعدنا الدرج من دون أن يعترض طريقنا أحد عند وصولنا إلى الممر. لم نشاهد أي إشارات، أو ملاحظات، أو أسهم تشير إلى الغرف. وكان كل ما رأيناه خطوطاً من الدماء فوق أرضية الممر والجدران، وهي التي كانت دليلنا الوحيد. رأينا سلة مهملات مفتوحة، وكانت مليئة بالأربطة الملوثة بالدماء والتي تحلق حولها الذباب محدثاً ضجيجاً مزعجاً. تمايلتُ في سيري نتيجة هذه الرائحة التي تسبّب الدوار.

«أعرف أنكم عانيتم نتيجة خطة الضمان الصحي التي قدّمتها ثاتشر، لكنني أنصحك بأن تتحضر مسبقاً لما ستراه الآن». احتكت قدمي بشيء ما، وتبيّن لي بعد ذلك أنها سنٌ مستلقية على جذورها الملتفة، وبدت وكأنها قنديل بحر مستلقٍ على أذرعه. لم ترعبني قذارة هذا المستشفى، أو الفوضى المنتشرة فيه، بل أرعبني هذا الفراغ المنتشر في المكان: رأيت علامات تدل على الأمراض

والحوادث والصدمات، لكنني لم أرَ أحداً.

كانت روديكا أول شخصٍ نراه بعد وصولنا إلى الجناح، لكن أعيننا انجذبت إلى سريرها بسبب الدماء التي لطخت أغطية السرير. كانت شاحبة وباردةً، ومستغرقةً في نومٍ عميق لكنه غير مستقر. أمسك ليو يدها، وأعتقدُ أنه أراد التأكد من أنها على قيد الحياة. كنت سأفعل الأمر ذاته بدوري لو لم أشعر بالصدمة إزاء ما رأيته، لكن غطاء السرير كان يرتفع ويهبط كلما تنفستْ. رأيت حقنة وريدية بلاستيكية مثبتةً بيدها، وكذلك بعض الأنابيب التي امتدت من أنفها إلى صندوق مربّع الشكل ومزودٍ بمقابض على طاولة السرير. كان الصندوق شغالاً، لكن الضوء كان مطفأً.

رأينا نساء في مختلف مراحل حملهن: كان بعضهن مع أطفالٍ أحياء وبصحة جيدة، بينما أخريات مثل روديكا كن يرقدن تحت أغطية مليئة بالدماء وحاضنات الأطفال خالية قربهن. أما النسوة الباقيات فكنّ ينتظرن حلول موعد ولادتهن. انشغلت أمهات المستقبل بمراقبة الأمهات اللواتي فقدن أطفالهن، والعكس صحيح. كانت الأمهات اللواتي خضن تجربة الولادة بنجاح مصفوفات إلى جانب النساء المنتظرات موعد الولادة، والنسوة اللواتي تعرضن للإجهاض. سيطرت رائحة العرق والفضلات البشرية والسريرية على هذه الغرفة، وكانت عابقة بالخوف وبالحزن الساحق. رأيت أحد الممرضين وهو يشعل سيجارة ويلعب الورق في طرف الغرفة، ورأيت كذلك زجاجة شراب قربه. مشى ليو نحوه بينما علت الأصوات، وكان يلوّح بذراعه، غير أن الممرض ابتعد عنه ليشعل سيجارة أخرى، ويعاود اللعب بالورق. عندها، أمسكه ليو من معطفه الأبيض، بينما دفعه الرجل بعيداً عنه. مرّت فترة صمت، وما لبث ليو أن تناول علبة من سجائر كنت، وبعد ذلك تغيّرت الأمور.

فقد أُحضِرت بعض زجاجات المياه، وقطعة من الفلانيلا إلى سرير روديكا لأقوم

بترتيبها. كانت المياه باردة جداً لأنها كانت في الثلاجة. ضغطتُ على جانب زجاجة المياه فوق جبهتها التي كانت شديدة السخونة، ثم بلّلتُ قطعة الفلانيلا بالماء ومررتها فوق وجهها. نهضت الممرضة وصرخت في الممر، وما لبثت أن حضرت طبيبة في غضون دقائق قليلة. أومأت الطبيبة نحو ليو واقتربت من روديكا، ثم تفحصت حرارتها، وسألتني شيئاً باللغة الرومانية. فأشرت لها بعدم قدرتي على فهم كلامها، ثم سألتني بالإنكليزية: «هل أنت قريبها؟».

«كلا. إنني صديقٌ لها، وزميلها في العمل».

توجّهت الطبيبة نحو ليو ثم التفتت نحوي، وقالت: «تعال وأخبرني إذا استيقظت. وتابِع ما تفعله لأنه قد يكون مفيداً».

بدا لي أن الطبيبة متشائمة في توقعاتها، وأن أفضل ما تأمل عدم حدوثه هو الأسوأ. لم تكن الطبيبة أكبر مني سناً.

عرفنا بما حدث مع روديكا بعد فترة من الزمن، وكان شيئاً مريعاً. فقد كانت وحيدة في شقتها في الليلة السابقة عندما بدأت تنزف دماً. كانت تعيش في الطابق الثامن، وكان المصعد معطلاً، وهي لا تملك هاتفاً، ولكنها تمكنت بطريقة ما من نزول الدرج، ثم أيقظت أحد جيرانها لمساعدتها في الوصول إلى سيارة إحدى صديقاتها. وصلت روديكا إلى المستشفى عند الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل، وكانت غائبة عن الوعي بعد أن فقدت قدراً كبيراً من الدماء. فقدت روديكا جنينها، لكن بحلول الساعة السادسة صباحاً استقرت حالتها. تعافت بما يكفي لتتمكن من شرب القليل من الماء، وتأكل قطعة صغيرة من الشوكولا التي أحضرتها معها. أُرسِلت رسالة إلى زوجها الذي يعمل مهندساً في كلوج، لكن لم يُسمح له بالذهاب إلى المنزل. لم يعلم الزوج أبداً بما حدث بعد ذلك.

كانت روديكا وزوجها ينتميان إلى طبقة تكنوقراط رومانيا، وكانا من الحزبيين ذوي المراكز، ومن الطبقة الوسطى التي ساعدت على إدارة ما تبقى من البلاد بعد أن قضى النظام عليها. لكن، يصعب على المرء أن يتخيّل المعاملة التي يتلقاها من هم في أسفل السلّم الاجتماعي إذا كانت هذه هي المعاملة التي يتلقاها شخصٌ مثلها.

تلقّت روديكا زيارة من رجلَي أمن عند الساعة العاشرة من صباح اليوم، ولم تكن تلك الزيارة مستغربة لأن كل حالات الإجهاض تخضع للتحقيق. شرح لي ليو في وقتٍ لاحق أنه يُلاحظ أن أرقام الإحصاءات المتعلقة بحالات الإجهاض غير الشرعية أو تلك التي تُقدم عليها الحوامل عمداً كانت عالية بشكلٍ مخيف وبشعة إلى حدٍّ مرعب. وأضاف ليو أنه اكتُشفت أعداد كبيرة من الأطفال المعاقين، وعلى الأخص بعد سقوط النظام، وأن دور الأيتام في البلاد مليئة بهم. أما أعضاء الحزب فكانوا يقصدون العيادات لإجراء عمليات الإجهاض بصورة سرية. خطّط تشاوشيسكو لزيادة عدد سكان البلاد من ثلاثة وعشرين مليوناً إلى ثلاثين مليوناً بحلول العام 2000. وهكذا، فُرِضت ضريبة عدم الإنجاب على النسوة اللواتي يمتنعن عن الإنجاب رغم قدرتهن على ذلك، كما تمّ إرسال مسؤولين من أجل استجواب النساء بشأن عاداتهن الجنسية. وقد أعلن تشاوشيسكو: «يُعتبر كل شخصٍ يتجنّب الإنجاب فاراً»، وذلك عندما أعلن عن خطة ماما يوريكا [صحوة الأمهات] التي تشتمل على مكافأة الأمهات اللواتي يُنجبن خمسة أولاد أو أكثر. لكن البلاد كانت تخلو من الحليب ومن المواد الغذائية، كما كان من المستحيل العثور على أجهزة طعام معقّمة. أما التغذية بالتيار الكهربائي فكانت متقطعة وعشوائية؛ أي مثل الكوارث التي كانت تصيب الحضارات القديمة.

كانت روديكا تتلوى من الألم عند نقلها من المستشفى للتحقيق معها، كما

تُركت في الشارع خارج مركز الشرطة بعد مرور ساعتين على التحقيق معها. ولكنها تمكّنت بطريقة ما من العودة إلى المستشفى. غير أنها عندما عادت كانت تنزف بشدة، كما تعرّض جسمها لصدمةٍ سامة. رفض الرجال الذين حققوا معها التأكيد على ما إذا كانت سوف تدان أم لا. لكنّ ليو بحث عن العقوبة التي سوف تُفرَض عليها بحسب قانون العقوبات، وكانت جريمة بحق نزاهة العائلة الرومانية.

لم تشعر الطبيبة الشابة بالخجل، ولا بالذهول أو بالأسف، كما تحدّتنا أن نثبت تورطنا في المسألة برمتها. كانت تلك هي المرة الثانية - وإن كانت الأسباب مختلفة - التي شعرت فيها بالتحدي لتبرير شيء لا علاقة لي به: مرةً من سيليا التي تجاوزت كل مآسي بلدها، ومرة ثانية هنا على يد الدكتورة أوتيليا مورانو التي عاشت وعملت وسط تلك المآسي.

«ستكون بخير، ليس هناك الكثير مما يمكنك القيام به هنا، إلا إذا اعتبرت أن رؤية وجهٍ ودود قد يساعد. لكن ذلك أمرٌ محتمل».

ناول ليو الدكتورة مورانو علبة من سجائر كنت، ولكنها رفضتها. لكن، لكم من الوقت ستتمكن من الرفض؟ أعرف أن معظم الناس المحترمين هنا يُظهِرون مقاومة ظاهرية للرشوة. وأنا أحترم هؤلاء أكثر من أولئك الذين يذعنون على الفور، لكن العدد القليل الذي يُصرّ على رفض قبول الرشوة كان يثير الشكوك في واقع الأمر. وقد اعتاد ليو على الصياح في المرات النادرة التي يُصادف فيها شخصاً ما يعجز عن رشوته أو ابتزازه، إذ كان يقول: «يا لهذا النزيه اللعين!» ولكنه لم يقل شيئاً هذه المرة، بل اكتفى بأن تلمّس رأسه، وتطلع نحو الدكتورة مورانو متوسلاً. كانت الطبيبة شابة، ويحتمل أنها لم تعْتَد بعد على أن تلقّي الرشاوى لا يجعل المرء أسوأ، أو أن رفض الرشاوى لا يجعل المرء أكثر نزاهة.

أخذتُ علبة السجائر من ليو ورميتها على سرير روديكا، وقلت لها فجأة بعد أن شعرت بالاستياء مما أراه: «أستحلفكِ بالله أن تأخذيها، أو أعطيه إياها... » وأشرت برأسي نحو الممرض الذي كان يتطلع نحونا من فوق طاولة أوراق اللعب. «الأمر ليس هاماً. احرصي على أخذ السجائر من أجلها».

حدّقت الطبيبة إليّ ورمتني بنظرة تنمّ عن دهشتها في البداية لمجرد أنني تكلمت، ثم تحولت نظرتها إلى نظرات غضب لأنني افترضت أنها قد تقبل الرشوة. تراجع ليو إلى الوراء، وشعرت بأنه يراقبني، منتظراً كيفية انتهاء هذه المواجهة. تطلعت الدكتورة مورانو نحو الممرض الذي عاود النظر إليّ، وكان لسان حالها يقول: أنا لست مثله. ثم تقدمَت من سرير روديكا وتناولت علبة السجائر، ولكنها أبقتها بعيدة عنها وكأنها سلعة ملوثة.

سألتني الطبيبة بسخرية وبنظرةٍ غاضبة: «هل هذه هي الطريقة المتبعة في برنامج الرعاية الصحية الذي سمعنا عنه الكثير في بلادك؟».

همس ليو أثناء مغادرتنا المستشفى: «إنك دبلوماسي متمكن. عرفت أنك الرجل المناسب للوظيفة». مررنا أثناء عبورنا ردهة المستشفى بالممرض الذي كان في جناح روديكا، وكان حاملاً معه صناديق الأدوية وأكياس المصل. ابتسم الممرض عندما تطلّع نحونا من خلال دخان سيجارته، وهو الذي صار في خدمتنا منذ أن رشوناه. فكّرت في أنه من الجيّد أن يعرف المرء الأشخاص الذين يقبلون الرشوة، فأومأتُ نحوه إيماءةً رشيقة.

لم نصادف صعوبة في طريق عودتنا، وكانت الساعة تشير إلى التاسعة، بينما الشمس تسرع نحو غروبها، وتنثر نورها فوق الأفق. فتح ليو عند عودته إلى شقته زجاجة من الشراب الأحمر، وملأ لنا كوبين. جلسنا بصمت، وأكلنا خبزاً وجبناً ولحماً معلباً، بينما تلاشى ضوء الشمس إلى أن غابت تماماً وراء الضواحي

الغربية للمدينة.

عدت بعد ساعة من الزمن إلى شقتي سيراً على الأقدام، وعبر شوارع المدينة التي افتقدت إلى المصابيح الكهربائية. وقفت بعد ذلك في شرفة شقّتي، ونظرت إلى البعيد، ثمّ فكرت في بلدي من دون الشعور بالشوق أو الندم. وعدت بأنظاري إلى وسط المدينة الغارق بالأنوار الكشافة، والذي تستمر فيه أعمال البناء من دون هوادة في قصر الشعب الذي يخترق بضع سحابات مارة عبر الأفق. كانت الظلمة مخيّمة تحتي عندما التمعت شعلة كبريت من أحد المارة على الرصيف، وما لبثت أن اختفت في العتمة. تبعه آخرون في إشعال سجائرهم، فبدا المنظر وكأنه موجة تجتاح الشارع.

نمت جيداً في تلك الليلة. ومازحني ليو بعد ذلك عندما قال إنه نوم الذين لا يكترثون، لكنه لم يكن يمزح في واقع الأمر.

الفصل السادس

استيقظت باكراً في اليوم التالي، وشربت قهوتي على الشرفة. توقف هطول المطر منذ وصولي إلى المدينة، وهكذا انتشرت روائح بوخارست المزعجة: رائحة أدخنة الوقود، والسوائل المنسابة من أكوام النفايات، ورائحة الغبار القوية والنفاذة.

رأيت على الأرض تحت شرفتي كومةً من أعقاب السجائر، أي حيث وقف الرجل الذي تبعني من شقة ليو وانتظرني وراقبني. لكنني الآن لم أرَ أحداً هناك غير الأشخاص الذين يسيرون ببطء متجهين إلى مراكز أعمالهم، أو الذين يقتلون الوقت بانتظار القطار التالي. رأيت بائع سينتيا في الكشك يشرب من إناء معدني. حيّاني الرجل تحية الصباح، وأخذ يراقب الشارع صعوداً ونزولاً، ثم تطلّع نحو كومة أعقاب السجائر على الأرض. رأيت تحتي حارسة المبنى التي كانت عائدة من السوق. تطلعتْ إلى الأعلى، وأشاحت بنظرها بعيداً وبسرعة، ثم بحثت عن مفاتيح الباب الذي لم يوصد أبداً. لم يتغيّر أي شيء، لكنّ كل شيء كان يوحي بأن هذا الشارع معرض للمراقبة على نحوٍ مفاجئ.

تترافق مشاهد الملاحقة في الأفلام مع أجواء التهديد والتوتر، والتي تقود إلى مكانٍ ما على الدوام قبل أن تبلغ ذروتها بشكلٍ ما. أما في عالم الواقع، فإن العلاقة بين الرجل الذي يقوم بالملاحقة والشخص الملاحَق مسألة لا هدف لها، وملاحقة من دون بداية، أو منتصف، أو نهاية. إذ لا يتواجد أي شيء دراماتيكي عن الأمر. وما إن تنتهي الإثارة السرية حتى تتحول إلى تطمينات صغيرة أخرى من تطمينات الحياة، أي مثل خدمات الحافلات، أو توقعات الطقس الموثوقة.

في البداية، شعرت بالتوتر الشديد لأن شعلةَ عود الثقاب التي رأيتها في الليلة السابقة لم تكن عملاً سخيفاً قام به الرجل الذي رأيته خارج شقتي. فقد أراد

الرجل أن يبرهن لي أن الظلمة تخيّم على المكان، وأنه لا حاجة لمراقبتي طوال الوقت. قررتُ أن أنتبه أكثر منذ الآن فصاعداً، وأدركت أن الأمور تجري هكذا، وأن الأمر سوف ينتهي بي وأنا أقوم بالمهمة التي أرادوها لي. حضّرت كوباً ثانياً من القهوة، وصرت ألاحظ كل حركة، لذا ما إن بدأت بالغناء في المطبخ حتى صمتّ. أما أثناء استحمامي فقد حرصت على إقفال باب الحمّام، حتى إنني أحكمت إغلاقه جيداً. أعتقد أن هذا هو تأثير أعمال المراقبة والاستكشاف. فنحن لا نعود ذاتنا التي اعتدنا عليها، ونبدأ بالعيش إلى جانب ذواتنا. لكن، لا يمكن تغيير الطبيعة البشرية، وكذلك لا يمكن إيصالها إلى درجة الوعي الذاتي الذي يُفرغها من طبيعتها. تزايد في داخلي الشعور بالذنب والاضطرار إلى التخفي على نحوٍ مفاجئ بعد أن تطلعت على الشارع بأكمله الذي لم يكترث بتصرفاتي.

اتصلت بليو، لكنني لم ألقَ جواباً منه. يُحتمل أنه عاد متأخراً ولهذا تأخر في النوم، أو أنه كان عند جوانا ونام هناك بكامل ثيابه.

رنّ جرس الهاتف بعد قليل.

«ليو؟ هل هو معك هناك؟ كان يفترض به أن يقلّني إلى مركز الشرطة. يعني ذلك أنني لن ألحق بقطاري». كانت جوانا خطيبة ليو على الطرف الآخر من الخط.

«جوانا! اعتقدتُ أنه معك. فقد حاولت الاتصال به في المنزل، ولكنه لم يرد علي».

«حسناً، إنه ليس هنا. أين كنتما في الليلة الماضية؟».

أخبرتها أين كنا، لكنني تجنبت سرد معظم التفاصيل.

«يا لروديكا المسكينة! سأذهب لأراها عندما أعود. ليس من الغريب ألا يتصل بي ليو. وعلى أي حال، أين هو الآن؟ هذا هو السؤال».

«لا أعرف يا جوانا. فقد تركت شقّته عند نحو الساعة العاشرة وأتيت إلى هنا مباشرة. وافترضتُ أنه عاد إلى المستشفى، ثم رجع إلى المنزل في وقتٍ لاحق».

«لا يبدو لي أن الأمر كان كذلك. لكن، في أي مستشفى هي؟».

لم أعرف أبداً اسم المستشفى. وبدا لي أن المكان ليس له اسم، وليس من الممكن أبداً أن أعود إليه ثانية، لكنني حاولت وصف المبنى لها.

«همم... أعتقد أنني عرفت المكان. شكراً جزيلاً لك».

«أعلم أن عنده صفاً عند الساعة العاشرة، أي أنه مضطر إلى العودة لإعطاء محاضرته».

«إنه ليس مضطراً إلى فعل أي شيء؛ فنحن نتحدث عن ليو. لكن، ماذا بشأن قطاري!؟». وسمعتُ حفيف أوراق، كما أن صوتها بدا متوتراً مثل صوت خطٍ هاتفي مشوش. «سأطلب من جارتي إيصالي إلى محطة القطار. قل له أن يتصل بي هذا المساء، سأكون في شقة والديّ، وهو يعرف الرقم».

قرعتُ باب مكتب ليو في دائرة اللغة الإنكليزية، غير أنني لم أسمع رداً. لكن يونيسكو اعترض طريقي ما إن استدرت، وقال لي بلهجةٍ مرحة: «آهٍ! إنه الشاب عينه!». كانت رائحة الشراب الذي تناوله صباحاً غير واضحة تماماً بسبب العطر الذي وضعه والذي كانت رائحته أشبه برائحة رذاذ مكافحة الذباب. «أوقع صديقنا ليو نفسه في مأزقٍ كبير. أتريد أن نترافق لإحضاره من حيث هو؟».

«وأين هو الآن؟».

«إنه في مركز قيادة الشرطة في وسط بوخارست على ما يبدو».

طلب يونيسكو سيارة عبر الهاتف، ولكنها لم تصل قبل مضيّ عشرين دقيقة، وقد جلس خلال هذه الفترة إلى طاولة مكتبه وتجاهلني تماماً، منهمكاً بالطباعة وتناول بعض الحلويات من طبق كان أمامه.

رفع سماعة الهاتف، وأجرى محادثةً متقطّعة لم أفهم منها سوى اسم ليو واسم شخصية دعاها يونيسكو دمنول، أي السيّد؛ وهو اللقب الذي كان يستخدم لدى مخاطبة مسؤول أعلى رتبة، ولكن هذا اللقب ما لبث أن استُبدل بلقب توفارسول، أي رفيق. وكان من مصلحة المرء أن يدأب على استخدام هذا اللقب في هذا المكان الذي حوّلته الحياة فيه إلى متوسّل.

قلت له عندما أصبحنا داخل السيارة: «والآن، هل ستخبرني... ».

فقاطعني يونيسكو، ورفع إحدى أصابعه نحو شفتيه، ثم نحو أذنه، وتطلع إلى الخارج عبر النافذة، وأظهر اهتماماً خاصاً ببعض الشاحنات التي كانت تُفرغ حمولتها من أكياس الإسمنت في ذلك الوقت.

«إنه لأمر جيد أن يرى المرء كل أعمال البناء الكثيرة هنا. هذا هو ما تحتاج إليه بوخارست: مترو مناسب».

لم يتواجد في السيارة غيري وغير السائق، لكن يونيسكو تكلّم وكأنه يخاطب مجموعة من الغرباء. كان حديثه إجراءً مناسباً لو كانت السيارة معرّضة للتنصت. فقد اعتاد الجميع هنا على التحدث بهذه اللهجة التي تناسب الحديث الخاص والعام في الوقت ذاته؛ وهي لهجة تُستخدَم لإعطاء تصريحاتٍ لا تعني شيئاً، أو تمرّ مرور الكرام على آذان من يسمع الحديث. كان هذا النوع من الحوارات التي تناسب المخاطَب شفافة مثل الماء، ونحن جميعاً تحدّثنا بها. كان فلوبيرت يحلم بأن يكتب كتاباً عن لا شيء، ولكنه اكتشف أن ذلك مستحيل، وأن اللغة تدخل في الأشياء وتعلق بها مثل الكلاّب، وأنه عاجزٌ عن

فعل أي شيء لكسر هذه الكلاّبات التي تربطها بالعالم. أما هنا في رومانيا فقد أقدم الناس على مهمة فلوبيرتية حقيقية هذه المرة.

رأيتُ أمام مركز الشرطة تمثالاً من الرخام الأبيض للرفيق الأول [الرئيس تشاوشيسكو]، وقد احتلّ المساحة الصغيرة المتوافرة أمام المبنى، وكان التمثال أمام خلفية من حجر متكسر، وأعمدة نصف مشيّدة. رأيت غجرياً واقفاً على سلّم، وهو يلمّع حاجب القائد الذي بدا بوضوح. كانت تماثيل تشاوشيسكو تمثّل حجماً ونصف من الحجم الحقيقي، حيث يبدو المرء صغيراً إذا وقف إلى جانبها. لكن، من الناحية الواقعية، إن المرء يشعر بانتقاصٍ في إنسانيته في هذه الحالة. صنع صدام حسين، وكيم إيل سونغ تماثيل عملاقة تمثّلهما، وكان طول الواحد منها يبلغ سبعين قدماً، لكن تمثال تشاوشيسكو ليس كذلك. فقد أراد الرجل وببساطة أن يبدو مختلفاً، أي نسخةً متفوقة عن البشر، وكما يليق بقائد دولة علمانية تؤمن بالتفوق البشري، وليس بتفوق الطبيعة. كان هذا الاعتدال عينه هو الذي يجعل تماثيل تشاوشيسكو مبالغاً فيها، ويجعل الاقتراب منها مزعجاً.

وصلنا إلى مجمّع الشرطة، وكان يونيسكو متوتراً جداً عند وصولنا إلى حاجز التفتيش، إذ كانت يداه تتمسكان بجانبي مقعد الداسيا. كان الرجل بحاجة إلى تناول مشروب، ولكنه بدلاً من ذلك دخّن سجائر كارباتي الواحدة بعد الأخرى. وعند وصولنا إلى مدخل المبنى، طلب يونيسكو من السائق أن ينتظرنا، ثم أمسكني من ذراعي ودخلنا عبر الأبواب المزدوجة.

شَهَرَ يونيسكو بطاقة هويته أمام مجموعة من رجال الأمن التابعين لنقطة التفتيش. افترضتُ أنه قد اتصل قبل ذلك لإتمام معاملات إطلاق سراح ليو، ولكنني لم أستطع فهم أي شيء من الحديث الذي كان يجري أمامي. كان كل ما لاحظته هو أننا اجتزنا الحراس بسهولة؛ الواحد تلو الآخر. كان يونيسكو يشهرُ

في كل مرة بطاقة هويته، ويرفقها بمجموعة من الدولارات. وهكذا، كان مثل فراشة بجناحين من الأوراق النقدية. نزلنا المبنى طابقاً إثر آخر، لكننا وصلنا أخيراً إلى مصعد كان صغيراً جداً حيث لا يتسع إلا لرجلٍ واحد. غمرني الخوف من أن يكون هذا المصعد فخاً لنا عندما وقفت فيه وحدي، وخشيت ألا أتمكن من مغادرة المكان أبداً، لكن المصعد تحرك صعوداً، وعاد حاملاً معه يونيسكو الذي انضمّ إليّ. فكّرت في أنه يسير في المكان وكأنه يعرف طريق التجوال في أماكن كهذه، لكنني لم أتمكّن من تحديد طريقة اكتسابه هذه المعرفة.

وصلنا أخيراً إلى نقطة النهاية، والتي كانت عبارة عن ممرٍ طويل يتفرع إلى ممرات أصغر منه، ولكنها مقفلة بقضبانٍ. بدا المشهد وكأنه النسخة السوفياتية من أليس في بلاد العجائب. كانت الممرات تضيق كلما توغلنا فيها، وكانت مبنية من الأحجار، ومطلية بلون البيج اللامع، كما أن السقوف مقوسة، بينما تمايلت المصابيح من السلاسل التي كانت معلقة فيها. كانت رائحة النظافة تفوح في المكان، وكذلك رائحة المواد المعقّمة. كان من الواضح لي أنه يتم تنظيف المكان في أوقاتٍ منتظمة، وأن العنف قد أُطلِق فيه من عقاله، بل يمكن القول إنه كان ممارَساً فيه فعلياً. سمعنا أصوات اصطدام بالقضبان وأصداء هذا الاصطدام من البعيد، ولكننا لم نسمع أي صوتٍ بشري. جلسنا إلى طاولة بلاستيكية منتظرين. كتّف يونيسكو ذراعيه وتطلّع نحو حذائه، بينما ركّزت ناظريّ على العفونة المتراكمة والزاحفة على الجدار بالقرب من ركبتي. بدا لي أثناء تركيزي عليها أنها تتحرك وتنمو أمام عينيّ. انحنيت لكي ألمسها، فتطايرت على أصابعي مثل المسحوق.

سمعنا صوت ليو قبل رؤيتنا له.

«آه، نعم. أريد أن أتحدث مع وحدتكم الأمنية الخاصة بالأمراض النسائية على الفور!».

لكن كلامه قوطع بصفعةٍ على الخد، والتي تردّد صداها في أنحاء الممرات. لكن الصفعة لم توقفه سوى للحظةٍ وجيزة.

«اللعنة على الشرطة. اتصلت برقم الطوارئ، ولم ألقَ جواباً. أيُحتمل أن يكونوا الآن في أسرّتهم، وأنهم يقومون بواجبهم الوطني؟».

بدت علامات التوتر على الرجلين اللذين سلّما ليو إلينا أكثر من علامات الشر، واللذين افترضت أنهما مسؤولان عن الكدمة السوداء التي ظهرت على عينه وشفته النازفة. كانا أداتَي الشر بالنسبة لي، وبالرغم من أنهما مارساه، فقد بدت نظراتهما سلبيةً بطريقة غريبة إزاء ضحيتهما. أقدم أحدهما على التربيت على كتف ليو، فلاحظت الاحمرار على عُقَد يده اليسرى. أما رفيقه فقد نفخ خدّيه وزفر، وبدا أنه مرتاح لأنه سوف يعود إلى ممارسة سلطاتٍ أكثر استقامة. رفع ليو يده تحية للرجلين أثناء انصرافهما، وكانا يهزّان رأسيهما. وبدوَا كأستاذين متعبين يسلّمان ولداً صعب المراس إلى والديه.

كان ليو رجلاً قوياً. وأعتقد أنه لو كان بإمكان شخصٍ ما أن يمضي ليلةً في زنزانة رومانية، ويتمكّن من الخروج منها بحالةٍ أفضل من حالته لدى دخوله إليها لكان ليو ذلك الشخص. لكن رائحته كانت مزعجة؛ إذ كانت خليطاً من روائح العرق، والشراب، والبول. بدت شفته المشقوقة مغطاة ببقعة سوداء غير قابلة للشفاء. أما عينه اليسرى فكانت مطبقة. ولاحظت جرحاً عميقاً على حاجبه الذي بدا لزجاً ومغطى بالدماء، وعليه أجزاء صغيرة جداً من التبغ، وذلك بعد وضعه ورقة سجائر على جرحه من أجل إيقاف نزف الدم. احتاج ليو إلى بعض القطَب، غير أنه وبالرغم من وضعه، كان يضج بالحيوية، لكنه تأثر بالشراب والألم وقلة النوم.

فتح ليو ذراعيه قائلاً: «يا رفيقيّ! ما كان عليكما المجيء، فقد كنت سأغادر على

أية حال... » ومسح فمه تاركاً خيطاً من الدم فوق يده.

بدا لي أن رحلة عودتنا إلى النور قد استغرقت ساعاتٍ عدة. لكنّ مرورنا عبر نقاط التفتيش كان يطول أكثر عند كل نقطة، وذلك بسبب نفاد النقود التي استخدمناها للرشوة. أما الأشخاص الذين أعطاهم يونيسكو أموالاً من فئة الدولار قبل دقائق قليلة فقد تصرفوا وكأنهم لا يعرفونه أبداً، واكتفوا بالعبوس في وجهه، وجهدوا لإطالة تدقيقهم لأطول فترة ممكنة. قال ليو هامساً بصوتٍ يكاد يكون مسموعاً: «حتى الفساد لا يسير بالطريق الصحيح هنا». كانت الأوراق تخضع للتدقيق، وتؤخذ لفحصها. لكنني عثرت في جيب سترتي على علبة سجائر من نوع كنت، وورقتين نقديتين من فئة عشرة دولارات، فسلّمتها إلى يونيسكو الذي دسّها في يد أحد المسؤولين. أغمضنا أعيننا نحن الثلاثة فور خروجنا إلى حيث ضوء الشمس يغمر الأجواء.

سألَ يونيسكو: «أين سيارتك يا ليو؟».

«تركتها في موقف سيارات أثينيه بالاس. أريدك أن تتلطف بنقلي إلى هناك، وأنا سأقودها إلى المنزل وأغتسل. وعندها، ربما سأتمكن من إعطاء محاضرتي لصف الساعة الحادية عشرة».

«يمكنك أن تعتبر نفسك في عطلة هذا اليوم يا ليو. لا أريد أن أراك، ونحن سوف نؤمن تغطية صفوفك». تابع يونيسكو حديثه الجدّي باللغة الرومانية بعد ذلك. أصغى ليو، ثم أجاب بحبور محاولاً تحويل كل الحديث إلى دعابة. وأخيراً، استدار نحوي وغمزني بعينه السليمة.

عند وصولنا إلى أثينيه بالاس، طلب يونيسكو من السائق أن ينصرف قائلاً له إنه سوف يمشي ما تبقى من الطريق. ثم اقترب من ليو، وربّت على كتفه بشدة، وقال له: «هل تدرك خطورة هذا؟».

«حسناً يا بروفيسور، انظر إليّ. يمكنني القول إنني أخذت فكرة واضحة نوعاً ما عن مدى خطورة الأمر... ».

«أنت تقوم بتسخيف كل شيء! إنها ليست لعبة، وكونك أجنبياً لا يخلّصك من المتاعب على الدوام، ولا كونك على هذه الشاكلة يخلّصك أيضاً... ».

«آسف يا ريّس». أظهر ليو علامات الندم المبالغ فيه، وحوّل نظراته نحوي.

«اسمع، لا تبدو الأمور مستقيمة بالنسبة إليّ في هذه اللحظة. فمركزي ليس آمناً بما يكفي لأخذ مخاطر كهذه. وعلى أية حال، إنني لا أملك الوقت لإنقاذك في كل مرة تُقحِم نفسك فيها في المتاعب... إنني لا أملك الوقت لفعل أي شيء في هذه الأيام... ».

«آمل يا بروفيسور أن يكون هذا هو المجال الوحيد الذي لا تُفلح فيه. وأقول لك هذا لأجل طلابك إذا لم يكن لأجلي أنا... ».

تطلع يونيسكو نحو ليو وهزّ رأسه، ثم أحاطه بذراعه. تقدّم ليو إلى الأمام، وأغمض عينيه. كان الرجلان متعبَين نتيجة الأسى والارتياح، وبدا ليو صغيراً ومهزوماً للحظةٍ من الزمن. نحيتُ نظري جانباً إلى أن انسحب يونيسكو وأصلح وضع نظارته.

«بالمناسبة يا دكتور أوهاي، إنك تدين لي بمبلغ خمسين دولاراً، وعلبة من سجائر كنت، وذلك بالإضافة إلى عشرين دولاراً لزميلنا الجديد هنا!». بدأ يونيسكو بالابتعاد، وتركنا في موقف السيارات.

«سوف أرسل لك شيكاً بالبريد!».

«ها». ارتفعت يد يونيسكو في الهواء دافعة الهواء مع قدرٍ كبير من عدم الاكتراث.

بحث ليو في جيوبه ليكتشف أنه فقدَ مفاتيحه ومحفظته. «ضاع كل شيء، مفاتيح السيارة، ومفاتيح المنزل، ومفاتيح المكتب، والمال، وبطاقة الهوية. ضاع كل شيء. اللعنة، لا بد أن الرجل الذي شاركني الزنزانة هو الذي فعل ذلك، وهو الذي كان يتظاهر أنه ثملٌ. اتّصل بجوانا، فهي على الأقل سوف تسمح لي بالعودة إلى الشقة».

«ذهبت جوانا إلى إياسي. لقد اتصلتْ هذا الصباح لتسأل عنك».

«حسناً، يبدو أنك سوف تمنح صديقك العزيز مكاناً يلجأ إليه لبضع ليالٍ». وتقدم نحو سيارته التي كانت مركونة بشكل أفقي، والتي احتلت مكان سيارتين، لكن عجلاتها كانت مقيّدة. حكّ ليو جبهته، ثم رفع قدمه استعداداً لركل سيارته، ولكنه توقف عن ذلك في اللحظة الأخيرة.

جلس ليو تحت مظلة في حديقة الفندق المخصّصة لتناول الشراب وقال: «أريد أن أتناول مشروباً. أريدك أن تحضر لي الشراب لأنني لا أملك المال، وبعيدٌ عن المنزل».

كان مقهى أثينيه بالاس هو المكان المفضّل بالنسبة إلى المدمنين على الشراب، وكان أنيقاً وخافت الأنوار بشكلٍ متعمَّد. لكنّ العلامة الوحيدة التي تربطه بالقرن العشرين كانت سلسلة من المصابيح التي امتدت تحت حافة الواجهة؛ وهو الأمر الذي يُبرز تصميم السجادة المتموج. وهكذا، يُصاب المرء بدوار البحر بعد تناوله أكواباً قليلة من الشراب وتطلعه إلى الأرض.

كان المقهى خالياً من الناس، ما عدا بعض رجال الأعمال الكوبيين الذين انهمكوا في عقد صفقة أثناء تناولهم الشراب الأسكتلندي وبعض الشطائر. وفيما كنت أراقبهم شعرت بالجوع، لذلك طلبتُ بعض الشطائر لنا. أدركت أنني كنت جائعاً طيلة الوقت في بوخارست؛ وذلك بالرغم من أنني لا أعاني صعوبة من

عدم تناول الطعام. أدركت أيضاً أنني كنت أستوعب الجوع المخيّم على المكان من دون أن أعاني منه.

تطلعتْ نحوي مومس مستهترة من وراء منفضة سجائرها، فيما كانت تكوّم رماد سجائرها بين نفثة ونفثة. كانت عيناها شاردتين ومحمرّتين، بينما كان جسدها النحيل يتمايل ويتراجع فجأة مع ألوان ثيابها. لكن الفتيات في مثل حالتها لم يكن يُسمح لهن بدخول الفنادق السياحية، وكن يتعرضن للطرد بعد ظهور علامات المرض والتجاعيد على أجسادهن. افترضتُ أنه لم تتبقَ لها سوى أسابيع قليلة قبل أن تبدأ بخدمة الثملين في مواقع البناء الواقعة خارج حدود المدينة. كانت هناك امرأتان أخريان جالستَان إلى طاولة، وكان وجهاهما مشدودين، كما كانتا تتصفان بجمال أخذ يذوي. كانتا تقرأان مقالة في مجلة ألمانية عن أسلوب الحياة الألماني. رفعت المرأتان وجهيهما عندما دخلتُ، وبدتا مثل الخيول التي أجفلت وتوقّفت عن الرعي، ثم عاودتا النظر إلى الأسفل.

سألتُ: «هيا. هل ستقول لي الآن ماذا حدث معك؟».

توقّف ليو هنا - في أثينيه بالاس - بعد عودتنا من زيارة روديكا، وتناول عدة أكواب من الشراب مع بعض رجال الأعمال الألمان. «أصدقك القول بأنني نسيت سبب الجدال الذي نشب بيننا. يُحتمل أن السبب كان شيئاً ما قلته... أو لعله شيء قالوه... على أي حال، أمسكني كراوت الضخم من عنقي، وبدأ بضرب رأسي بالطاولة. لكنهم كانوا الضيوف ولم أكن أنا ضيفاً. وهكذا، جاءت مومسان تحملان كلاّباً بحجم ذراعي، ثم جاء شخصان من الوزن الثقيل ورمياني خارجاً».

«إذاً، كان يجب عليك التصرّف بحكمة والانصراف إلى المنزل؟».

لكن ذلك لم يحدث. فعندما أدرك ليو أنه أصبح خارج الفندق، رأى سيارتَي مرسيدس سوداوَي اللون. كانت خطوته التالية أن يحفر كلمة مغفل، أو الأرجح

أنه أراد أن ينال من الألماني أكثر، فحفر كلمة آرس لوك على غطاء محرّك السيارة. كان من الممكن أن تكون هذه نهاية القصة، لكن ليو قرر العودة لشرح الدعابة التي قام بها، إلا أنه دُهش عندما رأى رجال الأعمال الألمان يضحكون. لكن عندما وصل رجلان من الشرطة الألمانية، وجرّاه إلى الخارج، ثم ضرباه على يديه ورجليه بالعصويْن اللتين يحملانهما، حينها أدرك أنه كان هو هدف الدعابة وضحيّتها، ولهذا ضحك الألمان. كانت السيارة تابعة للسفير الروماني في ألمانيا، والذي كان يستضيف زوّاره في أثينيه بالاس. كان ليو محظوظاً لأنه قضى ليلة واحدة في زنزانة فقط، ولم يتعرض سوى لضربٍ بسيط. تقاسم ليو مع زميله في الزنزانة زجاجة من الشراب، لكن يُحتمل أن ذلك الرجل الثمل كان طيباً في الظاهر، إلا أنه عمل لصالح الاستخبارات على ما يبدو، وثمل لساعاتٍ قليلة قبل أن يعود إلى مسرح الجريمة.

ختم ليو تأملاته هذه بالقول: «أجل، كاد الأمر يكون أسوأ بكثير».

وصلت شطائر اللحم أخيراً، وكانت أشبه بأبراجٍ من الخبز المحمّص واللحم. لكن، لماذا حرص يونيسكو على إخراج ليو من السجن؟ تساءلتُ عن النفوذ الذي يُمكن أن يحصل عليه أستاذ جامعة كبير في السن.

قال لي ليو: «أجل، يونيسكو رجل طيّب، وهو يعرف كيفية معالجة هذه الأمور. وإذا وقعتَ في مشكلة، أعني مشكلة حقيقية، فيمكنك أن تقصده». لكنني صُدمتُ بما قاله بعد ذلك: «ستكتشف بأنه من المفيد جداً أن يُعيّن كولونيل في الاستخبارات ليكون رئيس دائرة في الجامعة».

رفض ليو إعطائي المزيد من التفاصيل. طلبتُ منه إعطائي فكرة عمّا يقصده، وإخباري ببعض القصص الإضافية، إلا أنه قال: «قلتُ لك كل ما أعرفه». ففهمتُ من كلامه هذا، ومن سياق هذا المكان وهذا الوقت أنه يعني: «هذا

كل ما أريد أن أقوله لك».

أعطيتُ ليو مفاتيحي، وشاهدته عندما قفز إلى عربة القطار الكهربائي المتوجّه إلى هيراستراو. ترك ليو حزامه في مركز الشرطة، ورأيته عندما قفز إلى داخل عربة الترام ممسكاً الجهة الأمامية من بنطاله بإحدى يديه، بينما أمسك باليد الأخرى مقبض باب العربة. يمكن للمرء أن يعرف الناس على مدى سنواتٍ عديدة، لكن يمكن لكل شيء أن يتغيّر معهم وتبقى صورة واحدة عالقةً في ذهنه ومتعلقة بما يعرفه عنهم. أما بالنسبة لي، فإن صورة ليو التي أراها الآن هي التي سوف تبقى عالقةً في ذهني.

عدتُ إلى الجامعة، ومررتُ بمكتب يونيسكو، وتطلعت من خلال الباب المفتوح وكأنني سوف أتمكّن من معرفة شيءٍ عن حياته السرّية عن طريق التطلع مجدداً إلى كتبه وأثاث مكتبه. كان جالساً في مكانه المعتاد، بينما كانت النوافذ مفتوحة وراءه، والستائر تتطاير مثل الأشباح وراء ظهره. كانت نظارته متوازنة على أرنبة أنفه، وكان منشغلاً بالقراءة، بينما كان رأسه ثابتاً من دون أن يتحرك. «نعم؟». قال ذلك بلهجةٍ حيادية إلى درجة أنني تساءلت عمّا إذا كنت أعيش حلماً نهارياً منذ هذا الصباح.

أجريت اتصالاً مع ليو لأعرف كيف حاله. سمعت أصوات الموسيقى العالية عندما أجابني، كما سمعت صوت مياه الاستحمام. «عظيم، أجل. شكراً لك. إنني أغتسل لأتنشط!». ووَعدني بتحضير طعام العشاء لي. تخيّلت وليمةً مؤلفة من الخبز الخارج من الثلاجة، والحبوب والأسماك المشوية؛ وهي الأشياء الوحيدة التي يحتفظ بها ليو في مطبخه. كانت تلك الأصناف سيئة بما يكفي، لكن طبقه المفضّل كان شاسيوير بالدجاج. لم يسبق لي أن تذوقت ذلك الطبق،

لكن يونيسكو تذوّقه من قبل، وقد قال لي: «إذا كنت تعتقد أن مصيبة ليو هي سوء لفظه للكلمات الفرنسية فيجب عليك أن تعيد التفكير في الأمر، وذلك لأن لقمة واحدة من شاسيوير بالدجاج تقنعك بأن هذا الطبق لا يمتلك أي اسمٍ آخر».

جاءت سيليا إلى مكتبي بعد مرور ساعة واحدة من الموعد المتفق عليه، ودخلت المكتب من دون أن تطرق الباب. كانت إحدى السيارات بانتظارها، ولكن محركها بقي شغالاً، بينما ارتدى سائقها سترة باللون الأزرق الشاحب، واعتمر قبعة. نقلنا السائق إلى الحدائق النباتية، ثمّ ركن السيارة خارجها أمام لوحة كُتب عليها «ممنوع الوقوف» بأحرف صفراء اللون.

أمسكتْ سيليا يدي، وأعتقد أنها شعرت بأنني أريدها من طريقة ارتعاش يدي عندما لمستني، وذلك لأنها نزعت نظارتها، وابتسمتْ تلك الابتسامة الشاردة والمتواضعة التي تبتسمها امرأة اعتادت على صدّ الرجال بلطف. وبعد ذلك، تركت يدي مجدداً.

أحضرت سيليا معها زجاجة من الشراب اليوناني، وفتحتها ثم وضعتها على بطانية مخطّطة فوق البساط العشبي. استلقت بعد ذلك على ظهرها، ثم رفعت نظارتها فوق شعرها، وسمحت لأشعة الشمس بالوصول إلى عينيها. انزاح القميص الذي ارتدته إلى الأعلى فظهر بطنها، والقسم الأعلى من سروالها الداخلي أسود اللون تحت سروال الجينز الذي ارتدته. لم أرَ جزءاً كبيراً من جسدها، ولكنني رغبتُ به كله، أردتُ أكثر من أي شيء آخر تذوق جلدها المتعرّق والقريب مني، والذي يفوح بعطر شانيل والعَرَق؛ تلك البشرة الناعمة والداكنة إلى درجة بدا معها أن لونها يصبح داكناً أكثر بفعل أشعة الشمس فيما كنت أراقبها.

كانت الأرض حولنا مرويةً منذ وقتٍ قصير، بينما القبب سداسية الشكل للبيوت الزجاجية ساكنة، فيما الأرض تمتصّ الرطوبة. كانت النباتات الموجودة في الدفيئة الاستوائية ذابلة، وبدت أوراقها مثل أيدٍ مقلوبة؛ وكأنها تتوسّل إلى شيء ما خلف الزجاج الذي يحتويها في الداخل. كانت أطراف بعض الأوراق محاطة باللون البني؛ وهذا يعني انخفاضاً مفاجئاً في درجة الحرارة، أو أنها حصلت على قدر كثير أو قليل من الماء. كانت هذه النباتات تموت ببطء بدءاً من الخارج ووصولاً إلى الداخل. بدا المشهد مثل مصحٍ عقلي أكثر من كونه بيتاً زجاجياً للنباتات. وعلى الأخص مع كل هذا التأوّه، والنباتات المصابة. تحوّلت الفحم المشتعل إلى رماد، بينما بقيت المدافئ الكهربائية ذات القضيبين في الزوايا من دون كهرباء. نمت نباتات الهندباء بأعدادٍ كبيرة بين نباتات الحديقة المزروعة، وكانت أوراقها أكبر من المعتاد، كما أنها بدأت بالزحف والتكاثر فوق كتل السماد، فيما التفّت الأعشاب الخانقة حول النباتات التي نبتت بينها وحول كل جذع وساق منها.

«إذاً، ما الذي دفعكَ إلى المجيء إلى رومانيا؟». فركت سيليا ورقةً بين أصابعها ففاحت رائحة النبتة الغريبة والنظيفة ممزوجة برائحة النعناع. طرحتْ عليّ هذا السؤال، وكأنه سؤالٌ مفخَّخ. لكن، يُحتمَل أن الفخّ الوحيد كان في جوابي عندما قلت لها إنه لم تكن لديّ أي فكرة بأنني سأقع في مكائد ليو ويونيسكو، بالإضافة إلى عددٍ لا أعلمه من الأشخاص الآخرين الذين قد ألتقيهم. ولكنني قلت لها إنني أردت زيارة بلدٍ بإمكاني تعلّم لغته، وإنني متعاطف من الناحية السياسية مع مبادئ الشيوعية، ولكن ليس مع سلوكيات الشيوعيين، وبالتأكيد ليس بعد الآن.

فقالت من دون اكتراث: «أعتقد أنك لا تعرف شيئاً».

«هذا صحيح، وإلا ما كنت لآتي. إنني سعيد بوجودي هنا». لم تكن العبارة

الثانية صحيحة تماماً، أو على الأقل ليس في ذلك الوقت. حاولت قولها فبدت مقنعة في ذلك الوقت، ولكن في النهاية التي لم تكن بعيدة كنت أعنيها.

«لا أحد يعرف شيئاً عن رومانيا، وعنّا، وعن ثقافتنا ومشاكلنا. إننا بلدٌ منسي، ونحن لسنا مثيرين مثل التشيك، أو شجعاناً مثل البولنديين، ولا نمتلك أمثال هافل ولا وايلز... ».

قلت لها: «لا يبدو لي أنكم تعانون من مشاكل كثيرة». تطلّعت نحو سيليا، ثم فكّرت في روديكا القابعة في غرفتها في المستشفى، وقلت لها: «لديكِ شراب يوناني، ونظّارة شمسية إيطالية، وملابس غربية. حتى إنك ترتدينها بشكلٍ أفضل من معظم الغربيين... وتقودين سيارتك الخاصة. لا، أنا آسف. أقصد أن أقول إن لديك سائقاً يقود لك سيارتك... أنتِ، وأنا أعنيك أنتِ شخصياً، لا تبدين وكأنك تحتاجين إلى أشخاص مثل هافل أو وايلز. لكنني لست متأكداً من هذا بالنسبة إلى معظم مواطنيك... ».

قالت بعد أن أشارت إلى كل المتواجدين قربنا، وفي الخارج، وما وراء المكان: «إنني لست جزءاً من كل هذا... إذا كان ذلك ما تعنيه... ».

«لستِ جزءاً من هذا! ما الذي تقصدينه بهذه العبارة؟ وما الذي تقصدينه بكلمة هذا بالضبط؟ هل تعنين أنها ليست مسؤوليتك، أو أنك لستِ مضطرة إلى المعاناة مما يعانيه شعبك؟».

فكّرت في أن ما قلته قد ينهي علاقتنا التي لم تبدأ بعد.

«أنت لا تعرف، وليست لديك أي فكرة، لكنني سوف أشرح لك أيها السائح الفضولي... ».

كانت تلك عبارة رائعة، فتساءلت عما إذا كانت قد حضّرتها في ذهنها مسبقاً.

احمرّت وجنتا سيليا، ولكنها عندما أصبحت غاضبة بدا لي أنني أشمّ رائحتها أكثر؛ أشم عطرها وأشعر بحرارة جسدها.

«هل أنت متأكد من أنك لم تأتِ إلى هنا لكي تصبح جزءاً من شيء ما، ولن تضطر أبداً إلى العيش معه؟». سألتني وكأنها آسفة بشأني، أو كما لو أنني غريبٌ عن دوافعي. فلم أجبها. اختبأتِ الشمس وراء السحب للحظة، وهكذا انخفضت الحرارة.

«أريد أن أريك شيئاً... » وجرّتني سيليا من يدي، وأخذتني إلى غرفةٍ على شكل قبة صغيرة وأنيقة، والتي كانت منفصلة عن بقية الحدائق، وكانت تخضع لحراسة أحد رجال الأمن الذي كان يرتدي زيّ عمل، ويحمل بيده جهازاً لاسلكياً، ومسدساً جاهزاً للإطلاق. حتى إن عمال الحديقة كانوا مختلفين عن زملائهم. امتلك أفراد الطبقات العليا في المجتمع (نومنكلاتورا) متاجرهم ونواديهم، ووكالات سفرياتهم، ومدارسهم، ونوادي سباحة ومطاعم خاصة بهم. يبدو كذلك أنهم امتلكوا دفيئاتهم وحدائقهم النباتية الخاصة بهم.

رأيت في الداخل نبتةً لا تزهر إلا كل عقدٍ من الزمن. تمكّنا من رؤية هذه النبتة في نهاية فترة إزهارها، وكانت تنكمش إلى الداخل، وتستعد لدورة أخرى من السبات. كانت هناك حشرات تعيش لنصف يوم فقط، وهي التي تُعتبر دورتها حلقة مصغرةً من الحياة، وكانت هناك نباتات مثل هذه، تتواجد لمئة سنة، ولكنها لا تعيش سوى لأسبوعٍ واحد كل عشر سنوات. تعيش هذه النبتة كل حياتها في براعم ضيّقة وقليلة ملتفةً حول مدقة شديدة الدقة. لم أعتبر هذه النبتة هامة - وهي التي يعتبر جزء واحد منها فقط زهرة، فيما الأجزاء الثلاثة المتبقية هي التي تمنحها سمعتها - لكنها كانت نادرة بما يكفي للبيت الزجاجي (الدفيئة) لكي لا يشتمل على أي نوع آخر من الحياة النباتية. أما طوال السنوات التسع والأسابيع البالغ عددها واحداً وخمسين أسبوعاً والمتبقية من

العقد، فإن الزائرين مضطرون للاكتفاء بالنظر إلى صورة ملونة مثبتة على إطار خشبي. كانت هناك ورقة معلقةٌ إلى جانب الإطار، وقد أعلنت بفخرٍ أن نماذج أخرى من هذه النبتة تتواجد في حدائق قصر التويلري، وفي الحدائق النباتية التابعة لجامعة أكسفورد. أظهر صندوقٌ زجاجي إلى اليمين نسخة باهتة من صحيفة يعود تاريخها إلى العام 1979، وكانت صورة نيكولاي وإيلينا تشاوشيسكو وهما ينحنيان فوق هذه النبتة، كما توجد نسخة عن صورة تمثلماري - ملكة رومانيا - وهي تحمل النبتة عندما كانت صغيرة، أو واحدة من أسلافها، وكانت موضوعة في إناء فخاري. وقفنا هناك في الغرفة الزجاجية والعرق يتصبب من جسدينا، بينما كان أحد العمال يسكب ماء على صينية من الفحم المشتعل، وكاد جلدي يتشقق بفعل الحرارة الشديدة، فيما فاحت في المكان رائحة العنبر.

حاولت في وقتٍ لاحق تقبيل فمها، ولكنها أشاحت بوجهها بعيداً عني. «لا تحاول تقبيلي من فضلك». لم تشعر بالأذى أو الإهانة، لكن صدّ هذه المحاولات السخيفة جاء في السياق الصحيح.

أوصلتني سيليا في وقتٍ مبكرٍ من ذلك المساء إلى منزلي، وكانت نظرات سائقها - والتي كانت محجوبة قليلاً بفضل قبعته - مصوبة نحوي عبر مرآة الرؤية الخلفية. علقنا عند وصولنا إلى كاليا فيكتوريا بزحام حشودٍ بشرية. ورأينا صفاً طويلاً من الناس الذين يسيرون ببطء على الجادة. أحاط الجنود بالحشود وكانوا يصفّرون تجاههم، فبدوا كما لو أنهم يمشون على أنغام فرقة غير مسموعة، وكأنهم يدخلون في نوعٍ من أنواع الهلوسة. ويبدو أنهم خرجوا من منازلهم بسبب الفراغ أو الملل. رفع بعضهم أعلاماً في الهواء، بينما رفع آخرون قبضاتهم وأخفضوها في تناغمٍ تام. رأيت امرأةً تحمل مكبر صوت وساعة توقيت، وكانت تصدر لهم الأوامر للتوقف والتلويح بأذرعهم بين فترات

متساوية. ارتدت المرأة ثياب المشي، فبدت وكأنها شخصٌ واقفٌ في ميدان رماية أولمبي أو كعقيدٍ في الجيش، وربما كانت الاثنين معاً. قالت سيليا: «إنهم يتدرّبون على استعراض عيد العمال». اقتربت المرأة ذات الفكّين اللذين يشبهان فكّ ثورٍ من السيارة، وتطلعتْ إلى داخلها. عرض السائق عليها ورقةً ما، فما كان منها إلا أن أومأت وتراجعت، ثم صاحت بشيء ما للجنود الذين فرّقوا الحشود لكي نمر. أدّت المرأة التحية لنا عندما تجاوزناها. نظرت إلى الخلف، ورأيتها تراقبنا بنظرات ملؤها الإعجاب والاستياء.

أنزلتني سيليا بالقرب من منزلي، وودّعتني بقبلة على الخد كما لوّحت بيدها. كان هذا كل شيء. شعرت طيلة ما تبقى من النهار بنقيض ما شعرت به في البداية التي كانت واعدة. أصابني الشراب بالدوار، وشعرت بجفاف شديد في فمي. أخذتُ نفساً عميقاً قبل أن أدخل شقّتي.

كان ليو مستلقياً على الأريكة وقد ارتدى ملابس نومي. وكانت عينه لا تزال متورّمة ومغمضة، لكن فمه كان نظيفاً. تقلّب ليو على الأريكة حتى سقط عنها. رأيت من خلال الشق الموجود في ملابس النوم بقعة متورمة وبنّية اللون، وخدوشاً على شكل كعب حذاء على فخذه. رأيت سيجارتين على المنفضة، وكذلك إبريقَي قهوة نصف ممتلئين بالقهوة الباردة، إلى جانب كوب كبير من السفارة البريطانية.

قال ليو فيما كان يضع إبريق القهوة على جهاز التسخين الخاص به: «يجري الآن استعراضٌ كبير في جادة النصر... هناك امرأة ضخمة تبدو وكأنها امتداد لبريجينيف، وتقود أولئك المساكين في الاستعراض».

«اقترب يوم عيد العمال، وهم يتمرّنون على الاستعراض».

«اللعنة. لكن، شكراً لك على هذه المعلومة. مضى على وجودي هنا أسابيع

قليلة، وها أنت تخبر ليو العجوز بهذا الخبر المؤسف». سكب ليو لنفسه كوباً من الشراب الأسكتلندي، ثم قال: «يمكنك الحصول على وظيفة في مكتب الشؤون الخارجية الرومانية مع كل هذه المعرفة الواسعة التي تمتلكها. هل قلتَ يوم العمّال؟».

«دعك من كل هذا يا ليو، وأعطِني ملابس نومي». ثم نظرت إليه وإلى ثياب نومي، وفكّرت في حالة تلك الملابس التي أنوي ارتداءها، وأخيراً قلت له: «يمكنك أن تحتفظ بها في الوقت الحاضر. سأذهب وأغتسل». تذكرت أنني لم أتناول الطعام، ولكنني عندما فكّرت في ما يمكن أن يحضّره ليو في المطبخ سرَتْ قشعريرة في جسمي، واقترحتُ عليه أن نخرج لنأكل في أحد المطاعم.

«سبق لي أن اهتممتُ بالأمر يا رفيقي. تقتصر مهمتك الآن على البدء بتحضير المقبّلات. سوف نتناول وجبتنا بعد ساعة من الزمن، أو نحو ذلك».

فكّرت في طعام العشاء مع سيليا في عالمٍ موازٍ أكثر فخامة، وفي وجبةٍ مكلفةٍ في مكانٍ ما مع أضواء الشموع والشراب، انتهاءً بجولة ممتعة في سيارة داسيا في طريق عودتنا إلى الشقة، وإلى السرير الذي اشتاق لوجودي.

ذهبت لأغتسل، لكن أرضية الحمّام كانت مليئةً بالمياه، ورأيت منشفتي الوحيدة وقد تحولت إلى سجادة للحمام. كانت هناك رغوة صابون مليئة بالشعر ولزجة، بينما تجمعت أجزاءٌ من الضمّادات على بلاطات الحمام. عدتُ إلى غرفة الجلوس، وقام ليو بتشغيل جهاز الراديو على محطة الإذاعة العالمية، وكان الصوت عالياً جداً إلى درجة تمكّنت معها من سماع إطار الجهاز وهو يهتزّ.

وفي خطوة يمكننا تفسيرها على أنها دليل إضافي على سياسة البريسترويكا، قام الزعيم الروسي ميخائيل غورباتشيف بالدعوة إلى تحرير محدودٍ للتجارة، وحرية

التعبير في الاتحاد السوفياتي، كما عبّر عن جهوزيته لسحب الجنود الروس من دول الكتلة الشرقية. وفي هذه الأثناء، تم تنفيذ إضرابات جماعية في بولندا أدت إلى إعلان حالة الطوارئ في عدة مدن. وأعلن رئيس نقابة التضامن ليش فاليسا...

صرخ ليو بأعلى صوته: «إنها تحدث الآن. إنها تحدث الآن. أتسمعني؟ اسمع. إنهم يقولون إنها لن تحدث هنا، ولكنها ستحدث. راقِب... ما بك!؟ هل تسمعني؟».

«أجل، سمعت كل كلمة يا ليو، كل كلمة... » وأغلقت الباب عليه فوراً.

استلقيت على السرير وغفوت، بينما قام الهواء بتجفيف ماء الاستحمام عن جسدي. استيقظت على صوت رنين الجرس. وقام ليو بتعريف زائرٍ جديد على المطبخ، وكان ذلك الشخص رئيس الطبّاخين من كابسيا. دسّ في جيبه الخلفي بعض العملة الصعبة، وكان يحمل معه حقيبتين. ارتدى ليو ثيابه، وحلق ذقنه بطريقته العشوائية المعتادة، فعلقت أجزاء من المناديل الورقية المليئة بالدماء على خدّيه وذقنه.

قال ليو: «سوف نتناول عشاءً مطبوخاً في المنزل، وعلى طريقة مطعم كابسيا. فقد استأجرت كبير الطهاة، وقد حضّر لنا وجبة بسعرٍ معقول مؤلفة من حساءٍ لذيذٍ، وقطع اللحم المحشوة بالزيتون وكريب سوزيت. توقّف الآن عن هذا السلوك السخيف، وتصرّفْ بفرح كما يليق بالمناسبة». ثم ناولني فتاحة أغطية الزجاجات المصنوعة من الفلّين، وهو يشير إلى صفٍ منها.

وفي المطبخ، فتح رئيس الطباخين لفافة فظهرت شريحتان من اللحم، وصفحة مزدوجة من سينتيا، وتمكنت من رؤية الزوجين تشاوشيسكو وقد ارتديا الأزياء التقليدية وهما يتسلّمان بعض الهدايا الريفية من جماعة من الفلاحين. عملت

أصابع رئيس الطباخين على تحضير شرائح اللحم بمهارة فتلطخت بالدماء. أضاف إليها بعض المطيّبات، ثم شقّها وكأنها مظروف، وقام بحشوها بالزيتون والأرز والبصل المقطّع، وأخيراً ربطها بخيط. عندها، شرح لي ليو أن السوق السوداء في مجال ذبح الحيوانات أدّت إلى ظهور الملاحم [محلات الجزارة] العشوائية في كل الأماكن غير المتوقعة؛ أي في الغرف الخلفية للمطاعم، وفي الطوابق السفلية للأبنية، وحتى في المشرحتين المتواجدتين في المدينة؛ وذلك لأن كل التجهيزات متوافرة هناك. كان من المستحيل معرفة كم بقيت اللحوم هناك قبل وصولها إلى المحلات، لذا لم يكن بالإمكان معرفة ما إذا كانت طازجة أم لا إلا من رائحتها. إذ كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك؛ بالرغم من أن النظافة كانت موضع تشكيك.

كان الطعام لذيذاً، ولا سيما بعد أن جعلتني كل هذه المراقبة والتحضير جائعاً، بالإضافة إلى تقديمها على درجة عالية من الخبرة السوريالية. غيّر موظف كابسيا ربطة عنقه، واستبدلها بواحدة سوداء اللون، ثم بدأ بتقديم الحساء الصافي من إناء عميقٍ ومغطى. قدّم لنا الشراب من زجاجة ملفوفةٍ بمنديل ورقي، كما كان يقوم بالتفاتةٍ رشيقةٍ بعد كل مرة يقدّم لنا فيها الشراب. جلست أنا وليو إلى طرفَي طاولة الطعام الطويلة متقابلين، وكأننا أميران يتناولان طعامهما على ضوء الشموع مع آخر خادمٍ لهما.

أحضر لنا كبير الطهاة والنادل والخادم البانكيك والمشروب، فقدّم له ليو سجائر كنت كبقشيش، وصافحه بحرارة. وأخيراً، غادر الرجل، وأخذ معه أدوات تقديم الطعام الفضية، وأوعية الطهي المصنوعة من الفخار، ووضعها كلها في حقائب. وقد أصدرت قرقعة أثناء نزوله الدرج، وتوجّهه إلى المنزل، أو إلى وظيفة أخرى.

قال ليو مستفسراً: «حسناً، ما رأيك؟ عشاء كابسيا في منزلك».

«كان ذلك رائعاً جداً يا ليو، شكراً لك. لكن، كان بإمكانك أن تسألني عن رأيي مسبقاً لأنني لم أرغب في أن يقوم ذلك الرجل الفضولي بالتجول في شقتي».

«لا أظن أنك تملك خياراً هنا بشأن من يحق له التجوال في شقتك. أما أفضل ما يمكنك فعله فهو البقاء على علاقة طيبة مع أي شخصٍ يقوم بذلك».

«أتعني معك أنت أيضاً؟».

«هذه ضربة موجعة، موجعة حقاً، لكنني سوف أبرّرها بشعورك بالتعب، وحساسيتك بعد جولتك في المقر القديم للشرطة المركزية».

سكب ليو آخر ما تبقى من الشراب في كأسه، وأشعل سيجاراً كوبياً أخذه من علبة كانت فوق رفّ المدفأة. كانت علبة السيجار هذه جزءاً من مخزون بيلانجر الذي لا حصر له. رنّ الهاتف مجدداً ثم صمت، وسُمِعت القرقعة التي تدل على التنصت بعد ذلك بثوانٍ قليلة. لم يتكلّم أحد مجدداً.

الفصل السابع

كانت حياتي مع ليو أشبه ما يكون باستبدادٍ مقنَّع أكثر مما هي رعبٌ ستاليني، أي كانت شرسة وخرقاء، وأحياناً مضحكة، ولكنها سخيفة عادة. كان إحساسنا بفظاعة النظام مبنياً على اعتقادنا أنه لم يكن منظّماً بما فيه الكفاية لفرض تلك الفظاعة. لكننا كنا مخطئين في اعتقادنا هذا. أما عندما يعرف المرء شخصاً قادراً على الخلاص من عددٍ كبيرٍ من المشاكل، أي مثلما فعل ليو، فسيشعر بأنه منيع بشكل خطرٍ. لكن، لم يخطر في ذهني على الإطلاق أن التفاهة قد تمنح المرء الشعور ذاته إلى حدٍّ كبير.

لكن، ما الأمر الذي يدفع ليو إلى الهروب؟ فقد انتقل هو أيضاً إلى حياة أخرى، وربما هذا ما أعجبه بي عندما اختارني لهذه الوظيفة. لكن، كان من الصعب معرفة السبب الأساسي الكامن وراء قراره ذاك. غير أن معظمنا نحمل معنا ما يشير إلى الأمر الذي نهرب منه، وربما كان ذلك نوعاً من أنواع التخفيف من الأضرار، أو الخطأ، أو الندم. لكنّ دافع ليو كان أعمق من دوافع معظم الآخرين؛ أولاد بعيدين، وزواج محطّم، ومهنة أكاديمية ناجحة ومعتمدة على الشراب، وعلاقات مشكوك بها مع الطلاب، وعدم موثوقية شاملة. ألّف الرجل كتاباً حول أدب الرحلات، وهو كتابٌ ما زال في المطبعة رغم مرور خمس عشرة سنة، ويُعتبر الكتاب نموذجياً في حقله، كما تسلّم لقاءه إكرامية في رومانيا، وإن كانت رمزية إلا أنها إكرامية مفيدة بالعملة الصعبة في رومانيا. لكنني عثرت على نسخة من كتابه في مكتبة الجامعة. ظهرت صورة ليو على الغلاف الخارجي الأخير للكتاب، وظهر ليو أصغر سناً بخمس عشرة سنة، وبرأسٍ مليء بالشعر القصير، وبثيابٍ أنيقة. لم يكن ذلك هو الشخص الذي أعرفه الآن، والذي تغيّرت

ملامحه، وبرز فكّاه، بينما بدا شارداً. لم يكن ذلك الشاب الذي اعتاد على تذوق الشراب والطعام، ولكن من دون قدرٍ كبير من الخبرة. يعني كل ذلك أن حياته كانت جزءاً من خطة، وليست خطة كاملة.

سألته كيف انتهى به الحال هنا، وذلك بعد إحدى نزهاته التي قام بها برفقة دليل في أنحاء المدينة الآخذة بالاختفاء. بدت عبارة: كيف انتهى بك الحال هنا تعبيراً مناسباً عندما يتعلق الأمر بتفسير سبب وجود شخصٍ ما في قسم اللغة الإنكليزية في جامعة بوخارست في العام 1989، ولكنها بدت مناسبة إلى الحد الأقصى عند استخدام ليو لها. فقد قال لي: «استيقظتُ في أحد الأيام على سريري في غرفتي في مولسي الشرقية، وفكّرت: ما الذي يبقيني هنا عدا زوجة وولدين، ورهن، ومنزل، ووظيفة. لا شيء آخر يشدّني إلى هنا... انظر الآن، أنا هنا يا رفيقي. أنا هنا!».

منذ سنواتٍ قليلة، بدأت مساحة المستودع الذي يشغله ليو تضيق، حيث لم تعد تكفيه. وهكذا، بدأ الآن في استعمال الطوابق السفلية في متحف التاريخ الطبيعي وصالة العرض الوطنية. وترافق عمله هذا مع أعمالٍ شبه مهنية؛ مثل تعبئة الصناديق، وحتى الأعمال اليدوية. وقد كانت لمدراء المتحف بدورهم مصلحة في لعبة ليو هذه. فقد ساعدهم هذا الترتيب على تجميع أشياء لأنفسهم تعود إلى زمن ما قبل الشيوعية، ولكنهم فعلوا ذلك مختبئين خلف اسم المتحف. إذ كان يتمّ تبويب التُحف في بطاقات وتخزينها، أو كانت تُعرض، بينما تم تسجيل اسم المالك الحقيقي للتحفة على البطاقة من الجهة الخلفية؛ وذلك بواسطة نظام رموزٍ طويل اخترعه ليو، والذي يدل على وزير هنا، وجنرالٍ هناك، وأعضاء متقاعدين في اللجنة المركزية للحزب، وفنانين، ومدراء مسارح، وكتّاب. كان ليو هو الوحيد الذي يعرف مالك كل تحفة من تلك التحف.

اعتاد مسؤولون رفيعو المستوى على تكليف ليو بتخزين الأثاث، والأيقونات، أو لوحات الفن الحديث التي تعود كلها إلى النظام القديم، وكانوا يزورون تُحفهم كل بضعة أسابيع ويُظهِرون إعجابهم بها. أما وزير العمل - وهو رجلٌ بدين، بل الأكثر سمنة بين الرجال، والذي لم تتعرف يداه على العمل اليدوي من بين جميع الأشخاص الذين عرفتهم - فقد اعتاد على زيارة شقة ليو مع آخر خليلة له من أجل رؤية المجوهرات التي يخزّنها فيها. كان هذا الرجل البدين، والمرِح، والفاسد يأتي كل شهر مع فتاة مراهقةٍ جديدة. لم يكن ليو متطلباً في تعاملاته التجارية، إلا أنه تعامل مع طبقة معيّنة من الأشخاص، ومعظمهم وزراء ومومسات، وقد اعتاد غسل يديه بعد مقابلته إياهم.

كان ليو يقوم بالمزادات في شقّته، وكان الناس يأتون للشراء، أو لمشاهدة الآخرين وهم ينفقون أموالهم لامتلاك قطعٍ مختلفة بقيت من العالم القديم. كان يقوم بترتيب التحف، ويضع السعر على كل منها، ثم يُرفق السعر بفقرةٍ مقتضبة تشرح شيئاً ما عن التحفة، كما كان يضع التاريخ والمصدر، ثم ينتظر العروض التي كانت تصله بطريقة سرّية وعن طريق الحزب. لم يكن أحد يعرف مَن الذي اشترى أيّ قطعة، وكان ذلك يأتي في سياق منع تتبّع التحف. وقد جرت العادة على أن تأتي العروض مموهةً بشكل محادثة، ولا تلبث ملصقات عليها كلمة بيعت أن تملأ لائحة الأسعار. كان يتم تصوير كل الأغراض التي لا يمكن نقلها، ثم توضع الصور على طاولة لكي تتبادلها الأيدي وكأنها صورٌ إباحية. كانت المرة الأولى التي حضرتُ فيها أحد مزادات ليو في وقت مبكر من شهر أيار، وكان يبيع إحدى المنحوتات التي يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر، وقد انتُزعت من إحدى الكنائس التي تعرضت للهدم. اشترى هذه المنحوتة وزير شؤون الأديان؛ وهو الذي أمر بهدم الكنيسة كي يتمكن من وضع هذه المنحوتة في غرفة نومه.

كان ليو على علمٍ بنقطة تقاطع الحياة الرومانية. فهناك رجل يُدعى كوستانو، وهو رئيس المتاحف، وكان رجلاً رزيناً ومثقفاً يداوم في مكتبه الصغير في صالة العرض الوطنية، ويقرأ الشعر الذي بلغ ذروته في خيالاته في أيام الثلاثينيات من القرن الماضي. وكذلك بطل كرة المضرب نيكوليسكو، الذي كان ليو يؤمّن له قطع سيارات المرسيدس، وثياب بيربري والشراب. فضلاً عن تلك المومس الفاجرة إيلي - التي كانت شبكتها من الفتيات اللواتي كن يعملن تحت حماية رجال الاستخبارات - التي قدّمت خدمات الجنس والمخدرات للأجانب، وكانت تستأجر المصوّرين الذين يلتقطون لهم صوراً في أوضاعٍ غير محتشمة؛ الأمر الذي يسهّل على الشرطة السرية ابتزازهم. وكان ليو يعتمد على المساعدات التي يتلقاها من مجموعات السفراء، والشخصيات الوافدة إلى رومانيا. وكان يرتّب لهم أمر استيراد السلع الغربية في سيارات الفيات مُستخدِماً شبكته من الغجر أو البولونيين. كانت الحدود التي تجوبها الدوريات بكثافة لا تشكّل عقبة على الإطلاق بالنسبة إلى هذه الشبكة. أما أجهزة «الستيريو» والخلاطات، فكانت تشق طريقها من ألمانيا أو النمسا، بينما كانت البرادات والثلاجات والغسالات تخترق الأسلاك الشائكة. تخيّلت البولونيين الذين يعملون مع ليو وهم يقودون سيارتهم الصغيرة التي حمّلوا على متنها البرادات الضخمة، كما تخيّلت منظر النمال وهي تجرّ حشرات ميتة تفوقها حجماً بعشر مرات، وتأخذها إلى حجرات طعامها تحت الأرض. أشرف ليو ذات مرة على نقل جاكوزي من متجرٍ ألماني متخصّصٍ في غرف النوم الفاخرة إلى فيلا في سناغوف الواقعة في ضواحي بوخارست. زعم ليو أثناء روايته القصة بأنه فهم أن الجاكوزي يُنقَل إلى دارة فخمةٍ يمتلكها نيقو تشاوشيسكو، الشاب العازب والمدلّل، وذلك بالرغم من أنه لم يكن متأكداً من ذلك تماماً. لكنّ ليو وفريقه أرادا تجربة الجاكوزي. وقد أطلق عليها ليو اسم دوامة التاريخ.

التقيتُ بعد ذلك أكثر الأشخاص إثارةً من بين الذين التقيتهم عن طريق ليو، وكانت أميرة أرستقراطية عاشت في باريس لفترة ثلاثين سنة، وقيل إنها كانت آخر عشيقة لبول فاليري. لكنها اقترفت خطأ العودة إلى بوخارست في أواخر ستينيات القرن الماضي، ولم تغادر البلاد منذ ذلك الحين. لم تمتلك المرأة مسكناً خاصاً بها، وقد عاشت في غرفتين ضمن فندق كانت عائلتها تمتلكه سابقاً. أما ما تبقى من الفندق فقد خُصِّص لسكن العمال. اعتادت المرأة الذهاب إلى السفارة الفرنسية لشرب القهوة الصباحية، وتناول الكرواسون، وإغناء مسامع الدبلوماسيين بقصص باريس، وثقافة المهاجرين الرومانيين في أعوام الثلاثينيات من القرن الماضي. كما اعتادت بعد ذلك على زيارة القنصلية للسؤال عما إذا كانت تأشيرتها قد وصلت. وقد علقت هذه التأشيرة في مكانٍ ما من أروقة وزارة مجمدة. كانت التأشيرة قيد الدراسة (لكن التسمية الرسمية كانت مفعّلة) لمدّة عشرين عاماً. كانت المرأة تعود إلى منزلها، وتعرّج على باتسيري سيليا فيكتوريا، حيث كان المدير يتفضّل عليها بإعطائها علبة من الحلويات المصنوعة في اليوم السابق.

كان اسم تلك السيدة موجوداً دائماً على لائحة المدعوين في المناسبات التي تقيمها السفارة. وكانت ترتدي على الدوام أفخر أنواع الثياب والزينة. ومنها قبعة من الريش في الصيف، وبذلة من قطعتين من تصميم شانيل ترجع إلى فترة أربعينيات القرن الماضي. وفي ما تبقى من فصول السنة، كانت تضع وشاحاً من الفراء. أما معاطف الفراء التي كانت تُعتبَر فاتنة ذات مرة فقد أصبحت قديمة. إذ اعتاد السفراء والملحقون الثقافيون الفرنسيون على دعوتها إلى مناسباتهم؛ وإن كانوا يفعلون ذلك بوتيرةٍ أقل. وهي من جهتها كانت حريصة على تلبية تلك الدعوات كلها، وكانت تصافحهم بشدة بيدها التي جفّت أصابعها منذ فترة طويلة، وتمطرهم في ذلك الوقت بكلمات المجاملات. أما مع

الآخرين فكانت أرستقراطية أوروبية متكلفة، وخالية من التودد. كان لدى الأميرة فريقها المؤلف من مرافقين من الإقطاعيين السابقين، والمتشدّدين دينياً، ومن أمراء الأسرة المالكة السابقين الحالمين. لم تكن تدفع لهذا الوفد المرافق أي مرتبات، ولكنهم كانوا يعوّلون على استيائها من النظام من أجل استعادة أمجادهم القديمة. اعتادت الأميرة على إقامة حفلاتٍ سنوية بمناسبة عيد ميلاد الملك، وهي حفلاتٌ كانت تحت إشراف السلطات التي اعتبرت هذه المناسبات فولكلورية. كما اشتملت تلك الحفلات على تقبيل الأيادي، والترحيب بالضيوف، ورسم علامة الصليب على الصدور. كان ملك رومانيا المنفي ميشال يرسل برقيته إليها عن طريق السفارة الفرنسية، وكانت تُقرَأ برزانة، ثم تقام الصلوات بعد ذلك. أما شقّتها فقد ازدانت بالأيقونات، وكانت تفوح فيها رائحة الشاي والبخور والكتب القديمة. وقد اعتبرت الأميرة كابسيا الفرنسية من مستوى متوسط بالنسبة إليها. امتلأت شقة الأميرة بالأثاث الفخم والمزخرف، من الطراز الباروكي اللافت للأنظار، وكذلك مقعد لويس فيليب الذي يُمكن أن يُقال عنه إنه هش وقليل القيمة ومحشو بشكل مبالغ فيه.

حملت تلك المرأة في باريس اسم الأميرة أنطوانيت مارتي كانتيسكو. أما هنا فقد كانت المواطنة أنطوانيتا كانتيسكو، وهي السيدة الوحيدة التي نعرفها والتي توظف خادمة لديها، أو بالأحرى الشخص الوحيد المعترف به رسمياً بأنه يوظّف خادمة؛ وذلك نظراً لوجود أمثلة عديدة عن مظاهر العبودية. كانت خادمتها سيدة في مثل سنّها تقريباً، كما أن عائلتها بقيت في خدمة عائلة كانتيسكو على مدى أجيالٍ عدة، وكانت تعيش في غرفة صغيرة في الطبقة السفلية من المبنى. كانت خادمتها تصل إلى ذروة السرور عندما تقوم سيّدتها بانتقاد طريقة انحنائها، أو تؤنّبها على بشاعتها، أو عندما تكتشف غلطة في طهو الطعام الذي تحضّره. أما عندما تصفها سيّدتها بأنها كسولة فكانت النظرة الجمالية التي

تظهر على وجهها أكبر تعبيرٍ عن السعادة الروحية التامة التي شهدتُها في حياتي على الإطلاق.

توجّهنا لزيارة الأميرة مثل شخصٍ يذهب لزيارة بعض الآثار المتهدمة. وكما يحصل بالنسبة إلى الآثار، كان يبدو لنا أنه يوجد شيء دائم فيها؛ وهو رمز الصمود والقوة أمام الهزيمة. تعلّقت الأميرة بماضيها المجيد وكأنها تعيش خارج التاريخ، لكنها كانت فقيرة في الواقع من دون أن تعترف بذلك، واعتبرت أن كل دقيقة تمر من الزمن كانت انتصاراً للخيال المتعمّد والعنيد على الواقع. كانت تتشارك جنونها مع الذين دونها، والذين تطلعوا إليها كي تساعدهم على الصمود، وعلى الإبقاء على ذلك الخيال المتعمّد.

كان ليو هو الذي تمكّن أخيراً من تأمين تأشيرة السفر للأميرة في شهر أيار من هذه السنة. فقد قام ليو بتقديم الرشوة، واستخدم وساطته لدى المسؤولين إلى أن ظهرت التأشيرة مختومة ومؤرخة وصالحة للسفر، وهو الذي دفع كلفة تذكرة الذهاب إلى باريس.

اصطحبتُ الأميرة إلى المطار مع ليو، وراقبت وجهها في السيارة أثناء عجزها عن التعرف على الجادات المحاطة بالشقق والمكاتب الجديدة، وذلك المنظر المهيب لسقالات البناء والأبنية الإسمنتية. يُحتمل أنه لم يسبق لها أن رأت تلك المناظر، وربما كان كل ما رأته هو بوخارست أيام شبابها، والتي هُدمت منذ وقتٍ طويل، وأشباح أبنيتها. لكن المطار أدهشها، وهو الذي كان مركز انطلاق قطار الشرق السريع في الماضي، وكانت عائلتها قد حجزت ذات مرة جميع «البولمانات» لجولاتها عبر البلدان الأوروبية. كانت رحلتنا تلك في المساء، وتمكّنّا في قاعة المغادرة من سماع أصوات الصراصير؛ تلك المحركات الصغيرة التي لا تهدأ على الأشجار. وصلنا إلى مركز تدقيق الجوازات، ثم ناولت الأميرة وثائقها، فأبقت يدها المغطاة بالقفاز ممدودة لبضع ثوانٍ منتظرة تقبيلها. نظر الحارس

الشاب نحوها وضحك. التفتت الأميرة ولوّحت لنا بيدها، ثم أشارت لنا بالانصراف عندما أصبحت في الجهة المقابلة من الواجهة الزجاجية، وحدث ذلك بعد أن صرفت الخدم.

كان ذلك ما اعتقدناه؛ لأنها عادت بعد شهرٍ من الزمن، وهي منكسرة الخاطر ومنعزلة، في حين أنها كانت في الماضي بعيدة في المكان والزمان فقط. رآها ليو وهي تتمايل في صف الواصلين. لم يكن مظهرها مرتباً، ولكنها كانت تحدّق عبر مسافةٍ داخلية شاسعة، وقال: «عادت المجنونة مجدداً». لم يكن أحد يعرف شيئاً عما حدث معها في باريس، وهي لم تقل أي شيء.

اصطحبناها إلى منزلها. كانت نحيلة بشكل يلفت الأنظار، وعيناها غائرتين، وكانت ترتدي الثياب ذاتها التي ارتدتها عند مغادرة البلاد، وكانت تفوح من جسدها رائحة غير مستحبة.

ساعدتُها مع ليو على صعود الدرج وصولاً إلى شقّتها. قابلتها الخادمة بالترحاب، وسارعت إلى إصلاح حال سيدتها. بدت الخادمة وكأنها كبُرت في العمر عقداً من الزمن بالتزامن معها. أبقت الخادمة الشقة كما تركتها سيدتها بالضبط، إذ كانت قد قامت بتلميع الأواني الفضية، ونفض الغبار عن الكتب وقطع الأثاث. تطلعت الأميرة حولها وكأنها ترى بيتها للمرة الأولى: بيت الدرج الذي عُرضت على جدرانه ذات يوم صور أفراد العائلة، وسياج الدرج الذي تزحلقت عليه مع شقيقيها - توفي واحد منهما في الحرب العالمية الأولى، بينما اختفى الآخر عند اجتياح السوفيات للبلاد - وكذلك الممر الواسع الذي استعرضت فيه الفساتين التي ارتدتها في المناسبات الرسمية، والذي انقسم الآن بواسطة جدران من الكرتون المقوى، والجدران التي ألصقت عليها ملاحظات عامة فوق علب الرسائل التي فُتحت عنوة. أما الثريا القديمة فقد بقيت معلقة في مكانها، وبدت قطعةً هشة وعارية من قِطع الكريستال التي كانت تحملها يوماً. لكنّ ثلاثة

مصابيح بقوة أربعين «واط» للمصباح الواحد جهدت لإبقاء المكان مضاءً. أما أرضية الشقة فقد أصبحت قطع الموزاييك التي كانت تغطيها إما مفقودة وإما متكسرة، وقد تمت تغطيتها بالإسمنت. كما بدت وراء الإفريز المزخرف التوصيلات الكهربائية التي كانت تئز وتقرقع بسبب ضعفها.

بدت باريس بعد أن عادت إليها بعيدة عنها أكثر من أي وقتٍ مضى، ولم يعد لها وجود في مخيلتها. لكنها عندما فقدت ما فقدته كان جنون باريس هو الذي أبقاها عاقلة. قال ليو عنها: «ليس العيش في عالمٍ خيالي جنوناً؛ لأنها عاشت في عالمها الخيالي بسعادة لسنوات طويلة، وربما نحن فعلنا ذلك أيضاً. الجنون هو المجال بين العالم الخيالي والعالم الحقيقي، أي حيث يد المرء ذاته تكون معزولةً عن العالمَين. لكن، ليس هناك رجوع من ذلك المجال على الإطلاق».

الفصل الثامن

كان عيد العمال عطلة رسمية في جميع بلدان الكتلة الشرقية. أما في رومانيا فقد كان مناسبةً لإقامة عرضٍ من الاحتفالات العشوائية التي تم التخطيط لها بدقة. استغرقت التحضيرات لتلك العروض ثلاث أمسيات من الأسبوع المنصرم، وكان عمّال بوخارست يعبّرون عن عفويتهم بإطلاق الأبواق تحت أعين المراقبة الخبيثة للشرطة. أما عند حلول يوم العيد، فكانت كل أعمال البناء تتوقف بدون استثناء في كل أنحاء المدينة. كان الصباح يبدأ مع تعليق الأعلام، بينما تمتلئ الأكشاك بمشروب الروكولا (الكولا الرومانية) وغيره، والنقانق. وكانت أكشاك بيع الصحف تبيع أعداداً كبيرة من مجلة سينتيا. قال ليو أثناء مشاهداته تحضيرات الاحتفالات بلهجة سخرية تنم عن الإشفاق: «إنها باكاناليا حقيقية». زعمت اللافتات أن العمال يشعرون بفرحٍ كبير في أعمالهم، وبالرضى في منازلهم، والاحترام خارجها. كان المرء يلاحظ في كل الأمكنة التي يجول فيها بنظره، أو يسمع فيها بأذنيه، أقانيم السلطة الثلاثة: «الشعب، والحزب، وتشاوشيسكو»؛ وكذلك ثلاثية شعارات السلام، والازدهار، والرفاهية، وذلك بالإضافة إلى الجزء المفضّل لدى تشاوشيسكو أي عصر النور، والكرامة، والفرح.

جلست أنا وليو وجوانا على الشرفة لتناول الشراب والتدخين. كان جهاز التلفزيون شغالاً، لكننا كتمنا الصوت للاستماع إلى الاستعراض في الخارج؛ بما فيه من موسيقى وطنية تصدح بالأنغام نفسها في كل أنحاء البلاد. عثر ليو على بعض الشوكولا الممزوجة بالشراب، والتي كان يخزنها في صفوف على صوانٍ ويعرضها بأناقة. كان ليو ثملاً، ويغني أغاني الحزب الشيوعي، بينما حمل سيجارة بين إبهامه وسبابته. كانت المجلة الثقافية لوسيا فارول مفتوحةً أمامه

على الطاولة، وهي التي أخذت اسمها من ملحمة إمنيسكو الوطنية، الملاك الهابط الذي تحوّل إلى نجمة المساء لوسيفر. أما صفحة الغلاف فقد حملت قصيدة جديدة بعنوان مدح ثنائيّ الضوء، وقد كتبها أحد شعراء نقابة الكتّاب، والذي كان ليو على معرفةٍ جيدةٍ به، ولذلك بدأ بترجمتها لنا.

قال ليو: «عرفتُ بالينسكو منذ سنوات. اسمعوا ما كتبه، النور الذي يضيء عصرنا له مصدر! شمسان تشعلان مثل شمسٍ واحدة! يا إلهي، أتمنى أن يكونوا قد دفعوا له سعراً جيداً مقابل هذه الأغنية... ».

فقاطعته جوانا بالقول: «بالينسكو إنسان فاشل».

«إنه منارةٌ تهتدي بها سفينة الدولة بكل ثقة، وتبحر عبر البحار الخطرة... يا عزيزتي جوانا، إنها بلادك أنتِ، لكنني لست مضطراً للقول إن العالم لا ينقسم بين الفاشلين والأبطال؛ فالأمر ليس كذلك. لا يتواجد العدد الكافي من هذين الصنفين لتشكيل فرقٍ حقيقي في هذا العالم... ».

«بالينسكو إنسان فاشل بالضبط. وهو يتكاثر مع أمثاله من الرجال ويخنقون الباقين».

«جوانا، إنها مجرد قصيدة من الشعر الرخيص وغير المؤذي. ويعلم الجميع أنها تافهة. وهو ورؤساؤه والعاملون في المجلة يعلمون أنها كذلك. جميعهم يعلمون، لكن نِك وإيلينا يصدّقان هذا النوع من الكلام، وسوف يتأكدان من ذكره لأعداد الجرافات؛ الأمر الذي يعلق في أذهان بعض الرومانيين لبعض الوقت ثم ينسونه بعد ذلك. جميعنا نفعل هذا. إن معظم الناس لا يريدون سوى العيش والوصول إلى نهاية اليوم من دون أن يصابوا بأذى، ومن دون تقييم مدى أخلاقية كل شيء يقولونه ويفعلونه. أعتقد أن هذا ليس أمراً خاطئاً، و... ».

قالت جوانا بإصرار وعناد أكبر: «كلها أكاذيب، كلها أكاذيب. إنهم يكرّرون الأمر حتى لا يعود المرء قادراً على تصديق أي شيء، وإلى أن يعجز عن الشعور بأي شيء. هذا ما كنتُ أقوله؛ أي إذا صدّق الجميع ما يقولونه فيعني ذلك أنهم بلهاء، ولكنهم سوف يصدّقون ما يسمعونه بالفعل. إن ذلك الجزء من أنفسهم الذي صدّق ما سمعه سوف يبقى هناك ويعتاد الأمر، ولن يموت هكذا، وسوف يفنى ويتحول إلى السخرية». أشارت جوانا نحونا، ونحو صحيفة سينتيا، وكذلك إلى جهاز التلفزيون في الداخل، ثم أشارت إلى نفسها كذلك. «إننا نكتفي بالاستماع إلى لا شيء، ومن دون أن نستوعب شيئاً، ونحن نعتقد أننا نقاوم عن طريق السخرية من الأوضاع. لكن الأكاذيب تتكشف يوماً بعد يوم... وتتعبنا معها».

قال ليو بلهجةٍ جدّية لأنه سمع ما لا يعجبه: «لا، هذا ليس صحيحاً إطلاقاً... والسبب هو كونها أكاذيب، ونحن نعرف أنها أكاذيب، وأنها لا تتمكن من الوصول إلينا. إذا كانوا يريدون أن يكذبوا علينا بهذا القدر فليدعونا نعرف».

أنهت جوانا هذا الحديث، وتطلعت إلى الأرض. يعتبر ليو أن أسوأ جريمة اجتماعية قد يقترفها المرء بحقه هي تحويل حديثه إلى الجدّية. وكان يعتبر ذلك نوعاً من أنواع المصيدة. يُمكن أن يكون ليو غاضباً ومحقاً ومتحمساً، ولكنه كان يعتبر الجدية صعبةً عليه، ولهذا فهو يفضّل المبالغة، أو التقليل من أهمية الأمور لأن رؤيتها بحجمها الحقيقي تزعجه.

وكانت جوانا فتاةً تميل إلى رفض كل شيء. لم أكن أتوقع زيارة من أحد في ذلك الوقت. ولكنني عندما فتحتُ الباب رأيتُ سيليا، وكيساً من بيربري على كتفها. قبّلتني سيليا على فمي، ودخلت المنزل على الفور.

عرّفتُ ليو وجوانا عليها، لكن بدا لي أنه لم تكن هناك حاجة للقيام بذلك، لأنهم

كانوا يعرفون بعضهم بعضاً، ولكنهم أرادوا مجاملتي فتصرفوا وكأنهم يلتقون للمرة الأولى. يظهر رفض جوانا على نحوٍ مفاجئ عندما تقوم بالتركيز على شيء ما. لكن سيليا بدت غير منزعجة من التغيير المفاجئ الذي فرضته على حفلتنا الصغيرة هذه. لكن هل لاحظتْ ذلك؟ جلستْ، ثم فتحت الكيس فظهرت منه زجاجة من الشراب الفرنسي المثلّج، وبعض حبّات الزيتون الإيطالية.

كانت جوانا أول المغادرين، وقد اختلقت عذراً وهو أنه يتوجب عليها حضور مناسبة في الطرف الآخر من المدينة؛ الأمر الذي لم تذكره حتى الآن. عندها، نهض ليو وتبادل بضع كلمات ترحيب مع سيليا قبل مغادرته. لم يظهر على سيليا أنها انزعجت من مغادرتهما. لم تسألني عن المطبخ، بل توجهت إليه لتجلب إناءً وبعض الأكواب. كان من الواضح أن شقة بيلانجير تمتلك ماضياً من الترحيب بالزوار والضيافة الحسنة. كان الشراب بارداً جداً؛ حيث إن قطرات المياه ظهرت على الزجاجة.

ناولتني سيليا فتّاحة الفلين، بينما فتحت حبات الزيتون بأسنانها. لاحظتُ وجود خطٍ صغير من أحمر الشفاه الذي وُضع حديثاً على طول صفّ أسنانها الأمامية، وتذكّرت طعمه الذي يشبه طعم الشمع الأحمر، فقد تذوقته عندما حاولت تقبيلها في آخر لقاءٍ لنا. فتحتُ الزجاجة وقامتْ هي بسكب الشراب. شعرت بجفافٍ شديدٍ في فمي، وكان دخان سيجارة ليو قوياً جداً، لكن رائحة التبغ اليوناني التي ترافقت معه كانت أقوى منه. كما كان مذاق الشراب الذي جلبته سيليا رائعاً تماماً مثل منظره، إذ كان من أفخر الأنواع. أعرف أنه من المستحيل تقريباً العثور على هذا النوع هنا، وحتى في المحلات الخاصة بالدبلوماسيين والفنادق الغربية، سواء أكان الدفع بالجنيه الإسترليني، أو بالدولار، أو بالمارك الألماني.

كانت سيليا في مزاجٍ مختلفٍ عما كانت عليه في لقاءاتنا السابقة. وأدركتُ هذه

المرة أنها اتخذت قراراً بشأني، بالرغم من عدم معرفتي بطبيعة ذلك القرار. كانت لغة جسدها أكثر انفتاحاً، وأقل حذراً. وأدركت أيضاً أنها أبدت اهتماماً بي للمرة الأولى. كنت شبه مخدّرٍ ونصف ثمِلٍ، لكن هذين النصفين تكاملا في كيانٍ واحد أكثر إقناعاً. اكتشفتُ أنني قطعت شوطاً بعيداً معها، وأنني أكثر استعداداً لبدء علاقةٍ معها، وأكثر انفتاحاً لمواجهة تدقيقها تجاهي.

قاربت الساعة على الخامسة، وقد مضت أربع ساعات على بدء المهرجان؛ أي أربع ساعات من الموسيقى والتظاهر، وأربع ساعات من الموسيقى والمنشورات واستعراض الطائرات التي لامست السحاب. كانت محطة التلفزيون تنقل في بعض الأحيان صور بعض الشخصيات. رأيت العقيد القذافي الذي سبق لي أن تعرّفت عليه من ضمن مجموعة الفزاعات السياسية التي وضعها الغرب. وكان موغابي يتقدّم صفاً من الأفارقة بأزيائهم الرسمية. أما ياسر عرفات فقد كان ضيفاً موثوقاً به في الاحتفالات التي يقيمها تشاوشيسكو، وكان يجلس إلى جانب الزعيم. حلّ عرفات بعد شهرٍ من الزمن بصفة ضيف شرفٍ في آخر مؤتمرٍ عقده الحزب. ميّزتُ وراءه أشخاصاً من السلك الدبلوماسي، وكانوا يتطلعون إلى الأمام بشرود، أما السفير البريطاني فقد حافظ على تعابيره المعتادة من التوتر الخفيف، والتضييق في العينين والفم، وهي تعابير قد تدل على أي شيء؛ بدءاً من التوتر الداخلي ووصولاً إلى الغضب الأخلاقي. أما الصور المقرّبة لوجه تشاوشيسكو فكانت أكثر إثارةً للاهتمام، وهو الرجل الذي يبقى محترساً على الدوام. لم تكن عيناه الصغيرتان تخطئان شيئاً مما يجري حوله، وكانتا متيقظتين وتوحيان بالشعور بالرهاب.

كانت الزجاجة الثانية من مخزون بيلانجر دافئة وحلوة، لكن كان من الصعب الاستمتاع بها. وقد برهنت هذه الزجاجة قانون الفوائد المتناقصة التي تحكم الشراب في النهار، أي كلما زاد أكثر فأكثر أصبحت الفائدة أقلّ أكثر فأكثر. بدت

سيليا سعيدة بما يكفي، لكنني خشيت من أن فترة ما بعد الظهر سوف تنتهي بالغثيان والصداع وذلك قبل الساعة السابعة، وموعد النوم عند العاشرة. تذوقت سيليا الشراب وحدها، وما لبث العبوس أن ظهر على وجهها.

قالت سيليا: «هيا بنا، دعنا نشترك في الاستعراض، وسوف نعثر على لافتةٍ لك. سنكون في الواقع المشارِكَين الوحيدين في الاستعراض بإرادتهما».

تأبّطت سيليا ذراعي عند مغادرتنا الشقة، وسارت بمرحٍ ظاهر، فبدت وكأنها تجرّني معها. وصلنا إلى زاوية آليا ألكساندرو فأصبحنا وسط الاستعراض. أقول الاستعراض، لكن المشهد كان أشبه بسلسلةٍ طويلة تربط المشاركين بقيودٍ غير مرئية. كانت الجماهير تسير وكأن كواحلها ومرافقها مربوطة ببعضها بعضاً، بينما الرؤوس منحنية، أو كانت تتطلع بشكلٍ مستقيم نحو الجهة الخلفية للرؤوس التي تسير أمامها. حمل بعض المشاركين لافتات زاهية بالألوان الأصفر والأحمر والأسود، وكذلك رموز الحزب التي رُسمت على شكل شعارات الجيش الروماني. تقدمت الجموع بعد ذلك بحركة منتظمة ومتكاسلة.

حملت معظم اللافتات صور تشاوشيسكو وزوجته، لكن عدداً قليلاً من الملصقات حمل شبهاً لرجالٍ آخرين، ومن المفترض أنهم من الوزراء، لكن تلك الصور كانت قليلة جداً. إلا أن لوحة أو اثنتين تمثلان ماركس ولينين تواجدتا بين اللافتات. استمرت الجوقة الموسيقية التي تسير في المقدمة في العزف، بينما تقدمت الاستعراض من دون بهجة من المشاركين فيه. توقفت الموجة على نحوٍ مفاجئ، فعادت ترددات هذا التوقف إلى الخلف مسافة ثلاثة كيلومترات مليئة بالناس. وهكذا، بدت الصورة على شاشات التلفزيون تقدماً ميكانيكياً، لكنها في واقع الأمر كانت زحفاً بطيئاً ومتردداً.

ربّتت سيليا على كتف أحد الرجال، وطلبت منه إعطاءها اللافتة التي يحملها.

كان الرجل متشككاً في البداية، غير أنه شعر بالسعادة لإعطائها اللافتة، وإراحة ذراعه. لم تكن الصورة المطبوعة على اللافتة سوى صورة جواز سفرٍ مكبرة عن مانيا قسطنطين، ومعالجة بأسلوب الباروك الشيوعي: السترة الرمادية، والقميص المزرّر، والنظرة الحادة، وشعار المطرقة والمنجل. لم تكن هناك سوى لوحة أو اثنتين من هذه الصورة وسط أمواج الصور التي تمثّل نيكولاي وإيلينا. لكن هذا الأمر لم يكن مستغرباً أبداً؛ لأنه ليس من المفترض أن يبدو أي شخصٍ آخر بشكلٍ أفضل، أو حتى أن يتكرر ظهوره أكثر من هذين الشريكين اللذين يحكمان البلاد.

ناولتني سيليا اللافتة كي أحملها. كان في ذلك علامة على مدى اعتيادي على غرابة الأمور التي تكشّفت أمامي؛ مثلما فعلتُ عندما ميّزتُ وجه والدها، وعرفت أنه والدها، ولكنني اكتفيت باعتباري إياه قطعة غامضة، وتابعتُ السير.

تابعنا السير إلى الأمام يداً بيد نحو كاليا فكتوريا لمدة عشر دقائق. كانت سيليا ثملة وضاحكة وأنيقة الملابس، وهكذا اجتذبت نظرات العبوس الحادة من باقي الناس. أما بالنسبة لي، فلم أكن أنيقاً جداً في يومٍ من الأيام، لكنني استأتُ لأنني تمكنت من الانسجام معها في هذا المكان.

كان المزاج العام للمسيرة عدائياً ورافضاً. داس بعض الناس على أحذية بعضهم بعضاً، ووكزوا بعضهم بعضاً من جهة الخاصرة، وبصقوا على الأرض، ومشوا مختالين، وتطلعوا إلى بعضهم بعضاً وجهاً لوجه لبرهةٍ قصيرة قبل انسحابهم وتمتمتهم. كانت رائحة العرق والغبار منتشرةً في كل مكان، ولكنها امتزجت مع عطر سيليا عندما قامت بتجاوزي مراتٍ عدة. توقفت المسيرة فجأة في أحد الأمكنة، ودفعني أحدهم من الخلف نحوها، فقوّستْ ظهرها نحوي، ثم وضعت رأسها على كتفي، بينما ضغط عنقها على فمي. كان شعرها دافئاً

وثقيلاً.

صاحت سيليا وسط كل هذا الضجيج: «سيضطرون إلى التوقف عند وصولهم إلى الملعب الكبير، وسيقفون هناك لمدة ثلاث ساعات ليستمعوا إلى الخطابات والاحتفالات». لم يظهر عليها أنها آسفة بشكلٍ خاص. كانت الشمس تستعد للغياب، وهكذا استهلك يوم الفرح هذا عطلة عيدهم بأكملها، واستعد معظمهم للعودة إلى شققهم في الضواحي مروراً بمواقع البناء والمساحات الفارغة. تحرّك الجمع الذي كان محاطاً بالجنود ورجال الميليشيا. كان أحد الأشخاص يحاول بين الحين والآخر الانسحاب من المسيرة، والاختباء في أحد الشوارع الفرعية، ولكنه كان يتلقى الصفع قبل أن يعود إلى المسيرة بالقوة. كان ذلك أشبه ما يكون بسوقِ قطيع بشري. كنا أنا وسيليا وحدنا القادرين على التسلّل من بين الصفوف. حاول أحدهم - والذي كان مرتدياً بذلة - مرة أو مرتين أن يدفعنا إلى الوراء، لكن سيليا كانت تُشهر بطاقة هويتها في وجهه، فكان يسارع إلى تحيّتها. أطلق هؤلاء الشبان أنفسهم النار على مواطنيهم في تلك الأيام التي بدت غير حقيقية في تلك المدينة المختنقة. لم تكن لديّ أية فكرة عن المكان الذي تقودني إليه. لكن على بُعد كيلومترين في الطريق، انفتحت أمامنا البوابات ذات الطراز الروماني لملعب الشعب.

جرّتني سيليا من دون إنذارٍ مسبقٍ من جانبها إلى شارعٍ فرعي، ثم صعوداً نحو جادة عريضة حيث وقف أحد الحراس، وضرب الأرض بقدمه ثم سمح لنا بالدخول. لم يسبق لي أن رأيت مكاناً كهذا، فأشجار الكرز تحيط به، بينما تناثرت بتلات أزاهيرها على الرصيف، كما رأيتُ متجراً ذا واجهاتٍ داكنة، وكان يخضع لحراسة أحد رجال الميليشيا الذين يرتدون زياً رسمياً. كانت الشوارع مرشوشةً بالمياه لتبريدها، بينما انتشرت رائحة الأرصفة المبلّلة في الهواء. رأيتُ بعد ذلك سيارات من نوع داسيا ومرسيدس مركونةً فوق منصاتٍ نظيفة. كما

رأيتُ بستانياً منحنياً فوق بعض شتلات التوليب الجميلة، وبدا كما لو أنه يقيس حرارتها. كان كل شيء يانعاً وأخضر. قادتني سيليا إلى باحة مظلّلة؛ حيث كانت نافورة مياه تصدر خريراً خافتاً، وامتلأت الشرفات بالنباتات ذات الأوراق العريضة. تبعتها إلى بيت درجٍ بارد، والذي كان ملتفاً صعوداً، كما تصاعدت في الممر الرائحة النظيفة للشاي المحضّر حديثاً. كانت شقتها في الطابق الأول، وكنت أعلم - لكن من دون أن أعي ذلك - أن سيليا ابنة مسؤولٍ رفيعٍ في الحزب. كان ذلك واضحاً من الحصانة التي تمتعتْ بها أينما توجهت، وذلك وسط وجودنا في دولة شيوعية لا طبقات فيها، وهي التي تمتعت بكل هذا المرح الذي يميّز الأغنياء ذوي الامتيازات، والذين نجدهم في كل مكانٍ في العالم. بدا الأمر وكأن العالم المادي، والهواء ذاته يفسحان المجال أمام الأغنياء عندما يتحرّكون. يُعرف أولئك الناس من الطريقة التي يخوضون بها الحياة من دون أن تمسّهم بأرزائها. كانت سيليا واحدة منهم، أي أنها جزءٌ من ذلك المجتمع العالمي المرفّه. لكنّ ما لم أعرفه حتى تلك اللحظة هو أن والدها لم يكن جزءاً من النخبة فقط. كانت الشقة التي تسكنها سيليا تتّسع لأسرتين، بينما بدت غرفة المعيشة وكأنها مؤثّثة من كتالوج نوردك الفني، في حين أنها مليئة بالأفلام والمجلات الأميركية والكتب الإنكليزية والأجهزة الإلكترونية اليابانية. أما المطبخ فكان مليئاً بالزيتون، والشراب الفرنسي، وأنواع البسكويت الإنكليزي. رأيت لوحاتٍ فنية معلقةً على الجدران، ورفوفاً مليئة بالصور. بدت سيليا ووالدها أمام ساعة بيغ بن، وقصر بيتي، ومركب هارفرد العائم. رأيت في إحدى الصور فتاةً صغيرة، وافترضتُ أنها سيليا، ولكن عندما كانت في الخامسة أو السادسة من عمرها تقريباً؛ عندما كانت تلعب مع أولادٍ آخرين فوق باحةٍ خضراء، فيما جلستْ مجموعة من الكبار إلى إحدى الطاولات المجاورة مستمتعة بتناول الطعام في الهواء الطلق. كان نيكولاي تشاوشيسكو جالساً إلى رأس الطاولة، بينما جلست إيلينا إلى يمينه، ووضعا مرافقهما على الطاولة. ظهر نادلان واقفَين

وراءه في طرفَي الصورة؛ وهو أمرٌ معتاد في صوَر أوساط العائلات المالكة في القرن التاسع عشر. كان من الممكن أن يظهر هذان الخادمان مع موائد قيصر، أو إمبراطور، أو سلطان.

ظهرتْ وسط جميع تلك الصور صورة شابة جميلة تمتلك عينين بنيّتين داكنتين وشعراً أسود غزيراً مثل سيليا، وكذلك البشرة السمراء الذهبية والفم الأحمر. استنتجتُ من شعرها وملابسها أن الصورة قد التُقطت في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، بينما ظهر في خلفية الصورة بحرٌ أزرق، والشمس، ومراكب سياحية ناصعة البياض. كانت الطريقة الوحيدة للتأكد من أن الصورة أُخذت في كونستانتا، وليس في مدينة كان، هي التطلّع إلى مجموعة من كبار المسؤولين الشيوعيين متجهّمي الوجه، والذين ارتدوا ملابس غير أنيقة وتحلّقوا حولها. بدت متمايزةً عنهم بحيويتها التي تشبه حيوية ابنتها في هذه الأيام. كانت المرأة تضع القلادة التي تضعها سيليا حول عنقها في هذه الأيام، والتي كانت على شكل هلال من الفضة محفور بدقةٍ بالغة. يجمعني مع سيليا أمرٌ واحد؛ فقد خسرت أمّها عندما كانت صغيرة، وهي لا تزال تشعر بالحزن عليها بتلك الطريقة الغامضة والمبهمة نفسها، ولكنها مشاعر أفهمها جيداً لأنها تنغرس في كل شيء أقوم به وأفعله. «ماتت أمّي عندما كنت في الثامنة من عمري. وإذا أردت أن أتذكرها فأنا أتطلع إلى تلك الصورة، أما إذا أراد أبي أن يتذكرها فإنه يتطلع إليّ». وضعت سيليا يدها على حضني، ثم استندت إلى الخلف، وسوّت شعرها. رفعتُ رأسها إلى الأعلى، وقبّلتُ عينيها اللتين كانت حارّتين بسبب الدموع التي لم تنهمر أبداً.

أوينا إلى السرير معاً في ذلك المساء. لكنني لم أعرف أبداً، ولم أسأل أبداً عن السبب الذي دفعها إلى تغيير رأيها بشأني، وعن السبب الذي دفعها إلى المجيء إلى شقّتي، أو حتى كيف عرفت المكان الذي تجدني فيه. لكن لو عرفتُ، لكنت

قد تمكنت من التحضّر بشكلٍ أفضل لما يُمكن أن يحدث، أو على أقل تقدير لكنت عرفت موقعي في كل ما سيحدث. لكنني لم أتعلّم أن أسأل، ولم أتعلّم أن أتساءل، ولا أن أتعمّق بالسؤال حتى.

كانت العلاقة الحميمة التي قمنا بها صريحة من قبل سيليا، ومتطلبة، وخالية من توتر. كانت لديّ بعض المفاهيم المسبقة حول العلاقات الحميمة في دول الكتلة الشرقية، وذلك بفضل مشاهدة الأفلام التشيكية على قناة الفنون، والتي تبدأ بالعرض عند منتصف الليل. امتزجت في تلك الليلة رائحة رذاذ الشعر مع رائحة الجسم والشراب؛ وبدت الأغطية الرمادية وشعر الإبطين. كان الأمر أقرب إلى مشاهد في مجلات المرأة المدلّلة؛ وهو أمرٌ شاهدته في كل الأماكن في رومانيا، وهي البلاد التي يستورد منها البلغاريون أطعمتهم.

كان جواز سفر سيليا موضوعاً على الطاولة الصغيرة بجانب السرير إلى جانب بعض حبوب منع الحمل فرنسية الصنع. أما الأمران الأكثر خضوعاً للرقابة في رومانيا فهما السفر والخصوبة جنباً إلى جنب. إذ كانت حيازتهما بمثابة جرمٍ يستدعي السجن، لكن لم تكن لدى سيليا أي شيء تخافه. فكّرت في روديكا القابعة في المستشفى وهي محاطة بالأسى والموت، وفي الدكتورة مورانو وتحدي غضبها. وبدا لي أنني أعيش في عالمٍ يختلف عن عالم الآخرين هنا في شقة سيليا، لكنّ هذين العالمين كانا مترابطين بطريقة غريبة. حاولت طرد هذه الفكرة من ذهني، وتذكرت قول سيليا لي بأنني لست جزءاً من كل هذا، وكان هذا كافياً بالنسبة لي في ذلك الوقت لأنني أردت أن يكون كافياً. كان الجنس هو المجال الوحيد الذي يكفل التخلص من مظاهر الحرمان في الحياة اليومية، والمجال الوحيد الذي لا تتمكن الدولة من الوصول إليه. لكن روديكا كانت تعرف شيئاً مختلفاً، إذ يُعتبر الجسد في البلدان الشيوعية الأخرى ملكاً للفرد، ويُحتمل أنه ملكيته الوحيدة. وكانت ممارسة الجنس هي الملاذ، وهي تسمّى هنا حبة إزالة

صداع الفقير. لكنّ أفراد النخبة هم الذين يتمكنون في واقع الأمر من القيام بذلك من دون الاكتراث بالعواقب. أما بالنسبة إلى الآخرين فكان الجنس متنفساً سرياً.

كان الإجهاض ومنع الحمل في دول الكتلة الشرقية الأخرى يُعتبران من حقوق المرء القانونية. أما هنا فقد كانت هذه الأمور خطرة، وأعمالاً غير قانونية. كانت السوق السوداء حيث يُباع الواقي الذكري تجابه بشراسة، وكان من الصعب العثور على هذه السلعة، لدرجة أنها كانت تستخدم مرة بعد أخرى بعد غسلها وتجفيفها وإعادة تعليبها. كان مرض الإيدز لا يزال سراً، وهو غير موجودٍ رسمياً، لكن الناس كانوا يعلمون بوجوده وبانتشاره وسط التعتيم والنفي الرسميين. رأيت ذلك بنفسي: الإبيديميا، والرسائل المحترقة مثل الحمى. سمعت أصوات أدوات المال ترن في الليل، ولاحظتها مع حفيف الأوراق المالية في الفنادق والنوادي حيث تعمل المومسات.

تردّد صوت جوني ميتشيل المنبعث من جهاز استيريو سويدي الصنع خاص بسيليا: «أوه، يمكنني أن أشرب صندوقاً منك، حبيبتي/ وسأبقى صاحياً مع ذلك». وفي هذه الفترة، تصاعد البخار من آلة تحضير القهوة السريعة. أحضرت سيليا بعد ذلك بعض القهوة الساخنة، وبعض الشوكولا السويسرية التي قامت بتقطيعها إلى أجزاء صغيرة، ونثرتها فوق ورقة من الألومينيوم على السرير. عاشت سيليا في عالمٍ لا احتكاك فيه: لم تصادف في طريق حياتها أي عقبات، أو احتكاكات مع الآخرين. تقاسمت معها ذلك العالم الخالي من الاحتكاك، وعشت فوق وسادة هواء، حيث جاءت الضغوطات الوحيدة من المسرات التي تشاركناها معاً. كان ذلك في الليالي، وعند استسلامها للنوم؛ إذ كنت أدسّ وجهي بين كتفيها إلى أن تتملص من ذراعيّ وتنزع عنها الأغطية. قام النسيم في ذلك المساء الأول لنا بتجفيف العرق عن جسدينا، بينما استلقت ذراع سيليا على

صدري بخفة، أما ذراعي فقد أبقتها متمسكة بي.

استسلمنا للنوم إلى حين اختتام احتفالات العيد. سمعنا جوقة موسيقية مؤلفة من مئات الأشخاص الذين كانوا يؤدّون أغنية، وترافق ذلك مع ترجمة الكلمات، أي أن ذلك كان كارا أوكي شمولياً. تحدثت الأغنية عن إنجازات تشاوشيسكو في زمن مقاومة الفاشية. كان اختصاصه قادة العالم الثالث الذين يمكن الاعتماد عليهم على الدوام للقيام بالزيارات وانتظار زيارات مماثلة منه؛ وهي التي تشتمل على زيارات دولة، أو كما وصفتها صحيفة سينتيا مبادلات أخوية بين القادة. لكنّ سرعة انهيار هذه الأنظمة، أو سرعة قلبها تسببت في ظهور أعداد متدفقة من القادة الدوليين في قصر كوتروسيني.

لكنّ لقاءات تشاوشيسكو العامة مع قادة من أمثال نكسون، وخروتشيف، وملكة إنكلترا فقد تقلّصت لتتحول أخيراً إلى لقاءات مع زعماء من الدرجة الثانية، أو من صغار الوجهاء. استمر تشاوشيسكو في السلطة قرابة خمسة وعشرين عاماً، وتحلّق أصحاب المصالح حوله مثلما يحيط جدول ماء بصخرة. وقد تحدّث ماركس عن التاريخ بوصفه قوة عظيمة يدفعها المنطق والضرورة، وقال إنه بالإمكان التحضّر له والسير في تياره، لكن ليس بالإمكان تسريعه. أما ماو فقد أجاب عن سؤالٍ حول ما إذا كانت الثورة الفرنسية قد نجحت على الشكل التالي: «ما زال من المبكر جداً معرفة ذلك». كان من المعتاد اعتماد الرؤية طويلة الأمد، لكن إذا تطلعنا حولنا جيداً، فأي رؤية كانت هناك؟ لكنّ التاريخ لا يلعب هذه اللعبة طويلة الأمد مع هذه الشعوب. لم يكن التاريخ يقوم بتسطيح مسيرته الديالكتيكية عبر الأجيال، أو يقوم بتصحيح الظروف التي كوّنها بنفسه، بل كان يعمل بوصفه ساعة توقيت، وكان بالإمكان سماع دقات هذه الساعة معلنةً انتهاء أدوار أولئك القادة.

الفصل التاسع

أعلن ليو أمامي: «اشتقتُ إلى كوجاك... ».

كان حب تشاوشيسكو لكوجاك أسطورياً، كما أسهم هذا الحب في التخفيف من الخوف الذي يترافق مع اسمه، والذي انغرس في النفوس مع ما يكفي من السخرية التي تفتح مجالاً للمرح. كان القائد يشاهد في معظم الأيام العادية مسلسل كوجاك في مسرح السينما الخاص به. أما في الأيام السيئة بالنسبة إليه، فكان يلجأ إلى رجل القانون الهيليني - الأميركي. اشتهر تشاوشيسكو في كلتا الحالتين بإعجابه بكوجاك في معظم الأوقات.

إنني معجبٌ بكوجاك؛ كانت هذه العبارة بمثابة الكلمات الافتتاحية التي يستخدمها ليو في كل مرة قبل أن يقترح قضاء أمسية خارج مقرّه. لكننا عندما كنا نلتقي في وقتٍ لاحق في مطعم الفندق، كان يُباعد بين ذراعيه إلى الحد الأقصى، ويقول: «وأنت من تحب يا عزيزي؟». لكن، قبل أن أتمكن من الإجابة كان يجيب بلهجة ساخرة: «أنتم تحبون شعبكم وحزبكم!».

دعاني ليو لحضور عرض برنامج روزنامة الممنوعات، وهو الذي كان يستضيف حفلات المتحف مرتين في السنة، حيث يتمكن الضيوف من زيارة المعارض الرسمية في أحد المتاحف قبل معاينتهم مجموعة التُحف غير الرسمية التي احتفظ بها ليو في مستودعات تحت الأرض، وذلك بطريقة سرية. كانت المتاحف المفضلة لديه هي قصر سوتو الواقع على براتيانو، ومتحف التاريخ الطبيعي الواقع في كيسليف، والذي كان مدراؤه زبائن وأصحاب أسهم في أعمال ليو في الوقت ذاته. كان من المقرر عقد هذه الجلسة في قصر سوتو. وأُرسِلت الدعوات المشفرة إلى مكتب المتحف، وقد تمّ تسجيل يوم ووقت محدّدين

فيها. قضت الشيفرة بإضافة ستة أيام إلى اليوم المحدد، وست ساعات إلى الوقت المحدد. وهكذا، إن الدعوة إلى حفل استقبال يوم الاثنين عند الساعة الثالثة من بعد الظهر تتحول إلى يوم الأحد التالي عند الساعة التاسعة. كانت نوافذ المتحف تُغطّى لتحجب المكان من الداخل، ثم تتمّ إنارة الجزء الداخلي منه بمصابيح الغاز والشموع. وكان النُدل يظهرون من أنحاء المدينة كافة بشكلٍ مفاجئ مثلما يفعل الناس في بوخارست، ويقفون قرب الأكتاف من دون أن يظهر البلل عليهم بالرغم من هطول المطر، وكذلك تكون أيديهم دافئة بالرغم من الجليد. وكانوا يبدون مرتاحين وغير متسرعين بالرغم من موجات الحر، وعربات القطار الكهربائي المتوقفة، والحافلات التي ألغت مواعيد رحلاتها. لكن الرجل الذي يجمعهم من بين الظلال كان كبير الطباخين من كابسيا؛ فهو رجل دائم الحضور. وكانت سهولة مهامّه لا تقارن إلا بصعوبة الانتقال من مكان إلى مكان في المدينة. إنني لا أفكر فيه على أنه الشخص الذي يصل ويغادر، أو الذي يأتي ويذهب، بل كشخصٍ مثل الضوء الذي يُظهِر نفسه أو يختفي خلال لحظةٍ واحدة، أي أنه يدخل المكان ويخرج منه بكل بساطة.

يبقى الحديث عن الضيوف الذين يأتون بسيارات خافتة الأنوار، ولا يلبثون أن يملأوا ردهة المتحف بصمت. يتحدث الجميع همساً، ولكن لا يرجع سبب ذلك إلى اضطرارهم إلى الهمس، بل لأن الهمس يلائم المناسبة: الأصوات المكتومة والحماسية والخطيرة قليلاً. يقوم الحاضرون بنزع معاطفهم وتعليقها، بينما تُمرَّر صواني الشراب المزخرفة بين الحشد. بعد ذلك، يقوم كبير الطهاة بأخذ رسم الدخول بطريقة رزينة. ورسم الدخول هو عشرة دولارات بالنسبة لأفراد النخبة، ومئات قليلة من عملة لاي الرومانية بالنسبة للفنانين والكتاب، أو لأصدقاء ليو الذين يمتلكون الكثير من العملة الرومانية من دون توافر أي شيء يشترونه. كانت الموسيقى الهادئة التي تعزفها فرقة رباعية تتردد في الأرجاء، ثم

يأتي دور المقبلات. وكان الناس يختلطون ببعضهم بعضاً، ويتبادلون الإعجاب بالمعروضات، والتحف المغلّفة بأنوار مصابيح الغاز.

كانت هذه اللقاءات تنقسم إلى مجموعتين. إذ يأتي كبار السن من البورجوازيين، والذين كانوا رزينين ومتعلمين ومهذبين، إلا أنهم فقدوا كل شيء خلال عملية التحوّل إلى الشيوعية، وشهدوا مُصادرة منازلهم، وتأميم أملاكهم، وتفرّق شبكاتهم الاجتماعية. حُرِم معظم هؤلاء من عضوية الحزب، وتحملوا عملية إزالة الفوارق الطبقية، وجهدوا للحصول على ما يكفي معيشتهم بالعمل في حراسة المباني، والخدمة في المتاحف، أو بالعمل كمرشدين في المسارح؛ وهي كلها وظائف جمعتهم يومياً بما فقدوه: منازلهم، وماضيهم، وثقافتهم. لكنّ بعضهم نجحوا في بعض الأحيان في تسلّق مراتب حزبية بالرغم من ماضي عائلاتهم، مثل مانيا قسطنطين. وهكذا أصبحوا أعضاء نافذين في اللجنة المركزية (النخبة) ووزراء ودبلوماسيين، وهي المراكز ذاتها التي كان من الممكن أن يحتلوها في ظل النظام القديم. تواجد أيضاً أفراد الجيل الجديد الذين يدينون بكل شيء إلى الحزب، وبشكلٍ أكثر تحديداً إلى تشاوشيسكو الذي كان قريباً منهم؛ أي أنهم شبه متعلمين، ومن ذوي الطباع الخشنة، ولكنهم مليئون بالخبث ومخلصون وفاسدون بالكامل.

جلس تروفيم في طرف الصالة أمام لوحةٍ تعبيرية تمثّل امرأة عارية ذات جلدٍ أصفر، وكان برفقة الملحق الاقتصادي في السفارة البريطانية جيل ونترسميث. كان ونترسميث يتكلم ويمضغ المكسرات في الوقت ذاته، وهكذا كان مُحتوى فمه شبيهاً بما تحتويه عربة جمع النفايات وهي تطبق على ما تجمعه أسبوعياً منها. اعتادت أصابع ذلك الملحق على مأكولات حفلات الكوكتيل، فأصبحت أشبه ما تكون بمغرفة تتناول أنواع المأكولات الخفيفة كافة. وقف إلى جانبه فرانك شاربنيل؛ نظيره في السفارة الأميركية. وهو رجلٌ مدنيّ بدين يميل إلى كل

المظاهر التي تترافق مع العسكريين، ويحب ارتداء الأزياء العسكرية التي تشتمل على سحابات وأحزمة وجيوبٍ عديدة. جهد شاربنيل للظهور بمظهر الحارس الجمهوري أثناء زيارات الدولة التي يقوم بها الرؤساء؛ وكان يضع يده على أذنه متظاهراً بأنه يُصغي إلى سماعة أذن متقدمة تكنولوجياً، بينما تجول عيناه في أرجاء الغرفة بحثاً عن متطرفين محتملين. كانت صداقتهما مثالاً عن العلاقات الأنجلو - أميركية خلال الحرب الباردة. وقد أظهر شاربنيل إعجابه بذكاء ونترسميث الذي يماثل ذكاء البحّار الإنكليزي، بينما تطلّع هذا الأخير إلى شاربنيل بوصفه رجل أفعال.

كانت أهم هواية عند ونترسميث هي التعرّف على الرجال الذين يحتفظون بعلاقات مع الصحافة، وذلك لتفسير الشائعات الرائجة. كان يسأل تروفيم عما إذا كان على علمٍ بحدوث أي حركة انشقاق قد تستفيد من الاضطرابات في أوروبا الشيوعية. لكن بالرغم من عدم مضيّ وقتٍ طويل على وجودي هنا، إلا أنني أعرف ما يكفي لكي أعتبر أنه لا توجد أجوبة مباشرة عن هذا السؤال؛ لأنه من الحماقة طرح أسئلة مباشرة.

سمعت تروفيم يقول بإنكليزية واثقة: «يا لهذا النهج المباشر والواضح! ولكنه لا يليق بدبلوماسي، وحتى بدبلوماسي تابع لثاتشر، سيدي... » كانت الطريقة التي همس بها مُشبَعة بالكراهية، وتنمّ عن الضعف. تراجع ونترسميث، أما شاربنيل فقد نفخ صدره، وتمتم ببعض الكلمات التي تدل على عنجهية القوى العظمى.

سأل تروفيم بعد أن ابتعد الرجلان: «هل يعتقد الرجل أنه جايمس بوند؟».

فقلت ضاحكاً: «اسمه ونترسميث. جيل ونترسميث».

شعرت بتربيتةٍ على كتفي، وحين استدرت رأيت ليو مشيراً بيده عبر الغرفة: «ها هي شريكتك. لكنّ اسمها ليس وارداً في لائحة المدعوّين؛ على الأقل ليس في

قائمتي أنا... ».

رأيت سيليا واقفةً عند الباب، وقد سلّمت معطفها لكبير النُدُل قبل أن تناوله قطعة نقدية.

«لكنّني لم أوجّه دعوةً لها... ».

رفع ليو حاجبيه وقال: «أعرف ذلك بالتأكيد. لكن، من الأفضل لك أن ترحِّب بها». ناولها ليو كأساً من الشراب فابتسمت ببراءة.

سألتها: «كيف عرفتِ بهذا الاجتماع؟».

«أتعني دعوة الدكتور أوهاي المسائية؟ إنها من ضمن روزنامة الحزب. أعتقد أنك لا تعتبر اجتماع العباءة والخنجر هو المقصود، أليس كذلك؟ لا يمكنك تمرير هذا النوع من الاجتماعات من دون إبلاغ شخصٍ ما هناك... » وأشارت سيليا إلى السقف قبل أن تتابع: «إنني أراهنك بسيارة داسيا جديدة بأنه يوجد من بين كل خمسة مدعوين هنا مخبر واحد. لكنّ واحداً من بين هؤلاء المخبرين يراقب الأربعة الآخرين. إنهم الأشخاص الذين يجب الحذر منهم. يا لجمال هذا النظام!».

يا لجمال هذا النظام! ما الجميل في شبكة الخوف هذه؟! وهذا الموكب الذي لا نهاية له من الجواسيس الذين يتعرضون للتجسّس؟!

«على أي حال، أنا هنا لكي أتفحّص مجموعة تحف تملكها العائلة».

فسألتها وأنا أنظر إلى المعروضات باهتمام أكبر: «ألديكم بعض المعروضات هنا؟».

عندها، أجابت همساً وقد امتزجت أنفاسها برائحة أحمر الشفاه، والشراب، ودخان السجائر المُعفاة من الضريبة: «كانت عائلة والدي من الدبلوماسيين في

الأيام الماضية، أو ما يسمونه الآن النظام القديم. وكان جدّي ووالده من السفراء، ومن كبار البورجوازيين، لكن معظم ممتلكاتهم موجودة الآن في المتاحف. يشتري والدي بين الحين والآخر بعضاً منها، أو يشتري قطعاً جديدة... ».

«لكن، كيف تشترون بعضاً منها من المتحف الوطني؟».

فأجابت بعناد وهي تتناول بعض حبوب الزيتون الأخضر بواسطة عود تنظيف الأسنان: «وكيف تشتري أنت أي شيء تريده؟». لكن، إذا كان عدم الاكتراث مثل درع، فإن اللامبالاة سوف تكون أمراً سهلاً. أما إذا كانت سيليا غير مبالية فهذا يعني أن حياتي لم تعطِني أبداً إمكانية استخدام تلك الكلمة حتى الآن.

أمسكتُ بذراعها وقلت لها: «دعيني أرى». فقادتني بين الحشد، ورأينا ممتلكات والدها التي كانت مؤلفة من صندوق قديم يرجع إلى عصر النهضة، وسيفين مزخرفين، وسجادات أفغانية، ولوحات بريشة فنانين رومانيين رسموا على طريقة الأساتذة الغربيين والذين يُعتبَرون منحطّين بنظر النظام. أشارت سيليا إلى صورة تكعيبية تمثّل سيّدة أثناء نزولها من إحدى عربات قطار الشرق السريع، وظهرت حركتها بشكلٍ يماثل تلك التي تظهر في لوحة أكثر شهرة رسمها ديكامب. تطايرت مع مرور تلك السيدة القبعات والفراء، والأنوف والعيون والسيقان والأذرع، والأساور والمجوهرات، وتركت علاماتها في الهواء، ثم تركت وراءها علامات هبوطها.

ردّدت سيليا بصدقٍ مزيف: «ملوثة بمرض الفردية والمادية البرجوازية... هذا ما علّمونا إياه في المدرسة، وكل هذه التفاهات: منحطة، وجمالية، وغريبة عن اهتمامات الاشتراكية... » ضحكت سيليا قبل أن تكمل: «لكنها جميلة جداً. انظر إلى ذلك الفستان، وتلك القلادة... ».

قلت وأنا أتطلع إلى حلية من قطعتين من صنع شانيل، ووشاح من الفراء، وإلى الوجه البيضاوي الشاحب والعينين السوداوين، والهامش الأسود المستقيم: «يُحتمَل أنها كانت أميرة في ماضي الأيّام». فضحكت سيليا، وصحتُ مندهشاً: «يا إلهي، إنها أميرة!». وكنت أتطلع إلى السطر المكتوب بخطٍ مذهّبٍ صغير في أسفل الإطار: «بورتريتولوي كونتيسة أنطوانيتا كانتيسكو».

وفي تلك اللحظة، لاحظتُ بعض الاضطراب في القاعة، ثم رأيت هذه الأميرة بالذات. شاهدت الأميرة - كعادتها - شيئاً كان ذات مرة ملكاً لعائلتها وترغب في استرجاعه. اعتاد ليو على استرضائها؛ حتى إنه كان في بعض الأحيان يقوم بشراء المرتجعات من التحف لتقديمها إليها.

قالت سيليا بقلق: «كثيراً ما يُحدِث الأرستقراطيون جدالاً حول ممتلكاتهم المصادرة». أمسكتْ يدي بعد ذلك وقادتني إلى ردهة الطابق العلوي. تركنا الطابق السفلي المزدحم والحار، وشعرنا بالارتياح عند وصولنا إلى الشرفة غير المسقوفة وبلاطاتها الرخامية الباردة، ثم تابعنا الصعود ونحن نشعر بالنسيم البارد على بيت الدرج. وهكذا، كان العَرق على ظهري يجفّ بفعل الهواء البارد. تبعتُ سيليا إلى غرفة جانبية تابعة للمعرض، وكانت مخصّصة للقيّم على المتحف. تبادلنا القبلات عند الباب بينما كانت تفتحه من خلفها بكل احترافية. وجرّتني بحركةٍ تراجعية، بعد أن وضعت يدها على مشبك حزامي، واستمر الأمر على تلك الحال إلى أن اصطدمت بطاولة. عندها، أزالت ما عليها من أشياء من دون أن تلتفت إليها، ثم رفعت جسمها فوقها، وما لبثت أن لفّت رجليها حولي. قمنا بعلاقة حميمة سريعة، ولكنها أبقت وجهها بعيداً عني، واستمرت في مراقبة الباب. تذوّقت طعم عطرها المرّ؛ وهو الذي كان برائحة العنبر، وحلواً جداً قبل لحظات قليلة. كان فمها شديد الحرارة. عضّت سيليا شفتي، وبقيت متمسكةً بي بشدة. ورغم أن الدم سال من شفتي، إلا أنها أبقت شفتيها على

شفتيّ، ما زاد من أملي.

ناداها أحدهم باسمها، فقرّبتني منها بشدة أكبر وتأوهتْ، ثم قبّلتْ وجهي وأعادت ترتيب مظهرها. قالت لي قبل خروجها من الغرفة: «انتظر خمس دقائق لكي أخرج قبلك. سأتصل بك غداً». رأيت تيتانو في الردهة، وهو حارس والدها الشخصي، وكان رجلاً ضخم القامة وأصلع الرأس، ومصارعاً سابقاً في مولدافيا. ظهر الرجل فجأة عندما بدأتُ ألتقي سيليا، وقالت لي عندها: «يحبّ والدي مراقبة كل شيء». لم أعرف ما إذا كانت قد قالت لي هذا الكلام ليكون إنذاراً لي أم بهدف التطمين، ولم أرغب في الاستفسار منها عن هذا الأمر. تطلعت سيليا نحو الأعلى عند وصولها إلى أسفل الدرج، ثم أرسلت لي قبلةً في الهواء. لم يكن ذلك مستغرباً من سيليا، وهكذا لم أعرف ما إذا كانت ستأتي الليلة أم لا، كما لم أعرف إلى أين ستذهب. شعرت بإحساسٍ يتعلق بها؛ وهو الإحساس الذي سأتذكرها به، أي كشخصٍ يستطيع أن يعطيك كل شيء ثم يتركك وحدك بعد ذلك.

نادى ليو من بين الظلال بعد خروجي إلى الخارج طلباً للهواء المنعش: «إذاً، ها أنت هنا. كنت أبحث عنك». وكان ليو واقفاً بالقرب من سيارته من نوع سكودا وقال: «اركب».

وصلنا بعد دقائق قليلة إلى الحدود الخارجية لجادة النصر الاشتراكي، ثم أوقفنا السيارة في شارعٍ يشتمل على بضعة أكشاك ومتجرٍ من طابق واحد ذي واجهة زجاجية. كانت الرفوف مليئة بالأسماك المعلّبة على شكل أهرامات. لم نشاهد هناك أي شيء آخر. كانت الظلمة أخفّ هنا وهناك بسبب مصابيح الشوارع التي كانت أنوارها ضعيفة إلى درجة أنها نجحت في تسليط الضوء على بعض تجمّعات العث والذباب من حولها.

قال لي عندما تقدّمني في الشارع: «من هنا. يتعين علينا المجيء إليه من الجهة الأمامية للحصول على التأثير المطلوب».

انعطفنا نزولاً إلى جادة واسعة جديدة ومليئة بالمحلات والمكاتب غير المجهزة بعد. رأينا أغراساً منحنية ومغروسة على مسافات متقاربة على أطراف الرصيف، وقد وُضِعت معها عيدان لتبقيها مستقيمة، فيما برزت من الأرض أسلاك وأنابيب. رأينا أيضاً لافتات المحلات الجديدة واللامعة، وإن كانت غير متطابقة. أشارت اللافتات إلى محلات الجزّارين والأفران والثياب والمتاجر الكبيرة، لكن المحلات كانت فارغة. وكانت هناك - للمفارقة - وكالة سفريات مزينة بالملصقات التي تمثّل البحيرات الهنغارية، ومنتجعات البحر الأسود.

كانت هذه الجادة منتظمة إلى حد يثير الرهبة؛ فهناك ثماني طبقات من الشقق والمكاتب التي تشتمل على أبواب ونوافذ متطابقة، فيما واجهات المجمعات متطابقة ومكسوة بالرخام الأبيض. توقف ليو عند مستديرة كبيرة وانتظر. وعندما سرت نحوه، رأيت شوارع ضيقة غير منجزة كلياً، وقد انتهت فجأة على بُعد كتلة كبيرة من الحطام والركام. ظهرت قطعة من هذا الحطام على جدار ديرٍ قديم، والذي اعترض مسار الشوارع وأوقف العمل بها في انتظار الخطوة التالية. كما شاهدتُ بوابة خشبية مطلية، إلى كلّ من جانبيها عمود محفور، ويتوسّط العمودين سقف صغير. بدا لي في الداخل مدفن يكاد يتهاوى، كما ظهرت شواهد القبور الحجرية المبعثرة بعشوائية وكأنها قطيع يرعى. أما في الخلف، فكانت أنوار المصابيح تبدو من خلف النوافذ. وقفت الحفارات والشاحنات الكبيرة خارج الدير، بينما كانت مخالبها عالقة من دون حركة، وفكوكها مفتوحة نحو السماء الصافية. تذكّرتُ هياكل الديناصورات التي نراها في المتحف، وبدا لي الأمر وكأنها قد عادت إلى الحياة مجدّداً وبدأت بالركض في الشوارع. لحقتُ ليو إلى منتصف المستديرة، فرأيت منصةً بيضاء لا يتواجد

عليها أي شيء. وقد التقت عند منصة هذا النُصب الذي ما زال خالياً أربع جادات ضخمة؛ وكلها غير منتهية غير أنها متقاطعة معاً. قرأت على جانب المنصة الكلمات التالية:

«اسمي أوزيماندياس، ملك الملوك:

انظروا إلى أعمالي، وقدراتي، ويأسي!».

لا شيء يبقى. انظر إلى هذا الخراب

خراب هذا المبنى الذي كان ضخماً، ولا حدود له، وعارياً،

الرمال الوحيدة والمستوية تمتد إلى البعيد.

صاح ليو نافخاً صدره: «إنها أبيات الشاعر شيلي بعنوان أوزيمان ديسكو... ينبغي أن تُقرأ هنا... ».

«هذا مضحك جداً يا ليو. ماذا نفعل هنا في ليغولاند الستالينية؟».

فردّ عليّ بأن أمسكني من كتفيّ بطريقة استعراضية، وأدارني 180 درجة وقال:

«أقدّم لك... بوليفار النصر الاشتراكي. قصر الشعب».

يبدو القصر إذا نظر إليه المرء من بعيد وكأنه يخيّم على المدينة. وكان ذلك مصدر عددٍ من النكات التي أدّت بنا إلى التوقف عن التفكير في كلفته المالية والمعاناة البشرية العاليتين. تمكّن القصر من ابتلاع تلك الكلفة والمعاناة وإعادتهما بأحجامٍ سخيفة، وبذوق مضحكٍ على مستوى ضخم. يعتقد من يرى هذا القصر أنه لا يشتمل على أي شيء مؤذٍ، ولكنني عندما وقفت في الجادة الرئيسة شعرتُ بأن القصر يهاجمني، وذلك لأنه ليس إلا كتلةً من الأحجار

المزخرفة بشكل مفرط، والبعيدة كل البعد عن الإنسانية. رفعتُ يدي بشكلٍ غريزي لكي أحمي رأسي، لكن منظره كان يأتي بشكل ضرباتٍ متلاحقة.

كان بوليفار [أو جادة] النصر الاشتراكي أعرض من نهر الدانوب، ويبلغ ارتفاعه اثني عشر طابقاً، ويُعتبَر تشييده نتيجة قدرٍ هائلٍ من التكاسل واللامبالاة وجنون العظمة؛ وهي الأمور التي تميّز المشاريع العامة في بلدان الكتلة الشرقية. كان الرجال يعملون وسط ضجيج الآلات الذي يصمّ الآذان، وعلى ضوء الأنوار البيضاء الساطعة الموزّعة في أجزاء مختلفة من موقع البناء، بينما تسود الظلمة على بعد كيلومتر واحدٍ. أما الحُفَر التي انتشرت حولنا فقد تجمّعت فيها مياه آسنة كريهة الرائحة، والنفايات الصناعية التي تفوح منها رائحة الصدأ الحادة. اقتربنا أكثر، فرأينا قناةً مفتوحةً تبدأ من أعلى المنحدر، وتجري فيها موجات موحلة ومتسارعة وهابطة على طول درجٍ من الرخام لم ينتهِ العمل بهِ. رأينا في الأعلى، وبمساعدة مصباح الجيب الذي يحمله ليو، طبيعة هذا الذي يجري: سجادة متحركة من الفئران، وكانت أصواتها ذات النغمة العالية تشير إلى رعبها أثناء اندفاعها الجماعي. لم يهطل المطر في هذه المنطقة منذ أسابيع، لكن الهواء هنا كان ممزوجاً برائحة كريهة وبالرطوبة النفّاذة.

دخلنا بناية قيد الإنشاء، وكانت قطرات الماء عالقة على الجدران، بينما تدلت من السقوف أشياء رمادية مائلة إلى اللون الأخضر. كانت هذه الغرفة مبلّطة ببلاط الموزاييك، كما احتوت على ثلاث ثريات كبيرة تضيء الجدران الرخامية. لم تُستخدم هذه الغرفة من قبل، وبدت متعفنة مثل العفونة التي نجدها داخل برادٍ قديم. قادني ليو نحو كرة من الضوء، وكانت ناتجة عن نيرانٍ أوقدت بعيداً في الهواء الطلق.

«آه! ليو، مرحباً!».

أجاب ليو: «مرحباً فينتول، سي ماي فاسيتي (كيف حالك)؟».

تحلّقت بين الظلال مجموعة من الشبان والنساء مستنيرة بضوء مشعلٍ كان عبارة عن قطعة قماش مبلّلة بالوقود. وكان بعضهم تفوح منهم رائحة المخدرات. وضع أفراد هذه المجموعة رِجلاً فوق رجل، وانحنوا نحو نار المشعل اللاذعة، وهكذا أُنيرت وجوههم من الأسفل. كان هؤلاء بمثابة الأضداد والانعكاسات المشوشة للمجموعة التي رأيتها في كابسيا في ليلتي الأولى، والذين أنيرت وجوههم بفعل الشراب الفاخر الذي يتناولونه. بدأت أفهم أكثر فأكثر أن كل شيء هنا يمتلك ضداً له وذاته الثانية. حتى إنّ الأضداد تتناسب وتترابط، وربما الأضداد على الأخص.

تراجعتُ إلى الخلف ريثما تعتاد عيناي على الظلمة، فرأيت أربعة رجال وثلاث نساء متحلقين حول النار. دارت في هذه الأثناء سيجارتان من الماريجوانا بين أفراد المجموعة، فيما صدحت الموسيقى المتصاعدة من جهاز استيريو بأغنية الميت الممتن. كان أفراد المجموعة ينضحون بروح الشباب، وقد ارتدوا جميعاً ملابس من النادر أن يراها المرء هنا. رأيت فتاة واضعة عصاباً على وجهها الذي ظهرت عليه ثقوب كثيرة؛ الأمر الذي جعل الدموع تسيل من عينيّ. فقد برزت الثقوب على حاجبيها وخدّيها وبشرة عنقها المشدودة من فوق حنجرتها. كانت كل هذه الأشياء تمارس ذاتياً: الإبرة المعقمة التي تُغرز عبر الجلد الذي كان يخدّر بواسطة قطع الثلج، أو برذاذ مزيل الرائحة. كان شعر أفراد المجموعة طويلاً، وقد ارتدوا قمصاناً ازدانت برسوم الزهور والمشاعل. وكانت نظرات الشبان الذين تظاهروا ضد الحروب متشكّكة تجاهي. قالت لي الفتاة التي تملأ الثقوب وجهها شيئاً باللغة الرومانية، بينما ارتاح الآخرون قليلاً عندما أيقنوا أنني أجنبي. وبعد ذلك، ناولتني الفتاة سيجارة.

قالت الفتاة عندما تراجعتُ بطريقة عفوية ما إن تذوّقت هذه السيجارة:

«ميل - ميلينا... » كانت عينا الفتاة كبيرتين، بينما انتشر النمش حول أنفها الذي كان مثقوباً بقطعة زجاجية صغيرة، والتي انعكس ضوء المشعل عليها. دخّنتُ السيجارة، وشعرت بدخانها وهو ينتشر في رئتيّ، ويخترق مجرى دمي. لم يكن طعمها طبيعياً، وبدا لي أن مادة كيميائية ما قد اختلطت فيها. لكن في البلاد التي تمزج الطحين بنشارة الخشب لتكبير حجم الرغيف لا يُستغرب مزج أي شيء مع المخدرات. شعرتُ بأن قلبي يكاد يفرغ من دمائه قبل أن يمتلئ مجدداً. سمعت بداية محادثة من دون أن أتمكن من فهمِ شيءٍ منها، كما سمعتُ الأغنية المنبعثة من الجهاز، ولكنني ظننتُ أنني لاحظتُ العلامات الأولى الناتجة عن ضعف البطارية؛ بما فيها استطالة كلمات الأغنية، وأصوات أوتار الغيتار التي بدت متأرجحة... أو ربما سمعتُ كل ذلك بسبب الشعور بالغثيان الذي سيطر عليّ. الميت الممتن... يا لهذا العنوان الذي يوحي بالشراسة! انزلقتُ نزولاً نحو الجدار الرطب، وأسندت رأسي بين ركبتيّ، وفكّرت في هذه الموسيقى الراقية التي تملأ الفضاء.

كان الشاب الذي خاطب ليو أولاً هو الأكثر وعياً بين تلك المجموعة.

وكزني الشاب الساخر الذي بدا متفرداً برأيه، ومسؤولاً عن الآخرين، ثم قال: «أنت صديق ليو، أليس كذلك؟».

«هل هذا سؤال؟».

فشرح ليو لي الأمر: «قلتَ إنك تريد أن تكون مفيداً، وأنا وثقت بكلمتك. لكن، ما هي الفائدة الكبرى من لقاء فينتول (الريح)، وسماع ما يريد قوله؟».

كان الشاب نحيل القامة وملتحياً، وذا شعرٍ طويل. وبدا قوياً وهو يحبو على الأرض ومستعداً للقفز. وكان جميع من حوله مخدّرين وبطيئين، لكن هذا الشاب أوحى بالتوتر والحزم. تطلع نحوي، وركّز نظره عليّ. حاولت أن أتطلع

نحوه، وأن أنهض كي أنفض عني الدوار الذي يسيطر عليّ. غير أنّني شعرت بأن لعابي لزج ومذاقه لاذع.

قلت: «حسناً، هل سيتفضّل أحد بشرح ما يجري هنا؟».

فقال فينتول: «إننا نساعد الناس على الرحيل من هذه البلاد، وليو يساعدنا منذ أربع سنوات وحتى الآن، وكذلك فعل بيلانجر». تطلّع ليو بنظرة تنمّ عن عدم الارتياح عند ذكر اسم بيلانجر، ثم سحب نفساً قوياً من سيجارته. «إننا جماعةٌ من الأشخاص الذين يساعدون الناس على عبور الحدود إلى هنغاريا أو يوغوسلافيا. لكننا بحاجة إلى أشخاص مثلك أنت وليو لمساعدتهم في الحصول على الأوراق، أو رسائل الدعوة اللازمة من الأجانب... وللعثور على شخص ما لمساعدتهم بعد خروجهم من البلاد».

فتدخل ليو قائلاً: «وانتزاع الأموال من الأشخاص المستعدّين للدفع».

عندها، تطلع فينتول نحوه باستياء وقال: «وكما يقول ليو، هناك بعدٌ مالي للمسألة، لكننا لا نجني المال من كل هذه الأعمال». هناك بُعدٌ مالي... كانت إنكليزية فينتول استثنائية، أي أنها كانت لغة رسمية ودقيقة وبليغة وبعيدةً عن التمسك بالمظاهر.

ركّز ليو نظراته على صدر ميل؛ لإشباع عينيه من منظر صدرها العاري بينما كانت تنحني لتحضير سيجارة أخرى. كانت بشرتها صافية وبلون الحليب، أما الثقوب التي تملأ وجهها فتفتقد إلى الدقّة، وفي غير أمكنتها الصحيحة، وكان مقدارٌ كبير من المعدن يخترق جلدها. قال ليو وهو يهمّ بأخذ سيجارةٍ من ميل لتدخينها بقوة: «كلهم متورطون: فبيتريسكو مثلاً لا يقوم برسم الأيقونات فقط، بل يتلاعب بجوازات السفر أيضاً، ويصنع أختاماً مطاطية ويزوّر تأشيرات السفر. أما يونيسكو فيساهم في تحضير الأوراق التي تعلوها ملاحظات من الجامعات

الأميركية... وهو يأخذ المواد من المؤتمرات ويعيدها إلى هنا. ويعمل كوستانو في متحف التاريخ الطبيعي، ويقوم بإقراضنا بضعة صناديق شحن... والتي تكون مثقوبة بعدة ثقوب لتسمح بدخول الهواء إليها، وتحتوي على بعض القش. أما العم بوب فيُحضّر مقصورة في الدرجة الأولى خاصة للأزواج الذين يبحثون عن حياةٍ أفضل».

لم يكن فينتول مستمتعاً بثرثرة ليو، ولا باستعداده لذكر أسماء الأشخاص. تطلعتُ نحو ليو، وكذلك نحو مجموعة من الأعين المجهَدة للشبان الذين تحلّقوا حول النار. فكّرت في هذه العملية التي يقوم بها هواة وتلك العصابة من الرسامين وأساتذة الجامعات، والذين يقفون في وجه أحد أشد الأجهزة الأمنية تعسفاً في العالم.

حاولت أن أجعل لهجتي تبدو طبيعية لكي أستعيد قوة مركزي في الأحاديث الدائرة: «هل أحرزتم نجاحاً مهمّاً؟».

فأجاب فينتول: «نجحنا أكثر ممّا تتصوّر».

سألته: «ماذا يحدث عندما تفشلون؟».

«هذا ليس من شأنك. إننا نعيش في أزمنة صعبة... » وأومأ إيماءةً ذات مغزى نحو ليو. «أتعلم أن ليو هو الذي قدّم لنا الرأسمالية؟ ماذا تسمي هذا النظام؟ العرض والطلب، وكل شيء له سعر، وهذا السعر يتغير باستمرار، وهو متعلق بالمقدار الذي يعتقد ليو أنك تريده. هذا هو العالم الجديد الذي نريد دخوله جميعاً، والآن... ».

«هل كنت أنت مَنْ اتصل بي هاتفياً؟».

«كنّا نحاول الاتصال بك، إلا أن هاتفك - أو هاتف بيلانجر - معرّضٌ للتنصت.

وفي واقع الأمر، كل الهواتف موضوعة تحت المراقبة. والآن، سوف نقوم بترتيب اجتماعنا، هذا إن كنت تريد أن تساعدنا».

«لكن كيف؟».

«بإمكانك أن تكتب رسائل توصية، كما يمكنك التدقيق في أمورٍ كثيرة، وأن تنقل لنا أغراضنا. ويمكننا استخدام أذوناتك وعملتك، أي بإمكانك المساعدة في شتى أنواع الأمور الصغيرة، وليست كلها خطرة. ماذا تريد في المقابل؟».

«لا أريد أي شيء في المقابل. أتيت إلى هنا لأرى ما الذي تستطيعون فعله... ».

«إننا نريد الحصول على شيء ما في المقابل: المال، والنفوذ، والضمير الحي... ما الفرق؟».

«إذا كنت سأفعل كل هذا فذلك لأنني أعتقد بوجود فرق، ألا تعتقد ذلك؟».

«سيكون هناك فرق إذا قلتَ ذلك». أما ما عناه فكان: أجريتُ محادثة كهذه مع أشخاصٍ أفضل منك».

وضع ليو ذراعه حول كتفي، وكان ذلك إجراءً حمائياً، وقد ترافق مع ترددات. كان ليو يحميني من خصم أشد قسوة. أخبرني فينتول أنه سوف يتصل بي في وقتٍ ما في الأسابيع القليلة القادمة، وأنه سيوضِّح لي كل شيء عند اتصاله بي.

وعند انتهاء حديثنا، ابتلع فينتول جرعة من الشراب الأحمر، كما لفّ سيجارة سميكة أبقاها لنفسه. وفي تلك اللحظة، قام أحدهم بتغيير شريط الأغاني. وهكذا، بدأنا بسماع موسيقى شعبية قوية وذات إيقاع رقص سريع. فهزّ فينتول رأسه تماشياً مع إيقاع الموسيقى، فيما تناول الشراب من زجاجته. لاحظت ذراعيه ورقبته ذات العضلات المفتولة، ووجهه القوي. كان كل الأشخاص المتواجدين تفتقد نظراتهم إلى التركيز، كما كانوا يتسمون بالغموض؛ ما عدا

فينتول. استسلمت فتاتان للنوم، بينما انهمك ثلاثة شبان ثملين في تأدية رقصة ريفية حول السلّم المزدوج الذي تشتعل عليه النيران. وضع الشبان زجاجات فارغة فوق السلم بعد أن أعادوا إغلاقها بأغطية الفلّين، فبدأت بالانفجار بصوت عالٍ واحدة تلو الأخرى.

فجأة، رأينا أنوار مصابيح كشافة قوية متبوعة بالصراخ وعواء الكلاب.

عندها، صاح ليو وهو يدفعني بقوة إلى الممر: «اخرجوا! الآن!».

فقال فينتول: «كلا. إنهم يتوقعون منكما أن تخرجا. يتعين عليكما أن تدخلا. تعاليا».

وعلى الفور، قفز فينتول، وكانت رشاقته مفاجئة بالنسبة إلى رجل استمرّ بتدخين المخدرات وتناول الشراب طوال الليل. كان تأثير المخدرات عليه قليلاً، لكنّ الآخرين كانوا في حالة من الدوار. أيقظهم فينتول بقوة، وقسّمهم إلى ثلاث مجموعات، ثمّ وجّهنا في اتجاهاتٍ مختلفة. شعرتُ بأنني لست على ما يرام، حتى إن ليو كان أكثر خفةً من المعتاد. ظلّت الموسيقى تصدح من جهاز الصوت الصغير على الأرض.

سمعنا ضجيجاً وسط الظلمة، ورأينا زوجاً من العيون الصفراء يلمع بفعل ضوء المشعل. وبعد ذلك، رأينا كلبين من نوع شيفرد الألماني.

قال فينتول: «توجّها إلى الجهة اليمنى؛ بغضّ النظر عمّا تريانه». وبعد ذلك، وجّه كلامه إليّ: «سوف نتصل بك!».

أطفأ ليو المصباح اليدوي، وتحرّكنا إلى عمق المبنى.

حافظنا على اتجاه اليمين لفترة حسبناها ساعاتٍ عديدة، وسرنا عبر الممرات والقاعات، لكن أصوات الكلاب رافقتنا، وكذلك الأصوات الأخرى التي كانت

خلفنا. شعرنا بأن الوقت يتمدّد: المخدّرات، والخوف، والأدرينالين. لكن تلك الفترة لم تزد في الواقع على عشرين أو ثلاثين دقيقة. كان ليو يتقيأ وسط الظلمة، وكانت هناك فتاتان ترافقاننا؛ لكن الأمر بدا لنا وكأنها رحلة طويلة. فقدنا أثر الفتاتين في مكان ما، وتعثّرنا أثناء مسيرنا بأوعية الطلاء ودلاء الإسمنت، كما تعثّرنا أيضاً بالأسلاك والأنابيب. كان ليو يتوقّف بين الحين والآخر ليستند إلى جدار. وفي إحدى المرات، لم يكن ما استند إليه جداراً، بل كومة من الخشب المضغوط التي سرعان ما سقطت وأحدثت ضجة بعد أن وضع ليو كلّ ثقله عليها. فقدَ ليو مصباحه في هذه الأثناء، لذلك لم نتمكن من رؤية أي شيء غير ومضات من ضوء القمر، أو من أنوار الشوارع في الخارج. وأخيراً وصلنا إلى القاعة المخصّصة للرقص، فوجدنا زاوية رطبة. وهناك جلس ليو واستسلم للنوم. حاولت الاستماع إلى الضجيج، لكن لم يكن هناك أي صوت يُسمَع غير فراغ البناية التي تردّدت أصداء نفسها.

استيقظتُ بعد ساعاتٍ عدة أو دقائق قليلة. كان ضوء الصباح الشاحب ينبلج رويداً رويداً، كما أن الرخام الذي يكسو الجدران بدا شاحباً أيضاً. كان ليو يشخر في هذا الوقت، أما أنا فقد تقيأت فوق حذائي وأحذية الآخرين أيضاً، لكن لم يكن بإمكاني التأكد أو التذكر. كنا في الغرفة ذاتها التي بدأنا جولتنا منها، وقد عمد فينتول إلى إرسالنا في دورة، وحسبَ أن المكان سيكون آمناً عند عودتنا، ويبدو أن خطته قد نجحت. كانت النار لا تزال حامية، ولكن بقيت طبقة من غبار الرماد الأبيض فوق الغصون نصف المحترقة. لكن، أين ذهبت الفتيات؟ أما زجاج الثريا فقد بدأ في التقاط الضوء المتسلّل من خلال ما تأكّدت الآن بأنها نوافذ فرنسية تشرف على شرفة بحجم نصف قاعة لعبة سكواش. استفاق ليو وبدأ بالتأوه بصورة عفوية، ورأيت على جبهته جرحاً دائري الشكل. لمس ليو الجرح، وشعر بالدماء المتجمدة عليه. «يا إلهي... لم تعد سنّي تتحمّل

هذه الأشياء». ثم أغمض عينيه مجدداً، وسوّى من وضعية استناده إلى الجدار، ولكنه بدأ يشخر مجدداً.

سمعتُ أصوات حركة فئران في الزاوية، فحاولتُ أن أكتشف ما يشغلها، لكنني لم أتمكن من تمييزه. هل هو معطف ملقى على الأرض؟ بعد ذلك، اعتادت عيناي على الظلام، فعرفتُ أنه كيس إسمنتٍ فارغ. تمكنت من سماع أصوات فكوكها وهي تصطك بشدة. نهضت واتّجهت نحو حافة نافذةٍ لم ينتهِ العمل فيها بعد، وقفزت من فوق ليو إلى الجهة الأخرى من الغرفة.

كانت جثّتا الكلبين من نوع جيرمان شيفرد تستلقيان جنباً إلى جنب، كما وضع أحدهم أكياس الإسمنت فوقهما، لكن دماءهما تسربت من خلال التراب الذي كان قربهما. وكزتهما بحذائي، لكنهما كانا جامدين، ثم رفعت عنهما كيس إسمنت فارغاً. كانت عيونهما مفتوحة بانتظار الموت على ما يبدو. كما كانت رقبتاهما ممزّقتين، ورأيت بعض أحشائهما المختلطة بالدماء التي سالت وامتزجت مع كومةٍ صغيرة من غبار الإسمنت. رأيت كومة صلبة تكونت هناك. ركلت الكومة، وكانت بلون الصدأ المخطّط بالدماء.

«يا إلهي!». لم أسمع ليو حين اقترب مني، ثم تطلع بعيداً. «هذان كلبان تابعان للميلشيا، وقد قُطِع عنقاهما. من فعل هذا بحق السماء؟».

«لم يُقطَع عنقاهما. انظر يا ليو، لقد مُزِّقا تمزيقاً، أو تم عضّ مجرى الهواء مباشرة».

«دعنا نخرج من هنا. تمتلئ هذه الأبنية بالناس الفقراء، والغجر، والمدمنين على المخدرات، والمشردين... يبدو المكان مثل حي الفقراء، وهو خطر جداً».

كانت الساعة الرابعة من بعد منتصف الليل، وقد عرفت الوقت بفضل ساعة ليو المضيئة. رأيتُ الرافعات في الخارج وقد بدأت عملها، بينما بدأت الشاحنات

المقفلة الصغيرة بإنزال العمال على الأرصفة. بدا لي أن الرجال لا يتلقون ما يكفي من الغذاء، وهذا سبب نحولهم على الأرجح. كان بعضهم مريضاً أو ضعيفاً جداً، بينما بدا بعضهم الآخر مثل أفراد العصابات. تولى حراسٌ مسلحون قيادة العمّال إلى أماكن العمل، ثم توزيعهم عليها. وفي هذه الأثناء، اختبأنا أنا وليو وراء شاحنة تنقل أكياس إسمنت، إلى حين انصرف العمال والحراس.

قال ليو: «إنهم من المساجين، وهذه شاحنات تابعة للسجن، وهي تحمل لوحات تسجيلٍ تابعة للجيش، وربما تتبع لسجن جيلافا... انظر إلى السراويل والقمصان الصفراء، والأرقام من جهة الصدر والظهر. إنه العمل الإجباري. تُبنى هذه المباني كلّها الآن بالعمل الإجباري».

فقلت لليو ما إن أصبحنا داخل السيارة: «لست متأكداً من هدف هذا الاستعراض غير السارّ».

«سوف ترى». وعدّل ليو وضعية مرآته، ثم شغّل المحرّك، وتابع: «سوف ترى».

الفصل العاشر

لم يكن هناك أي شيء رسمي بشأن علاقتي مع سيليا، وكان من النادر أن أعرف مكانها، ومن التقت، وما إذا كانت قد درست شيئاً بالفعل، ما عدا بالمعنى الاسمي، بصفتها تلميذة موسيقى في الجامعة.

أما بالنسبة إلى غيرتي عليها - بسبب عدم معرفتي أي شيء عن الوقت الذي تقضيه بعيداً عني، ولجوئها إلى طرائق خسيسة للحديث عن ذلك الوقت - فقد كتمتُها داخلي. وذلك لأنّ اعترافي بأنني تبعتها ذات مرة إلى منزلها وراقبت شقّتها، وأنه بسبب عدم عثوري على أي شيء مشبوه تبعتها مجدداً، وبعد ذلك مرة أخرى، كان يعني أنني أعترف باستسلامي لها ولغيرتي. يُضاف إلى ذلك أن الرجل الذي يشعر بالغيرة يرغب في مرحلةٍ ما أن يبرهن أنه محق. لكن الاستثمار في الشك يماثل الاستثمار في أي شيء؛ وذلك لأن المرء يرغب بعد فترة في الحصول على عائد لاستثماره.

كنت ألتقي سيليا بناءً على موعد مسبق فقط. وعندما لا أكون معها، لم أكن أعرف عنها أي شيء، كما أنني لا ألتقيها في جولاتي المعتادة. كنت أصل في بعض الأحيان إلى أحد الأمكنة، فيغمرني شعور بأنها انصرفت لتوها. عندها، كنت أركض في الشارع على أمل أن أتمكن من رؤيتها، أو ألمح سيارتها على الأقل، أو أشم رائحتها؛ وكان هذا كافياً بالنسبة لي.

وفي أحد الأيام، أخبرتني أن والدها يتمنى الالتقاء بي. هل قالت يتمنى؟! كانت هذه كلمة أكثر تهذيباً، ولكنها في الوقت ذاته أكثر سلطوية من الاكتفاء بالقول إنه يريد ذلك. شعرت بالسرور، وظننتُ أن لقاءنا قد يجعل علاقتنا رسمية، وأننا هكذا سنصبح زوجين. كنا نلبّي الدعوات إلى المناسبات معاً، كما رافقتها إلى

المسرح، أو إلى الحفلات الموسيقية، وكذلك عندما غنّت مع جوقة أثينيوم في الحفلة الصيفية؛ وهي الحفلة التي حجزت لي مقعداً فيها في الصف الأمامي، والذي يُحجَز عادة لأفراد العائلة. امتنعتُ أيضاً عن الالتقاء بها خارج المواعيد التي ترتّبها لي. وهكذا، لم يكن هناك أي مجال لكي أزور سيليا من دون إعلامها بذلك مسبقاً. لكنني عندما لا أكون معها كان الأمر يشبه كوني في مدينة أخرى، وذلك لأنني لا ألتقيها؛ إذ لم يكن لدينا أصدقاء مشتركون (لم يكن لدينا أصدقاء من هذا النوع على أية حال). لكنني ارتحت لأنني أعرف القليل عن أصدقائي: سيليا، وتروفيم، ويونيسكو، وحتى ليو. فأنا أعرف أن الاكتفاء بالمعرفة الجزئية شرطٌ لكل الصداقات التي تعقَد في هذه البلاد.

قال ليو ساخراً عندما أخبرته أنني قد ألتقي والدها: «هل ستطلب يدها فيما أنت تتناول كأساً من الشراب، وتدخّن السيجار؟ قل له إنك عريس رائع، وإنك يتيم، وقد تركتَ دراستك. أتذكر بماذا وصفتْكَ؟ هل قالت إنك سائحٌ محروم؟ لا تخدع نفسك؛ لأنه يعرف مَن أنت بالضبط، وربما حصل على ملفّك. ما أعنيه هو أنه يريد أن تعرف أنه يراقبك».

وفي أحد أيام منتصف شهر حزيران، رُنَّ جرس الهاتف عند الساعة الرابعة من بعد منتصف الليل، فتناولت السماعة، وتصرّفت كما لو أنني أجيب على مكالمة عادية. وكنت قد عبرتُ الردهة، وخطوت فوق حقيبة كانت أمام باب المدخل. وفي ذلك الوقت، كان قد اقترب موعد أول زيارة لي إلى الوطن، وكان من المقرر أن أعود إلى المملكة المتحدة في الشهر القادم. لذا، قمت بترتيب أمتعتي الصغيرة قبل عشرة أيام، وأبقيتها مرتبة تحسباً لاحتمال اضطراري إلى العودة سريعاً. كان الصوت الصادر من سماعة الهاتف متردداً، ومتميِّزاً بلهجة رومانية ثقيلة مع مزيج من اللكنة الأميركية. اكتسب الجميع هنا لغتهم الإنكليزية منذ سبعينيات القرن الماضي بفضل المسلسلات البوليسية الأميركية. كما اعتاد طلابي

على وصف بعضهم بعضاً بأوصاف مثل: بانك ودورك، وتمكنوا من التلفظ بعفوية بعبارات مثل: كان هذا حياً راقياً في ما مضى، وذلك قبل وقت طويل من استيعابهم عبارات التحية في أحاديثهم اليومية.

«مرحباً... هل أنت الدكتور بيلانجر؟».

«كلا، لستُ الدكتور بيلانجر».

«أيمكنني معرفة مع مَن أتكلم؟».

«هل قلتَ أيمكنك؟».

لم أسمع الإجابة، لكن الخطّ بقي هادئاً للحظةٍ من الزمن، وبدا لي كما لو أن السماعة في الجهة الأخرى موضوعةٌ على صدر المتكلم، أو كما لو أن المتكلم قد وضع يده على السماعة لكي يستشير أحداً ما قربه. كانت تلك لحظة تدلّ على أن المتكلم يفتقد إلى الخبرة؛ وكأنّ محدّثي كان متردداً بشأن ما ينبغي عليه فعله تالياً، وذلك بالرغم من تمضيته ثلاثة أشهر تقريباً في استجماع شجاعته للتحدث. أدركت أنه المتكلم ذاته؛ وذلك لأن فترات الصمت التي حدثت بيننا كانت فريدة من نوعها، أي مثل لكنة كلٍّ منا، أو عباراتنا التي اعتدنا عليها. اعتدتُ حتى الآن على طريقة إنهائه الحديث، وعلى صوت أنفاسه عند إدخالها إلى صدره، وعلى الأزيز الخفيف الذي يصدر عن رئتيه.

سمعتُ الصوت الذي يصدر عند إنهاء المكالمة؛ وهو أمرٌ لم أكن أتوقع حدوثه بعد أن أبرمنا الاتفاقية أخيراً. لكنني هززتُ كتفيّ، واستدرت عائداً إلى غرفة نومي التي شهدت تطوراً ملحوظاً فيها. تطلعت إلى سيليا التي كانت نائمة، وقد أدارت ظهرها نحوي. ولكن، كان بإمكاني رؤيتها عبر المرآة الكبيرة المستندة على الجدار. كان اللون الفضي الذي يرسله القمر يملأ الغرفة، بينما أخذت أغطية السرير المكومة التي ركلتها عنها شكل صَدَفة رمادية ملتمعة. صعدتُ إلى

السرير، وطبعت قبلة على ظهرها، وشممت رائحتها. لمستُ فخذها فارتعشت، ولكنها عادت لتستدير نحوي.

فجأة، أدركت ما يحدث، وقفزتُ من السرير بسرعة وقصدتُ الشرفة، ثم نظرت إلى الشارع. رأيت تحت الشقة بعدة ياردات كشكَ هاتف. يبدو الرهاب في بعض الأحيان ليس أكثر من القدرة على قراءة إشارات الحياة المحجوبة؛ أي أن الرهاب لا يرجع سببه إلى تخيلات غير سعيدة، بل إلى حاسة سادسة. عرفتُ على الفور مصدر تلك المكالمة، وأنها أتت من ذلك الكشك، وأنّ المتكلّم كان يرغب في أن أعرف ذلك.

ارتديت بعض الثياب، ثم نزلتُ وعبرتُ الطريق. كان دليل الهاتف مربوطاً داخل الكشك، ومفتوحاً على اسم متجرٍ كبير في المدينة. رأيت علامات بعد صفحاتٍ قليلة، وكانت إلى جانب علبة سجائر حُشرت في إحدى الصفحات. وكان أول رقم في العنوان هو 5، وقد أُحيط بدائرة. كان ذلك بمثابة رمز يسهل تفكيكه.

كان ذلك يعني عند الساعة الخامسة من بعد الظهر. لم أخبر سيليا أو ليو بما حصل. وعندما وقفتُ في ردهة المتجر الذي يحمل اسماً مناسباً له - متجر مونوكوم الكبير - وهو المتجر الذي يأتي كل ما فيه بنوعٍ واحد، رأيت بين الزبائن المنتظرين بتململ شاباً كان واقفاً في الخارج، وكان شعره طويلاً يصل إلى كتفيه، كما كان مرتدياً قميصاً باللون القرمزي الشاحب، وسترة جلدية باللون البني الفاتح. كان الشاب يتفحص آلة تصوير روسية الصنع، ثمّ وجّهها نحوي ضاحكاً، ورأيت عدستها تتحرك بالتركيز إلى الداخل والخارج، ثم تظاهر بأنه يلتقط صوراً لي. غطّت آلة التصوير عينيه وأنفه، لكن ابتسامته العريضة أثارت توتري. فقد كانت ابتسامة حقيقية وغير مصطنعة، ولا تحجب وراءها أي معنى. كان هذا الأمر وحده مثيراً للشكوك. وقفت مراقباً ما يجري في انتظار حركته التالية؛ هذا

إذا كان هو الشخص الذي أتيت من أجل رؤيته.

كان الشاب نحيلاً وملتحياً. وبدا نحيلاً جداً لدرجة أن المرء يستغرب أن يكون من المستفيدين من النظام. لكن في الوقت ذاته، لم تكن هناك أي إشارة تدل على أنه من الخاسرين فيه. لكنّ الشاب بدا وسط عالم من الانسجام، كما لو أنه يعرف المدى الذي يُمكن أن يصل إليه اختلافه من دون اضطراره إلى دفع الثمن. امتلك الشاب بعض الاختيال وبعض التمايز، غير أنّ كل ذلك لم يكن مدعاة للتشكيك به. كان الشاب أنيق المظهر، ويضع نظارة من نوع جون لينون، كما كان يدخّن سيجارة. وقد ارتدى فوق قميصه المفتوح عند العنق سترةً جلدية أنيقة بالرغم من بعض الخدوش فيها، والتي تعود إلى العام 1960. أما سرواله الجينز فقد كان واسعاً من الأسفل، بينما كان حذاؤه على الطراز القوقازي، وبدا على الفور أنه حذاء عسكري وبوهيمي. أعاد الشاب آلة التصوير إلى واجهة البيع، وغادر المتجر على الفور.

وفّر جسمه النحيل والسريع كل الإثارة في الشارع، وكانت ملاحقته مثل ملاحقة ثعلبٍ فوق الثلج. وهكذا، كانت آثار قدميه بنية اللون تتناوب على ترك آثار مروره وخروجه عبر مداخل المنازل. كان الشاب حريصاً على اتباع المنعطفات، ومنتبهاً إلى إشارات السير. كانت تلك ساعة الذروة، لكن بالرغم من وجود عدد قليل من السيارات كانت الأرصفة مزدحمة بالناس. أما عربات الترامواي والحافلات فقد كانت متصلة ببعضها بعضاً في كاليا فيكتوريا. لكن في مكان ما لا يبعد أكثر من مجمّعاتٍ سكنية قليلة، سُمِعت أصوات صفارات الإنذار التي تترافق مع الموكب، لكن الشاب تابع سيره نحو ليبسكاني متجاوزاً الوزارات والسفارات.

ذكّرتني ليبسكاني بالصور القديمة لمدينة باريس ما قبل هاوسمان. فالبيوتُ مائلةٌ، وهي من مختلف الأشكال والارتفاعات، والحيّ مزدحمٌ ومؤلفٌ من

مجموعة متنوعة من الطرازات، ومواد البناء المختلفة. كان هذا المكان قبل مئة سنة مكاناً مثالياً لإطلاق الشائعات، والأمراض، والجريمة، أما الآن فقد أصبح مكاناً للتأمل، والمفاجآت. كانت أحجار الشوارع غير متساوية، كما أن بعض الطرقات افتقدت إلى الأرصفة. وكانت السيارات الخاصة نادرةً جداً، بينما عربات الترامواي تتلوى في مسارها فوق الشوارع الفرعية، وتتطاير الشرارات من تحت عجلاتها.

كان المكان وعراً وفوضوياً، وربما لم يكن خاضعاً لسيطرة رجال الشرطة، وذلك بالرغم من أنه كان مراقَباً على الدوام. تواجد هناك عدد كبير من المخبرين الذين تحوّلوا إلى سكان ذلك الحي، وعددٌ من سكان الحي الأصليين الذين تحولوا إلى مخبرين، أو الذين تبادلوا الأدوار بين هاتين الفئتين. وكان معظم الذين أعرفهم ينتمون إلى تلك الفئة. كان المكان أيضاً منطقة الغجر في المدينة. أمّا مباني الحي القديمة والرائعة فقد تُركت للخراب، وكانت مليئة بالغجر الذين ساعدوا الحكومة على هدم منازلهم تحضيراً لإزالة ليبسكاني في النهاية؛ الأمر الذي كان من المقرر حصوله في العام 1990. رأيت النيران التي توقَد في غرف المعيشة، والخيول التي تنام في ممرات المنازل، والجدران المتهدمة، والأسقف التي انتُزع الصفيح منها بهدف بيعه.

رأيت عدداً كبيراً من الغجر واقفين، أو يتمتعون بنور شمس آخر النهار وقد أغمضوا أعينهم، ومدّوا أذرعهم، وفتحوا راحات أيديهم وكأنهم يريدون أن يتلقوا تعويضاً عن ساعاتهم الفارغة من الزمن ذاته. بدا لي أن الحياة في الطبيعة مغروسة في أعماقهم. رأيتهم ينحنون عند دخولهم منازلهم؛ بالرغم من أن ارتفاع المدخل يصل إلى عدة أقدامٍ فوق رؤوسهم. أما في الداخل فتراهم متلاصقين؛ مهما كان اتساع الغرفة التي يقيمون فيها، وكأنهم يقيمون في غرفة ضيقة تزداد تقلصاً. فيبدو الأمر وكأن لديهم ميلاً غير طبيعي إلى التقوقع. يغادر

الغجر منازلهم عند الساعة الخامسة صباحاً، ويعودون إليها بعد منتصف الليل. كان النهر غرفة معيشتهم، ومكان عملهم، وبيئتهم الطبيعية؛ وكأن المنازل التي تسلموها ما هي إلا أماكن يستودعون فيها أجسادهم في ساعات الظلمة.

أبطأ الشاب في سيره لأن الناس أوقفوه وتبادلوا التحيات معه، أو لوّحوا له من الجانب الآخر من الشارع؛ لأن هذه كانت منطقته. لاحظتُ عند مروري أمام معرض فني صغير احتفالاً بافتتاحٍ ما. واستنتجت من الغضب الذي يبدو على الضيوف أن الاحتفال كان غير مرخّص من قِبل اتحاد الفنانين؛ لأن هذه التجمعات قد تُلغى في أي وقت. أما إذا كان المرء محظوظاً، فإن المُخبِر المحلي سينتظر إلى حين انتهاء تناول المحتفلين الطعام، وشُرْبهم ما يكفي من الشراب قبل استدعاء القوى الأمنية؛ وهكذا يحصل المحتفلون على وقتٍ كافٍ لرؤية ضوء النهار. رأيت ليو حاملاً كوباً بلاستيكياً مليئاً بالشراب الأحمر، وكان يتحدث مع جوانا وبتريسكو رسام الأيقونات. لمحت بتريسكو من وراء كتف ليو، ولكنه لم يُظهِر أي إشارة تدل على أنه رآني. رأيت كذلك كامبانو الطبيب المختص بالأمراض، والذي كان يدخّن. وكان يرتدي سترة باللون الأصفر الشاحب فوق قميصٍ أزرق اللون يرتديه في المشرحة. رأيت لوحة كبيرة معلقة على النافذة، وتمثّل مجموعة من العمال الذين يتقاسمون الخبز والحليب أمام خلفية من العجلات والبكرات الملتمعة.

فقدتُ أثر الشابّ الذي يرتدي قميصاً قرمزي اللون. لكن، على بُعد ياردات قليلة رأيت لوحة مصنوعة من الحديد المصبوب، وقد كُتبَت عليها عبارة: الدب الكارباتي، وكانت معلقةً على عارضة الباب الرئيس. اضطررت إلى الانحناء للدخول، وكان الباب ذاته قاسياً ولا يتزحزح. دخلت نادياً ليلياً مزدحماً ويعمّه الضجيج، وكان سقفه قليل الارتفاع لدرجة أنني لو وقفت على أصابع رجليّ لكان بإمكاني أن أخدش رأسي بالسقف المطلي باللون البني. أما تحت هذا

السقف فقد خيّمت سحابة من الدخان، فبدت مثل ضباب جبلي يغطي وجوه الزبائن. لكنْ لم يكن هناك ضباب، بل دخان الكارباتي؛ وهي السيجارة التي تمزق الرئتين مع كل نَفَس. والواقع هو أن المرء لا يتنفس دخان الكارباتي، بل يمضغه. كان الجميع هنا، كباراً وصغاراً، يبدون مثل البوهيميين. وقد جلس الطلاب مع المتقاعدين، والعمال مع الهيبيين. وتواجد أيضاً عدد قليل من الغجر.

«لقد فشلتَ في تدريب الاستكشاف الأمني. راجِع رئيسك المسؤول من فضلك!».

التفتُّ فرأيت الشاب هناك حاملاً كوبين من الشراب تعلوهما الرغوة، وكان يستمتع بلحظة انتصاره. تصافحنا، وتأمّلنا بعضنا بعضاً صعوداً ونزولاً. أعجبتُ بالفتى على الفور؛ إذ يبدو أنه يتّصف بمزيج من الشقاوة والرزانة. قدّم لي الشاب لفافةً تبغ تركي أخرجها من علبة مرصعةٍ. كان ذلك هو ما أطلق عليه ليو اسم إجراءات ساعات العمل الرسمية، وكان كافياً لإعطاء نهاية اليوم دفعاً معنوياً لطيفاً من دون المبالغة في التخيّلات. كانت ابتسامته عريضة، ومليئةً بالدفء والمرح. وهكذا، تطلعنا إلى بعضنا بعضاً مبتسمَيْن بغباء، أي من غريب إلى غريب.

كانت أظافره طويلة ونظيفة، وحين لاحظ أنني أتفحصه، مرّر أصابعه على أوتار قيثارة. لاحظت وجود جهاز واكمان في جيبه الأعلى؛ وهو أمرٌ يُعتبر نادراً في رومانيا، ويُعتبر جديداً حتى في الغرب. بعد ذلك، سحب الشاب جهاز تسجيلٍ من جيبه الداخلي، وقال لي: «أتحب جون كايل، باريس 1919؟».

أحببت هذا الشريط بعد سماعه، ولكنه قال بعد أن تناولنا جرعاتٍ كبيرة من الشراب: «أنا آسف. اسمي بيتر، وأنا سعيد بالتعرّف عليك».

خفتت الأضواء قليلاً، ثم بدأت فرقة جاز صغيرة بالعزف في إحدى زوايا الغرفة. سألني بإنكليزية تشبه لغتي الرومانية للمبتدئين الذين يبدأون الحديث بما يعجبهم أو لا يعجبهم: «هل تحب الجاز؟». كنت أعرف هذا الأسلوب: إذ يأخذ المتكلم رأي الطرف الآخر بشأن المواضيع التي لا يهتم لها كثيراً إلى أبعد الحدود؛ وذلك لا لشيء إلا لإبقاء المحادثة جارية. اتّبعت أنا البروتوكول ذاته، وعبّرت عن حبي العميق للجاز، والذي استمر طيلة حياتي. أومأ بيتر مُظهِراً ارتياحه، ثم لوّح لفتاةٍ من البانكي كانت جالسة على أحد المقاعد الطويلة. ارتدت الفتاة قميصاً قصير الكمّين مرسومة عليه صورة السيدة ثاتشر. أذهلني ذلك؛ لأنه لا يمكن اعتباره نوعاً من السخرية على الفور؛ أي مثلما هو الحال في بلادي.

كان بيتر طالبَ موسيقى في الجامعة، وعازف قيثارة تقليدياً. أخبرني أيضاً عن حفلته الموسيقية القادمة التي سوف يُحييها في الأثينيوم؛ حيث يعتزم عزف مقطوعات باخ، وفيلا لوبوس، وفديريكو مومبو. وسألني عمّا إذا كنت أرغب في حضور الحفلة. ناولني بعد ذلك مجموعة من التذاكر من دفترٍ يحتوي على عددٍ منها. وعلمت بعد ذلك بوقتٍ قصير أن بيتر كان عازف القيثارة الرئيس في فقير؛ وهي فرقة روك تعمل بصورة شبه سرية، وتسمح لها السلطات بإقامة حفلاتها، إلا أنها تُخضعها لمراقبةٍ شديدة. أسمعني بيتر مقطعاً من موسيقاهم غير الرسمية. كانت كل تسجيلات الفرقة غير رسمية؛ وذلك لأن الفرقة لم تكن مسجلةً في اتحاد الموسيقيين، ولذلك لم يكن يُسمح لها باستخدام الاستديوهات، أو المسارح المخصّصة للحفلات الموسيقية. تطلعتُ إليه متفحصاً: كان جلده ناعم الملمس، ويداه ناعمتين إلى حدٍ كبير. أما شعره فقد كان لماعاً، وثيابه أنيقة ونظيفة، لكنني رأيت صليباً سلتياً معلقاً فوق قميصه.

التقيت عازف الكمان الكبير؛ وهو شابٌ أنيق كان يرتدي بذلة من ثلاث قطع تعود لأعوام الخمسينيات، كما كان شعره مسرحاً على طريقة تيدي بوي؛ وهي

الأقدم بين موديلات تسريحات الشعر.

نهض بيتر وانضمّ إلى الفرقة بعد أن قال لي: «ابقَ هنا. سأراك في ما بعد، وسنتحدث عند ذلك».

جلستُ وتابعت احتساء شرابي، ثم استمعتُ إلى مجموعة من معزوفات الجاز المرتجلة. عاد بيتر إلى طاولتنا بعد جلسة عزفٍ استمرت أربعين دقيقة، وقد تبلل شعره بالعرق، والتصق قميصه بظهره.

غادرنا النادي الليلي بعد أن أشار عقربا الساعة إلى العاشرة. كانت ليبسكاني هي الجزء الوحيد من بوخارست الذي يضج بالحياة بعد الساعة التاسعة مساءً. أما الفنادق والنوادي الليلية في المدينة، فإما أن تكون مصائد للسياح، أو مسرحاً مغلقاً لكبار الحزبيين. أما هنا فكانت الشوارع تضجّ بالحياة: السير على حبالٍ مشدودة، وحدائق الشراب المقامة على الأرصفة. كان الناس يشترون ويبيعون السلع التي لا يتمكنون من رؤيتها، وتلك غير الموجودة أيضاً. وكانت التعاملات هي الهامة، وليس السلع. إذ كانت التعاملات ترمز إلى الحياة، والتدمير، والثورة، والمساومات الحادّة حول السلع غير الموجودة. صدحت الموسيقى الغجرية من الباحات أو من النوافذ المفتوحة، وتناهى إلى أسماعنا ما تبثّه إذاعة بي. بي. سي بصوتٍ عالٍ، لكن تعذّر علينا معرفة مصدر هذه الجلبة الآتية من الشوارع الفرعية. تحوّلت الضوضاء إلى فوضى عارمة، ثم أتى صوت بوش هاوس (إذاعة بي. بي. سي) الذي يبعث على الراحة. فكّرت في المبنى هناك في ستراند، وبما يجب أن تكون عليه لندن في هذا الوقت: عربات المترو مليئة، والنوادي مزدحمة، وأحرف النيون الحمراء تشع مظهرة علاماتها التجارية. وهكذا، تتبخر المداخيل التي يمكن التصرف بها في ليل لندن.

كان ذلك الوقت من أكثر الأوقات التي أحبّها في بوخارست؛ إذ يخرج الناس في

آخر نزهات لهم في النهار، والمقاهي القليلة لا تزال مفتوحة. وفي داخلها تشاهد أناساً يتناولون الشراب حتى وقتٍ متأخر من الليل. كانت أجنحة أسراب العث المرتعبة تصطدم بالشبكات المانعة للبعوض. ومع تزايد برودة الليل تتزايد كثافة روائح النهار، وتتجزأ بعد ذلك: حبيبات اللقاح، والوقود المحترق، وأدخنة أخرى، وأدخنة السجائر. كلها تنوعت في هذا الوقت وسط الهواء اللاذع. كان بيتر يتنفس كل هذا الخليط بطريقةٍ غريبة، إذ يُغمِض عينيه وكأنه مُتذوِّق شراب محترف يستمتع بروائح زجاجةٍ جيدة؛ وهو الأمر الذي أعاد إليّ صورة ليو.

سألته عن المكان الذي يسكن فيه ولكنه لم يجبني، وتابعنا سيرنا معاً؛ بالرغم من أنني لم أكن تائهاً كلياً. وبعد حين، وصلنا إلى باحةٍ صغيرة حيث وجدت بيتر جالساً هناك، وهو يقوم بلفّ سيجارة أخرى. سألته مجدداً عن مكان إقامته، فذكر منطقة جديدة خارج حدود المدينة. كانت الحافلات وعربات الترامواي قد توقفت في ذلك الوقت، وكذلك سيارات الأجرة التي كان من المُستبعَد أن تذهب إلى تلك المنطقة البعيدة في هذا الوقت. سألتُه: «أين ستنام؟». فأشار لي بيده بطريقة تدلّ على عدم الاكتراث وقال: «الجو دافئ».

كان من المقرر أن ألتقي سيليا في شقتي. فكّرت في دعوة بيتر للعودة معي، ولكنني أدركت أن ذلك سوف يكون خطوة خاطئة. يُضاف إلى ذلك أنه لم يقل لي حتى الآن ما الذي يريده مني. فكّرت بعد ذلك في أنهما كانا طالبين في الموسيقى في الجامعة... أي يُحتمَل أن يعرفا بعضهما بعضاً.

«أعتقد أنك تتساءل عن السبب الذي دفعني إلى الاتصال بك؟».

«أعتقد ذلك، أجل. وأفترض أنه شيء يتعلق بلقائي فينتول في ذلك اليوم».

«أجل، الأمر يتعلق بذلك اللقاء».

«هل تريد الخروج من البلد؟».

فضحك بيتر على الفور وأجاب: «هذا بلدي، فلماذا أرحل؟! إذا رحلتُ ولم أعد أبداً فمعنى ذلك أنني أتخلى عن ذاتي؛ وهذا هو السبب الذي يجعلني أبقى بالرغم من كل شيء... يا لصعوبة العيش! لكنني أود أن أسافر، وأريد الذهاب إلى إسبانيا، وبريطانيا، وكندا، والولايات المتحدة... ولكن، يصعب على المرء أن يسافر، لأن العودة مستحيلة في الوقت الحاضر. وأنا سوف أرغب في العودة إذا سافرت يوماً، ولهذا لن أرحل. يُحتمَل أن ذلك يعني أنني لن أرحل على الإطلاق. لكنّ عدداً كبيراً من أصدقائي يريدون الرحيل، وبعضهم رحلوا بالفعل. إنني أريد أن أساعدهم، وأنت تستطيع مساعدتنا».

«وماذا بشأنك أنت؟ ألا تريد الحصول على الحرية أيضاً؟».

أعتقد أن قسوة سؤالي قد خيّبت آماله، إذ قال: «أعرف الحرية، ولا تخطئ في الاعتقاد بأننا لا نعرف معنى الحرية. فقد تمتعتُ بالحرية، ولكنني لم أعِش فيها. لكن، يمكنني أن أنتظر لأنني أعرف أنني لن أكون حراً إلا إذا كنت حراً في بلدي. ما الحرية التي عرفتَها أنت؟».

«لست متأكداً». لم أكن متأكداً بالفعل، ولكنني أمتلك إحساساً بالحرية من ناحية مجرّدة، إلا أنني أمتلك أمثلةً قليلة راسخة عن استخدامي الفعلي للحرية الممنوحة لي. لكن، هل كان ذلك دليلاً على الحرية بحد ذاته؟ فأنا لم أكن مضطراً إلى قياس الحرية التي أتمتع بها، ولم أكن مضطراً إلى تبرير ما فعلته بها. لكنني قررت الاكتفاء بالحديث عن أشياء محددة: «هذا يتعلق بي، وبي أنا فقط. أنا حر، ويمكنني أن أصوّت وأقول ما أريده، وأن أسافر إلى حيث أشاء... ».

«أيُحتمل أنك عشتَ في الحرية، ولكنك لم تكن حراً؟».

«يُحتمل ذلك. أقول يُحتمل إذا فهمتُ ما تعنيه... » كنت متعباً من الغموض المستمر الذي يحيط بهذه المناقشات التي كانت عبارة عن جلساتٍ طويلة من تبادل تسديد الأهداف بين الغربيين الذين لا يعترفون إلا بالمال والقوة الشرائية - وذلك بوصفهما من علامات الحضارة - والرومانيين الذين يصرّون على كرامتهم عن طريق التظاهر بأن نظامهم - مهما كان واهناً يعدهم بمستقبلٍ أفضل - حتى إن لم يرغب النظام في ذلك. تذكرت تروفيم وما قاله في هذا السياق؛ وهو أنه متمسكٌ بالشيوعية لتحقيق مبادئه.

راقبتُ بيتر عندما سحب نفساً عميقاً من سيجارته، وأسند ظهره على مقعدٍ طويل، ثم انزلق بجسمه إلى الأمام حيث أصبح فوق حافة المقعد الخشبي. وشعرت بأن مناقشة جديدة على وشك أن تبدأ، فتطلعت إلى ساعتي. كنت مضطراً للمغادرة، وأن أتلمس طريقي إلى المنزل، ولكنني استوعبت ما قاله بيتر. ولا يعود سبب ذلك إلى أن كلمته نفّاذة أو ذكية أو حتى صحيحة، بل بسبب نقائها الاستثنائي، وأصالتها، وأخيراً بسبب خطئها التام والبطولي.

«عرفتُ الحرية في حياتي لأنني أعيش في مكانٍ ليس حراً. ولكنني صنعتُ حرياتي التي تعمّقت. كانت حريات قصيرة، وربما اقتصرت على لحظاتٍ هنا وهناك، ولكنها كانت حرية على أية حال. لكنني لست غريباً عن كل هذا. أما الخطأ الذي يقترفه المرء إذا عاش في الغرب فهو أنه يفكر بأنه ضحية فقط، ويعيش برأس منحنٍ... ويفكّر بأنه لا يمكننا الاحتفاظ بجزءٍ من حياتنا في مأمن؛ حيث نكون طبيعيين وسعداء ونصبح ما نريد. هناك أشياء كثيرة متشابهة بالنسبة إلينا، أي مثلما هو الأمر بالنسبة إليكم: الحب، الموت، الصداقة، المتعة، مذاق الطعام والشراب الطيبين في الأوقات التي نريد الحصول عليهما فيها». وهنا ضحك بيتر ثم تابع: «وهي تمتلك القيمة ذاتها والمعنى ذاته... ».

«أحاول ألا أقترف ذلك الخطأ إزاء الناس... ».

«يُحتمل أنك لا تريد ذلك، وربما الآخرون أيضاً. ولكنني أعرف كيف تنظرون إلينا لأننا لسنا أحراراً مثلكم. لكن، ما هي طبيعة حريتكم؟ هل هي الحرية في شراء الأشياء؟ أو انتقاء آلة تصوير من بين عشرين موديلاً مختلفاً؟ أو إعطاء أولادكم ستة أنواع مختلفة من الطعام عند وجبة الفطور؟ هل هذه هي السيادة والحرية؟ أهذا هو السبب الذي يدفع أولادي إلى مغادرة بلدهم، والمخاطرة بحياتهم لعبور الحدود من أجل العيش في أماكن حيث يتمكّنون من الاختيار بشأن تناول الشيريو أو كوكو بوبس في الصباح؟!».

«بيتر، احتفظ بهذا الكلام للشخص المناسب لأنني لا أريد أن أتجادل معك. فأنا لا أزعم أن الغرب مثالي، ولكن لا يمكنك القول إن هناك مساواة بين ما تعانونه هنا والأشياء التي نواجهها نحن في الغرب؛ حتى إن كنا نضيّع قدراً كبيراً من حريتنا على أشياء تافهة. هذه خيارات صغيرة، ولكنها ترمز إلى خيارات أكبر بكثير، وتتعلق بمن يحكمنا، وما يُسمح لنا باختيار قوله وفعله، وما نؤمن به. يُحتمل أن امتلاكنا حرية اختيار نوع الحبوب التي نتناولها يدل على وجود اختيار الحكومات والأنظمة».

قال بيتر: «هذه ليست حرية، بل يتعلق ذلك بكونك زبوناً. إننا جميعاً من الزبائن. وأنتم تعيشون في بلد الزبائن. ماذا قالت السيدة ثاتشر؟ ليس هناك شيء يُدعى مجتمعاً... » وضحك بيتر ضحكة تدلّ على اختتام النقاش لمصلحته.

«يُحتمل أن يكون ذلك صحيحاً عندما تنتهي منا، لكن هذا لم يحدث بعد... ».

«إنني حر لأنني سأبقى هنا، وليس بسبب مغادرتي البلد. فأنا اخترت البقاء، وهذا هو ما يجعلني حراً؛ حتى إن لم يكن بإمكاني قول ما أريده. وحتى إن كانوا يراقبونني على الدوام ويدمّرون مدينتي، وحتى إن منعوني من عزف الموسيقى. وحتى إن كنت مضطراً على الدوام إلى الحصول على موافقة مسبقة

على برامج حفلاتي... إنني حرٌ لأنني اخترت ألاّ أهرب».

لم يكن لدي رد على ما قاله. إذ كان بيتر يؤمن في عمق الحرية كما تُعاش، وليس بكمياتها التي تتوزع عبر مجموعة من الخيارات البسيطة: ما ترتديه، وماركة المنظفات التي تشتريها، وأن تكون لديك حرية اختيار من يعالج البواسير التي أصبتَ بها، أو أسنانك المصابة. لكنه هنا، وفي الظروف التي أحاطت به، وجد حقيقة ذاته. لم يكن لدى بيتر أي خيار غير الإيمان بما فعله. لم أسمع أي شيء أكثر إقناعاً، ومع ذلك يصعب الدفاع عنه إلى هذه الدرجة؛ وهو شيء لا يتناسب مع أي نوع من أنواع الحياة المتاحة أمامه. كانت تلك فلسفة النقيض الذي يحتاج إلى نقيضه كي يتواجد. لكن ذلك بدا مثالياً. وفي الواقع، كان براغماتياً. فبعد كل شيء، إذا عجز المرء عن التمدّد أفقياً فهو يتجه إلى العمق، وهذا ما فعله بيتر بالضبط؛ لأنه اخترع منطقاً حيث الكثافة تحل محل الكمية. وتمكّن من التكيّف، لأنه تبنّى نظرية حرية تبرير كل أنواع القيود.

كان بيتر في الثالثة والعشرين من عمره، أي أكبر مني بسنتين. ولكن، بدا لي أنه لا يعرف شيئاً غير الإيمان المسبق في الأشياء الكثيرة. أعتقد أنه حدثت معه أشياء كثيرة في حياته القصيرة تكفي لكي يتبنّى هذا المعتقد، ولجعله ساخراً وصعب المراس. ولكنني لاحظت لديه نوعاً من أنواع الهدوء الذي لم ألحظه عند الآخرين. وبدا لي أنه غريب أكثر مني في هذا المكان. ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، كان معتاداً على الأمر. كان هناك شيء ما بشأنه، وكأنه جاء من نسخةٍ أفضل من هذا المكان والزمان ولكنها معترف بها. وتدور في تلك النسخة نُسخٌ أسمى من ذواتنا، من دون أن تتلوث بالوقائع القاسية التي كونّاها بأنفسنا، والتي كوّنتنا بدورها. كان ذلك أول انطباعٍ لي عن ذلك الرجل. ولكن، عند تعرّفي عليه أكثر فأكثر تعمّق انطباعي عنه.

كان بيتر يسكن مع أخته غير الشقيقة في شقةٍ واحدة. وقد عاش والداه في

منطقة زراعية في ترانسلفانيا، كانا قد أصبحا مهندسَين في تيمشوارا، ولكنهما الآن في عداد الأموات. أما جدّاه فكانا مزارعَين يعملان في إحدى مزارع الأرستقراطيين، ثم عملا في أولى المزارع الجماعية في البلاد. كان بيتر فخوراً بالأمر؛ أي بتطور عائلته من فلاحين يجهلون القراءة والكتابة إلى مهندسين في جيلٍ واحد.

«أنا حفيد الفلاحين، وابن مهندسيْن، والآن أنا عازف قيثارة. تطوّرنا في سياق ثلاثة أجيال تنتمي إلى عائلة واحدة، ومن العمل غير المجدي إلى التكنوقراطية الفعالة، وعدنا الآن إلى الفن غير المجدي. هذا هو التطور. هل عندكم في بلادكم ما يشبه هذا!؟». وضحك ساحقاً عقب سيجارته بكعب حذائه، ثم وضع يده على كتفي، وتابع قائلاً: «حان وقت انصرافي. إننا نود أن تساعدنا، وأعرف أنك تكلّمتَ مع فينتول، وهو سيطلب منك شيئاً ما في وقت قريبٍ جداً. فلدينا مشروع نحب أن تشاركنا فيه».

عانقني بيتر، ثم اختفى تاركاً وراءه رائحة خفيفة من الجلد، وزيوت الباتشولي والتبغ. أشار عقربا الساعة إلى الحادية عشرة؛ ما يعني أنني تأخرت. وخشيت أن أتوه عند عودتي إلى المنزل. أعتقد أن سيليا لا بد أن تكون قد دخلت الشقة، ووجدت شيئاً ما في الثلاجة لتأكله. كنت الشخص الوحيد في باحةٍ صغيرة، وتمكنت من سماع صوت المياه وهي تتدفق من مكانٍ ما أمامي، وكان في اتجاه منزلي تقريباً. اخترت شارعاً فرعياً مألوفاً لديّ ثم سرت فيه. حلّت الظلمة التامة في هذا الوقت، ولم أتلمّس طريقي إلا بواسطة ضوء شمعةٍ، أو مصباحٍ زيتي يبدو نوره من خلف إحدى النوافذ. سمعتُ بعد قليل صوت ولاعة سجائر، ثم تضخّم اللهب فتمكنت من رؤية وجهٍ ما وعينين تنظران إليّ مباشرةً قبل أن تتراجعا إلى الظلمة. كما تمكّنت من شمّ رائحة الشراب، وسمعت صوت تنفّس ذلك الشخص، ثمّ لمحت توهّج طرف سيجارته أثناء سحبه نفساً منها، كما رأيت

الإطار الأسود لقبعة رجل شرطة.

سمعت بعد ذلك أصواتاً عديدة، ورأيت الأنوار تسطع على أحجار الشارع عند المنعطف التالي. ووصلت إلى مسمعَيّ أصوات موسيقى تصدر من مكان ما في الشارع الضيّق.

خرجت من الشارع الفرعي إلى منطقة يسطع فيها اللون الأحمر الملتمع. رأيت تحت نوعٍ من أنواع جسور التنهدات الذي يربط بين مبنيين شبه مهدّمين، شابتين تنتعل كل منهما حذاء مطاطياً وترتدي تنورة قصيرة، وكانتا جالستين تحت ضوء مصباحٍ تقرآن مجلتين ألمانيتين بصفحاتهما المجعّدة. وقف جنود ثملون بالقرب منهما، وراحوا يتجادلون. كان البناؤون يشربون من زجاجاتٍ أو من أوانٍ كانت منذ زمن مليئة بالمخلّلات. رأيت رجالاً مرتدين بذلات قديمة، ويضعون ربطات عنق غير مرتبة. وكانوا منهمكين في عدّ أوراقٍ مالية، وتبادل رزمات من الأوراق المالية وعلب السجائر. كان إلى جانب الرجال جهاز استيريو جديد، والذي تصاعدت منه أنغام أغاني ديسكو غربية. بذلت إحدى الفتاتين التي بدت وكأنها تحت تأثير المخدّر جهدها للنهوض، وقد فعلت ذلك مستندة إلى حافة متداعية لإحدى النوافذ، ثم مدّت يدها الصغيرة والجافة لتمسك يدي، ولكنني لم ألحظ أي قوة فيها. تمسّكت أصابعها برسغي، وهكذا خدشت أظافرها المتكسرة والمطلية ذراعي بعمق يشبه ذلك الذي تتركه مخالب طير، ثم سقطتْ بينما تابعتُ المسير. كانت عيناها محاطتين بالظلال وغائرتين في محجريهما، كما أن دوائر من اللون الأحمر كانت مرسومة على خدّيها. بدت الفتاة وكأنها لعبة مكسورة. رأيت فتيات خلفها وقد جلسن على الأرض، وأسندن ظهورهن على الجدار، فبدا المشهد وكأنه منظر في مسرح الدمى. تساءلت عمّا إذا كان قد سبق لي أن رأيتها في فندق انتركونتيننتال مع ليو في ذلك اليوم. ولكنني تأكدت بعد ذلك أن أشخاصاً قليلين يشبهونها، كما أن

عينيها... كانتا محمرّتين بفعل الإثارة أكثر من الحمى.

رأيتُ بعض عمّال البناء بثياب عملهم المليئة بالغبار جالسين للعب الورق، ومستخدمين أحد الصناديق المقلوبة كطاولة. وقد وقفت مومسان وراء العمال، وأسندتا رأسيهما على كتفَي اثنين منهما؛ أي مثل فتيات المرافقة في أحد الكازينوهات الراقية. لم يُعِرني أحد أي اهتمام، وكأنني كنت أسير وسط حلم شخصٍ آخر. تطلع الناس إليّ بينما كنت أجول في هذا العالم السفلي؛ في منطقة المحرومين من النعيم التي تعج بالدعارة والابتزاز، وكانت عبارة عن رائحة الملل والمرض والضحايا. لم يمر وقت طويل قبل أن تفوح رائحة الفضلات البشرية والقيء أيضاً، وقبل سماع التأوهات. دست بحذائي على أوساخ ناعمة وزجاجٍ متكسر. وفجأةً، نهض شخص ووقف أمامي، وكان الشرطي الذي يلاحقني، ولكن الأمر انتهى به أمامي بطريقة ما. أخذ الشرطي أوراقي ودوّن شيئاً ما على دفترٍ صغير، ثم حيّاني بسخرية، وتجاوزني وكأننا تشاركنا سراً ما، أو عقدنا اتفاقاً ما.

تركت حذائي الملوث بالأوساخ خارج الباب، وتوجهت على الفور للاستحمام. كانت سيليا متكورة على نفسها على الأريكة أمام شاشة التلفزيون. ابتسمتْ لي، ورأيتُ علبةً من الشوكولا غالية الثمن على ذراع الأريكة. وعلى الفور، أفسحت لي مكاناً للجلوس. كانت سيليا قد أنهت طلاء أظافرها للتو، لذا فاحت رائحة الورنيش في الهواء. كان شريط الفيديو الذي تشاهده سيليا أحدث الأفلام في سلسلة أفلام جيمس بوند. يبدو أنني وصلتُ في الوقت المناسب لكي أشاهد مشهد الكازينو الذي يقوم فيه العميل 007 وبكل برودة بتجريد ذلك المعتوه اللعوب من المال، وإهانته أمام جمهورٍ غلبته الدهشة.

أرادت سيليا أن تمازحني، فوضعت إحدى قدميها فوق رجلي. ولكنني عندما لم أستجب لها أوقفت شريط الفيديو، وتوجهت إلى المطبخ لتجلب بعض الشراب.

ناديتُها قائلاً: «هل تعرفين جميع زملائك الذين يدرسون الموسيقى؟».

«أعتقد ذلك. لكنني لا أحضر جميع المحاضرات... ».

«هل تذكرين شخصاً اسمه الأول بيتر؟».

«هناك عددٌ من الطلاب الذين يحملون اسم بيتر... إنه اسم شائع... هل تفضّل الشراب الأحمر أو الأبيض؟ ذهبتُ إلى متجر الدبلوماسيين هذا الصباح... ».

«لا أريد شيئاً، فقد شربت الكثير. شكراً لكِ. لقد خرجتُ مع ليو». وأدركت أنه ينبغي لي التصريح بأنني أعرف بيتر، وينبغي لي تفسير الأمر أمام سيليا، فتابعت قائلاً: «إنني لا أعرف اسم عائلته، لكنّ شعره طويل، ويعزف على القيثارة، ويبدو غريب الأطوار بعض الشيء... ».

في هذا الوقت، وقفت سيليا قرب الباب، وكان فستانها الأسود مرفوعاً فوق فخذها بعض الشيء، ثم عادت إلى الأريكة مجدداً. عبستْ قليلاً، ويبدو أنها تحاول أن تتذكر الاسم، أو لعلها حاولت ألاّ تتذكره.

«آه، أتعني عازف القيثارة الفقير ذاته؟». وأطلقت ضحكة سريعة ثم تابعت: «هذا هو لقبه على ما يبدو. الفتيات يحببنه، ولكنهن قلن إنه لا يهتم لهنّ كثيراً... رأيتهن أثناء حفلةٍ موسيقية في السنة الماضية. لكن لماذا؟».

«أوه... مررتُ بالأثينيوم ورأيت اسمه ضمن برنامجٍ غنائي. شعرت بالرغبة في حضور حفلته، ولذلك اشتريت بعض التذاكر. في الواقع... حسناً، اشتريت واحدةً فقط... فقد افترضتُ أنك لا تريدين حضور تلك الحفلة».

«يُحتمل أنني لن أحضرها». عادت سيليا إلى الأريكة كما عاد بوند لتنفيذ مهمته، وتسلّق صخرة كبيرة مرتدياً البذلة التي ارتداها عندما تناول طعام العشاء. لم يكن هناك سبب كي أقلق؛ وذلك لأنها لا تكترث لما أفعله في حياتي

خارج الوقت الذي أمضيه معها. وكان ذلك كافياً بحد ذاته لكي أشعر بالانزعاج. فأنا أفكّر باستمرار في ما تفعله، ومع من تمضي أوقاتها، لكن اهتمامها بتحركاتي لم يتجاوز أبداً حدود التساؤل المهذّب. تتحول الغيرة بالنسبة إلى الذين يشعرون بها إلى دليلٍ على الشغف، وأصالة الشعور. ويعني ذلك أن الغيرة غير المتبادلة سيئة تماماً كالحب غير المتبادل.

مرّرت يدي فوق فخذها لأعرف ما إذا كانت حميمية العرض الذي قدّمته سابقاً ما زالت متوافرة. فباعدت ساقيها قليلاً وقرّبتْ فمي من فمها، ولكنها أبقت ناظريها من فوق كتفي مسلّطين على الشاشة بينما كنت أحملها إلى خارج الغرفة.

الفصل الحادي عشر

سألني ليو عند وصوله إلى الرصيف، وعندما بدأ بوضع حقائب أمتعتي القليلة في صندوق سيارته من نوع سكودا: «هل أنت متأكدٌ من هذا؟».

لم أكن متأكداً، ولكنني أجبته: «بالطبع أنا متأكد. ما الذي يمنعني من ذلك؟».

«أعني هل ترغب في ترك أصحابك، وسيليا الحلوة، وطقس المنتجع السياحي... ؟ من يعلم؟ يُحتمَل أن تحدث ثورة أثناء غيابك... يُحتمَل أن تعود وتجد كل شيء قد اختفى. ويُحتمل أن يُقدِم أحدهم على هدم المبنى الذي تسكنه، أو حتى أن يقوم أحدهم بسلبك صديقتك... ».

قاد ليو السيارة بسرعة كبيرة في بوليفار أوتوبيني، وأشار مؤشّر السرعة في سيارة السكودا إلى أن السرعة قاربت 120 كيلومتراً في الساعة. كانت هذه هي السرعة القصوى المسموح بها على هذا البوليفار. كان الطقس حاراً، وإطارات السيارة متمسكة بالطريق. اصطدمت حقيبتي في هذا الوقت بغطاء الصندوق عندما توقفنا عند حاجزٍ أقيم عند حدود المدينة. وقال ليو: «لا تقلق، فقد أتيت قبل ساعتين من الوقت المحدد».

كنتُ عائداً لقضاء أول إجازة في بلادي. وكان من المفترض أن أبقى هناك لمدة أسبوعين من الزمن، كما كنت أنوي إنهاء معاملات منزل والديّ، وبيعه، ثم تسديد ديون والدي خلال مدة بقائي هناك. ودّعتُ سيليا في الليلة السابقة أثناء سيرنا نحو المنزل من قصر الأثينيه عند الساعة الثانية من يعد منتصف الليل، بينما كان تيتانو يلاحقنا بسرية في سيارة داسيا. قبّلتني سيليا على درج منزلي ثمّ ركبت السيارة، وزعمت أنه من سوء حظّها أن تنام مع شخصٍ ما قبل ليلة من

رحيله. كانت الظلمة حالكة والرطوبة شديدة، لكن العاصفة التي كانت منتظرة اليوم لم تأتِ.

ركن ليو سيارته أمام قاعة المسافرين في المكان المخصّص للدبلوماسيين، ووضع فوق لوحة العدّادات بطاقةً يعلوها شعار. حملت البطاقة الكلمات التالية باللغات الإنكليزية، والفرنسية، والرومانية: هيئة دبلوماسية، كما أحالت البطاقة أي تساؤلات إلى القسم القنصلي في سفارة جلالة ملكة بريطانيا الواقعة في شارع جول ميكيليه. شرح ليو قائلاً: «لن أتأخر طويلاً، لأنني من الأشخاص الذين لا يحبون الوداع».

كان من المقرّر ألا تقلع طائرتي قبل مرور ساعتين. لذا، سلّمت حقيبتي، وانضممتُ إلى الطاولة حيث يجلس ليو. كانت قاعة المسافرين المحاطة بالإسمنت والزجاج خالية من المسافرين تقريباً. أما تلك المجموعة من الرسميين الذين لا يؤدون مهمة محددة، فقد وقفوا أو جلسوا في وضعيات استراحة. كان من المقرر في هذا الوقت وصول رحلة آتية من بلغراد، بينما انتظر صفٌّ من سيارات الليموزين على المدرج، وأبواب السيارات مفتوحة. رأيت العربات المليئة بأصناف المأكولات والشراب وهي تتّجه إلى صالة الشخصيات قبل أن تعود فارغة. وسمعت قرقعة الأكواب وصوت قطع الفلين وهي تندفع من فوهات الزجاجات؛ بالرغم من عدم وصول الشخصيات الزائرة بعد.

سألتُ ليو بالرغم من رغبتي في بقائه إلى جانبي: «ظننتُ أنك لن تبقى. قلتَ لي إنك لا تحب الوداع، أتذكر؟».

«أفضّل الترحيب بالزوار كما تعلم. في الواقع، إنني أهتم بكل الواصلين. توجد هنا لجنة مختصة بالترحيب بالقادمين إلى البلاد، كما أنه من المفيد معرفة ما يجري على الأرض... يبدو أن وفداً يوغوسلافياً هو الذي وصل».

طلب ليو زجاجة من الشراب، وسكب كوباً لكل منا. سألني عمّا أنوي فعله في إجازتي. لم تكن لديّ أي خططٍ؛ ما عدا ملاحقة ترتيبات بيع المنزل وتخليص أوراقه. لم أكن شديد الرغبة في الذهاب على أية حال، لكن ملاحقة تلك الترتيبات كانت من مسؤوليتي. كما أن هذه العملية من شأنها أن تساعدني على مواجهة أعباء حياتي الجديدة.

لم يمضِ على تعرّفي على بيتر سوى وقتٍ قصير، ولكننا أمضينا معظم هذه الفترة القصيرة معاً. انجذبتُ إليه؛ وهو الذي يختلف كثيراً عن ليو الذي تشتمل حياته على تصوّر عالمٍ مختلف وتحقيقه بومضاتٍ قليلة بواسطة المخيلة. فبيتر قد عاش هنا، وما زال يعيش حتى الآن. وقد تمكّن من العيش في هذا المكان من دون أن يهرب، أو يستسلم لقساوة الحياة، أو قتامتها. ولكنه امتلك خطته للمدينة التي يعيش فيها، واشتملت هذه الخطة على ربط المدينة بشبكةٍ واحدة. لم يكن بيتر مهتماً بالطرقات التي اختفت، ولم يكن اهتمامه بالكتب الإرشادية القديمة التي يعتمدها ليو أكثر من اهتمامه بالخطط الشرسة التي يضعها مهندسو تشاوشيسكو، ولكنه وضع في ذهنه شيئاً آخر والذي أسماه مشروع التعاونية.

زرتُ بوخارست الجديدة برفقة بيتر، وشاهدت مصانعها ومجمّعاتها السكنية، وضواحيها الجديدة المتماثلة. يعني ذلك أن هذه المدينة الجديدة كانت نقيض المدينة القديمة التي نجدها في الكتب الإرشادية، ودليل بايديكر؛ أي المدينة التي كان ليو يحاول إنقاذها من براثن أكوام الحجارة المتكسرة والذكريات. لكن تلك المدينة امتلكت جمالها الخاص بها؛ بالرغم من أنها لم تشتهر بالبطولات والفخر بالكرامة. وذلك لأن الناس يحاولون العيش بطمأنينة، ويرسلون أولادهم إلى المدارس، ويعوّضون أيام العطلات الرسمية عند الدولة بإلحاق أولادهم بصفوفٍ غير رسمية في مواد العلوم أو الأدب أو التاريخ. شعر الرجال والناس

بالإرهاق من الوظائف التي تبالغ الدولة في مراقبتها، وكذلك من العودة إلى منازلهم على متن حافلات شديدة الازدحام من دون أن تكون مواعيدها منتظمة، وكذلك من الرفوف الفارغة في المتاجر، والانقطاعات المتكررة في التيار الكهربائي. كما تعبَ المسنّون من عدم كفاية مرتّبات تقاعدهم، أما الشبان فكانوا يكافحون لملء مستوعبات غدائهم الصغيرة، أو من أجل وضع وجبة كاملة على موائدهم. عاش الجميع في هذه البلاد تحت ظل شبح الجوع، والتعب الذي يسبّبه الملل، وكانوا على بُعد عالمٍ، أو حتى حقبة عن رؤساء الحزب، والدبلوماسيين، ورجال الأعمال الأجانب. أما بوخارست ليو القديمة ولكن الجميلة، فلم تكن ضمن اهتمامات هؤلاء الناس؛ هذا إذا عرفوا أنها موجودة أساساً.

لكن هؤلاء الناس نظّموا مجموعات من المواطنين، وراحت تلك المجموعات تهتم بالمرضى والمصابين، وتوزع السلع الأساسية مثل الأدوية وحليب الأطفال. أما حلم بيتر فكان تنسيق العمل بين هذه المجموعات، وجمعها في اقتصاد مضادٍ واحد ومخططٍ له بعناية؛ وهو الاقتصاد الكفيل بتحسين هفوات النظام من دون المساهمة في الفساد الذي تمثله السوق السوداء. كان بيتر يقوم ببناء ما أسماه مصرف المهارات؛ حيث يتعاون الأساتذة، والسبّاكون، والمهندسون، والمساعدون الطبيون، والعمال للاستفادة من مواهبهم وأوقاتهم. كان الأستاذ يعطي دروساً لمدة ساعتين، ويحصل لقاء ذلك على ساعتَي عمل من أحد المختصّين بالكهرباء، أو من أحد السبّاكين. ويُمكن لذلك الأستاذ أن يستخدم الساعتين أو يُبادلهما، أو يحتفظ بهما إلى حين حاجته إليهما. لا وجود لنِسَب فائدة في هذا النظام، ولا للاقتصاديات المستندة على النقد أو الاستثمار، بل كان الاعتماد كلّه على الوقت والعمل، كما أن الإدارة المركزية تعمد إلى اقتطاع نسبةٍ معينة منهما من أجل تكوين نظام رفاهٍ اجتماعي للمرضى أو العاطلين عن

العمل أو المسنّين. أطلق بيتر على هذا النظام اسم الصندوق الاجتماعي. وقد كان بيتر يحلم بمجتمعٍ داخل مجتمع، وبشبكة تغطي بوخارست بأكملها، والتي ستمتد في النهاية لتشمل البلاد بأكملها. تتواجد نسخٌ من هذا النظام بالفعل في بعض المجمّعات السكنية أو القرى. لكنّ المطلوب بالنسبة إليه كان التنسيق في كامل أنحاء البلاد. عرض عليّ بيتر خططه وخرائطه، ولكنها لم تكن خرائط عن الشوارع والمباني بل عن الناس. قلت له عند انتهائه من شرح الأمر لي في الأسبوع الماضي، أي عندما كنا في حديقة الشراب التي تتبع كارباثيان بور: «تبدو لي هذه الخطط شبيهة جداً بالشيوعية». فأومأ حينها، ولكنه لم يُجب، بل اكتفى بأن سحب نفساً من سيجارته ثم نفخ الدخان في الهواء. قلت له: «يشبه هذا النظام عالمَ ما قبل المال». فاستدار نحوي، وقال ليصحّح تعليقي: «بعد المال، بعد المال».

جاءت بعد ذلك الحفلات الموسيقية التي أقامتها فرقة بيتر في مستودعاتٍ مظلمة أمام مئات الطلاب، وفي أجواءٍ مزدحمةٍ وخانقة، ووسط تدخين أسوأ أنواع المخدرات وتناول الشراب. كان يتم خلال هذه الحفلة توزيع كتب أغاني ساميزدات، والأشرطة المنسوخة التي تُنسخ ويُعاد نسخها مراراً إلى ألاّ تعود الموسيقى واضحة، وتصبح الكلمات مجرد ظلالٍ على صفحة. كانت هذه هي بوخارست التي بقيت عندما انتهى ليو من جعلها نموذجاً، وبعد أن انتهت الدولة من تسويتها بالأرض. «هذا هو ما يجب أن نبدأ به يا ليو، هذا». كان ذلك ما قاله بيتر لليو في إحدى الليالي بعد انتهاء إحدى الحفلات الموسيقية، مشيراً بيده إلى مجموعة من الطلاب المتعرقين والمحشورين على منصة رقصٍ صغيرة ومؤقتة، والتي تم تنظيفها في أحد المسالخ الذي كان المسرح الذي استخدمه فقير في تلك الليلة، بينما فاحت روائح المنظفات والدماء في المكان. «علينا أن نبدأ بما نمتلكه، أي بما هو موجود هناك، وإلا فمَن سيرث بوخارست

القديمة التي تحبّها كثيراً؟».

حدث ذلك منذ ثلاثة أسابيع. وقد تغيّرت عادات ليو منذ ذلك الحين، وحرص خلال تعاملاته في السوق السوداء على لقاء بيتر، وكذلك أصدقاء بيتر. كما اشترى كتباً مدرسية، وسلعاً أخرى غير براقة وغير مربحة مثل الطحين والسكر والمأكولات المعلبة. لكن شركاءه اشتكوا من هذا التغيير، وقالوا إنها سلعٌ ثقيلة ورخيصة، ولا تمتلك أي هامشٍ للربح. وسألوه عن سبب عدم متاجرته كالمعتاد بالشراب الأسكتلندي والساعات؛ أي الأشياء التي يسهل حملها، والكماليات التي يشتريها رؤساء الحزب الأثرياء بسهولة، ويدفعون ثمنها بسخاء. يُضاف إلى ذلك أن ليو عندما يتعلق الأمر بالأدوية كان يبيعها للشاري بسعرٍ أرخص، أو كان يشتري كمياتٍ فائضة من المورّد لكي يعطي بيتر بعضاً منها. ويعني ذلك أن بيتر قد تمكّن من تغيير طريقة تعامُل ليو في تجارته، كما زاد من تركيزه على أوقات لهوه، وعلى طيبته الفوضوية التي تخطئ هدفها في بعض الأحيان، أو تضيع وسط المداهنة والخداع. كان الرجلان يتواصلان من خلالي، كما أن دوري بوصفي وسيطاً بينهما أعطاني أول إحساسٍ حقيقي بأنني أنغمس في حياة بوخارست. كنت أقوم بالترتيبات اللازمة للحصول على شاحنات صغيرة، أو الحصول على دفعاتٍ أولى قبل التسليم، وذلك بالإضافة إلى تسليم الرسائل، والإشراف على الدفعات المالية، والتبادلات الجزئية. بدأ الصندوق الاجتماعي الذي خطّط له بيتر بالظهور، وقد احتاج خلال هذا الوقت إلى الطرائق التي يتّبعها ليو للحصول على المال اللازم لتأمين تكاليف هروب المنشقين، وكذلك من أجل تخفيض الغرامات التي تفرضها الدولة البوليسية الفاسدة. قال لي بيتر إن هذا الوضع لن يستمر طويلاً؛ غير أنّ كل ذلك يُعتبر الآن ثمناً يجب دفعه لإنشاء نظامٍ جديد؛ وهو من الأمور الضرورية لشراء الوقت، وإرساء أسس الصندوق الاجتماعي. وكان فينتول هو الذي يشرف على كل هذه الأشياء، أي فينتول

المصرفي.

كنت أمضي مع بيتر وقتاً أطول من ذاك الذي أمضيه مع ليو. وقد بدأ ليو بملاحظة ذلك، ولكنه لم يُظهر أبداً أنه تأثّر بهذا التغيير. وقد تقلّص عندي أيضاً العالم الذي يعيش فيه ليو والمؤلف من كابسيا وحفلات الكوكتيل، وحياة بوخارست المترفة والمرفهة والراقية. يُضاف إلى ذلك أنني كنت أشعر مع تروفيم وليو وبيتر وسيليا بأنني أعيش في أربعة أنواعٍ مختلفة من حياة بوخارست، وفي أربع حِقَبٍ مختلفة. لم يلتقِ هؤلاء إلا من خلالي، ولكنني شعرت مع ذلك بأنني لا أعيش الحياة التي أريدها لأنهم كانوا بعيدين عن بعضهم بعضاً.

أحسستُ بأنني أعيش في عزلةٍ مزدحمة؛ وذلك فيما كنت أتنقّل من واحدٍ إلى آخر مع بقائهم منفصلين، ومع احتفاظ كل منهم بحياته الخاصة بشكلٍ متوازٍ: كتاب تروفيم، وسرير سيليا، وسوق ليو السوداء، وحفلات بيتر الموسيقية... أفترض أن ذاتي الحقيقية هي ما تبقى بعد قيامي بطرحهم جميعاً من حياتي.

قال لي ليو ذات يوم: «هناك شيء... لا يبدو حقيقياً بشأن بيتر، أليس كذلك؟ أتعرف أن هناك شيئاً على وشك أن يتغيّر... » أفكر الآن، أثناء جلوسي في مطار أوتوبيني تاركاً كلّ شيء ورائي بأن ذلك محتمل، ومحتملٌ جداً». كان بيتر حقيقيّاً بما يكفي، إلا أنني أعرف ما قصده ليو. إنه ذلك الشعور القوي بأنه بغض النظر عن قوة معرفتك به، ومهما أعطاك من ثقة، إلا أنه يظل يخفي شيئاً ما عنك. ولكن، ليس سبب ذلك أنه يرغب في إخفائه، بل لأنه يمتلك في ذاته قدراً لا تستطيع استيعابه بأكمله.

فكّرت في سيليا أيضاً. في واقع الأمر، كان تأثيري عليها بسيطاً بما يكفي. إذاً، كيف من الممكن أن يؤثر غيابي عنها لمدة أسبوعين في علاقتنا.

خشيت من العودة إلى بلادي، وخشيت من تلك الأيام التي سأمضيها مُمَدَّداً في

ذلك المنزل الخالي. حتى إنني خشيت من رائحة العفونة، وكومة السجادات المطوية، ودخان السجائر القديم الذي كان كل ما تبقى من أنفاس والديّ... وخشيت أيضاً من أغراضهما: الوسائد الغارقة التي جلس عليها جسداهما سابقاً، ونعالهما القديمة التي ما زالت في مكانها تحت الطاولة التي وضعا عليها جهاز الهاتف، وكذلك دفتر العناوين شبه الفارغ والذي تُعتبر كل صفحة منه نافذة عبور إلى فراغ حياتهما. تذكّرت قصيدة لاركين التي لا أعرف إن كنتُ أتذكّر عنوانها. هل كان عنوانها المنزل؟ المنزل الذي بقي كما تركوه؛ مناسباً لراحة آخر مَن غادره... الحزن العظيم يخيّم على كل شيء... وبإمكاني أن أشمّ رائحته من هنا. أو بالأحرى، إن ذلك الحزن كان في داخلي، وهو الإحساس المتقدّم بأنه سوف يصبح شيئاً من ماضي ذلك المنزل.

سألني ليو بعد أن قرأ أفكاري، وبعد أن أدركت أنني لم أتكلم على مدى دقائق عدة: «هل تفكّر في إعادة النظر بقرارك؟». وأضاف مؤثراً في قراري: «رغم ذلك، إن المنزل يظل منزلاً». مكتبة الرمحي أحمد

خرجت مجموعة من الشخصيات الهامة من صالون الشرف، وذلك بعد وصول الطائرة القادمة من بلغراد. وكان يتقدّم هذه المجموعة رجلٌ ضخم الجثة يرتدي بذلةً سوداء اللون، ويبدو أن عضلاته قد تحولت إلى دهنيات. وكان عددٌ من الحراس الشخصيين من ذوي الوجوه الحازمة يحيطون به ويقومون بحراسته. كان الحراس يرتدون البذلات الأمنية المألوفة، والتي يبرز من جانبها الأيسر شكل مسدّس. كان الحراس يظهرون بذلك الشكل النافر ليس بسبب شغفهم بموضةٍ قديمة، بل ليسهل عليهم الوصول إلى المسدس الثاني الذي يربض على جانبهم الخلفي. أما الرجل الذي سار في المقدّمة، فقد كان العَرَق الذي تصبّب منه يملأ ثنايا جلده، وكان يوحي بالقوة الجسدية والرغبة في إلحاق الأذى بالآخرين، كما بدا أنه تدرّب كثيراً على الأمرين معاً. كانت عيناه قريبتين

من بعضهما بعضاً، ولو كانتا في وجه شخصٍ آخر لبدا هزيلاً. لكن في حالته هذه، منحته عيناه مظهر الرجل الخبيث والمخادع. أي أنهما عينا رجلٍ يبحث في الذين حوله عن الدوافع الخبيثة، ويجدها على الدوام. يُضاف إلى ذلك أن شعره القصير أظهر ضخامة جمجمته التي اتصلت بياقة قميصه، ولكن ليس المنطقة الفاصلة من رقبته، بل من خلال خمس طياتٍ كثيفة من اللحم، والتي كانت أشبه ما تكون بكومة من إطارات الدراجات الهوائية زهرية اللون. بكلمات أخرى، كان الرجل موسوليني السلافي.

«ستويكو، إيون ستويكو... وزير الداخلية. إنه المسؤول الذي اختاره والد سيليا لسبب واحد. إنه رجلٌ حقير بالفعل. فهو المزارع السمين والفظ، ولكنه مع الأسف ليس أبله. إنه واحدٌ من أولئك الناس الذين يصل إرهابهم إلى درجة أنه لا يقتل الناس من أجل القيام بأمورٍ معينة، بل يقتلهم لممارسة هواية مجانية. جعل الرجل وزارته قرية مليئة بالكراهية... أتعلم أن هذه الوزارة قد تحولت إلى وسيلة للتخلص من الناس الذين يصبحون مثل الدجاج. إنه المساعد الذي يحظى بأكبر قدر من ثقة تشاوشيسكو، كما أنه يدين إلى تشاوشيسكو بكل شيء، ويدين له بالولاء المطلق». أغمض ليو عينيه نصف إغماضة، وتكلّم ببطء كما لو أنه يقرأ من ملفات مخزونة في أرشيفٍ داخلي. «إنه مجرد مجرم صغير في العقد الرابع من عمره، ومجرّد صياد فاشي لليهود، كما قام بإحراق كنيس في إياسي، ثم أمضى فترة في السجن ذاته الذي كان تشاوشيسكو فيه، ويظهر أن تهمته كانت الاغتصاب. أما الرواية الرسمية فتقول إنه كان رفيقاً مقرّباً من رفاق تشاوشيسكو الشاب، وقد ساعده في إطلاق الثورة الناجحة. ولكنه في واقع الأمر كان مجرد شخص دائم التفكير في طريقة مناسبة لقتل اليهود عندما استولى الشيوعيون على السلطة. لكنهم يقولون إن التاريخ يصنع الرجال الذين يصنعون التاريخ... وعندما يأتي الوقت يأتي الرجال، وكل تلك السخافات. غير أن

الأمر ليس كذلك. إذ يزحف التاريخ على بطنه ليلتقط المتطفلين... من أمثال ستويكو، وتشاوشيسكو... وكل الآخرين... وكلهم يتعلقون بأذناب التاريخ».

هبطت إحدى الطائرات، وما لبثت سجادة حمراء أن مُدَّت على أيدي رجال انحنوا وتعثروا لدى تراجعهم إلى الخلف. كانت تلك طائرة مدنية، ولكنها مزيّنة بألوان عسكرية؛ أي بالبقع الخضراء والخاكية، والتي من الممكن أن يرى المرء من خلالها اسم شركة الطيران الوطنية اليوغوسلافية جات، والتي لم يتمكن الطلاء من تغطيتها تماماً.

وقف ستويكو محاطاً بمساعديه استعداداً للترحيب بالوفد.

تجرّع ليو آخر رشفة في كوبه وتابع كلامه: «انتقاه تشاوشيسكو، وأعطاه مسؤولية إدارة حزب إياسي، ثم جعله رئيس بلدية. استبعد ستويكو الحزب، وأغلق الكُنُس، ثم بدأ بإرسال اليهود إلى إسرائيل. لكن تشاوشيسكو وضعه هنا، وأوكله بمسؤولية وزارة الداخلية. يُعتبَر ستويكو رجلاً حقيراً بالفعل، وهو أحد الرجال المسؤولين عن إفساد صديقك تروفيم الذي يُعتبَر زبوناً حاذقاً بحد ذاته... كان ستويكو أيضاً مسؤولاً عن أول برنامج يهدف إلى وضع روماني في السدة الأولى، وذلك في أوائل السبعينيات من القرن الماضي. كانت مهمته هي إبعاد اليهود، والقوميين الهنغار، والألمان، والمولدافيين، وأي شخصٍ آخر ليس رومانياً مئة في المئة عن مراكز السلطة. وقد قصد ستويكو في العام 1972 منزل سناغوف - وهو أحد أعضاء اللجنة المركزية ومناوئاً لتشاوشيسكو - وأطلق النار على رأسه مرتين. يُضاف إلى ذلك أنه كان على علاقة مع زوجته، ولكنه أبلغ الرئيس بأنه فعل ذلك من أجله، وأن ذلك المسكين كان يتآمر عليه. وبعد ذلك، تلقى ستويكو ترقية وحصل على المرأة، ثم أبعد زوجته. كان الرجل يطبّق فكرة الجمع بين العمل والمتعة... ولكنه ما لبث أن تخلّص منها ليتزوج ابنة أخت الرئيس السابق جورجيو ديج».

اعتقدت أنه من المستحيل أن تتمكن أصابع ستويكو الثخينة من الدخول في فتحة الأمان في المسدس. ولكن في هذه البلاد، يُحتمَل أنهم صنعوا مسدسات خاصة لزبون سمينٍ وبدينٍ مثله.

كان الحرّاس الشخصيون شبه العسكريين الذين يرتدون ملابس القتال ويضعون نظارات عاكسة للضوء هم أول من نزل من الطائرة، ثم تبعهم بعد ذلك دزينة من المسؤولين العاديين الذين يرتدون البذلات الشيوعية الرمادية التي تخلو من ربطات العنق، والذين ثبتوا أزرار قمصانهم العلوية. تبعهم بعد ذلك شبان يرتدون ثياب الجينز وستراتٍ جلدية. وكانت تسريحات شعرهم على طريقة الموليت، كما كانوا يضعون حول معاصمهم ساعاتٍ غربية، وينتعلون الأحذية المناسبة لقيادة الدراجات الهوائية. وضع أحدهم سترته فوق كتفه، فظهر في أعلى ذراعه وشمه الذي كان بشكل نسر. أما في آخر المجموعة فقد سار رجل قصير القامة ذو شعرٍ مشعث وملون، ووجهٍ مستدير وممتلئ، وكان من الواضح أنه المسؤول عن المجموعة بأكملها. كان الجميع يتوقفون بانتظاره، ويراقبون إشاراته التي تدل على الوقت المناسب لمتابعة السير، أو الوقوف، أو المصافحة. وصل ستويكو إلى السجادة الحمراء وعانقه.

رفرف علمٌ يوغوسلافي ترحيباً بالزائر، ولكنه كان مختلفاً عن العلم المعتاد. وهكذا، ظهر تاج مكان النجمة الحمراء، كما ظهر نسران باللون الأبيض وجهاً لوجه، وكان منظرهما مشابهاً تماماً للوشم الذي بدا على ذراع الشاب.

قال ليو بصوتٍ خافت وكأنه يحدّث نفسه: «الصرب... إنه علم الصرب الذي يراه المرء في كل مكان منذ أن مات تيتو... لكنني لا أعتقد أن هذه زيارة رسمية. انظر، لا وجود لأي موظفٍ من موظفي السفارة اليوغوسلافية للترحب بالوفد الزائر».

سار الوفد عبر كشك خالٍ خاص بالجمارك، في طريقه نحو الصالة المخصصة للشخصيات. وظهرت في هذا الوقت عربتا طعام مليئتان بالمقبلات من مطعم المطار، ثم اختفتا على الفور.

«حسناً، سأذهب للقيام بشيء ما يتعلق بهذا الوفد. كما أريد التأكد من بضعة أمور. أتمنى لك رحلة موفقة!». تغيّرت نظرات ليو وصارت عملية. وهكذا، سارع إلى المغادرة.

انتظرت مرور الوقت، ورغبت في تناول كوب شراب آخر. كان من المقرر أن تغادر طائرتي بعد ساعة من الزمن، كما أن البقاء في المطار كان أشبه ما يكون بالتواجد في مكانٍ منعزل؛ وذلك مع انشغال الجميع بالقيام بأعمال أناس آخرين، وفي الكدح طيلة حياتهم بشكل يتقاطع مع حياة الآخرين. وهكذا، بدا المشهد شبيهاً بخطوط الطيران التي تغطي الكرة الأرضية بأكملها.

تابع ليو تلميحاته: «أعتقد أنك لا تريد المغادرة، أليس كذلك؟ حدث هذا معي في رحلتي الأولى إلى البلاد. أتيت إلى هنا، وجلستُ متأملاً المكان لمدة ساعة من الزمن، ثم عدت أدراجي».

«حسناً يا ليو، لقد ربحت. خذني إلى المنزل».

«المنزل! المنزل؟ حسناً، أنتَ قلتها!». ثم صفّق بيديه مسروراً.

حاولت استعادة حقيبة سفري من مكتب المسافرين المغادرين، لكن الموظف رفض فهمَ ما أطلبه منه. عندها، اعتبرت أن الأمر ليس بهذه الأهمية؛ لأن حقيبتي ستظل وسط زحام الحقائب الأخرى، وسوف تدور في حزام الأمتعة من دون أن يتعرّف عليها أحد في مطار هيثرو. وأعرف أن موظفاً ما سوف يأخذها وينقلها إلى قسم الأمتعة المفقودة، حيث ستمضي فترة محددة من الوقت مع الأمتعة الأخرى المشابهة لها. حاولت متابعتها في ذهني. أين ستنتهي رحلة

الأمتعة المفقودة يا ترى؟ هل ستُستخدم مجدداً، أم سوف تُرمى مع النفايات؟ عندما كنت طفلاً، كنت مأخوذاً بفكرة عدم اختفاء أي شيء... ولكنني أدركت مع الوقت بأن شيئاً واحداً يختفي، وهو كل ما يتعلق بالناس: ثيابهم، وأحذيتهم، وأسنانهم المستعارة، وحقائبهم، وأكياسهم. فكلّها تختفي بطريقة أو بأخرى؛ إذ تُرمى مع النفايات، وتُحرق، وتُسحق، وتمزّق أو تُباع بوصفها خردة. لكن، ماذا بشأن الناس؟ إنهم يمضون فحسب.

كان ذلك هو ما اعتزمت العودة إليه. وربما كان ذلك هو الشيء الذي تتمكن بوخارست من مساعدتي فيه؛ ليس من أجل التغلّب عليه، بل عن طريق إسقاط أحداثها ومآسيها على حياتي الخاصة. هذا ما فعلته بوخارست مع ليو. إذاً، لماذا لا تفعله معي أنا أيضاً؟!

كانت الدموع على وشك أن تملأ عينيّ، ولكنني حبستها. لم يقل ليو شيئاً، بل مشى معي بهدوء إلى السيارة. تجاوزنا الحاجز الذي أقامته الشرطة، ولكن الطريق كانت مزدحمة بشكلٍ خانق بسبب الزوار الأجانب الغاضبين، والذين كانوا يشيرون بأيدهم أثناء تكلمهم، وهم الذين لم يتعلموا بعد القانون الأول والوحيد للوقوف في الصفوف في ظل الشيوعية؛ لأن الأمر يشبه الوقوف في الرمال المتحركة، إذ كلما ازدادت مقاومة المرء لها ازداد غرقه فيها.

تساءلت عمّا إذا كان عدم صعودي إلى الطائرة يعني فشلي في مواجهة شيء ما: «كلا، لأن الأمر نفسيٌّ. فكل ذلك الكلام عن مواجهة الماضي، وتلك التفاهات المتعلقة بمسألة القطيعة وغير ذلك أمر تافه. إذ لا توجد قاعدة تفرض عليك الاستمرار في العودة. وليس هناك ما يقول إنك مضطرٌ إلى مواجهة الأشياء. إن ماضيك لا يمتلكك؛ لأن ذلك ما هو إلا طريقة لإبقائك مقيّداً به، ولا يقول ذلك إلا المرشدون الروحانيون الذين يظهرون في البرامج الكلامية في محطات التلفزيون. كلا، بإمكانك النهوض، وترك ما تشاء وراءك. صدّق ما أقوله: تابع

المسير إن كنت تستطيع ذلك. ولكن، إذا اضطررت إلى التوقف عند نقطة ما فيتوجّب عليك أن تنطلق على الفور». هل يعني ذلك أن ليو أو هاي مرشدُ أسلوب الحياة بالنسبة لي.

سمح لي يونيسكو باستعمال جهاز الفاكس في مكتبه، وهو الجهاز الوحيد في المبني المزوّد بخطٍ خارجي. إذ أردت إلغاء كل مواعيدي، كما تركت رسالة مع كاتب العدل، ومكتب تصفية منازل الموتى؛ ما يسمح له ببيع ما يمكن بيعه، ورمي ما يتبقى.

عدت إلى مكتبي، وتصفحت أوراقي، ثم شغّلت المروحة، فنجحتْ موجات الهواء في تبريد وجهي. تطلعت حولي، ورأيت على لوحة المذكرات الملاحظات التي نزعتها عن جهاز الهاتف في اليوم الأول لوصولي. ولاحظت للمرة الأولى أن الرقم الذي رأيته مكتوباً على إحدى الأوراق بخط بيلانجر المعروف كان رقم سيليا. أعتقد أنني عرفت ذلك منذ البداية، ومن دون أن أعرف بالفعل - وهي الطريقة التي نعرف بواسطتها معظم الأشياء هنا، أي المعادِل المعرفي للرؤية بيريفيرال - أنهما كانا على علاقة. لكن الأمر لم يقلقني في السابق. أما الآن فشعرت وأنا أفكّر في الأمر أن الأمر متعلِّق بي، وأنه أشبه ما يكون بحلقة تلفزيونية؛ ليس في الحياة ذاتها، وليس حتى في حياتي.

تطلّعت إلى رقم سيليا وقررت ألا أتصل بها. فهي ستعرف عما قريب بأنني هنا. ارتحت أكثر لقراري بالبقاء، وأعتقد أن ليو كان محقاً. يُحتمل أن الطائرة قد هبطت الآن، وأن حقيبتي متروكة لمصيرها، وربما تكون عالقة في قاعة الأغراض المفقودة. وفكّرت في ذلك المنزل الذي يشع بالأسى وكأنه مفاعل معطل... أعتقد أنني خارج عن الرؤية؛ على الأقل في هذه اللحظة، هذا إذا لم أكن خارجاً عن مجال الفهم.

طرق ليو الباب وقال بعد دخوله: «الأفضل أن تنسحب». ثم دخل غرفة مكتبي وجلس واضعاً رجليه على طاولتي بحركة واحدة كعادته.

فركت عينيَّ ورفعت رأسي ثم سألته: «ممّ أنسحب؟». كانت ملاحظة بيلانجر اللاصقة لا تزال ملتصقة بأصابعي.

«انسحب من... أي شيء كان يشغلك في تلك اللحظة».

«من هو بيلانجر؟ أعني، حقاً من هو؟ وما الذي كان يفعله؟ أعني عدا عن أنه كان يعمل في مكتبي، ويعيش في شقتي، وعلى علاقة مع صديقتي؟».

«لكنني أفكّر في ما إذا كنا نقوم بهذا بشكلٍ منطقي، وبالتسلسل الزمني الصحيح. فهو الذي كان سيطرح عليك هذه الأسئلة، وليس العكس... » مشيت وإياه إلى المطعم، وطلبنا قهوة إرساتز.

قال ليو متفاخراً: «قمتُ ببعض التحريات. لم يكن ما رأيناه في وقتٍ سابق زيارة رسمية لوفد يوغوسلافي، بل كان وفداً صربياً. إن الشخص الذي رأيناه كان ميلوسوفيتش، الرئيس الصربي الجديد، وهو في طريقه إلى عقد اجتماع في وقتٍ لاحق مع تشاوشيسكو، وسوف يتبادلان التحيات الأخوية وغير ذلك. لكنني أراهنك بشريحة لحم من كابسيا بأنهما سيناقشان أموراً أكثر أهمية. سيعمد هذا الرجل الحقير إلى تقسيم يوغوسلافيا جزءاً تلو الآخر. أتوقع أن يقوم هذا الرجل بزيارات إلى الدول الاشتراكية الصديقة لكي يعرف البلد الذي يمكنه الاعتماد عليه في المستقبل. هناك مثل صربي قديم يقول: هناك جهتان فقط تقفان مع الصرب، ويُحتمل أنه يمكننا إضافة رومانيا إلى تينك الجهتين. على أية حال، لن نراهم كثيراً».

لكننا رأيناهم في وقت أسرع ممّا توقعنا.

توجّهت أنا وليو في وقتٍ لاحق إلى انتركونتيننتال؛ رغم أننا لم نكن نتردد إلى ذلك الفندق كثيراً. إذ كان ليو يعتبره منطقة مُكلِفة، ومنطقة العدو لأن فيه مقر جهازٍ منافسٍ في السوق السوداء، كما أنه أكثر أماكن بوخارست السرية غموضاً وقوة. وذلك لأنه يقع تحت حماية الحزب، ويحتمل أيضاً أن الحزب هو الذي يُديره. كان إيلي يدير فتياته ويروج مخدراته من هذا المكان.

توقّفت في طريقي إلى ذلك الفندق عند الموقع المخصّص للحفلات الموسيقية، وتذكّرت أن بيتر ربما يتمرن هنا في هذا الوقت، إذ سبق لي أن دعوته للانضمام إلينا. كانت الطريقة الوحيدة التي تحصل فيها فرقته على وقت للتدرّب هي من خلال حجز قاعة الموسيقى بوصفها فرقة موسيقى الحجرة الكلاسيكية. كان كل عضو من أعضاء فرقة فقير يعتبر نفسه موسيقياً كلاسيكياً، لكن بعد ساعة من التمارين الرسمية، كانت الفرقة تقوم بحجز ميكو الحمّال في مكانٍ آمن، وتنتزع منه جهاز الصوت، ثم تظهر القيثارات والأجهزة الصوتية وعدة الطبول والساكسفون.

أما الآن، فإنني أعتبر أن دعوة بيتر إلى هذا النادي الليلي الذي يقع في الطابق الأسفل نصف المهجور كان غلطة.

كانت سيليا هناك برفقة بعض صديقاتها: إيلينا راليان؛ وهي ابنة رئيس الحزب في بوخارست، كما تُعتبر نسخة تكاد تكون طبق الأصل عن سيليا. فالثياب، وتسريحة الشعر، وحتى نوع العطور ذاتها. وهي فتاة ضائعة، وقد تم تجميع هوياتها من أوجهٍ مستنسخة من أشخاصٍ آخرين. كما تواجد أيضاً ابن إيون ستويكو، وهو شاب مستهتر ذو نظرات فضولية، ويبدو مثل شخصٍ يقوم بتحضير وجبة انتقام باردة، لكن من دون اضطراره إلى اختيار من سيقدم له هذه الوجبة. وكذلك نستور بوستيلنيكو الذي لا يتمتع بقدر كبير من الذكاء، وهو ابن وزير الخارجية، ولكنه يُعرَف بلقبٍ رمزي، وأقرب التعابير الإنكليزية

إليه هو لوحان خشبيان. كما كان هناك آخرون يرتدون أزياء غربية ويضعون عطورات غربية أيضاً، ولكنهم عجزوا عن حجب هالة المجتمع المنغلق عنهم. إلا أن سيليا هي الوحيدة بينهم التي تمكنت من ذلك. أما ليو فقد بدا غربياً أكثر من الآخرين؛ ببنطاله المونوكوم، وقميصه الأصفر المصنوع من النايلون، والحذاء البلغاري الذي ينتعله. كانت ملابس ليو المقابِل البصري لأوركسترا تتمرن إلى الأبد. وقد استمر في حمل هذه الصورة.

خرج الشبان الحزبيون النافذون في هذه الليلة لتسلية أولاد زعماء الصرب المتوحشين. وقد كانوا يشربون كثيراً ويتحدثون مع الفتيات. فيما كانت فتيات ينتظرن أن يفعل الشراب فعله في الزبائن ليتغلب على حذرهم. أما القواد إيلي فقد ارتدى أفضل ثيابه، وبدت فتياته على استعداد للعمل، ومثيرات، وعلى درجة عالية من المهنية. كانت الفتيات ينتظرن الدعوة للخروج، ولكنهن لم يكن على عجلة من أمرهن.

في البداية، عندما رأتني سيليا شعرت بالدهشة، ثم تبدلت نظرتها بعد ذلك إلى الغضب، وهزّت رأسها وحذّرتني لكي أبقى بعيداً.

رأى ليو سيليا، فقال محاولاً إبعادي عن الغرفة: «قمنا بخطوة سيئة. دعنا نجرّب الأثينيه بالاس... أعتقد أنه راقٍ أكثر». لكنني تابعت طريقي، وتوجهت نحو واجهة الاستقبال، ثم أشرت إلى الطاولة التي سوف نجلس عليها.

كان ستويكو وكونستانتين والصرب يتناولون طعام الغداء في الطابق العلوي، بينما فضّل الشبان المترفون تسلية أنفسهم هنا في الأسفل. رأيت صفاً من أوعية الثلج فوق الطاولة. وكانوا عندما تفرغ إحدى الزجاجات، يضعونها فوق الطاولة ويصرخون طالبين زجاجة أخرى. جلست سيليا بينهم، ولكنها لم تشاركهم في شيء، بل اكتفت بالجلوس والتدخين والضحك بتهذيب، وكانت تنظر إلى ساعتها

باستمرار. كان أحد الصربيين قريباً جداً منها ويسترق النظرات إليها، لكن الأمر كان أكثر من استراق النظر، إذ كان يسدّد نظراته إلى صدرها. وعندما أشعل لها سيجارتها، نظر إلى عينيها مباشرة، ولمس يدها عندما حاولت تثبيت الولاعة.

عبر أحد الشبان الصربيين منصة الرقص، وتوجّه إلى المسرح الصغير الذي كانت المغنية الدائمة ديفا ديونا تؤدي عليه أغنياتها. قدّمت تلك المغنية عرضاً جريئاً حتى هذا الوقت؛ بالرغم من الإهانات الكلامية والفظاظة التي صدرت عن الشبّان. كان ليو يعرفها قليلاً، وهي السيدة المحترمة التي تحشر نفسها كل ليلة في بنطالٍ جلدي ضيّق، وفي قميص يُظهِر قسماً كبيراً من صدرها. أدّت تلك السيدة أغنيات وترانيم شعبية مثل: الكسوف الكلي للقلب، وأحتاج إلى بطل، وذلك بالترافق مع موسيقى خلفية تعزفها إحدى الفرق التي بدت وكأنها فرقة من المغامرين الجائعين. بدت السيّدة بسبب مساحيق التجميل الكثيفة التي تضعها على وجهها، وشعرها الكثيف المستعار وكأنها تُفرِط في ارتداء ملابس الجنس الآخر، ولكنها في الواقع وراء هذا كله كانت امرأة جذابة. تساءل ليو مداعباً: «هل يعني ذلك أنها عكس الذين يُقلّدون الجنس الآخر في طريقة ارتدائهم ملابسهم؟ صوتها يشبه صوت كيس من الزجاج المتكسر». لكن ديونا كانت إحدى مؤسّسات بوخارست بحد ذاتها. وقد جرت العادة في بعض الأحيان، وبعد الإقفال وإسدال الستار، أن يصل زبائن آخرون من الموسيقيين والطلاب وبعض الحالمين لسماعها وهي تؤدي الأغاني الريفية القديمة التي تعلّمتها أثناء طفولتها في بان لوك.

صعد الشبان الصربيون إلى المسرح وضايقوها، ولكنها تراجعت محتفظة بكبريائها، بينما كان كعبا حذائها يتمايلان، وثيابها الجلدية الضيّقة تُبقي حركة جسدها ثابتة، فبدت وكأنها تتحرك مثل إنسان آلي؛ أي أنها لم تتحرك إلا من عند مفاصلها. جلت بنظري على الزبائن، وأدركتُ أنهم من رجال الأعمال

الأجانب، وسائقي الشاحنات الألمان، والسياح التائهين، والمواطنين المحليين الذين تمكنوا من التسلّل إلى خارج شبكة المحظورات لكي يشاهدوا كيف يعيش القسم الآخر من مواطنيهم.

كان ذلك هو الوقت من الليل الذي يبدأ فيه الرجال بالتقرّب من بنات الهوى. وقد نجح أحدهم وكان يعمل على خط فرانكفورت - بوخارست في التقرّب من الفتيات. كانوا ينادونه نوربرت، أو نوربرت الثرثار، وذلك لأنه يحب أن يتظاهر بأنه جذّاب، وقادر على محادثة الفتيات، وأن المال الذي يعطيهنّ إياه كان هدية بإمكانهن أخذها أو رفضها، أي أنه ليس أجراً. كان يشتري لهن طعام العشاء، ويؤمن لهنّ قضاء ليلة في فندقٍ فخم.

تنحّى منظّم الموسيقى جانباً بعد صعود شابين من الصرب إلى منصته، واستحواذهما على أجهزته، ثم بدأا بإطلاق موسيقى تقنية إثنية متنوعة. وفي هذه الأثناء، تقدّم الصربيون من منصة الرقص، ورقصوا بعنف بحركاتٍ متكررة. وكان ما قاموا به خليطاً من الضرب المتكرر للرأس، والرقص الفولكلوري المريع. أنهى الشبان عرضهم بإلقاء التحية، ثم قام اثنان منهم بتمرير إصبع فوق عنق كل منهما.

وقف بيتر في الجانب الآخر من الغرفة فاتحاً فمه. لكن، كم مضى على وقوفه هناك؟ شعرتُ بالإحراج والذنب. ثم شعرت بالغضب؛ فهذا بلده، وليس بلدي أنا، لكن لماذا أشعر بالمسؤولية عمّا يحدث فيه؟ ومع ذلك، أدركت أن هذا المشهد قد أرعبه. وبدا لي أنه كان يتطلع من خلاله إلى مستقبلٍ ما أثار الرعب في نفسه. كان من الأفضل لي أن أغادر المكان، أو أن أصطحبه إلى مكانٍ آخر. لكنني بقيت لمراقبة سيليا. أشرتُ إلى بيتر بالجلوس، فسار نحونا متردداً، ومشى عند حدود الغرفة كي يتجنّب السّير في وسطها.

عندها، قال ليو: «يا إلهي، لماذا أحضرتَه إلى هنا؟».

كان غضبي يجعل الدم يغلي في عروقي من دون أن أعرف إلى مَن أوجّه هذا الغضب، كما كنت ثملاً. لذا، سارعت إلى إجابته: «لماذا أحضرتني إلى هنا يا ليو؟».

صدحت الموسيقى ولمعت الأضواء، فشعرت كما لو أنها تخزني؛ تماماً مثلما يحصل عندما يعاني المرء من صداع نصفيّ. إذ إن الشراب ذو تأثير محفّز داخلي شرير. تمكّن أحد الصربيين من حشر سيليا في الزاوية، ورأيتها وهي تدفع يده بعيداً عنها من تحت الطاولة، ثم نظرت إليّ مشيرة بعدم التدخل.

كان تيتانو يراقبها، وهو الذي كان جالساً إلى طاولته وحده بعيداً عن المجموعة. كان يشرب عصير الليمون باستخدام قشة، كما أن قطعة الليمون الموضوعة على حافة كوبه جعلته يبدو بمظهر غريب بعض الشيء.

توجّهت إلى المرحاض على أمل أن تفهم سيليا إشارتي هذه وتلحق بي لتتحدث معي. كنت أترنح قليلاً في هذه الفترة. وهكذا، مررت مترنحاً أمام أحد الصربيين الذي تطلع إليّ بعينين غير مكترثتين، ثم تابع سيره مترنحاً أيضاً. سمعت أصواتاً منبعثة من إحدى الحجيرات في الحمام، ثم انفتح الباب، ونظر إليّ أحد الصربيين بسخرية، وقال: «جيّدة، أليس كذلك؟». ثم غسل يديه. وبعد قليل، قامت إحدى المومسات بالضغط على مقبض دفق الماء في المرحاض، ثم تبعته بعد أن رتّبت تنورتها. ولكنني لاحظت بعض نقاط الدم عند زاوية فمها.

انتظرتْني سيليا في الردهة. قبّلتني، ثم تطلعت حولها بتوتر.

وهمستْ في أذني: «كنتُ سآتي في الغد».

«لم أتعمّد المجيء إلى هنا... » لكن، فجأة خطر في ذهني شيء ما؛ وكأنه ظل

طائر يمرّ على الأرض أثناء طيرانه من دون أن أتمكن من الإمساك به.

قالت لي: «كلا، بالطبع، لقد نسيت. على أي حال، المهم أنك بقيت. إنني مسرورة لذلك... لكنني مضطرة للذهاب الآن، إذ لا أريدهم أن يأتوا ويجدوك هنا. في الواقع، أتمنى أن تغادر».

«ماذا؟! إنني لا أفهم ما تقومين به مع هذه العصابة من المراهقين المستهترين».

«سأتمكّن من إكمال السهرة من دون أن يتجسّس عليّ أحد. إنني بخير على أية حال، لأن تيتانو يراقب ما يجري».

«يا للهول! يا لهذه الليلة اللعينة!».

فقالت لي متأوهةً: «لم ترَ شيئاً بعد. على الأقل، سينتهي كل شيء بعد قليل. اذهب من فضلك».

كان بيتر واقفاً خلفي، ويحاول التسلّل مبتعداً عنا. عندها، ناديته وقلت له: «بيتر، هذه سيليا قسطنطين. سيليا، هذا بيتر رومانو؛ صديقي. أعتقد أنكما تعرفان بعضكما بعضاً. لقد التقيتما بالتأكيد». كنت ثملاً وشرساً في تلك اللحظة. تبادلا النظرات ثم تصافحا، ولكنني أدركت على الفور أنه ما كان عليّ أن أفعل ذلك. فقد شحُب وجه بيتر قليلاً، وطأطأ رأسه متجنباً نظرات عينيها. شعرت سيليا بالغضب الممزوج بالتشوش، وحاولت إبقاء يدها في يده لفترة أطول، ولكنه سحبها واختفى. عندها، تحرّكت مُغادرةً ومُتجنّبةً النظر إليّ.

فسألتها غاضباً: «ما به؟ هل هو أحد عشّاقك السابقين؟ يبدو بالتأكيد أنه يعرفك... ».

غير أنّ سيليا هزّت رأسها بحزن وقالت: «لن أناقش هذا معك. يبدو أنك تعتقد أن كل الأشياء يجب أن تُعرَف، ويُسأَل عنها، وتناقش علناً هنا. لكن الأمر ليس

كذلك. عندما تعتذر لي، تأكد من اعتذارك له أيضاً».

علا صوت موسيقى الروك القاتلة تلك أكثر فأكثر. عادت سيليا إلى طاولتها، وتمكنتْ من الحفاظ على هدوئها عندما جذبها ذلك الصربي الذي لاحقها إلى حلبة الرقص. راقبتُه عندما مرّر يده نزولاً إلى أسفل ظهرها، لكن سيليا دفعتها إلى الأعلى. قرّب وجهه من كتفها العارية متنشقاً رائحة عطرها، غير أنّ سيليا أبقته على مسافة ذراعٍ واحدة منها. لكنّ قوتها كانت أضعف من قوته، لذا سرعان ما جذبها نحوه إلى أن تلامس وجهاهما. لم يتركها الصربي عند انتهاء الأغنية، كما أن تيتانو لم يحرّك ساكناً، بل اكتفى بالمراقبة من دون أن يتناول شيئاً من شرابه.

لم أستطع أن أتحمّل أكثر من ذلك. لذا، استجمعت قواي ونهضت محاولاً الوصول إليها، لكنّ ليو أوقفني قائلاً لي: «ابقَ هنا. لا يمكنك التلاعب مع هؤلاء الأشخاص. ابقَ هادئاً، أو سوف أضطر إلى إخراجك من هنا. إنها تستطيع الاعتناء بنفسها، وهي تعرف تماماً كيفية معالجة مثل هذا الموقف؛ فقد فعلت ذلك طوال حياتها».

وكان ليو محقاً. أمسكها الفتى للحظةٍ بدت لي طويلة جداً، ولكنّها تمكّنت من التخلّص منه بحركة رقيقة بدا لي أنها متدربة عليها، ثم عادت إلى طاولتها. عندها، بصق الشاب على الأرض، ثم رقص بمفرده بضع دقائق للحفاظ على كبريائه.

بعد قليل، دخل ستويكو ومانيا قسطنطين مع ميلوسوفيتش وباقي الصرب. كان النفور بين ستويكو ووالد سيليا واضحاً. لكن مانيا تصرّف وكأنه يحب الاختلاط مع شبان العصابات الشرسين. فشل حتى أشرس الأنظمة في القضاء على سلوك القسم الأكبر من الطبقة الوسطى، لكنّ ستويكو بدا وكأنه أرستقراطي بوجهه

الصارم والممتلئ. أجفل ستويكو عند دخوله، وذلك عندما سمع تلك الموسيقى المرعبة، وشعر بالهواء الساخن والرطب، ورأى الأنوار الملتمعة والمتلألئة. جال بنظره في أنحاء الغرفة، ثم توقّفت نظراته عند طاولتنا التي جلسنا إليها أنا وليو، بينما جلس بيتر بيننا. أجفل بيتر فوراً وأشاح بنظره بعيداً، كما حرّك جسده بأكمله جانباً. عندها، صحوت بما يكفي لكي أدرك أنني ارتكبت خطأً كبيراً بإحضار بيتر إلى هذا المكان الرديء.

كان ستويكو في أفضل حالاته، فوزّع الدولارات يمنة ويسرة، بينما كانت أفواج النُدُل تتسابق في إحضار زجاجات الشراب الأسكتلندي لتقديمه إليه. ألقى ستويكو نظرة على الفتيات الموجودات في المكان، وحاول أن يحفظ صورهن، وربما سجّل ملاحظاتٍ ذهنية سوف يستفيد منها لاحقاً. يُحتمل أنه كان نزيلاً في هذا الفندق، أي مثلما يفعل عادة كبار المسؤولين في الحزب عند تمضيتهم الليلة خارج منازلهم، أو كانوا يحتفظون بشقة في وسط المدينة للعلاقات السرية والاستراحة. كان ليو يُطلق على تلك الأماكن لقب: «مخبأ مسؤولي اللجنة المركزية للحزب». أمسك ستويكو كوب شرابه الطويل وتجرّع محتوياته كلّها. كما تجرع قسطنطين شرابه أيضاً وقد أمسك كوبه بين إبهامه وإصبعه الوسطى، ثم وجّه بعد ذلك كلماتٍ قليلة إلى سيليا التي تجاهلته. وحين وضع يده فوق يدها أزاحتها بقوة. نهض بعد ذلك وقبّلها على أعلى رأسها ثم غادر المكان. جلس ميلوسوفيتش - المسؤول الصربي - وسط كل ذلك مراقباً ما يجري، ولكنه لم يتناول شرابه.

سألني بيتر: «لماذا أحضرتني إلى هنا؟ هذا المكان أشبه بالجحيم، ويثير في نفسي الشعور بالاشمئزاز». بدا بيتر مريضاً جداً بالفعل، كما بدا خائفاً أيضاً. أما ليو الذي عاش في بوخارست منذ زمن، فقد صعُب عليه أن يشعر بالمرح في هذه الأمسية. وقد همس في أذني: «أنا متأكد من أنك تتمنى الآن لو أنك كنت على

متن تلك الطائرة؟».

وإلى طاولة الشخصيات الهامة، حان الوقت على ما يبدو لتركّز المجموعة على نفسها هذه الليلة؛ وكأن ما يجري يحصل بتوجيهٍ غرائزي. فقد قام أحد أفراد المجموعة بسكب الشراب على رأس «أحمق»، بينما نثر آخر رماد السجائر على شعره وكتفيه. وعلى الفور، أطلق «الأحمق» ضحكة ضعيفة وغير مكترثة، ما يدلّ على أن سنين طويلة قد علّمته أنه لن يتمكن من المشاركة في مرح المجموعة إلا إذا كان هو مصدر الضحكات.

توقّف كل ذلك الإذلال الذي تعرّض له «الأحمق» عند دخول شخصٍ ما المكان؛ وهو شخصية غير متزنة وشاردة. وعلى الفور، سارع منظّم الموسيقى إلى نزع أسلاك التوصيلات من منصته، فخفتت الأصوات.

دخل نيقو تشاوشيسكو من الباب مترنحاً، وبدا مثل شخصٍ جالسٍ في مقدمة مركبٍ تتقاذفه العاصفة. كانت ساقاه متباعدتين من أجل تثبيت نفسه، بينما بدا وجهه مترهلاً بسبب شهيته التي لا تعرف الشبع. لكنّ عينيه كانتا تشعان بشهية متجددة. وقف خلفه حارسان، وكانا أشبه ما يكونان بمرافقَين من محبّي اللهو الغربيين. ارتدى أحدهما قميصاً مفتوحة من وسط الصدر، ووضع سلسلةً ذهبية حول عنقه، وكان القميص الذي ارتداه من صنع بيار كاردان، أما حذاؤه فكان حذاءً رياضياً من العلامة التجارية أديداس. وقفت خلف نيقو ثلاث فتيات مراهقات، وبدا عليهن التوتر.

«اللعنة. إنني هنا منذ ثماني سنوات، ولم أضطر إلى التواجد في الغرفة نفسها مع هذا الوغد يوماً. لكن، انظر أين أصبحنا بسببك أنت... » وتجرّع ليو محتويات كوبه من الشراب ثم ملأه مجدداً.

«بسببي أنا!». وأشحتُ بنظري بعيداً عنه، وتطلّعت إلى بيتر الذي بدا مرتعباً.

كانت رفيقة نيقو لاعبة جمباز شهيرة، وأشبه بأعجوبة بين الأطفال؛ وهي التي سبق لها أن ربحت ميدالية فضية في الألعاب الأولمبية التي أقيمت في لوس أنجلوس منذ خمس سنوات. كما أنها مرشحة لنيل ميدالية ذهبية في الدورة الأولمبية القادمة. كانت في الثالثة عشرة من عمرها في ذلك الوقت. وضع نيقو ذراعه حولها، ولكنها بقيت تجول بعينيها في أنحاء الغرفة. وكان الجميع يعرف عن علاقته مع مغنية أوبرا تقاربه سناً، والتي كانت رفيقته الرسمية، لكن الجميع يعرف أيضاً أنه يفضّل الصغيرات في السن. امتلكت لاعبة الجمباز بولينا إليسكو عينين كبيرتين وواسعتين، وكان جسمها النحيل والمرن عاملاً سلبياً بالنسبة إليها، ومكاناً لإبراز الزينة. أما كعبا حذائها العاليان وتنورتها القصيرة فقد جعلت ساقيها الطويلتين غير ثابتتين. وبدا مظهرها شبيهاً بمظهر ولدٍ صغير يخطو أولى الخطوات في حياته. لكنّ صدرها كان واضحاً بسبب قميصها ذي الياقة المنخفضة؛ ما جعلها تحاول إخفاءه دائماً بذراعها القوية المليئة بالعضلات.

«يعلم الله أي حياة تعيشها هؤلاء الفتيات المسكينات؛ من أخذ الستيرويدات، والمخدرات... كما أنّهن سجينات في المعسكرات الرياضية، حيث يقوم نيقو بانتقاء من تحلو له منهن. إنهن يستسلمن له وهن يفكرن في رومانيا ويأملن أن ينتهي بسرعة، فيما هو يُجيد ما يفعله من هذه الناحية. لكن الرياضيات منهن يُسمح لهن بتناول حبوب منع الحمل... » وحدّق ليو إليهنّ، فيما كان يتحدث معي من زاوية فمه.

رأيت نيقو وهو يستنشق الهواء، ثم يمسح أنفه بإبهامه وسبابته، وبعد ذلك يمسحهما ببنطاله. اصطحبه ستويكو إلى واجهة المشروبات، فطلب ما يريده منها. تطلع نيقو حوله إلى المومسات. بعد ذلك، عرّفه ستويكو على الصربيين الذين قاموا بتحيته من دون حماسة. بدا ميلوسوفيتش على وجه الخصوص غير

مهتم. ففيما يرى فيه الآخرون السلطة والمراكز، يرى هو ابن الدولة البوليسية المنغمس في الملذات الحسّية، والشاب المتطفل على نظامٍ فاسد. صافح ميلوسوفيتش يد نيقو، ثم جلس متجاهلاً إياه.

لم يتأخّر نيقو عن تحويل انتباهه نحو سيليا. كانا يعرفان بعضهما بعضاً، وكان ذلك في منتهى الوضوح بالرغم من فارق السن بينهما والذي يبلغ عشرين عاماً. بعد ذلك، طلب نيقو عدداً من زجاجات الشراب، ومدّ ذراعيه ترحيباً بالضيوف، ثم اقترح شرب نخب، وهمس بشيءٍ ما لأحد مرافقيه الذي ما لبث أن توجّه مباشرة إلى منظّم الموسيقى الذي كان يرتعش خلف أجهزته مثل وحشٍ يتعرّض للملاحقة، ثمّ غيّر الموسيقى واضعاً بدلاً منها بعض الموسيقى الراقصة والهادئة، والتي كانت رائجةً في الثمانينيات من القرن الماضي. قال ليو بلهجةٍ حازمة: «آه، إنها كلاسيكيات غروبر. سبق أن سنحت لي الفرصة لطلب سماع هذا النوع من الموسيقى».

حاول نيقو الرقص مع رفيقاته؛ وهو الإقطاعي الذي اعتاد على موسيقى الديسكو التي كانت شائعة في الثمانينيات. كان ذلك هو ما يفعله في منطقة نفوذه، إياسي، وحيث كان زعيم الحزب هناك. ولم يكن أحد يجرؤ على الذهاب إلى الأندية الليلية أو المطاعم خوفاً من الالتقاء به. كانت أولى شريكات الرقص التي دعاها نيقو لمراقصته هي إيلينا راليان. نهضت إيلينا مترددة، ووقفت أمامه بجسدها الجميل، وعضّت شفتها ثم أغمضت عينيها. مرّر نيقو يده على كامل جسدها نزولاً نحو ظهرها، ولم ينسَ أن يقرصها قليلاً. ارتعشت إيلينا، ولكنه جذبها نحوه بقوةٍ أكبر، فقد أحب هذا النوع من الإثارة، واحتاج إلى شيء ما كي يضغط عليه. كان نيقو يتطلع إلى سيليا طوال الوقت، معتبراً أن الرقص مع إيلينا مجرد مقدمة ستوصله إليها. أما رفيقته لاعبة الجمباز فقد انشغلت بشرب الكولا، وبدت مرتاحة لأنها قد تحصل على استراحة هذه الليلة. حصلت

إيلينا راليان على استراحة بعد أن رقصت على أنغام ثلاث أغنيات، وعادت إلى طاولتها. وفي ذلك الوقت، كان تأثير الشراب قد بدأ يظهر على «الأحمق» الذي أسند رأسه على الطاولة، واستغرق في النومّ، بينما ظهرت كومة من رماد السجائر على شعره المبلل.

وفي هذا الوقت، بدأ نيقو يتحرّش بسيليا. لكنه ما إن حشر نفسه إلى جانبها حتى نهضت وتوجهت إلى طاولةٍ أخرى. غير أنّ نيقو لم يرتدع، بل تبعها وناداها طالباً منها العودة، ولكنها تجاهلته وسط مراقبة الجميع لما يحدث، حتى إن الموسيقى بدأ إيقاعها ينخفض. عندها، وضع نيقو يده على ساق سيليا، ولكنها أبعدتها عنها، وأعادتها نحوه بقوة؛ فبدا الأمر وكأنها انفصلت عنه. وعلى الفور، هاجمها وأمسكها من عنقها، ثم انقضّ بفمه على فمها.

تحرك تيتانو بسرعة كبيرة، حيث لم نرَ أي شيء يحدث. ولم نتمكن من إدراك ما حصل إلا بعد انتهاء الأمر. فقد أحكم تيتانو ذراعيه حول نيقو بشدة، وأوثق ذراعيه إلى جانبيه، فصارت يداه تتدليان بضعف إلى جانبَي خصره. وفي هذه الأثناء، أطلق نيقو الشتائم، بينما حاول ستويكو إبعاد ذراعَي تيتانو. كان وجه نيقو أحمر اللون ومتضخماً، وكان يسعل بين الصرخات التي كان يطلقها، ويدفع برأسه إلى الخلف على صدر تيتانو. ولكنّ تيتانو ظلّ واقفاً، وانتظر ريثما استهلك نيقو كل قواه، ثم سار نحو الممر، وألقاه بقوة على الأرض الرخامية. شاهدت رفيقات نيقو ما يحصل برعب؛ وذلك لأنهن سوف يدفعن ثمن ما تعرّض له من إهانة. أما رفاقه فقد تحلقوا حوله محاولين تهدئته من دون أن يحاولوا التحدث مع تيتانو الذي وقف في هذا الوقت إلى جانب سيليا، وكأنه عمود من الغرانيت. كانت سيليا تمسّد رقبتها وتتنفس بصعوبة وتحاول منع دموعها من الانهمار. أما أصدقاؤها فقد ابتعدوا عنها، ما عدا «الأحمق»؛ الذي بقي غير خائف. هممت بالنهوض لكي أنضم إلى سيليا، لكنّ ليو منعني.

وفهمتُ من نظرتها إليّ أنها لا تريد مني أن أتدخل إطلاقاً.

كان ستويكو يصرخ في وجه تيتانو الذي وقف من دون حراك أو تأثر: «هذه نهايتك، أنت ورئيسك! لقد انتهيتما». وتوجّه بعد ذلك نحو سيليا وقال لها: «أما أنتِ أيتها الوقحة المغرورة... إنكنّ أيتها البورجوازيات لا تتغيّرن أبداً، وتعتقدن أنكنّ أفضل منا جميعاً». لاحظتُ وجود بعض الرغوة حول شفتيه، بينما تطاير رذاذ لعابه على خلفية أنوار الديسكو. خلفه، جلس نيقو تشاوشيسكو بوجه مغطى بالدماء، باكياً كالأطفال.

جمعت سيليا أغراضها، وغادرت بعد مرور دقائق قليلة، بينما رافقها تيتانو حتى وصولهما إلى المدخل الخلفي للفندق. ولكنهما لم يُظهِرا أي علامة تدل على معرفتهما بي أثناء مرورهما بمحاذاتي.

هزّ ليو رأسه قائلاً: «يا إلهي، لن تذكر صحف الغد شيئاً عمّا حصل الليلة... ». وعلى الفور، أسرعت المومسات إلى إغلاق محفظاتهن المليئة بعلب السجائر، ثم دفعن المبلغ المتوجّب عليهن في النادي الليلي لأن أحداً لن يكون بحاجة إليهن هذه الليلة. أومأت ديفا ديونا نحو ليو، ثم تناولت كأساً من الشراب. أمّا المسؤول عن المشروبات فقد وقف في الردهة حاملاً صينية فضية وزجاجة من الشراب، وهي الزجاجة التي شرب منها نيقو.

بالرغم من أن نيقو كان رجلاً قذراً، ومنحطاً ويحب مضايقة الآخرين، إلا أن هذا ما كان ليحدث قبل عشر سنوات، أو حتى خمس. وقد كانت المعاملة التي تلقاها الليلة مقياساً للسياسات الداخلية الضيقة في رومانيا، وأكثر أهمية ومغزى من أعمال الشغب التي حصلت بسبب المواد الغذائية أو المظاهرات. كانت هذه الأشياء مجرد ومضات تدلّ على اليأس الذي يشعر به الشعب الضعيف. وكان ما رأيناه الآن امتحاناً لهيكليات السلطة ذاتها. أدركت أن هذا

هو ما لاحظه الزعيم الصربي الذي يتمتع برؤيةٍ حادة؛ وهو الأمر ذاته الذي رآه ستويكو عندما كان يتجرع شرابه وقد تلاشى كل تظاهره بالرقي، وذلك بالترافق مع صورة الفلاح على زجاجة الشراب التي تُبرز المكننة القروية التي عمّت أنحاء البلاد.

تسلّل ميلوسوفيتش إلى خارج المكان، وكان مفتاح غرفته يرتطم بساقه أثناء سيره. طلب إناءً من القهوة من مكتب الاستقبال ثم غادر. وكان صاحياً بالرغم من كمية الشراب التي تجرعها، وبدا مثل رجلٍ بدأ العمل لتوه. كان «الأحمق» واقفاً وهو يترنّح، بينما ظهر خطٌ على جبهته حيث أسند رأسه على طرف الطاولة. لم يشهد الرجل ما حدث في المكان، ولكنه كان الشخص الوحيد الذي بقي عند حضور الأجهزة الأمنية. وهكذا، أبلغ الرجال متلعثماً - مع بعض الذكاء - بأنه لم يرَ أو يسمع شيئاً.

«حان وقت انصرافنا». أمسكني ليو من ذراعي وغادرنا من باب خروج الموظفين. كانت إحدى النساء في أحد المكاتب تُخبر زميلاتها عمّا حدث متحمسةً. ويعني ذلك أن طاحونة الإشاعات قد بدأت بالعمل، وأنه ما إن يحين الصباح حتى تنتشر الأخبار في جميع أنحاء بوخارست، وتملأ المكاتب والمصانع قبل وصولها إلى السفارات والصحف الأجنبية.

تذكرت بيتر وبحثت عنه، غير أنه كان قد اختفى. فشعرت بالارتياح لأن ذلك وفّر عليّ الاعتذار له الآن. لكن، يجب عليّ ألاّ أتأخر في ذلك أبداً، وكذلك ينبغي لي الاعتذار من سيليا. كان هذا بلد بيتر، ولكنني شعرت الليلة أنه بلدي كذلك.

الفصل الثاني عشر

جاءت مشاركتي بيتر وفينتول في عملية مساعدة آخرين على اجتياز الحدود في وقتٍ أسرع مما توقعت، وذلك لأنه تم تقديم الموعد. وها أنا الآن بعد مرور أسبوعٍ واحدٍ على ما حصل لنيقو تشاوشيسكو أتوجّه مع ليو إلى الحدود اليوغوسلافية. فقد كان من المقرّر أن يصل بيتر وفينتول وخمسة آخرون إلى المكان ذاته، ولكن من طريق مختلفة. توقفنا إلى جانب الطريق، وتناولنا في السيارة وجبة كانت مؤلفة من الخبز والجبن الأبيض والروكولا. كان ليو يقوم بالتعويض عن تلك الأمسية التي أمضيناها في ديسكو مادونا، كما نفّذ وعده بجلب أنواع فاخرة من الطعام والشراب. لم أرَ بيتر أو سيليا منذ ذلك الحين. فقد اختفى الرجل في مكان لا يعلمه أحد. ولكنّه الآن وراءنا في سيارة مسروقة، وكان من المقرر أن أراه في وقتٍ قريب. اعتزمت أن أشرح له، وأعتذر منه أيضاً. أما بالنسبة إلى سيليا فقد امتنعتْ عن الرد على مكالماتي الهاتفية، كما أن حرّاس المبنى الذي تسكنه منعوني من اجتياز البوابة. وتراوحت الرسائل التي تركتها على آلة المجيب الصوتي ما بين إظهار الندم والاتهام غير المترافق مع الندم. رفعت سيليا سماعة الهاتف مرة واحدة فقط أثناء تلك الاتصالات، غير أنها عندما سمعت صوتي أقفلت الخط.

حصل ذلك في وقتٍ متأخرٍ من المساء. امتدت أمامنا الأراضي الزراعية والطريق الممهدة التي تحيط بها لساعاتٍ وساعات، وذلك بعد اجتيازنا حدود مدينة بوخارست. والتمعت في الأفق الذي خلا من السحب الشمسُ الحمراء. لم نشاهد أي حيوانات، ولم نلحظ أي شيء يتحرك أو يرعى. أما إلى الشمال الشرقي من مكاننا، فقد كانت أبراج كرايوفا البترو - كيميائية تلفظ أدخنتها. بدا الأمر

وكأنها اختفت، ولكنها في واقع الأمر ملأت الجو، وعلقت به جُزيئاً بعد جُزيء. كما أن زرقة السماء الداكنة كانت في واقع الأمر شبكة من التلوّث. كان مشهد غياب الشمس الداكن في أيام الصيف مليئاً بالتلوث: الأدخنة الناتجة عن احتراق النفط، والأدخنة الداكنة الناتجة عن الكربون... لم يتساقط المطر في ذلك اليوم، كما أن أقواس القزح الوحيدة التي رأيناها كانت في البُرك التي شكّلها تسرّب النفط من تحت الشاحنات التي تنقل مواد البناء.

تتواجد نقطة ضعف في الحدود مع يوغوسلافيا؛ وهي عبارة عن رقعةٍ ضيّقة تقع إلى جانب نهر الدانوب، والتي أُحيطت بالأسلاك الشائكة الخاضعة لمراقبة الدوريات التي تمرّ من هناك، إلا أنها متروكة من دون حراسة دائمة. تتشارك رومانيا حدودها مع خمس دول، لكن يوغوسلافيا التي بدأت بالتفكك أكثر فأكثر كانت نقطة العبور المفضلة بالنسبة إلى الراغبين في مغادرة البلاد. وهكذا تُعتبر خطوة أخرى نحو الغرب. شارك ليو حتى الآن في ثلاث من هذه الرحلات، لكن عدداً قليلاً من الفارّين فقط أرسل إشارات عن حياته الجديدة، والتي كانت عبارة عن بطاقاتٍ بريدية مشفرة أو رسائل يجري تناقلها مثل الهمسات الصينية عبر القنوات القائمة تحت الأرض.

وصلنا إلى مقصدنا قرابة الساعة التاسعة، وكان عبارة عن بلدةٍ صغيرة تدعى هينوفا، وتبعد أميالاً قليلة عن الحدود. سبق أن حجز لنا ليو في أحد الفنادق، حيث كنا النزلاء الوحيدين فيه. وقد طلب ليو بعض الشراب، وكذلك قائمة الطعام، فنُقِلت إلينا شفهياً، وتألّفت من خمسة مقاطع. تناولنا قهوة إرساتز، ثم مشينا قليلاً إلى خارج الفندق. كانت الظلال تتطاول على الباحة المركزية الصغيرة للبلدة التي لم يطلها مشروع التحديث في رومانيا. وكان كل شيء في هذه البلدة يشعّ بعدم الأهمية: الباحة الخالية من الأعشاب، والبركة الخالية من المياه، وبعض تماثيل الرجال المنسيين التي تحولت إلى كتلٍ من الجص.

تجمّع قطيع من الكلاب في ظلال منصّات تلك التماثيل، وراحت الكلاب تعوي على انعدام الحركة التي تشهدها. أما الرجال المسنّون فقد جلسوا على مقاعد طويلة، بينما ترددت أصوات الموسيقى الشعبية من مقهى متداعٍ. كان المبنى الحديث الوحيد في البلدة هو مبنى الحزب، والذي كان مربع الشكل ومن الإسمنت رمادي اللون، وقد ارتفعت فوقه أعلامٌ شاحبة الألوان، ولوحات الشعارات الصدئة.

التقينا الآخرين في مرأب سيارات يقع عند طرف البلدة. رأيت فينتول، وبيتر، وثلاثة شبان، وفتاتين لم أعرف منهما سوى واحدة، وكانت ميل التي التقيتها في تلك الليلة عند بوليفار النصر الاشتراكي. لكن هذه الليلة كان اسمها آنّا. حملت كل فتاة على ظهرها كيساً مربوطاً، وامتلكتا الجرأة الممزوجة بالتوتر، وراحتا تثرثران. كان بيتر وفينتول الوحيدين اللذين حافظا على هدوئهما. أمّا سبب هدوء فينتول فيعود إلى أنه المسؤول، لذا يجب عليه أن يركّز على ما يجري. في حين أن بيتر يبدو فوق كل ما يجري. صافحني بيتر وابتسم، فقلت له: «إنني آسف بشأن ما حدث في تلك الليلة... » فأجابني: «ليس الآن. وعلى أية حال، لقد انتهى كل شيء، وأنا نسيته بالفعل». كنت متأكداً من أن صداقتنا مستمرة، ولكنني أحسستُ بأنه تراجع قليلاً، ولا أعرف ما إذا كان ذلك لحمايتي أو لحماية نفسه. أعتقد أن معرفتي بسيليا ضايقته بما يكفي، لذا سألني عما إذا كنت أعرف والدها، ولكنه أبدى ارتياحاً عندما قلت له إنني لا أعرفه. على أية حال، كان من المستبعد أن ألتقيه في هذه الأيام.

انقسمنا إلى ثلاث مجموعات. وهكذا، تقدمنا أنا وليو أولاً، بينما اصطحب كلٌّ من بيتر وفينتول الآخرين في اتجاهين مختلفين. مشينا قرابة ساعةٍ من الزمن عبر أرضٍ بدت مجهولة الاسم، وذلك قبل وصولنا إلى سلسلة تلالٍ قاحلة وجافة أوصلتنا إلى حدود غاباتٍ كثيفة.

مشينا بحذر، وكنا نتوقف كل عشرين ياردة لكي نصغي جيداً إلى أي صوت. بدت الغابة وكأنها مجرد ظل؛ فعند دخولنا إليها لاحظنا على الفور انخفاضاً في درجة الحرارة، كما بدأنا نخطو فوق أعشاب ربيعية.

همس ليو: «توجد فِخاخ ثعالب، ولكنها ليست ضد الثعالب».

سرنا قرابة مئتي ياردة داخل الغابة، ثم أخرج ليو مصباحاً يدوياً. رأينا ممراً مليئاً بأشواكٍ مسطحة ونباتات شوكية، كما رأينا الكثير من الأعشاب الملتفّة التي تماثل سماكتها سماكة رسغ طفل. وشاهدت كذلك نباتاتٍ تعيش في ظلٍ دائم، أي مثل تلك الأسماك التي تعيش تحت سطح البحر بأميالٍ عديدة، وتكون عادة سمينة وتعيش وسط ظلمة حالكة. قال لي ليو بعد أن وجّه مصباحه إلى كومة من الفضلات طبشورية اللون التي أصبحت بيضاء: «إنها فضلات ذئب». أحسسنا بأن ضوء المصباح اليدوي جعل الأرض تتمايل تحتنا. وفيما كنت أسير، تعثرت وسقطت إلى الأمام، فرأيت مصيدة ثعالب فاتحة أسنانها الصدئة، وبدت أشبه ما تكون بفك سمكة قرش مفتوح. علق عدة أشخاصٍ في هذه المصيدة في الماضي ونزفوا حتى الموت، أو ساروا إلى منازلهم مترنحين وهم يعانون من عظامٍ مسحوقة، أو جراح عميقة بعد محاولتهم تخليص أنفسهم. وفي ما كنت على وشك الوقوع فوق المصيدة، تقدّمت يدٌ من خلفي وحالت دون سقوطي، ثم غطت فمي قبل أن أتمكن من الصراخ. إذ كان فينتول قد جاء مسرعاً من خلفنا، ودفع عصاه في المصيدة، وتمكّن من إقفالها؛ وهو الذي كان وراءنا طوال الوقت.

وأخيراً، وصلنا إلى نهاية الغابة، فرأينا الدانوب يتدفّق أمامنا وسط الظلمة، وكان يبدو عميقاً وداكناً. رأينا برج مراقبة من دون إنارة، وكان يلمع تحت نور القمر على بُعد مئاتٍ قليلةٍ من الياردات بعكس مجرى المياه. كانت تفصل هذا البرج عن المياه شبكةٌ من الأسلاك الشائكة المكهربة التي تبعد عن المياه مسافة اثنتي

عشرة قدماً. كان بإمكاننا سماع أزيز الأسلاك المكهربة الذي بدا أشبه بأزيز حشرة.

أصدر فينتول نداءً كان عبارة عن صوت بومة. لم نسمع شيئاً للحظات، فانتظرنا. وبعد قليل، سمعنا الرد من الجهة المقابلة من النهر، ثم رأيت وميض ضوء، فافترضتُ أنه آتٍ من الضفة المقابلة. كان ذلك الضوء بعيداً عنا، وتفصل بيننا وبينه المياه على مسافة تمتد مئات الياردات. أطلق فينتول نداءً آخر، ثم لم نسمع شيئاً.

«استريحوا قليلاً؛ لأننا الآن سوف ننتظر الانقطاع التالي للتيار الكهربائي. التزموا بالبقاء قرب الأشجار». كان ليو يتنفس بصعوبة، كما انحنى إلى الأمام واضعاً يديه على ركبتيه. جلس الآخرون وانتظروا في طرف الغابة. لم يتكلم أحد منهم، ولم يتحركوا. ولم يُسمَع في هذه الأثناء سوى أزيز الأسلاك المكهربة، بينما كان التيار القاتل يسري خلالها.

انقطع التيار الكهربائي أخيراً، فاهتزت الأسلاك. وتواجدت خلف تلك الأسلاك أسلاك أخرى ذات أطراف حادة، وقد التمعت بعد أن عكست الضوء، قبل أن تعود الظلمة مجدداً. كانت هذه بقعة مختارة بعناية؛ وذلك لأنها آمنة وغير ملحوظة. لاحظتُ وجود فجواتٍ في الأسلاك؛ وهي فجوات تم إحداثها بعناية، وكان من السهل إعادة إقفالها عند انتهاء العملية. ذهب فينتول أولاً، وبدأ بقطع الأسلاك الكهربائية مستخدماً قاطعة أسلاكٍ قوية. فقال لي ليو شارحاً الأمر: «يتعيّن علينا إبقاء التيار الكهربائي سارياً بين كل عملية وأخرى، فإذا لم نفعل ذلك سوف يلاحظون أن الأسلاك قد اختُرقت، وذلك يعني عدم تمكننا من استخدام هذا الممرّ مجدداً. لأن كل قطعٍ في التيار الكهربائي يُطلق إنذاراً». أزال فينتول الأسلاك ببطء شديد، ثم فتح عدة أقدام من السلك المكهرب، وفصلها عن بعضها. تسلّل فينتول من خلال تلك الفتحة، وكرّر عمله ذاته مع الأسلاك

الحادة. كان فينتول مرئياً إلى درجةٍ خطرة بفعل ضوء القمر المنعكس على مياه النهر، ولكنه عمل بسرعة كبيرة. وقد نجح بعد مرور عدة دقائق في فتح سلسلة من الثغرات في الأسلاك، والتي كانت كبيرة بما يكفي للمرور عبرها. وبعد ذلك، زحف إلى ضفة النهر، ثم توقف واستدار. وكان ذلك يعني أن الطريق آمن.

كان تيار المياه قوياً، وهكذا تمكّنا من رؤية المياه وهي تتموج بسرعة، فينعكس عليها الضوء بشكل وميض. وبدا المشهد كما لو أن النهر يقوم باستعراض عضلاته. شاهدتهم وهم يبدأون المسير مع شابين، وتقدمت الفتاتان بعد ذلك، ثم تبعهم الشاب الأخير. غمرت المياه أجساد العابرين، وبدا الشابان اللذان كانا يمرحان في البداية مرتعبَين بعد أن تلاشت شجاعتهما. أما نحن فقد راقبناهم أثناء انزلاقهم في المياه وهم يكبتون صرخات أرادوا إطلاقها بسبب برودة المياه، بينما كانت المياه تملأ ثيابهم وأحذيتهم، وتشدّهم نحو الأسفل. بدا أحدهم طافياً فوق المياه بدلاً من أن يسبح، ولكنه في النهاية استسلم للنهر الذي سحبه مع مياهه، ثم اختفى الجميع عن أنظارنا.

عاد فينتول إلى الضفة الصخرية للنهر، وبدأ بإصلاح الأسلاك الشائكة، ولكنه كان قد خسر دقائق قليلة في هذه الأثناء. وهكذا، بدأ السباق لوصل أطراف الأسلاك المقطوعة من السياج. وقد نجح فينتول في إنهاء العمل في الوقت المناسب؛ وذلك لأنه بعد أن أبعد يديه عن الأسلاك بثوانٍ قليلة عاد التيار الكهربائي مجدداً، وتغلب أزيز الأسلاك على صوت المياه عند اصطدامها بضفتَي النهر.

ابتسم بيتر وعانقني ثم قال لي: «كانت هذه أول مهمة لك! سوف نحتفل بها قريباً». كان من المقرّر أن يعود بيتر وفينتول إلى الغابة، ثم يتبعا مجرى النهر العائد إلى داخل البلد قبل دخوله أعماق رومانيا أكثر فأكثر متجهاً نحو فانجو ماير. قال لي فينتول: «هناك قرية صغيرة نعرف فيها بعض الأشخاص». واستدار بعد ذلك وانصرف.

عدنا أنا وليو إلى هينوفا، وكانت خيوط الفجر الأولى تتجمع بأسرع من قدرتنا على السير. وصلنا إلى الفندق باكراً، أي قرابة الساعة الخامسة فجراً. مررنا بمحاذاة مكتب الاستقبال الخالي، وتوجّهنا إلى غرفتينا.

«ما الذي دفعك إلى اصطحابي إلى هناك يا ليو؟ وأيّ منفعةٍ قدّمتها لكم؟ فقد وقفتُ هناك فقط مكتفياً بالمراقبة... ».

ردّ ليو: «قمتَ بمهمة عظيمة... صحيح أنك وقفت لتراقب، ولكنك وقفت هناك مؤكّداً مشاركتك معنا؛ وهذا في الواقع أكثر فائدة لهم ولنا من أي شيء يمكنك أن تقوم به بالفعل... يضاف إلى ذلك أنك سوف تجد نفسك بعد وقتٍ قصير منغمساً كلياً في هذا الأمر. ولهذا، انتهِز فرصة عدم الظهور في الصفوف الأمامية بينما تستطيع ذلك».

تناولنا طعام الفطور، ثم قمنا بجولةٍ في السيارة عبر قرى مقاطعة كرايوفا وحقول العنب في سيغارسيا. صُدمنا لدى رؤيتنا خصوبة الأرض بعد القحط الذي يعم بوخارست. رأينا على جانبَي الطريق محاصيل البندورة، والذرة، والملفوف، كما رأينا البساتين المليئة بمختلف أنواع الفاكهة، وحقول الخضار الملتمعة تحت الشمس. بدا لنا أن الأرض تعطي كل شيء، بينما تقوم الشمس بإنضاج المحاصيل بكل سخاء. رأينا العناقيد الكبيرة التي تتدلى من غصونها، والعرائش التي ترتفع فوق شبكاتٍ بخطوطها المستقيمة. ورأينا أيضاً ثمار البطيخ على الأرض، والتي يبلغ حجم الواحدة منها حجم كرة قدم، بينما تتلوى غصونها عبر التربة الداكنة، ورأينا كذلك بيوت الدفيئة، وأنفاق حماية المزروعات الممتدة إلى البعيد. رآني ليو وأنا أتفحّص الحقول الممتدة أمامي فقال: «كل ما تراه معدٌّ للتصدير، ومعظم أولئك المساكين لم يروا حتى ثمرة

بطيخ إلا في مسلسل داينستي. إنها بلاد سخية بطبيعتها، ولكن هذا الفقر اللعين مصطنع».

مضى أسبوع من دون أن يحدد بيتر موعداً للقائنا في كارباثيان بور، كما أن فينتول لم يتصل بليو أيضاً، وذلك بالرغم من أنه وعده بالاتصال به في اليوم التالي. بحثتُ عن بيتر في قاعات محاضرات الموسيقى، لكن لم يظهر له أي أثرٍ. كما تغيّب بيتر عن تدريبات فرقة فقير الأولى ثم عن الثانية. وهكذا، أُلغِيت الحفلة التي كانت مقررة في الأول من شهر تموز.

استمرت سيليا في رفضها رؤيتي. يُحتمل أن شيئاً ما قد حدث في تلك الليلة؛ وهو شيء غير الإذلال الذي تعرّض له نيقو تشاوشيسكو، ولكنني لم أتمكّن من معرفته. هل الظروف هي التي جمعت كل أولئك الأشخاص في ذلك الملهى الرهيب: الصربيين، ونيقو، وستويكو، ومانيا، وسيليا؟ وهل شاء القدر حينها أن أتخذ في الدقيقة الأخيرة ذلك القرار بعدم مغادرة بوخارست، والذي أدّى إلى ذهابي إلى ذلك الملهى مع ليو وبيتر؟ وهل حرّك ذلك اللقاء الذي حدث مصادفة شيئاً ما تتحقق نتائجه من دون معرفتنا طبيعتها؟ فسيليا تتجنبني، وبيتر قد اختفى، أما ليو فقد انكفأ على نفسه واختبأ في شقته.

سمع ليو الشائعة الأولى بعد مرور ثلاثة أسابيع. إذ كان سائق شاحنة ألماني - والذي كان زميل نوربرت الثرثار - يتفاخر بأنه أمضى ثلاث ليالٍ متتالية مع المومس ذاتها في هامبورغ، وهي فتاة رومانية. وكانت هذه الفتاة التي تدعى آنّا جديدة على هذه اللعبة. وقد قال إنه يظن أنه تمكّن من كسر تحفظها. طلب ليو وصفاً للفتاة، وحصل على ما كان يخشاه: كانت الفتاة تضع عدة أقراط في ثقوب في أنفها، كما كانت تخضع لمراقبة دائمة من سيّدتها اليوغوسلافية.

قلتُ له: «ليست هي بالتأكيد! يُحتمل وجود المئات من أولئك الفتيات المسكينات في كل مرفأ. وعلى أي حال، إن هانز لا يستطيع التفريق بين الفتاة الرومانية والروسية». لكن صوتي كان مترافقاً مع شيءٍ ما، مثل بحة أو غصة، فبدا يائساً...

قررنا أنا وليو العثور على مكان إقامة بيتر. وكان قد سبق لبيتر أن أعطاني اسم المكان الذي يقطن فيه، لكن ليو عثر على العنوان في قاعدة بيانات الجامعة. غير أن ذلك لم يأتِ بفائدة كبيرة لنا؛ لأن المجمّعات السكنية الاثني عشر كانت متماثلة بشكلٍ يصعب معه العثور على المجمّع السكني 14. لكنّ المراقب المحنّك يستطيع تقرير ذلك من آثار العفن والواجهات المنهارة، أي يستطيع تمييز المجمّع الذي تمّ تشييده قبل غيره؛ بالطريقة ذاتها تقريباً التي يستطيع فيها أحد الخبراء تقرير نضوج أنواع الجبن الزرقاء المختلفة، فيما يستحيل ذلك على الإنسان العادي.

ركن ليو سيارته في مرأب المجمّع السابع، وأنزل منها صندوق صويا سلامي. «سترى أنها تتوهج في الظلام؛ لأن حقول الحبوب الزراعية تقع في طريق الرياح التي تهب من تشيرنوبل». لوّح ليو بعصا مرقطة بلون الجلد من نافذة سيارته، وطلب مني الصعود إلى الطوابق العلوية.

رأيت المصعد عند مدخل المبنى رابضاً في حجرته. ضغطت على الزر، لكن لم يحدث أي شيء. وهكذا، تعيّن عليّ الصعود إلى الطابق الثامن على الدرج. كان إسمنت الدرج خشناً ومفتتاً، وهكذا تحوّل بيت الدرج إلى دوامةٍ تمازجت فيها أصواتٌ متقطعة وغير متواصلة تجمع بين أصوات الناس، وصراخ الأطفال، وأصوات برنامجٍ تلفزيوني واحد عند كل طابق. كانت الجدران مليئة بالرطوبة، وسمعت حولي أصداء قطرات المياه المتساقطة. سقطت إحدى تلك القطرات على شفتي العليا، وكانت بمذاق الخل والطبشور.

وصلت إلى الطابق الثامن، وتوقفت كي ألتقط أنفاسي. ملأت رائحة تشبه رائحة الكرنب المغلي ثلاث مرات الممر بأكمله، ولكنها كانت أفضل من رائحة فضلات الكلاب والحطام المهترئ التي ميّزتها أثناء صعودي. عثرتُ على الباب، ورأيت بطاقة مربعة يغطيها شريطٌ لاصق، وقد طُبِعت عليها الكلمات التالية:

رومانو، بي.

مورانو، أو.

قرعت الباب، لكن لم يردّ عليّ أحد، وهكذا انتظرت. انحنيتُ إلى أسفل الباب فسمعت وسط الظلمة قرقعة بعض المفاتيح، وكذلك أصوات خطوات تصعد إلى هذا الطابق. ثم ظهرتْ من بيت الدرج الدكتورة أوتيليا مورانو الآتية من المستشفى بوجهها الشاحب والمُتعب، وبردائها الطبي الذي كان أبيض ذات يوم، وحذائها ذي الكعب المسطّح. كانت أوتيليا تحمل مصباحاً بيدها، ولكنها بذلت جهداً للوقوف ما إن رأتني، وسلّطت ضوء مصباحها على وجهي.

أسرعت الدكتورة نحو الباب، وأبقت ضوء مصباحها مسلطاً على وجهي وهي تسألني: «مَن أنت؟».

فأجبت باللغة الإنكليزية: «التقينا في المستشفى».

عندها، تراجعت المرأة عند المدخل وقالت: «ابتعد عني».

«لقد كنتِ الطبيبة المناوبة المشرفة على علاج صديقتي وزميلتي روديكا في تلك الليلة الرهيبة».

ارتاحت أوتيليا على الفور: «تلك الليلة الرهيبة! أتعني تلك الليلة العادية والمنتظمة في مستشفى روماني، والذي صدف أن زرتَه ذات مرة؟».

كانت الشقة ضيّقة، وتتألف من غرفة صغيرة كانت غرفة جلوس ومطبخ في

الوقت نفسه حيث وُضِعت المائدة، وإلى جانبها حمام، وغرفة نوم. أضاءت أوتيليا مصباحاً يعمل على الغاز، فتخيّلت أن السقف يكاد يسقط علينا، وأن الجدران تنكمش بفعل ألسنة اللهب غير الثابتة. ضغطت الطبيبة على أزرار المصابيح الكهربائية، وذلك تحسباً لعودة التيار الذي كان مقطوعاً في ذلك الوقت.

سألتني أوتيليا: «هل تفضّل الشاي أم الماء؟». وأشعلت بعد ذلك فرناً موصولاً بقارورة من غاز البيوتان. رأيت بعد ذلك علبةً من الأسماك المعلبة المستوردة من كوريا الشمالية، وإلى جانبها نصف رغيف من الخبز مغطى بقماشٍ مبلّل. جلست الطبيبة على مقعد مرتفع أمام طعامها، بينما جلستُ أنا على الأريكة التي تُستخدَم كسرير، وذلك بعد أن أفسحت مجالاً للجلوس عليها حين أبعدت الأغطية المطوية والوسادة جانباً. رأيت صندوق قيثارة ومضخّم صوت معلّقَين على الجدار.

«ألم يعد لأخذها؟».

كانت أوتيليا جالسة وقد أدارت ظهرها إليّ، بينما أسندت مرفقها على الطاولة. وكانت شوكة الطعام عالقةً بين أسنانها. كانت السمكة بلون الصدأ البحري، كما أن رائحتها ملأت الغرفة.

«كلا. لم يرسل أي خبر عنه، ولم يسمع أحد أي كلمةٍ منه».

«كنت هناك، ولم نرَ أي أثر يدل على أنه يفكّر في الرحيل. وفي الواقع، لقد عاد إلى داخل رومانيا».

عندها، نظرت أوتيليا إليّ مندهشة وسألتني: «ماذا كنتَ تفعل معهم وأنت مجرد سائحٍ هنا؟ آسفة... » ثم حاولت تلطيف كلامها فقالت: «أقصد أنك زائر».

شرحت لها حقيقة الموقف، ثم سألتها عن علاقتها ببيتر.

«إنه أخي غير الشقيق، أي أننا من والدَين مختلفين. وُلد بيتر عندما كنت في الرابعة من عمري، ونشأنا معاً». تطلعتْ إلى عينيّ مباشرة وأضافت: «لم يقل لي شيئاً عنك».

«يُحتمل أنه لم يفعل، ولكننا صديقان. أعني، إنني أتمنى أن نكون كذلك».

دفعني حافزٌ ما إلى عدم صياغة العبارة بصيغة الماضي. أحسّت أوتيليا بذلك على أية حال، وهو الأمر الذي أوحى إليها بصيغة الماضي. لذا، توقفت عن تناول الطعام، ثم أسندت رأسها بين يديها.

«إنني قلقة لأنني لم أسمع أي شيء عنه. فهو لم يرسل رسالة، ولم يتصل، لا شيء. لم يعد هناك أي شخصٍ من رفاقه يمكننا التحدث معه. فقد غاب بيتر منذ ذلك اليوم عن الصفوف، وكذلك عن التمارين التي لم يتغيب عن أي منها من قبل قط، كما أن صديقه فينتول قد اختفى أيضاً».

«ما الذي تعتقدين أنه حدث؟».

«أعتقد أنه ألقي القبض عليهما. لكن، إذا كان ذلك صحيحاً لكنّا قد تسلمنا شيئاً ما، مثل رسالةٍ ما، أو أي خبرٍ آخر. لكن الأهم من ذلك كله هو الانتقام من أصدقائه وأفراد عائلته؛ مثلي أنا على سبيل المثال. لكن لم يحدث أي شيء. على أية حال، من المُستبعد أن يغادر بيتر البلاد، أي مثلي أنا».

جلستْ لدقيقة من الزمن من دون أن تقول شيئاً، ثم تابعت: «كان يترك لي رسائل في المستشفى على الدوام... » ثم سكتت الطبيبة عن الكلام، ولم يكن هناك مجال آخر أمامها غير الظلمة التي تبقيها في مكانها. وضعت أوتيليا شوكتها جانباً، ثم فتحت سلة النفايات ورمت فيها العلبة، فترددت أصداء

ارتطام العلبة بالسلة الأسطوانية في أرجاء الغرفة. بدت الطبيبة مهزومة.

«كنت أخشى أن يحدث هذا. وقد سبق لي أن قلت له: أرجوك، توقّف عمّا تفعله، أو ارحل إلى الأبد. ولكنه طلب مني ألا أقلق، وقال لي إنه لن يرحل أبداً، وإنه يتمتع بالحماية. كان يقول لي دائماً إنه يوجد نوعان من الناس: أولئك الذين خسروا أنفسهم في المنفى، والناس الذين حققوا ذواتهم. كان يعرف أنه سوف يخسر ذاته، وكنت أعرف أنه لن يرحل أبداً».

«ما الذي كان يعنيه عندما قال إنه يتمتع بالحماية؟».

«سألته ولكنه لم يجبني أبداً. لكن، مَن الذي سيقدم له الحماية؟».

وضعتُ ذراعي حولها، وشعرتُ بكتفيها النحيلتين تحت كنزتها، كما شعرت بحزام حمّالة صدرها الضيّق الذي يضغط على جسدها. كانت رجلاها متورمتين، ويداها ضعيفتين وخشنتين. مرّرت إصبعي فوق أظافرها التي تعرّضت للقضم. كانت بشرتها حمراء ومتقشرة، أما وجهها فكان نحيلاً ومتجعداً. حاولت أن أتصورها عندما تكون سعيدة، وعندما تنال قسطاً كافياً من النوم والغذاء. كان هناك شيء يوناني فيها، بعينيها البنيتين الداكنتين، وعظام خدّيها العاليين، وشعرها الكثيف والمُجعّد الذي رفعته إلى الخلف بواسطة دبوس مونوكوم، والذي ظلت خصلاته رغم ذلك مرفرفةً فوق عينيها. كان جمالها يبدو مكبوحاً بشدة.

قدّمت لها بريقاً من الأمل، وقلت لها إن بيتر يختبئ في مكانٍ ما تحت الأرض، أو غادر البلد وينتظر الوقت المناسب لإجراء اتصال، أو أنه يبحث عن قيثارات في شارع كارنابي... كانت الطبيبة لطيفة بما يكفي لتومئ برأسها مرة أو مرتين، ولتضغط بأصابعها على أصابعي أثناء حديثي.

كان تحضيري الشاي أمراً بريطانياً بديهياً. راقبتها فيما كانت المياه التي سأعد

منها الشاي تصل تدريجياً إلى مرحلة الغليان؛ إذ كانت جالسة على الأريكة، وقد طأطأت رأسها وقرّبت ركبتيها من جسدها بتوتر. سكبتُ الشاي في كوبين. بعد ذلك، نهضت أوتيليا وسوّت ثيابها، ثم توجهت إلى الحمّام. وبعد لحظات، سمعتُ صوت تدفق المياه من الصنبور. عادت بعد مرور دقائق قليلة حافية القدمين، ومرتدية فستاناً ريفياً ملوناً ومصنوعاً يدوياً، وكان شعرها يسقط حيثما يريد. لاحظت أنها فركت خدّيها فعادت الحياة إليهما، كما ابتسمت واثقة من نفسها، وتناولت زجاجة من الشراب، وتجرعت منها جرعة، ثم مسحت فمها بظاهر يدها.

«يتعيّن عليّ أن أعمل الآن، إذ عليّ تحضير بعض الأشياء ليوم غد؛ وهي ملاحظات عن عدة حالات، والتي لا يقرأها أحد، ثم سأنام. شكراً لمجيئك. سأبلغك إذا سمعتُ شيئاً».

سألني ليو ما إن عدت إلى السيارة: «حسناً، ماذا عرفت؟». ولكنه عندما لاحظ أنني جفلت لدى دخولي السيارة أضاف: «آسف، سوف تزول هذه الرائحة الكريهة عندما تسير السيارة. أعتقد أن السبب هو صويا السلامي هذه».

أصغى ليو إلى ما حدث عند لقائي أوتيليا؛ وذلك بعد مرور نسمات الهواء عبر نافذة السيارة المفتوحة، ولكنه لم يقل شيئاً. كرّرت الأشياء ذاتها، لكن بكلماتٍ مختلفة، وذلك اعتقاداً مني بأنني سوف أضيف إليها معنى جديداً.

قال ليو: «حسناً، حسناً. فهمت ما تقصده. لكن، دعني أفكّر للحظة».

لم يقل ليو شيئاً حتى بعد مرور عشر دقائق، فسألته: «ليو، ما الأمر؟ أعرف أنك تفكّر في شيءٍ ما. أخبرني بما يجول في رأسك».

«لن تحبّ ما سأقوله الآن. لكن، اللعنة. يُحتمل أنني مخطئ على أية حال، ولكنْ إذا كنتُ محقاً، فإنك لا تتحمل وزر هذا الخطأ بالفعل، بل إن ذلك من

مسؤولية النظام اللعين. دعني أوضح لك: لقد عرّفتَ بيتر على سيليا، أليس كذلك؟».

فأجبت من دون أن أدرك مغزى السؤال: «أجل، لكن فقط في تلك الليلة». كنت متعباً؛ وهو الأمر الذي جعلني أكثر صراحة.

«تعتبر تلك المرة الوحيدة كافيةً هنا. إذاً، لقد التقيا، ولكن كان من الواضح أنهما لم يرغبا في التحدث مع بعضهما بعضاً، وذلك في فندق الانتركونتيننتال. كما أن ذلك حدث أمام نيقو تشاوشيسكو، ومانيا كونستانتين، وإيون ستويكو، ومجموعة أخرى من الانتهازيين، والأشرار، والجواسيس، وأعوان كل هؤلاء والذين لا نعرف عددهم. إنها ابنة زعيمٍ كبير في الحزب، أما هو... ماذا؟ طالب واقعٌ في مأزقٍ كبير لا فكاك منه. بعد ذلك بعدة أيام، يذهب بيتر وفينتول في مهمة قاما بمثلها عشر مراتٍ من قبل، ثم يختفيان فجأة».

تحوّل الأمر الآن إلى ما يتجاوز الإمكانية، بل أصبح وارداً. أحسست بذلك في داخلي، وزاد ذلك من شعوري بالضيق، ومن شعوري المبهم بالذنب الذي كان قد امتد لعدة أسابيع. لكن الأمر أصبح واضحاً الآن بالكامل، وهو شعورٌ راح يُطبق عليّ بشدة: حدث شيء ما، ومن المرجّح أنني سوف أتحمّل مسؤوليته.

بدأ ليو بالتراجع، وقال: «أنت لا تعرف، ولا أحد يعرف أي شيء بالتأكيد هنا». وكان في قوله هذا إشارة مؤكدة إلى أنه أصاب الشابين شيء ما. «توجد مجموعة كبيرة من الأسباب التي تدفعنا إلى الاعتقاد باحتمال إلقاء القبض عليهما. وهناك مجموعة كبيرة من الوسائل التي تسمح للسلطات بمعرفة مكانيهما».

كان ليو يقود السيارة ببطءٍ شديد، لدرجة أن أحد رجال الشرطة أشار لنا بالتوقف إلى جانب الطريق، ثم طلب أوراقنا الثبوتية. لم يُبادر ليو إلى الثرثرة أو التملّق، بل كان جدياً، وأظهر كل التعاون. تفحّص الشرطي أوراقنا، ثم أشار لنا

لمتابعة السير وسط دهشته. إذ كان يعرف سمعة ليو، ولذلك انتظر منه شيئاً أكثر حيوية، مثل تقديم رشوة كبيرة، أو حتى قول نكتة مبتذلة.

«سأُنزلك أمام شقّتك. أريد منك أن تنسى الموضوع الآن. اترك التفكير فيه، ولا تناقشه مع سيليا مهما كانت الظروف. سأرى ما الذي يمكنني معرفته عن الأمر».

الفصل الثالث عشر

كانت ذكرى الباستيل في الرابع عشر من شهر تموز. وهو اليوم الذي يستعد فيه الأجانب للحفل الكبير الذي تقيمه السفارة الفرنسية. وكان الشخص الوحيد الذي رفض تلبية الدعوة هو الأميرة، والتي كانت ترسل الرسالة ذاتها في كل سنة. وقد كانت رسالتها تبدأ على الشكل التالي: «أتقدّم بالشكر إلى سعادة السفير لدعوته اللطيفة، لكن يجب عليه أن يعلم أنني لا أعتبر الرابع عشر من شهر تموز مناسبة تستحق الاحتفال بها... » ثم تمضي الرسالة بالحديث المفصّل عن التاريخ الطويل للمجازر التي قامت بها الجمهورية، ونقاط فشلها. أعتقد أن أي شخص يسير في باحة الجمهورية في بوخارست في الرابع عشر من تموز من العام 1989 كان سيوافقها الرأي. لكن، رغم صفوف الانتظار الطويلة التي تظهر يومياً، والنقص في المواد الغذائية، وانتشار قوات الشرطة والقوى الأمنية في كل مكان، كان المكان أكثر براءة وهدوءاً من المعتاد.

كنت على وشك الوصول إلى الجامعة حين أدركت السبب. إذ كانت الشوارع مليئة بالناس الذين يحملون آلاتٍ كاتبة. لم يكن ذلك عملاً سهلاً على الإطلاق؛ إذ كانت معظم تلك الآلات قديمة ومصنوعة من الحديد؛ وهي آلات مجهزة بمفاتيح بايكلايت طويلة ونافرة، وقد تم الحفاظ على جماليتها بفضل نظام متقن. شاهدت في هذا الوقت رجلين يحملان آلة كاتبة كهربائية من مكاتب شركة تاروم، وكانت بحجم فيلٍ صغيرٍ حديث الولادة. أما موظفات المكتب فقد وقفن في الخارج بأظافرهن المطلية، وشعرهن المسرّح والنظيف، وبدا عليهن الحزن بينما كانت تلك الآلة الشبيهة بالوحش تُنقل إلى شاحنةٍ تقف في الانتظار.

عُرِفت تلك الخطة باسم يوم الآلات الكاتبة، وكانت مناسبةً سنوية تهدف إلى حفظ سجلات أي آلة قد تُستخدم في إعداد منشورات المنشقّين، أو المنشورات السرية. لكن، إذا كان الأمر كذلك، فإنّ طريقة تتبّعها ستكون متعبة؛ أي إرسال عشرات الموظفين إلى مختلف أنحاء المدينة لفحص الآلات الكاتبة. وهو الأمر الذي سيستغرق وقتاً وتكلفة إدارية هائلَين. لكنّ هذا لا يُعتبر قمعاً يأتي رداً على فعل ما، بل قمعاً استباقياً. سبق أن أخبرني ليو عن أرشيف خطوط اليد الوطني، وهو من بنات أفكار إيلينا تشاوشيسكو. كان ذلك الأرشيف يتضمن النسخة الآلية، وإدخال الدمغة، والميلان لكل مفاتيح الآلات الطابعة الموجودة في البلد. وقد سرت دعابة قديمة مفادها أن البروفيسور الدكتورة السيدة تشاوشيسكو قد استثمرت جهداً كبيراً في أبحاث التخاطب عن بُعد، وذلك من أجل إقامة أرشيف تُسجَّل فيه لكنة المرء وترددات أفكاره.

توجّهت إلى غرفة الموظفين لإعداد القهوة؛ وهو تصرّف عفوي ولا إرادي يفرض نفسه أحياناً نتيجة وجودٍ سابق؛ وذلك لأنه لا وجود أبداً لأي بنٍّ، كما أن الموقد معطلٌ منذ زمن طويل. أما الآلة الناسخة فمعطلة بشكلٍ دائم؛ وهي آلة ثقيلة وغريبة التصميم من صنع ألمانيا الشرقية، وقد تم اختيارها اليوم للعمل مجدداً. رأيت حشداً صغيراً متجمعاً في المكان؛ وكانت حالة الآلة التشغيلية نوعاً من أنواع الأسطورة الحضارية بالنسبة إليه. كان الحشد يراقب بدهشة ما يجري أمامه. بدأت الآلة بالعمل ساحقة ورقة هشّة، ثم لفظتها قبل أن تتوقف عن العمل.

رأيت ملاحظة معلقة على باب مكتبي من البروفيسور يونيسكو، وأفادت بأنه يطلب مني زيارته. كان الرجل عصبياً بعض الشيء، ورأيت أمامه طاولة مغطاة بطبقةٍ من الغبار على شكل مربع يحيط بالمساحة التي كانت الآلة الكاتبة تشغلها.

قال لي: «اذهب من فضلك إلى مرأب السيارات التابع للجامعة، إذ ينتظرك هناك أحد الأشخاص».

سألته: «مَن؟». كان الهدوء عند يونيسكو إشارة شؤم. «هناك شخص يريد مقابلتك. فقد طلب نائب الوزير مانيا قسطنطين مقابلتك. لا أعرف سبب طلبه هذا، وربما لن أبقى هنا طويلاً لأعرف السبب. إذ يُحتمل أن أنضمّ إلى فريق عمل الحراس. اذهب الآن من فضلك».

رأيت في الخارج سيارة مرسيدس سوداء اللون تحمل لوحة تسجيل تابعة للحزب. خرج من السيارة شابان مبتسمان، وقد ارتديا ملابس أنيقة، وتفوح منهما رائحة عطور فرنسية توضع بعد الحلاقة. كان الشابان مهذّبين أيضاً؛ وهذه علامة تثير القلق بدورها.

قال أحد الشابين بلهجةٍ حازمة ولكنها خالية من التهديد، وتصدر عادة عن أولئك الذين ليسوا بحاجة إلى استعمال التهديد: «أيمكنك أن تأتي معنا؟ أنت مدعو لمقابلة أحد الأشخاص». فتساءلت عمّا إذا كان الشابان يعرفان الصورة النمطية التي كانا يمارسانها. لكن، بالنظر إلى السوق السوداء التي تظهر كثيراً في أفلام العنف الأميركية، وفي مسلسلات المافيا، بدا لي أنه من المحتمل أنهما يعرفانها: حارسان قابعان في سيارة ليموزين سوداء اللون، ويقدّمان لي عرضاً لا يمكنني رفضه.

«سيكون ذلك رائعاً. لكنني أعمل الآن، ولديّ محاضرة يجب عليّ أن ألقيها».

فقال الشاب الآخر وهو يشير إلى داخل السيارة الفخمة: «لا تقلق، كل شيء على ما يرام. فقد قمنا بترتيب كل شيء مع البروفيسور المسؤول عنك. والآن، تفضّل بالدخول لو سمحت. سنعيدك إلى هنا بعد الغداء». كان زجاج سيارة الليموزين داكناً، كما أن الهواء داخل السيارة المكيّفة كان بارداً جداً، ويقارب

درجة الحرارة في مشرحة مستشفى. كان هذا ما فكّرت فيه بينما راحت أسناني تصطكّ بفعل الحرارة المنخفضة.

لم نقف عند أي حواجز أثناء دخولنا باحة مبنى وزارة الداخلية. وبعد أن ركن الشابان السيارة، سرنا معاً إلى ردهة المبنى.

اصطحبني الشابان إلى الطابق العلوي، وأدخلاني غرفة فسيحة جدرانها خالية وذات سقفٍ عالٍ، وبدا هناك شعار المطرقة والمنجل بشكلٍ نافر. رأيتُ طاولةً واحدةً، ولوحاً كبيراً من الزجاج السميك والمقوى موضوعاً على حاملَين رخاميين، وقد بدت خلفهما الواجهات الفرنسية التي تحيط بها - حسب ما جرت العادة - لوحات تمثّل آل تشاوشيسكو. وقف الشخص الجالس وراء الطاولة ماداً يده بالتحية؛ إنه مانيا قسطنطين، نائب وزير الداخلية. كان مرتدياً بذلة بلون الفحم، وقميصاً من «ماركة» سافيل رو باللون الأزرق الداكن الذي يُميّز سماء أمسية شتائية. رأيت عدة صحف فوق أحد أطراف الطاولة، وآلة تحضير القهوة السريعة في وسط الطاولة تماماً، كما رأيت عدة مجلات أجنبية في كومة عشوائية إلى جانبها. شاهدت كذلك مِرذاذ عطر من «ماركة» سينور ريشي، والذي يبلغ سعر قارورة واحدة منه ثلاثين جنيهاً استرلينياً في متاجر السوق الحرة، ويُستخدَم بوصفه كولونيا، ومُعطراً لهواء الغرفة.

رأيت في مكتبٍ مجاور مساعدتين منهمكتين بالطباعة. كانت إحداهن مربوعة القامة وتبدو كسيدة، بينما الأخرى نحيلة وجميلة وتحمل شبهاً كبيراً مع سيليا؛ لدرجة أنني اضطررت إلى النظر إليها مجدداً كي أتأكد من أنها ليست هي. التفتت الشابة نحوي وابتسمت، ولكنها بدت كسيّدة تعيش في كنف رجل قوي ذي هيبة.

قال الرجل بمرح: «يمكنك أن تدعوني مانيا». صافحته بيدي المتعرقة، بينما وقف

إلى جانبَيَّ مرافقان قويان. تابع مانيا كلامه: «اعتقدتُ أنه يمكننا تمضية فترة الصباح معاً... لنتعرّف إلى بعضنا بعضاً. فأنا أحب أن أتعرّف على أصدقاء ابنتي».

فقلتُ له مُصحِّحاً: «أنت تعني الذين كانوا أصدقاءها. فأنا لم أتكلم معها منذ شهر، كما أنها امتنعت عن الرد على اتصالاتي».

غير أنه قال متجاهلاً كلامي: «ولكن، ينبغي أن نحلِق أولاً». لم أكن قد توقّعت تمضية فترة الصباح هكذا.

نقلتنا السيارة عبر طرقات مزدحمة بالسيارات. ولكنّ السائق تجاهل إشارات السير إلى أن وصلنا إلى فندق الانتركونتيننتال. عندها، بدأت أشعر بأن لعنةً ما تحيط بهذا المكان، وأن لعنةً ما تُعيدني إليه على الدوام. أنزل المدير بعض الأمتعة على الأرض، فارتطمت بها بصوتٍ مسموع، ثمّ اصطحبنا إلى مركز التجميل التابع للفندق؛ حيث كان هناك حلاقان بانتظار وصولنا.

جلسنا جنباً إلى جنب، بينما أخرج الحلاقان مناشف وشفرات ساخنة. لكن مانيا قسطنطين تحدثّ معي وهو ينظر إليّ عبر صفحة المرآة. غير أنني استمررت في إدارة وجهي نحوه، إلى أن ثبّت الحلاق وجهي. ويُضاف إلى ذلك أن الشفرة كانت حادةً جداً حيث إنها لا تؤلم عندما تجرح. على الأقل، لم أدرك أنني جُرِحت إلى أن رأيتُ الدماء. كانت الشفرة ساخنة والفولاذ الرفيع فيها ناعماً، أي أنّ انزلاقها على الجلد المبلل قد يكون قاتلاً. امتلأت عيناي بالدموع عندما رفع الحلاق أحد منخريّ، ثم أدخل الشفرة في فجوته، وكبحتُ عطسةً كادت تنطلق.

قال مانيا وكأنه يريد أن يطمئنني: «اعتاد فلاد الجزّار على شق مناخير أعدائه، وهكذا كانت تتطاير مثل قطع قماش في الهواء».

رشّ الحلاق على رأسينا وعُنقينا بعض الرذاذ الحاد الممزوج برائحة المنتول، ثم

بدأ بتمسيد رأسينا على الطريقة التركية. شعرت وكأن جلد جمجمتي يتعرّض للتقشير وتغيير اللون، غير أنني شعرت بعافيةٍ بدنية عالية.

كان قسطنطين معتاداً على الحديث إلى الآخرين وهو ينظر إليهم عبر المرآة، كما كان يستمتع برمزية هذا الحديث. إذ كان كل شيءٍ معكوساً عندما يتكلم مع صورتي المنعكسة على صفحة المرآة، كما أتحدث أيضاً إلى صورته المنعكسة. كان رجلاً ذكياً، ومحافظاً رشيقاً. نسيت في غمرة حديثنا أنه قد يكون فاسداً مثل المسؤولين الآخرين، وقاسياً مثلهم. كما أنه - وبكل تأكيد - تماماً مثل ابنته. فقد امتلك الرجل القدرة على النأي بالنفس عن كل الاتهامات الموجهة ضدّه، وكذلك القدرة ذاتها على إظهار عدم الاكتراث إزاء المسؤوليات. لكنّ الفرق بينهما هو أن سيليا تتمكن من إبعاد نفسها عن كل شيء، في حين أن مانيا يتمكن من تنفيذ ما يريده. سألتُه عمّا كنتُ قد رأيتُه في الجامعة للتو، وعمّا يمكن أن يحدث مع يونيسكو.

«أتعني استعراض فترة بعد الظهر، الآلات الكاتبة... ؟» ثم ضحك قليلاً، وتابع: «لقد تحوّل ذلك إلى تقليد في هذه الأيام؛ أي مثل الرقص الشعبي وحياكة السلال. لكن ذلك لا يتعلق بي إطلاقاً؛ لأن الأوامر تأتي من السلطات العليا. أما بالنسبة إلى وضع صديقك البروفيسور فإنه من مسؤولية الرفيق ستويكو، وأنا لا أتدخل في شؤونه. كيف تعبّرون عن ذلك في إنكلترا؟ أنا لا أدوس في حقله».

فسألته: «وماذا بشأن أرشيف الخط الوطني؟». غير أنّه قاطعني بضحكة مدوية وقال: «أجل، سمعت عنه أيضاً. وأؤكد لك مجدداً أن ذلك من اختصاص الرفيق ستويكو. لكن الأرشيف ما هو إلاّ مبادرة غبيّة ومكلفة. أعتقد الآن أنك ستسألني عن الأبحاث الجارية في ما يتعلق بمسألة التخاطر عن بُعد... ».

استرخى مانيا في جلسته قليلاً، ولم نقل شيئاً بعد ذلك إلى أن بدأ الحلاقان

بتنظيف الشعر عن ياقتَي قميصيْنا.

«والآن، سوف تكون ضيفي في مطعم بوليتبورو في سناغوف».

وصلنا إلى المطعم بعد ثلاثة أرباع الساعة. وقد عبرنا في جولتنا هذه بسهولة بعض الطرقات التي تناثر فيها الركام. ولو كنا في سيارة ليو وهي من نوع سكودا، فلا بد أن الرحلة ستكون شاقة ومثيرةً للتوتر. أما في سيارة الليموزين التابعة للوزارة والخاصة بمانيا، فقد كان ذهابنا إلى المطعم أشبه ما يكون برحلة على متن أحد أنواع السيارات التي كانت تظهر في الخمسينيات، بينما تمر المناظر الطبيعية من أمام الزجاج الداكن.

تمتد القرية الاشتراكية في سناغوف على مساحة عشرين «آكر» مسيّجاً، وتشتمل على مجمعٍ من المنازل والمنشآت الفخمة، وهي كلها مخصّصة لأهم الشخصيات من مسؤولي الحزب، وتشتمل على نوادٍ صحية، ونوادٍ رياضية، وحمّامات الساونا، ومراكز العناية بالجلد وتأخير الشيخوخة. كانت نوافذ تلك المنشآت مزودة بزجاج داكن، وتبيع جميع أنواع السلع الكمالية والأطعمة الفاخرة وآخر موديلات الثياب. أما زوجات أعضاء اللجنة المركزية في الحزب، فكان باستطاعتهن التسوّق وتناول الطعام بينما يركب أولادهن الدراجات النارية، وذلك قبل مشاهدة أفلام العنف الأميركية التي تعرضها دور السينما. كانت هذه المنطقة تختلف كثيراً عن بوخارست ذاتها بترتيبها وجماليتها، ولذلك فهي تقع في مرتبة وسطى بين سويسرا وفلوريدا، أي أنها بمثابة ستارٍ حديدي.

لكن الشبان الصغار هم الذين خفّضوا معدّل الأعمار في هذه المنطقة؛ فقد كانوا يسيرون فتياناً وفتيات بصفوفٍ متراصة، مرتدين أزياء موحدة. كما كانوا من المتطوعين الصغار التابعين لشبيبة الحزب. مشوا بخطوات منتظمة حاملين على ظهورهم حقائب صغيرة، وفي أيديهم بوصلات، ويضعون قوارير مياه حول

أعناقهم. مشى الفتيان بخطوات متناسقة، وأنشدوا الأناشيد البطولية، وساروا مثل كتائب التيتان الشيوعية بإيقاع الطفولة الآلية. مرّ أحمق بمحاذاة الصفوف على متن دراجة نارية من طراز فيسبا، وكان يضع على وجهه نظارة من ماركة راي بان، فيما ارتدى كنزة من ماركة لاكوست.

شرح لي قسطنطين: «هذا هو مجمّع اللجنة المركزية؛ بالرغم من أن بعضنا يفضّل العيش في المدينة. أعتزم استضافة وفد من مكتب الشؤون الخارجية من بلدك في شهر كانون الأول في هذا المكان، كما أعتزم توجيه دعوةٍ لك».

فكّرت في سرّي: شكراً، شكراً جزيلاً لك. هذا هو عيد الميلاد الذي أنتظره وأحتاج إليه. ستراني واقفاً وقد ارتديت بذلة، بينما رؤساء الحزب الروماني يختلطون مع الدبلوماسيين وتجار الأسلحة من ذوي السمعة السيئة، ثمّ سيقوم نائب الوزير الذي ينتمي إلى حزب المحافظين بعقد صفقات سلاح سرية معهم. أجبتُ باللّغة الرومانية، محاولاً أن تكون لهجتي ساخرةً قدر الإمكان: «سأسجّل هذا في مفكرتي». جاءت عبارتي بلكنة صعبة بالنسبة إلى لغةٍ أجنبية. لكن الأسوأ هو معرفتي باحتمال مشاركتي في كل ما سيحدث.

اصطحبنا المسؤول إلى طاولتنا في غرفة طعام على الطراز الحديث. لكن هذه الغرفة كانت مختلفة عن الغرفة في كابسيا في أنها فسيحة وفخمة. كما اختلفت في اشتمالها على قائمة طعام متنوعة وكبيرة، وقائمة شراب مدهشة. كان كل شيء متاحاً بسهولة؛ بدءاً من المحار إلى الحيوانات البرية، فضلاً عن مختلف أنواع الشراب. بدا لي أن النُدل تم إحضارهم من أكاديمية دفاعية. ويُحتمل أيضاً أنهم يعملون كمظليين مستعدين للدفاع عن كبار المسؤولين في الحزب في حال حدوث تمردٍ ما. لكنّ ما أدهشني بعد ذلك هو مشاهدتهم أثناء اعتقالهم؛ عندما وقع ذلك الانقلاب بالفعل.

رأيت في زاوية الغرفة مجموعة من كبار ضباط الجيش. تحدث الضباط بصوتٍ عالٍ، بينما كانوا يُفرغون زجاجات الشراب بسرعة كبيرة؛ حيث إن الزجاجات كانت بالكاد تلامس أغطية الطاولات. طلب قسطنطين أحد أنواع الشراب، فتم إحضار زجاجة الشراب بالإضافة إلى كأسين تحملان شعار الحزب. أما أنا فقد اكتفيتُ بشرب الكولا. بدت الموسيقى الهادئة التي صدرت عن مكبرات الصوت وكأنها صوت أورغ يُصدِر موسيقى حزينة، وإنما بسرعة تبلغ ضعفاً ونصفاً من السرعة العادية.

قال لي قسطنطين مشيراً إلى منطقة تقع وراء الشرفة الحجرية: «هذا هو قصر الرفيق الأول هنا». رأيت أسفل القصر مراكب صغيرة بدواسات، ومراكب نزهة أخرى وهي تجوب مياه بحيرة زرقاء وصافية. وشاهدت وراء هذه المنطقة، وعلى مسافة بعيدة قمة برج كانت تحوم حوله طائرة هليوكوبتر. قلت مندهشاً وأنا أشير بيدي: «يبدو أنه وصل إلى منزله». فقد امتلك تشاوشيسكو واحداً وأربعين منزلاً، وواحداً وعشرين قصراً. وكلٌّ من تلك المنازل والقصور مجهزٌ بفريق جاهزٍ للتحرك. يُحتمل أيضاً أن كل واحد من تلك القصور والمنازل مجهزٌ بطائرة هليوكوبتر تحوم حوله. أضفتُ قائلاً: «سمعتُ أيضاً أن نيقو يعيش بالقرب من هنا».

وضع قسطنطين كأسه جانباً ما إن سمع باسم نيقو، ثم مسح فمه بمنديل ورقي يحمل شعار المطرقة والمنجل. تحرّك أحد النُدُل قربه، إلا أنه لم يلتفت.

«أتعني الابن المفضل عند الرفيق الأول؟ أجل. إن وزيرنا للشباب والرياضة شابٌ مضطرب، غير أننا تعلمنا كيفية التعامل مع مشاكله الشخصية. لكن، يبقى عليه أن يفعل شيئاً... ».

خرج الناس لإلقاء التحية على مانيا عند مروره، فتعرفت على وجوه بعض

الأشخاص الذين اعتدت رؤيتهم في متاجر الحزبيين النافذين والمطاعم، وفي زمرة الذين يجتمعون في النادي الليلي ووزارة الخارجية. تبادل مانيا الأحاديث مع بعض الأشخاص بصوتٍ منخفض، أو لعله سجّل أوقات الاجتماعات وتواريخها في مفكرته الحزبية. بدا لي أن مانيا يتمتع بشعبية كبيرة، وخطر في ذهني أنه ربما لا يكتفي بالاعتماد على سلطته لإنجاز الأشياء التي يريدها، بل يعتمد على شيءٍ قريبٍ من الإخلاص والروح الرفاقية. وفكّرت أيضاً في أن الأشخاص العاديين الذين يتحدث معهم لا يقلّون أهمية عن سواهم بالنسبة إليه، كما كان يعامل الموظفين بكل لطفٍ ومودة؛ وذلك بالرغم من أنه لا يفرّط بهيبة مركزه سواء أكانت ظاهرة أم مستترة.

انضمّ ستويكو إلى طاولة الضباط، ولكنه أومأ قليلاً نحو مانيا بكل تكلّف وبرودة، ثم جلس على مقعده. لم يُظهر ستويكو أي إشارةٍ تدل على تعرفه إليّ من الليلة التي تواجدنا فيها جميعاً مع الصربيين. ولكن، كان من المستحيل معرفة ما تخبئه تانّك العينان الخبيثتان الغائرتان في كتلة من اللحم، فهما تخفيان أي تعبير قد يظهر على وجهه. اقترح ستويكو شرب نخب: «هذا للرفيق!». وكان ذلك يعني أنه يتعيّن على الجميع النهوض. وإذا شوهد أحدهم ممتنعاً عن شرب النخب فإن ذلك سوف يثير الكثير من التعليقات. اضطر مانيا الذي كان يستمتع بكوب من الشراب إلى الانضمام إليهم. تبع ذلك شرب أنخابٍ أخرى: بصحة إيلينا، وبصحة صغار الرواد، ونخب النضال ضد الفاشية. وهكذا، انتهى الأمر بكل الحاضرين في قاعة الطعام إلى النهوض والجلوس كل دقيقتين. عندها، بدأ الموجودون بالإسراع في تناول وجباتهم ومغادرة المكان على عجل.

أخذنا فنجانَي قهوتنا إلى الشرفة، وأشعل مانيا سيجارة سوبراني، بينما اكتفيت أنا بالكارباتي، فأسرع إلى التعليق: «ألاحظ أنك تريد البقاء مع المنتوجات الوطنية». في هذا الوقت، كانت زمرة ستويكو قد بدأت بالغناء في الداخل. عندها، التفت

مانيا نحوهم قليلاً وقال: «بإمكانك إلغاء الفوارق الطبيعية، لكن تلك الفوارق تعود للظهور بطريقةٍ ما خلال تناول وجبات الطعام. ألا تعتقد ذلك؟».

أجبته: «اعتقدتُ أنكم بدأتم بمعالجة الأمر عن طريق إلغاء وجبات الطعام كلياً. أعني بالنسبة إلى الشعب العادي... ».

«هذا صحيح! أجل، في الواقع، جاء ردّك سريعاً. لكن، يتعيّن عليّ أن أقول إن شهيّتك لم تتأثر بالصعوبات أبداً. أعني نظراً إلى سرعة التهامك شريحة اللحم، والكسترد كذلك... ».

«كلامك صحيح حقاً. فقد تعلمت الفصل بين الأشياء». وبعد ذلك، سحبت نفساً قوياً من الكارباتي.

«آه، أعتقد أنك تعلمت طريقة هذا الفصل قبل وقتٍ طويل من مجيئك إلى رومانيا... فقد أخبرتني سيليا أنك ساعدتها في الحصول على تلك الرحلة إلى بريطانيا. إنني ممتنٌ لك جداً، لذا أخبرني إن كان باستطاعتي مساعدتك في أي شيء قد تحتاج إليه. ومن جهتي، أتمنى أن تعامل ابنتي جيداً».

فقلت له: «تستطيع سيليا الاهتمام بنفسها. وكل ما أستطيع قوله هو أن ذلك ما تفعله... ».

وضع مانيا كوبه على الطاولة وضحك قائلاً: «أجل. كما أن عدداً كبيراً من الناس يقولون عنها ذلك. أتمنى أن يكون هذا صحيحاً... » ثم تحوّل مانيا إلى الجديّة وقال: «قالت لي إنك تلومها على شيء حدث مع أصدقائك. لا أريد أن أعرف التفاصيل، ولكن باستطاعتي أن أقول لك إنه لا علاقة لها بالأمر».

«يبدو أنك متأكدٌ جداً من هذا الأمر».

أنهى مانيا سيجارته، وتطلع عبر الشرفة، ثم وضع ذراعاً فوق كتفي، وتكلم معي

عن قرب: «دعني أخبرك كيف تنظر أنت إلى الأمر، أو كيف تشجّع نفسك على فهمه: اكتشفت سيليا ما يجري عن طريقك ثم أخبرتني. بعد ذلك، أعطيتُ أنا الأوامر. رحل أصدقاؤك. لكن، لماذا سأقلق ممّا تفعله زمرة من الهيبيين؟ ولنفترض أنني عرفت بالأمر مسبقاً، أو أنني عرفت بالأمر منذ وقتٍ طويل ولم أفعل أي شيء، فلماذا سأتحرك الآن؟».

«وهل كنتَ تعرف؟».

«ليس هذا موضوعنا الآن. وإذا كنت أعرف فأنا لم أفعل شيئاً بهذا الشأن».

«يُحتمل أنك مرّرت هذه المعلومة إلى شخصٍ ما، وما لبث أن تحرك بالفعل... » رأيتُ مناديل المائدة تتدلى فوق صدورهم فيما انحنوا فوق طعامهم، فبدا شعرهم القصير وآذانهم الصغيرة ووجوههم المترهلة زهرية اللون. بدا ستويكو وزمرته مثل الخنازير التي تظهر في فيلم الصور المتحركة عن رواية أورويل مزرعة الحيوانات. التفتُّ إلى مانيا الذي كان لأسبابٍ وجيهة واحداً منهم وقلت له: «على أية حال، إن الناس لا يختفون فجأة هكذا!».

فرفع مانيا حاجبيه وضحك قائلاً «آه، كلا. هل أنت متأكد من ذلك؟».

وبعد ذلك، حرّك قهوته للحظاتٍ قليلة، ثم تكلّم بصوت منخفض: «سأقول لك هذا مع أنه يشكّل خطراً عليّ، وحتى لو اضطررتُ إلى رفع تقرير عن حديثنا هذا. وأنا أقول لك هذا من أجل سيليا، كما أنني آسفٌ جداً لأنها لم تعد معك. سأشرح لك الأمر أكثر في فرصة أخرى، لكنني الآن سأقول لك هذا: يمكنك أن تعتقد ما شئت عني، ولكنني أؤكد لك أنه ليست لها أي علاقة بالأمر بتاتاً. أعتقد أننا كلنا في خطرٍ في هذه الأيام؛ لأن كل وزارة تعمل ضد الوزارة الأخرى، وكل وزير يعمل ضد الوزير آخر. كما أن كل المؤسسات مخترقة، وكذلك كل مجموعة من الأصدقاء، وكل شيء معلوم، لكن الأمر يعتمد على من يتحرك

بحسب تلك المعلومة ومتى، وعلى السبب الذي يدفع شخصاً ما ليقرر التحرك. وهكذا، يعرف المرء السبب الذي يدفع أصدقاءه إلى التدخل، أعني إذا تدخلوا، ويعرف من تحرّك في الوقت ذاته».

أومأتُ، ولاحظتُ أنه محقٌ في ما يقوله. وبدقةٍ أكثر، فهمتُ هذا الاضطراب الناتج عن عصبية الدولة التي جعلَت كلامه مفهوماً. كان من المؤكد أن هناك شخصاً ما وفي مكانٍ ما يعرف على الدوام الأشياء التي يقوم بها الشخص الآخر، وأحياناً يعرف عدة أشخاص بالأمر ذاته في الوقت نفسه. لكن، ما الذي يفعلونه بتلك المعرفة؟ وهل يستخدمونها أو يبيعونها أو يقايضونها؟ أيُحتمل أن عدة أشخاص يعرفون تلك المعلومات في الوقت ذاته، وأن كلاً منهم يمتلك برنامجاً مختلفاً أو متناقضاً مع برامج الآخرين، حيث يُلغي هذه المعلومة؟ وهو الأمر الذي يمنح الشخص المعنيّ بعض الخصوصية التي تأتي في المرتبة الثانية بعد السرية التامة، وهذا مستحيل على أية حال؟ كانت هذه هي طريقة عمل ليو الذي يعتمد على تناقض المعلومات للاستمرار في عمله الغامض، وكذلك لمتابعة مساعيه في المصالحة والتكريم.

وقفت وراءنا مجموعة من الوزراء، وكانوا منشغلين باستعراض خطط البناء. بالإضافة إلى اثنين من المهندسين، اللذين وضع كل منهما نظارة ذات إطار أسود، وارتدى كنزةً ذات ياقة عالية ملتفة. أمسك مانيا مرفقي، وهمس لي: «يزداد التوتر في هذا الوقت، ويحدث هذا بين وقتٍ وآخر؛ ويرجع سبب ذلك إلى عدم الاستقرار الذي أصاب جزءاً ما من النظام، أو لأن الرفيق الأول يشعر بالخوف. يُحتمل أن تهدأ الأمور مجدداً في غضون أشهر قليلة، ويُحتمل أن تتضح أكثر عندها. أما الآن، فأنا أنصحك بالبقاء بعيداً عن المتاعب».

انضمّ إلينا آخرون على الشرفة، فصمت مانيا عن الكلام، وأصغينا جميعاً إلى المهندسين والوزراء. كان أحد الوزراء يشرح عن القناة الصناعية التي تُحفَر في

هذه الأيام في وسط المدينة، وقال إنه ينبغي إعادة رسم مسارها. كانت الخريطة مفتوحة فوق ركبتيه، وظهر فيها خطٌّ أحمر مستقيم يمرّ عبر عدة أحياء. كان أحد المهندسين هادئاً، ولكنه بيّن بقناعةٍ تامة أن هذا لن يشتمل فقط على إعادة ملء الحفرة التي أصبحت عديمة النفع، والتي استغرق حفرها الأشهر الثلاثة الأخيرة، بل سيتطلب الأمر هدمَ اثنين من الأحياء السكنية القديمة. أما الوزيرة الشابة التي تتميز بنظرات جريئة فقد استخدمت شعاراً معروفاً في إجابتها: «هذه مياه غير مخطّط لها في الرحلة، لكن ملاّحنا يتمتع بخبرة كبيرة». دافع المهندس عن وجهة نظره من دون أن يرفع رأسه أبداً، ومرّر إصبعه فوق الخط الأحمر السميك الذي يخترق خارطة بوخارست. عندها، ساد الصمت لفترة؛ وهو أمرٌ مألوف عندما يتخطى شخصٌ ما حدوده. وبعد قليل، غيّرت الوزيرة مجرى الحديث، وسألته بكل صراحة عمّا إذا كان جاهزاً لتحمّل عواقب التخلي عن المشروع. فأجاب المهندس بأنه مستعد لكل شيء، وهمّ بالمغادرة شاكراً الوزيرة على الغداء. وفي هذه اللحظة بالذات، تحرّك زميل المهندس على مقعده. وأقدم أحد مساعِدي الوزيرة - الذي كان يراقب ما يحصل ملتزماً بالصمت حتى هذه اللحظة - على وضع فنجان قهوته على الطاولة، ثم وضع يده على كتف المهندس، وتكلّم ببطء وهدوء، وبطريقة الهمس المقصود التي تهدف إلى الإسماع.

«اسمع أيها الخنزير البورجوازي، ستسير الأمور على هذا الشكل: ستغادر هذا المكان، ونحن سوف نقوم بالعمل على أية حال. لكن، ستكون أنت وعشيرتك كلها من اليهود مَن سيحفر القناة الجديدة لمدة سبعة أيام في الأسبوع. أنصحك بتوديع شقّتك في هيراستراو التي اعتدت على المكوث فيها كل يوم من التاسعة وحتى الخامسة، وبالترحيب بالمناوبة الليلية وبمساكن العمال. أما أولادك... كم يبلغ عددهم؟ أربعة أو ستة؟ يمكننا إعادة إسكانهم في إحدى دور الأيتام

التابعة للدولة. بالمناسبة، هل تعرفها؟ يُحتمل أنها في إياسي. إذا كنت تحب كنزتك السوداء ومشروبك الأسكتلندي، وإذا كانت زوجتك تفضّل استعمال الفوط الصحية الآتية من الغرب فيكفي أن تومئ برأسك، ونحن بدورنا سوف ننسى غلطتك بحق الذوق الاشتراكي».

كان المهندس وحيداً في موقفه ذاك لأن زميله أشاح بوجهه بعيداً، بينما نظرت الوزيرة إلى حذائها. وتظاهر الآخرون بأنهم لم يسمعوا شيئاً، ولكنهم سيتذكرون كل كلمةٍ سمعوها؛ تماماً مثلنا. وضع مانيا فنجان قهوته على الطاولة، وهزّ رأسه بالرغم من أنه كان سيقول ويفعل أشياء أكبر من هذا بكثير.

بعد ذلك، حدث شيء رهيب. فقد أبعد المهندس يد الرجل عن كتفه، وسار مبتعداً بعد أن رمى منديله الورقي على الطاولة. فما كان من زميله إلاّ أن أخفى رأسه بين يديه. عندها، وقفت الوزيرة عاجزةً عن الكلام، إذ لم يكن لديها أي شعارٍ يناسب هذا الموقف غير المتوقع. أما المساعد فقد ابتسم ابتسامة شريرة تشير إلى أن ساديّته قد تعرّضت للإهانة.

كنت أراقب الموقف وأصغي إلى ما أسمعه عندما أمسك مانيا بذراعي، وتقدّمني عبر الشرفة وصولاً إلى الحدائق.

«يا إلهي. كان ذلك موقفاً شجاعاً. ماذا سيحدث له؟».

«سيحظى بفترة سماح. لكن، إذا لم يُذعِن للأمر، فإن بعض تهديدات ذلك الشرير سوف تتحقق، وربما معظمها. لكن لا تقلق؛ لأنه إذا وصلت الأمور إلى هذا الحد، فهذا يعني أن المهندس قد اقترف أخطاء غير مناسبة إطلاقاً. فلا وجود للأبطال هنا، وإذا تواجدوا فلن تجدهم في هذا المكان».

تصوّرت قدوم يوم الدينونة حيث ينال كل امرءٍ ما يستحقه، سواء أكان خيراً أو شراً. وهنا في رومانيا، تصوّرت إجراء محاكمات حيث يحكم القضاة على المتهمين

ويدينونهم، ثم يقومون بتبديل أماكنهم مع الذين أخطأوا بحقهم. في النهاية، لم أكن مخطئاً كثيراً؛ إلا في ما يتعلق بصدور الأحكام.

تسلّم مانيا رسالة على جهاز المناداة الذي يحمله. ولم تمضِ إلاّ لحظات قليلة حتى وصلت سيارة المرسيدس السوداء إلى جادة محاطة بأشجار زيزفون. كان المتطوعون الصغار يتناولون طعامهم المؤلف من صويا السلامي والروكولا تحت ظلال الأشجار التي تبدو متقطعة. أعتقد أن عددهم تراوح بين أربعين طفلاً وخمسين، وكانوا جالسين بانتظام بشكل دائرة، ويأكلون بصمت وبطريقة آلية كما لو أنّهم رُضَّع.

تكلّم مانيا مجدداً وقال: «لا بد أن صديقك تروفيم يستمتع بكتابة مذكراته الآن. سمعت أنها مذكرات رجل شيوعي طيّب، ولكنها مملة. ويُحتمَل أنه يرغب في إبقائها هكذا. لكن، إذا لم تكن الحال كذلك فقد يحتاج إلى أصدقاء. وفي هذه الحالة، لا أعني أصدقاء في الخارج».

سألته: «هل هذا تهديد؟».

«إنك تسيء فهمي على الدوام، وما أقوله ليس تهديداً، بل العكس. قل له ذلك، وهو سوف يعرف». أظهر مانيا غضباً شديداً؛ لأن الرجل الحزبي الهادئ في الظاهر يشعر بالإهانة بسبب عدم الوثوق به. وفي طريق عودتنا، تساءلت عمّا إذا كانت تعليقاتي اللبقة، وجهوزيتي لتفسير كل ما قاله بأسوأ طريقة ممكنة قد تسببت في شعوره بالإهانة.

لذا، التفتّ نحوه بعد نزولي من السيارة، واعتذرت منه قائلاً: «إنني آسف. فأنا لم أقصد أن أكون ساخراً، ولكنها العادة. وأعتقد أنه لا حاجة لأقول لك كم يصعب انتقاء أشخاص يمكنك الوثوق بهم... » فما كان من مانيا إلاّ أن لوّح بيده وكأنه استبعد فكرة تعرّضه للإهانة. وفيما تحركتْ ذراعه، شممت عطر ما

بعد الحلاقة الذي يستخدمه، والذي كان برائحة الليمون التي تميزه، وكانت لا تزال قوية بالرغم من شدة الحرارة. أما أنا فكنت متعرّقاً ومنزعجاً من رائحة عرقي.

«يجب ألا تثق بي بطبيعة الحال. لكن، يُحتمل أنه يتعيّن عليك أن تصدّقني... » وابتسم ثم أضاف: «هل ما زلت عاجزاً عن معرفة الفرق بين الأمرين؟».

ظللتُ عاجزاً عن معرفة ما حدث لبيتر وفينتول، ولكنني شاهدت بنفسي كيف تسير الأمور هنا، وصدّقت مانيا عندما أخبرني أنه لا علاقة لسيليا بالأمر. لكن، أياً يكن الأمر، هل سيصدّق ليو ذلك؟

توقّفت في طريق عودتي إلى مكتبي في فسحة درج الطابق الثاني، ونظرت عبر الأفق إلى مدينة بوخارست. كان المهندس في مكانٍ ما هناك ينتظر معرفة مصيره. ويُحتمل كذلك أن فينتول وبيتر وآخرين غيرهما محتجزون هناك، أو مختبئون كما كنت أتمنى. بدت الرافعات منتشرة في كل مكان هناك، كما بدا الأفق مكتظاً بالرافعات والسقالات.

كانت غرفة الطعام في سناغوف رمزاً لبوخارست الجديدة. فوراء التماثُل الجامد الذي تشتمل عليه الشيوعية، وأسطح الرخام أو الغرانيت الجامدة، كان هناك تعقيد وخطط ملتوية وجدت طريقها إلى التحقق وازدهرت، ولكنها قضت على المدينة وعلى الذين وضعوها في الوقت ذاته. إذ كان مانيا، وستويكو، وتروفيم، ويونيسكو هم الذين قضوا على بوخارست القديمة، وقد وقُضِي عليهم في الوقت ذاته. وهم جميعاً جزء من الرهاب الذي يلاحق ذاته، وهلوسة الحكم البوليسي الذاتي الذي يتم التحضير له في دهاليز الحزب الهائلة.

كان أول ما لاحظته هو الصناديق التي تجمّعت خارج مكتب يونيسكو. رأيت الشهادات المؤطرة الملفوفة بنسخٍ قديمة من صحيفة سينتيا - والتي عملت

عليها روديكا - ثم رأيتُ ميكو بزيّه الرسمي المزركش، والذي بدا فيه مثل جندي مخضرم يقوم بدفن رفاقه الذين سقطوا في ميدان المعركة. أما في الداخل، فقد جلس يونيسكو حزيناً وأمامه زجاجة من الشراب.

«كيف يمكنني إخبارها بذلك؟ أفترض أنه يتعيّن عليّ نقل الخبر إليها مباشرة وبصراحة». كان يونيسكو لا يزال محتفظاً بموهبته الفريدة في استعمال اللغة الإنكليزية، بالرغم من أنه لن يتمكن ربما من استخدامها في وظيفته الجديدة.

كان ليو متمسكاً بالأمل، وقد قال له: «في واقع الأمر، هذا ليس صرفاً من العمل. ستعود إلى وظيفتك سريعاً. أريد منك أن تنظر إلى الجهة المشرقة في ما حصل. فعلى الأقل، لن يتعيّن عليك الإشراف على مكننة الكلية!». أشارت ملامح يونيسكو إلى رفضه الإذعان إلى التفاؤل، فتابع ليو حديثه: «متى سيحضر المسؤول الجديد؟ والأهم من كل ذلك، من هو؟».

فأجاب يونيسكو وهو يزفر زفرة عبّرت عن شدة مأساته: «لم يخبروني، ولن يخبرني أحد».

نقلنا أغراض يونيسكو إلى سيارة ليو. وكانت الشائعات حينها قد انتشرت، حتى إنّ السائقين في مرأب السيارات كانوا يعرفون بأمر تخفيض رتبة يونيسكو. اكتفى الزملاء بالإشاحة بنظراتهم بعيداً، أو بالانتقال إلى الجهة الثانية من الممر لكي يتجنبوه. فيما اعتزم بعضهم زيارته عندما تهدأ الأمور. لكن القاعدة الذهبية الآن تفرض على الجميع الابتعاد عنه قليلاً. أوشك الرجل على أن يصبح غير مرئي، وعلى الاختفاء. كان من المقرر أيضاً أن تُنزَع اللوحة التي تحمل اسمه عند الساعة التاسعة مساء، وأن يتم إنزال كتبه من رفوف المكتبة يوم الاثنين. وفيما كنا نودّع يونيسكو، تقدّم رجلٌ يرتدي زياً أزرق اللون لمصافحته، وكان قد استُبعِد من وظيفته قبله.

كان من المقرّر أن تكون المرحلة المقبلة أصعب بكثير بالنسبة إلى يونيسكو؛ أي أن يشرح لزوجته سبب مغادرتهما شقتهما الدوبلكس في هيراستراو، وإقامتهما في شقة جديدة في الضواحي؛ وإن كانت تبدو قديمة، وتتألف من غرفتين. هذا إذا كانا محظوظين بما يكفي للبقاء في المدينة.

كان من المقرّر أيضاً أن يعود يونيسكو يوم الاثنين القادم ليعرف طبيعة وظيفته الجديدة. ويُحتمل أن تكون هذه الوظيفة أي شيء يتراوح ما بين مراقب مرأبٍ إقليمي، وحمّال في أحد مطابخ غوست شيب، في قسم تقديم الطعام.

هتف ليو مبتهجاً عبر سماعة الهاتف: «صار مساعداً في مكتبة! لقد أُعطِي وظيفة مساعد في مكتبة! وهنا بالضبط!».

حصل ذلك صباح يوم السبت، فيما كنت أستمع إلى جهاز الراديو وحدي. إذ كانت محطة إذاعة بي. بي. سي العالمية تذيع برنامجاً عن حركة التضامن البولندية. أمضيتُ الليلة وأنا أعاني من كابوس، واستيقظت عند الساعة الرابعة من بعد منتصف الليل وأنا أصرخ تحت البطانية التي كانت قد تبلّلت بالعرق، ثم تقيّأت في حوض غسل الأطباق بعد صدمة شديدة العنف سيطرت على جسمي، وكذلك على عقلي. فقد عاد إليّ ذلك الكابوس الذي عانيت منه تكراراً، والذي ظننت أنني تخلّصت منه عند مغادرتي لندن: كان والداي هادئين وسعيدين معاً كما لم أرَهما يوماً في حياتي، وكانا يشيران إليّ من فوق غرفةٍ ضخمة. أما الآن وقد أصبحت في رومانيا، فقد تحوّلت الغرفة إلى مساحة مليئة بالتماثيل الرخامية المتداعية في جادة النصر الاشتراكي، أو إلى جزءٍ من نادٍ ليلي، أو من غرفة المائدة في سناغوف التي كنت فيها برفقة مانيا. لكن، ما إن اقتربت منهما حتى أدركت أنهما كانا يحذّرانني، ويطلبان مني البقاء بعيداً عنهما، ويتوسلان إليّ للابتعاد عنهما. بعد ذلك، عانقا بعضهما، وتلوّيا من شدة الألم، واحترقا عند أطرافهما مثل الأوراق، بينما تحوّل وجهاهما إلى عظام ورماد،

وصرخا بصمت.

كان ذلك الكابوس قد لازمني على مدى سنوات عديدة، وحتى عندما كان والدي حياً. وقد ظننت أنني تخلصت منه بعد أن جئت إلى بوخارست. ولكن، اتضح لي الآن أن ذلك الكابوس قد استوعب بيئتي الجديدة. عاودني ذلك الكابوس بصورة أشد شراسة ممّا كان عليه في الماضي. والآن، رغم مرور عدة ساعات على استيقاظي، إلا أن هالة ذلك الكابوس لم تفارقني؛ حتى إنه ما زال بإمكاني شم رائحة الحريق.

والآن، ها قد عاد إليّ كل شيء تركته خلفي؛ مُستغلاً فرصة نومي للوصول إلى أعماقي، وذلك بعد مضي أشهرٍ عديدة على التكيّف الذي بدا لي سهلاً في البداية. تركتني سيليا، وسيطر عليّ الشعور بالذنب بسبب شيء ما ربما أكون قد فعلته. كما أنني لم أعرف ما يجدر بي فعله بالنسبة إلى بيتر وفينتول. إذ كنت عالقاً بين جبال جليدية من الفساد والتي بالكاد رأيت قممها. يضاف إلى ذلك أنني كنت مُعرَّضاً للخطر في أي لحظة من اليوم بسبب أحد الأنشطة التي ارتبطت بها، وذلك من دون أن أكون جزءاً منها فعليّاً. أما الأسوأ من ذلك كله فهو عدم امتلاكي أي مكان أو أي شيء يمكنني العودة إليه. حسناً، أليس هذا ما أردتُه؟ سمعت نفسي وأنا أطرح هذا السؤال.

سألت ليو وأنا عاجز عن مشاطرته حماسته الشديدة: «وهل هذه هي الأخبار الطيبة؟».

«فكّر في الأمر يا صديقي. كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ بكثير، أي كان من المحتمل أن يشغل وظيفة تنظيف الحمامات في توردا... » تذكّرتُ مكاناً بهذا الاسم، والذي يقع في مكان ما إلى الشمال الشرقي، «كما أنه سيمتلك مقعداً صغيراً يستطيع الجلوس عليه للقراءة، ولن يكون مضطراً إلى مغادرة

المدينة، وسوف نتمكن من رؤيته. ثق بي لأن الأمر أفضل بكثير ممّا كان يمكن أن يحصل».

«وما هي الأخبار السيئة؟».

«إن لها علاقة بالرئيس الجديد للقسم. إنه يدعى بوبيا، وهو رجل غير محبوب، ومخبر، ومطيع لرؤسائه، واختصاصي في برونتي». لم أعرف ما إذا كان ليو يدرج تلك الصفات بترتيب تصاعدي أم تنازلي في سلّم الإخلاص. إيون بوبيا، الحزبي المخلص بشكلٍ أعمى، والذي يركّز على معانٍ مخفية في كل شيء يقوله المرء؛ لدرجة أن الكلام عن الطقس أيضاً كان يتعرّض للتدقيق بحثاً عمّا له علاقة بالسياسة. مازحني ليو قائلاً إن بوبيا قد سلّم مسبقاً كل ما قاله إلى وحدة محادثات أماكن العمل التابعة للحزب، وذلك قبل أسبوع من الزمن. وأضاف ليو بصورة غامضة: «لكن، لا بأس في ذلك؛ لأنني أمتلك شيئاً ما ضده».

أبلغتُ تروفيم بكل ما حدث عندما التقينا في المتنزه في ذلك المساء. لم أكن قد تخلصت تماماً من آثار كابوسي، كما كنت أشعر بالضعف والإجهاد.

«أول قانون بالنسبة إلى الصرف من العمل هو ضرورة أن يكون عشوائياً. أما القانون الثاني فهو ضرورة أن ينتهي بترقية؛ حيث يقف كل المرشحين للمنصب ضد بعضهم بعضاً وليس ضد النظام. أما القانون الثالث فهو ضرورة إنفاق الناس طاقة أكبر عند محاولتهم فهم معنى ما يجري بدلاً من الشكوى بسبب الظلم. يبدو هذا نموذجاً مثالياً لما يجري». كان تروفيم يُقيّم ما أقوله من الناحية الجمالية، أي مثل تاجرٍ يُبدي إعجابه بلوحة فنية رائعة.

«لكن، لماذا أقالوا يونيسكو؟ لم يقترف الرجل أي خطأ، كما أنه رجلٌ أكاديمي مرموق، وهو رجل حزبي مخلص... ».

«إنه كذلك بالفعل، ولكن على طريقته الخاصة. وربما ليس لصرفه من العمل

علاقة بالجامعة، بل أتى ضمن عملية تطهير أمنية داخلية. ها قد عادت الأيام الماضية؛ لأنه بعد التطهير تأتي مرحلة التفسير». استراح تروفيم على المقعد الطويل وأشعل غليونه. «سأفتقد إلى كل شيء: الخطط السرية، والصفقات التي تُبرم في الخفاء، ولعبة الشطرنج السياسية بأكملها التي يلعبها الحزب... أظنّ أن يونيسكو لم يكن ذلك الرجل الذي يوثق به، وهو غير نظامي، أو كان يستغل منصبه الأمني لتعزيز مهنته الأكاديمية. ورغم أنّ أسلوبه كان خاطئاً، إلا أنه أصبح معروفاً ومحبوباً، كما أن أعماله بدأت تعرف طريقها إلى النشر في الخارج. أعتقد أيضاً أنه سمح للأمور بأن تفلت من يده! إذ لم يكن الناس يخشونه، كما كان رجلاً محترماً، وكان يُدير كليةً جامعية سعيدة؛ وذلك ضمن الحدود المسموح بها هنا. فكما تعرف، هذه الأمور تُلاحظ هنا... ».

«يعرف الجميع أنه رجلٌ قاسٍ تماماً مثل الآخرين، لكن الأمر يقتصر على أنه ليس شريراً».

«أتذكّر يونيسكو عند بداية عمله. كان محاضراً مبتدئاً، وذلك قبل وقتٍ طويل من مجيء تشاوشيسكو، أي في أواخر الخمسينيات. كان شاباً ودقيقاً مثل حدّ السكّين، ولكنه كان على الدوام الرجل اللطيف والمُقنِع. هكذا كان يونيسكو، أي الرئيس والناصح، والسيّد اللطيف والمهذّب. ساعد سيرافيم [تروفيم] اليهودي الذي تمكّن من النجاة من حملات التطهير في الأربعينيات والخمسينيات يونيسكو على تسلّق السلّم الوظيفي، وعيّنه في عدة لجان... أي أنه أطلقه، وساعده في الحصول على وظيفة محترمةٍ ومرغوبة في كليّته، وفي الحصول على ترقية، ثمّ قام برعاية ارتقائه سلّم المراكز الوظيفية. وفي أحد أيام الفترة التي أُطلِق عليها اسم «التطهير من أجل الرومنة [إحلال الرومانيين مكان الأجانب في الوظائف العامة]»، وصل الرجل ووجد أن أغراضه قد نُقِلت وتُركت في الممر، وكان ذلك قبل أن يتكرّموا بوضع الأغراض في الصناديق. كان أول رد فعلٍ

للبروفيسور المخضرم هو زيارته يونيسكو، فوجده خارج مكتبه، وكل أغراضه في الممر. قال البروفيسور المخضرم للرجل الذي قام برعايته: «يا صديقي المسكين، إنني آسف لأنني ورّطتك في الأمر. ربما يكون الوقت قد تأخر بالنسبة إلي، ولكنني سوف أبذل جهدي لإعفائك من هذا الإجراء». قيل إن يونيسكو لم يقل شيئاً في ذلك الوقت، بل اكتفى بأخذ مفتاح مكتب سيرافيم [تروفيم] من يده، ثم سار مباشرة إلى المكتب الذي أصبح خالياً للتو وأقفل الباب. ما الذي تقوله بهذا الشأن؟! لقد ظنّ ذلك الرجل المسكين أن يونيسكو قد طُرِد من عمله أيضاً! ولكن في الواقع، كان يونيسكو هو الذي سعى طيلة الوقت إلى طرد الرجل بهدف الحصول على عمله».

فقلت له: «لا أصدّق ذلك! كان باستطاعة يونيسكو تفسير الأمر على الأقل... ».

«ما الذي تريد منه تفسيره؟ لقد رويت لك القصة كما حدثت تماماً. فهذه هي الطريقة التي حصل بها يونيسكو على أول وظيفة رفيعة له. وبعد ذلك، لم يعد أحد يجرؤ على التقليل من قيمته... لكن ذلك لم يستمر طويلاً. والحياة مليئة بقصصٍ كهذه على أية حال. وهكذا، ينتظر كل شخصٍ دوره».

أمسك تروفيم ذراعي وقال: «لا أريد منك أن تعتقد أنني لا أندم على شيء. فأنا نادم، ولكن كانت هناك أسباب وظروف - وما زالت موجودة - أدّت إلى كل الأخطاء التي ارتكبناها. أعرف أنني بالنسبة إليك واحد من بين عددٍ كبير من الناس الذين جعلوا المكان على ما هو عليه الآن». وتطلع نحوي، لكنني لم أقل شيئاً. ويعني ذلك أنه كان يتكلم مع نفسه، بينما كنت أنا المبرّر لكي يتكلم بصوتٍ عالٍ. «كان هناك ثمنٌ ينبغي دفعه. وفي ذلك الوقت، كان ذلك هو الثمن المناسب. ولكن، لم يكن المقصود أن يبقى الحال على ما هو عليه. فقد عاش جيلٌ أو جيلان ربما في فترة القمع. وفي الواقع، لقد حدثت بعض أعمال القتل، ولكنها لم تكن نهايةً بحد ذاتها. ظنّنا وقتها أننا نمتلك الوقت الكافي، واعتبرناها

لعبةً طويلة، ولكنها لم تكن لعبةً أبداً». وهزّ رأسه قبل أن يتابع: «ولم تكن طويلةً بما يكفي».

سألته: «هل ستذكر ذلك في كتابك؟ أعني هذه الكلمات».

«أجل. هذا إذا تذكّرتها عندما نصل إلى المنزل». وضحك بحزن وأمسك ذراعي.

كانت مساعِدة تروفيم تغادر المكتب عند وصولنا. وبدا شعرها أشبه ما يكون بتحفة صنعها نحات محترف حديث؛ إذ كان مُسرَّحاً بشكلٍ متماسك. أما الغرفة فكانت تعبق برائحة الرذاذ الذي استخدمتْه لإبقاء شعرها متماسكاً.

اختفى تروفيم في المطبخ الفخم، وكانت هذه عادته التي تُعتبَر خاصة بأولئك الذين يمتلكون قدراً قليلاً من المعرفة المنزلية، وتتميّز في الإمساك بالأواني والتحديق إليها، وانتظار مرور الإيحاءات عبر راحة يده إلى الأساتذة المتنورين الذين يعملون معه. لاحظت وجود جهازٍ جديد لتحضير القهوة موضوعاً على إفريز النافذة، وكان يلمع بلونيه الأسود والأبيض، ولكنه بالتأكيد لم يكن من مونوكوم. تفحّص تروفيم القسم الخلفي من الجهاز، وبحث عن مكان وضع الماء أو البن فيه، أو حتى الاثنين معاً. ثم خرج إلى الشرفة بعد مرور عشر دقائق حاملاً كالمعتاد إناء تحضير القهوة العربية ذا اليد الطويلة، والذي تسلّمه كهدية من وفد منظمة التحرير الفلسطينية إلى الأمم المتحدة، وكان البخار المُشبَع برائحة القهوة الممزوجة برائحة الهال اللذيذة يتصاعد منه.

«يحتوي جهاز الحاسوب اليوم على إملاءات هذا الصباح، حتى إن الألعاب الأولمبية الأخيرة من ضمنها. وأعتقد أن العمل على الفصل الجديد سوف يستغرق أسبوعين من الزمن. وعندها، سوف نتمكن من التفكير في الخطوة التالية».

تذكرت فجأة رسالة مانيا قسطنطين، فأسرعتُ في نقلها إلى تروفيم. وقلتُ له

بلهجةٍ غير مكترثة تمنيتُ معها أن تتمكن من إخفاء فضولي: «لا أعرف كيف أفسّرها لك، ولكن هذه هي على أية حال».

«إنها في غاية البساطة. إذ يعرف الوزير، أو يظن أنه يعرف، أنني أعتزم القيام بشيء ما. وهذه هي طريقته للقول إن الآخرين يعرفون وقد لا يكونون متسامحين مثله. سيقدّم لي خدمة، ولكنه في المقابل يتوقع مني أن أقدّم له خدمة».

«ما هي؟».

«إنه لا يعرف حتى الآن، وأنا بدوري لا أعرف. لكن، نعم، شكراً لك على نقل الرسالة. إنها أنباء جيدة حسب ما أعتقد».

أمضينا فترة بعد الظهر في العمل على ملفاته، وكان ذلك عملنا الروتيني. بحثتُ أولاً عن ملف اليوم في سلة المهملات الافتراضية للحاسوب. وتنقّلت بعد ذلك في الملفات فقرة فقرة، بينما كان تروفيم جالساً إلى يميني ويُملي عليّ الإضافات التي كتبها. كان ذلك العمل يستغرق منا عادة ساعتين أو ثلاث ساعات من الزمن. بعد ذلك، نسختُ كل شيء إلى قرصٍ مرنٍ، ثم نقلت الملف إلى سلة المهملات الافتراضية للحاسوب مرةً أخرى، وذلك قبل أخذ الملفات تمهيداً لطبعها في مكتبة المجلس البريطاني؛ وهي عبارة عن مبنى قديم جاهزٍ يقع داخل الأرض التابعة للسفارة.

عند مغادرتي المبنى اليوم حاملاً معي الأوراق المطبوعة، ظهر خلفي جيل ونترسميث. اعتاد ليو أن يطلق عليه لقب التيار؛ وفي ذلك إشارة ليس فقط إلى جوّ البرودة الذي يفرضه وجوده في الغرفة، بل إلى قدرته على التسبّب بارتعاشات تدفع المرء إلى الإحساس بحضوره القوي. شعرت الآن بهذا الإحساس، فاستدرت لمواجهته. رأيت عينيه الرماديتين الملتمعتين، وبشرته الدهنية الرقيقة

والشاحبة، ولحيته المشذّبة والحادة، وشعره الذي أصبح لامعاً بتأثير المواد الزيتية. لكن، بما أن السفير - مثله مثل بعض مدراء المدارس العامة - قد أعلن أمر الأكمام الصيفية، لذلك ارتدى ونترسميث قميصاً أبيض قصير الكمين، ولكن ظهرت تحت إبطيه دائرتان بنّيّتا اللون بفعل العرق. أما ياقة قميصه المفتوحة فقد بدت من جهتها الداخلية مثل حلقة ملطّخة بالوحل. كانت ذراعاه بيضاوي اللون ومغطّاتين بالبثور. كما ظهرت البثور على صدره أيضاً، وامتدّت نحو الأعلى فبدت مثل جناحَي دجاجة مجمدة.

كنا قد وصلنا في هذا الوقت إلى الصفحة 180 من مذكرات تروفيم، وكنت في تلك اللحظة ممسكاً بأوراق هذا اليوم، والتي وصل عددها إلى 15 صفحة. وكانت هذه الأوراق هي النسخة الوحيدة من أحدث جزء من المذكرات، وكنت أحمل إلى جانبها القرص المرن الذي يحتوي أول ثلثي الكتاب. لاحظ ونترسميث أنني أتمسّك بالحقيبة بقوة.

ابتسم ونترسميث، فظهرت ابتسامته الشيطانية التي أبرزت أسنانه الصفراء، وقال لي: «ما رأيك بتناول الشراب؟».

جلستُ في مقهى شيت آند هاسل، بينما طلب ونترسميث ما أراد تناوله من المشرَب. كان المكان يفوح بروائح العرق والدخان والشراب. رأيت مناشف تحمل العلامات التجارية لبعض أنواع الشراب معلقةً. أما أغطية الطاولات فكانت تملأها آثار الحريق التي تركتها أعقاب السجائر المنسية. كانت النوافذ مفتوحة، ولكن لا يبدو أن الهواء يعمل على تنقية الجو. لاحظتُ وجود لوحة لعبة الرشق بالأسهم، وقد علق أحد الأسهم في وسطها. كما رأيت أيضاً لوحة تصويب العمة سالي، والتي تدلّ على أن تلك المنطقة مخصصة للأولاد. رأيت كذلك إحدى روزنامات لوفليز مفتوحة على الصفحة 3 ومعلقةً خلف المشرَب. كان من الممكن أن يكون هذا المقهى أحد المقاهي في وسط إنكلترا، لكن المكان

كان أشبه ما يكون بموقع تصوير، ويكاد المرء يتوقع انهيار كل شيء على الأرض. تجمّع حشدٌ آخر من البريطانيين من أجل إقامة توازن مع الدبلوماسيين؛ من حرّاس أمن للسفارة، ورجال شرطة، أو عسكريين السابقين، أو عمّال بناء، أو مهندسي الديكور الذين أُرسِلوا من الوطن لتطوير هذا الجناح أو ذاك من المجمّع. بالإضافة إلى عدد قليل من رجال الأعمال الذين يقومون بجولة مبيعات خارجية ويبحثون عن علامة تجارية معروفة. أما على بُعد عدة طاولاتٍ منا، فكان أحد العمال - والذي يبدو ثملاً قليلاً - يقرأ بصوتٍ عالٍ لائحة بأسماء أشخاص يقفون في الصف بانتظار الحصول على إحدى قبلاته المشهورة. ووقفتْ في آخر الغرفة زوجة أحد السفراء، وقد ظهرت شاحبة اللون وجميلة. ولكن بدا عليها بوضوح أنها تشعر بالسأم، وقد انشغلت بمراقبة أولادها وهم يعبثون بصفحات عدد الشهر الماضي من مجلة باينو. كان الأمر أشبه ما يكون بتمضية أمسية في مقاطعات البلاد.

جلس ونترسميث وسألني بعد أن أشار بأصابعه الكبيرة إلى ما هو خارج بوابات السفارة: «أعتقد أنك أقحمت نفسك في أشياء هناك، أليس كذلك؟ فنحن لا نراك كثيراً في السفارة. إننا نفعل ما بوسعنا لوضع تصورٍ ما لما يجري، وأنت تعرف ذلك... » أتت كلماته بشكل اعتذار، لكن لهجته أوحت بأنني شخصٌ مغرور يعتبر نفسه أفضل من مواطنيه أياً كانوا.

قلت وأنا آخذ جرعةً من كوبي الذي كان بالحجم الكبير: «نخبك». كانت الغرفة باردة، لكن العرق راح يسيل فوق عينيّ فمسحتُ حاجبيّ. تردّد ونترسميث قليلاً في أخذ جرعة من كوبه الذي كان من الحجم الصغير. فتذكرتُ فجأة النصيحة الوحيدة التي أعطاني إياها في حياته: إياك أن تثق برجل يتناول الشراب في كوب من الحجم الصغير.

سألني ونترسميث بلهجةٍ فيها اهتمام، وإنما من دون اكتراث: «هل أنت على ما

يرام؟».

فأومأتُ وسألته بصراحة عما يريده، ولكنني أدركت أنني لن أحصل على جوابٍ صريح، أو حتى على ردٍ قصير، غير أنني لن أخسر شيئاً إذا حثثته على الرد. فقد اعتاد معظم الدبلوماسيين التحدّث بلغةٍ تشبه لغة البرقيات: بعبارات قصيرة غير مفهومة، تُلفَظ بإيقاعات متقطعة. لكن ونترسميث ليس واحداً منهم، فقد قال وهو يبتسم ابتسامة متكلفة: «أفترض أنه مع كل ذلك الوقت الذي تقضيه مع ليو أوهاي بدأت تعرف أكثر عما يجري. يُقال أيضاً إنك مقرّب جداً - إذا جاز التعبير - في هذه الأيام من ابنة مسؤولٍ كبير... ».

«ليس بشكلٍ خاص. فأنا أقوم بوظيفتي، وأقابل ليو، وعندي عدد قليل من الأصدقاء». وبدأت بتناول الشراب بسرعة، فلم تتبقَ في كوبي أكثر من جرعتين قبل تمكّني من الانصراف.

«سمعتُ أخباراً مؤسفة عن يونيسكو. هل لديك فكرة عما حدث معه؟».

هززتُ رأسي وحاولت النهوض بعيداً عن الطاولة، ولكنني شعرت بالدوار، ما دفعني إلى الجلوس مجدداً. هل كان سبب ذلك عدم تناولي طعام الغداء، أو إفراطي في شرب القهوة عند تروفيم، أو الحرارة الشديدة؟ لكن، أياً كان السبب، لا أعتقد أنه تلك الكمية الكبيرة من الشراب التي تناولتها منذ قليل. راقبني ونترسميث من فوق حافة كوبه، ثم قال لي: «ستساعدنا كثيراً إذا استمررتَ في ملاحظة ما يجري؛ هذا إذا كان بإمكاننا الاعتماد عليك في الحصول على معلومات».

«عن أي معلومات تتحدث؟». صعُب عليّ التركيز في تلك اللحظة، ولكنني أدركت ما يلمّح إليه. كان ونترسميث يعرف أنه بإمكاني معرفة كل أنواع المعلومات والشائعات، ولكنني لم أكن أعرف شيئاً في واقع الأمر، ولم يكن عندي

مسار داخلي، أو ربما تواجدت عندي مسارات كثيرة لا فرق. صُرِف يونيسكو من وظيفته. لكن ما الذي يعنيه ذلك؟ هل ذلك يعني أشياء تتعدى ما كان عليه الحال لو لم يُصرف من العمل؟ وسبق لي أن رأيت حفلة يتم فيها تناول الشراب بكثرة خارج حدود السيطرة مع بعض الصربيين، كما شاهدت نيقو تشاوشيسكو عند طرده عنوةً من النادي الليلي. ماذا بعد؟ سمعتُ شائعات كثيرة، وكانت غير واضحة وغير مفهومة. كانت أخبار فينتول وبيتر هي التي تقلقني، وتساءلتُ عمّا إذا كان تعاملي مع ونترسميث سوف يساعدني في ذلك.

كنت أعرف أنه لا يمكنني الوثوق في هذا الرجل، وقد اعتدت على هذا الواقع. لكن، هل عدم الثقة به كان بطرائق يمكنني الاعتماد عليها؟

«يمكنك العثور على كل أنواع المعلومات التي لا تعني شيئاً بالنسبة إليك، ولكنها قد تعني شيئاً ما بالنسبة إلينا إذا تمكّنا من تجميعها. يمكنك تمرير تلك المعلومات إلينا، وبغضّ النظر عن طبيعتها... كان سلفك بيلانجر متعاوناً معنا كثيراً في هذا الشأن. وقد تمكّن الرجل من إبقاء مكتب رومانيا مشغولاً بالأخبار المفرحة على مدى عامين من الزمن».

ها قد عاد الحديث إلى بيلانجر مجدداً، فسألتُ ونترسميث: «هل كانت المعلومات التي قدّمها لكم مفيدة».

«إن مجرد المعرفة أمرٌ كافٍ في بعض الأحيان. أعني المساعدة على معرفة ما يجري، وتوضيح السياق».

«وهل هناك دور لي في هذا، أو أنه اتفاق من جانب واحد؟».

«ما الذي تريده؟». وتأوّه ونترسميث، كما لو أنه يريد أن يقول: رجلٌ محترف يتعامل مع رجلٍ هاوٍ.

«وهل ستفعلون شيئاً من أجلي مقابل ذلك؟».

كانت هذه ضربتي في المجهول، وقفزةً محسوبة ناتجة عن عدم الثقة، أكثر من كونها خطوة تدل على الثقة. لكن، هل هذا يعني أنني سأكون مديناً له، وكانت هذه الفكرة بالذات صعبة القبول بالنسبة إليّ. أخبرته عن بيتر وفينتول، وأخبرته أيضاً عن مكان العملية وزمانها، ولكنني لم أذكر له شيئاً عن دوري ودور ليو فيها.

سألني: «ومَن الذي يريد أن يعرف؟ أعني، هل تريدُ أنت أن تعرف، أو هناك شخص آخر يريد أن يعرف عن طريقك؟».

أردتُ ترك أوتيليا وسيليا خارج الموضوع، لذا اخترعت وجود زميل قديم له صلة مع المشاركين في المجموعة، ولكنني لم أقدّم له تفاصيل أخرى. نظر ونترسميث نحوي محاولاً تقرير ما إذا كنت أكذب أم لا. كانت قدرتي على الخداع قد تحسنت كثيراً منذ وصولي إلى بوخارست، ولكنني لست متأكداً بعد من قدرتي على التغلب على المحترفين في هذا المجال.

كان ونترسميث بحاجة إلى إعطائي محاضرة في السياسة العملية. ولحسن الحظ، كانت هذه المحاضرة هي التي أوضحت ما يرمي إليه: «إن ما يحدث الآن هو تهاوي الأنظمة في كل أنحاء أوروبا، ولكن ليس هنا. ولهذا، ستحضر بعثة تجارية برفقة وزير الخارجية في غضون أشهرٍ قليلة، وتأمل البعثة ببيع عدد كبير من الطائرات والحوامات. ستكون هذه الصفقة واحدة من أكبر الصفقات خارج منطقة الشرق الأوسط. صدّقني، سوف نضطر إلى التعامل مع تشاوشيسكو لوقتٍ طويل؛ أي أننا مضطرون إلى العمل معه. انظر إلى ما يحدث في الخارج، المدينة تتعرض للهدم تحت أنظارنا وأسماعنا، بينما الجهاز الأمني أقوى من أي وقتٍ مضى. يُضاف إلى ذلك عدم وجود منشقين، ولا يبدو أن أحداً

يحب فعل أي شيء. إذ لا يحب الرومانيون فعل أي شيء لأن ذلك ليس من طبعهم. ولكن، لا يوجد أحد يساعد أولئك الذين يعجزون عن مساعدة أنفسهم. أعني، إن البلد سلة، ولكنه سلة مليئة بالمال».

لم أكن مهتماً بسماع المزيد، ولذلك سألته وأنا أستعد للمغادرة: «هل ستبذل جهدك لمعرفة شيء عن ذينك الشابين؟».

«هل أنت مستعد لاطلاعي على كل شيء تعرفه يوماً بيوم؟ أعني، في ما يتعلق بما يجري في الجامعة، والمجموعات الطلابية، وأي علامة تدل على السخط قد تلاحظها أو تسمع عنها. أتعلم أن المعرفة سوق وسلعة. أريد معرفة كل شيء يمكنك العثور عليه... » استمر ونترسميث في النظر إلى حقيبتي الصغيرة طوال حديثنا، ولكنني أبقيتها في حضني، ووضعت ذراعي فوقها. سألني: «هل تكتب رواية؟ رأيتك وأنت تطبع رزمة من الأوراق هناك. أحبّ الاطلاع على روايتك في وقتٍ ما».

حاولت المحافظة على هدوئي وقلت: «إنها غير هامة. فهي مجرد ترجمات أعمل عليها، وبعض الشعر... » لكن، ما إن وقفت عند باب النادي الليلي حتى بدأت أتعرّق بشدة. وحدث ذلك على شكل موجات خفيفة في البداية، وما لبثت أن تحوّلت إلى موجاتٍ أقوى. «هل أنت على ما يرام؟ تبدو وكأنك... غير قادر على المحافظة على توازنك». ومدّ ونترسميث يده نحوي. كانت الأصابع البيضاء والنحيلة مغطاة بالكثير من الشعر الأسود، وبدت اليدان متقطعتين فجأة، بينما تراقص الشعر أمام عينيّ وكأنه مخالب. توجّهتُ فوراً نحو الحمام، حيث تقيأتُ بشدة.

وعند عودتي، رأيت ونترسميث يتفحّص يده اليمنى، ونظرة دهشة مرتسمة على وجهه، ثم قال لي: «من الأفضل أن تبقى هنا لبعض الوقت لأنك لستَ في حالةٍ

تسمح لك بالذهاب إلى المنزل. شاءت الصدف أن طبيب السفارة متواجد هنا لبضعة أيام هذا الشهر، وهو هنا الآن. يمكنني أن أجعلك أول مريض يراه غداً».

غادرت السفارة مترنحاً، وسرت إلى منزلي في اتجاهٍ تقريبي. ولكنني بعد أن سرت بسرعة لمدة خمس دقائق تمكنت من استعادة توازني عند تقاطع الطرقات. سمعت أصوات أبواق أجهزة إنذار صادرة عن أحد المواكب آتية من مكانٍ ما. جلست عند مدخل أحد الأفران المغلقة، وأسندت رأسي على ركبتيّ.

أعتقد أنني بدوتُ في تلك اللحظة شبيهاً بأحد المارة الذين شعروا بالإجهاد بسبب الإفراط في الشراب، أو بسبب اللامبالاة، أو حتى مثل عاملٍ في مناوبةٍ نهارية ينام ليستريح بين فترات وصول وسائل المواصلات العامة. أحسستُ بأن رأسي يدور، كما شعرتُ بتوترٍ شديدٍ في معدتي. وتعرّقت بشدة وبسرعة إلى أن ابتلّت ثيابي.

أعادتني ركلة قوية على فخذي إلى وعيي، وكانت صادرة عن حذاءٍ ذي كعبٍ سميك، يعلوه بنطال واسع من الأسفل. كان الرجل الذي ركلني تابعاً لجهاز الأمن الداخلي [أو أمن الدولة]. رأيتُ شاباً مرتدياً بذلة يقف فوقي، حاجباً الشمس عني، وملوحاً بإبهامه في الهواء؛ وهي إشارة لا بد أنه تعلّمها من مسلسلات الجريمة الأميركية التي يظهر فيها رجال الشرطة أثناء ركلهم لصاً صغيراً في إحدى ضواحي نيويورك. يُحتمل أيضاً أنه كان يتابع مسلسل كوجاك. كان الشرطي مرتدياً ثياباً مناسبة. حاولت أن أنهض، لكنّ ساقيّ ارتعشتا، كما أن الركلة عطّلت عضلاتي. أخذ الشرطي أوراقي الثبوتية، ثم قال لي بالإنكليزية وهو يشير إلى حقيبتي الصغيرة: «افتحها».

فأجبته باللغة الرومانية: «إنها أوراقٌ جامعية». وشعرتُ بأن أصوات الصفارات قد أفقدتني توازني.

«افتحها».

فتحتُ الحقيبة، وكنت حريصاً على أن تسقط أوراق نصوص تروفيم في جانبها الفارغ. وضع الشرطي يده بين الأوراق وهمّ بإخراجها. وفي تلك اللحظة، انطلق صوتٌ صارخٌ من جهاز الاتصال اللاسلكي الذي يستخدمه. فأسقط الشرطي الأوراق مكانها، وردّ بمقطع صوتي إيجابي واحد. عندها، أقفلتُ الحقيبة، وتجهّزت للمغادرة. لكن يده أمسكت كتفي وأرجعتني إلى الوراء. ثم رفع يده اليمنى، وأشار بإصبعه الوسطى وإبهامه إلى عينيه، وبعد ذلك أشار نحوي؛ وكان يعني بذلك أنني تحت المراقبة. كان الرجل نحيفاً وحاد الملامح، ولم يكن يكبرني سناً بكثير، كما كان أقصر مني بست بوصات. لا بد أنه من رجال الأمن، وقد أُخِذ في أواخر أعوام مراهقته من إحدى دور الأيتام التابعة للدولة، ثم تلقى تدريبه على القتال والمراقبة؛ أي أنه ورفاقه يدينون للدولة بكل شيء. لم يكن من الصعب عليّ أن أتذكر أنه قاتل مُدرّب؛ إذ كانت ملامحه الخالية من التعبير، والشرود في عينيه الذي بالكاد تمكّن توتره المقنّع والحاد من إخفائه، من العوامل التي تبقى مدى الحياة.

سرت مسرعاً في الاتجاه المعاكس، وكنت أشعر بثقل في رأسي بسبب الدوار، ترافق مع دقات قلبي المتسارعة. هل فعلاً مرت عشر دقائق فقط منذ سماعي صوت الصفارات؟ أحسستُ أن الوقت أصبح مطاطاً، حيث شعرت أنني أسير فوق وسطٍ مائع، وكل خطوة من خطواتي بطيئة وغير حقيقية. لم أرَ في تقاطع الطرقات التالي إلا المزيد من رجال الأمن، وأحجار الطريق المرصوفة التي عكست ضوء الشمس بسبب كثرة مرور عجلات السيارات فوقها. أما أنوار ما قبل المساء فقد تكسّرت، وبدأت بالانتشار بفعل ذلك المنشور الشاحب من الألوان. شعرت بتثاقلٍ شديد أثناء سيري، وسرت مترنحاً عند المنعطف. بعد ذلك، دخلت متجراً وتقيّأت مجدداً. شعرت بعدة نوبات غثيان جديدة،

فأفرغت معدتي التي أصابها توترٌ شديد. أحسستُ بأن جسمي بأكمله قد أصابه الجفاف، كما أن جلدي توتر وضغط على عظامي.

أسرعت في سيري في الشوارع الخلفية التي كانت أطول من الطرقات الرئيسة، ولكنها على الأقل خالية من الحواجز. تلاشت أصوات الصفارات، ولكن لم تمرّ أي سيارة. أعتقد أن السيارات قد تجنّبت المرور في هذه المنطقة أيضاً، وليس فقط في الطرقات التي كان الرفيق يستخدمها وتمرّ فيها مواكبه الوهمية. سمعت بعد حين أصوات محركات سيارات خلفي، والتي كانت عجلاتها الثقيلة تمر بسرعة في هذا الشارع ذي الاتجاه الواحد. كان ذلك هو الموكب الذي توقّعت مروره، وكان مؤلفاً من أربع سيارات داسيا سوداء اللون راحت تسير بسرعة سبعين أو ثمانين كيلومتراً في الساعة في الشارع الصغير، مُطلِقةً أصوات أبواقها. قفزت إلى جانب الشارع، ووقعتُ أرضاً بينما ضغط حزام حقيبتي على رقبتي أثناء سقوطي. مرّت السيارة الأولى ثم تبعتها الثانية. ولكن، بينما كنت أنهض أصبحت بمواجهة زجاج نافذة السيارة الثالثة. رأيت عبر الزجاج الداكن العينين الصغيرتين المذهولتين، والوجه المجعّد، والشفتين المزمومتين للرفيق الأول. لوّح تشاوشيسكو بترددٍ بعد أن أخفى نصف وجهه تقريباً. هل كان ذلك تشاوشيسكو فعلاً، أم أنه شبيهه يا ترى؟

الفصل الرابع عشر

كان ليو هو الذي وجدني مستلقياً على أرضية غرفة معيشتي مثل نجمة بحرٍ جافة، وهو الذي أحضر أوتيليا التي انحنت فوقي حاملة ميزان حرارة، وكيساً محتوياً على سائلٍ شاحب، وأنبوباً يحتوي على سائلٍ مالح، والذي التمع بلون الأوبال بفعل ضوء الشمس الغاربة. رفعت يدي نحو عينيّ، فشعرت بقوةٍ تشدّها إلى الخلف. فأدركتُ عندها أنني موصول بعدة أنواع من الأنابيب. وهكذا، أصبحت غرفتي أشبه بغرفة في مستشفى ميداني.

نادتْ أوتيليا: «أهلاً بك يا ليو». دخل ليو الغرفة متمهلاً، وحاملاً تحت ذراعه باقةً من مستلزمات نهار الأحد.

«لا تقلق. لقد وقفت الطبيبة الطيبة في الخارج، بينما قام صديقك الحميم ليو بنزع بنطالك وتجفيفه. لم يكن هناك أي عملٍ يتعلّق بالسيّدات». وضع ليو المجلات على طرف السرير، وربّت على ساقي، ثم قال لي: «بالمناسبة، لا تضع ميزان الحرارة ذاك في فمك». وغمز أوتيليا بعد ذلك مبتسماً، ثم غادرنا.

«ما الذي أصابني؟!». كان صوتي أجشّ، وشعرت بألمٍ في حنجرتي بسبب التقيؤ الجاف. رأيت بجانب السرير على الأرض وعاءً مليئاً بسائلٍ قذر تطفو على سطحه طبقة من الرغوة، وبدا لي ذلك السائل وكأنه مياه مستنقعات.

«هل أنت مستعدٌ لسماع الأنباء الطيبة؟».

وانحنى ليو فوقي. كانت نظارته على طرف أنفه، وتظاهر بأنه يقرأ من لوحة؛ أي مثلما يفعل المستشار البدين في فيلم الطبيب في المنزل. كانت رائحة أنفاسه ممتزجة برائحة الشراب الذي تناوله مساء. «أنت هنا منذ يومين بعد إصابتك

بالدوزنطاريا الأميبية. أصبنا بها جميعاً في البداية، ولكنك كنتَ محظوظاً لأنني عثرت عليك. جلبتْ لك أوتيليا الحلوة كل الأدوية والعلاجات التي احتجتَ إليها لكي توفّر عليك عناء الذهاب إلى المستشفى. أتعلم ما الذي يقولونه هنا في هذه الجنّة الاشتراكية؟ يتواجد سريرٌ على الدوام، ولكن المشكلة هي أن المريض لا يخرج أبداً... لكنّ كل شيء على ما يرام الآن. هذه هي الأنباء المفرحة». رفعتُ نفسي قليلاً بينما تابع ليو حديثه: «يأتي بعد ذلك الجزء المزعج من الأنباء. إذ لن يُسمَح لك بمغادرة المنزل قبل مرور أسبوع آخر، وذلك بحسب أوامر الطبيب».

«هل جاءت سيليا لزيارتي؟».

«أجل. أتت البارحة، ولكن ميزان الحرارة كان في مؤخرتك، وكنتَ تهذي بشأن ونترسميث. تركتْ لك بعض التمنيات الطيبة، وباقةً من الأزهار. لم أشعر بأنها تحب زيارة المرضى... كانت خارج البلد في الفترة الماضية، وقد عادت لتوّها من بلغراد». وتغيّرت ملامحه قليلاً، وكأنه تذكّر شيئاً ما على نحوٍ مفاجئ. فأشرتُ له نحو جهاز الهاتف، ولكنه هزّ رأسه قائلاً: «ليس الآن. انتظر قليلاً كي ترتاح».

قالت لي أوتيليا إنها تمكّنت بفضل أساليب ليو الملتوية من الحصول على كل ما تحتاج إليه لمعالجتي، كما أنها لم ترغب في معرفة مصدر تلك التجهيزات الطبية. حمل أنبوب المصل كتاباتٍ باللغة اليونانية، كما أن الحفاض المصنوع من النايلون الذي كنت أستخدمه تم إحضاره من علبة حملت كلمات عربية تفيد بأنه من الهلال الأحمر، ومن توضيب تركي. أما علب حبوب الأدوية المختلفة فقد حملت كتابات تكفي لتشكيل أمم متحدة بحد ذاتها. شعرت بأنني منعزلٌ عن الآخرين، ومرتاح، ولكن من دون أن أقوى على فعل أي شيء. كان كل شيء حولي مشوشاً بشكلٍ غريب، إلاّ أنه على طريق التحسّن: التماع الأنوار، وعدم الوضوح الذي بدا على أطراف الأبواب والنوافذ، وكذلك الوعاء الذي اشتمل على فاكهة نادرة؛ هذا إذا لم تكن غريبة مثل البرتقال والتفاح والمشمش؛ ما جعل

الطاولة إلى جانب سريري توحي بالحياة والحيوية.

التمع الضوء الأحمر في هاتفي، فضغطتُ على زرّ تشغيل الرسائل. كانت الرسالة الواردة من تروفيم، وجاء صوته مثل صرخة جعلتني أجفل. أغمضتُ عينيّ مجدداً، وعدت إلى النوم. ميّزت صوت ليو بعد فترة من الوقت، وكان قد وجدني متقلّباً بين أغطية السرير الساخنة، وقد تخلّصت من الأربطة التي تقيّدني وأنابيب المصل. سمعتُ في وقتٍ ما من منتصف الليل صوت الإذاعة العالمية بي. بي. سي. واستيقظت بعد ذلك على صوت ضجيجٍ مريع، وكان أشبه ما يكون باصطدام الحصى في قعر نهر. دفعت نفسي نحو المصباح القريب من السرير وبحثت عن المفتاح الخاص به، ولكنني وجدت ليو الذي كان جالساً على المقعد بكامل ثيابه وهو يشخر. صرخت منادياً إياه، ثم ألقيت قلماً على رأسه، ولكنني فشلت في إيقاظه.

تخلّصت من أنابيب المصل والأربطة في اليوم الرابع، وشعرت بما يكفي من القوة للذهاب إلى الحمّام بمفردي ومن دون مساعدة. وخلال هذه الفترة، كنت قد خسرت بعض الوزن، كما أن خدّيّ قد ضمِرا بعض الشيء، بينما أحاطت دائرتان داكنتان بعينيّ، وصار جلدي شاحباً، وامتلأت ذراعاي بثقوب الحقن. سرتُ نحو غرفة المعيشة، حيث أقام ليو ما يشبه المخيّم هناك. رأيته بينما كان يتصفّح لوسيا فارول ويستمع إلى بثّ راديو موسكو باللغة الإنكليزية. استمرّ جهاز الرد في الهاتف في الوميض، وهكذا استمعتُ إلى الرسالة مجدداً:

صديقي العزيز، أتمنى أن تكون على ما يرام. لم تحضر يوم الأحد، ولا يوم الاثنين. أشعر بالقلق عليك، وبطبيعة الحال على ما وصل إليه عملنا. دعني أعرف بما جرى. أعتزم دراسة حركات الشطرنج في مكاني المعتاد. أما إذا لم تجدني هناك فأنت تعرف أين أكون. أطيب تمنياتي، صديقك سيرجيو تروفيم...

كانت رسائل تروفيم الهاتفية أشبه ما تكون بالرسائل البريدية؛ وهو الذي يبدأها بالتحيّات، وينطق بجملٍ تامة، ثمّ ينهي المكالمة بالتمنيات الطيبة وبذكر اسمه. كانت هذه هي الرسالة التي تخيّلتها وسط الحمى التي أصبت بها، واعتبرتها نوعاً من الترميز الغامض.

قلت لليو: «أريد أن أتحدث مع تروفيم. إنه أمرٌ هام... لم يرني الرجل منذ أسبوع تقريباً، وأنا أحتفظ بشيء يخصّه». وفي تلك اللحظة، لاحظتُ أن حقيبتي مفتوحة ومعلقة على مقبض الباب. بحثت داخلها، لكن الأوراق والقرص المرن كانت قد اختفت.

فأجابني ليو بتكاسل: «لقد رتّبنا الأمر. أين تظن أنه يتناول غداءه؟ في كابسيا أم في قاعات الاحتفالات في وزارته القديمة؟ أم في زنزانة تشتمل على مقعدين طويلين وثمانية أشخاص في سجن جيلافا؟ إنه ابن تلك المؤسسة قبل كل شيء... » شعرت بالذهول؛ ليس لأن تروفيم أخفى شيئاً عن ليو، بل لأنه يُخفي معلومات عن طبيعة ما يكتبه حتى عن أصدقائه المقرّبين، وكذلك عن آخر ما وصل إليه في كتابه، وعن خططه لنشره. لم أكن على علمٍ بهذين الوضعين الأخيرين؛ بالرغم من معرفتي أنه يتواصل مع ناشرٍ فرنسي بالاستعانة بأحد موظّفي السفارة البلجيكية. يُضاف إلى ذلك أن تروفيم يتعمد إبقاء أجزاء الصورة مفكّكة، أي مثل أجزاء الأحجية المبعثرة في أنحاء المدينة، وعبر لغات، وعبر مجالاتٍ اجتماعية عديدة.

لاحظت أن تروفيم قد ترك لي كتاباً قديماً من تأليف تيودور آرغيزي؛ وهو بالمناسبة الشاعر المفضّل لدى تروفيم، وكذلك لدى يونيسكو. كان الكتاب موقّعاً من آرغيزي، كما تواجدت داخله ورقة تهنئة من الأمم المتحدة تحمل اسم تروفيم. تصفّحت الكتاب أثناء انشغال ليو في تحضير طعام الغداء في المطبخ. لكن، لم تكن الكلمات ما أثار انتباهي؛ وذلك لأنني كنت متعباً جداً لدرجة عدم

قدرتي على التركيز على الكلمات. بل ما أثار انتباهي هو لون الصفحات الأصفر، وكيف أنها بدأت تتجعّد وتتفتّت بدلاً من تمزّقها. كانت صفحات الكتاب مصنوعة من أوراق الأرزّ، كما كانت مسنّنة عند الأطراف، فبدت مثل أجنحة الفراشات التي تعرضت للضرر بسبب محاولاتها الدؤوبة للاقتراب من ضوء المصباح والنوافذ. أصدرت الأوراق أثناء تقليبي إياها غباراً علق بحنجرتي، وجعلني أحكّ عينيّ.

كان تيودور آرغيزي متعاوناً مع العدو خلال الحرب التي استمرت من العام 1 وحتى العام 1945، وكان ضد الفاشية في الحرب التي استمرت من العام 1939 وحتى العام 1945، ومنشقاً في سنوات حكم ستالين، وشاعراً قومياً في حقبة جيورجي - ديج. ولكن، بعد الحرب الثانية، تعرّض للشجب على يد الستالينيين، كما وُصِف في مقالة حملت عنوان شعر الانحطاط وانحطاط الشعر بأنه شاعر البورجوازيين، وشاعر الاعتلال والانحلال والمغالاة والفساد والضمير المتعفن... عرفتُ كل هذه المعلومات من مذكرات تروفيم. عرف تروفيم آرغيزي قليلاً عندما كان يضايقه، وعندما أشرف على إعادة تأهيله بعد ذلك، ولكنه كان معجباً به على الدوام، وأكثر القرّاء نهماً لقراءة كتبه. كان تروفيم يحفظ أشعار آرغيزي عن ظهر قلب، وذلك بالرغم من كونه أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، والذي عُهِد إليه بمسؤولية خاصة؛ وهي إعادة تقييم التقييم النقدي لأعمال آرغيزي. وقد تسبّبت إعادة التقييم تلك في طرد الشاعر من اتحاد الكتّاب وحظر أشعاره.

كان هناك فصلٌ في مذكرات تروفيم - وأعني المذكرات الأصلية، وليس تلك الزائفة التي كان يكتبها لدار النشر الرسمية - يتحدث فيه عن الفترة التي تلت الحرب، وكيف أنّ الشاعر المُسنّ كان مغضوباً عليه، وكيف اضطر إلى بيع الكرز الذي ينتجه بستانه الواقع في سترادا مارتيسور من أجل تأمين معيشته. اشترى

تروفيم بعض الكرز ذات يوم بعد أن شاهد آرغيزي جالساً على درجٍ خشبي بجانب الطريق. لم يكن بوسع الشاعر المسن حينها معرفة أن أحد الذين سببوا له العذاب كان واقفاً أمامه. لكنّ تروفيم كان يُدرك أنه بالإمكان فعل الشر عن طريق التحكّم عن بُعد. وقد كتب تروفيم في مذكراته: «شعرت بأنني رجلٌ خسيس، كما كنت عاجزاً عن معرفة ما يشعر به تجاهي - ربما لا شيء، إذ كيف له أن يعرف؟ - ولكنه تمكّن من سحب كل ذنوبي وكراهيتي لذاتي إلى السطح، بنظرة عينيه النفاذتين والعارفتين. طلب الشاعر سعراً عالياً للكرز الذي كان يبيعه، وهكذا دفعتُ ضعف السعر المتعارف عليه. كان يعرف أنني مذنب، ولم تشكل طبيعة ذنبي أي فارق بالنسبة إليه. إنه يعرف وكفى».

زرع تروفيم إحدى بذور الكرز في حديقته الواقعة في هيراستراو. وقد كبُرت الشجرة بعد ذلك، كما أن أزهارها استمرت في الظهور على مدى أربعين سنة مرحّبة بالربيع، ولكن تلك الشجرة لم تُثمر ولو حبة كرزٍ واحدة.

وصف تروفيم ما حدث بأنه «التحكّم عن بُعد»، فهو لم يلوّث يديه بالجهود اليومية الرامية إلى تشويه سمعة آرغيزي، وذلك لأنه انتدب أحد الشبان الجامعيين للقيام بهذه المهمة. ويعني ذلك أن العمل القذر، والمتمثّل في تشويه سمعة آرغيزي في الصحافة والتضييق على أصدقائه وقرّائه وتحفيزهم على نبذه، كان بقيادة أستاذ أدب شاب. ولكن، عندما أشرف تروفيم على إعادة تأهيل آرغيزي بعد مرور عشر سنوات، اختار أستاذ الأدب ذاته الذي لم يعد شاباً كما كان من قبل، وكلّفه بكتابة بحثٍ يُبرّر إعادة الاعتبار لمركز الشاعر المسن بوصفه شاعراً قومياً وكنزَ حياتنا الأدبية. لم يعمد تروفيم إلى تسمية ذلك المسؤول الأدبي في كتابه، كما ظلّ مصراً على رفض إخباري باسمه عندما كنت أسأله عنه. وهكذا، افترضت أنه مات، أو وقع فريسة النسيان.

لكن الآن، عندما وصلت إلى آخر صفحة من أشعار آرغيزي، رأيت مظروفاً مليئاً

بأوراقٍ صفراء مقتطعة من الصحف. كانت هذه الأوراق مرتبةً بشكل تصاعدي؛ أي بحسب درجة النقد اللاذع الذي تتضمنه. حملت المقالة الأولى، والتي كانت بتاريخ آذار من العام 1965، العنوان شعر التراجع البورجوازي. أما المقالة التالية التي ظهرت بعد المقالة الأولى بأسبوعين من الزمن فقد حملت العنوان البورنوغرافيا العاطفية. ورأيت بعد هاتين المقالتين عناوين أخرى مثل التعفن والانحلال: إهانة آرغيزي للحياة، وهي المقالة التي اشتملت على الأسباب التي توجب طرد آرغيزي من اتحاد الكتّاب، وإلغاء أشعاره من المناهج الدراسية. كانت كل هذه المقالات موقّعة باسم آندريه يونيسكو.

يونيسكو! هل يعني ذلك أن أعمال يونيسكو كانت بطلب من تروفيم؟ وبعد مرور عقدٍ من الزمن، تكرّرت العملية نفسها عكسياً. فقد زعمت إحدى المقالات أن الذوق الاشتراكي يتضمن الآن ما يكفي للاعتراف بالتجربة مع ما أسمته نزوات الموضوعية بوصفها نقيض الحقائق المادية العلمية الواضحة. وأضافت المقالة أنه في النهاية ظهر «عملاق الأدب العالمي من زوايا الإهمال التي عانى منها طويلاً بسبب تواضعه ولطف مزاجه». كانت المقالة مليئة بالسخرية إلى الحد الذي يثير الشفقة، بالرغم من أنها أصبحت فكاهية في هذه الظروف، وبالرغم من وضوح القسوة والخوف الكامنين وراءها. لاحظ ليو تفحّصي للمقالات التي سبقني إلى قراءتها، فقال لي:

«أليس هذا مذهلاً؟ يونيسكو القديم يدمّر سمعة الشاعر المسكين، ثم بعد مرور سنوات قليلة يقوم بوصفه بأنه أعظم شاعر في القرن! يصعب على المرء أن يفهم الأمر! انتظر إلى أن أخبر جوانا. إن هذا يجعل ما يدور في هذه الأيام من أحداث يبدو مبدئياً».

أغلقتُ الكتاب وأعدته إلى مكانه على الرف، وشعرت بالحزن وخيبة الأمل. لكن، إزاء ماذا؟ وإزاء مَن؟ في النهاية، عرفت كل شيء. لم أعرف التفاصيل

بطبيعة الحال، ولكنني عرفت ما يجري. عرفت بشأن تروفيم ويونيسكو، وسيليا، وكل الآخرين... وكنت ضالعاً في الأمر بدوري، حتى إنني عرفت هذا. شعرت في هذه اللحظة بأنني منشغل بأشياء كثيرة؛ رغم أنني وحدي. كما شعرت بأنني متورط في عالمٍ لا تتغير قواعده على الإطلاق.

«لا يهمّني ما فعله في الماضي». تدخّل ليو في حديثه مع نفسه، وذلك لأنني لم أقل له شيئاً وتابع: «كان يونيسكو محقاً. لكن، يا للفتى المسكين يونيسكو! لا يوجد رابحون هنا؟ حتى إن تروفيم العجوز لم يربح شيئاً. حصل الرجل على شقةٍ جميلة، وامتلك السلطة والصديقات والمال، كما سُمِح له بالقيام بزيارات إلى خارج البلاد. لكن، من أجل ماذا؟ هل كان ذلك مقابل نظامٍ راكعٍ على ركبتيه في مدينة تنهدم على مسمع منه. لكنّ ذلك ليس شراً بحد ذاته، بل ما هو إلا سحابة داكنة. والجهاز الأمني، والمواكب، والكلاب البوليسية... لا يُعتبَر كل ذلك شراً، بل فشلاً، وكل شيء فشلٌ ذريعٌ ومستمر. أيمكنك أن تتذوقه، وهو بمذاق قارورة من الشراب غالي الثمن، وشاتوبريان من كابسيا، وبمذاق خبز البطاطا القاسي والمحضّر في اليوم السابق، وبعض الأسماك الآتية من كوريا. لم أتمكن من تقرير ما إذا كان عطر سيليا من ماركة شانيل 5 ما أشمّه الآن، أم رائحة إبط امرأة متشردة. إنها رائحة الفشل ذاتها».

لم أردّ عليه. وتمكنتُ بعد مرور بعض الوقت الذي كنت خلاله نصف نائم من تمييز رائحة أوتيليا إلى جانبي. كانت ترتدي ثياب العمل، ولكنّ رائحتها كانت رائحة الصابون والجلد النظيف. وما إن استندتْ عليّ لتنتقل إلى الجهة الأخرى من السرير حتى لامس شعرها وجهي. تمكّنت من تمييز رائحة أزهارٍ بدت خفيفة جداً، ولكنها لم تكن رائحة أي زهرةٍ أعرفها. فتحتُ عينيّ قليلاً، ولكن بدا لي أنها سمعت صوتاً خفيفاً صادراً عني، فقد انحنت نحوي، ووضعت أصابعها على عينيّ بلطف وأغمضَتهما كي أستعيد الظلمة التي كانت محيطة بي. انتبهتُ

بعد ذلك إلى أصوات هامسة عند الباب المجاور، ثم سمعت صوت الباب الأمامي وهو يغلق بهدوء، بينما كان ليو يرافقها إلى منزلها.

حلمت في تلك الليلة بما يشبه المسلسل من كتاب تروفيم؛ وكأنني أراه بعينيّ. تذكرت تلك الفصول كلمة كلمة، وذلك لأنني طبعتها بنفسي، ولا بد أنني حفظتها بهذه الطريقة، وكنتُ دقيقاً في نقل كل التفاصيل؛ بجمالها البارد والحزين. قال تروفيم عنها عندما قرّر السير في ركاب الستالينية إنها تجسيدٌ للبراغماتية. عندها، تخلّى الرجل عن تحالفاته وصداقاته، وتنكّر ليهوديته، وانضم إلى المستفيدين من العفو، وهكذا نال ترقية سريعة.

«توضح كل شيء في الطريق إلى موسكو من أجل لقاء ستالين في العام 1951: تطلعتُ من نافذة الطائرة، وكانت الشمس الغاربة تختبئ وراء جدارٍ من الجليد والبرد القارس، والمنخفضات الجوية، وذلك الضغط الذي يولده الفراغ الذي يُبقي الطائرة في الجو آمنة بينما يهدد بتدميرها في الوقت ذاته... قلتُ في نفسي: هكذا إذاً تجري الأمور، وهكذا كانت تجري في السابق، أي فراغ تحت السيطرة. لكن، كلّما ركبتُ طائرة خلال العقود التالية من السنين، وسواء أكانت رحلة محلية لشركة تاروم أم رحلة على متن طائرة كسينجر النفاثة الخاصة، فإن تلك الرؤية تواجدت باستمرار لتذكيري بمقولة هكذا تجري الأمور. ما زلت أؤمن بهذه المقولة، ولكنني لست مستعداً لتكرار الكثير ممّا قمت به على ضوء ذلك المعتقد، أو القيام به بطريقةٍ مختلفة إن سنحت لي الفرصة مجدداً.

وصل ليو في صباح اليوم التالي عند الساعة التاسعة، وقال لي: «آسف لأنني لم أعد في الليلة الماضية؛ فقد كنت منشغلاً جداً. سمعنا أن كنيسة سان باراشيفا في ليبسكاني تتعرض للهدم. وقد رافقتني أوتيليا إلى هناك؛ إذ أرادت أن ترى كيف تجري الأمور. كانت كرات الهدم قد انتهت من عملها عند وصولنا، ولكنني تمكنت من التقاط بعض الصور».

وضع ليو شريط فيديو في الجهاز، ورأيت وسط شبه العتمة المخيّمة رجالاً يقومون بنزع الألواح النحاسية عن إحدى القباب. بدت تلك القبة وسط الركام وكأنها سلحفاة ضخمة، بينما كان العمال يُجهِزون عليها بالمطارق والكمّاشات. لم تكن الصورة واضحة بل كانت مهتزة، إذ تم التصوير من نافذة مجاورة كان إطارها الخشبي يعترض الصورة على الدوام، كما كان يؤطّرها أحياناً، ويسمح لها بالظهور في أحيانٍ أخرى. كانت الشاحنات تأتي وتغادر بصمتٍ، بينما كان شبح الشمس يرتفع من وراء الركام. وبعد مرور دقائق قليلة، تقدمت يدٌ من اليسار وغطّت العدسة. كان ذلك كل شيء. أخرج ليو الشريط من الجهاز وأعاده إلى علبته التي حملت عنوان شوك نوريس، في عداد المفقودين.

زارتني سيليا للمرة الأولى بعد مرور أسبوع من الزمن. كنت أمضي معظم يومي في السرير، كما أن ليو استغل فرصة مرضي ليقيم في شقّتي. كانت أوتيليا تتصل بي في معظم الأيام، وكانت تفعل ذلك عادة في فترة متأخرة من الصباح، أو بين فترات مناوبتها في المستشفى. أما تروفيم فقد زارني مرتين، وأدركت أنه مستاءٌ من التأخير الذي طرأ على عمله. وقد قال لي إن مساعِدته المخلصة قد استُبدلت برجلٍ حزبي موالٍ، وعلى دراية بالحاسوب، وكان اسمه هادريان (الجدار) فينتايل، وكان يقوم بإلغاء كلّ ملفٍ جديد ويأخذ معه النسخة الوحيدة من عمل كل يوم. وللمرة الأولى منذ أن بدأنا العمل، خيّم علينا إحساسٌ بضرورة التعجيل في المشروع، وبأن الوقت بدأ ينفد.

أحضرت سيليا بعض الشوكولا، والأزهار، وثمرة أناناس كبيرة الحجم بدت أوراقها مثلما يبدو مشهد انفجار في حلقة رسوم متحركة. كما أحضرت عيّنة من العطر الذي يستخدمه والدها من أجل مساعدتي على استعادة عافيتي. سألتها عن سبب تأخرها في المجيء لزيارتي، وعدم قدومها في الأيام العشرة الماضية.

«كان لديك مَن يهتم بك، وكنت سأقاطع شيئاً ما لو أتيت. لكنني لاحظت أنك

بين أيدٍ أمينة، وقد انتظرتك حتى تستعيد عافيتك». وجلست على طرف السرير، وما لبثت رائحة عطرها أن اختلطت مع رائحة الغرفة الكيميائية التي لا اسم لها. لاحظت أنها قامت بطلاء أظافرها، كما أشعلت سيجارة بال مول أخرى، ونفثت دخانها إلى خارج النافذة؛ ويعتبَر ذلك تنازلاً منها للمتطلبات الطبية. بدت سيليا أكثر سمرةً بقميصها وبنطالها الجينز ذي اللون الأبيض، كما رفعت نظّارتها الشمسية ووضعتها فوق شعرها. لاحظتُ كذلك أنها ترتدي الثياب ذاتها التي كانت ترتديها عندما التقينا للمرة الأولى. يبدو أن مركز التجميل في فندق الانتركونتيننتال كان منشغلاً بها، أو أن طقس بلغراد كان مشمساً إلى درجةٍ حارقة.

بذلت جهداً للنهوض من السرير، وتوجّهنا إلى غرفة المعيشة بعيداً عن كل علامات المرض والاعتماد على الآخرين. تلفعت بعباءة مخططة لا تناسبني، ثم جلستُ على الأريكة، وطلبتُ منها تحضير الشاي. لمستُ ذراعها عند عودتها، ولكنها جفلت وابتعدت قليلاً.

عرفتُ في تلك اللحظة - من برودة جلدها وإجفالها عندما لمستها - أن كل شيء قد انتهى. فقد كانت متحفظة جداً، وبدا لي أن ذلك كان نهائياً بالشكل الذي يقرّره الجسد وحده. أعرف أنه بالإمكان تغيير وجهة العقل، وأنه بالإمكان مراجعة الآليات العقلانية لتعود إلى سابق عهدها، غير أنه لا يمكن عكس معرفة الجسد. وأدركت في تلك اللحظة أيضاً سبب تجنّبها لي في الأسابيع القليلة الماضية، والسبب الذي دفعها إلى عدم التكلم معي، أو الاتصال بي؛ منذ تلك الليلة التي قضيناها مع نيقو والصربيين. عرفت منذ تلك الليلة أن شيئاً ما قد تغيّر.

قالت بتكلّف: «جئت لأطمئن عليك».

«وماذا بعد؟».

«ماذا تعني؟! لقد أظهرت لي في تلك الليلة طبيعة تفكيرك بي بالفعل. لاحظت حينها كل شيء: طريقة نظرك إليّ وكأنك تملكنني، ودهشتك عندما رأيت أولئك الأوغاد يلمسونني، وكيف أن جزءاً آخر منك أراد قتلهم... ظننتُ في البداية أنه بإمكاننا أن نكون معاً، ولكن من الواضح أن ذلك لن يحدث أبداً. فأنت لا تثق بي، كما أنني لست متأكدة من أنك مهتمٌ بي. ومع ذلك، أعرف أنك تعتقد أنك تهتم بي. لكن عند انتهاء علاقتنا الجنسية، وانخفاض مستوى معيشتنا الراقي سوف تكرهني. يُضاف إلى ذلك أنك تبعتَني وبحثت عني، وكنت تعتقد أن هذا هو الحب، ولكنك لا تعرف أكثر من ذلك بطبيعة الحال. إنني آسفة من أجلك. يا إلهي، حتى إنك شككتَ بأن لي دوراً لعبته في أي شيء حدث لذينك الشابين... » وبعد ذلك أشاحت بنظراتها بعيداً عني.

فسألتها بسرعة: «وما الذي حدث فعلاً لذينك الشابين؟».

«لا أعرف. ولماذا يُفترض بي أن أعرف؟! ولكنك تعتقد أنني مسؤولة عمّا حدث لهما».

«ما تقولينه ليس صحيحاً. فقد كنت مغرماً بكِ وما زلت كذلك، وأنت تعرفين هذا».

«كنت أعتقد أنني أعرف. ولكنني الآن أعرف أنك كنتَ تظن أنني أريد أن أكون غريبة، وأنني لست نبيلة أو نقية مثل أولئك الذين يتعذبون؛ أي مثل صديقتك الجديدة أوتيليا على سبيل المثال... ».

«لا شيء بيني وبين أوتيليا... ».

«لا. ربما لا شيء بينكما؛ وذلك لأنها تستطيع النظر من خلالك. أما أنا فلا، وتلك

كانت غلطتي. وقد كرهني أصدقاؤك منذ اليوم الأول. يختبئ ليو وراء سلوكه الصبياني، أما أصدقاؤك الأنقياء الذين كانوا أفضل مني مثل جوانا بمؤهلاتها الكاملة، وأوتيليا بسبب عملها في المستشفى... » وهنا توقفت سيليا عن الكلام وبلعت ريقها، ثم حاولت أن تكمل، غير أنها عادت لتدخين سيجارتها ونفثت دخانها نحوي. لاحظتُ ارتجاف أصابعها، ثم أغمضت عينيها، وبدا لي أن هناك شيئاً آخر تود أن تقوله. وبعد قليل، تابعت قائلة: «... على أية حال، أعرف الآن أنني لست حرة، وربما لم أكن حرة في أي يومٍ من الأيام».

«أتقولين حرة؟ لا تقولي ذلك. سمعت ما يكفي من كل هذه الأحاديث اللعينة عن الحرية... ».

«اسكت. أعني حرة لكي أكون معك. لم يكن يجدر بي أن أبدأ هذه العلاقة».

«إذاً، لقد كنتِ على علاقة مع شخصٍ آخر، أليس كذلك؟ ظننتُ ذلك بالتأكيد!».

«كلا. أعني أنني كنت على علاقة مع أحدهم قبل أن ألتقيك. ولكنني لم أقِم علاقة مع أحد عندما كنا معاً. أنتَ تعرفه أيضاً. وقد حدث ذلك هنا في هذه الشقة، وأنت تعرف ذلك بطبيعة الحال، وهم يعرفون... » وكانت تعني ليو ويوانا. «كان بيلانجر... » صمتت قليلاً قبل أن تكمل: «الأمر معقّد قليلاً... ».

«لم أكمل دراستي الجامعية، ولكنني أظن أنني أفهم حيثيات قصة عودة صديقتي إلى حبيبها السابق في الوقت الذي كان يُفترض بي تسوية أوضاع منزل والديّ الذي ورثته عنهما! كم كان من المؤسف بالنسبة لي ذهابي إلى فندق الانتركونتيننتال في تلك الليلة!».

«الأمر ليس كما تقول. فقد اتصل بي وطلب مني العودة إليه، غير أنني لم أعده بشيء غير اللقاء. فوالدي يكرهه، وقد أجبره على مغادرة البلد، لذا ذهبت للقائه في بلغراد. إنني آسفة، ما كان يجدر بي أن أفعل ذلك».

عندها، سألتها بأقصى قدرٍ من السخرية الممكنة: «وهل استغرق منك تحضير كل ذلك ستة أسابيع؟». وكنت قد أدركت عند ذلك أنني خسرتها بالفعل، فتابعت: «أم أن تصميمك على الأمر حدث بين فترة الرقص مع نيقو، وجلسات طلاء الأظافر، والزيارات إلى كابسيا؟ أمضيتُ الشهر المنصرم في التوسّل إليك كي تسامحيني، وأذللتُ نفسي وأنا أترك الرسائل على جهاز الرد على الاتصالات، أما أنتِ فكنتِ قابعةً في بلغراد ومنشغلة مع صديقك السابق».

استدارت سيليا لتنصرف بعينين دامعتين، وقالت: «توقعت منك شيئاً أفضل من هذا. لكن، يبدو أنك قلّلتَ من اعتباري، وفي أعماقك لم تعلّق أهمية كبيرة على وجودي معك. حسناً، لقد رأيتَ ما أردتَ أن تراه، وحصلتَ على ما أردت الحصول عليه. إنني آسفة، وسوف أرحل الآن».

شعرتُ بتعبٍ مفاجئ، وأردت النهوض لأحاول ثنيها عن المغادرة، غير أنني ارتميت على مقعدي مجدداً. وبعد قليل، سمعت صوت الباب وهو ينغلق وراءها.

عاد ليو مع أوتيليا في وقتٍ لاحقٍ من ذلك المساء. كنت قد استسلمتُ للنوم على الأريكة، واستيقظت وأنا مبلل بعرقي البارد. كانت الأيام الأولى مليئة بالتشنجات، وفي ذلك علامة على أن جسمي قد بدأ يطرد المرض منه. أما الآن ومع تباطؤ وتيرة التشنجات، بدأت المرحلة الباردة من إخراج السموم من جسمي تُشعرني بالألم مثل المرض ذاته، ولعلها كانت تريد إقناعي بأنني بدأت بالتحسن. كان ليو وأوتيليا محمّلين بأكياس المشتريات والقوارير، وكانا بمزاجٍ جيّد ومَرِحين؛ إلى حد أنني عجزت عن مجاراتهما. فقد نجح ليو في إقناع أوتيليا بالتوجه إلى أحد متاجر الحزبيين النافذين، أي استطاع كسر مقاومتها.

انضمّت إلينا جوانا إلى مائدة العشاء. وكان ليو قد قام بمساعدة أوتيليا، بطبخ

وجبة غير متوازنة. وهكذا، وضعا كل جزءٍ منها في طبقٍ منفصل، في حين كان يتوجب وضع كل الأجزاء في طبقٍ واحد. وكانت النتيجة أن إعداد العشاء امتد حتى وقتٍ متقدمٍ من الليل، وتخلّلته فترات من المرح والضحك آتية من المطبخ، وسط قرقعة الأطباق والمقالي. سمعنا صرخة رعب مرة واحدة على الأقل، ولكنها ما لبثت أن تحوّلت إلى تعبير عن الارتياح قبل أن تنتهي بضحكة. سألتُ أوتيليا عمّا فعلته في متجر الحزب، فأجابتني بأن المكان قد أرعبها بالرغم من أنه مكّنها من تكوين صورة عن الشائعات الرائجة في البلاد. فهي لم تعثر على شيء هناك لم تعرف عنه من قبل. وتأكدها من ذلك ساهم في تحرّرها. لم يكن قد مضى وقت طويل منذ أن وقفتُ مشدوهاً - أنا المواطن الغربي المعتاد على الأرفف المزدحمة بالسلع في المتاجر والمحلات التي تفتح أبوابها حتى أوقات متأخرة - عند رؤيتي السلع الفاخرة المتوفرة للطبقة الثرية هنا. لكن الدهشة ستكون أكبر بكثير بالنسبة إلى امرأة مثل أوتيليا بالتأكيد.

تمتّعت جوانا بمزاجٍ أفضل من أي وقتٍ مضى، وذلك بالرغم من أن العلاقة الوثيقة التي ربطت بين أوتيليا وليو قد أثارت شكوكها في البداية؛ وهو أمر لامتني عليه كثيراً. تحدّثت جوانا خلال زيارتها الوحيدة لي عن اهتمام ليو المفاجئ بالطب، وأرادت بذلك أن تقول لي إن مرضي كان عذراً مناسباً لعلاقتهما الجديدة. لكنّ جوانا كانت مخطئة، غير أنها ليست من النوع الذي يعترف بارتكابه الأخطاء. تسرّعت جوانا في الابتعاد عنهما، وكان ذلك مجرد عقبة في مسيرتها لمعرفة الحقيقة. ولكنها كانت ترى أن الحقيقة إلى جانبها على الدوام. وهي بالنسبة إليها واحدة، وغير قابلة للتجزئة، وواضحة، وليست متعددة؛ وذلك لأن ليو هو الذي يتعامل مع الحقائق غير الواضحة أو الجزئية.

راقبتُ أوتيليا أثناء تناولها الطعام. في البداية، كانت تأخذ لقمات تجريبية، وتتناول بعدها جرعة من الشراب الفرنسي، ثم تعيد الكرة بعد ذلك. فاجأتني

في إحدى المرات وأنا أنظر إليها فابتسمت، وسارعت إلى تناول قطعة من اللحم المحشو الذي كان في طبق ليو باستعمال شوكتها.

«أعتقد أنه يمكنني العد على أصابع اليد الواحدة المرات التي أكلت فيها اللحم هكذا». دفعت أوتيليا قطعة اللحم إلى أطراف طبقها، مغمسةً إياها بالصلصة، ثم تابعت: «إنني أبالغ، ولكن... حسناً... لم أكن بعيدةً جداً عن الحقيقة».

عندها، نظرت جوانا نحوها وقالت: «إنكِ تمضين أوقاتاً كثيرة مع هذين الرجلين، ولذلك سوف تكونين أكثر آكلة لحم في بوخارست. أما بالنسبة إلى سيليا قسطنطين - حبيبة صديقنا هنا - فإنها الدليل الحي على السبب الذي نضطر فيه إلى أكل الكرنب المسلوق، وشرائح اللحم المغمسة بالصويا». كان ذلك هو النموذج الذي تعتمده جوانا في اللحظات المرحة، ولذلك سارعت إلى تصويب ابتسامة سريعة.

عندها، تدخلتُ لتصحيح المعلومة، وأضفتُ بلهجةٍ واثقة تليق برجل: «السابقة». لم أكن قد تناولت الطعام كما يجب في الأيام القليلة الماضية، لذا شعرت بأن الطعام ثقيل في معدتي. «الحبيبة السابقة».

صرخ ليو: «السابقة؟!». أخبرت الحاضرين عن بيتر وفينتول، وعن لقائنا إياهما في وقتٍ سابق، وشرحت لهم ما أؤمن به بقوة، وقلت إنه لا علاقة لسيليا بما حدث؛ هذا إذا كان أي شيء قد حدث مع بيتر وفينتول على الإطلاق. لكن في تلك اللحظة، خطرت فكرة في ذهني: لقد عرفتْ سيليا أن شيئاً ما قد حدث لهما، أليس كذلك؟ فقد قالت ذينك الشابين...

أسرعتْ جوانا إلى مقاطعتي: «تعرف جيداً - كما نعرف نحن - أنها وراء كل ما حدث معهما. يُحتمل أنها لا تتحمل المسؤولية، وربما لم ترغب في حصول ما حدث لهما. غير أنها انضمّت إلى حلقتنا؛ وهي ابنة زعيم الحزب... » عند ذلك،

ندمتُ على فتح الموضوع.

وقلتُ: «إن ما تحاولين قوله هو أنني الشخص الذي أدخلها حلقتنا، أليس كذلك؟».

لم تنكر جوانا ما قلته وأجابت: «لقد فعلتَ ما ظننتَ أنه الأفضل، وتصرّفتَ بالطريقة التي تُعتبَر طبيعية بالنسبة إليك. إنها ليست غلطتك بالمعنى الدقيق للكلمة». بالمعنى الدقيق للكلمة... لم تكن هناك دلالة أكثر وضوحاً بأن جوانا تعتقد أنها غلطتي.

عندها، لم أسكت، بل قلت: «لا أعتقد أنها غلطتي. وأظن أنك ترتكبين خطأً هنا، فكلنا نرتكب الأخطاء. لكنّ ذلك غير مفهوم، ولا بد من وجود شيء آخر. لا أعرف ما هو، لكن الجواب يكمن في مكانٍ آخر. فلماذا ستهتم سيليا بما يفعله بيتر وفينتول؟ إنه أمر لا يؤثّر عليها أبداً، وهي لا تهتم بما فعلاه. حتى إنها لم تسأل عنهما ولو مرة واحدة. لكن، أليس ذلك غريباً؟». لم أشعر بالارتياح، وما زلت أعتقد أن لا علاقة تربط بين سيليا واختفاء بيتر وفينتول. لكن، في الوقت نفسه، كان هناك شيء ما في الطريقة التي تحدثت بها عنهما؛ ما أوحى بأنها تعرف بوجود شيء محدّد... كان بإمكاني أن أضغط عليها أكثر لو لم أكن منشغلاً بحاجتي إلى مهاجمتها، أو القضاء على ما تبقى من علاقتنا.

قال ليو: «هناك شيء ما في هذا الأمر. وهو يتعلق بها، وبتورطها في أمر مثل هذا. أعتقد يا جوانا أن السبب الذي يدفعك إلى كراهية سيليا هو عدم اكتراثها بأي شيء غير عيش حياة مرفهة. لكن، لماذا ستتورط الآن؟ على أي حال، كانت سيليا موجودة في الصورة بطريقة أو بأخرى... ».

«سيليا ليست غبية، وهي تراقب وترفع التقارير مثل أي شخصٍ آخر منهم. إنها تختلط مع أولاد الاستبداديين، وتذهب إلى الولايات المتحدة، وتتسوق في

الفنادق... وماذا عن علاقتها مع بيلانجر، هل نسيت هذا؟ كلا يا ليو. هل تعتقد أنها لن تقحم نفسها في ذلك لحماية كل مكتسباتها؟ لا مكان للصُدف هنا؛ لأن الشيوعيين قاموا بإلغائها».

هممت بالسؤال عن بيلانجر، لكن جوانا قاطعتني بإشارةٍ من يدها. فقد ذكر الجميع اسمه، ولكن لم يقل أحد من هو.

عندها قالت أوتيليا: «توقفوا من فضلكم. لا أحد يعرف أي شيء على وجه التأكيد. وأعتقد أنه ليس من المفيد في شيء ألا نستمع إلاّ إلى الشائعات والاتهامات لأنها لن تُرجع أي شيء، ولن تساعدني في العثور عليه مجدداً».

وجد الفيلم الذي صوّره ليو في أعقاب هدم كنيسة سان باراشيفا طريقه للبث في اليوم التالي في نشرات أخبار التلفزيون الألماني. وتناقلت المحطات التلفزيونية في إيطاليا، وإسبانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة، وبريطانيا بثّ هذا الشريط. وضع مقهى شيت وهاسل شاشة جديدة رقمية عريضة لعرض الأخبار. وقد عرضت تلك الشاشة العريضة مشاهد الهدم التي بدت أكثر وحشية. كان بإمكان المشاهد تمييز العمل بصورة أفضل: لحظة هجوم العمال على القبة وهدمها على الأرض، بينما يقوم أفراد الجهاز الأمني بمشاهدة ما يجري وتصوير المتظاهرين. انتشرت الجرافات الكبيرة وكرات الهدم الضخمة حول ذلك المكان المهدّم، والذي تمكّن ليو من تصويره بتقنية الزاوية العريضة، ولكنها وقفت صامتة بعد أن أنهت عملها.

كانت كل تلك الأعمال تجري منذ سنوات. ولكن بالنسبة إلى وسائل الإعلام، إنها تبدأ عندما تُلاحَظ. ويُحتمل أنه بسبب الاضطرابات التي حدثت في براغ، وألمانيا الشرقية، وبولندا قد تكوّن زخم حقيقي يدفع إلى إجراء تحقيقات عمّا يجري في رومانيا. وقد تحوّلت تلك الأحداث إلى قصة كبيرة بحلول شهر آب. كان القسم

العالمي في هيئة الإذاعة البريطانية يُذيع مقابلة مع شاب يعمل في صندوق الأمير للهندسة المعمارية. وقد شجب الشاب عملية التخريب التي قام بها نظام تشاوشيسكو. وتضمّنت المقابلة عدة صورٍ جوية تُظهر قصر الشعب. وتخلّلت هذا العرض تعليقات حول صلابة المباني ومدى جمالها. أما المأساة الإنسانية التي تجري فصولها في رومانيا فلم تكن ذات أهمية بالنسبة إلى محطة الإذاعة. دأب تشاوشيسكو على اعتقال شعبه وتجويعه وتعذيبه والكذب عليه على مدى عقدين من الزمن تقريباً، وقد فعل ذلك غالباً بتواطؤ من دول الغرب. لكن يبدو أن جريمته الحقيقية كانت ذوقه المعماري الفاسد.

خيّمت على السفارة حالة من الهرج والمرج، وأصبحت بلادنا محط اهتمام نشرات الأخبار، وكانت على مسارٍ هابط، ولم تعد مملكةً منسيةً تقع في مكانٍ ما بين ألبانيا وبلغاريا في مقياس عدم أهمية البلدان. وقد قال لي ليو إن مكتب رومانيا في محطة بي. بي. سي قد تحوّل من مكتبٍ يتآكله النسيان إلى مركز الحركة في المحطة، كما أن المكتب «سوف يتزود بالموظفين في أقرب وقت».

استغل ونترسميث الوضع منتهزاً فرصة منح رئيسه - الذي لم يكن اسمه متناسباً مع شخصيته، جيم بوسي - فرصة العودة إلى البلد لدواعٍ صحية. كان الرجل لطيفاً ومتوتراً في الوقت ذاته. وقد أمضى بوسي كامل حياته هارباً من دلالات اسمه التي توحي بالتسلّط. كان الرجل متحفظاً مع الجميع؛ حتى مع سائق سيارته، كما أن جسمه كان معرضاً للارتعاشات والحركات اللاإرادية إلى درجة أنه كان يمشي مثل رجلٍ آلي مصنوعٍ من الهلام، كما تعرّض لانهيارات طويلة من دون أن يعرف أحد بها؛ وذلك على مدى سنوات. وفي هذه الأثناء، بدأ ونترسميث بالعمل بصفته نائب المساعد الأول في المكتب.

أمضى ليو وقتاً إضافياً في مهامّه الاستطلاعية التي قام بها في أنحاء البلاد، وقام بتصوير عمليات الهدم وتسجيلها، كما تمكّن بمساعدة أصدقائه في الخارج من

وضع خطة توأمة؛ حيث تقوم القرى والبلدات في الغرب بموجبها بتبني مثيلاتها في رومانيا، وهي الخطة التي تم التسويق لها تحت اسم الحداثة. وفي هذا الوقت، برز شعار أغيثوا القرى الرومانية. وهكذا، تمّ تبني أربعين قرية مع بداية شهر أيلول. يُضاف إلى كل ذلك أن رؤساء البلديات، والسياسيين المحليين، وطلاب المدارس، وأعضاء جمعيات التاريخ المحلي الغربيين كتبوا جميعاً إلى الصحف مطالبين بلفت الانتباه إلى ما يحدث في التوأم الروماني لبلداتهم.

وقد انتُدِب ملازم ودبلوماسي بولوني مبتدئ، أعطاه ليو اسم المتدرب، ليقوم بمهمة التسويق غير العلني. كان من الصعب عليّ معرفة مكان وجود ليو، وهكذا اضطررت إلى استبدال لوحة أعود بعد 15 دقيقة التي علّقها على باب مكتبه مرتين؛ لأن الطلاب كتبوا عليها. وأخيراً، قررت طلاء اللوحة كل بضعة أيام لكي أمحو ما يتركه الطلاب عليها من خربشات. يُضاف إلى ذلك أن ليو بدأ بالتغيّب عن محاضراته، وتوقّف عن المشاركة في الاجتماعات، كما أغفل تسليم التقارير المطلوبة منه. لكن جوّ العمل تحوّل إلى ما يشبه العمل في مشرحة في عهد بوبيا، حتى إن النسائم الباردة توقفت عن الهبوب. عندما توجّهت للقائي الأول مع بوبيا الذي شغل الغرفة التي كان يونيسكو يشغلها من قبل رأيت المكتب عارياً من كل شيء. كما أن طاولة المكتب نُقلت إلى الزاوية التي تُمكّن المرء من رؤية الباب والنافذة في الوقت ذاته. لاحظت أن كرسي المقعد قد حُشر في أضيق زاوية تلتقي عندها الجدران. هل يعبّر ذلك عن رهاب فينغ شوي؟

اتصلت بسيليا عدة مرات، ولكنها إما كانت خارج المنزل، أو لم ترغب بالرد. لذا، انتظرتُ عند مدخل الجادة التي تسكن فيها - وذلك لأنني لم أتمكن من تجاوز الحراس - بينما كانت السيارات السوداء تدخل وتخرج عبر البوابة، وحاولت النظر عبر زجاجها الداكن. ورحتُ أسير ليلة بعد أخرى في الشارع المؤدي إلى حيث تسكن سيليا متلكئاً؛ على أمل أن أراها صدفة، لكن محاولاتي تلك باءت

بالفشل، لأن تيتانو كان يسدّ عليّ الطريق في كل مرة. إذ كان يتطلع نحوي، ثم يتطلع نحو نافذتها، وبعد ذلك يهزّ رأسه. عندها، تذكرت أنه لم يسبق لي أن سمعت صوته، حتى عندما كان يحرسنا أثناء علاقاتنا الحميمة على مقاعد المسارح، أو في غرف الفنادق، أو حتى في سيارة الداسيا التي كانت تستخدمها في تنقلاتها. كان ذلك تحذيراً ودوداً بحسب مقاييسه. لذا، كنت أومئ برأسي وأستدير للعودة إلى منزلي، فيربّت على كتفي أثناء مروري بمحاذاته. كانت هذه بادرة لم أتوقعها منه أبداً، وقد أشارت إلى طيبة مكبوتة من جانبه، وكانت مؤثرة جداً لدرجة أنني بحثت عن مكانٍ مظلم وهادئ ومسحت الدموع التي سالت من عينيّ بيديّ.

خصّصتُ غرفة لأوتيليا في شقّتي؛ لأن شقتها لم تعد آمنة بعد فرض السلطات عليها تقاسم شقتها مع شابين جديدين. كان أحدهما مخبراً، بينما الآخر فاسقاً مراوغاً حاول التحرش بها فور وصوله. وعلى الفور اتصلت بنا أوتيليا، فسارعنا إلى نقلها إلى شقتي مع حقيبة رياضية قديمة فيها بعض الثياب وصورتين مؤطرتين، وقلت لها: «سنحضِر أغراضك الباقية في الصباح». فأجابتني: «لا أملك أغراضاً أخرى».

وهكذا، اعتدت في عطلات نهاية الأسبوع على التنزه مع أوتيليا في المتنزهات قبل زيارتي تروفيم. كانت تأتي معي في بعض المرات، ولكنها في البداية كانت متشكّكة من هذا المسؤول السابق في الحزب الذي يعيش في شقةٍ غالية الثمن، ويُحيط نفسه بكماليات رأسمالية جمعها خلال سنواتٍ طويلة من الحرمان الذي فرضته الشيوعية على الشعب. ولكنّها اعتبرته لاحقاً واحداً من مهندسي هذا العالم الذي نعيش فيه. وقد امتلك الاثنان موهبة الحفاظ على ذلك النوع من الصداقة التي تزداد متانة من دون تبادل الكلمات، والتي تتمكن من إيصال الأفكار والمشاعر عبر وسائط غير محسوسة. كانت تسمح له بالإمساك بذراعها

أثناء نزهاتنا معاً، أو عندما يقومان بزيارة المتاحف من دوني. وكان بدوره يحتفظ بنسخٍ من المجلات الطبية من أجلها، كما أمّن لها اشتراكاً في صحيفة لانسيت.

انتهى العمل بالكتاب، وأصبح جاهزاً للطبع بحلول منتصف شهر أيلول. وذات يوم، وقفنا في شرفة شقة تروفيم لنشاهد غروب الشمس، وشعرنا باقتراب قدوم فصل الخريف. تناولنا شراباً تم إحضاره من السفارة البلجيكية احتفالاً بانتهاء العمل بالكتاب، ورفعنا نخب ثلاثمئة صفحة معدّة للطباعة. وفي هذا الوقت، كان تروفيم وأوتيليا قد أنهيا اختيار الصور التي سوف يحتويها الكتاب. كانت إحدى الصور تمثّل تروفيم في طفولته؛ ويظهر فيها مع والده الذي كان حاخاماً وكذلك مع شقيقتيه، فيما ظهر في أخرى مع زوجته الشابة، وأخرى ظهر فيها في اجتماعات حزبية. أظهرته تلك الصور من دون أي علاماتٍ تدل على ديانته اليهودية؛ إذ كان مرتدياً بذلة ويضع ربطة عنق فقط. ظهر تروفيم الشاب في إحدى الصور سجيناً ووراءه تشاوشيسكو على بُعد ياردات قليلة. عرف الرجلان السجن على يد الفاشيين، ثم الشيوعيين بعد ذلك (كانا في السجن ذاته، وتناولا الطعام ذاته، وعرفا نظام تبديل الحراس ذاته، وكان ذلك كل شيء...). ظهر تروفيم في صور أخرى مع ستالين، ومع خروتشوف، ثمّ مع كينيدي... أما الصورة الأخيرة في الكتاب فظهر فيها مع ابنه إيون الذي تغيّر اسمه الآن إلى يعقوب، وهو الآن حاخام في تل أبيب، وكذلك مع حفيدتيه سارة وراشيل.

كان الكتاب المزيّف جاهزاً أيضاً، كما عاد النص والصور من عملية وضع اللمسات الأخيرة. احتفلنا بهذا الكتاب أيضاً بتناول كوب من الشراب السوفياتي؛ وهو الوحيد المتوافر في مونوكوم. ظهرت على غلاف الكتاب صورة مجمّع شقق سكنية باللون الرمادي، وقد كُتِب عليها بأحرف بلون الصدأ، ما يجعل الناظر إليها يشعر أنها ستتحلّل بيولوجياً بين يديه. كان هادريان معنا، وشاركنا احتفالنا

بالنصر. «يا رفيق، سمحتُ لنفسي بكتابة مقدمة الإهداء للرئيس والدكتور تشاوشيسكو، والتزمتُ بالنموذج المعمول به. لكن، بإمكانك إضافة بعض اللمسات الشخصية». فشكره تروفيم، وطلب منه بلهجة ساخرة ومهذبة أن يضع بعض اللمسات الشخصية بالنيابة عنه.

كان تروفيم مستمتعاً بما يفعله. وهكذا، رتّب أمر صدور الكتابين في اليوم ذاته، أي في السابع من شهر تشرين الأول.

وفي وقتٍ لاحق أثناء رفعنا الأكواب بعد مغادرة هادريان وأعوانه الحزبيين، سألته: «ماذا ستفعل الآن؟».

«أعتقد أنه من الأفضل لي أن أتمرن على الشطرنج».

تلقّيت اتصالاً من ونترسميث في العشرين من شهر تشرين الأول، وقد قال لي فيه: «وصلتنا معلومات عن حادث إطلاق نار بالقرب من الحدود، وقد وقعت فيه إصابة واحدة». وسألني عما إذا كان هذا ما أردته. لم تكن كلمة أردته هي المناسبة، لكن التاريخ كان موافقاً على عكس العدد. «هل قلتَ إصابة واحدة؟».

أجابني: «هذا كل ما نعرفه، لكن معلوماتنا موثوقة. فقد سمع حرس الحدود اليوغوسلافيون طلقة رصاص واحدة عبر مياه النهر. وفي وقت لاحق، قدّم الرومانيون روايتهم الرسمية لما حدث؛ وذلك في اجتماع عُقِد عند الحدود، وقالوا إنه تمّت إعاقة محاولة عبور واحدة، وكان الشخص المسلّح يتصرف بمفرده. أطلق الرجل الرصاص أولاً قبل أن يُقتَل. وقد أورد التقرير أن ما حدث كان من فعل عناصر الجريمة المنظمة. لم يقتنع اليوغوسلافيون بهذه القصة، لكن كان لديهم ما يشغلهم غيرها. استغرق الأمر فترة من الوقت قبل وصول المعلومات من مكتب بلغراد، ولكنها معلومات موثوقة».

سألته: «أتقول رصاصة واحدة فقط؟ لكنّ هذا غير منطقي. كيف كان بإمكانه

إطلاق النار أولاً إذا كانت هناك رصاصة واحدة فقط؟».

بدا ونترسميث راضياً بما يقوله: «لم أقل أبداً إن الرواية متماسكة، بل قلت إنها معلومات موثوقة، أي مثل القسم التالي من المعلومات... ».

سألته: «وما هو؟».

أعرف أن ونترسميث قد شاهد عدداً كبيراً من الأفلام، وهذا يفسّر سبب قيامه بتجزئة المعلومات التي يفصح عنها بقصد إحداث أقصى قدرٍ من التأثير. «عثروا في اليوم التالي على جثتين».

القسم الثاني

«في التاريخ كما في الطبيعة،
الانحلال هو مختبر الحياة».

كارل ماركس

الفصل الأول

عادت أوتيليا من عملها متعبة عند منتصف الليل، ولكنني لم أقل لها شيئاً، بل تركتها تنام. وفي الصباح، حضّرتُ لها طعام الفطور عندما استيقظت، ونقلت لها الأخبار التي جاء بها ونترسميث بينما كانت مستلقية على السرير. وبهذه الطريقة تأكدت من أنها لن تقع في مكان آخر.

أجرى ليو اتصالات عديدة طالباً المساعدة. وهكذا، أوقع نفسه تحت منة عدد كبير من الأشخاص من أجل الحصول على معلومات عن الجثتين، واستنزف بذلك كامل شبكة اتصالاته. كما أمضى ساعات وهو يتحدّث عبر الهاتف، ودفع مئات الدولارات سعياً للحصول على خيوط جديدة لها علاقة بالحادثة، ولكنه لم يحصل على تفاصيل جديدة؛ في ما عدا الوصول إلى طرائق مسدودة كلّفته الكثير.

عندها، اقترح ليو عليّ الاتصال بمانيا قسطنطين. ولكن بالنسبة إليّ كان من غير المحتمل أن يوافق الرجل على لقائي مجدداً بعد ما حصل بيني وبين ابنته.

غير أن ليو سرعان ما تراجع عن اقتراحه وسألني: «هل أنت متأكد من أنك تريد التورط معه مجدداً؟».

فقلت له: «ربما يكون هذا اللقاء فرصتي الأخيرة. يُضاف إلى ذلك أنه إذا كانت له علاقة بالأمر، وكانت المسؤولية تقع عليّ، فهذا أقل شيء يمكنني فعله».

«هل أنت متأكد من قدرتك على مواجهة الحقيقة التي قد تتوصّل إليها؟».

«لست متأكدة من قدرتي على المواجهة».

فاستدرنا نحن الاثنين، ورأينا أوتيليا واقفة عند الباب. كان وجهها متورماً ومغطى بالدموع، أما مفاصل أصابعها فكانت تنزف من كثرة العضّ. «لست متأكدةً من رغبتي في معرفة الحقيقة. على الأقل، ليس بهذه الطريقة».

يترافق عدم المعرفة مع فوائد كثيرة دائماً؛ على الأقل بالنسبة لي. مثل عدم معرفة أي شيء عن سيليا وعن بيلانجر، وعدم معرفة نصف الأشياء التي يحصل عليها ليو من السوق السوداء. لكن، مع مرور شهرين على اختفاء بيتر وفينتول، لقد تغيّر الأمر.

«سيتصل أحدهم بك وبالفتاة غداً صباحاً». جاء صوت مانيا عبر الهاتف مليئاً بالحيوية وحازماً. كان سريعاً في رده بعد أن تركتُ له رسالة على جهاز الرد على المكالمات الذي تستخدمه سيليا، والتي لا بد أنها مرّرتها إليه. ارتحتُ قليلاً عندما تلقيت الرسالة. فعلى الأقل، هذا يعني أنها تصغي إلى رسائلي. قال لي: «كن جاهزاً عند الساعة الثامنة».

في تلك الليلة، لم ينم أحد منا. ورقد ليو على الأريكة زاعماً أنه شرب كثيراً حيث بات عاجزاً عن العودة إلى منزله بالسيارة. كانت هذه هي المرة الأولى التي يُظهر فيها مثل هذا الندم. كانت أشرطة الفيديو تُعرض بصمت، بينما يرسل جهاز التلفزيون ظلاله الزرقاء الكبيرة على الحائط. توجّهت أوتيليا إلى السرير باكراً في تلك الليلة، ولكنها أبقت الغرفة مضاءة. غفوت قليلاً، وقرأت، وتجولت في المكان، ثم وقفتُ على الشرفة مصغياً إلى الأصوات الصادرة عن عمليات البناء والهدم التي ترافقنا كل ليلة. انتشر في السماء ضوءٌ يشبه بلونه لون الدماء وصفار البيض. كانت عمليات تشييد المباني وهدم أخرى مستمرةً على الدوام ومن دون تقطّع، وكأنها أنفاس، أو دقّات القلب، أو النّبض الذي يبقي الجسد حياً ويقرّبه أكثر من الموت. لكن، حتى في أكثر الأيام بطئاً، وفي أمسيات إجازة نهاية الأسبوع التي تكون عادةً الأكثر مللاً، فإن تلك الأصوات لا تنتهي. كنت

أسمع تلك الأصوات حتى عندما أنام، أما في المناسبات النادرة التي تتوقف فيها، فكنت أسمعها داخل رأسي؛ وهي أصوات أصبحت جزءاً مني.

استيقظتُ عند الساعة الخامسة. كان ليو يغط في نومٍ عميق أمام شاشة التلفزيون التي تبث إشارة انتهاء البرامج. أما أوتيليا فكانت مرتدية كامل ثيابها، ومستلقية على السرير، وتغط في نومٍ عميقٍ. كانت تشخر قليلاً، بينما ارتعش أحد جفنيها، وكانت عينها شبه مغمضة. سمعتُ صوتاً يصدر من داخل جسدها، وبقيت للحظة قربها كي ألمس شعرها. كانت الحقيبة الرياضية التي ترافقها دوماً مفتوحةً على الأرض، حيث برزت منها أغراضها القليلة: صورة والديها، وصورة منزل قديم عرفتُ على الفور أنه تعرّض للهدم بكل الماضي الذي كان يحمله. رأيت أيضاً صورة بيتر مرتدياً سترته الجلدية وسروال جينز، وكان يدخن مبتسماً الابتسامة التي تدل على استمتاعه بالحياة. رأيت تنورةً معلقة على المشجب، كما ظهرت بعض سراويل الجينز مطوية على الأرض بالقرب من زوجين من الأحذية المخصّصة للعمل. كان المنبّه الموضوع على عتبة النافذة قد سجّل الوقت بصوتٍ أجش طاحناً معه الدقائق التي تحوّلت إلى هباء.

في الأسفل، فُتِح كشك بيع الصحف مُصدِراً قعقعة لدى اصطدام بابه بعُلب الطعام الفارغة. لمحت الشعار الجديد لصحيفة سينتيا: أمةٌ واحدة، صحيفة واحدة. أما بائع الصحف الساخر فقد رفع يديه إلى الأعلى بينما كنت أشتري نسختي.

قال البائع: «لقد نسوا إضافة قارئ واحد». كان يشرب القهوة التي أحضرتها له مركّزاً على مذاقها. إنه رجلٌ قليل الكلام، رجل نكتة واحدة فقط، وهي التي تنتمي إلى فئة النكات التي تصبح أكثر إضحاكاً لدى تكرارها. إذ كان يلوّح نحوي بمجموعة من الأوراق أثناء مغادرتي المنزل كل صباح، وينادي: «مَن

المحظوظ يا توفاراسول؟».

سمعت أصوات مياه الاستحمام وهي تبلل الجدران، وربما أصوات المفاتيح الكهربائية في الحمام، ثم سمعت صوت تنحنح ليو، وإفراغه ما علق في حنجرته في مرحاضي.

سألني: «ماذا سيحدث عندما يأتي رجال قسطنطين لاصطحابك؟ ألديك فكرة عن المكان الذي سيأخذونك إليه؟».

«سمعتَ ما قلته لك. طلب أن نكون جاهزيْن ووافقتُ. أنا لا أمتلك أي فكرة عن الموضوع أكثر منك».

«حسناً، أنت الرجل الذي لديه أصدقاء في المراكز الرفيعة... ».

«لديّ صديق واحد، وبالكاد أعتبره صديقي، كما أنك السبب في حصولي على كل أولئك الأصدقاء».

«آه كلا. أنت تعرف أن أصدقائي كثر، وغالباً ما يكونون من الأشخاص العاديين من ذوي المراكز الوضيعة. أعتقد أن الأمر أكثر فائدة هكذا».

أدار ليو جهاز الراديو على الموجة الطويلة بينما كانت أذنه ملتصقة بالجهاز، وكأنه يوشك على فتح خزنة عن طريق الإصغاء إلى أصوات رموزها. كان من الصعب جداً في تلك الفترة تجنّب سماع أخبار الثورات التي انتشرت في أنحاء أوروبا الشرقية: بولندا، تشيكوسلوفاكيا، هنغاريا... وأنباء بيريسترويكا وغلاسنوست غورباتشوف، وهي كلمات من الممكن أن تصبح جزءاً من اللغة الإنكليزية. لكن، بدا أن كل ما يحدث بعيدٌ كل البُعد عن رومانيا.

كانت أوتيليا مشوّشة بعض الشيء بسبب نومها العميق الذي لم يكن كافياً. حاولنا حثّها على تناول الفطور، ولكنها بالكاد أعارتنا أي أهمية. استفاض المذيع

في الحديث عن الحروب الأفريقية الصغيرة، وعن رغبة بريطانيا عدم الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، والغزل النووي القائم بين تاتشر وريغان. وفي هذه الأثناء، اختفت أوتيليا وتوجّهت إلى الحمّام.

قال ليو: «يتعيّن عليك الانتباه إليها». ترقّبنا في هذا الوقت وصول سيارة مانيا. «لا أعرف كيف سيكون تأثير هذا عليها». كان جزءٌ مني يرغب في لقائه لكي نتمكن من إتمام الأمور، فيما الجزء الآخر يخشى أن تنتهي الأمور بالفعل.

سألته: «برأيك، كيف سيكون تأثير هذا الأمر عليّ؟ أعني، إذا تبيّن أنه هو المستلقي هناك، كيف سيكون حالنا؟».

«المسألة ليست في من يتحمل مسؤولية ما حدث، كما أن الأمر لا يتعلّق بك أيضاً، بل يتعلّق بها، وبما يُمكن أن يحدث لها، وإن كان يجب أن تعرف أم لا... ».

ظهرت أوتيليا من غرفتها بعد أن اغتسلت وارتدت ثياباً لائقة. وبدت في حالة معنوية مختلفة، كما وضعت بعض مواد التجميل على وجهها من تلك التي كانت سيليا قد تركتها في الحمام. كان فمها مطلياً بأحمر الشفاه، بينما كانت عيناها محاطتين بالظلال ومخطّطتين «بالمسكارا». ارتدت أوتيليا سروالاً من الجينز وانتعلت خفاً، كما ارتدت أحد قمصاني ووضعت حزاماً فوقه، فبدت وكأنها شخصية جديدة؛ كما لو أنها تحمي ذاتها الحقيقية من مرارة ما سوف يحدث.

أعلنت أوتيليا: «أنا جاهزة». وكانت قد شبكت ذراعيها على صدرها، ووقفت مستعدة لمواجهة ما يخفيه القدر. بعد ذلك، توجّهت نحو ليو وقبّلته، ثم أمسكت يدي بإحكام وتقدّمتني إلى الطابق السفلي. رفع بائع صحيفة سينتيا إبهامه مرتين عند مرورنا بمحاذاته.

قال لي الشاب الذي كان بانتظارنا: «صباح الخير سيدي». ثم توجّه بكلامه إلى أوتيليا: «صباح الخير سيدتي، من فضلك». كان الشاب هو ذاته الذي جاء في المرة الأولى، وكان مهذباً وأنيقاً ومرتاحاً. أعتقد أنه يعرف شيئاً عن وضع أوتيليا لأنه كان لطيفاً وصبوراً معها؛ وهو الأمر الذي أثار حنقها أكثر مما لو كان فظّاً معها. لكنها جفلت عندما لمسها لدى مساعدته إياها على دخول السيارة. كان اعتذاره صادقاً ونابعاً من القلب. يُحتمل كثيراً أن يكون مانيا على رأس قسمٍ كبير من الجهاز القمعي، ولكنه يوظّف أشخاصاً يبدو عليهم أنهم أذكياء ولطفاء وقادرون على إظهار مشاعر المؤازرة. لم تجرِ أي محادثة في السيارة، ولم تترك أوتيليا يدي. أما أنا فقد وضعتُ ذراعي الأخرى حول كتفها، فصار جسدها قريباً من جسدي.

مشينا في باحة مبنى الوزارة، وكانت أوتيليا تنظر حولها وتقارن الواقع مع كل الصيَغ التي سمعتها عبر السنين. تمكّنت أوتيليا خلال الأسابيع القليلة الماضية من زيارة المتاجر التي كانت تعتبرها من نسج الخيال، وتذوقت مسرات مجتمعٍ داخل المجتمع، والذي يؤلف الحلقة الداخلية للحزب. ومن المقرّر أن تجتمع الآن بالوزير لتكتشف ما إذا كان أخوها قد مات.

لم يفرض مانيا قواعد الانتظار المعتادة التي اعتاد أصحاب المراكز الرفيعة وضعها بوصفها جزءاً من بروتوكول التخويف ووضع العوائق، بل قابلنا فوراً، وصافح يدي، وعرّف عن نفسه بحرارة أمام أوتيليا، ومن دون تواضع. عندها، أدركت أن هناك شيئاً محدداً يريد قوله لنا، واعتبرتُ أنه يعاملها بوصفها سيدة محزونة. راقبتهما وهما يتحدثان بصوتٍ منخفض أمام نافذة مكتبه الكبير، ولاحظت أن أوتيليا تواجهه بينما كان يشيح بنظره بعيداً عنها وهو يكلّمها.

«أردت أن تكونا هنا معاً لتسمعا ما سأقوله. أريد منكما أن تريا وتتأكدا من عدم ارتكابي أي خطأ». عندها، استدعتني أوتيليا وأمسكت يدي، فأدركت فوراً

ما يفكّر فيه مانيا، أي أنني تركت ابنته لأجلها.

لذا، قلت له موضِّحاً الأمر: «إنني هنا بصفتي صديق أوتيليا، ولمساعدتها في العثور على شقيقها. هذه هي علاقتي الوحيدة بما يجري هنا».

«علاقتك الوحيدة... هل أنت متأكد؟!». وبدا مانيا مرتاحاً، لكنّ لهجته تغيّرت فجأة لتصبح جدية: «وُجِدت جثتان في النهر بالقرب من مركزٍ حدودي للمراقبة يقع بالقرب من البوابة الحديدية. وقد نُقِلت الجثتان إلى المشرحة وأُحرقتا على الفور. لكن لحسن الحظ - إذا كانت هذه هي العبارة المناسبة - أُخِذت صور للجثتين. ولم يتم تشريحهما لأنه لم تكن هناك حاجة إلى ذلك. لقد بذلتُ جهداً كبيراً للحصول على الصور وإحضارها إلى هنا. ستريان أنه توجد إشارات تدل على كيفية موت هذين الشخصين. أريدكما أن تستعدّا جيداً لمشاهدة الصور».

«حضرة الرفيق، كنتُ طبيبة الخدمات الطبية للشعب على مدى خمسة أعوام، وأنا جاهزة لأداء معظم المهامّ».

ابتسم مانيا، وفي تلك اللحظة عاد مساعده حاملاً معه مظروفاً أسمر اللون. كان المظروف رقيقاً بصورة مخيفة. ويعني ذلك أن أي شيء ستُفصِح عنه الصور سوف يكون مختصراً وواضحاً.

اشتمل المظروف على ثلاث صور. ظهرت في الصورة الأولى جثتان منتفختان رماديتان موضوعتان على ضفة نهر موحلة. كما ظهرت بعض النفايات المبعثرة في المكان: أكياس بلاستيكية، وعُلب طلاء، ورغوة داكنة طافية على سطح الماء. وُضِعت الجثتان إلى جانب بعضهما بعضاً، ولكن كان من غير الممكن التعرّف على أيٍّ منهما بسبب الوحل، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الوجهين اللذين اختفت ملامحهما وراء الأوساخ وبسبب الجلد المسلوخ. كانت سترة أحد القتيلين مفتوحة، واختفى وجهه بمساحة مربعة الشكل من مادة داكنة. أما الصورة

الثانية فكانت أوضح بقليل؛ إذ لم يكن الوجه مغطى. بدا الشعر قصيراً، أما العينان فمفتوحتان ومليئتان بالوحل. لم تكن الصورتان تمثّلان بيتر أو فينتول؛ بالرغم من أنني دقّقت النظر إليهما كثيراً، إلا أنني تعرّفت على فتى لم أعرف اسمه أبداً، ولكنني سمعت أصوات أنفاسه حين كانت المياه تغلّفه ببرودتها، وكانت تلك أنفاسه الأخيرة.

أما الصورة التالية فكانت تُظهِر الجثتين بعد تنظيفهما قليلاً. وبدا من الواضح أن هذا التنظيف كان بدافع التعرّف على الجثتين أكثر من دافع الاحترام. ظهر دلوٌ إلى جانب رأسيهما، فيما بدا شعرهما مفروقاً ولا يزال مبللاً بسبب الماء الذي انسكب على وجهيهما، والذي أزاح بعض الوحل عنهما. وهكذا، ظهر جرحٌ كبير حيث ظننت أنني أنظر إلى معطفٍ غير مزرّر، في حين أنني كنت أتطلع إلى قطعةٍ مفصولةٍ من اللحم. رأيتُ جرحاً امتدّ من عظمة الكتف وحتى أسفل القفص الصدري. وبدا صاحب الجثة وكأنه يكاد يخرج من جلده، واختلط اللحم الذي فرغ من الدماء بالوحل بالإضافة إلى ترسباتٍ أخرى. بدا الجلد أبيض اللون مثل ضوء القمر، أما العينان فكانتا مغمضتَين، بينما نهشت الحيوانات أو الأسماك جزءاً من الوجه. كان ذلك هو الفتى الثاني. لكن، ما الذي حدث لميل الذي انطلق معهما؟! أو ما الذي حدث للشابين الآخرين!؟ لم يكن بالإمكان طرح السؤال على بيتر أو فينتول اللذين كانا غائبين. لكنّ الصورة أوضحت لغزاً واحداً: لم يكن ما رأيته في الصور جثّتيهما. إلا أن ذلك لم يدفعنا ولو خطوة واحدة نحو حلّ اللغز بأكمله.

أما الصورة الثالثة فقد أظهرت الوجهين جنباً إلى جنب على لوح المشرحة. استرعت نوعية هذا اللوح انتباهي: فالسطح الإسمنتي خشن ومليء بالثقوب التي تسمح بتسرّب الدماء التي غيّرت لون اللوح الأصلي. ظهرت أيضاً سيجارة مشتعلة تم وضعها على حافة قرب أحد الوجهين، فيما الدخان يتصاعد منها.

وبدا لي أن شخصاً ما قد أقدم على غسل الشابين مستخدماً مادة الفلاش؛ إذ بدا الجلد في منتهى الخشونة بعد امتصاصه الضوء الذي انعكس على كل شيء آخر: الأسطح، والمقصات، والمشرط القريب، والصحن الذي كان على شكل كلية، وكذلك الأكواب الزجاجية.

كنت قد حاولت بغباء إبعاد أوتيليا عن كل هذه المشاهد، ولكن كان يجدر بي أنا حماية نفسي منها، فهي ترى هذه المناظر طوال الوقت. شعرتُ بصدمةٍ كبيرة، وشُدِهت لدى إدراكي هذا القدر من العنف الذي يُحيط بكل شيء؛ وهو عنف يعجز عن إخفائه أي قدر من السكون، وكذلك الموت الخالي من التعابير. اكتفت أوتيليا بالنظر إلى مانيا ثم هزّت رأسها. لكن، ما إن تأكّدت من أن بيتر ليس أحد هذين الشابين الميتين، وبعد أن انتهت موجة الارتياح، عادت مجدداً إلى دورها الطبيعي كمساعدة طبية تقوم بعملها في البحث في قضية أخرى من قضايا الموت.

«ألاحظ تورماً وتقشّراً للجلد... يبدو أننا أمام حالة غرق، ولا أرى أي علاماتٍ أخرى». وأشارت بعد ذلك إلى الجثة الأكثر تضرراً، ثم قالت: «مع ذلك، سبب الشق لا يبدو واضحاً، ولكن يبدو أنه شق غير منتظم في عظمة الكتف، وهو جرح كبير وعميق. أعتقد أن تياراً قوياً قد جرفه فوق شيء مسنّن. لكن، لو امتد الجرح بوصة أخرى لكانت أحشاؤه قد خرجت. كان الشاب حياً عند حدوث ذلك، ولكنه لم يظل كذلك لفترة طويلة؛ لأن فقدان الدم كان سريعاً، وليست هناك علامة على إصابته برصاصة». أبعدت أوتيليا الصور عنها وتابعت: «لكنني لم آتِ إلى هنا للمساعدة في توضيح سبب وفاة هذا الشاب». وابتسمت ابتسامتها المعتادة التي رأيتها عندما التقينا لأول مرة في المستشفى.

قال مانيا: «هذا ما فكّرنا فيه، أو على الأقل إنه قريب منه كثيراً. إنني مسرور لأن شقيقك ليس أحدهما. لكن، هل تعرفينهما؟».

فأجابت أوتيليا من دون أن يرفّ لها جفن: «كلا». لكن، لم يكن هناك أي سبب يجعلها تعرف اسميهما؛ وذلك لأن بيتر أخفى عنها ذلك الجانب من حياته. عزمتُ على التأكد في وقتٍ لاحق مما إذا كانت تكذب أم لا.

سألني مانيا: «وأنت؟».

«كلا. ليست لديّ أي فكرة». عندها، حان دور أوتيليا لكي تقيّم مدى صدقيتي. أما أنا فكنت أتعلم وجوب إبقاء الأمور بسيطة، وحازمة إذا اضطر المرء إلى الكذب.

قال مانيا بتردد: «هذا ما افترضته. لكن، يكفي الحديث عن هذا الموضوع. فلا أهمية للأمر؛ لأنكما لو عرفتما هويّتَي هذين الشابين كنت سأكتفي بالطلب منكما إبلاغ أقاربهما؛ لأن لا أحد غيركما سيفعل ذلك. ستنتهي هذه القصة هنا، وسوف يتم إتلاف كل الأوراق والصور، أو وضعها في مكان لا يعثر عليه أحد. لكن رسمياً، لم تتواجد هذه الأوراق والصور، ولم يحدث أي شيء. أما نحن... » ولوّح مانيا بيده في الهواء نحونا ثم تابع: «فلم نناقش أي شيء يتعلق بهذا الأمر».

لم تكن أوتيليا قد أنهت كلامها، لذا أضافت: «أما استئصال المعدة... ».

«أعتذر لأن بعض الإجراءات الأمنية بربرية بطبيعتها. إنهم يطلقون عليها وصف الردع، لكن بما أنها تبقى سرية فبالكاد يمكن وصفها بالرادعة! فقد تم ملء أجزاء من النهر بأسلاك معدنية شائكة، ومسامير معدنية، وشفرات مناشير كبيرة بحجم صناعي كانت تستخدم سابقاً في المصانع. لا أريد تبرير كل هذا، ولكن يمكنني القول إن هذا الأمر يبقى مثار جدلٍ حتى داخل الوزارات المعنية والمسؤولة».

قالت أوتيليا بهدوء: «يمكننا إطلاق شتى أنواع الأوصاف على ما جرى، لكن

يبدو لي بوضوح أنه جريمة دولة». وعلى الفور، توقّف صوت الآلة الكاتبة خلفنا.

«اعتادت الأوساط الرجعية على إطلاق وصف جريمة دولة على هذا النوع من الحوادث. ولكنني سأطلب منكِ أن تتذكري أن أولئك الذين يحاولون عبور الحدود بصورة غير شرعية إنما هم يخالفون القانون أيضاً. ومخالفة القانون تترافق مع مخاطر». كان مانيا يتلو تعليمات الحزب، ولكن من دون اقتناع. بعد ذلك، أشرق وجهه وقال شيئاً مذهلاً لدرجة أنني وجدت صعوبة في تصديقه: «لكنّ ذلك سيكون رادعاً أكثر إذا جعلنا هذه الإجراءات الأمنية علنية. ألا توافقانني الرأي؟».

عندها، أدركت أوتيليا - كما أدركتُ في الوقت ذاته - ما يقترحه علينا. إذ كان يحثنا إلى نشر هذه الأخبار.

تطلّع مانيا إلى ساعته التي أشارت إلى التاسعة تقريباً، وكان الاجتماع بأكمله قد استغرق أقل من ساعة من الزمن. «لديّ اجتماع إلى مائدة الفطور. لذا، أرجوكما أن تعذراني، لكن أندريه سوف يوصلكما إلى أي مكانٍ تريدان الذهاب إليه. وسترافقكما سينزيا لأنها تريد أن تتسوّق». وعلى الفور، استعدت سينزيا - مساعدة مانيا - للمغادرة معنا. وكانت شابةً جميلة؛ حتى وهي ترتدي الزي الرسمي الموحّد الذي ترتديه كل العاملات على الطباعة في الوزارة. رأينا خارج مكتب مانيا مجموعة من الموظفين البدينين الذين يرتدون ثياباً غير أنيقة. كانوا منتظرين بصمت، وجالسين متباعدين ومتجنبين نظرات بعضهم بعضاً. كانوا من المساعدين الإقليميين، ونوابَ وزراء، وزعماء أقاليم... بدا منظرهم وكأنهم يشعرون بالخوف المسلّط عليهم، والذي يسلّطونه بدورهم على الآخرين على حدٍّ سواء. كان ذلك جزءاً من آليات المساواة التي يعتمدها النظام.

وفي طريق عودتنا بالسيارة، تبادلت سينزيا الأحاديث مع أوتيليا. سمعتُ قسماً من الحديث الذي دار بينهما، فاكتشفت أنهما تعرفان بعضهما بعضاً من قبل. سألتها سينزيا عن بيتر، فأجابتها أوتيليا التي اعتادت أن تكون متحفظة عادةً عن كل أسئلتها بسرور، وتلاشى كل تحفظها وترددها. تبادلت المرأتان أرقام هاتفيهما عندما توقفت السيارة. أو بالأحرى، أعطت سينزيا أوتيليا رقم هاتفها، فيما أعطتها أوتيليا عنوان منزلها. ففي هذه البلاد، إنّ شخصاً واحداً من بين كل ثلاثمئة مواطن يتمتع بخط هاتفي خاص به. أما عنوان السكن الذي أعطته أوتيليا فكان عنواني أنا.

شرحت لي أوتيليا بعد أن ترجّلنا من السيارة: «كنا في المدرسة معاً، وكنا صديقتين. لكن، لا يمكنني القول إن صداقتنا كانت متينة، بل كنا مجرّد صديقتين. أعتقد أن الأمر مثيرٌ للدهشة؛ لأنني لم أعتقد أننا سوف نلتقي مجدداً بعد مرور عشر سنوات، وأن إحدانا ستكون طبيبة في مستشفى حكومي بينما الأخرى خليلة الوزير. كانت فتاة ذكية، وكان بإمكانها أن تفعل أي شيء تريده».

«إذاً، هذا يفسّر كيف أصبحت خليلة الوزير، أليس كذلك؟».

فابتسمت أوتيليا، ووضعت ذراعها حول كتفي. فبالرغم من عدم إحرازنا أي تقدم في بحثنا عن بيتر وفينتول، إلا أن مجرد معرفتنا أن الجثتين ليستا لهما قد عزّزت شعورنا بالارتياح بصورة غريبة. كان موت الشابين عنيفاً وغير ضروري، لكن ما حدث ليس جريمة قتل بالمعنى القانوني الذي قصدته أوتيليا. شعرتُ بالسرور لأجلها، كما أن المعلومات التي زوّدني بها مانيا سمحت لي بكسر قيود الخوف؛ في الوقت الحاضر على الأقل.

قال ليو عندما أخبرناه عن اجتماعنا: «يبدو لي أنّ مانيا غير مذنب. لكن الأكثر أهمية من هذا هو استعداده للمساعدة».

قلت: «أشعر أنّ الأمر يتعدى مجرّد مساعدتنا. فقد بدا لي وكأنه يحثّنا على أخذ صور الأفخاخ الحدودية، والتواصل مع عائلتي الضحيتين. إنني أثق به».

عندها، قال ليو بقصد تذكيرنا: «ستويكو هو المسؤول عن أمن الحدود، كما أنه المسؤول عن سياسة إطلاق الرصاص بقصد القتل على طول الحدود. ومانيا وستويكو يكرهان بعضهما بعضاً. كما أن ستويكو رئيس مانيا، فيما يعتقد هذا الأخير أن ستويكو فلاّح ستاليني عنيد. لكن ستويكو من جهته يقول عن قسطنطين إنه بورجوازي، ويهودي، ومنحرف جنسياً... بإمكانك حذف الوصف الذي تشاء. لا يمكنني أن أتخيّل أن قسطنطين على استعدادٍ للتخلي عن ولائه لمبادئ الحزب الشيوعي الروماني بشكلٍ مفاجئ؛ وهي المبادئ التي خدمَتْه بصورة رائعة. لكن، لعله يريد تحريك الأمور».

«وما هو دورنا في كل هذا؟».

عندها، أجاب ليو ببساطة: «إن دورنا هو التحريك، لكن بملاعق طويلة جداً... ».

وفي اليوم التالي، سمعت شيئاً ما ينزلق من تحت الباب قرابة الساعة الرابعة فجراً. كان ذلك الشيء عبارة عن مظروف بحجم أيه 4، وكان نصفه محجوباً بسجادة الباب. كان المظروف قديماً ومجعداً، أما العنوان الأصلي فقد نُزع عنه. فتحتُ الباب وأصغيتُ السمع، ولكنني لم أرَ شيئاً، بل سمعتُ صدى ما يُمكن أن يكون خطوات أقدامٍ تبتعد عن مدخل المبنى. هُرعت إلى الشرفة التي تمكنني من رؤية أي شيء يتواجد على بُعد عشرات الياردات من كل اتجاه، غير أنّني لم أرَ شيئاً.

فتحتُ المظروف، فرأيت ثلاث صورٍ غير واضحة الألوان، وأخرى باللونين الأسود والأبيض. أظهرت الصور الأربع المواقع الأمنية التي تحدّث عنها مانيا، وقد برزت

فيها تلك الأشياء الرادعة التي تحدث عنها. إذ برز في إحدى الصور منشارٌ دائري كبير، وبدا كما لو أنه هلالٌ مسننٌ وسط الماء. كان المنشار صدئاً، وقد تغيّر لونه بسبب الطحالب. وبرز المنشار فوق سطح الماء على ارتفاع متر؛ وهو أعلى ارتفاعٍ له. كما امتد على عرض المنعطف الضيّق لنهر الدانوب. وأظهرت الصورتان الأخريان مواضع مختلفة من النهر: وما كان يبدو كسرب من الذباب كان في واقع الأمر عبارة عن كتلة من الأسلاك الشائكة التي تمتد تحت سطح المياه. رأيت في الصورة الأخيرة ثلاثة أسلاكٍ معدنية بارزة من المياه. كان الموقع الذي التُقِطت فيه كل صورة مطبوعاً على قفا كل منها. لاحظتُ أيضاً أن الصور قد تم التقاطها من ثلاثة أمكنة مختلفة من الجانب الروماني من الدانوب، لكنّ المواقع كانت متباعدة بمسافاتٍ قدّرتها بنحو مئتي متر، كما ظهر التاريخ والوقت بأرقام صغيرة في أسفل كل صورة. وأظهرت أوقات التقاط كل صورة أنها أُخِذت بعد مرور اثنتين وعشرين ساعة على التقاط الصورة السابقة. أدركت فوراً أن الشخص الذي التقط تلك الصور قد امتلك التجهيزات المكلفة والإذن ما سمح له بالتجوّل هناك بكل حرية.

رنّ جرس الهاتف: «هل تخيّلت وجود كوجاك؟». وصل ليو بعد قليل، وتفحّص الصور في غضون نصف ساعةٍ من الزمن، ثم قال: «يتعيّن علينا أن نشكر رفيقك مانيا على هذه الصور. وأنا سأقوم بإيصالها إلى الصحافة الألمانية بسرعة. سأحاول التواصل مع البريطانيين أيضاً، ولكنني أريد الاحتفاظ بنسخٍ احتياطيةٍ منها».

فقلتُ له: «أعتقد أنني أدين بالشكر إلى ونترسميث، فبالرغم من أنه قد أشعرني بالخوف إلا أنه أعطاني أول خيوط هذه القضية. لكنّ هذه المواقع - وكما أسماها مانيا - كانت سرية، ولم يكن باستطاعة أي شخص الاقتراب منها ما عدا الفارّين من البلد، أو الذين تمّ تكليفهم بمهمة منع الفارين من الهرب. يُحتمل

أن ونترسميث سيكون قادراً على إسداء خدمة لهم».

ردّ ليو بتشكّك: «حسناً، يُحتمل أن تكون محقاً، ولكنه لا يمتلك النسخ الأصلية. قل له إنك تمتلك النُسخ فقط، ولكن لا تقل له أي شيء آخر. في الواقع، إنك هاوٍ عبقري، ولذلك سوف آتي معك».

فقلت له: «هناك شيء يُقلقني؛ وهو إمكانية أن نكون ألعوبة بيد مانيا. أعني، إن مانيا ليس مُحسِناً، بل إنه يحاول إيجاد طرائق مناسبة لإيقاع ستويكو في المتاعب لكي يشغل وظيفته. ويُحتمَل أنه سيعتبر أن المناشير ذات الأحجام الصناعية الموضوعة في النهر أمراً مثيراً للتقزز... ».

اقترح ليو وهو يربط شريط حذائه: «... ويُسبب الفوضى أيضاً».

«ليو، إنني جادٌ في ما أقوله. أيمكن ألا يكون محتفظاً في جعبته بوسائل أفضل، وأكثر نظافةً، وأقلّ وضوحاً، وأكثر فعالية تسمح له باحتلال مكانه؟».

«ماذا؟ أتريد أن تقول إنه ملأ الدانوب بالأسماك المفترسة؟ وأسماك القرش التي خضعت للهندسة الوراثية؟».

«إنني أعني أياً من أشكال التخويف المتقدمة، ووسائل القمع، والشراسة... والعنف الجسدي... ما الذي يضمن ألا يكون أكثر إيذاء في سعيه إلى تحقيق هدفه؟».

«لا شيء يضمن ذلك. وأنت تعرف ما يُقال: لا يستطيع المرء اختيار أصدقائه».

«لا يا ليو، ليس هذا ما يُقال، بل يُقال إنّه بإمكانك اختيار أصدقائك، أما اختيار عائلتك فليس أمراً ممكناً. هذا هو الهدف من هذا القول».

«آه، حقاً!؟ إذاً، هذا يفسّر سبب كوني مخطئاً خلال تلك السنوات». وابتسم ابتسامةً ساخرة، ثم لكمني على كتفي وخرج.

في البداية، سرنا في طريقنا إلى الوزارة. نهض ميكو أولاً لتوجيه تحية إلى ليو؛ وهو التصرف الذي أظهر أمامي ذلك النوع من التودد الذي يعامل به الناس من هم أقوى منهم. وقفت روديكا أيضاً وهنّأته، ولكنه تجاهل هذه البادرة بإشارة لطيفة من يده.

«إننا هنا متساوون جميعاً يا روديكا. ولا أريد منك أن تعامليني بطريقة متمايزة. حسناً، يمكنك أن تفعلي ذلك قليلاً». وأضاف عبارته الأخيرة بعد أن أسند خدّه على وجهها استعداداً للحصول على قبلة. «هل المدير هنا؟».

«أجل، أجل إنه هنا... بروفيسور أوهاي... ».

هل قالت بروفيسور؟!

عندها، أعلن ليو بكل فخر: «كنتَ منشغلاً بمغامراتك كثيراً، حيث فاتك أمر حصولي على الترقية التي انتظرتها طويلاً».

«ترقية! لم يمضِ عليك وقت طويل منذ وصولك إلى هنا، وأنت لا تعطي أي محاضرات، كما أنك لم تحضر أيّ اجتماع منذ أشهر!». أقفلنا الباب، ووقفنا أمام آلة التصوير لنسخ الصور.

«يوجد ملفٌ مليء بالسجلات، ومن ضمنها سجل الحضور؛ وكلّها تؤكد أنني محاضرٌ مثالي. هل أستطيع مخالفة هذه السجلات؟». كانت نوعية النسخ جيدة؛ الأمر الذي فاجأني. لكن، يصعب تفسير كيفية إيصالها إلى الصحافة. غير أن مغزاها المذهل سوف يكون واضحاً بما يكفي.

سألتُ ليو: «ماذا لديك ضد بوبيا؟».

«إنها أسرار مهنية، أو دعنا نكتفي بالقول إنه بالنسبة إلى رجلٍ يثق بالهرمية الصارمة في مكان العمل، إنه يحتفظ بموقفٍ قويّ وغريب في ما يتعلق بالفصل

بين الجنسين؛ إذا تعلّق الأمر بالملابس... ».

«أتعني أنه غير سويّ وتنوي ابتزازه؟».

فابتسم ليو وقال لي: «في الواقع، أعتقد أن هناك أمراً غريباً في محبّته له؛ أعني الابتزاز. ولكنك تعرف أن كل ذلك ما هو إلا نوعٌ آخر من الترهيب، وهناك فئة من الأشخاص الذين لا يستطيعون العيش من دون الشعور بالخوف، ولا يعرفون طريقة غيره لمعاملة الآخرين... لكن، على أي حال، إنني لا أنوي إخبارك بكيفية معرفتي كل هذا عنه. لكن، يمكنني أن أقول لك إن ما حصل كان مواجهة مباشرة بيننا. كنتُ ثملاً قليلاً، وكان الظلام سائداً... اضطررت إلى مناولته إياها، فقام بفركها بلطف مثلما تفعل سيدة؛ وذلك إلى درجة أكبر مما يمكنني قوله عن زوجته».

عندها، هززتُ رأسي متسائلاً عمّا صدمني أكثر: أهي طريقة ليو البشعة والمخادعة في الابتزاز، أم صورة بوبيا وهو ثمل؟ يا للرجل المسكين غير السويّ الذي يعيش في مجتمع خاضع للمراقبة! هذا أمرٌ يبدو مستحيلاً. تمكّن بوبيا من تدبّر أموره إلى أن جاء ليو، ويُحتمل أن السلطة التي مارسها ليو عليه هي التي ضمنت ليونيسكو العمل في مكتبة الجامعة، وكذلك عدم السماح بالمشروبات في توردا.

بقيت لوحة التعريف عند باب مكتبي كما كانت: الدكتور بيلانجر. لكنّ لوحة التعريف الخاصة بليو تغيّرت إلى: البروفيسور ل. أوهاي. أما طبقة الغبار الرقيقة التي غطت طاولة البروفيسور فقد كانت أكبر شاهد على عدم استحقاق الرجل لقبه بالطرائق التقليدية. جلس ليو ومسح الغبار بيده، ثم بدأ بوضع الصور والنُسخ في مغلفات. وحين وصل ليو إلى المغلف الرابع، كتب عليه بخطٍ عريضٍ وطفولي الكلمات التالية جيل ونترسميث المحترم. بعد ذلك، طلب ليو

رقم السفارة، ثم ناولني سماعة الهاتف.

كان ونترسميث منتظراً عند الدرج، وكان يضع نظارة شمسية كتلك التي يستخدمها الجواسيس، وتوسّعت خلف عدستيها حدقتا عينيه بشكلٍ غير متوازن، فبدا منظرهما مثل كائنات تسبح في حوضٍ مليءٍ بالأسماك. لم يكن الرجل مرتاحاً مع ليو، كما أنه ذوى بسبب مصافحة ليو القوية والمبالغ فيها. تعمّد ليو أن يجعل لقاءنا عادياً قدر الإمكان. لكن، في حين أنني كنت أردّ دين ونترسميث، كان ليو يستخدم ذلك شِركاً.

قال لي الدبلوماسي فور وصولنا: «هل جننت؟! لقد اتصلتما بي في السفارة من هاتفٍ خاضعٍ للمراقبة! يا لكما من هاويين غبيين!».

فردّ ليو: «هذا يُسمّى خداعاً مزدوجاً، وهو بمثابة قاعدة أساسية في التجسّس».

جلسنا إلى طاولة في شيت آند هاسل، وبدأ ونترسميث بتفحّص الصور، ثم قال: «أجل، إنها مهمة. شكراً لكما. أعتقد أنكما لن تقولا لي من أين حصلتما عليها، ومن الذي أعطاكما إياها، أليس كذلك؟ أقول هذا في حال أردنا التحقق من أصالتها».

«وهل لديك شك في أن هذه الصور حقيقية؟! حسناً، تعال معنا يا جيل وسوف ننزلك في المياه القريبة من هنا». وأشار ليو بيده إلى أسنان المنشار ثم أضاف: «وفيما يقطع المنشار جسدك ستتمكن من التحقق من أصالة الصور. ما رأيك في هذا؟». وأشار ليو بإصبعه إلى قميص ونترسميث المفتوح عند العنق، والذي يكشف عن جلده الأحمر.

فقلتُ: «تسلّمنا الصور من مصدرٍ مجهول. فقد وضعها أحدهم في صندوق بريدي».

أراد ونترسميث أن يحصل على معلومات دقيقة أكثر، فسألنا: «هل هي نُسخٌ عن الصور الأصلية؟».

عندها، نهض ليو لكي يحصل على كوب آخر من الشراب، وأجاب: «نعم، إنها كذلك. يمكنك أن تأخذها أو تمتنع عن أخذها. وفي حال عدم أخذك لها سوف تجد الصور طريقها إلى مكان آخر يرحّب بها. لكن، إذا أخذتها فسوف تكون مضطراً إلى استخدامها».

فما كان من ونترسميث إلا أن أخذ الصور ووضعها في حقيبته قائلاً: «سأنظر في ما يمكنني فعله. فنحن لا نحبّ العمل باستعمال موادّ لم نتحقّق من صحتها. ولهذا، إننا بحاجة إلى معرفة مصدر الصور».

«هل تريد معرفة مصدرنا كما قلت، حيث يمكنك ملاحقته بكمية من المعلومات غير المفيدة عن مبيعات النفط، أو مبيعات الأسلحة؟ بهذه الطريقة ستتمكن من مساعدة أصدقائك في البعثات التجارية في مفاوضاتهم للحصول على صفقات أفضل».

عندها، تجاهل ونترسميث ليو، وتوجّه إليّ بالكلام: «هل هذه هي النسخ الوحيدة؟».

«هل تتحدث عن حقوق الإنسان؟ هذه الأمور تخصّ الضعفاء... » وهمّ ليو بالنهوض حاملاً بيده كوبه الفارغ وقال: «لا أريد إزعاج الرفاق إذا كانوا يريدون شراء بعض الدّبابات منا... ».

أما أنا فأجبتُ: «إنها النسخ الوحيدة على حد علمي. لكن، بما أنها نُسخ فلا بد أن الصور الأصلية موجودة في مكانٍ ما. لكنني لا أعرف مكانها».

«لكن، ألم تحتفظوا ببعض النُسخ لأنفسكم؟». كان ليو يقف قرب المشرب،

ولذلك كنت مضطراً إلى ابتكار كذبة وحدي.

نظرت إلى عينيه مباشرة، وقوّست حاجبيّ بشكلٍ يوحي بخيبة أملٍ شديدة؛ وهي الطريقة التي يستخدمها السياسيون عندما يواجهون اتهاماً بوجود دوافع خبيثة. «كلا. أخبرتك أنني مدين لك مقابل المعلومات التي قدّمتها لي عن الجثّتين، وها أنا أردّ لك الجميل».

فقال لي بعد أن تذكّر فجأةً: «آه، الجثتان... هل توصّلتما إلى شيء؟».

كان ليو قد بدأ بلعب مباراة في إصابة الأهداف بالأسهم، ولذلك وقعت على عاتقي مهمة العثور على كذبة مناسبة. «وصلنا إلى طريق مسدود. فقد طرحنا بعض الأسئلة، وقام ليو ببعض التحريات. ولكن، تبيّن لنا في النهاية أنّ الجثتين تخصّان شابين من الغجر كانا يقومان بإدخال حمولة قارب من الأجهزة الصوتية من يوغوسلافيا... ».

أنهى ونترسميث شرابه، فاعتذر للمغادرة. ولاحظتُ أنه تلقّى المعلومات بحنقٍ. ولكنه سوف يحصل على الثناء الذي يستحقه، وسوف يذهب إلى رئيسه ويزعم أنه تلقّى إخباراً من أحد مصادره المحليين الذين يعملون في شبكته، وهكذا سيُظهر نفسه بصفته عميل بوخارست الذي يمتلك أعيناً وآذاناً في كل أنحاء المدينة...

قال ليو بكل ثقة: «إنه لا يعتزم استخدام الصور. يُحتمل أنه سوف يقوم بتمريرها إلى رؤسائه الذين سوف يُدهشون ويتعرقون قليلاً، ثم سيقرّرون بدورهم تمريرها إلى المراكز العليا... وهكذا دواليك إلى أن تختفي بطريقة سحرية وتتلاشى. أعتقد أن ونترسميث سوف يقوم بتذكيرهم بالحاجة إلى المحافظة على روح الصداقة من أجل البعثة التجارية التالية. وهكذا، سينتهي الأمر بالصور محفوظةً داخل ملفٍ مكتوب عليه: لا إجراء. ويعني ذلك أن كل

شيء كان مضيعة للوقت».

وعند وصولنا إلى بوابات السفارة، أشار ليو إلى رجل مباحث واقف في الجهة الأخرى من الشارع، والذي كان ينظر نحونا بوقاحة: «إذاً، لقد كنا ملاحقين».

عندها، قوّس ليو حاجبه على طريقة جايمس بوند وقال: «بالطبع كنا ملاحقين. إنها خدعة ثلاثية، وهي قاعدة أساسية في اللعبة. وإذا كان هناك شيء تعلّمته في فن الخداع، فهو الحرص على الانتهاء بعددٍ مفرد».

بعد مرور أيام قليلة، سمعتُ أن ونترسميث قد حصل على إجازة من العمل لمدة أسبوعٍ واحد. فقد تعرّض إلى هجوم عنيف في الليلة التالية للقائنا؛ فيما كان في طريقه إلى بلاده. كما أن شقّته قد تعرضت للسرقة والتخريب. ويعني ذلك أنه لم يعد قادراً على التحرك من دون ملاحقة رجل أمن، كما أن جواز سفره الدبلوماسي قد سُحب منه.

الفصل الثاني

انهمك تروفيم في شقته الواقعة في هيراستراو في إرسال الدعوات إلى اتحاد الكتّاب لإطلاق مذكراته. كان حياة كاملة من الخدمة هو العنوان الأنسب الذي تم اختياره للكتاب، والذي يوحي بمغزاه. وقد لخّصت مقدمة الكتاب الخطوات الجبارة التي أنجزتها الأمة تحت قيادة تشاوشيسكو، وذلك أثناء تقدّمها من بلادٍ زراعية إلى مجتمعٍ علمي نموذجي. أما المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب - هادريان فينتيل - فقد انهمك بمراجعة لائحة المدعوين. وسمح تروفيم بهذا التصرف مثلما سمح بحالات الإذلال الأخرى التي تعرّض لها النص الأصلي للكتاب.

في الواقع، كان تروفيم قد نظّم حفلتين متزامنتين لإطلاق الكتاب. فبينما نحن نشرب نخب كتاب حياة كاملة من الخدمة داخل مقر اتحاد الكتّاب في اليوم السابع من تشرين الأول، كان من المقرر أن يبدأ توزيع كتاب مذكرات الخيانة المثالية، ولكن بغياب مؤلفه، وذلك في نادي اتحاد الكتّاب في باريس؛ وهو الموقع الذي تم اختياره لأنه قريب من مقر السفارة الرومانية. أنهى ناشر كتاب تروفيم في هذا الوقت إرسال الدعوات، ولكنه أغفل تحديد عنوان الكتاب؛ وهذا «تكتيك» يثير اهتمام الفرنسيين أكثر من الكتاب ذاته. لكن بحسب تروفيم، إن المثقفين الرومانيين المغتربين سيحضرون حفل إطلاق الكتاب؛ من أمثال الكاتب المسرحي الساخر تونينيسكو، والفيلسوف المتشائم كيولان، ومؤرّخ الأسطورة إليانو آيزولدو، وحتى السوريالي تريستان آيزولدو الذي أصبح في التسعينيات من عمره. كان المشهد أشبه ما يكون بمشهدٍ مأخوذ من إحدى مسرحيات تونينيسكو؛ أي إطلاق كتاب في باريس بغياب مؤلفه، بينما في بوخارست التي تبعد آلاف الأميال كان المؤلف ذاته يُطلِق كتاباً لم يكتبه بنفسه.

وبين الحين والآخر، كان هادريان يلاحظ في قائمة المدعوين وجود أحد الكتّاب أو السياسيين الذين لا يحظون بالرضى، فيطلب من تروفيم إعادة النظر في توجيه الدعوة إليه: «أيها الرفيق، هذا السيّد فلان رجعي معروف، كما أنه متورط في أنشطة غير اشتراكية... أما الآنسة فلانة فقد أنشأت علاقة صداقة وثيقة مع كوادر غير تقدمية. أما بالنسبة إلى بتريسكو، صانع الأيقونات، فهو متدينٌ ومهرّبٌ معروف للصور والتماثيل الدينية... ».

قال لي تروفيم بصوت رقيق وهادئ: «هل لاحظتَ أن هادريان محرّر نموذجي؟ لأنه ما إن أنهى تنقيح الكتاب حتى بدأ في تنقيح صداقاتي!».

رفع هادريان عينيه عن عمله، وتطلع نحونا مبتسماً ابتسامته المتصنّعة، وأعلن بكل فخر: «حاولت مساعدة الرفيق هنا وهناك. بالطبع حاولت ذلك. لكن، كانت هناك بعض الهفوات الناتجة عن تساهل الذاكرة، وعن الميل إلى إصدار أحكام ذاتية الطابع مع الأسف، في حين أنه من الأفضل وضع هذه الأحكام تحت مجهر التاريخ الموضوعي». لم يكن قد سبق لي أن سمعت مثل هذه التعابير من قبل وبمثل هذه الدرجة من الاقتناع.

قلّبت صفحات الكتاب، ولاحظت أنها أشبه ما تكون بمضغ «الكرتون». لفتني أن عمل تروفيم في الأمم المتحدة الذي دام ثماني سنوات قد شغل تسع صفحاتٍ فقط من الكتاب. كما أن ثلاث صفحات من بين الصفحات التسع قد تم تخصيصها لزيارة نيكولاي وإيلينا تشاوشيسكو. كانت تلك الصفحات مجرد حشوٍ بدافع المصلحة. أما اللقاءات مع نكسون وكسينجر وديغول التي ترافقت مع أهمية كبيرة فقد تمت معالجتها بجملٍ مفردة. أما أزمة الصواريخ الكوبية، وحرب فييتنام، والتمرد في هنغاريا، وأحداث باريس في العام 1968 - وهي كلها أحداث شارك فيها تروفيم، أو كان شاهداً عليها - فقد غابت من الكتاب كلياً. يُضاف إلى ذلك أن الكتاب قد جاء على ذكر ستالين مرة واحدة فقط؛ وذلك

بالرغم من أنني عرفت من كتاب تروفيم الأصلي أنه كان على علاقة قوية ووثيقة به. تضمّن الكتاب أيضاً فقرات موزعةً هنا وهناك تتحدّث عن إنتاجية رومانيا، فضلاً عن مقتطفات من أقوال زعماء العالم الثالث في الثناء على تشاوشيسكو. أما الصورة الوحيدة التي لم تُظهِر تروفيم برفقة تشاوشيسكو فكانت صورته وهو طفل. حتى إنّ هذه الصورة الوحيدة قد خضعت للتعديل من أجل حذف صورة والده الحاخام الذي كان يظهر إلى جانب سريره.

«سيكون هذا الكتاب شديد الأهمية، وشهادة لشاهدٍ عيان أمام التاريخ». نهض هادريان وقال كلمته، ثم عاد وجلس مسترخياً، وبدا كأرنب آلي يقدّم إعلاناً للبطاريات التي تدوم طويلاً.

عشنا في عالمٍ من الظلال والخداع، والخداع المزدوج والثلاثي الذي تحدث عنه ليو. ويُعتبر هذا الكتاب نتاجاً لقدرٍ غير متناهٍ من الرقابة والغربلة اللتين لا تعرفان نهاية. وهذا الكتاب الزائف توأم مختلف كلياً للكتاب الأكثر تفجراً وخطورة.

كان تروفيم يرى الكتابين في عقله جنباً إلى جنب: واحدٌ منهما يبعث على الملل، بينما الآخر يترافق مع المخاطر والتنوع ويوشك على إثارة العديد من ردود الفعل الشديدة ضدّه. «أجل، أعتقد أنه سوف يُحدِث ضجةً كبيرة. وعلى الأقل أتمنى ذلك، كما أنني مسرور جداً بطريقة ترويج الناشر للكتاب الذي سوف يجد طريقه إلى جميع الصحف الرئيسة، وسوف أتلقّى دعوات للمساعدة على الترويج».

أومأ هادريان موافقاً بكل سرور، وحاول أن يتذكر كل المناسبات الخاصة التي خطّطت لها دار النشر التابعة للدولة. «حسناً، لديك توقيع الكتاب في مكتبة لومينيا؛ وهو الحدث الذي سوف يجتذب بالتأكيد أعضاء كثيرين من الحزب،

كما أنني رأيت مراجعات الكتاب التي سوف تنشرها صحيفتا سينتيا وسابتامينا. إنها مراجعات رائعة».

علّق تروفيم متمتماً: «أتمنى ذلك، وعلى الأخص لأنك كتبتَ تلك المراجعات».

وعند انصراف هادريان سألتُ تروفيم: «هل فكّرت في ما سوف يحدث عندما ينتشر الخبر؟ سوف تخسر كل امتيازاتك، وقد تتعرّض للاعتقال، وقد تخسر شقّتك، وكذلك معاش التقاعد الذي تحصل عليه من الحزب».

«أعرف كل ذلك، وأعرف أنني لست مُحصَّناً ضد كل هذه الاحتمالات بكل تأكيد. لكنّ هناك حدوداً لما يمكنهم فعله من دون أن يجعلوا مني شهيداً. أعرف أن هناك المزيد ممّا قد يحدث. ولا أعتقد أنني الوحيد الذي سيرفع الصوت عالياً. رأيتُ ما يحدث في رومانيا الآن؛ إنهم يشدّدون قبضتهم لأن الأمور بدأت تنفلت من أيديهم في الخفاء. أعطيت حياتي كلها للحزب وللاشتراكية. إنّني لا أتخيّل أبداً أي تصورٍ بديل، كما أنني لست على استعداد لدعم مثل هذا التصوّر. لكنّ الحزب هو الذي يجب عليه أن يتحرك». بدا كلام تروفيم وكأنه تصريح محضرٌ سلفاً.

«إنك شيوعي طيّب، ولذلك تتمنى أن يحدث التغيير من الداخل. هذا كل ما في الأمر... » أومأت نحو طاولات عليها رقعة شطرنج متروكة، وقلتُ: «الأمر برمّته يتعلق «بالتكتيك»، أليس كذلك؟».

«لم أصادف شيئاً من حولي هنا أو هناك خارج حدودنا - سواء أكان في بريطانيا أو أميركا - تمكّن من زعزعة اعتقادي بأن الدولة الاشتراكية هي الصيغة المثلى، والأكثر إنصافاً للمجتمع البشري. لم أصادف شيئاً، وأنا لا يقف ورائي كبار أصحاب الشركات الأميركيون، أو البابا، أو سياسيون من دول الاقتصاد الحر، كما أنني لا أريد جعل بلادي ملاذاً آمناً للشركات الكبرى».

«هل تظن أن إزاحة تشاوشيسكو سوف تجعل هذا البلد ناجحاً مجدداً؟».

«هل قلتَ مجدداً؟ هذا البلد لم يكن ناجحاً حتى الآن. ولكنكم تمتلكون تصوراً خاطئاً يوحي بأن الدولة الرأسمالية الليبرالية دولة ناجحة. لكن، هل سألتم أنفسكم لمصلحة مَن تعمل تلك الدولة؟ إنها لا تعمل لمصلحة فقرائكم، أو العاطلين عن العمل منكم، أو العمال القادمين من دول العالم الثالث، وثرواتهم المنهوبة. وهل تساءلتم: لمصلحة من يعمل البترول الرخيص؟ إنه لا يعمل لمصلحة الذين ينتجونه. ويمكننا طرح السؤال ذاته بالنسبة إلى الإنتاج الرخيص. وأنا حتى الآن لم أصادف شيئاً بإمكانه تغيير قناعتي، ولا حتى ستالين، ولا تشاوشيسكو، ولا... ولا حتى هذه... » وأشار تروفيم إلى كلمة إبيديميا المطلية حديثاً على جدار متحف التاريخ الطبيعي. «هل تظنون أنتم يا من تعيشون في البلدان الرأسمالية، والذين تؤمنون بحقكم في الحصول على وظيفة، ومعاشٍ محترم، وعناية صحية، وتعليم مجّاني أنكم كنتم ستحصلون على كل ذلك إذا لم توضّح لكم الاشتراكية الطريق؟ وماذا عن دولة الرفاه الاجتماعي؟ ومكتب الصحة الوطنية؟ لقد أوضحتْ لكم الاشتراكية الطريق. وهل تعرفون أن ما يعطيكم إياه أرباب عملكم ورؤساؤكم في العمل على أساس أنه منحة وهبات من الشراكة الاجتماعية هو في حقيقة الأمر من ضرورات الحياة، بل الحد الأدنى منها. إنّكم تعتبرون كل هذه الأشياء مجرد امتيازات، أو تعتبرونها أفعالاً عفوية من أعمال الإحسان أو الحظ، وكل ذلك قبل أن أتكلم عن المرونة الاجتماعية! أقول لك إنه من دون الاشتراكية، ولينين، وتروتسكي، وفيكتور سيرج لكان من المستحيل تصوّر مثل هذه الأشياء. تدين لنا الرأسمالية بأفضل ما فيها من ميزات».

أردت إيقاف هذه الموجة المفاجئة من المثالية فسألته: «أتقول من دون ستالين أيضاً؟».

تطلع تروفيم نحوي بنظرة من تأذّى من طرح السؤال في البداية، ثم أطلق ابتسامة ساخرة وغير مكترثة، وقال: «ما الذي كان صديقك ليو يقوله لك طيلة الأشهر القليلة الماضية؟ ألم يقل لك إنه يجدر بك أن تتحمل، أو تغادر البلد بسرعة؟».

«قال لي شيئاً من هذا القبيل... ».

رأينا كلباً شارداً، وكان جلده المرقط ملوناً باللون الزهري المائل إلى الاصفرار. دفع الكلب أنفه في كومةٍ من الحصى المبلّلة، وأخذ نَفَساً عميقاً، ثم تسلّل إلى أجمةٍ قريبة. «حسناً، يُحتمل أنه محق، ولكن ليس بالطريقة التي يعتقدها. لا أظن أن أحداً سوف يعتبرني رأسمالياً مغامراً، ولكنني لوّثت يديّ من أجل الحزب؛ أي كما تعرف، وكما سيعرف آخرون بعد وقتٍ قريب. نلت البراءة وتعرّضت للاتهام، مارستُ القوة وتعرضت للضغوط، قتلتُ أشخاصاً؛ على الأقلّ بقلمي... بتوقيعي. إنني لا أريد الثورة».

«سبق لي أن قلتُ لك إنكَ تريد تغييراً من الداخل».

«أريد تغييراً من دون سفك الدماء. ولن تحدث ثورة هنا؛ لأنها ليست الطريقة التي يفكر فيها الرومانيون».

«وماذا لو حصل سفك دماء؟».

«في هذه الحالة سيتدخل الحزب، وأنا سوف أساعده. أعتقد أن غورباتشوف محق عندما قال إن بقاءنا يعتمد على التحرّر والانفتاح، وإنما مع إبقاء الضوابط. إن تشاوشيسكو وأمثاله يأتون ويرحلون، أي من الممكن تبديلهم، لكن الحزب سيبقى».

عاد تروفيم إلى جديّته، وهو الرجل ذو التفكير المرن والمحب للتغيير، والذي

يمتلك كل تلك الصفات بالإضافة إلى الميل إلى المرح، ولكنه يبقى صلباً، ومحتفظاً بإيمانه بصوابية القضية التي بقيت بعيدة عن التساؤل العقلاني. كنت مخطئاً عندما اعتبرته منشقاً لأنه رجلٌ عقائدي، وربما براغماتي، ولكنه عقائدي بكل تأكيد، ويعتبر أن كل نقاط الفشل التي التصقت بالعقيدة تعود أسبابها إلى سوء تطبيقها، وأن كل بربرية النظام غريبة عنه، ولا تحدث إلا عَرَضاً.

قال لي ليو في وقتٍ لاحق: «كل ذلك ما هو إلا هراء، أو إذا أردتَ تعبيراً تقنياً إنه بولوك. يعرف تروفيم جيداً أنه إذا حدثت ثورة في البلاد فسوف يُشنق. أعرف أنه لن يكون الأول، ولكنهم سوف يصلون إليه أخيراً».

«لست متأكداً من ذلك. وأعتقد أنه إذا استسلم وتخلى عن معتقداته التي آمن بها طيلة حياته فلن يبقى لديه أي شيء. فلا عائلة لديه، وليس لديه أي عملٍ في هذه الحياة عدا الحزب؛ أي أنه لا يمتلك شيئاً غير ما هو موجود هنا والآن. إنه غير قلقٍ على حياته، بل على مشروعه الذي كرّس له كل حياته. إنني متأكد من أن ما تقوله جزءٌ من الصورة، ولكنني متأكد من أنه يحمي نفسه أيضاً. أعني أن الطريقة الفضلى بالنسبة إلى المرء للدفاع عن نفسه ضد اتهامات الانشقاق هي الإعلان عن ثقته بالحزب، وليس مهاجمته».

جلس ليو وفكّر في ما قلته ثم قال: «يُحتمل أنه يُخفي أمراً آخر... ».

«مثل ماذا؟».

«العودة مثلاً؟».

نشرت مجلة داي زايت الأسبوعية الألمانية في الخامس من تشرين الأول الصور التي أرسلها لنا مانيا. نُشِرت تلك الصور في قسم الأخبار الدولية، واحتلت صفحة بأكملها، كما أضيفت إليها رواية عامة عن تشاوشيسكو بعنوان عقدان من الحكم السيّئ. كان العنوان العام للمقالة هو الستاليني الأخير. وقد بدت

الصور التي ظهرت في المجلة أكثر إثارة للرعب لأنها لم تكن ملونة، كما ظهرت مثل لقطة من فيلم منزل الرعب هامر.

قرأ ليو المقالة مرتين، وقرأها كل مرة بلهجة مختلفة، وكان يركّز على جزء جديدٍ من المعلومات في سياق الأمور الأخرى التي نعرفها. هل رأى مانيا الصور الواردة في هذه المقالة، وهو المسؤول عن الأمر برمته، وهو الذي سيشهد عواقب نشرِها؟ تصوّرته في مكتبه وقد نشر داي زايت فوق طاولته مترقباً دمدمةً ما ستصدر عن مكتب ستويكو، وذلك بعد تلقيه توبيخاً قاسياً من الرفيق الأول وإيلينا. كان ذلك أحد السيناريوهات المحتملة، أما السيناريو الآخر فكان على الشكل التالي: إلقاء القبض على مانيا، بينما تكون ورقة اعترافاته جاهزة للتوقيع. هل يذكر أحد ما حدث لسلفه الجنرال أنطون قبل سنواتٍ قليلة؟ إذ إن إقدام ابنه على الانشقاق ولجوءه إلى الولايات المتحدة تركه في موقف صعبٍ جداً. وقد حاول الرجل النأي بنفسه عن ابنه، حتى إنه تظاهر بالتبرؤ منه، ولكن هذه الخطوة لم تكن كافية. بعد ذلك، زاره ستويكو. عندها، تناول مسدسه، وتوجّه إلى الغابة حيث أطلق النار على نفسه. كانت الجريمة مستبعدة في تلك الحالات، إلا أن الانتحار القسري كان البديل.

كان اتحاد الكتّاب، أو كازا مونتيرو - كاتارجي يقع في كاليا فيكتوريا. وكان مدخل المبنى الذي يبعد قليلاً عن الرصيف يُشرِف على حديقة متناسقة بشكلٍ مذهل، إلا أن الممر الخارجي الذي استُحدِث لاحقاً يبدأ بدرجٍ رخامي تحت ظلةٍ من الزجاج والحديد.

تواجد أربعون أو خمسون شخصاً في صالة آرغيزي؛ حيث وُضِعت رزمٌ من نسخ عن كتاب حياة في الخدمة. دهشتُ عندما رأيت صورة المؤلف على الغلاف

الخارجي الأخير للكتاب، والتي يظهر فيها: تروفيم الطالب في موسكو، ولينين الملتحي، وأحد مساعديه. كانت هذه الصورة هي ما يحب أن يُطلِق عليه ليو أقف إلى جانب التاريخ، وأنت في أي جهةٍ تقف؟ لكننا في هذه الأيام نادراً ما نرى صوراً قديمة.

لكن صالة آرغيزي - بالرغم من اسمها - هيمنت عليها صورتان كبيرتان تمثّلان آل تشاوشيسكو. برزت تحت الصورتين قصيدة لشاعر القصر أدريان بالينسكو، والتي يمدح فيها نيكولاي بوصفه دانوب الفكر؛ وهو التشبيه الذي اعتبرته مرعباً، نظراً إلى تجربتي الحديثة مع ذلك النهر القاتل. كانت كلمات القصيدة مريعة بدورها، ولم يكن هناك أي أملٍ لفن التشابيه والاستعارات في عالمٍ يشتمل على واقعٍ كهذا. مازحني ليو ذات مرة حول كتابة مقطعٍ مليء بالاستعارات والتشابيه، حيث يقوم بارودي بحزم حقائبه، وإقفال متجره، ثم وضع لوحة على الباب كُتب عليها: مقفل. إذا كانت هناك أي استفسارات يرجى الاتصال بالواقع. كانت قصائد بالينسكو القشة الأخيرة التي دفعت بارودي إلى التقاعد باكراً. تطلعت أوتيليا إلى الأبيات وضحكت بصوتٍ عالٍ، بل قهقهت بمقاطع صوتية متقطعة وغير متماثلة وعالية بشكلٍ لم يسبق لي أن سمعته من قبل. جفل الأشخاص القريبون منا واستهجنوا ما سمعوه.

كانت الجدران مزينة بالستائر الحريرية باللونين الذهبي والقرمزي - والتي أصبحت الآن متسخة ومليئة بالبقع - وكذلك بصفٍّ من الخزائن الزجاجية التي تعرض نصوص آرغيزي الأصلية. أما تحت صور آل تشاوشيسكو فقد وُضِعت صفحة مكتوبة بخط اليد مأخوذة من إحدى قصائد آرغيزي العظيمة والتي كانت بعنوان لعنات:

دعوا الخُلد والديدان في زحفها

فوق جثث المشهورين الذين ماتوا.

واسمعوا صرير مئات الفئران

بين الأثواب الأرجوانية

دعوا العث والحشرات الغريبة

تعشعش بين الأشياء الثمينة

المحشوة باللآلئ والذهب.

ودعوا العناكب تمد خيوطها الصامتة

فوق أوتار القيثارة والكمان...

لكن، مَن الذي وَضع تلك القصيدة بالذات هناك - وهي قصيدة تخريبية؛ ليس من حيث غايتها أو حتى مضمونها، وإنما في سياقها غير المقصود - ثم نجا بفعلته؟

أعلنت قهقهة أوتيليا عن وصولنا، فلوّح لي مانيا من الطرف الآخر من القاعة، فيما تقدّم تروفيم نحونا مترنحاً وقد علا الاحمرار وجهه. كانت المرايا تملأ جميع الجدران كما هي الحال في جميع القاعات الكبرى. ويعني ذلك أنه في أي مكان يقف فيه المرء سيتمكن من رؤية جميع الذين يقفون خلفه وإلى جانبه. كان مبنى اتحاد الكتّاب واحداً من الأماكن القليلة في البلد التي لا يحتاج المرء فيها إلى التطلع إلى الخلف على الدوام. كما كانت القاعة مليئة بأشكال الأثاث الغريبة، سواء أكانت قطعاً أنيقة أم كراسي ذات قوائم رفيعة، أم طاولات متقشرة في أعلاها ومليئة بالخدوش ومتصدّعة. كان الدخان يتصاعد من أعقاب السجائر المكوّمة في المنافض. لكن بين الحين والآخر، كانت تنتشر في الجو، ووسط الضجيج السائد في المكان، رائحةُ أحد العطور الغربية الجديدة التي كان

مصدرها المتاجر المعفاة من الجمارك، أو متاجر الحزب. كانت روائح هذه العطور تتغلب على الروائح غير المستحبة المتصاعدة من الثياب القديمة وكرات العث، وعلى رائحة الثوم التي لا تلبث أن تتلاشى بعيداً. ميّزتُ رائحة شانيل؛ العطر الذي تضعه سيليا، لذا تتبعت الأثر الذي تركه هذا العطر عبر الغرفة إلى أن وصلت إلى زوجةٍ بدينة لأحد القياديين في الحزب، والتي كانت تدسّ قطعة من الحلوى في فمها.

اختلط الدبلوماسيون مع بعضهم بعضاً بشكلٍ يدعو إلى السأم. كنت أدرك أن السأم يُمكن أن يكون نوعاً من تجارب الجسد الخارجية، أي ما يشبه حالة ما وراء الطبيعة. لكنّ الدبلوماسيين كانوا محترفين، أما عميد السلك الدبلوماسي فقد كان بلجيكياً، وكان القنصل الأول أوزيراي قد كرّس حياته العملية للقيام بأقل قدرٍ ممكن من الحركة؛ وذلك بحسب فلسفة الزن. لكن الرجل تورّط قبل سنواتٍ قليلة في مغامرة مع أحد العملاء الأمنيين، والتُقِطت له صورٌ في وضعٍ غير سويّ. في ذلك الوقت، قيل إن أوزيراي أصرّ في البداية على إتمام ما كان يُزمِع عليه، ولكن عندما طُلِب منه أن يصبح عميلاً مزدوجاً سارع إلى ارتداء ثيابه وتوجّه مباشرة إلى سفير دولته ليشرح له الوضع. وقد تعمّدت وزارة خارجيته إبقاءه في منصبه ليكون مثالاً يؤكّد أن بعض الأشخاص لا يخضعون للابتزاز. انتبه إليّ الرجل بينما كنت أراقبه، فابتسم ورفع كوبه تحيةً لي.

تعمّد ونترسميث الاختلاط مع الحاضرين، ولكنّ كلمة اختلاط كانت على الأقل ما يستخدمه لوصف تطفّله على الآخرين؛ وهو الأمر الذي كان بارعاً ومميزاً فيه. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها منذ أن أعطيناه الصور. ظهر جانب من وجهه مخدوشاً قليلاً، وذلك منذ تعرّضه للضرب. كما لاحظت وجود بعض القُطب على مقدمة أنفه.

«يمكننا أن نتحدث، أليس كذلك؟». وقف ونترسميث إلى جانبنا، وتطلّع نحو

أوتيليا: «أعني التحدّث معها هنا». فرمقته أوتيليا بنظرة استخفاف، ودُهِشتُ لأنه لم يقرص نفسه للتأكد من استمرارية وجوده. بعد ذلك، توجّهتْ أوتيليا للقاء تروفيم وأوزيراي الذي سارع إلى تقبيلها. عندها، تراجعت إلى الوراء بسرعة وقد احمرّ خدّاها خجلاً، وما لبثت أن سمحت له بغمرها بالمجاملات السائدة في عالمه القديم.

قلت لونترسميث: «أفترض أنك لم تفعل شيئاً بتلك الصور، أليس كذلك؟».

فأجاب بلهجةٍ متشنجة: «حسناً، كلا... كنت متحمساً لها شخصياً كما تعرف، ولكننا حين عقدنا اجتماعاً، لم يعتبر المجتمعون أنها استراتيجية ناجحة. يُضاف إلى ذلك أنها افتقدت إلى عواقب واضحة قد تنجم عنها... ».

«أتعني أنه كان من الممكن أن تعرقل تلك الصور المعرض التجاري القادم؟».

«حسناً، دعنا نواجه الواقع... لم يشعر الألمان والفرنسيون بالارتياح بسبب تلك الصور، ولذلك قاموا باستدعاء سفرائهم. كما سمعتُ أن الكرواتيين قد خسروا صفقة كبيرة واحدة على الأقل... » وابتسم ونترسميث ابتسامةً أراد لها أن تكون من نوع الابتسامات التآمرية، ثم تابع: «... الرياح السيّئة تهب من دون فائدة، وأعتقد أنها سوف تهب علينا بعد وقتٍ قليل».

«أعتقد أنك تعني بكلمة علينا مؤسسة المملكة المتحدة للصناعات الجوية، أو أنظمة الدفاع البريطانية... ».

«أنا أعني الشركات البريطانية القانونية والمحترمة، والتي توظّف مئات الأشخاص الذين تعتمد عليهم مناطق بأكملها».

«لكن، منذ متى تحوّلت السفارة البريطانية إلى الذراع الدبلوماسية للشركات الخاصة؟ إذا أردتَ أن ترى بنفسك البلدات والمناطق المعتمدة على الصناعات

التي لا تحصل على إعاناتٍ حكومية، أو على دعم مكتب الشؤون الخارجية، فبإمكانك أن تُلقي نظرة على عمال المناجم وعمال مصانع الفولاذ... » أدركتُ على الفور أنّ إعطائي ونترسميث فرصة لإغاظتي سيكون خطأً كبيراً. وقفت هناك وقد احمرّ وجهي من شدة الغيظ والغضب، بينما اكتفى هو بمراقبتي مسروراً؟

ثم ابتسم قائلاً: «أو ربما المؤلف... » فبدا لي كما لو أنه يقول إن ثمة من يعرف قصتي. «تعلّم أن تغيّر ما تستطيع تغييره، كما يجب أن تختار معاركك جيداً. إن وظيفتي لا تشتمل على الموافقة أو عدم الموافقة، كما أنه ليس بإمكاني إقحام مشاعري في الأمر وتعطيل شيء ما». ثم أضاف كما لو أنه أراد إظهار استقلالية تفكيره: «في الواقع، هناك أمور كثيرة لا أوافق عليها. لكن في الواقع، إن الاقتصاد هو الذي يُحرِّك السياسة في هذه الأيام. إن القرارات السياسية قرارات اقتصادية. هذا هو الواقع، ولا يمكننا فعل أي شيء في ما يتعلّق بهذا الموضوع».

أقحم أوزيراي نفسه بيننا، وأطبق بأصابعه حول يد ونترسميث، ثم قال: «آه، مسيو ميد ونتر؟ جيلبرت، أليس كذلك».

«ونترسميث، جيل». شدّد البلجيكي قبضته أكثر بقليل، وبطريقة دبلوماسية.

«آه أجل، هكذا تماماً. سمعتُ عَرَضاً تحليلك الحكيم، فتذكّرت بداية تولّيَّ مهامّي الدبلوماسية». صمت أوزيراي وأغمض عينيه، ثم دعانا للانضمام إليه في حقبة ما قبل التاريخ؛ أي حيث يتجوّل الدبلوماسيون والديناصورات في القاعات المزودة بالمرايا ذاتها. «إن صديقي البارون هنري نيفارلايز - وهو دبلوماسي عظيم - أشرف على خمسين سنة من التغييرات الحاسمة التي عرفها العالم، ومن دون أن يرفّ له جفن. وقد قال لي البارون يوماً: «أيها الشاب، يتواجد في عالم الدبلوماسية نوعان من المشاكل: المشاكل الصغيرة والمشاكل الكبيرة. تتلاشى

المشاكل الصغيرة من تلقاء نفسها، أما الكبيرة فلن تستطيع فعل أي شيء حيالها. ويأتي أكبر التحديات في مهنتك من الدافع يحثّك على التحرك. إن اختبار همّتك في العمل يعتمد على مدى نبلك في مواجهته». إنها نصيحة رائعة يا سيد ميدونتر، ألا توافقني الرأي؟».

«حسناً، بصراحة، لم يكن هذا ما قصدته... » ويبدو أن ونترسميث قد شعر بالتوتر، ثم أضاف: «أقصد... حسناً... هناك الكثير من الأعمال التي تنتظر من الدبلوماسي... ».

غير أن رغبة ونترسميث في متابعة الحديث سرعان ما اختفت بسبب ابتسامة أوزيراي. ولكن، عندما أرخى البلجيكي قبضته تراجع ونترسميث إلى الوراء، وانضمّ إلى الحشد بعد أن شعر بأنه قد هُزِم. «شكراً لك. لم أحرِز أي تقدّم معه، كما أنني بدأت أفقد أعصابي بسبب حديثي معه».

«من دواعي سروري. لكن ذلك الرجل مريع، وأخشى أنه سوف يكون المستقبل في بلدك».

سألته: «هل كنت حقاً تعني ما تقوله؟ أعني بشأن عدم القيام بأي شيء في ما يتعلّق بالمشاكل؟».

أنقذت ضربة قوية على الطاولة الرجل من عناء الرد، وكان أحد الرسميين هو من قام بذلك.

«من دواعي سرورنا الكبير أن يستضيف اتحاد الكتّاب في هذا اليوم حفل إطلاق مذكرات سيرجيو تروفيم. تعطي هذه المذكرات لمحات فريدة عن القفزات العظيمة التي حققتها أمّتنا في العالم على مدى السنوات الأربعين الماضية، وعلى الأخص في السنوات العشرين الأخيرة. ويمكننا القول إنها كانت عشرين سنة مثمرة». سمعت ضجة في آخر القاعة، وتبيّن لي أن ليو الذي بدا متأنقاً قد اقترب

من الواجهات الزجاجية، وراح يشير إلى شخصٍ ما لم أتمكّن من رؤيته. ثم دخل ليو القاعة، وصدم بقدمه القسم السفلي من الباب، ولحقت به جوانا مترنحة ومتألقة، وبدا واضحاً أنها تشعر بالإحراج. التفت مقدّم الاحتفال إلى الوراء مستطلعاً الأمر، لكن ليو أشار له بأن يُكمل. «إنه من دواعي سروري أن أتمكن من قراءة رسالة مليئة بالتمنيات الطيّبة من الرئيس الأكاديمي، قائدنا نيكولاي تشاوشيسكو، والذي يُعرَف بحبّه للأدب، بالإضافة إلى خبرته في حقولٍ أخرى. إنه رجل نهضة بكل ما للكلمة من معنى، وهو يمثّل اتحاداً أصيلاً لكل المواهب... » صمت الرجل قليلاً، وأخذ نفساً عميقاً، فيما تردّدت في القاعة همهمات تدل على الموافقة الشاملة، وصفّق عددٌ قليل من الحاضرين.

مرّت عشرون دقيقة أخرى من التمهيد، بينما سيطر على الحاضرين الشعور بالملل. في تلك الأثناء، تسلّل ليو إلى خارج القاعة حاملاً معه زجاجة من الشراب، بينما دخل أوزيراي في نوعٍ من أنواع الغيبوبة، وتوقفت عنده عمليات التمثيل الغذائي؛ أي مثلما يحصل للسلحفاة في فترة سباتها الشتوي. وكزتني أوتيليا في أسفل ظهري، فاضطررت إلى كتم قهقهتي. شعرت بجسدها يقترب مني، فوضعت يدي خلفي ولمست خصرها، ولكنها اقتربت مني أكثر واستندت على ظهري.

جاء الآن دور تروفيم، وسار نحو منضدة الخطابة المزيّنة بشعار الحزب، وأنزل «الميكروفون» بوصات قليلة، ثم بدأ بإلقاء كلمته. استمر تروفيم في إلقاء خطابه على مدى نصف ساعة، وذلك من دون أن يرفع نظره. تخلّل الخطابَ أكثر الشعارات والكنايات الشيوعية إثارة للملل، وكذلك الكلمات الطنّانة والمنمّقة. ولم تتخلّل الكلمة التي ألقاها النكات أو المرح، كما خلت من التعليقات المهذبة، أو تلك التي تدل على ثقافة عالية. ذُهل بتريسكو وعدد آخر من أصدقاء تروفيم الذين تعرّفت عليهم في المتنزه، وبدأوا بحكّ رؤوسهم، وهذا

ما فعله ليو أيضاً والذي بدا مرتبكاً. قوّس ليو حاجبيه وهو ينظر إليّ؛ بما معناه: ماذا يجري؟ فقوّست حاجبي من فرط الدهشة. عندها، هزّت جوانا رأسها. لكنّ أوتيليا بدت منتبهة، وضغطت على يدي وكأنها تدعوني إلى المشاركة في نكتة تتعلّق بها فقط. أحسستُ بأن ضحكةً عريضة ترتسم على وجهها من دون الحاجة إلى النظر إليها. وسمعنا تثاؤباً طويلاً صادراً من آخر القاعة، والذي انتهى بشخرة حادة، فتوجهت أنظار جميع الحاضرين نحو ليو.

تعمّد تروفيم إلقاء خطابٍ طويلٍ، وقد أراد له أن يكون مملاً إلى درجة الإزعاج، وهو لم يفعل ذلك بتجاوز التقاليد وتسليط الضوء على أمورٍ معيّنة فقط، بل بإضافة ثقلٍ كبيرٍ إلى منطقها الثقيل أصلاً: الإخضاع من خلال الإفراط في الإذعان.

وعند انصراف المدعوّين، قادني ليو إلى القبو بعد أن حمل مصباحاً يدوياً. سمعت هناك صوت برادٍ قديم كان يهتز وسط بركة من الماء المتسرب الذي بدا بلون الصدأ. كما رأيت أكواماً من الكتب والأوراق التي توزّعت في أنحاء المكان. لكنّ صفحات الكتب كانت مهترئة، أو مبتلة، أو تحوّل لونها إلى الأخضر بتأثير العفن. قهقه ليو مترنحاً، ثم قال: «هذا هو الأرشيف». وبعد ذلك، فتح باب البراد الذي التمعت على رفّه الوحيد ست زجاجات من الشراب الفرنسي باهظ الثمن. حملتُ الزجاجات إلى الطابق العلوي بعد أن وضعتها في صندوق مسطّح مكتوب عليه اسم كاتبٍ منسيّ، أو سبق أن تعرّض لفضيحةٍ ما وتم شطب اسمه على الصندوق.

«إنها هدية من دار نشر لا بيل عن طريق القنصل الأول أوزيراي، وذلك لمساعدتنا على الاحتفال بإطلاق الكتاب في باريس».

إذاً، هل كان أوزيراي الملتزم بمبدأ اللاحركة ثالثنا؛ أي الرجل الذي أشرف على وضع نهايات فرنسية لكل شيء، والذي تفاوض مع الناشرين بالنيابة عن

تروفيم؟! أمسك تروفيم ذراعي، وذلك قبل وصولنا إلى قاعة الاحتفالات وقال: «الآن، لا مجال للعودة إلى الوراء. أعني أن الأمور قد خرجت من يدي... لذا، دعنا نشرب الآن احتفالاً بصدور الكتاب؛ لأنه لن يكون هناك مجال كبير للاحتفال بعد الآن».

عدنا أنا وأوتيليا إلى المنزل سيراً على الأقدام. وهكذا دخلنا مرحلة العاشقيْن بصمت. وفي تلك الليلة، توجّهنا إلى غرفة النوم معاً، وقمنا بعلاقة حميمة بصمت وبعيون مغمضة، ثم استدار كل منا جانباً، ونام بعيداً عن الآخر؛ وذلك من دون أن نقول أي شيء. ولكنّ علاقتي الحميمة مع سيليا كانت أكثر رومانسية، وأقرب إلى الإباحية. إذ كنت أراقب نفسي أثناء تلك العلاقة بينما كانت سيليا تراقبني بدورها. وتحتّم عليّ في ذلك الوقت أن أكون واعياً للنشوة التي لا تُحتمل، وذلك قبل أن أتمكّن من الشعور بتلك النشوة داخل جسدي. إذ تعيّن على تلك النشوة المرور عبر دماغي وعينيّ أولاً، والخضوع للتقييم. لكنّ علاقتنا كانت علاقة متحررة وخاضعة للمراقبة. فحتى عندما كنا نمشي أو نأكل، أو عندما كنا نقوم بأشياء عادية معاً كان الأمر يبدو وكأننا ننظر إلى نفسينا. وقد منحتنا طبيعة تلك العلاقة دفعاً إضافياً؛ الأمر الذي أدى إلى مضاعفة مسراتنا. ويُحتمل أن سبب ذلك هو أننا نعيش تحت المراقبة. لكن بالنسبة لي، كان ذلك جانباً من جوانب شعوري بالغربة الذاتية، وإحساسي بأنني أسكن داخل وعيي الذاتي.

أما مع أوتيليا فلم يكن هناك أحد سوانا والظلمة؛ وذلك قبل ارتفاع أصوات التنهدات التي أيقظتني، والتي اكتشفتُ أنها صادرة عني. وقد أيقظتها تلك التنهدات أيضاً. وفيما كانت تستدير لتغطية جسدي بجسدها وتغطية فمي بفمها، شعرت بأن شيئاً ما يتكسّر داخلي، وبإحساس عميق وغريب؛ كما لو أن سطح بحيرة ظلّ متجمّداً لمدّة طويلة من الزمن قد أخذ يتصدّع بدءاً من شقّ

صغير ظهر عند حافتها.

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

Telegram @read4lead

الفصل الثالث

تبدأ مناوبة أوتيليا في المستشفى عند الساعة السابعة صباحاً، ولكنها تأخرت في الذهاب إلى عملها لمدة ساعتين. إذ إنّ أوقات الصباح بدأت تصبح أكثر ظلاماً لولا الأضواء الكاشفة المسلطة على السطوح؛ وهي الأنوار التي رسمت ظلاً جانبياً لها على الجدار المواجه للنافذة؛ إذ ظهر ظلّ جسدها عند ارتدائها ثيابها في شبه العتمة المخيّمة على المكان نحيفاً وشاحباً، فيما تردّد في أنحاء الشقة صفير إبريق المياه التي كانت تغلي.

ضغطتُ على مفتاح الإنارة، لكن لم يحدث شيء. عندها، رحت أتساءل عمّا إذا كانت هذه فترة أخرى من فترات تقنين الكهرباء، أو إن كانت فترة الانقطاع ذاتها لا تزال مستمرة. رأيت أوتيليا عندما انضممتُ إليها في المطبخ ممسكةً بحقيبتها الرياضية التي تحتوي على جميع أغراضها. وما لبثْتْ أن وضعتها على الطاولة قائلة لي: «أيمكنك أن تنقل أغراضي إلى غرفة نومك؟ لن يتطلب ذلك وقتاً طويلاً». ثمّ ابتسمتْ لي، وأمسكت يدي، وقبّلت فمي مجدداً فاسترخيت بين ذراعيها. كنت أخشى أن يكون ما حدث بيننا في الليلة الماضية مجرد فيض من العواطف الناتجة عن القرب المكاني، وانطلاق التوترات المكبوتة، وأنها ستعمد بعد ذلك إلى الابتعاد عني. لذا، عندما قبّلتني شعرت بأنني أفقد توازني، فما كان منها إلا أن أجلستني على الطاولة.

وفي طريقي إلى مكان عملي توقفتُ لزيارة تروفيم؛ إذ أدركت أنه سوف يعاني من متاعب كثيرة رغم استعداده لمواجهة عواقب حفل إطلاق كتاب الخيانة المثالية الذي تمّ في باريس في اليوم السابق. وكنت قد عزمتُ على اصطحابه معي لتناول طعام العشاء؛ حيث سأخبره عن أوتيليا، كما عزمتُ أيضاً على

التنزه معه تحت شمس الخريف، والتخطيط للوقت الذي سيحتل فيه هذا الكتاب عناوين الصحف...

غير أنني عندما وصلت إلى الشارع الذي يقيم فيه وجدت أنه تم وضع حواجز طرقية عند طرفيه، الأمر الذي أعاق حركة المرور فيه. كان قد سبق لي أن مشيت في هذا الشارع من قبل، ولكن رجال الميليشيات بدوا اليوم في حالة تأهّب. عبرتُ الطريق، وأدركت أنه من الأفضل لي أن أكتفي برؤية باب تروفيم وشرفته التي تطل على الشارع. كانت النوافذ مقفلة، والستائر مسدلة. لكنني ما إن اقتربت من المبنى حتى انفتح الباب وخرج منه رجلان من الميليشيا، ثم تبعهما ثلاثة من ضباط جهاز الأمن، وقد منعوني من إكمال الطريق. سألتهم عمّا يريدونه، ولكنهم لم يجيبوا عن سؤالي. عندها، أعطيتهم أوراقي الثبوتية، وأنا أشعر بانزعاج شديد إلى درجة تثير الشكوك. وفي تلك اللحظة، أدركت أن ما يجري ليس تفتيشاً عادياً.

«أيمكنني أن أسألكم عمّا يجري هنا؟ فأنا أرغب في زيارة صديقي، وهو رفيقٌ كان يحتل مركزاً رفيعاً في الحزب، وكان وزيراً سابقاً، إنه سيرجيو تروفيم، وأنا أساعده في عمله... ».

لم يتكلّم أحد منهم، بل تفحّصوا أوراقي، ثم وضعها أحدهم في جيبه. بعد ذلك، دفعني أحد أفراد الميليشيا إلى داخل سيارة داسيا سوداء اللون. ولكنني استمررت بالكلام، وقلت لهم إنني مواطنٌ بريطاني وزائر عادي، وإنني لا أشارك في أي شيء غير قانوني... ثمّ نظرت إلى الخلف إلى نافذة تروفيم فرأيت الستارة وهي تهتز. كان الرجال داخل السيارة يعرفون كيفية إنزال الرعب في قلوب الآخرين، وهم من الطينة ذاتها التي أنتجت ستويكو وأمثاله، وكان يُطلَق عليهم لقب الثياب العادية، لكنّ الواقع هو أن تلك الثياب كانت الزيّ الرسمي لهم، ولم يكن من المعتاد أن يختلطوا مع الآخرين أبداً. تواجد أفراد الميليشيا

لكي يراهم الناس ويشعروا بوجودهم، ولحقن سم المراقبة الشديدة في كل غرفة، وعند كل منعطف شارع، وبين كل تجمّعٍ عفويّ. يُضاف إلى ذلك أنهم كانوا يرتدون بذلات باللون البنّي أو الأصفر الشاحب؛ وهي البذلات ذاتها التي تتألف من سترات منتفخة تسمح بوضع المسدسات فيها، وسراويل مناسبة للأحذية العسكرية ذات الكعوب العالية، كما كانوا يتّصفون بتسريحات شعر عسكرية. يُحتمل أن يكون ليو قد امتلك أسباباً للسخرية منهم، وربما عرّض نفسه للضرب بسبب سخريته تلك، أما أنا فلم أفعل ذلك. إلا أنني شعرت بالخوف للمرة الأولى منذ زيارتي جادة النصر الاشتراكي. لم يكن خوفي مثل ذلك الخوف الذي يشعر به المرء لدى مواجهته خطراً مفاجئاً أو شراً لا يمكن تصوّره، وإنّما كان خوفاً يشعر به من ارتكب خطأً فادحاً.

لم يقتادوني إلى مقر شرطة الأمن الداخلي، بل أخذوني إلى شقة صغيرة تقع تحت الأرض، بالقرب من المقر المركزي للشرطة. كانت الجدران مليئة بآثار الرطوبة، ومغطاة بورق الجدران المتقشر. أجلسوني إلى طاولة صغيرة حيث يوجد كرسيان فقط. وبعد مرور عشرين دقيقة من السكون، انضم إليّ رجل متأنق بدا كما لو أنه من أساتذة الجامعات. تطلع الرجل المتأنق نحوي، ثم ابتسم وفتح ملفاً. كان ملفّي بسماكة بوصتين. لكن، لو عرضتُ عليه الملاحظات التي كتبتها على مدى سنتين من الزمن لكان الملف قد صار بسماكة ثماني بوصات.

بدأ الرجل حديثه معي على الشكل التالي: «ليس هناك ما هو سري للغاية في ما يتعلّق بإقامتك في هذا البلد حتى الآن. وهذا الملف غنيٌ بالمعلومات التي زوّدنا بها أصدقاؤك وزملاؤك؛ وهم الذين وفّروا علينا عناء مراقبتك... » ثم عرض عليّ الرجل عدداً من الصور: صورتي على الشرفة، وصورتي في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى العمل سيراً على الأقدام، وصورة لي مع موظفي المطعم، وأخرى فيما كنا أنا وليو خارجَين من كابسيا في تلك الليلة الأولى، وأخرى للسيارات أثناء

مغادرتها المتحف بعد إحدى محاضرات ليو المسائية، وواحدة لي مع أوتيليا في طريق عودتنا من زيارة تروفيم، وكذلك صورة لأوتيليا خارج منزلي، وأخرى لليو وهو يضع يده على أنفه ويتبادل العملات مع إحدى المومسات، وكذلك صورة يظهر فيها ونترسميث وهو يتحدّث إليّ عند بوابات السفارة. لكنني لم أرَ أي صورة لبيتر أو فينتول؛ وهما الشخصان الوحيدان اللذان يشكّلان خطراً حقيقياً عليّ من بين الذين تعرفت عليهم، ولم أرَ كذلك أي صورة لسيليا أو مانيا. ولا بد أن هذا يسمح لي باستنتاج شيء ما.

«أريد منك أن تعطيني هذه الصور لاحقاً من أجل مذكراتي. إذ تشكّل الفترة التي قضيتها في رومانيا جزءاً صغيراً من القصة ولكنه مهم، ومن المؤكد أن هذه الصور ستكون الأفضل توثيقاً. والآن، أخبرني عن سبب وجودي هنا».

فأجابني الرجل بلهجةٍ مماثلة محتفظاً بابتسامته: «يا لسرعة البديهة الإنكليزية! لكن، سنرى كيف ستخدمك في هذا الوضع الجديد... إننا نحتفظ بملفٍ كبير عن أنشطتك، كما أن عدداً من تلك الأنشطة يُعتبَر ضد مصالح الدولة. يُضاف إلى ذلك أن عدداً من تلك الأنشطة ليس قانونياً بشكلٍ صريح؛ مثل تبادل العملات في السوق السوداء، ومحاولة رشوة موظفي الدولة، والاختلاط مع مجرمين، والعلاقة مع مومسات... ».

«مومسات! لم يسبق لي أن قمت بعلاقة - بحسب تعبيرك - مع أي مومس في حياتي. أما بالنسبة إلى محاولة الرشوة، فإنني أجزم بأن كلمة محاولة ليست مناسبة؛ لأنني لم أواجه أي حالة رفض أثناء تلك المحاولات... ».

«توقّف عن تضييع وقتي. تشير كل هذه الأدلة إلى جرمٍ شائع، وإذا تمّت إدانتك بهذا الجرم فلن يكون هناك مجال لأي بطولات. إذ إن سفارة بلادك لا تتدخل في السلوك التخريبي والإجرامي، ويعني ذلك أنك سوف تعتمد على نفسك».

«لا أستطيع مساعدتك بأي شيء. صرّح عمّا تتهمني به أو دعني أذهب».

«صرّح عمّا تتهمني به أو دعني أذهب! أعتقد أنك شاهدت الكثير من المسلسلات «البوليسية». أما أنا فمسلسلي المفضل هو سويني». وضحك المحقّق، ثم خلع نظارته. وبعد ذلك، وجّه إليّ بيده الأخرى لكمةً قوية استقرت على وسط وجهي. شعرت بأن شفتي قد شُقّت عند أسناني الأمامية. وأحسستُ على الفور بأن أنفي قد انضغط بسبب هذه الضربة؛ وكأن لحاء شجرة قد انتزع من مكانه، وتذوّقت طعم الدم الغزير الذي ملأ فمي.

مضى المحقّق في قراءة ملفي وكأن شيئاً لم يحدث، ثم وضع إشارة عند أحد المربعات المرسومة على غلاف الملفّ الذي يحمله، وسجّل الوقت - 10: 38 - وأرفق ذلك بتوقيعه. حاولت معرفة اسمه من التوقيع، غير أنه كان قد تعمّد عدم توضيحه. وفي وقتٍ لاحق، عرفت أنهم عندما فتحوا أرشيفات الشرطة في هذا المكان، وفي الدول الشيوعية السابقة الأخرى، لاحظوا أن معظم التقارير موقّعة بهذه الطريقة الغامضة، أي أنهم كانوا يضعون اسماً مجهولاً، ويلجأون إلى الرموز لتعقيد تلك التواقيع.

أعلن المحقق بتودد، وكأنه ينتهي من وضع أساسٍ متين لصداقةٍ سعيدة: «سنتحدث مجدداً، وسوف تضطر إلى مساعدتنا في النهاية، ويجب أن تعرف بأنه لا خيار لديك». وأخيراً، مدّ لي يده التي لكمني بها لمصافحتي، ثم غادر الغرفة. غمر العرق رأسي، بينما كان وجهي مغموراً بالدماء. وكانت إحدى أسناني معلقة بلثّةٍ مشقوقة. ظهر رجلا الأمن اللذان اقتاداني إلى هذا المكان، ودفعاني إلى صعود الدرج، ثم دخول سيارة الداسيا. ولاحظت أن أحداً ما قد وضع أغطية بلاستيكية فوق المقعد من أجل تغطية الآثار التي تركها آخر الذين خضعوا للاستجواب.

عند رجوعي إلى شقتي، لاحظت أن بابها مفتوح، وأن القفل مكسور. لكنّ كسر القفل لم يكن ضرورياً لأنهم يمتلكون المفاتيح على الدوام. وكانوا قد فتّشوا جميع الغرف وبعثروا محتوياتها، كما أفرغوا الخزائن من محتوياتها وفتحوا الأدراج. أما اللوحات الفنية فقد تعرضت للسرقة، فيما انتزعوا خط الهاتف. وكانت كتبي مرميةً من رفوفها التي انتُزعت من الجدران. في حين أن أرض المطبخ ظهرت مغطاةً بقطع الزجاج المتكسرة. وفي غرفة نومي كانت الثياب مبعثرةً وممزقةً فوق الأرض، بينما تم تمزيق حقيبة أوتيليا وإحداث شقٍ واحد فيها.

غسلت وجهي في الحمام، ولاحظت أن شفتي العليا متورمة، والجرح مغطى بطبقة رقيقة من الدم. لم تتطلب السن التي كانت معلقة بلثّتي أكثر من محاولة واحدة لانتزاعها؛ إذ سرعان ما استقرّت على راحة يدي. بدّلت ملابسي، ثم خرجت من المنزل. اتصلت بليو عند وصولي إلى متحف التاريخ، ولكنني لم أحصل على ردٍّ منه سواء أكان في المنزل أم في العمل.

لم تتوقف أية سيارة أجرة عند إشارتي إليها. إذ كان منظري أقرب ما يكون إلى رجلٍ ثملٍ مغطى بالكدمات خرج حديثاً من زنزانة سجن، أو من حمامات مركزٍ تابع للشرطة. وكانت ثيابي مجعدة وغير متناسقة، ومؤلفة من قميصٍ قصير الكمّين وأحمر اللون يحمل شعار البطل، وسروالٍ من الجينز أخضر اللون، وحذاء صيني خاص بلعبة كرة السلة، وشالٍ صوفيّ لتغطية فمي. وصلت إلى ساحة النصر، ولوّحت أمام السيارات المارة بأوراقٍ مالية من فئة الدولار، ولكن لم يجرؤ أي سائقٍ على التوقف.

بعد فترة، سمعت بوق سيارة يصدر من خلفي، ثم ظهرت سيارة سكودا زرقاء يقودها ليو بمحاذاة الرصيف. «يا إلهي، ظننت أنهم جادون بعد ما فعلوه في شقتك».

«لا أدري ما الذي حدث، أو ما الذي دفعهم إلى فعل ذلك. فقد كنت أسير في طريقي إلى العمل، واعتزمت زيارة سيرجيو. ولكنني عندما وصلت... ».

فتناول ليو صحيفتين من المقعد الخلفي للسيارة وقال: «ستجد كل التفاصيل هنا».

أبرزت الصفحة الأولى من هيرالد تريبيون صورة لتروفيم في أعلى مقالة بعنوان: رسالة الخمسة: نقّاد تشاوشيسكو يرفعون الغطاء عنه. وقد تضمّنت المقالة رسالةً مفتوحة كتبها خمسة شيوعيين بارزين يدعون فيها إلى استقالة تشاوشيسكو. وقد أُرسِلت هذه الرسالة إلى كل الصحف الرئيسة في الغرب. بعد ذلك، عرض عليّ ليو صحيفة ليبراسيون الفرنسية، والتي نشرت مقالة عن كتاب تروفيم، وتغطيةً وافية عن حفل إطلاق كتابه في باريس. وعمدت صحيفة ليبراسيون إلى نشر الكتاب على حلقات بدءاً من الأسبوع التالي؛ أي مثلما فعلت واشنطن بوست.

«وُضِع تروفيم قيد الإقامة الجبرية، وانتشر الخبر في كل أنحاء المدينة، كما اتّصل بي أوزيراي هذا الصباح».

اتهمت رسالة تروفيم تشاوشيسكو بإدارة الاقتصاد بشكل سيئ، وتأسيس عقيدة الشخصية الستالينية. كما اتهمته بتجميد الحزب، وفرض الظروف المعيشية الصعبة التي تعاني بسببها دول العالم الثالث على البلاد. وعبّرت الرسالة أيضاً عن دعم الإضرابات ومظاهرات الاحتجاج، وخلُصت إلى دعوة تشاوشيسكو إلى الاستقالة. وختمت الرسالة بمسحةٍ بلاغية، إذ قيل فيها: وصل جنون العظمة في ما يتعلّق بالفرد الواحد إلى نِسَبٍ مرعبة، فما نشاهده الآن ليس فقط عار الشيوعية وإنما تدمير تراث الأمة. وقد كان تروفيم أبرز الموقّعين على الرسالة، كما تواجد قدرٌ قليل من الشك في أن تروفيم هو الذي كتب الرسالة التي تدعو

رومانيا إلى الانضمام إلى قطار إصلاح الشيوعية الذي يقوده غورباتشوف. وتبيّن أن الخطاب الذي ألقاه تروفيم في اتحاد الكتاب كان مجرد مزحة، في حين أن هذه الرسالة كانت المغزى الحقيقي الذي أراد إيصاله. تمكّن تروفيم من ترتيب كل هذه الأمور بمساعدة أوزيراي، وعددٍ قليل من الأشخاص الآخرين.

قال ليو: «يا لذلك العجوز الماكر الذي عرف كيفية الضغط على كل الأزرار المناسبة: اشتراكية الحزب التحرري الواحد من أجل تحييد الروس، والبريسترويكا وكل ما يرافقها، والعدد المناسب من المنشقّين الشجعان الذي يُقنِع الأوروبيين أنه رجل المرحلة. وأنا شخصياً لن أُدهَش إذا تواجد أشخاص في واشنطن وموسكو يفكرون في أن سيرجيو تروفيم هو الرجل الذي يمكننا أن نتعامل معه في هذه الأيام... إنه الثعلب الستاليني العجوز، والذي تحول إلى بطل الإصلاح. يا إلهي».

فقلت له: «ولكنه انتهى، أليس كذلك؟ فهذا انتحارٌ سياسي بالنسبة إليه، وهو قيد الإقامة الجبرية. ما الذي يمكنهم أن يفعلوه له أكثر من ذلك؟».

«لا أعتقد أنهم قادرون على فعل الكثير. تأمّل جيداً: خمسة من كبار المسؤولين الشيوعيين يكتبون رسالة إلى الصحافة العالمية. ستذاع هذه الرسالة في كل محطات الإذاعة هذه الليلة: بي. بي. سي العالمية، وفرانس كالتور، وإذاعة أوروبا الحرّة، وصوت أميركا، وراديو موسكو. انتشرت الرسالة كذلك في كل أنحاء بوخارست، وربما في المدن الكبرى كذلك: كلوج، براشوف، وتيمشوارا. تُضاف إلى ذلك السفارات، والقنصليات، والجامعات... سوف يضايقونه قليلاً، وربما سينقلونه إلى إحدى المدن الصناعية التي تفتقد إلى المطاعم الراقية والمكتبات، والتي سوف تجعله يتعرّق. لكن، هذا كل شيء. أما إذا وضعوه في السجن فسوف يجعلون منه شهيداً. فقد بلغ الرجل الثالثة والسبعين من عمره؛ وهو عمر الشباب بالنسبة إلى القادة الشيوعيين، كما أنه رجل دولة معروف في

الحزب. لكن لم تتبقَ له سوى عدة سنوات».

«وماذا بشأن الآخرين؟ مَن يكونون؟».

«كانوا أربعة من أصحاب المراكز المرموقة، ووزراء سابقين في وزارات هامشية: ستانسيو، راليان، سلافنيسو، أبوستول... لكنني لا أعرف سوى أبوستول الذي تحدثت معه. إنه رجلٌ طيّب على طريقته». أطلق ليو بوق سيارته، وتجاوز شاحنة إسمنت. «كان خليفة جورجيو ديج في الستينيات، ولكنه وجد نفسه فجأة في المراكز الخلفية بعد أن تخلى عنه حلفاؤه لكي يلتحقوا بالرجل الذي يحب كوجاك. وهكذا أصبح سفيراً لبلده في أماكن مثل فنزويلا وبنغلادش. يُضاف إلى ذلك أنني أعرف ابنة راليان نوعاً ما. وعدا عن ذلك، أنا لا أعرف الآخرين إلا بالأسماء».

في ذلك اليوم، تحدثت كل نشرات الأخبار عن رسالة تروفيم، وخصّصت إذاعة بي. بي. سي العالمية قسماً كبيراً من نشرة أخبارها الرئيسة للتحدث عنها. أما إذاعة أوروبا الحرة فقد خصّصت برنامجاً يستغرق عرضه ساعة من الزمن للحديث عن رومانيا، كما تحدّثت عن سِيَر حياة الذين شاركوا في الرسالة، بالإضافة إلى تعليقات من مراقبي الشيوعية المشهورين. وشاركت إذاعة صوت أميركا أيضاً عند الساعة الثامنة بتقريرٍ خاص عن رومانيا تشاوشيسكو. لكنّ الأبرز من بين كل تلك الإذاعات كان راديو موسكو الذي أذاع مقابلة مُسجَّلة مع تروفيم باللغة الروسية، والتي جرت على ما يبدو قبل ثلاثة أيام من نشر الرسالة. عدّد تروفيم في هذه المقابلة أسباب معارضته لتشاوشيسكو، كما تحدّث عن مؤهلاته بصفته شيوعياً موالياً ومتحرراً. فكانت تلك أوضح إشارة تدلّ على أنه يحظى بدعم موسكو.

«اللعنة، سأخبرك عمّا يجري... » وفتح ليو جهاز الراديو، وتتبع أيّ خبرٍ مهما كان

صغيراً في جميع المحطات، غير أنه لم يحصل على فرصة للحديث. وكانت أوتيليا هي التي تحدّثت بعد ذلك: «أجرى تلك المقابلة مدير مكتب صحيفة برافدا في بوخارست، وكان السفير الروسي حاضراً. وقد أُجريت المقابلة في الأسبوع الماضي في شقة تروفيم». فنظرنا أنا وليو نحوها بدهشة كبيرة.

«كيف علمتِ بكل ذلك وأنت لم تتعرفي على الرجل سوى منذ أسابيع قليلة؟».

غمرتني موجة من الخجل بسبب شعوري بالغيرة، ولكن سيطرت عليّ بسبب ذلك موجة خجلٍ أخرى.

فابتسمتْ ثمّ قبّلت فمي المتورم وقالت: «يتمتّع تروفيم الآن بالحصانة، ولكن يمكنهم إبقاؤه قيد الإقامة الجبرية ومراقبته بشدة. غير أنّ تشاوشيسكو يعرف جيداً أنه إذا ألحق به الأذى، فسوف يتحرّك الروس، وهكذا سوف يضطرون في النهاية إلى تركه».

عندها، صفّق ليو من شدة الإعجاب وقال: «أنتِ عبقرية. قلت لكِ إنك سوف تبرزين مجدداً. يا لذلك العجوز الذكي!». ثمّ توجّه ليو إلى الثلاجة، وعاد حاملاً بيده شراباً أوكرانياً وقال: «يستدعي هذا الوضع تناول بعض الشراب». وبعد ذلك، وجّه حديثه إليّ مجدداً وقال: «قم وأحضِر بعض الأكواب، وغيِّر هذه النظرة الكئيبة التي تظهر على وجهك!».

في تلك الليلة، انضممنا إلى أوزيراي في فندق قصر أثينيه، وكان على وشك الانتهاء من تناول وجبة طويلة مع أحد زملائه الدبلوماسيين الذين اعتاد على تناول طعام الغداء معهم. كان يدخّن سيجاراً وهو يتأمّل الطاولة المليئة بالصحون الفارغة، كما تأمّل رفاقه الثملين وكأنه قائد عسكري يقوم باستعراض جيشه الذي أنهكه القتال.

وقفنا أنا وأوتيليا عند المشرب، بينما كان ليو وجوانا يمرّان بفترة نادرة من

التناغم، ويرقصان على أنغام أغنية غروبر شهيرة تصدح في قاعة مجاورة. نهض أوزيراي من مكانه بصعوبة، واعتذر من جلسائه، ثم انضمّ إلينا.

قال أوزيراي: «تمّ نقل تروفيم إلى مكانٍ نجهله. ولكنني تكلّمت للتو مع مالتشيف، وقال لي إنهم نقلوه بالسيارة عند الساعة العاشرة من هذا المساء».

كان مالتشيف مدير مكتب صحيفة برافدا جالساً في الطرف الآخر من المشرب. وأومأ الرجل نحونا عندما ذكرنا اسمه؛ فقد عرف ذلك بفضل طريقة قراءة حركات الشفاه التي تعلّمها، ومن دون شك، خلال سنوات التدريب على الاستخبارات التي تلقاها.

«سوف يأخذونه إلى مكان ما حيث لن يكون مرتاحاً، وحيث يصعب العثور عليه، ولكنهم لن يضعوه في السجن. كما تم إلقاء القبض على أبوستول والآخرين عند وقت العشاء».

«هل أتت كل هذه المعلومات من الروس؟».

فأجاب أوزيراي رافعاً كوبه نحو مالتشيف الذي رفع كوبه بدوره: «الظروف الجديدة تستدعي تحالفات جديدة».

وهكذا، تبيّن لنا أن ما اعتبرناه شجاعة من قبل تروفيم كان في الواقع حملة منظمة للعودة إلى الحلبة السياسية، وكذلك تخطيطاً استراتيجياً محترفاً. أدركت أيضاً أن أوتيليا قد فهمت ما يجري أسرع مني بكثير. حاول تروفيم إبلاغي بما يجري، ولكنه فعل ذلك بطريقته الخاصة: القصص عن آرغيزي، والمؤامرات، والتطهير، وكل تلك الخيانات المتعدّدة. لم يكذب الرجل عليّ، بل على عكس ذلك، أعطاني مؤشراتٍ عديدة قدر الإمكان. ولكنني فضّلت اعتباره رجلاً مثالياً محبطاً، ورجل دولة عجوزاً أُحيل على التقاعد. أضف إلى ذلك أنني اتخذت موقفاً دفاعياً حياله، حتى إنني شعرت بالغيرة من ثقته بنفسه. ولكنه في الواقع

كان قد رسم دوائر حول أصدقائه كما حول أعدائه. سمعتُ صوتاً من خلفي يتمنّى لموظّف الاستقبال في الفندق ليلة سعيدة. كان ذلك صوت مالتشيف الذي غادر مع رفاقه.

كان مدخل فندق أثينيه بالاس باباً دوّاراً يسمح بمرور شخصٍ واحد في كل مرة. وقد أحبَّ أولئك الذين يعتقدون أنهم ملاحقون، والذين يرغبون في استعراض حرّاسهم الشخصيين، جعل حراسهم يمرون عبره، وذلك لأن شخصاً واحداً فقط يستطيع المرور كل مرة. وهكذا، كان ذلك الباب الدوار نظاماً يُعتبر مقياساً مثالياً للمجتمع الخاضع للمراقبة، وكان يعمل مثل المنشور الزجاجي؛ لأن كل شيء كان يتباطأ وينفصل. تبع اثنان من عناصر الأمن الداخلي مالتشيف، وكان من الواضح أنهما آتيان من الأرياف للتو؛ إذ حاولا حشر نفسيهما معاً في الباب الدوار الذي يتّسع لمرور شخصٍ واحد فقط. سار خلفهما أحد عناصر كي. جي. بي (جهاز الاستخبارات الروسية) والذي كان يرتدي معطفاً ويعتمر قبعة. وبعد مغادرتهما، دخلت إحدى النساء من دون أن يلاحظها أحد، وتبعها أحد الرجال الذي ارتدى معطفاً واقياً من المطر واعتمر قبعة. ويعني ذلك أن جهازاً كاملاً قد ازدهر على ظهر صحافي روسي واحد.

وفي تلك اللحظة، رأيت شخصاً مرتدياً معطفاً واقياً من المطر. رأيتُ صورته الجانبية على الزجاج حين خرج من الجانب الآخر للباب الدوار إلى الشارع. كان الرجل ملتحياً، وذا شعرٍ قصيرٍ مسرحٍ بأناقة، ويضع نظارة، ويعتمر قبعة أنزلها على جبهته. لكن، كان هناك شيء ما فيه يشي بهويته، أو على الأقل، ذلك ما أقنعتُ نفسي به في وقتٍ لاحق؛ وهو الأمر الذي جعلني أعتقد أنني رأيت فينتول، وميّزته من صورته الجانبية. عندها، طرقت على الزجاج وصرخت باسمه ولكنه لم يجفل؛ الأمر الذي كان متوقّعاً من أي شخصٍ آخر. هل كان ذلك الشخص فينتول؟ طرقتُ على الزجاج مجدداً، ولكنه تابع سيره بالرغم من

التفات جميع الذين يحيطون به إليّ.

رأيتُ عند الباب مثالاً واضحاً عن الازدحام. فقد علقتْ في الباب الدوار سيدة عجوز مع كلبها الصغير الذي كان بلون الماء المتسخ بعد غسل الأطباق فيه. وفي الوقت الذي تمكّنتُ فيه من المرور عبر الباب الدوار والخروج إلى الشارع، كان الجميع قد اختفوا.

ركضتُ نحو ستارادا إبيسكوبيه ولكنه كان قد اختفى. كان بإمكاني متابعة المشي إلى بوليفار ماجيرو، غير أنني حين سأصل إلى هناك سيكون قد اختفى تماماً. استدرتُ وعاودتُ السير لكي أوقف سيارة أجرة. لم أذكر شيئاً ممّا جرى أمام أوتيليا. لكن، فيما كنت أحدّق من خلال زجاج نافذة السيارة الذي انتشرت فوقه قطرات المطر، بدأت ثقتي بما رأيته تتناقص شيئاً فشيئاً. بعد ذلك، شاهدتُ شخصاً غير معروف وهو يسرع الخطى على ممرٍ ذي إضاءة خافتة. وقد ذكّرتني صورته الجانبية - ولأسباب أعجز عن فهمها - بشخصٍ كنت أبحث عنه. كانت صورة الرجل تتشكّل في ذهني شيئاً فشيئاً: ما هو لون معطفه؟ هل كان يعتمر قبعة؟ هل كان يحمل حقيبة أو كيساً؟ ماذا كان لون شعره؟ وماذا كان لون عينيه؟ لكنْ، في الوقت الذي وصلتُ فيه إلى شقتي التي تعرضت للتخريب تلاشت كل أجزاء صورته من ذهني؛ ما عدا هالة شيء ما في شخصيته.

علمت أن تروفيم وأبوستول وآخرين قد نُقلوا إلى ضواحي المدينة. أما سلافينكو فقد أذعن ما إن حضر عناصر الأمن الداخلي للإمساك به، وسارع إلى توقيع وثيقة تؤكد تراجعه عن توقيع الرسالة، وقال إن تروفيم وأبوستول هما اللذان وضعا توقيعه على تلك الرسالة. ونتيجة لذلك، سُمِح له بالاحتفاظ بمنزله الريفي في هيراستراو. أما ستانسيو فقد كان مصاباً بداء السكري، بينما كان راليان يعاني من صعوبة في المشي. وهكذا، وُضِع الرجلان في أحد المجمّعات السكنية التي تفتقد إلى المصاعد، وإلى الكهرباء والغاز. زعم أوزيراي كذلك أن تروفيم يقيم في

شقة مؤلفة من غرفة واحدة، وأنها تقع على سطح أحد الأبراج السكنية التي لم ينتهِ العمل بها بعد، وحيث مصدر المياه الوحيد هو السقف وأجهزة التكييف التي تأخذ شكل فجوات.

تحوّل تروفيم إلى الموضوع الأبرز الذي تتداوله الأخبار؛ فقد طلب السفيران الأميركي والروسي مقابلته، بينما تم استدعاء السفراء الرومانيين إلى وزارتَي الخارجية في كلا البلدين لتسليمهما رسائل احتجاجٍ رسمية. أما وزير الخارجية الفرنسي فقد ألقى خطاباً دعا فيه تشاوشيسكو إلى إطلاق سراح المنشقّين الباقين. وبدوره، شارك ناشر كتاب تروفيم في هذه الحملة، إذ أعلن عن حفل إطلاق الكتاب الذي تحوّل إلى جلبةٍ إعلامية ضخمة حضرها رجال الصحافة ونشطاء حقوق الإنسان والوزراء والمنفيون السياسيون ومجموعة من فلاسفة اللامعقول والشعراء والمسرحيون، كما كان الحفل بمثابة تغطية شاملة للطبعة الأولى من الكتاب. وقد نشرت صحيفة صنداي تايمز مقتطفاتٍ عن بداية عهد تشاوشيسكو، والتي كشف فيها تروفيم أنه كان مسؤولاً عن تعديل سجل الرفيق الأول الحربي، وجعله بطلاً مناضلاً ضد الفاشية. كما وصف تروفيم إيلينا تشاوشيسكو بأنها «بالكاد اختصاصية تقنية، وسارقة أعمال فكرية محترفة؛ مورِداً أسماء العلماء الذين استُبدِلت أسماؤهم باسمها على مدى السنين. وقد نشرت صحيفة أخرى صوراً عن زيارة الدولة التي قام بها تشاوشيسكو وزوجته. وأظهرت الصورة الرفيق الأول وزوجته مع الملكة أثناء رحلة صيد مع وزير حزب المحافظين أوبليشيان، بينما تسلّمت إيلينا درجة دكتوراه فخرية من معهد لندن للبوليتكنيك. وكشف تروفيم أيضاً أن ثماني جامعات رفضت قبول طلب التحاقها بالدراسة فيها، وأنها رفضت في البداية مصافحة نائب المستشار لأنه يهودي.

أما المنشقّون الأربعة الآخرون فقد تم نسيانهم بسرعة. وهكذا، أصبح تروفيم

موضوع الاهتمام الرئيس بالنسبة للصحافة، كما برز بوصفه رجل الدولة المنشق الأول. ويُضاف إلى ذلك أن وزير الخارجية الأميركي والوزراء البريطانيين، والمسؤولين الحكوميين الفرنسيين بدأوا على نحوٍ مفاجئ بالإشارة إلى حياته المهنية الباهرة. أما صحيفة واشنطن بوست فقد نشرت نبذة عن سيرة حياته، والتي وصفه فيها هنري كسينجر بأنه «رجل واقعي، وإنساني متيقظ، ونبيل أوروبي من المدرسة القديمة. لكنّ صحيفة برافدا وصفته ببساطة بأنه مرشح اختاره الحزب؛ وهو الأمر الذي كان بعيداً عن الحقيقة. لكنّ ذلك أصبح أمراً واقعاً بعد أن قرأ الحزب عدد ذلك الصباح من برافدا. كان ذلك تكتيكاً مترافِقاً مع المخاطرة؛ لأن كراهية الرومانيين للروس تفوق بكثير كراهيتهم تشاوشيسكو. لكنّ الرجل درس الأمر جيداً؛ لأنّ الروس أصبحوا الآن خياراً أفضل بما أن غورباتشوف يمثّل الفرصة الوحيدة للتغيير الديمقراطي. أما بالنسبة إلى الرفاق الحزبيين، فقد كان فرصتهم الوحيدة لحماية رؤوسهم إذا سقط تشاوشيسكو.

مرّت عشرة أيام قبل أن نتمكّن من تحديد مكان احتجاز تروفيم، وكان أوزيراي هو الذي مرّر لنا المعلومات. لم يسأله أحد عن كيفية حصوله على هذه المعلومات، ولكنها كانت دقيقة. حتى إننا حصلنا على معلومات عن برنامج حراسة تروفيم. كانت لدينا نصف ساعة فقط لزيارته؛ وهي الفترة الفاصلة بين مناوبتَي الحراسة، والتي يتقلص فيها عدد الحراس إلى واحدٍ فقط. لذا، دفعنا أكبر رشوة شهدتُها في حياتي، وكانت عبارة عن كيسين من قطع اللحم المجمّد، وست زجاجات من الشراب الاسكتلندي، ودزينة من سجائر كنت، وثلاثة أجهزة واكمان بالإضافة إلى مئة دولار. لكن في المقابل، كانت حياة الحارس معرّضة للخطر في حال اكتشاف الأمر. وفي وقتٍ لاحق، بدأت أعتقد أن تلك الرشوة من المال والطعام والأجهزة الكهربائية تساوي كلّها حياة الإنسان في رومانيا. وكنت أعرف أنه توجد في العالم أماكن حيث حياة الإنسان أرخص من ذلك، لكنني

كنت أقرب ما يكون هذه المرة إلى هذه المبادلة التي تمّت بالفعل.

التقانا الحارس الذي يشعر بالرعب الشديد في ممرٍ معتمٍ من مجمعٍ سكني، وكان ذلك المجمّع بمثابة صرحٍ عمرانيٍ كبير من الإسمنت الرطب الذي برزت فيه لفائف صدئة من المعدن. لم يكن إتمام هذا المبنى وشيكاً، ولكن خلاّطات الإسمنت والشاحنات والرافعات كانت قد انتقلت كلها إلى الورشة التالية. وقد قال لنا الحارس: «الطابق الرابع عشر، الشقة السادسة. إليكم المفتاح، وأرجوكم أسرعوا قليلاً لأن ما تفعلونه يشكّل خطراً شديداً عليّ».

صعدنا الدرج، وكان المصباح الذي يحمله ليو يسلّط الضوء على فضلات الكلاب، وقطع الزجاج المتكسرة، وبقايا مسطحة من جيفة هرة جافة. شاهدنا كلباً يجلس مرتجفاً في زاوية غرفة المصعد، بينما كانت كلبة تُرضِع صغارها. تطلعت الكلبة إلينا واستجمعت كل قواها للقتال، ثم زمجرت وهي تنظر إلى حزمة الضوء. غير أن ليو صفق شبكة باب المصعد. كانت الممرات مليئة ببول الكلاب والنفايات التي لم تُجمَع بعد. وسمعنا في الطابق الرابع عشر صوتاً خشناً يعلن عن وجود ديكٍ بريٍّ صغيرٍ كان يُحرِّك نفسه بحدة، وقد ركّز علينا عيناً بعد أخرى قبل انتقاله إلى فجوة فارغة كانت بمثابة منزل له. يُحتمل أن هذا الديك كان من الجيل الثاني أو الثالث من مزرعة حيوانات في المدينة، وهو يبحث عن معيشته في ضواحٍ جديدة.

فتح ليو الباب فصفعتنا ستارة كانت معلّقة على نافذة من دون زجاج. كانت هذه الشقة عارية، وكانت جدران الإسمنت فيها متروكةً من دون تمليس، كما كانت الأرض الإسمنتية غير مستوية. كانت الغرفة الرئيسة متروكة للفوضى؛ حيث تجمّعت الأسلاك الشائكة والأنابيب غير الموصولة. صفعتنا أيضاً رائحة المرحاض الحادة التي جاءت من غرفة مجاورة، بينما كانت الأرض رطبة. أما تروفيم فكان مستلقياً على فراشٍ في زاوية الغرفة. أيقظناه من نومه، ثم سلّط

عليه ليو ضوء المصباح، ففرك عينيه وجلس صارخاً: «من هناك؟».

كان تروفيم لا يزال مرتدياً البذلة ذاتها التي كان يرتديها عند إلقاء القبض عليه، وذلك لأنهم لم يسمحوا له بإحضار أي شيء معه. كما لم يسمحوا له بأخذ كتب، ولا أوراق، ولا جهاز راديو. ارتجفت يداه عندما عانقنا، ولاحظنا وجود جرحٍ في رأسه بسبب سقوطه على الأرض وسط العتمة. التقط تروفيم أنفاسه، وقدّم لنا الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة، ثم أشعل موقداً صغيراً. أخرج ليو بعض الأغراض الصغيرة مثل الشموع والبسكويت والشراب، وبعض عُلب الحبوب، وبعض العلب من حساء هاينز، وبعض القطع من السلامي الألمانية. والأهم من كل ذلك، ثلاث حبات من الموز قدّمها ليو لتروفيم بحماسة بالغة. بدا تروفيم نحيلاً ومتعباً، كما كان يعاني من سعالٍ شديد. تذكّرت أنه أمضى عامين في السجن خلال الحرب، ثم أمضى بعدهما ستة أشهرٍ في السجن الانفرادي. كنت أعتقد أنه مؤهلٌ أكثر لتحمّل عناء السجن من معظم الرجال الذين تجاوزوا السبعين من أعمارهم، لكن آثار العمر ظهرت عليه رغم من ذلك؛ إذ كان يتكلم ويتنفّس بجهد.

سألَنا: «ماذا لديكم من أخبار؟ لم أسمع أي شيء منذ مجيئي إلى هنا. إنني أمضي الأيام وحدي. لم أتعرّض للضرب، ولا للتعذيب، وإنما العزلة فقط، غير أنني أتدبر الأمر».

تجاوزت أوتيليا ليو، ورفعت كمّ قميص تروفيم. فحصتْ ضغط دمه، وتطلّعت إلى عينيه، ثمّ أصغت إلى صدره. وبعد ذلك، تناولت أنبوبين من البخّاخات المساعدة على التنفس من جيب معطفها، وأنبوباً يحتوي على حبوب بروتينات، وكيسين من المسحوق الذي يساعد على مكافحة التجفاف. لاحظتُ للمرة الأولى أنها تحمل حقيبةً أيضاً. أخرجت أوتيليا ثلاث زجاجاتٍ من المياه المعدنية من حقيبتها، ثم سكبت القليل منها في كوب، وأضافت إليه المسحوق، وأخيراً ناولت

تروفيم الكوب.

«خذ قسطاً من النوم، وابقَ دافئاً، وقم بغلي الماء هنا قبل شربه. حاوِل أن تتمرن قليلاً كل يوم». فأومأ تروفيم برأسه، ووضع يده فوق يدها. «أنت مصابٌ بالتهاب رئوي. لذا، خذ حبوب المضادات الحيوية هذه ثلاث مرات يومياً، ولمدة أسبوعٍ من الزمن».

سألَنا تروفيم: «ماذا حدث للآخرين؟».

قلتُ له: «تراجع سلافنيكو ورليان، وقالا إنك خدعتهما لتوقيع الرسالة. أما ستانسيو فما زال صامداً، ولكنه مريض. ولم نسمع شيئاً عن أبوستول ما عدا تواجده في مكانٍ ما في بانييسا».

فما كان من تروفيم إلا أن أومأ وقال: «سيصمد أبوستول إذا اعتقد أنه سوف يتمكن من الفوز، أما ستانسيو فالأمر مختلف بالنسبة إليه. فهو رجلٌ طيّب، ولكنه عنيد ولا يتّفق مع أي شخص؛ سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء. وهذا يعني أن صموده ناتجٌ عن عنادٍ محض، ولن يغيّر أي شيء!». ثم تحوّلت ضحكته إلى نوبة سعال وهو يتابع: «كيف تحدثت الصحف عن الأمر؟».

أجاب ليو: «آه يا رفيقي، كنت أتساءل عن الوقت الذي ستطرح فيه هذا السؤال! لقد حضّرت لك ملفاً من مقتطفات الصحف، ويمكنك الاطلاع عليه عندما تسنح لك الفرصة في فندقك الفخم، بينما يقوم صديقك الديك بأعمال الدورية في المكان».

ناول ليو تروفيم الملف الذي يحتوي على مقتطفات الصحف، فأسرع هذا الأخير إلى تفحصها بسرعة. اشتملت المقتطفات على مقالات من واشنطن بوست، وذي تايمز، وبرافدا، وليبراسيون... بدا الارتياح على قسمات وجهه، وقام بتقشير موزة، ثم بدأ بأكلها ببطء وهو مغمض العينين لكي يتمكن من التمتع بالمذاق. وبعد

ذلك، تناول كوبين من الصفيح وقدحاً وعلبة سمكٍ فارغة ومغسولة، ثم سكب فيها الشراب.

رفع تروفيم كوبه عالياً وقال: «نخب الأصدقاء في الوطن، وفي الخارج. سأستعيد حرّيتي في وقتٍ قريب. إنه وضع لا يستطيعون احتماله، كما أنهم لا يستطيعون إبقائي هنا. هل بإمكانكم إسداء خدمة لي من الآن وحتى ذلك الوقت».

«ما هي؟».

«أريد منكم أن تعرفوا مكان احتجاز ستانسيو وزوجته، وأن تقوموا بزيارتهما. وهل بإمكانكم إيصال بعض الأغراض إليهما؟».

سمعنا قرعاً قوياً على الباب، ثم دخل الحارس لاهثاً ومرتعباً. «حسناً، لقد انتهى الوقت. سيأتون الآن». تطلّع الحارس نحو كيس تروفيم المليء بالأغراض وقال له: «أريدك أن تخبّئ هذه الأغراض تحت الفراش، أو في المرحاض، أو في أي مكان. لكن، لا تدعهم يرونها. أرجوك، دومنول... » دومنول... إنها كلمة تدلّ على مكانة تروفيم العالية؛ حتى هنا أثناء وجوده بين سجّانيه.

وقبيل مغادرتي، أعطيت تروفيم ما أحضرته معي؛ جهاز راديو صغيراً للموجات القصيرة، وبعض السماعات، كما وضعتُ بطاريات في الجهاز، فعانقني ليشكرني على هديتي. رأيت دموعاً في عينيه، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يُظهِر فيها نقطة الضعف هذه. وهو الذي اعتاد في هذه الحالات على الردّ بذكاء وبسرعة، أو بمصافحة، أو بكلمة وداع خالية من العاطفة. لكن، عندما وقفت هناك واضعاً ذراعيّ حول كتفيه النحيلتين شممتُ تلك الرائحة بالرغم من محاولته إبقاء نفسه نظيفاً ومرتّباً، إذ فاحت من ملابسه رائحة العرق والغبار والبول، إلا أنني شعرت بالاحترام تجاهه. وأحسستُ بأنني كنتُ سأمتلك الشعور ذاته تجاه

والدي لو عاش بما يكفي ليتقدّم في السن ويصاب بالعجز. شعرتُ كما لو أنه والد لي. كان من السهل قتل جسد تروفيم النحيل، غير أن عقله الواعي يبقى متقدماً. إنه السيّد الذي يدير مسرح الدمى، ليس فقط من وراء الكواليس بل من هنا أيضاً؛ من هذه الزنزانة الرطبة والقذرة.

أخبرنا الحارس عن مكان وجود ستانسيو بعد أن قدّمنا له كمية إضافية من الأغراض.

سألتُ ليو: «لن نتوجّه إلى هناك الآن، أليس كذلك؟».

«ولِمَ لا؟ المكان قريب من هنا، وهو آمن، كما أنه غير خاضعٍ للحراسة في الليل لأنه لا يستطيع الذهاب إلى أي مكان».

بحثتْ أوتيليا في حقيبتها الطبية، وعثرت على بعض الحقن وأنابيب الإنسولين، ثم قالت: «سيفرح عند رؤيتها».

كرّر ليو العنوان على مسامعنا: «بوليفار ستالينغراد، المجمّع التاسع، الطابق السادس، والشقة الثالثة عشرة». كان المصعد يعمل والمبنى نظيفاً. وذلك يعني أن ستانسيو لم يوضع في أسوأ مكان؛ بالرغم من أنه كان سيئاً بالمقارنة مع شقّته في هيراستراو التي انتزعوها منه. كانت مصابيح الممر مضاءةً بقوة 40 «واط»، ولكنها أزالت شيئاً من العتمة. سمعنا صرير المصعد حول محوره، لكننا فضّلنا عدم القيام بأية مخاطرة.

قرعنا الباب، وحين لم نسمع أي رد قرعناه مجدداً. وبعد مرور دقيقة أو اثنتين، عمد ليو إلى إدخال ورقة من تحت الباب. بعد قليل، سمعنا صوت قدمين تنتعلان خفاً، ثم سمعنا صوت رجل يتحدّث عالياً ويحاول استرضاء امرأة. وما هي إلا لحظات حتى انفتح الباب ببطءٍ بالحدّ الذي تسمح به سلسلة الأمان، ونظرت إلينا عبر الباب المفتوح قليلاً سيّدة ممتلئة الوجه، ومبلّلة الشعر.

«ماذا تريدون؟». شعرنا بنبرة خوف في صوتها.

«هل هذا منزل السيد ستانسيو وزوجته؟». ودفع ليو وجهه إلى الأمام قليلاً، بينما تراجعت المرأة محاولة إغلاق الباب. عندها، أزاحت أوتيليا ليو جانباً، ووضعت فمها على الباب قائلة:

«سيّدة ستانسيو. أنا طبيبة، وبحوزتي بعض الأدوية لزوجك». مرّت فترة صمت، ثم سمعنا صوت فتح سلسلة الأمان، فتابعت أوتيليا: «أرسلَنا سيرجيو تروفيم».

«اذهبوا. لقد سبّب لنا ذلك الرجل ما يكفي من المتاعب، ولم يعد زوجي كما كان في السابق، ولا علاقة له بما حصل، وهو نادم على كل شيء».

سمعنا صوتاً غاضباً يصدر من داخل الشقة: «بحق الله يا امرأة، اسمحي لهم بالدخول!». وفجأة، انفتح الباب على اتساعه، ورأينا السيّد ستانسيو وزوجته قبالتنا. كان جلد زوجته ناعماً، وبدت سيّدة شيوعية تماماً. أما الرجل فقد كان على شكل برميل ملطخٍ بالبقع، وبدا كفارسٍ عجوز ذي ساقين قصيرتين، وكان يستعين بعصا لتساعده على المشي. كان جلده أصفر اللون، وعيناه ملتمعتين. وراح العرق يتصبّب منه فبدا جلده ندياً. أحسستُ أن أوتيليا تقوم بالكشف عن علله وتقسمها بحسب أوضاعه المعيشية، كما كانت تحاول أن تحسب الوقت المتبقي له في هذه الحياة.

سألَنا ستانسيو: «مَن أنتم؟ إننا نعاني كثيراً، ولكنني لن أكترث بعد الآن. أنا لا أنكر، فقد أنكرتُ بما فيه الكفاية. فمنذ البداية، كانت حياتي تجري على الشكل التالي: وقِّع هذه، تراجع عن ذلك التصريح، ثم اعترِف بهذا، وقم بإنكار ذاك. قم بتطهير هذا الموظّف، وأعِد تأهيل هذه. سئمتُ من كل ذلك. بإمكانكم الانصراف جميعاً». ثم جلس على الأريكة بتثاقلٍ، وقرّب ذقنه إلى الأمام وكأنه يتحدانا.

وعلى الفور، سارع ليو إلى تهدئة الأمور قائلاً: «إنني أحترم كلامك العدائي يا رفيق، ولكننا لم نأتِ لطلب أي شيء منك، بل على العكس من ذلك. فصديقك تروفيم... » وعلى الفور، همهم ستانسيو بتقزّز عند سماعه كلمة صديقك، ولكنه امتنع عن طلب تصحيحها أيضاً، فتابع ليو كلامه: «طلب منا رفيقك تروفيم زيارتك، لنرى إن كنتَ بحاجةٍ إلى أي شيء يريحك أكثر».

كانت الشقّة التي احتُجِز فيها ستانسيو وزوجته عملية، ولكنها تفتقد إلى الكماليات. رأينا علبةً من الطحين، وبعض ثمار الفاكهة على طاولة المطبخ، كما رأينا جهاز تلفزيون في الغرفة. يُحتمل أن السيدة ستانسيو لم تعد قادرة على التسوّق من متاجر السوق الحرة، ولكنها على ما يبدو تحصل على كل السلع الضرورية.

«الطبيبة هنا يا صديقي، وهي تمتلك بعض أنابيب الإنسولين الذي تحتاج إليه». عندها، تطلّع ستانسيو إلى أوتيليا، ثم أومأ بينما كان وجهه يشرق بالضياء. ناولته أوتيليا الحقيبة الطبية الصغيرة التي تحتوي على أنابيب الإنسولين وبعض الحقن، فبدا كما لو أنه يوشك على شكرها، ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة. «لديّ بعض الأشياء التي سأتركها هنا، ويمكنك أنت وزوجتك أن تفعلا بها ما تشاءان». ثم أخرج ليو بعض السجائر، وبعض علب اللحم المعلّب، وزجاجة نصف ممتلئة من الشراب الأسكتلندي، وبعض قطع الشوكولا الطويلة. لم يتحرك ستانسيو من مكانه، غير أن السيّدة ستانسيو نهضت بسرعة وخبأت كل الأغراض في الخزانة، فنهضنا بعد ذلك لنغادر.

عندها، أوقَفنا ستانسيو وسألنا: «ماذا حدث مع تروفيم؟». أخبرناه عن أحواله، فتنحنح مجدداً، ثم بصق مادة هلامية في منديلٍ ورقي وقال: «لطالما كان ذلك العجوز ماكراً على الدوام. وهو الوحيد الذي يتمكن من الدخول خلفك إلى بابٍ دوار فتجده أمامك. هذا هو تروفيم».

وحين ضحك ليو، حملق إليه ستانسيو غاضباً، وصرخ بنا أثناء مغادرتنا: «إذا ظننتم أنني سأشكركم على شفقتكم الرأسمالية، وهذه الأغراض الكمالية الصغيرة... ».

«أجل، أعرف. أعرف... » رفع ليو يديه لتهدئته أثناء توجّهنا نحو المدخل.

«... اللعنة عليكم!». سمعنا صوت الباب المدوي عند انغلاقه خلفنا بشدة.

كان ذلك ستانسيو الوقِح وغير المثقّف والبدين والمريض، وهو البطل الذي لا يمتدحه أحد، والذي تخلى عن كل شيء من دون أن يكسب شيئاً، والذي يرفض التراجع؛ سواء أكان سبب ذلك الشجاعة، أم فرط العناد. قال عنه تروفيم إنه يعامل الناس إما كأصدقاء أو كأعداء، وهو لا يريد أن يتعاطى مع أيٍّ منهم. فتساءلت حينها عن المكانة التي سيضعه فيها المؤرخون والصحافيون عندما يكتبون مقالاتهم عن نهاية الشيوعية. لكنّ بعض الشيوعيين من أمثال تروفيم استخدموا استراتيجياتهم السياسية العليا، فيما نزل آخرون إلى الشارع وتحملوا مسؤولية دفع الأمور من جذورها، وأقدم آخرون مثل ستانسيو على شلّ النظام وانتقاد سخافته بمبادرات شخصية تُظهر الشجاعة أو التهوّر. عندها، تساءلت عمّا إذا كان التاريخ المغرم بالقصص الشخصية للرجال العظماء، أو أساطير العمل الجماعي سيجد مكاناً لهؤلاء الأشخاص.

أُطلِق سراح تروفيم بعد أسبوع من الزمن، وعاد إلى شقته بعد أن أمضى يومين في إحدى العيادات التابعة للحزب. لكن، بالرغم من بقائه تحت المراقبة، إلا أنه سُمح له باستقبال الزوار مجدداً. كما سُمِح لستانسيو وأبوستول بالعودة إلى منزليهما. وفور عودة تروفيم إلى منزله توافد الناس لزيارته. وكان من بين زوّاره سلسلة من السفراء: الروسي، والفرنسي، والألماني، والبلجيكي، والأميركي، وقد حمل إليه كل واحد منهم رسالة من وزير خارجيته. كان الرجل قيد الإقامة الجبرية

نظرياً، ولكن الحراس الموكلين بمنع الناس من زيارته سرعان ما أصبحوا مساعديه الاجتماعيين. تناولت طعام الغداء معه ذات يوم، وكنت برفقة أوتيليا، وما لبث نقيب الشرطة المسؤول عن مراقبة تروفيم أن دخل الغرفة مع مرافقيه وقال:

«آسف على الإزعاج دومنول، لكنّ القائم بالأعمال الكندي موجودٌ هنا. قلت له إن الوقت ما زال مبكراً على الزيارة، فهل أطلب منه الانتظار في الردهة؟».

تكيّف تروفيم مع حياته الجديدة شبه السرية بوصفه من المشاهير، وراح يتصرّف مثلما يفعل رجلٌ عاد إلى عمله بعد قضائه إجازة طويلة. فقد تزوّد ببذلاتٍ جديدة، وإنما ليس من الخيّاطين المتواجدين في بوخارست. واستمر النظام في إجراءاته التي تُنزل الخوف في قلوب الناس - أعمال المراقبة التي تترافق مع غباءٍ متعمّد، واقتحام البيوت، والتنصت على المكالمات الهاتفية - ولكن بسبب احترام النظام للروس، منحت السلطات تروفيم عدة إعفاءات. فقد سُمِح له بالسفر إلى موسكو في أوائل شهر تشرين الثاني لقضاء أسبوعٍ فيها. وبعد عودته بأسبوعٍ واحد، دُعي لإلقاء محاضرة في باريس، فقامت السلطات الرومانية بتأمين تأشيرة له على الفور، وحرصت على تسريع معاملات سفره، ولكنه خذلها لدى عودته.

فبعد عودته بأسبوعين، سمع تروفيم أن ستانسيو قد أصيب بذبحة قلبية، فاصطحبني لزيارته في المركز الصحي التابع للمكتب السياسي للحزب الذي يقع في شارع ميهالاش. رأيت ستانسيو جالساً على كرسيٍّ مدولب وقد وُضِعَت بطانية قديمة فوق ركبتيه، كما لاحظتُ أن لون وجهه أقرب ما يكون إلى لون الرماد، بينما كانت يده اليسرى ترتعش. وقد فاضت منفضة السجائر المزيّنة بشعار الحزب بأعقاب سيجار هافانا، بينما امتلأت الرفوف الموجودة في غرفة الزيارة التابعة للمركز الصحي بالكتب الأدبية المفيدة لعدة مؤلفين، ومنهم: ماركس، إنجلز، وتشاوشيسكو الذي اشتمل كتابه على عدد كبيرٍ من الخطب والدراسات العلمية. رأيت طاولتين معدنيتين إلى جانبي رفوف الكتب موضوعتين وفق مسافات متناظرة. وقد وُضِع على إحداهما مجلد عن البوليميرات، وكان يحمل

اسم إيلينا من دون أن يكون من تأليفها فعلاً، بينما وُضِع على الطاولة الأخرى كتاب من تأليف تشاوشيسكو حمل عنوان الاشتراكية والمجتمع الجديد. ورأيت على حضن ستانسيو رواية باللغة الروسية من تأليف غوركي، لم يقرأ منها إلا نصفها، وكانت مقلوبة. وراحت إحدى الممرضات تراقب ما يجري وتستمع إلى الأحاديث.

«اللعنة، ها أنتَ مجدداً! ألم تسبب لي ما يكفي من المتاعب؟». وأطلق ستانسيو ضحكة مصطنعة، ثم سعل وحاول أن يبصق مجدداً، لكن لم تخرج من فمه سوى قطراتٍ قليلة سالت على ذقنه، وسرعان ما مسحها بكمّ عباءته.

«هل يعاملونك بصورةٍ لائقة؟». سأله تروفيم باللهجة التقليدية، وبالطريقة الحذرة التي يخاطب بها المرء إنساناً على وشك الموت.

«لا شكوى لديّ، وليس لديّ أي عمل سوى الإصغاء إلى جسدي الذي يتهيأ للموت، وإلى أصوات فناجين الشاي. أشعر في بعض الأحيان أن ساقي مبلّلة، فأتفحّصها لأتأكد ممّا إذا كنت قد بلّلت نفسي مجدداً، أو إن كان شرابي قد انسكب عليها». وشربَ القليل من الماء ثم قال: «أما بالنسبة إلى غوركي اللعين، فإنني واثق من أنه عند فتح أرشيفات الاستخبارات الروسية (كي. جي. بي) سوف يكتشفون أن السبب الذي دفع ستالين إلى إخفائه هو الملل».

سأله تروفيم: «هل من خدمة يمكنني أن أسديك إياها يا رفيق؟ فأنا سبب إقحامك في هذه المتاعب... ».

عندها، انحنى ستانسيو إلى الأمام بكل ثقة، وقال بصوتٍ منخفض: «شاوول. إنني أتأسف دوماً لأننا لم ننهِ المهمة التي بدأها المارشال أنطونيسكو». وضحك قليلاً ثم أضاف: «لكن، أريدك أن تعود في الأسبوع القادم لكي تجلب لي المزيد من هذه... » وأشار إلى علبة فارغة من سيجار هافانا، ثم نادى إحدى

الممرضات لتدفع كرسيه المتحرك.

وعندما أصبحنا في الخارج قلتُ لتروفيم: «يتمتّع الرجل بحس مرح شديد؛ وعلى الأخص في ما يتعلق بتلك النكتة التي قالها عن أنطونيسكو. فقد كانت مضحكة جداً، ولكنني لا أعتقد أنه يكترث كثيراً لمحرقة إياسي، أليس كذلك؟». وكنت أشير إلى ما حدث في شهر تموز من العام 1941، أي عندما قُتِل عشرة آلاف يهودي على أيدي قوات أنطونيسكو الفاشية، ومن بينهم والدا تروفيم وشقيقته. استخدم ستانسيو اسم تروفيم الحقيقي: شاوول، وهو اسمه اليهودي، وقد غيّره إلى سيرجيو لأنه يحمل دلالةً لاتينية أكثر. كانت أوراق اكتساب تروفيم الجنسية الرومانية قد اكتملت، لكن بعض الناس يصرّون على أنه سيظلّ شاوول تروفنسكي، ابن حاخام إياسي، وإنه سيبقى منتمياً إلى عالمٍ آخر وعصرٍ آخر.

«إنها دعابته التي يحبّها، وهو يعرف كل شيء عنها... فقد كان هناك، ويمكنني أن أضيف أنه لم يكن ضمن الجهة التي ترفع لواء الحق... فقد كان ستانسيو عريفاً في جيش أنطونيسكو في ذلك الوقت، وكان يحارب مع الفاشيين، كما أنه من قريتي، وكنا نعرف بعضنا بعضاً. كنتُ خلال الحرب المسؤول عن التنظيم في حزب إياسي، ولكنني كنت مسجوناً لأنني شيوعي ويهودي. نلتُ حكماً بالإعدام مرّتين، وكانت المسألة تتعلق بالحكم الذي سوف ينفّذ أولاً. ولكنني كنت محظوظاً؛ لأنني عندما خرجت من السجن شغلتُ منصب النائب العام في محكمة البداية التي كانت تحاكم أنطونيسكو. تناولتُ ملف ستانسيو الذي تضمّن مشاركته مع فريق أنطونيسكو في القتال ومزقت سجله الحربي. بعد ذلك، تمكّن الرجل من النجاة من حملات الانتقام، وانضمّ إلى الحزب. إذ إن كونه أحد جلادي أنطونيسكو قد ساعده كثيراً بعد الحرب. ولهذا السبب هو مدينٌ لي».

استند تروفيم على سياج كنيسة قديمة تقع في شارع مونيتارييه لكي يرتاح قليلاً.

كانت الأبواب مفتوحة، فعبقت رائحة البخور في الهواء. شمّ الرائحة، ثم كشّر قليلاً، وبعد ذلك تراجع ونظّف الجهة الأمامية من معطفه، وتابع كلامه قائلاً: «كان ستانسيو هو الذي أطلق الرصاصات الثلاث الأخيرة على صدر أنطونيسكو عندما أخطأ الجنود في إصابة قلبه. وقد استمر الرجل في التفاخر بهذه القصة على مدى عقودٍ من الزمن. إذ كانت الجثة تنتفض في كل مرة يطلق فيها رصاصة؛ كما لو أنها موصولة بتيارٍ كهربائي على حدّ وصف ستانسيو. لكن مع حدوث الموجة التالية من تطهير اليهود في أواخر الخمسينيات، كان من المريح بالنسبة لي أن يكون ستانسيو في الجهة ذاتها، وهو في حقيقة الأمر لا يُعتبر معادياً للسامية... لكنّ معظم الذين حاولوا قتلنا لم يكونوا معادين للسامية أيضاً، وهؤلاء يخيفونني أكثر من الذين يكرهون اليهود، والذين كان عددهم قليلاً».

سرنا أنا وتروفيم بصمت لمدة عشر دقائق، ولكنه تكلّم فجأةً وكأنه يتحدّث إلى نفسه وقال: «حسناً، سوف آخذك معي... » احتاج إليّ تروفيم هناك لكي يتمكن من التحدث مع نفسه.

استدرنا وعدنا مجدداً إلى ميهالاك، فمررنا بمحاذاة العيادة، ثم عدنا إلى بياتا 1 ماي. كانت هذه النزهة متعبةً جداً بالنسبة إلى تروفيم الذي كان مرهقاً بسبب أسابيع العقاب التي أمضاها في تلك الشقة الضيّقة. لذا استند إلى ذراعي، فلاحظت الجلد المترهل الذي يتدلى من عنقه، وذلك الخط الدائري الذي يفصل عنقه عن ياقة قميصه المزرّرة التي تفتقد إلى ربطة عنق. وصلنا إلى تقاطع شارعَي سترادا نيكول وميهالاك، فرأينا جداراً عالياً ملأت الشقوق طبقة الطين التي تغطيه، وكان مزروعاً بالزجاجات المتكسرة. كما رأينا أيضاً بوابتين ملفوفتين بالأسلاك الشائكة، بالإضافة إلى سلسلة من دون قفل. تطلعت إلى تروفيم، فقرأ فوراً السؤال الذي يجول في ذهني. ولم تتأخر ردة فعله، إذ سرعان ما أزال حفنة

من أوراق اللبلاب عن لوحةٍ نحاسية وسخة موضوعة إلى يسار البوابة لتظهر الكلمتان التاليتان: المدافن اليهودية. رفع عصاه ومرّرها بين القضبان، فظهرت حلقة من البرونز الداكن التي تناسبت بطريقة ما مع ألوان أوراق الأشجار الذهبية المائلة إلى الاحمرار. كنا في نهاية النهار؛ بينما الشمس تلملم ما تبقى من أشعتها المتساقطة بشكل خطوط على الرصيف.

رأينا رجلاً قصيراً يخرج من كوخ الحارس متثاقلاً، وكان يزرّر سترته أثناء سيره.

حيّا الرجل تروفيم بالقول: «شالوم»، فصافحه تروفيم بحرارة من خلال القضبان، وقال له: «توفاراسول». كانت تلك هي التحية التي اعتادا عليها، وهي التحية الدينية اليهودية والشيوعية في الوقت ذاته، لكن مع احتفاظ كل منهما بميزتها الخاصة.

أصدرت البوابتان ضجيجاً عند فتحهما بسبب الصدأ. وظهرت القبور خلفهما متداخلة مع أجمات الأعشاب والعلّيق، بينما بدت أحجارها متداعية أو مكسورة، ونقوشها ممحوّة. رأينا كتابات ونقوشاً قديمة اختفت تحت طبقةٍ جديدة من الطلاء، وأصبحت أقرب ما تكون إلى منحوتاتٍ غائرة: الشعارات النازية، والصلبان المعقوفة، وشعار حراس البوابة الحديدية. استمر المعادون للسامية بالمجيء إلى هذا المكان للتعبير عن أحقادهم وتدنيس المقابر، فيما لم تعترف الدولة إلا بالمقابر الأرثوذكسية، وتركت أمر العناية بهذه المقابر للمتطوعين. ولهذا السبب، كانت الممرات محاطة بأعشابٍ يصل طولها إلى الخصر، ولم يكن بإمكان المرء استنتاج الاتجاهات التي تؤدي إليها هذه الممرات إلا عند النظر إلى الأعشاب التي أصبحت على مستوى الأرض بسبب كثرة المرور عليها هنا وهناك، أو بفضل الجهد الذي بذله أحد المحزونين للوصول إلى القبر الذي يقصده. لم نشاهد أي زخارف أو أزهار، ولا كلمات بليغة، بل مجرد أسماء وتواريخ باللغة العبرية أو الرومانية. أما إذا حدّق المرء إلى أعالي شواهد القبور

فسوف يلاحظ أنها تبدو مثل أمواج عالية في بحرٍ مضطرب.

شاهدنا خارج كوخ الحارس خارطة مصوّرة ومجعدة تظهر فيها مقابر مشاهير اليهود. وكانت مرقمةً ومبوبةً في أسفل الصفحة. وتمثّل هذه الخارطة أفضل رمزٍ لما حدث مع اليهود على مدى السنوات المئة الأخيرة، أو نحو ذلك من السنين. وهذه المقابر المغمورة بالأعشاب، والمائلة، أو الغارقة في التراب تحتوي على بقايا رجالٍ ونساءٍ يعيش أحفادهم في هذا الوقت في إسرائيل وفرنسا وأميركا، أي أنهم محظوظون. أما هذا المكان فكان مكاناً للموت، ولكن ليس بسبب الموتى الذين يحتويهم، بل لأن الأحياء توقفوا عن المجيء إليه. تطلّعت إلى الأسماء التي كانت يهودية مثل أفرام وجيرشوم وبنيامين؛ وهي أسماء موجودة في بلاد الشتات، ولكنها تكسّرت وتحولت إلى أسماء رومانية تقليدية. وهكذا، تحوّل اسم تروفنسكي إلى تروفيم، وتحوّل اسم شاوول إلى سيرجو، وغير ذلك من الأسماء...

تطلّع الحارس بخوف إلى ما وراء البوابة، وأصغى السمع جيداً. تصوّرت أجداده، أو تصوّرته بحسب سنّه وضعف بنيته ولداً صغيراً يصغي بكل انتباهٍ إلى حوافر الخيل التي سبقت المذبحة التالية، أو إلى هدير محركات موجة التهجير التالية. قالوا إن كل ذلك قد انتهى الآن، لكن رأي حارس المدافن كان مخالفاً.

بقي تروفيم في محيط المدافن الذي كان مكاناً دينياً؛ أي مرتبطاً بدينه هو، ولكنه كان يعرف جيداً أنه سوف يُدفن يوماً في أحد مدافن الحزب بمربعاتها الغرانيتية، وشارات المطرقة والمنجل التي تزيّنها، والتي يُشرف عليها أحد النحاتين الاشتراكيين الواقعيين؛ وإن كان أحد لا يعترف بذلك. كنت أعرف مدافن الحزب في سناغوف بباحاتها الهندسية، وشوارعها المتعامدة، وتمثال الطائرة البرونزي الضخم الذي يحتل وسطها، حيث يقف طيار تحت الطائرة منفرج الساقين، بينما تشكّل ذراعاه زاوية عمودية مع خصره، ويبدو منهمكاً في خلع

مظلته وكأنه يخلع كفناً.

أشار تروفيم بعصاه التي تساعده على السير إلى القبور التي اختفت أطرافها في الظلمة، بينما كانت الصفوف القليلة الأولى منها تتوهّج بشدة تحت الأشعة الأخيرة التي تأتيها من الشمس، وقال لي: «هيا، تجوّل في المكان». انطلقتُ في جولتي، ولاحظت أن المكان يشبه بلدةً أخلاها سكانها، وتنتشر فيها الألواح المتكسرة والأقبية الخالية التي فُتِحت بواباتها على مصراعيها، والمقابر التي فُتحَت أبوابها. كانت القططة تتجوّل في المكان بحرية، بينما الهياكل العظمية للحمائم البرية، أو الحيوانات الصغيرة متناثرة فوق الألواح الرخامية. سمعت صوتاً خلفي، وأصوات الحصى المسحوقة والأغصان اليابسة. وبعد لحظات، انضمّ الحارس إليّ، وكانت أنفاسه متقطّعة بعد المجهود الذي بذله لكي يلحق بي.

قال لي: «إنه يأتي كل أسبوع، ولكنه لا يتجاوز محيط المدافن، بل يكتفي بالجلوس على المقعد الطويل. استمررت في فتح تلك البوابة أمامه على مدى ثلاثين عاماً. وكان الأمر ذاته يتكرر على الدوام، فبعد أن يصافحني، كان يجلس لمدة ساعة، ثم ينصرف».

سألته: «أين مدفن عائلته؟». وأدركت على الفور أنه سؤال سخيف، لكن لم يعد بإمكاني سحبه.

هزّ العجوز رأسه وأجاب: «هل قلت مدفن عائلته؟ لا، حدث كل شيء ما عدا دفنها... » لم نقل شيئاً طوال الدقائق القليلة التالية، ثم تكلّم مجدداً: «جاء ابنه إلى هنا ذات مرة؛ ربما قبل عشر سنوات، لتوديع أحد زملائه في المدرسة. إنني أتحدث عن الحاخام الذي يعيش في إسرائيل الآن. جلس دومنول تروفنسكي في مكانه المعتاد على المقعد الطويل، وقال إنه سمع ما يكفي، وإن لديه مدفناً رخامياً رائعاً مستطيل الشكل يقبع بانتظاره في سناغوف، وإن كل الأشياء مرتبة

ومعقولة، من دون تعقيدات... » ثم أخفض الحارس صوته وأضاف: «ولكنني أعرف أنه فخور بابنه». فجأةً، صاح الحارس بصوتٍ مرتعب: «انظر!».

رأيت تروفيم مستلقياً فوق المقعد. اقتربنا منه بعد أن أسرعنا في سيرنا، وقد سيطر علينا خوفٌ لا يمكن التعبير عنه بالكلمات. كانت عصاه التي يستعين بها مرمية على الأرض، بينما أسند يده على حافة المقعد. ناديته: «سيرجيو، سيرجيو». غير أنه لم يتحرّك. ركضت مسرعاً في ممر الحصى، ولكن بفضل ذلك التوسّع الذهني المفاجئ الذي يتسبب به تدفّق الأدرينالين تمكنت من رؤية تفاصيل عادية وغير هامة، وملاحظة تلك اللوحة الحديدية الصغيرة زرقاء اللون المغروزة في الأرض، بوليفار غالا غالاكشن. مدينة الموت بشبكتها الخاصة بها، وأسماء شوارعها المطلية باللون الأزرق على خلفية بيضاء. إنها مدينة أخرى ذات طرقات مفقودة. «شاوول!».

قفز تروفيم، وأطلق صرخة غريبة ومكتومة، ثم تطلّع حوله وبدا مشوّش الذهن. وأخيراً، أغمض عينيه ثم فتحهما وقال: «أنا آسف. لقد استغرقتُ في النوم... ».

«ظننتُ أنك... » ثم صمتُّ عن الكلام. بدا لي الرجل ضعيفاً وشاحب اللون إلى حدٍّ بعيد، لدرجة أن كلمة ميتٌ كانت أكثر من مجرد توقّع.

«كلا، لا... أبداً. كنت أتمرّن فقط... » وبعد ذلك، ضحك ثم سعل وانحنى قليلاً لكي يستعيد أنفاسه.

ساعدته على النهوض، ثم استند عليّ بقوةٍ أكثر أثناء عودتنا إلى المنزل.

أوحت تباشير شهر تشرين الثاني بشتاءٍ قاسٍ. وقد اعتاد ليو الخروج في الصباح، وأخذَ أنفاسٍ عميقة، ثم القول لي: «أيمكنك شمّ هذا... خذ نفساً طويلاً وعميقاً... لكي تشمّ رائحة السكينة».

بدا أن الأشجار قد فقدت أوراقها نتيجة المطر الذي تساقط في ليلة واحدة. أما الناس الذين خسروا الكثير من مساحة المتنزهات المتبقية فقد تنقّلوا مسرعين من بريةٍ إلى أخرى باحثين عن الحطب الصالح ليكون وقوداً، وأغصان الشجر، والأشياء التي يُمكن حرقها لتدفئتهم. شاهدتهم ذات ليلة وقد أضاء القمر وجوههم تحت سماءٍ باردة. رأيت عشرين أو ثلاثين حطاباً مزوّدين بفؤوسهم التي هوت على جذوع الأشجار المقطوعة لنزع الأغصان الصغيرة عنها. كانت أصوات تلك الفؤوس وهي تقطع كتل الخشب تكسر الصمت المخيّم على المكان. وكان ذلك منظراً مألوفاً من مناظر العصور الوسطى، وإن كانت ناطحات السحاب والرافعات العالية قد وقفت على النقيض من هذا المشهد. بدا المشهد وكأنه جزءٌ من لوحة رسمها بروغيل. توقفت طويلاً عند هذا المشهد المثير للأسى، والذي يعكس غموض المكان أكثر بكثير من الصور المرعبة الموجودة في ملفات ليو.

استعدّت بوخارست للمؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي. وكانت إمدادات الغاز والطاقة الكهربائية متقطعة في معظم أنحاء المدينة. أما في الأماكن المزوّدة بالتمديدات اللازمة فكانت الكهرباء تصل مداورة بين كل قطاعٍ وقطاع، ولمدة ساعتين في كل فترة، وذلك بدءاً من وسط المدينة، ثم تتنقل إلى خارجه تدريجياً حتى تصل إلى الضواحي في وقتٍ متأخرٍ من المساء. وقد أدّى هذا النظام إلى مشاهد سوريالية تنتشر في المجمعات السكنية المضاءة بشدة، والتي تتصاعد منها روائح الطبخ، وأصوات مياه الاستحمام المنسابة بغزارة عند منتصف الليل. كانت هذه الجيوب من بين الأحياء التي تدبّ فيها الحياة ليلاً والتي كانت متناثرة حول محيط المدينة. وقد أدى ذلك في وقتٍ لاحق - أي في بداية الثورة - إلى قيام قطاعات كبيرة من السكان الذين كان معظمهم في آخر قائمة أولويات النظام، وكانوا يتحملون عدم كفاءته وشراسته - بالتحرّك، حتى إن أعداداً كبيرة

منهم قد اغتسلوا.

وفي ذلك الوقت، تم تناقل القصص عن رجالٍ ونساء ينامون في مطابخهم من دون إطفاء الأفران، وذلك طلباً للدفء، ثم يموتون بعد ذلك بسبب غاز أول أوكسيد الكربون السام؛ إذ كان يتمّ قطع إمدادات الغاز ثم إعادتها بعد نومهم. وكانت ألسنة اللهب الناتجة عن حرق المطاط والبلاستيك تتصاعد على شكلٍ دخانٍ حاد يُلهب العيون والحناجر.

قرّرتُ قبل أسبوعٍ واحدٍ من انعقاد مؤتمر الحزب إبلاغ ليو بأنني شاهدت فينتول في الأثينيه بالاس ليلة إطلاق كتاب تروفيم. أردت أن أفاجئه بهذا الخبر، ولكنني اكتشفت أنه سبقني بخطوات، وأننا كلينا رأيناه، لكن كلاًّ منا كتم الخبر عن رفيقه، إلا أن ليو كان قد تحقّق من الأمر. وقد قال لي: «قصدتُ مانيا، فأخبرني أنه رأى ملفاً أُرسِل إلى ستويكو، وورد في الملفّ أن فينتول كان على الدوام مخبِراً مزروعاً في وزارة الداخلية، وعميلاً في جهاز الأمن، وأنه كان مسؤولاً عن الإشراف على أنشطة الطلاب، وعلى الأخص تلك السرية منها، وأنه كان يدير برنامج الانشقاق والفرار نيابة عن ستويكو».

«ستويكو! أتعني أننا كنا دمى بيد ستويكو؟ منذ متى عرفتَ ذلك؟».

«عرفت منذ أسابيع قليلة، أي بعد الزيارة التي قمتَ بها مع أوتيليا إلى مانيا. فقد اتصلتُ بمانيا بنفسي، ولكنه لم يعرف بالضبط من كان رجل ستويكو في الداخل، إلاّ أنه ضيّق الاحتمالات إلى عدد قليل من الأشخاص، وكلهم قد اختفوا الآن. ولكننا نعرف أن اثنين منهم قد ماتا، وسبق لك أن رأيت صورهما. ولكنّك تعرف أن كلمة ميت هنا تعني عادةً أنك بريء. أما عملاء جهاز الأمن الآخرون المحتملون فقد كان من المتوقع أن يكون بيتر من بينهم. لكن، بما أنك رأيت فينتول كما رأيته أنا، فنحن إذاً نعرف أنه هو المخبر وليس بيتر. لذا، أعتقد أنّ

إمكانية أن يكون بيتر قد نجح في الهرب موجودة، ولكنني أميل إلى الاعتقاد أنه لم يفعل».

سألته: «ما الذي جرى؟». فطلب مني ليو أن أجلس قبل أن يتابع كلامه:

«إن كل ما جرى كان مجرد مؤامرة، وأنا متأكد من هذا: عمليات الفرار، والانشقاق، ومغامرات منتصف الليل. كانت معظم تلك العمليات تنتهي إلى الفشل، وكان يُقبَض على الفارّين، أو ينتهي بهم الأمر بتقطيع أجسادهم في المياه؛ أي مثلما حصل لذينك الشابين البائسين. يحدث ذلك لأنه جزء من مخطط شبه رسمي. أما عمليات الفرار الوحيدة التي تنجح فهي تلك التي يتم فيها دفع الأموال. ومعظم الذين ينجحون في الفرار هم فتيات يتم تهريبهن إلى الغرب للعمل كمومسات. لا تمتلك الفتيات جوازات سفر، كما أنّهن لا يعرفن حقوقهن فور وصولهن إلى المكان المقصود. أما الرجال فيُدفعون إلى العودة من حيث أتوا للعمل في المناجم أو في السجون؛ هذا إذا لم يكونوا محظوظين بما فيه الكفاية للفرار من أيدي الذين يُفترض أنهم يساعدونهم على الهرب. أما الشبّان الذين ينجحون في الخروج من البلاد فيلتحقون بالعصابات، أو يعملون في السوق السوداء، وتهريب الناس... يمكنك أن تلاحظ ما يحصل، إذ يتدفق الناس إلى الغرب من كل مكان، ثم نسمع أن الفتاة التي ظننتَ أنها نجحت في البدء بحياة جديدة لم تحصل إلا على عملٍ بتدليك كتف سائق شاحناتٍ ألماني قوي».

تذكرت سائق الشاحنة الذي تفاخر بالفتيات الرومانيات في مقصورة شاحنته، والذي كان عادة يحصل على فتاتين في وقتٍ واحد. أما الأمر الذي طمأن أوتيليا فكان اعتقادها أن الفتيات قد نجحن في الفرار وبدء حياة جديدة. توضّحت الأمور أخيراً، كما اتّضح سبب انعدام الرسائل أو المكالمات الهاتفية، وكذلك سرّ العمليات التي كانت تتم بسهولة؛ أي حين يكون حراس الحدود غائبين على الدوام، ويتم قطع الأسلاك الشائكة في الأوقات المناسبة تماماً. لم يكن ما جرى

عمليات هروب من النظام، بل كان جزءاً من النظام، وكان إحدى وسائله لتصدير نفسه واستنساخه في أماكن جديدة. كانت تلك فكرة مريعة، وتشبه أن يعلق المرء في لعبة شطرنج لا تنتهي أبداً، ومن دون أن يغادر اللاعبون أماكنهم. كان الأمر مخيفاً بما فيه الكفاية، لكنّ ما قاله ليو بعد ذلك أدى إلى فهمي ما يجري على الفور؛ رغم أنه جعل الأمر أسوأ ممّا كنت أعتقد بكثير.

«استغرقتُ بعض الوقت لأفهم ما يجري، لأن فينتول تمكّن من خداعي، وهذا ما لم أفهمه. فقد عرفت الرجل منذ أربع سنوات، وكان ملتزماً بغطائه طيلة الوقت. أما في تلك الليلة في بوليفار النصر الاشتراكي، وعندما حضرت قوات الشرطة مع الكلاب البوليسية... فقد كاد يتخلى عن حيطته، وكان سيفعل ذلك لو ألقي القبض علينا. لقد تمكّن فينتول من إبعادنا؛ ولكن لفترة طويلة بما يكفي ليرتّب الأمور بنفسه، وليقتل الكلاب، ويشتّت انتباه الشرطة. كان بإمكانهم إلقاء القبض علينا لو أرادوا ذلك. فقد كان بإمكان أولئك المترنحين من أمثال رجال الميليشيا الذين يعملون ليلاً إلقاء القبض على رجلين ثملين وتائهين بصحبة فتاة. ميل... » هزّ ليو رأسه عندما تذكّرها. «ربما عرفهم ذلك البائس، وطلب منهم الرحيل، وأخبرهم أنهم يقومون بتعطيل عملية... كما قتل كلابهم ليبرهن لهم أنه قادر على ذلك.

فقد كانت الكلاب من النوع الإلزاسي، وكانت أعناقها ممزقة، بينما الأرض تحتها لزجة بسبب الدماء التي سالت منها. لم يكن هناك أثر لاستخدام السكين، بل تمّ استعمال اليدين والأسنان فقط». وتوقف ليو عن الكلام قليلاً قبل أن يتابع. «لم تنتهِ القصة هنا في هذا الجانب من الحدود، بل تعدّتها إلى الخارج. إذ استمر أولئك بالمتاجرة بالبشر على مدى سنوات، وقد بدأوا باليهود. كانت تلك عملية تطهير عرقي، وفرصة لكسب بعض المال. كان ذلك اختصاص ستويكو، ولهذا السبب أحبّه آل تشاوشيسكو، وعلى الأخص إيلينا. وقد كرّروا الأمر ذاته مع

الأقلية الألمانية. وهكذا، منذ ذلك الحين حصل بعض كبار الضباط على فرصةٍ لجني بعض المال لأنفسهم. لكنّ الأمور تتغيّر، وقد أدركوا أنه لا يمكنهم الاستمرار على هذا المنوال إلى الأبد، ففكّروا في أنه من الأفضل لهم تهريب بعض الأموال إلى الخارج في حال ساءت الأمور. وهكذا، حصل فينتول على عملٍ جانبي، وحصل على مدخول إضافي، وساعد الناس على الخروج، كما ساعد في إلقاء القبض عليهم مجدداً بعد خروجهم. ولكنه كان يعمل لمصلحة شخصٍ آخر؛ تماماً مثل آخرين غيره».

سألته: «من الذي يتواجد على الجانب الآخر من الحدود؟ ما أعنيه هو أن أموراً كهذه لا تنجح من دون نوعٍ من أنواع التنظيم، وهي تحتاج إلى المال وإلى الشبكات... » ولكنني عرفتُ الجواب حتى وأنا أطرح السؤال. إنه بيلانجر. فقد تواجد بيلانجر في كل مكان، وسبقني إلى كل الأماكن، حتى إنه جاء إلى هنا قبلي.

«بيلانجر بدأ هنا، ومعي أنا قبل سنوات عدة. عملنا بشكلٍ جيّد، كما أتقن العمل على الفور، وكان يتعامل قليلاً في السوق السوداء هنا، وقليلاً في تلك المنطقة حيث لا يتم الالتزام بالقوانين كلياً. كان يبيع ويشتري ويقايض، أي أنه كان تاجراً بطبيعته، ويمتلك رؤيا... حسناً، أعني... أنه كان يرى الفرص عندما تلوح له من بعيد. وكان أول من فكّر في صنع نسخٍ مزوّرة من الأقراص المدمجة، وأشرطة الفيديو، وأفلام العنف، والأفلام الإباحية، وغير ذلك... ولم يمرّ وقت طويل قبل أن يبدأ بالتعامل بأشياء رفضت التعامل بها، مثل المخدرات، وكان يستفيد من أي فرصة يمكنه العثور عليها؛ بما في ذلك أشياء أسوأ من المخدرات بكثير. وقد أدّت إحدى الدفعات التي حصل عليها من المخدرات إلى قتل ما يزيد عن اثني عشر شخصاً على حد علمي، كما تسبّبت بالعمى لعددٍ كبير من الناس. تاجرَ ذلك الرجل بالفتيات، وبدأ بالخروج مع إيلي والقوّادين... كما

امتلك نوعاً من السلطة عليهم. اشترى بيلانجر سيارة بي. أم. دبليو. يُضاف إلى ذلك أنه أجرى اتصالات مع الخارج، ومع أشخاص لا يتعاملون إلا في بترول السوق السوداء، أو مع أشخاصٍ عاديين تحوّلوا فجأة إلى التعامل بالمخدرات والمومسات. وقد انقلبت هذه الأعمال بين ليلة وضحاها إلى أعمالٍ وسخة... ».

قلت ساخراً: «أجل بالتأكيد؛ لأنّ كل تعاملاتك كانت فوق الطاولة، أليس كذلك؟». كنتُ غاضباً، وحاولت إقناع نفسي بأن ذلك كان غضباً مُحقّاً يعبّر عن السخط، ولكن كانت هناك غيرة أيضاً.

«لا أعرف متى قرّر ستويكو التدخل، ولكنه أراد مع أعوانه الحصول على جزءٍ من الكعكة. ويُحتمل أن بيلانجر هو الذي قصده. وعلى أي حال، تحوّل بيلانجر إلى وكيله. ولكن، لطالما كانت الوزارة، والأمن الداخلي متورطين في اقتصاد الظل. كنت قد تعاملتُ معهما على مدى أعوام عديدة بأشياء عادية؛ مثل شراء أذونات المرور، وتحويل الدولارات... وقد عرف بيلانجر اللعبة جيداً ومارسها، ولكنه دفعها خطوة إضافية قدماً، ولم يكتفِ برشوتهم، بل بدأ بتوظيفهم. وكان يُطلِق على ستويكو لقب حامل الأسهم، كما بدأ بممارسة عمل ستويكو. وفي نهاية الأمر، واجهته بكل ذلك، وهناك... ». وأشار ليو إلى غرفة المعيشة، ثم تابع: «قلت له إنني أعرف ما يجول في ذهنه، وطلبت منه أن يتوقّف عن ذلك». ونظر ليو إلى كوب الشراب الذي كان يحتسيه وعبس، ثم ارتشف جرعةً كبيرة منه. «... صفعته من دون اللجوء إلى العنف، وقد فعلتُ ذلك من أجل تمرير فكرتي. أما هو فقد سمح لي بذلك، ولم يقاوم أو يقاتل، بل اكتفى بالابتسام. كان بإمكانه أن يوسعني ضرباً، ولكنه سخر مني بدلاً من ذلك». ارتعش ليو عند استرجاعه هذه الذكريات، وأومأ نحو داخل الشقة وقال: «إنني أسمعها في كل مرة أصعد فيها ذلك الدرج، أسمع ضحكة شخصٍ لا يشعر بأنه تعرّض للإهانة. ولكنني حاولت... أعني أنني حاولت أن أؤذيه، ولذلك اتصلت

به طالباً خدمة».

سألته: «أتعني أنك اتصلت بمانيا؟».

«أجل. لقد طلبت منه تلقينه درساً، ولكنك تعرف المقولة القديمة: إننا نراقبك. ينجح الأمر في إيرلندا الشمالية مع عمليات الضرب لمعاقبة صغار اللصوص والمجرمين، وذلك على أيدي الميليشيات المحلية». أطلق ليو ضحكة خافتة، ثم استدار نحوي وتابع كلامه: «كان مانيا سعيداً جداً بتلبية طلبي؛ فقد كان ذلك البائس يواعد ابنته، وكان تلقينه درساً يخدمنا نحن الاثنين. وهكذا، بعد أيام قليلة، أقدَم أحدهم على مهاجمة بيلانجر وتحطيم ساقيه، وقد أُعطِبت إحداها بشكل دائم. لكنّ ذلك لم يكن كافياً. فقد غادر الرجل البلد، ولكنه صار يُدير كل أعماله من الخارج؛ وهذا الأمر أسوأ لأنه يمتلك أشخاصاً يعملون بإمرته من هنا وحتى فيينا. لكنّ الواقع هو أنني شهدت على ازدهار أعماله. غير أنّ الأمر أصبح مختلفاً الآن، وأصعب بكثير، وأكثر خطراً. فالاتجار بالمخدرات، واستغلال الفتيات ما عادا عملين جانبيين بالنسبة إليه، بل تحوّلا إلى عمله الأساسي. وإنّ ما أفعله ضئيل جداً بالمقارنة مع... ».

أعرف أن بيلانجر كان المتدرّب الأساسي، والمتخرج النشط من مدرسة ليو في التهريب والابتزاز، ولكنه أوصل عمل أستاذه إلى مستوى جديد.

سألته: «هل أنت متأكد من أنه يقف وراء كل ذلك؟».

«أجل، أجل. إنني متأكد بأن بيلانجر هو الذي ينصب الشبكات بصبر، بينما تتهاوى كل دول أوروبا الشرقية القديمة. فهو الشخص الذي بدأ بتهريب الناس إلى خارج البلد، وأنا متأكد من أن ذلك كان عملاً فردياً نابعاً عن حسن نية في البداية. على الأقل، إنني أعتقد أن المال لم يكن السبب الرئيس وراء تلك العمليات، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً. فقد كان فينتول هو الرجل الذي يعتمد

عليه في الداخل، وهذا يوصلنا إلى ستويكو، ثم إلى جميع حلقات الدعارة، وطرق المخدرات، والأشرطة المدمجة، وأشرطة الفيديو المزوّرة وغيرها... يُضاف إلى ذلك أن جميع الأشخاص الذين يعملون معي يقومون بأعمالٍ جانبية لصالحه... يا إلهي، إن ذلك يعني أنني كنت أقوم بأعمالٍ لصالحه من دون أن أدري... أعتقد أننا جميعاً فعلنا ذلك... ».

«وأين بيتر من كل هذا؟».

«إنّ رأيي فيه ليس مهماً على الإطلاق، ولكنني أعتقد أن ما يفعله سوف يؤدي به إلى الموت. لا أعرف كيف أو متى سيحدث ذلك، ولكنه ميت لا محالة».

«لكن، ماذا بشأن الصندوق الاشتراكي الذي أنشأه، وكل تلك السلع والأموال التي قام بتهريبها؟ ماذا سيحدث لها؟».

«إنّ كل ما أنشأه بيتر سوف يتلاشى، هذا إذا كان له وجود في الأساس. تذكّر أن فينتول هو المصرفي، وهو الرجل الذي يمتلك الأسماء والأماكن، ويُحتمل أنه هرّب كل الأموال النقدية والأشياء الثمينة وأعادها إلى ستويكو وبيلانجر، بينما جعل بيتر يعتقد أنه يتم توزيعها على الذين يحتاجون إليها. لكن، يُحتمل أنها لم تتواجد في الأصل. أما الأشياء الحقيقية فقد كانت الأسماء الواردة في لوائح بيتر، ولعلها الآن بحوزة الأمن الداخلي. أما الأموال فهي حقيقية بما يكفي، وعلى الأقل لفترةٍ من الزمن».

«ولكنّك جعلتني أعتقد أن لي علاقة بالأمر، وأنني أخطأت في إقحام سيليا في كل هذا، وأنها كشفت كل شيء!».

«أنا آسف. لكن، كيف كنتَ تريد منّا أن نفكّر بعد ما حصل؟ فقد كان ذلك الأمر منطقياً؛ فسيليا كانت صديقة بيلانجر، وما زالت كذلك. ولكنك كنتَ الوحيد الذي لم يعرف ذلك، وبالطبع ظنّنا أنها متورطة في الأمر». هزّ ليو رأسه

وأحناه، ثم تابع: «اسمع، إذا كان هناك أحد يتحمّل اللوم فهو أنا. فأنا من أحضر بيلانجر قبل كل شيء، وأنا الذي مهّدتُ له الطريق وأطلقته في أعماله. هل عرفتَ الآن السبب الذي يجعلني لا أواجه... ».

غير أنّني غادرتُ الغرفة، وصفقت الباب ورائي بشدة تاركاً ليو يحدّث نفسه.

كان من المفترض أن نكون نحن من يُبلغ أوتيليا بأن بيتر قد مات، ولكنها اكتشفت الخبر بأبشع طريقةٍ ممكنة. فبعد أن تركتُ ليو في غرفة المعيشة يحدّث نفسه ويتناول كمية كبيرة من الشراب الاسكتلندي. رنّ الهاتف قرابة الساعة العاشرة مساءً.

وصاحت أوتيليا: «هذه أنا». لكنّ صوتها كان خافتاً بسبب أصوات المحركات والحوّامات.

«أين أنتِ؟».

«أنا في المشرحة، وبيتر راقدٌ هنا. تعال لتصطحبني من هنا أرجوك». ثم انقطع الاتصال. وكان من الصعب الجزم ما إذا كانت هي التي أنهت المكالمة، أم أن الخط قد قُطع عمداً. كان ليو في شقته مع مفاتيح سيارته، ولم نكن نتبادل الحديث بعد خروجي من الغرفة غاضباً. لكنْ لم يعد هناك سببٌ للمقاطعة لأنه عرف بما كان يجري.

استغرقت الرحلة إلى المشرحة نحو ساعة من الزمن؛ في حين أنها تستغرق عادة عشرين دقيقة فقط. رأيتُ خلف آفياتوريلور سماءً مليئة بالدخان المتصاعد، وحواجز تبعد مئتي ياردة عن بعضها بعضاً. كانت المشرحة تخضع لحراسة الشرطة، بينما كانت باحتها مهجورة. رأيت كشك الهاتف الذي ظننتُ أن أوتيليا قد هاتفتني منه، ولكنه كان مهجوراً. ويعني ذلك أنها لم تتمكن من الانتظار هنا. وإن لم تتمكن من الانتظار هنا فهذا يعني أنها قد توجهت إلى المنزل

بنفسها. اتّبعنا طريقاً مختلفة لدى عودتنا إلى المنزل على أمل أن نصادفها في طريقنا.

شاهدنا إلى الشرق معمل ميتالروم الذي تلتهمه النيران، بينما كانت مداخنه تواجه السماء الملتهبة وحدها. ورأينا في أول بوليفار النصر الاشتراكي ثماني عربات مدرعة، وكانت محركاتها في حالة تشغيل وأبوابها مفتوحة. كما رأينا داخل تلك العربات أفراداً من الميليشيا جالسين في صفوفٍ متراصة وهم يحملون أسلحتهم. جلسوا هناك بخوذاتهم، وأقنعتهم الواقية من الغازات السامة، ونظّارات الرؤية الليلية الخاصة بهم وكأنهم بيض على وشك التفقيس. كانوا قد انحنوا على بنادقهم الأوتوماتيكية، وجلسوا بسكون منتظرين لحظة إطلاقهم إلى الشوارع. بدت نظراتهم غير مبالية، وغير شخصية، وغير مكترثة بما قد يحدث. رأينا بالقرب من العربات شاحنتين صغيرتين مقفلتين ومزوّدتين بمولداتٍ كهربائية على سطحيهما، ولم تكونا سوى شاحنتَي مشرحة مبرّدتين ومتنقلتين.

فجأة، سمعنا صوت الرصاص المنطلق من المعمل المحترق، ولكنه لم يكن ذلك الصوت المدوّي الذي نسمعه في الأفلام، وإنما كان صوت معدن خفيفاً يمزّق الهواء.

الفصل الخامس

لدى عودتنا إلى المنزل لم تكن أوتيليا قد عادت بعد. وكانت بوخارست تعجّ برجال الأمن؛ إذ كان هناك شيء ما يحدث في المنطقة الصناعية. تمكّن ليو من الوصول إلى جهاز الراديو في الوقت المناسب ليسمع صوت تروفيم في الإذاعة العالمية لمحطة بي. بي. سي. كان تروفيم الذي يُصنَّف الآن بوصفه أكثر المنشقين احتراماً، يناقش التصرف العنيف الذي قام به الجيش ردّاً على الاعتصام السلمي الذي حدث في معمل ميتالروم. وقد شكّل هذا الاعتصام أول عرضٍ قويّ للمعارضة ضد تشاوشيسكو في العاصمة. وقد شرح تروفيم قائلاً: «تحوّل هذا الاعتصام إلى أعمال شغب، كما أن مصنع السيارات المجاور قد انضم إلى حركة الاعتصام».

وندّد تروفيم الذي كان يتحدث عبر خطٍ هاتفي مشوّش بالعنف الذي ترافق مع ردّ الحكومة على حركة الاعتصام. وقال أيضاً إن العشرات قد ماتوا، وإن المستشفيات قد امتلأت برجال الأمن الذين يلاحقون الجرحى: «إن ما نراه اليوم في رومانيا صورة زائفة عن الاشتراكية. فبينما يتّخذ جيراننا الاشتراكيون الخطوات الضرورية للتحرر، لا نرى هنا سوى الحرب ضد الناس أنفسهم، وضد العمّال الذين تتواجد حكومتنا من أجل خدمتهم». وانقطع الاتصال الهاتفي عند هذا الحد، فاعتذر المذيع الذي كان يقرأ نشرة الأخبار، ثم انتقل إلى البند التالي في نشرته، والذي كان فتح الحدود مع بلغاريا.

انشغلنا أنا وليو في الاستماع إلى الأخبار، حيث لم ننتبه إلى وصول أوتيليا إلا حين وقفت أمامنا مباشرة. كانت قد جاءت مشياً عبر شوارع المدينة، ومرّت عبر الحواجز وأمام الحرّاس، بينما كانت صورة بيتر منطبعةً في ذهنها. فهو الذي كان

يرقد في المشرحة هذه المرّة.

كان كامبانو، الطبيب الشرعي، قد اتصل بها في وقتٍ مبكرٍ من المساء، وذلك بعد أن عثر على أوراق بيتر الثبوتية فوق واحدة من عشرات الجثث التي نُقلت إلى المستشفى. لاحظ الطبيب أن تلك الجثة مختلفة عن غيرها. فأولاً، كانت باردة حتى العظام، أي تلك البرودة المألوفة في المشرحة؛ فعرف على الفور أنه قد مضت أسابيع عدة على الوفاة، وأن الجثة قد أودعت في المشرحة، ثم تم تسليمها بشكلٍ مفاجئ. ثانياً، أن الوفاة حدثت نتيجة عملية إعدام برصاصة تم إطلاقها على الرأس، في حين أن بقية الضحايا سقطوا نتيجة رصاصات أُطلقت من مسافاتٍ متفاوتة. وأخيراً، تمّ تجريد كل الآخرين من أوراقهم الثبوتية بكل عناية، إلا أن هذه الجثة احتفظت بأوراقها. ويعني ذلك أن أحدهم أراد أن يتم التعرّف على صاحب الجثة. كانت لهجة أوتيليا تقييمية، وأعطت أوصافاً سريرية مفصلة جدّاً وصولاً إلى الجلد المحترق على جبهة بيتر. كان ذلك هو الهدوء الذي يسبق الانهيار.

كانت ملابس أوتيليا مبلّلة بسبب سقوطها بين مكعبات الثلج التي تُستخدم لتبريد الجثث أثناء فترات انقطاع التيار الكهربائي. وقد حاول كامبانو - وهو رجلٌ حساسٌ وحزين عادة - مساعدتها رغم أنه كان منهمكاً بالعمل مع ضحايا ميتالروم. فقد أعطاها الطبيب شيئاً لتشربه، ومكاناً لتجلس فيه وتستجمع أفكارها. بعد ذلك، سارت إلى المنزل بكل بساطة، وسمح لها الجنود وأفراد الميليشيا بالمرور من دون إعاقة سيرها؛ وكأنها شبحٌ يسير بين مشاغبين.

عجز كامبانو عن إبلاغها عن وقت إعدام بيتر بالضبط. وما كان متأكداً منه هو أن الجثة قد أودعت في ثلاجات المشرحة، وأنّ مجموعة من ميليشيات وزارة الداخلية قد أحضرتها هذه الليلة مع خمس ضحايا آخرين.

لاحظت للمرة الأولى منذ أن بدأت أوتيليا بالكلام وجودَ كيسٍ من البوليثين في يدها، وكانت تمسك به بإحكام. كان الكيس سميكاً وشفافاً ومبللاً من الداخل. وقد تجمّعت قطرات الماء حول فتحته حيث كانت تمسك به بقبضتها المحكمة. وضعت أوتيليا الكيس على الطاولة، فأصدر صوتاً، ولكنّ الصوت كان مكتوماً بسبب الأوراق المبلّلة. وقفتْ أوتيليا هناك ونظرت إلينا.

ثمّ قالت لنا بلهجة تحدٍّ: «هيا، افتحاه».

تطلّع ليو نحوي فهززتُ رأسي، فما كان منه إلاّ أن تأوّه وجلس، ثم أفرغ محتويات الكيس على الطاولة، وكانت عبارةً عن ساعة يد بيتر التي كانت من صنع ألمانيا الشرقية من نوع غلاشوت، والتي تُعتبَر من أفضل ما يمكن شراؤه في أوروبا الشيوعية. اقتربتُ منها كي أتفحّصها فوجدتها باردةً وثقيلة في يدي، ولكنها كانت تعمل بدقة بالرغم من الرطوبة المتجمعة داخل مينائها. وعلى الفور، وضعتها فوق الطاولة. كما رأيت أيضاً بعض قطع النقود المعدنية، ودفتر ملاحظات كان بيتر يدوّن عليه كلمات أغانيه. كان الدفتر مزوداً بفتحةٍ لوضع قلم رصاص، ورباطٍ مطاطي. ورأيت أيضاً حلقة مفاتيح من نوع هافانا كلوب ولكنها خالية من المفاتيح، وبطاقة هوية تفحّصها ليو بعناية وتوتر، ثم مسح الغبار عنها بإبهامه. لم يكن هناك أي شيء آخر. تطلّع ليو نحو أوتيليا، فقالت له: «افتح بطاقة الهوية».

قام ليو بما طلبته منه، فرأى داخل غلاف بطاقة الهوية الرومانية الرسمية إذنَ عبورٍ مغلّفاً، وكان بحجم بطاقة الائتمان. لم أعرف ما يدل عليه وجود ذلك الإذن، ولكنّ ليو وأوتيليا عرفا دلالته جيداً؛ وعلى الأخص لأنهما شاهدا عدداً كبيراً مثله. فجأة، ترك ليو ذلك الإذن وكأنه أحرق أصابعه، بينما أشاحت أوتيليا بنظرها بعيداً. بقيت البطاقة في المكان الذي سقطت فيه، وظهرت صورة بيتر في زيّه الرسمي مواجهةً السقف. كان الإذن صادراً عن وزارة الداخلية لصالح الرائد

بيتر رومانو.

شرعت أوتيليا بالبكاء فاحتضنتها بشدة أثناء نشيجها، واجتاحت جسمها نوبات تشنجٍ عنيفة. فاحت من ثيابها رائحة الدخان والثلج المخصص لتبريد الجثث، وهكذا انتقلت المشرحة إلى منزلنا مع رائحة الفورمالديهايد الذي حجب رائحة الموت بقوة، حيث خيّمت الرائحة على الغرفة بأكملها. لم يتمكّن أي منا من الكلام أمام هول المفاجأة: فقد كان بيتر رائداً في الشرطة السرية.

بدأ ليو بتقديم بعض التفسيرات أو الأعذار، وقال إن هذه البطاقة مزيّفة، وإن بيتر قد أُجبر عليها بالقوة، أو إن الأمر بأكمله مكيدة. لا أعتقد أنه صدّق ما يقوله، ولكن تلك كانت الطريقة التي يلجأ إليها ليو لمواجهة كل أزمة حال بروزها؛ وذلك بهدف تجنّبها والمضي إلى الأمام لمواجهة الأزمة التالية، وحيث يغيّر معطيات كل مشكلة على أمل إضعاف المشكلة نفسها.

أسرعت أوتيليا بمقاطعته، وقالت: «توقّف عن هذا يا ليو. توقّف عن التوقعات والشائعات والتخمينات الغريبة. لا أريد سماع المزيد من هذه الخزعبلات».

ثم توجهتْ إلى غرفتنا واستلقت على السرير، وأجبرت نفسها على النوم بمساعدة الحبوب المنومة. تركتُ ليو مع ثرثرته بعد أن تأكدتُ أنها نامت، واستلقيت بجانبها. استيقظت على رنين الجرس، وصوتٍ منخفض وصارم، وكان ذلك صوت مانيا. أشار عقربا الساعة في ذلك الوقت إلى الثامنة، أي أننا نمنا لمدة ثلاث ساعات. عندها، نهضتُ وغسلت وجهي. كان الماء بارداً كالثلج، فشعرت وكأنني أفرك بشرة وجهي بقطع زجاجٍ متكسرة. تطلعت إلى صورتي في المرآة، فرأيت وجهاً مصقولاً أحمر اللون، وعينين متثاقلتين، وخدّين متورمين غير حليقين.

ركن مانيا سيارته عند زاوية المبنى، وذلك بسبب حرصه على ألاّ يراه أحد أثناء

دخوله الشقة. توجّه مانيا بالحديث إلى ليو: «أنا آسف لحدوث ذلك. لم أعلم أي شيء حتى هذه الليلة. يتعيّن عليك أن تصدّقني. إن ما جرى ليس أسلوبي في العمل، حتى إنها ليست وزارتي». وحين رآني بعد ذلك قال: «اجلس. أعتقد أننا نفهم بعضنا بعضاً عندما أقول لك إنه لدينا - أنا وستويكو - أشخاصاً منزرعين بين الجماعات المعارضة. إننا نلجأ إلى أساليب قذرة عند اضطرارنا إلى ذلك، وهذا أمرٌ طبيعي، ومن صلب الوظيفة التي نقوم بها. إذ يريد كل منا أن يعرف ما يقوم به الآخر. فهو يتجسّس عليّ، وأنا أتجسّس عليه، وهناك شخصٌ يعمل لحسابي بين موظفي ستويكو. ما أريد قوله هو أنّ ما أعرفه هو أن واحداً من موظفيه كان مشاركاً في أنشطة الجامعة الموسيقية ومنشوراتها، وفي تهريب الناس وحركة الانشقاقات. ولكنه انكشف الآن، ولم يعد صالحاً بصفته عميلاً، لذا تَرك جثةً هامدة في تلك الليلة بعد حدوث القتال؛ أي في الليلة التي قُتِل فيها الشابان، وقد أُطلِقت رصاصة على رأس القتيل من مسافة قريبة من الحدود. وتتناسب هذه الرواية مع التقارير الخاصة بنا عن إطلاق رصاصةٍ واحدة. كان ذلك القتيل هو الشاب الذي أتيتما لمقابلتي بشأنه، والذي لم أكن أعرف عنه شيئاً في ذلك الوقت، أعني بيتر. بعد ذلك، أعيدت الجثة إلى بوخارست مع الرغبة في اعتبار ذلك الشاب العميلَ الذي كان يعمل لصالح ستويكو، وفي أن يتلقى اللوم كلّه؛ حيث يتمكن الرجل الذي وظّفه ستويكو من معاودة ممارسة أنشطته. أعتقد أنك تعرف ما تبقى، أو على الأقل تشكّ فيه: ذلك العميل الذي تعرفونه باسم فينتول قد شوهِد، وعُرِفت هويته في الأثينيه بالاس. وقد تمكنتَ أنت وليو من التعرّف عليه، لكنّ أحداً منكما لم يفكر في ذكر الموضوع أمام صاحبه».

كانت أوتيليا واقفةً عند الباب فقالت: «هل قُتِل بيتر لهذا السبب؟! أقتل بهدف التغطية على أنشطة شخصٍ لعينٍ تابع لجهاز الأمن؟ وللحلول محل ضابط الأمن

الذي قتله؟ لتتمكن أنت ومن مثلك من العودة إلى ألعاب السلطة التي يمارسها الحزب؟». وقبضت أوتيليا على ذراعها اليسرى بيدها اليمنى، وغرزت أظافرها في جلدها.

«الأمر ليس كما تقولين. قُتِل بيتر لأنه امتلك أدلةً كثيرة تُدين ستويكو وبيلانجر وآخرين، وهو الذي كان يعمل لصالحهم من دون أن يدري، ويكسب لهم الأموال، ويهرّب الناس مُعتقِداً أنه يساعدهم على بدء حياة جديدة، ولكنه كان سيعرف عمّا قريب... ولكن للأسف، كان الشخص الوحيد الذي لا يشكّ فيه هو فينتول؛ وهذا هو السبب الذي جعله يثق به حتى النهاية».

تقدّم مانيا نحو أوتيليا، فسارعت إلى مدّ يدها في إشارةٍ منها لمنعه من الاقتراب منها أكثر. عندها، رفع راحتَي يديه مُذعِناً لرغبتها، ثم تراجع بعيداً عنها، وتابع قائلاً: «عمل بيتر معي. كان الرجل الذي أثق به داخل الإدارة. وكانت مهمته ملاحقة المهرّبين، وإعاقة حصولهم على المال، ومعرفة ارتباطاتهم الخارجية، وفضح الفاسدين من ضباط جهاز الأمن. وقد اشتملت مهمته أيضاً على اكتشاف الرجل الذي يدير العملية بأكملها، وقد نجح في ذلك... » وتطلّع مانيا نحو ليو ثم أضاف: «لكنّك كنتَ تعرف ذلك يا ليو بطبيعة الحال، كنت تعرف الشخص الذي يدير العمليات بأكملها؛ وذلك لأنك أطلقته بنفسك... » همّ ليو بقول شيءٍ ما دفاعاً عن نفسه، ولكنه ما لبث أن أشاح بنظره بعيداً. اقتربنا مجدداً من لفظ اسم بيلانجر، ولكننا تراجعنا عن ذلك في اللحظة الأخيرة.

التفت مانيا نحو أوتيليا وقال: «عندما أتيتِ لزيارتي لم تكن لدي أدنى فكرة عن ذلك. إذ لم أكن أعرف تفاصيل تورطه مع فينتول، وربما كان من الأفضل لو ساعدتك في تفسير ما حدث بالضبط في وقتٍ أبكر. فقد انتظرتُ ظهور بيتر كي أتصل بكِ، وظننتُ أنه سوف يظهر مجدداً لكي يتخلى عن حياته المزدوجة، ولكن لم يحدث أي شيء من هذا القبيل. أعرف أن بيتر كان رجلاً طيّباً، وأنه

أفضل من معظمنا، وأنه لم يتجسّس على الآخرين، ولم يشارك في قمع المواطنين، كما ساعد عدداً كبيراً من الأشخاص، واستخدم مركزه على الدوام لتحسين الأمور. وأنتِ تعرفين كل هذا. ولكنه كان اشتراكياً أيضاً، وهو يُمثّل ما كان يُمكن للحزب أن يكون عليه لو حافظ على إيمانه بجذوره ومبادئه. لكننا لسنا جميعاً مثل ستويكو وأعوانه. لقد كان بيتر يكره الفساد والوحشية، ويكره أعمال ستويكو وبيلانجر والآخرين. ولو كان لنا عزاءٌ في ما جرى، يمكنني القول إننا أصبحنا الآن في موقعٍ يسمح لنا بالتحرّك ضد ستويكو. ويُضاف إلى ذلك أن الأدلة التي جمعها بيتر هي التي سوف تدينه».

فتح مانيا الباب وتوقّف قليلاً، ثم التفت نحونا وتناول شيئاً من جيب معطفه. كان ذلك الشيء هو ملف الأسماء بغلافه الأحمر، والذي يشتمل على أسماء كل الذين وظّفهم بيتر في شبكته للمساعدة المتبادلة، وعناوينهم، ووظائفهم، وتفاصيل إسهاماتهم في أوقاتهم ومالهم.

نقر مانيا على الغلاف وقال: «هذا... يجب إتلاف هذا الملف لأن رجال الأمن سوف يبحثون عنه. يعرف فينتول أنه موجود، وأنا بحكم وظيفتي ملزَمٌ بنسخه، والتحرك ضد كل شخص كُتِب اسمه هنا. لكنني سوف أعطيكم إياه، وهو بالنسبة إليّ ضائع في مكانٍ ما في قعر الدانوب. أحرقوه».

لم يتحرّك أي منا فوراً لأننا كنا مندهشين كثيراً؛ الأمر الذي منعنا من طرح أي سؤال آخر. لكن بعد مرور دقائق قليلة، شممت رائحة الدخان، إذ أشعل ليو النار في سلة النفايات المعدنية التي أستخدمها، ووقف على الشرفة ممزّقاً الأوراق الموجودة في المغلف ثم أحرقها. احترقت الصفحات وتحول لونها إلى البني قبل أن تتناثر في الهواء. كان الدخان غير مرئي بسبب وهج الشمس القوي. وفي النهاية، رمى ليو الغلاف الصلب للملف، بينما وقفت أوتيليا وأنا قرب النار المشتعلة.

كان سقوط ستويكو سريعاً ومن دون سفك دماء، وقد تمّ بسريّة تامّة. ولو كنت تروفيم كنت سأعجب بتلك النهاية الجميلة؛ وعلى الأخص بعد ترقية مانيا ليصبح وزيراً، وذلك بعد اكتسابه سمعته الجديدة بوصفه الشخص الذي وضع حدّاً لفساد الحزب. فقد بدأت قاعدة السلطة التي يرتكز عليها ستويكو بالتفكّك يوماً بعد يوم، كما نُقِل موظفوه إلى مراكز أخرى. أدهش مستوى الفساد الذي كان يُديره حتى كبار الموظفين الذين استفادوا من أكبر قدر من ذلك الفساد. لكنّ الأدلة الدامغة التي تمّ تقديمها ضده كانت ممّا جمعه بيتر بدقّة بعد عناءٍ كبير، والتي برهنت أن ستويكو كان يدير شبكة من عصابات تهريب البشر، والقوّادين، والصرّافين المحتالين الذين يعملون بالنيابة عن مصالح أجنبية.

شرح ليو الأمر بالقول: «المصالح الأجنبية تعني بيلانجر. ها هو ستويكو قد رحل، بينما حصل مانيا على وظيفته... إنه عملٌ متقن، أليس كذلك؟».

هل كان ذلك ما اكتشفته سيليا عندما توجّهت إلى بلغراد للقاء بيلانجر؟ هل قال لها شيئاً ما؟ وهل كان ذلك ما جعلها تبدو وكأنها تعلم، لكن من دون أن تقدر على إبلاغي، ومن دون أن تُظهر أنه متورطٌ في تلك الأعمال؟

تمكّن ستويكو من مواجهة العار الذي لحق به إلى الحد الذي يسمح به مجتمع يستند على السرية. وهكذا، تمكن من تغيير مكان سكنه، وانتقل إلى الضواحي، وحصل على وظيفة مشرِف، بينما طلّقته زوجته في غضون أيامٍ قليلة. لكن مانيا كان ينتمي إلى طبقة أفضل من طبقة الفاسدين. إذ لم تتواجد حنفيات استحمامٍ ذهبية في شقته، ولا أثواب كيمونو مطرزة، ولم تتواجد فيها كميات كبيرة من الكافيار؛ أي مثلما تواجدت الأسماك الكورية في مونوكوم. كما أنّ مانيا لم يعتد على مسح فمه بظاهر يده، ولا يتجشّأ بعد أن يتناول الشراب في ديسكو مادونا. يُضاف إلى ذلك أنه لم يتفاخر بمغامراته النسائية في الحفلات التي يقيمها

الحزب، ولم يضع ثلاثة أنواع من العطور الفرنسية لما بعد الحلاقة في الوقت ذاته، وكانت أظافره نظيفة.

لكنه الآن يمتلك ليس فقط الوزارة، بل العالم السري الداكن والمتشعّب الذي يغذيه، والذي يشمل المخبرين والأشخاص المأجورين. صاح ليو: «تطهير الوزارة، هاه!». شعر ليو بالمرارة لأنه لم ينغمس في هذا الجزء من الحكومة الذي يطلقون عليه هنا اسم الحمّام البلغاري، ولا يتطلب الأمر سوى بضعة أنواع من بخاخات العطور ليمضي العمل كالمعتاد...

نثرت أوتيليا رماد بيتر على سطح بحيرة هيراستراو، وتكلمت بصوتٍ عالٍ معه أو مع نفسها، أو مع والديها اللذين رحلا. أما أنا وجوانا وليو فقد تراجعنا إلى الخلف، فيما جلس تروفيم مع كامبانو على مقعدٍ طويل وراءنا. في حين أن الرجل الذي ارتدى ثياباً عادية - والذي كان واحداً من رجلين يراقبان تروفيم طيلة اليوم - خلع قبعته. كان ذلك يوماً جميلاً، وكانت السماء صافية، بينما تجردت فروع الأشجار الداكنة من الأوراق.

أكمل مانيا معروفه بإبقائه العمل الذي قام به بيتر لصالحه قيد الكتمان. وفي هذا الوقت، كانت قد انتشرت شائعات مفادها أن بيتر قد مات وهو يساعد آخرين على عبور الحدود. افترضتُ أن ذلك كان صحيحاً إلى حدٍّ ما، وأعجبتُ بمانيا، وشعرت بأنني مدينٌ له، ولكنني لم أتعلّق بالأوهام؛ فمن الجيّد احتفاظ المرء بما يعرفه، وأن يخزّنه كما يُخزّن الوقود أو الطعام أو النقود.

كان بيتر هو الشخص الوحيد الذي اعتقدتُ أنه غير ملوّثٍ بعالم الخبث والخداع الذي نعيش فيه. ولكنّ أوتيليا شعرت بأنها خُدِعت، واعتبرتني مشاركاً في لعبة الخداع تلك، ومشاركاً بسبب جهلي، وعلى وجهٍ الدقة بسبب جهلي المقصود؛ أي بسبب شرودي وعدم اهتمامي. كانت لدينا ثقة كبيرة بالأفكار التي

كان بيتر يطرحها، لكن تلك الثقة منعتنا من رؤية السخرية والشكوك؛ الأمر الذي حمانا من عمله المزدوج. ولكن، إذا كان بإمكان المرء أن يتجاوز الأكاذيب، فيتعيّن عليه إذاً التوقف عن الاعتقاد بوجود أي حقيقة سابقة.

يُضاف إلى ذلك أنني عرفت أن بيتر قد مات منذ الليلة التي التقيت فيها أوتيليا في شقّتهما، وعندما رأيت القيثارة المتروكة في صندوقها، ومكبّر الصوت الذي كان موصولاً بالمقبس الذي يفتقد إلى التيار الكهربائي. فقد كنت أعرف جيداً لغة الأشياء المهملة؛ وهو الأمر الذي تعلّمته في بلدي، وعرفته في ذلك الوقت. ولكنني لم أفسح المجال لتلك المعلومة، ولم أفصح لها عنها، وقد حمّلتني مسؤولية ذلك.

أما بالنسبة لي، فإن ما فعله بيتر وما لم يفعله ليسا بالأمر المهمّ. فأنا أعرف أنه كان يثق بمشروعه كلّياً، وذلك مماثل تماماً لثقة ليو بمشروعه الخاص به. أما الفرق بينهما فهو أن ثقة بيتر ليست تهرّباً من الواقع أو تجنباً له، بل محاولة لتغيير ذلك الواقع، واستخدامه كأساس لشيء أفضل. يعتقد مانيا أن علاقة بيتر بالاشتراكية كانت أكثر تعقيداً مما كنا نظن. إذ لم يتمكن بيتر من التغاضي عمّا يراه، وكان مثل تروفيم في ذلك. أما المشروع - مهما كان غير واقعي، ومهما بقي منه - فقد كان دليلاً كافياً على ذلك. كان معظم الناس منشقّين سرّاً، لكن بيتر كان شيوعياً غير معلن، إلا أن الخير الذي قام به كان حقيقياً بما يكفي؛ بالرغم من أنه هو نفسه قد لا يكون كذلك. حاولتُ شرح هذا الأمر لأوتيليا، وأخبرتها أن الحياة المزدوجة التي عاشها لا تُلغي ما نعرفه عنه ونثق به، فنظرت نحوي بإشفاق وبشيء من الازدراء وقالت لي: «لماذا لا تلتحق بكنيسة، أو بالحزب؟».

اعتبرت أوتيليا أنها تُرِكت لكي تواجه العار وحدها، ولذلك كانت تعاقب بيتر عندما عاقبت نفسها. إذ قاطعت الناس، أو كانت تغادر الغرفة عندما يبدأون برثائه أو بالثناء على موسيقاه. وكان الناس يفسّرون رد فعلها على أنه ناجم عن

الحزن. ولكنها الآن بالكاد تكلّمني، كما أن الصمت يسود حياتنا معاً.

بدأت أوتيليا تأتي إلى المنزل في أوقاتٍ غير منتظمة، ثمّ تبدأ بنوبة من العمل الهستيري المليء بالمخاطر. وكانت تقوم بعملٍ إضافي من دون أجر، وتنام في مكان عملها في المستشفى، وتتبرع بعمل يومٍ في الأسبوع من دون أجر في دار الأيتام، أو في جناح مرضى السرطان؛ وكأنها تقدّم كفارةً عن ذنوبه. وفي الليالي التي كانت تغيب فيها، كنت أمضي الوقت في قلقٍ وخوف؛ غير أن تلك الليالي كانت أفضل من الليالي التي تعود فيها إلى المنزل. أصغيت السمع إليها جيداً عندما كانت تتقيأ في الحمام، أو عندما تنشج وسط العتمة. وعندما كنت أحاول التخفيف عنها كانت تبعدني عند كل لمسة، وتجفل عند كل مبادرة تودّد نحوها. كنت أمضي الليل من دون نوم، وأستمع إلى صوت المياه الباردة في الحمّام بعد الساعات التي تمضيها أوتيليا في التخلّص من رعب عمل اليوم.

ذات صباح شتائي، استيقظتُ قبلها عند الساعة الخامسة، ورأيت رداءها الأبيض ملوثاً بالوحل أو الشحم. نقلتُ الرداء إلى المطبخ لكي أغسله في الحوض، وفتحت الحنفيات، وقمت بكشطه بأظافري، فوصل الوحل إلى يديّ. بعد ذلك، دخلت أوتيليا المطبخ وأضاءت المصابيح، فرأيت يديّ وقد تلوّنتا باللون الأحمر حتى الرسغين، كما تغطت أظافري بالدماء، بينما غطت الحوض طبقةٌ بلون الصدأ.

بدأت حولنا التحضيرات لمؤتمر الحزب، وبدأ معها تجهيز المنشورات والتحضيرات العسكرية، وتدرّب الجنود على الاستعراض العسكري على وقع الموسيقى الحربية. كما امتلأت السماء بأصوات الطائرات النفاثة وبخطوط دخان ناجمة عن احتراق وقودها في الجو. بينما هنا على الأرض، بقيت الحافلات في مستودعاتها بسبب فقدان الوقود، كما التزم الناس منازلهم. أما أهداف الإنتاج المعلنة فقد استمرت في الارتفاع بالرغم من الاضطراب الذي ساد مناوبات عمل الموظفين، وبالرغم من عجز العمال عن الوصول إلى مصانعهم أو مكاتبهم. وقد

تطلّبت تلك الأهداف إنتاج المزيد من الفولاذ، والمزيد من السيارات، والمزيد من القمح والذرة. وفي هذا الوقت، نشرت صحيفة سينتيا أخباراً عن تحطيم الأرقام القياسية للإنتاج، والجهد الجماعي الكفيل بإيصالنا إلى الهدف المنشود، كما روّجت الصحف لحقبةٍ تنويرية جديدة. وهكذا، كان العنوان الذي يتصدّر الصحيفة هو حقبة النور!

صاح ليو عندما رمى الصحيفة في فضاء الغرفة: «حقبة المصابيح اللعينة بقوة 40 «واط»». وكانت المصابيح قد خضعت للتقنين في هذا الوقت. «أريد اختبار الأهداف التي وضعتُها لشرابي الأسكتلندي. هل يريد أحد الانضمام إليّ؟». ثم فتح غطاء زجاجة جديدة من الشراب، وبدأ في مهمّته الكئيبة وحده.

لكنّ الشراب لم يُجْدِه نفعاً، كما فشل في تحقيق هدفه، ولم تتنوّع أصناف الطعام في كابسيا. وهكذا، بدأ ليو بالتخلّي عن الابتزاز، وبخسارة زبائنه هنا، ونسيان تسليماته هناك. أدرك أن كل شيء قد تعطّل بالنسبة إليه بسبب ما حصل مع بيتر، وبسبب بيلانجر. لكنّ وظيفته استمرت في تأمين معيشته، وكذلك كتابه عن الطرقات المفقودة الذي بدأ يزداد سماكة مع تناقص الأماكن التي يُمكن وصفها.

ازدادت سرعة التدمير في المدينة في هذا الوقت، حيث إن المساحات الفارغة بدأت بالظهور حيث تواجدت المباني والناس قبل أيام قليلة. ولم يكن من المستغرب أيضاً المرور في مكانٍ يعرفه المرء جيّداً ليكتشف فجأة أنه اختفى وكأن الأرض قد انشقّت وابتلعته دفعةً واحدة. تذكّرتُ فيلماً صامتاً لشارلي شابلن، حيث يعود رجلٌ إلى بيته الذي تهدّم ويعجز عن ملاحظة أنه اختفى. يسير الرجل نحو الباب غير الموجود، ثم يُدخل المفتاح حيث كان القفل ويفتحه ويدخل، حتى إنه مسح حذاءه فوق سجادة الترحيب بالزوار غير الموجودة في الواقع. لم يدرك الرجل أنه لم يتبقَ لديه أي شيء إلا عند سقوطه على الأرض

بعد محاولته الجلوس على كرسيّه المفضّل، والذي يجمع بين الفراغ والذكرى.

وصل نائب وزير الخارجية البريطانية على رأس وفدٍ في زيارة رسمية إلى الكونغرس. وكان من المفترض وصول وزير الخارجية ذاته، ولكن تم خفض مستوى الوفد بسبب تزايد عزلة رومانيا في أوروبا. عندها، رفض تروفيم وليو المشاركة في حفل الترحيب بالوفد، كما أن أوتيليا رفضت التحدّث معي، وهكذا ذهبتُ وحدي. كان ونترسميث هو المسؤول، وبدا متملقاً أثناء تعامله مع الضيوف. غمزني بطريقة مريبة عندما مررت بمحاذاته، وأشار إلى سيليا التي كانت تدخّن على الشرفة وحيدةً بالرغم من البرد القارس. اقتربتُ منها فحيّتني من دون أن تلتفت إليّ.

ثم سألتني وهي تنظر إلى مجمّع السفارة: «أيمكنك أن تأخذني إلى السفينة والقلعة؟ أريد أن أوضّح شيئاً ما قبل فوات الأوان». ثمّ أدخلتْ ذراعها في ذراعي، ولكنني أدركتُ أننا عدنا غريبين مجدداً، وأنّ سيليا قد عادت إلى الحميمية غير المكترثة والسطحية التي ميّزت لقاءاتنا القليلة الأولى. شعرت في ذلك الوقت بقوة جاذبيتها وبالوحدة؛ تماماً كما كنت أشعر معها على الدوام؛ وهي مشاعر كانت تسيطر عليّ في كل مرة أتواجد فيها معها. حتى إنني شعرت بأن أكثر اللحظات حرارة التي قضيتها معها تفتقد إلى شيء ما.

سألتها: «أتقولين قبل فوات الأوان؟ ألم يفت الأوان فعلاً بعد؟».

أجابتني: «كلا. هناك المزيد. هناك المزيد على الدوام... ».

جلسنا إلى طاولة تقع في زاوية القاعة، وكانت ترتدي تنورتها الرسمية السوداء التي ترتديها عادةً في المناسبات، بينما ارتديت أنا بذلتي غير الأنيقة. تطلّع الحاضرون نحوها، وتأملوا شعرها الأسود الطويل، وفمها الأحمر، وبشرتها السمراء الخالية من النمش بشكلٍ لا يصدّق. أما عيناها فكانتا سوداوين

ونفّاذتين، فيما خدّاها أحمران بتأثير البرد.

«كنتِ تعرفين، أليس كذلك؟ أعني بشأن ما حدث لبيتر... ».

«أجل، لكن ليس منذ البداية؛ فأنا لم أعلم إلا عندما ذكر فلوريان شيئاً عن أحد رجاله - وكان أحد رجال ستويكو - الذي يتعامل مع العميل السري الذي يعمل لصالح والدي بوصفه عميل جهاز الأمن على الحدود. منذ أشهر، بدأت الأمور بالغليان بين والدي وستويكو. لم يأمر بيلانجر بهذا؛ إذا كان هذا ما تريد السؤال عنه... وفي الواقع، كان هذا الوضع أكثر إجهاداً بالنسبة إليه. لكن، عندما نجح الرجل الذي عمل لصالح مانيا في إسقاط ستويكو أخذ معه نصف شبكة فلوريان في بوخارست... لكن، ليست لك أي علاقة بكل هذه الأمور إن كانت هذه المعلومة تريحك».

فقلتُ ساخراً: «اعتبريني مرتاحاً. لكن، هل هذا هو الرجل الذي تعودين إليه؟ أعني، أهو الرجل الذي تحبينه؟».

فتطلعت سيليا نحوي بدهشة وقالت: «أجل. إنني أعرف مَن هو فلوريان، وأعرف من هو والدي، وأنا أحب والدي».

«أخبريني عنه إذاً... أعني عن بيلانجر. أخبريني عن فلوريان... ».

عندها، ارتعشت أصابعها، فاهتز رماد سيجارتها وسقط على الطاولة، ولكنها نفخت عليه وأوقعته على الأرض، ثم أخذتْ نَفَساً طويلاً من سيجارتها وسألتني: «من أين أبدأ؟ وعدا ذلك، أنت لا ترغب فعلاً في الاستماع... ».

وكان ذلك صحيحاً.

التقى الرجلان في العام 1984، وكان قد وصل لتوه بصفته محاضراً شاباً في أول مركزٍ يشغله خارج المملكة المتحدة، وكان يقوم بزيارة لبلد أجداده. عرف اللغة

الرومانية بعد أن تعلّمها من جدّيه اللذين كانا بوخارستييْن متفرنسيْن - بونجوريست - واللذين هاجرا بعد الحرب. لم يكن يعرف شيئاً عن المكان، ولكنه منذ البداية بدا أنه يستقي معلوماته عنه من تجربة عائلية مدفونة. بدا الأمر وكأنه قد زار المكان من قبل، كما أطلق على هذه التجربة اسم ديجا فو (الشعور الغامض بأنه تواجد في المكان من قبل). قالت سيليا إنه أحس بذلك الشعور منذ اللحظة التي وصل فيها إلى مطار أوتوبني ولاحظ أن المكان ينفتح أمامه. فوجئ في البداية بالسهولة التي يتنقل بها في المدينة، ثم أصبح ماهراً في تلك التنقلات، وعلى الأخص لأنه حفظ الخريطة عن ظهر قلب، حتى إنه كان يسير في أي الشوارع تظهر أمامه. بعد ذلك، بدأ بالتجوال ليلاً مع ليو، وكان الرجلان يجولان معاً على الدوام. وقد قال إن كل خطوة كانت أشبه بمفتاحٍ يقوم بفتح المكان الذي تطأه قدماه. أما ليو فكان قد سبقه في القدوم بثلاث سنوات، ولذلك امتلك الوقت الكافي لتثبيت قدميه، واستكشاف تضاريس المنطقة، أي تمكّن من تأسيس إمبراطورية التهريب الخاصة به. لكنّ بيلانجر كان الرجل الذي عرف المكان فعلاً، وكان بفطرته يعرف المدى الذي بإمكانه الوصول إليه، والأشياء التي يستطيع بيعها، كما عرف أسعارها، والزمن المناسب لتخزين السلع، ووقت طرحها في السوق. أما ليو فقد كان هاوياً، وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك أشياء لا يريد التعامل بها، فيما كان بيلانجر يشعر بالسرور للاتجار بها. وهكذا، أصبح فلوريان بيلانجر... وهنا فكّرت سيليا بالعبارة المناسبة قبل أن تقول... في مقعد القيادة...

«وكيف التقيتما؟».

«عن طريق والدي. فوالدي هو الذي عرّفنا على بعضنا بعضاً بالرغم من أنه ندم على ذلك بسرعة. وقد حصل ذلك أثناء حفلة أُقيمت في السفارة الفرنسية في الرابع عشر من تموز. كان بيلانجر هناك، وبدأ بالقيام بأعماله بمفرده، وهكذا

كرهه ليو لأنه لا يكنّ احتراماً للأشياء التي أحبّها ليو وهي: الفن، والمباني، والكتب. أما بيلانجر فلم يكن يهمه ما يحدث للمدينة، وقال إن تلك الأعمال توفّر مساحات خالية، وتسهّل إمكانية بيع الأشياء... ونقلها. أما ليو فكان يقول دائماً إن خمسين بالمئة من نجاح الأعمال يرجع سببه إلى جعل الأشياء منقولة... منقولة! أخذ بيلانجر كلامه على حرفيته، هذا هو كل شيء... ». وابتسمت سيليا لدى استرجاعها هذه الذكريات، ثم تابعت: «تم تفكيك كل شيء ونزع براغيه وتجزئته، في حين قام بيلانجر بتعليبه وبيعه. وفي الليلة الأولى التي اصطحبني فيها في نزهة، كان لديه جناح في الانتركونتيننتال، وشقة فخمة تشبه ما نشاهده في الأفلام الأميركية. وقف قرب النافذة، وجعلني أشاهد بوخارست الغارقة في الظلام إلى حد كبير، وأبلغني أنه في يومٍ من الأيام سوف تكون هذه المدينة مضاءةً مثل نيويورك أو لندن، وسوف تتواجد فيها متاجر تفتح ليلاً ونوادٍ ليلية، ومطاعم تفتح أبوابها أربعاً وعشرين ساعة، ومسارح ودور سينما، ولافتات مضاءة بالنيون. ضحكتُ في ذلك الوقت، ولم أصدّق أن تلك الأماكن التي ذكرها موجودة أساساً. على الأقل، ليس في ذلك الوقت».

كان بيلانجر يقدّم لها بوخارست المستقبل. «اصطحبني إلى باريس، ومدريد، وروما. لم يوافق والدي على ذهابي معه، ووصفه بالمجرم... وحاول إلقاء القبض عليه وترحيله. لكن بيلانجر كان يعمل مع ستويكو في ذلك الوقت، وكانت كلمة ستويكو هي النافذة. ويعني ذلك أن بيلانجر كان محمياً، ولذلك شعر أبي بالإهانة. وذات يوم، أقدم أحدهم على مهاجمته وتهشيم ساقيه، كما هدّده بالقتل إذا بقي في البلد. ومنذ ذلك الوقت، عجز بيلانجر عن المشي بطريقة صحيحة، وما لبث أن غادر البلد».

لم أقل شيئاً تعقيباً على كلامها؛ لأنه بغضّ النظر عن أي نوع من الرجال كان بيلانجر، فقد أحبّته سيليا في ذلك الوقت ولا تزال تحبّه حتى الآن. أعرف أنها

لن تتكلم عني أبداً بهذه الطريقة.

«لم يكن رجل عصابات، أو أي شيء من هذا القبيل. ولم يكن شريراً أو عنيفاً. لم أرَ أي شيء ممّا قالوا إنه متورطٌ فيه... ».

فقاطعتها: «كان بيلانجر الذي يعرفه معظمنا تاجر مخدرات، كما كان يتاجر بالبشر، وقد كسب أموالاً طائلة من تجارة الجنس. وقد باع بيلانجر أيضاً قطعاً من المدينة المتفككة، وتعامل مع رجال الأمن. ويعني ذلك أنه اشترى البؤس البشري بأسعار بخسة وباعه ليكسب الأرباح». فوجئت بحماستي الشديدة لدى حديثي عنه، ولكنني كرهت بيلانجر بسبب ليو وبسبب سيليا... فقد اكتشفت أنني أعيش مع أشخاصٍ كانوا معه أولاً، وهذا يعني أنني استعرت من حياته أشخاصاً لإنعاش حياتي.

«هل قلتَ معظمنا؟ كيف تجرؤ على قول هذا؟ أنت لست منا! كما أنك لست جزءاً من أي شيء على الإطلاق. فأنت تراقب ما يجري ليس إلاّ! أنت تسير معنا، وتسير مع التيار مع مَن وُجِد: ليو، أوتيليا، والستاليني القديم تروفيم، وذلك البدين السمج هناك». وأومأت نحو ونترسميث الذي كان أمام المشرب مع نائب وزير الخارجية، ولكّنه ما لبث أن شعر بأن مشاركته في الحديث كانت ضئيلة فلوّح لنا بيده. «تمكّن فلوريان من إنجاز أمورٍ كثيرة، ونجح في فهم طريقة عمل الأشياء. لم يكن شريراً، ولكنه أراد الحصول على المزيد ممّا يمتلكه بالفعل؛ أي مثلنا كلنا. وهو لم يختر النظام، بل اكتفى بأنه جعل منه شيئاً. كما أنّه لم يكوِّن العالم. وهو ليس تشاوشيسكو أو ستويكو، حتى إنه ليس مانيا قسطنطين، وليس مضطراً إلى الجلوس في محكمة يسيطر عليها اللصوص والمجرمون والمتآمرون».

«يا لهذا المنطق المُستهجَن والعقيم!». لم تكن لديّ صورة لبيلانجر، ولكنني

رأيت في ذهني صورة ذات وجهٍ محجوب؛ الأمر الذي استدعى كل كراهية تمكنت من استجماعها تجاهه. سألتها: «أين هو الآن؟».

فجأة، شعرت بشيء ما خلفي، وشممت رائحة الرطوبة والعفن التي تلتصق بباب قبوٍ من الخلف، وأحسستُ بأن ونترسميث يقف قربي. قال ونترسميث مُقبِّلاً يد سيليا التي كانت مغطّاة بقفازها؛ وهو أمرٌ شعر بأنه يناسب الوضع: «إنني مسرور لمجيئك».

فقالت وهي تعانقني ببرودة قبل أن تغادر الغرفة المليئة بالضجيج: «يتعيّن عليّ الانصراف الآن».

عندها، قال ونترسميث رافعاً حاجبيه: «سأحضر لكَ شراباً، ويمكنك أن تخبرني كل شيء... ».

غير أنّني غادرت المكان عائداً إلى المنزل أثناء إحضاره الشراب. شعرت بتيّار هواء باردٍ وبحرارة دون الصفر. كان الشتاء يكشّر عن أنيابه.

الفصل السادس

حلمت في تلك الليلة بأنني نائمٌ داخل قطار، وأنني استيقظت بعد ذلك فيما القطار لا يزال يتحرّك، وبينما العربة تهتزّ ويتصاعد الضجيج الصادر عن المكابح أثناء ضغطها على المعدن. وفي هذا الوقت، تصاعدت الشرارات الناجمة عن الضغط على المكابح، وانتشرت رائحة الكبريت. سقطت الملابس والحقائب عن رفوفها، أما في الخارج فتمايل قمرٌ كان على شكل هلال من جهةٍ إلى أخرى، وكأنه الحلقة التي تحيط بساعة منوِّمٍ مغنطيسي.

رأيتُ والديَّ الراحلَين في آخر العربة غير متأثرين بما يجري. وهكذا، تنقّلا بهدوء عبر الهواء وسط كل هذه الفوضى. حاولت اللحاق بهما، ولكنهما ابتعدا عني أكثر فأكثر نحو عالم الغموض. كانت تعابير وجهيهما عادية. وبعد ذلك، غطّتهما الظلال، وسيطر الرعب والألم على وجهيهما اللذين ذابا وأصبحا مجرّد عظام وعتمة. رفع والداي أيديهما نحوي بينما كانت العتمة تتآكلهما وتحرقهما مثل شريط في فيلمٍ تلتهمه النيران، غير أنني ما إن وصلتُ إليهما حتّى اختفيا، وأحسستُ برمادٍ ساخنٍ على أصابعي.

انتهى الحلم عندما استيقظت مجدداً، لكن الأشياء ظلّت تتحرك. تطلعتُ حولي فأيقنتُ أن المبنى بأكمله يهتزّ. فقد اهتزّ المنزل بكامله؛ بدءاً من أساساته وحتى أعلاه، وتبعت ذلك ترددات موجة صوتية طويلة وأصوات تكسّر زجاج المبنى. وبعد قليل، خيّم السكون على المكان، وكان ذلك السكون من النوع الذي لا نسمعه إلا بعد حلول كارثة كبيرة؛ فالهواء لا يتحرّك، بينما الزمن يتمزق ويستجمع ذاته.

حدث ذلك في الصباح الباكر، ورأيت سكة ستارة غرفة نومي على الأرض، كما

تدثّرت أغطية السرير بمسحوق الجص الناعم. رأيتُ إطار النافذة منزوعاً من مكانه، بينما تدلّت رفوف الكتب متمايلةً. عندها، نهضت من السرير، وفوجئت حين لاحظت أنّ الأرض ما زالت ثابتةً تحت قدميّ. كان الجو بارداً، وتيارات الهواء اللاذعة تندفع إلى داخل الغرفة. أما الشرفة فقد اهتزت قليلاً عند خروجي إليها، ولكنني أدركت أن المبنى يرتاح على أساساته.

في الخارج، كانت كل الأماكن متشقّقة: بين الطريق والرصيف، وبين الرصيف ومداخل المنازل، وبين النوافذ وإطاراتها. كما انفصلت كل نقطة في العالم عن النقطة الأخرى المتصلة بها، وبرز كل ما هو تحت المدينة إلى الخارج: المياه، وأنابيب الصرف الصحي التي تشقّقت بسبب ما تحمله في داخلها من مياه مبتذلة وأوساخ، كما غطى الأرض الوحل وأجزاء الركام. أما أنابيب مكافحة الحرائق فقد دفعت بموادّها إلى الأعلى، ووصلت إلى ارتفاعاتٍ عالية قبل أن تسقط مجدداً على الأرصفة. في حين أنّ الأنابيب القابعة تحت الأرض - وهي وحش الأعماق - اندفعت ببطء من كل شقٍ من الشقوق متّجهة نحو الأعلى، وظهرت كتلةٌ بنية لامعة ازدادت ضخامة عند احتكاكها بالهواء.

ارتديت ثيابي بسرعة وهرعت إلى الطابق السفلي. كان السياج منزوعاً من مكانه، بينما مصابيح القاعة معلقة بأسلاكها فقط، في حين أن التيار الكهربائي مقطوع؛ وهو أمرٌ جيّد لأن جميع الأسلاك قد تبلّلت بالمياه أو بالوحول. رأيتُ شقاً كبيراً في الجدار على شكل برق، وأحسست بالرياح التي كانت تعصف في الخارج عند دخولها القاعة. كانت الظلمة والبرد يدفعان الأحجار بعيداً عن بعضها بعضاً.

لم أسمع أي أصوات، ولا صفارات إنذار، ولا حتى أصوت الناس الذين راحوا يتحركون بذعر. ولم تكن هناك سوى الرياح الصافرة التي راحت تعبر الشقوق التي تكونت حديثاً. حدثت هزة ثانية عند الساعة الخامسة والربع فجراً. أما

المشهد في الخارج فلم يشتمل على دمارٍ كبير، بل إن المباني تمايلت فقط في محاولة للحفاظ على توازنها. كانت بعض المجمّعات السكنية منحنية قليلاً، والأحجار فيها على وشك السقوط، بينما لم تكن الجدران مستندة إلا على الهواء. أما الشرفات فقد استندت على قضبان فولاذية. بدا المكان طبيعياً بالرغم من التغيّر الطفيف الذي طرأ عليه، وكأنه تعرّض إلى دفعة مفاجئة من الاستهلاك.

تناولتُ آلة التصوير وانطلقتُ نحو منزل ليو. كانت لبسكاني على بُعد عشر دقائق سيراً على الأقدام، وكان لا بد لي من العثور على شيء يمكنني الاستفادة منه.

حدثت الهزة الأرضية قبل عشرين دقيقة تقريباً. وأثناء وصولي إلى الطرف الآخر من كاليا فيكتوريا سمعتُ أصواتاً: صفارات الإنذار في البعيد، والسيارات التابعة للميليشيا والتي لم تكن قد أنارت مصابيحها الأمامية، وكانت تشق طريقها نحو وسط المدينة بسرعة كبيرة. مررتُ في الشارع الذي يقطن فيه تروفيم، والذي بدا معظمه سليماً. لكنّ الخوف الذي شعر به الجميع تحوّل إلى نوعٍ من أنواع الفضول، وسمعت أحد الأشخاص وهو يخمّن أن الهزّة سوف تؤدّي إلى توسيع مدى الدمار في وسط المدينة، وبالتالي ستزيد من بشاعتها. كما سمعتُ أثناء سيري بعض الضحكات الحذرة متبوعةً بكلمة صه لدى رؤية أحدهم غريباً حاملاً آلة التصوير.

كانت لبسكاني مليئة بالضجيج والحركة؛ وذلك بعد أن تسلّمت جماعة غير حكومية زمام المبادرة. رأيت أيضاً غجريَّيْن أثناء قيامهما بتوزيع الضمادات، بينما جال رجال الحزب في المكان منادينَ بأسماء الأشخاص ممّا يُعرَف بالقوائم الانتخابية حتى في رومانيا. رأيت ثلاث سيدات خارج المبنى الذي يقطنه ليو، وكنّ يساعدن في تذكية النار تحت إناء كبير مليء بالشاي. احتشد الناس أمام

الإناء الذي يتصاعد منه البخار، واصطفوا منتظرين دورهم للحصول على مقدار مغرفة من الشراب، وحاملين معهم ما تمكّنوا من العثور عليه من أوانٍ مثل العلب المعدنية الفارغة، والأكواب البلاستيكية، وأطباق القاشاني المكسورة. كان التيار الكهربائي مقطوعاً، لكنّ المواقد المتوهجة بعثت موجاتٍ من الحرارة الحارقة. سألتُ إحدى النساء عمّا إذا كانت قد رأت ليو، فناولتني كوبين بلاستيكيين مليئين بالشاي، وأرسلتني إلى المنعطف التالي حيث كان ليو يتناول حبوب الأسبرين من وعاء، كما لو أنها مكسرات أثناء حفلة كوكتيل.

«استمروا في توقّع هزّةٍ أخرى على مدى سنوات. إننا محظوظون لأنها أحدثت هذا المقدار من الدمار فقط. فقد حدثت آخر هزّةٍ في العام سبعة وسبعين، وأسفرت عن مقتل ألفَي شخص. لا أعتقد أن هذه الهزّة قد أحدثت أضراراً كبيرة، لكن الامتحان الحقيقي سوف يكون في الضواحي؛ وذلك نظراً إلى المباني الضعيفة التي أقاموها هناك. لا أعرف... » تناول رشفةً من الشاي، ثمّ أضاف إليه القليل من الشراب من زجاجة كان يحملها في جيبه.

«لم تتعرض ليبسكاني لأضرارٍ كبيرة ما عدا سقوط عدة أسقف ومداخن، بالإضافة إلى حدوث تشقّقٍ في سترادا ليبسكاني ذاتها، غير أنّ هذا ليس بالأمر الذي يعجزون عن إصلاحه بسرعة». ولاحظ ليو الشريط الحامل لآلة التصوير المعلّق على كتفي، فسألني: «هل شاهدتَ أي شيء جدير بالاهتمام؟».

كنت قد تمكّنت من تصوير قافلة من سيارات الميليشيا أثناء توجّهها إلى المدينة، ولكنني لم أكن متأكداً من أن الضوء كان كافياً لالتقاط صورةٍ واضحة؛ وذلك لأنني لم أرغب في جذب الانتباه إذا استخدمتُ الضوء الوامض لآلة التصوير. سمعنا صوت أغنية شعبية يبثّها جهاز راديو وصادرة من إحدى النوافذ القريبة، بينما كان ليو في الطابق الأسفل يستمع إلى الإذاعة العالمية بي. بي. سي، فلم أسمع أي ذكرٍ للهزّة التي حدثت هذا الصباح. وعلى غير المعتاد، لم أشاهد أي

رجل شرطة هناك؛ ما يعني أن ليبسكاني قد تُركت وشأنها.

«يُحتمَل أنهم جميعاً قد توجّهوا إلى المدينة لمسح الأضرار التي لحقت بالقصر. الله وحده يعلم كيف هي حال الضواحي. لا أحد يرغب بالتواجد في الطوابق العليا لتلك المجمعات هذا الصباح، أليس كذلك؟ يا للمساكين!».

بقيت جميع المباني القديمة في بوخارست سليمة، وكان المبنى الوحيد الذي لحقه الضرر في الشارع الذي يقطنه ليو، والذي انقسم إلى نصفين بسبب وقوع رافعة عليه وليس بسبب الهزة الأرضية. لم يسلم في ذلك المبنى سوى جداره الخلفي برسومه التي بقيت سليمة، ومدفأته التي بقيت مشتعلة. ومع ذلك، سلِمت كل التحف الفنية الموجودة على رفّ المدفأة، ولكنها كانت مغطاة بطبقة من الغبار، ورغم ذلك حافظت على روعتها المذهلة.

«أترى؟ إنها الأشياء الصغيرة على الدوام، والأشياء الكمالية، والزينة الرائعة؛ فهي التي تدوم، وكذلك الأشياء غير الثمينة. عند التنقيب في المواقع الأثرية، نلاحظ دائماً أنهم يعثرون على عدد قليل من القطع الذهبية المشغولة، أو على أجزاء متكسرة من إناء فخاري، أو حتى على قرط أذن، أو قارورة عطر؛ الأمر الذي يمكّننا من إعادة تكوين صورة عن الحضارة المفقودة. إن كل ما يتم تشييده ليبقى إلى الأبد مصيره الزوال... أو يتهاوى، أو يختفي. ويعني ذلك أنه ما من مكان يروي قصته كما تم التخطيط لذلك... انظر، ها هي الرافعة التي تزن أربعين طناً تتهاوى، لكنّ تمثال الكلب الصغير المصنوع من القاشاني لا يزال موجوداً... ».

كانت هناك بعض الثغرات في ما قاله ليو، ولكنه لم يكن مستعداً لسماعها. فقد اعتبر ليو أن هذه الهزّة بمثابة عقوبة على كل التخريب الذي ألحقه تشاوشيسكو في بوخارست. بعد الهزّة، ظلّت الكنائس القديمة والبيوت سليمة

من دون أن يلحقها أي أذى، بينما تشقّقت المباني المجاورة التي تمّ تشييدها حديثاً من أساساتها وحتى من سقوفها. كان من الصعب عدم اعتبار ما حدث بمثابة انتقام، وحتى من دون استخدام التشابيه الغريبة التي أوردها ليو. وهكذا، كدت أتوقع رؤية أسراب من الجراد في السماء أثناء انقضاضها على المدينة.

تطلّعنا من قبة مكتبة الجامعة حيث يعمل يونيسكو إلى الدمار الذي حلّ في المدينة، بينما انهمك رئيسنا السابق بإعداد القهوة. بدت بوخارست في الأفق تلملم جراحها، أما في وسط المدينة فقد بدت الأمور طبيعية. إذ بدا مبنى صحيفة سينتيا الذي يشبه الإبرة بنحافته سليماً، وكذلك أبراج الكاتدرائيات الثلاث التي بدت وكأنها مجموعة من القمم المتألّقة حول الأسطح والقبب غير المتساوية في ارتفاعاتها في المدينة القديمة. كان ذلك في الضواحي؛ أي حيث تنتهي بوخارست، وتبدأ الحلقات الشبيهة بحلقات زحل في الظهور من بعيد. فهناك ظهر الدمار الحقيقي.

سألني ليو مشيراً إلى مجمعٍ سكني عانى من انهيار أعلى سقفين فيه ليصبحا سقفاً واحداً: «هل لاحظت شيئاً مفقوداً في هذا المنظر؟».

فقلتُ مخمّناً: «هل تعني الضجيج؟ الضجيج والناس؟». إذ كانا العنصرين الغائبين هنا على الدوام.

«أعني شيئاً آخر بالإضافة إليهما. كلا، انظر. انظر إلى تلك الشقق، انظر إلى الإسمنت المتكسر. لا توجد أي قضبان فولاذية لتدعيم الأبنية؛ لأنهم بعد انتهائهم من تشييد عدة طوابق يبدأون بالبناء كيفما اتفق. إنهم لا يكترثون باستخدام الدعائم أو العوارض الخشبية. وهم يبنون طابقاً فوق آخر، وبرجاً فوق آخر. ولكن، بعد الانتهاء من تشييد طوابق قليلة، لا يعود هناك أي شيء

لكي يدعمها».

شهدت الأسابيع التالية نوبة هدمٍ لم تكن حتى أقوى الجرافات مستعدةً لها. واستخدمت مديرية المباني الهزّة الأرضية كذريعة لها لهدم أجزاء من بوخارست القديمة. وتمّ نقل أعداد كبيرة من الناس من الشقق التي يسكنون فيها في مناطق مثل ليبسكاني ودودستي ودوروبانتي، إلى بنايات لم ينتهِ العمل بها بعد، بالإضافة إلى كونها غير متينة. وهكذا، علِقَ عدد كبير من الناس وسط دمار غير رومانسي إطلاقاً، وبين ماضٍ لم يعد له وجود ومستقبلٍ يرفض الوصول.

تابعتُ مع ليو التقاط الصور الفوتوغرافية وتسجيل أفلام فيديو عن عمليات الهدم، لكن تلك العمليات كانت تجري بسرعة كبيرة. ملأتُ اثني عشر فيلماً بالصور، وكان بإمكاني ملء اثني عشر فيلماً آخر. وقد اهتم ليو بتظهير الأفلام وإرسالها إلى الخارج، كما حضّر تقارير لوكالة رويترز، وصحيفتَي لوسوار ولو فيغارو. أما الدبلوماسيون العاملون في بوخارست فقد بدأوا بالاحتجاج تحت إشراف أوزيراي. كان ما يحدث في بوخارست جزءاً فقط ممّا يحدث في مقاطعات مثل تيمشوارا ومولدوفا، وفي مناطق تعيش فيها الأقليات. وهكذا، تمّت في هذه الأثناء إزالة كل العلامات التابعة لمختلف الثقافات. كان الخراب شاملاً؛ فالبيوت في القرى التي صمدت على مدى قرون من الزمن تم جرفها في صباحٍ واحد لتحل محلها الأبراج السكنية العالية أو مجمعات المصانع. وهكذا، صارت تلك القرى مثل مستعمراتٍ معزولة بين المجرات، وتحوّلت رومانيا إلى لا - مكان ضخم، لا ماضي له.

سأل ليو وهو يشير بيده إلى أكبر مبنى في العالم، أي إلى قصر الشعب؛ وهو مجمّع من الخرسانة والفولاذ الذي تم تلبيسه بالرخام. «أترى هذا؟ إنه أكبر مقبرة في العالم. فعند الانتهاء من بنائه، جميع الشيوعيين سوف يدخلونه، وستُغلَق عليهم جميع الأبواب، ثم سيموتون. إنهم يعتقدون أنهم يبنون مدينة

المستقبل، ولكنهم في الواقع لم يشيّدوا إلا مقبرتهم. تنتظر ميغالو - نكروبوليس نزلاءها».

شهدنا في بداية شهر تشرين الثاني أسوأ مظاهر التدمير؛ وهو المشهد الذي سوف يظل شاهداً على كل أنواع الهدم، وسوف يبقى شاهداً على كل أعمال التخريب، وعلى بدائية إعادة هندسة المدينة؛ وهي العملية التي تحولت إلى مهزلة.

كان دير القديسيْن سيريل وميثودياس قد صمد على مدى قرون من الزمن على الضفة الجنوبية الغربية للقناة، ولكنه الآن يقف في الطريق، ويبدو أن برجه القديم الذي يعود تاريخ بنائه إلى أربعمئة سنة خلت قد تحوّل إلى منظرٍ شاذٍ مقارنة بالأفق الجديد للمدينة. صمد هذا البرج في وجه الزلازل، والحرائق، والحشرات التي تنخر الأخشاب، كما صمد في وجه الأتراك والإهمال، ولكنّه يتحوّل الآن إلى ساحة مقببة للشيوعيين تشتمل على ممرات ضيقة، وبعض الطرقات، بينما الموسيقى الجميلة تصدح منها طوال اليوم. كانت التصاميم معروضة في المقر الرئيس للحزب: الأعمدة الكلاسيكية الحديثة، والعوارض التي تحمل جرساً ضخماً مصنوعاً من الزجاج، والقصر المصنوع من الكريستال والمخصص للاستجمام في الأنظمة الشمولية.

كانت تلك عملية هدم غير اعتيادية، وكان من المقرر أن يتم استخدام الديناميت؛ وهو إجراء جديد يهدف إلى التأكد من أن الأحجار قد تهشّمت ولم تُفصل عن بعضها بعضاً فقط. وهكذا، يستحيل إعادة استخدامها مجدداً. أمّا عندما بدأت عمليات الهدم قبل سنواتٍ قليلة، فقد كانت الأبنية المهمّة تُفكك، وتوضع حجارتها في المستودعات. كانت تلك الحجارة تبقى في أرشيفات الأحجار مثل أحياء يرقدون في مقابرهم، حيث تكون مستعدة للارتفاع مجدداً لملاحقة تشاوشيسكو. لكنّ الأمر حمل الآن حقداً أكبر؛ فالأبنية التي تتعرض للتفجير

تُسحَق، ثم تُجمَع وتُطمَر في حُفرٍ كبيرة في الأماكن التي كانت موجودة فيها. كان الأمر أشبه ما يكون بمعسكرات الموت؛ حيثُ يُجبَر المسجونون على حفر مقابرهم، ثم على الركوع في الحُفر التي حفروها قبل إطلاق الرصاص عليهم. كان ليو يُطلق وصف المقبرة الكبرى على ما يجري. وبالرغم من حديثه التشاؤمي الذي سمعناه، بدأنا جميعاً نشعر بأن ما نمرّ به هو أوقات مميتة في بوخارست التي أصبحت مقبرتها وشبحها في الوقت ذاته.

وقفنا مع حشدٍ صغير يواجه البرد وكاميرات رجال الأمن. عرفت من بين الحاضرين الشاعر آندريه ليفيو، وكان شديد الشحوب ولكنه يمشي بثبات، وقد جاء من كونستانتا للمشاركة في الاحتجاج، كما أن حضوره جذب الانتباه. كان السرطان الذي يعاني منه في حالة سكون، لكنّ الجميع كانوا يعلمون أن مسألة ليست سوى مسألة وقت قبل خسارته المعركة مع ذلك الداء. وقد شبّه الشاعر الحالة التي يمر بها بمجموعة من المتآمرين الذين يُعيدون تنظيم صفوفهم في الخفاء، ويتجهّزون للقيام بانقلابهم على جسمه. وكانت السلطات قد منعت كتابه لأن جهاز الرقابة في وزارة الثقافة اعتبر أن حالة السرطان التي تحدّث عنها إنما هي تشبيه واستعارة للتعبير عن الوضع الذي تمر به الدولة. لكنّ جهاز الرقابة كان مخطئاً؛ فكلمة الدولة هي التي أصبحت تعبيراً مجازياً يعني المرض.

كان أيون مارينارو موجوداً مع زوجته، وكانا يُشكّلان ثنائياً رائعاً، وكانا أقرب ما يكونان إلى نجمَي سينما في رومانيا. كما كان برفقتهما الروائي فاسيلي يوربا الذي كان حزبياً مخلصاً بدأ بالحديث عن أفكاره بصراحة. أما أحدث رواية له فكانت قصة خيال علمي تدور أحداثها في المستقبل، وتتحدث عن مستعمرة عقابية في المريخ، وهي بالكاد اجتازت حواجز الرقابة؛ وذلك لأن إيلينا تشاوشيسكو ذاتها قرأتها وتبنّت الفكرة التي تطرحها بوصفها هدفاً من أهداف سياسة الدولة. أمّا مركز بحوث الكون الروماني - والذي ترأَسُه إيلينا بصفتها المديرة المُشرفة -

فيدين بوجوده إلى رجل نحيل وساخر؛ وهو الذي يقف الآن مدخّناً ويضرب الأرض بقدميه، وكان الأب المجهول لبرنامج الفضاء القومي. وقف هؤلاء الناس في مواجهة السلطات للمرة الأولى.

سادت نفحة من الرغبة في التجريب بين الحاضرين، غير أنّ أحداً منهم لم يعرف كيف يقف متحدّياً أو يبدو كذلك. وقد حاول المحتجّون الظهور بوضعياتٍ وتعابير مختلفة، وتحدثوا بصوتٍ عالٍ للحفاظ على معنوياتهم. لم تكن جهوزية رجال الشرطة أفضل حالاً، وعلمنا أن بعض رجال الأمن قد اشتركوا في إخماد الاضطرابات في المصانع والمناجم. كنا نعرف كل ذلك، غير أن الأمر هذه المرة كان مختلفاً؛ لأن هؤلاء المحتجّين كانوا من الكتّاب والفنانين، وأعضاء في الحزب، ومؤمنين، وتكنوقراط، وأجانب، ودبلوماسيين. ولم تكن السلطات قد وضعت أيّ خطط للتعامل مع هذا الوضع.

وقف أوزيراي والقائم بالأعمال الروسي خلف المحتشدين. كان مالتشيف يجول وراء الحشد متحدثاً إلى أحد صحفيي جريدة برافدا الذي راح يسجِّل ما يقوله باستعمال جهاز تسجيل، بينما كان المصوّر يلتقط عشرات الصور. وقد منح الحضور الروسي المجتمعين هناك دعماً كبيراً، فتعالت في الخلف هتافات «غورباتشوف! غورباتشوف!» وبيريسترويكا. وصرخ أحد المحتجين من مكانٍ آخر «تروفيم!»، كما هتف باسمٍ لم يسبق لي أن سمعت به من قبل: «جبهة الإنقاذ الوطني!».

سُمِع صوت المتفجرات عند غروب الشمس، وسرعان ما اهتزّ البرج وسقطت عدة أحجار من السطح. وما لبث البرج الخشبي الصغير الذي يحمل الجرس أن تهاوت دعائمه. مرّت لحظة أخرى من التردد قبل أن يتهاوى البناء بأكمله ويصبح كومة واحدة، ثم ارتفعت سحابة من الغبار والركام. كانت الطريقة بسيطة: إذ راحت كرات الهدم ترتطم بالمبنى وكأنها قطيع من الكلاب، ثم تشقّ

طريقها من خلال الأسيجة، وتحطّم البوابة، ثمّ تدمّر المقبرة، وتحطّم أخيراً جدران الدير. وهكذا، تطايرت العوارض الخشبية وكأنها عيدان كبريت.

اندفع ليو عبر الحاجز الذي أقامته الشرطة إلى الأمام، ولكنه اضطر إلى التراجع مجدداً حين أجبره ضابط أمني تحت تهديد المسدس على التوجه إلى سيارة منتظرة جانباً. وما إن صعد إليها حتى تحرّكت السيارة وانطلقت، ولكنها ما لبثت أن توقفت بغتةً على بُعد مئة ياردة، ثم تمّ رميه في قناةٍ فارغة من المياه. وحين وصلت إلى ضفة القناة، رأيت ليو في قعرها والدماء تنزف من رأسه وتسيل على وجهه.

ساعدني اثنان من الغجر في نقله إلى الطريق، وهناك اتصلت بجوانا من أحد أكشاك الهاتف التي كانت عاملة لحسن الحظ. كان أول ردّ فعلٍ لها هو القول: «ماذا فعل!؟». وصلت جوانا إلى المكان بواسطة سيارة لادا يمتلكها أحد جيرانها، فنقلناه إلى الرصيف، وأسندتُ رقبته. وهكذا، سالت الدماء الدافئة واللزجة ببطء من الجرح الصغير في فروة رأسه. جلست جوانا على الرصيف وأسندتْ رأسه إلى حضنها، بينما اتصلت بأوتيليا التي كانت في المستشفى الذي تعمل فيه. تركتُ لها رسالة باللغة الإنكليزية على أمل أن أتلقى رداً منها. وفي تلك الأثناء، كانت شفتا ليو زرقاوَي اللون، بينما كانت أنفاسه متقطعة وضعيفةً جداً. اضطررتُ إلى طلب خدمات أولئك الذين يهتمون بالأموات؛ إذ عجزتُ عن العثور على أشخاص يهتمون بالأحياء.

قال كامبانو: «سأفعل ما بوسعي». وسمعته يأخذ نَفَساً من سيجارته، ثم سمعت صوت قرقعة شيء معدني فوق إناء من القاشاني. ولو لم أكن أعرف أنه كان وسط عملية تشريح، وأنه يضع مشرطه على صحنٍ معدني، كنت سأعتقد أنه يضع شوكته وسكّينه جانباً ليرتاح بعد إنهائه وجبته. «إن ما تطلبه مني هو في الطرف الآخر من اختصاصي، وأنت تعرف ذلك... ولكنني سأفعل ما بوسعي».

وفي غضون دقائق قليلة، وصل كامبانو في شاحنة مقفلة تابعة للمشرحة. وكان قد أحضر معه نقالة، ومجموعة من الأكياس سوداء اللون القابلة للإقفال. تحسّس كامبانو يدَي ليو، ثم قال بعد أن فحص نبضه وأصغى إلى أنفاسه: «إنهما باردتان بالفعل. لم يتبقَ لدينا متسعٌ من الوقت... ».

فور وصولنا إلى المستشفى توجّهتُ لرؤية أوتيليا، فوجدتها واقفة إلى جانب نقالة جاهزة. كانت إحدى الممرضات واقفة هناك وهي تدخّن وتضرب الأرض بقدميها بسبب شدة البرد. وكانت الظلمة الدامسة قد حلّت تقريباً في هذا الوقت.

قالت أوتيليا: «تسلّمت رسالتك. كانت ديانا تدخن في المكتب وسمعتك. أحضِره إلى هنا». نقلنا ليو إلى النقالة، لكن المستشفى بدا مهجوراً كالمعتاد.

فور وصولنا، أخرجت أوتيليا سماعتها الطبية وأصغت إلى أنفاس ليو. لاحظتُ أنّها تهز رأسها قليلاً، غير أنها رفضت الاعتراف بهذا. ولم يرَ تلك الحركة أحد غيري. وأثناء نقل ليو، كانت جوانا تداعب شعره المغطى بالدماء، بينما ركّز كامبانو على توجيه النقالة عبر عددٍ لا نهاية له من الممرات. رفعتُ جفنيه عالياً، فظهر لي أن بؤبؤَي عينيه قد انتقلا إلى أعلى محجريهما، كما ظهرت كتلتان ساكنتان تماماً وبيضاوا اللون.

«إذا كان يعاني من جمجمةٍ مكسورة، أو من كسرٍ عميق، فإن الدماء التي نراها في الخارج ليست مشكلة، بل المشكلة هي ما يحدث في الداخل. أما إذا كان يعاني من نزيف فلن أستطيع معالجته، فأنا لا أستطيع فعل ذلك هنا... لأننا لا نمتلك الأجهزة المناسبة. وفي حال دخلت إحدى قطع العظم من جرّاء الكسر إلى أنسجة الدماغ فقد يكون الوقت متأخراً على أية حال؛ حتى لو لم تكن هناك فرصة لحدوث تلفٍ في الدماغ. لكنني لن أعرف ذلك إلى أن أنتهي من تنظيف

موضع الإصابة، ومسح الرأس من الدماء».

بعد ذلك، نقلنا ليو إلى غرفة العمليات. «سأجري صورة مسحية لمنطقة الإصابة، وسأعمل على جعل وضعه مستقراً. وإذا كنا محظوظين فستكون إصابته مجرد إصابة في الرأس أدّت إلى جرح أنسجة الدماغ، ونوع من أنواع الكدمات... ورغم أن المخاطر ستظل موجودة على أية حال، إلا أنني سأكون قادرة على مواجهتها. أما الخطر الآخر فيكمن في فقدانه كمية كبيرة من الدماء... ويُحتمل أنه سوف يكون بحاجة إلى نقل دم... ».

وعلى الفور، هزّ كامبانو رأسه قائلاً: «لا! لا... لا تستطيعين فعل هذا لأن الدماء لم تُفحص كما ينبغي. إذ تمتلئ المشارح بأشخاص يعانون من التهاب الكبد من جراء دماء ملوثة، وهناك عدد كبير من الناس الذين يموتون لهذا السبب أكثر من فقدانهم الدماء. وأنتِ تعرفين عن الإيدز أيضاً. ستكون محاولة القيام بذلك مخاطرة كبرى».

فقالت أوتيليا: «الأمر يعود لكما». وتطلعتْ نحو جوانا ثم نحوي قبل أن تتابع: «إنني أخبركما عن الخيارات المتاحة. نحن نمتلك الدماء، ولكن كامبانو محق لأنها لم تُفحص كما يجب نظراً إلى عدم امتلاكنا الأجهزة المناسبة لذلك... لذا، نحن لا نعرف إن كانت ملوثة أم لا. بل إننا لا نعرف أي شيء... ».

عندها قلت بعفوية: «افعلي هذا إذا كنتِ مضطرة». فتطلّعت جوانا إليّ، ولكنها لم تقل شيئاً، بينما أومأت أوتيليا.

أسرعت الممرضة بتجميع حقنة وريدية، كما أحضرت مروحة مدولبة وجّهتها إلى المكان الذي يستلقي فيه ليو، بينما أحضرت أوتيليا كمّامةً، ثم غرزت أنبوباً في ذراعه. وبعد ذلك، أشارت لنا لنغادر الغرفة، لكن كامبانو بقي. «سوف آتي وأخبركما بأي جديد». قالت ذلك وهي تقودني إلى الخارج. وكانت تلك أول

مبادرة ودّية من جهتها منذ اليوم الذي أخبرها فيه مانيا عن بيتر. أحضرت الممرضة بعض أكياس الدم على صينية. وبدت الأكياس ثقيلة ومنتفخة، بينما بدا الدم كثيفاً وداكن اللون.

سألتُ جوانا: «لماذا لا تعودين إلى الشقة؟ انتظريه هناك وارتاحي قليلاً، ثم رتّبي المكان وجهّزيه استعداداً لعودته. إنه بحاجة إلى شخصٍ ما ليكون معه. سأتصل بكِ حالما أعرف أي شيء».

«أتعرف أنني كنت على وشك التخلي عنه، وكنت سأخبره بهذا اليوم؟ كنت قد نويتُ ذلك منذ أسابيع، ولكنني لم أستجمع ما يكفي من الجرأة للتصريح بقراري». وهكذا، أجهشت يوانا بالبكاء، وغطّت عينيها بيديها. لم يكن قد سبق لي أن رأيتها تبكي من قبل، كما أنني كنت على الدوام معجباً بقدرتها على تحويل الحزن إلى غضب، وعلى تحويل سلبية الألم إلى طاقة هجومية. غير أن تلك القدرة فارقتها الآن. لم أقل شيئاً، بل فكّرت في ما يمكن فعله لتلبية احتياجات ليو إذا كان مرضه خطيراً، وإذا كان بحاجة إلى عناية دائمة. كان ذلك شيئاً يصعب تصوّره، ولكنه كان تصوّراً أفضل من الصورة التي افترضتُها؛ أي أن يرقد ليو ميتاً، وأن تُنقَل جثته على الحمالة إلى الخارج؛ مروراً بتلك الأبواب المزدوجة حيث تنتظر شاحنة كامبانو المقفلة. شعرت بالبرد وبالخوف، وجهّزت نفسي لحزنٍ آخر. لم أشعر بالخوف فقط، وأدركت أنه مع غياب ليو سيكون الشعور بالوحدة شاملاً.

«إنه رجلٌ يستحيل البقاء معه؛ فهو يخرج طوال النهار، أو يسهر طوال الليل منكباً على الكتابة. لا أعتقد أن حياتنا معاً ممكنة هنا. وهو لا يكترث إلا بكتابه والمدينة وسوقه السوداء اللعينة. لذا، هو دائماً يعقد الصفقات، ويلتقط الصور... لم يكن باستطاعتنا العيش معاً بصورةٍ طبيعية. ولهذا السبب أردت أن أخرج من البلد، وأنا أعتزم القيام بذلك ما إن يفتحوا الحدود، وربما قبل ذلك.

أخبرته بذلك، ولكنه لم يكلّف نفسه عناء رفع نظره عن مسودة كتابه، بل اكتفى بالقول «مممم... »، حتى إنه لم يكن يصغي إليّ. عندها، كرّرتُ كلامي ظناً مني أنه لم يسمعني في المرة الأولى، غير أنه كان قد سمعني، فقد قال: «اذهبي إذا أردتِ ذلك». أؤكد لك أنه لم ينظر إليّ. والآن، ها هو يرقد هناك وسوف يموت بينما كنت على وشك أن أهجره». ثم تمسّكتْ بذراعي بشدة وأضافت: «لقد اعتقدَ أنه يحافظ على وحدة المكان، وأنه هو الذي يتذكره، وهو الشخص الذي سيُعيده متماسكاً كما كان من قبل. ولكنه لم يفهم أنه ليس أكثر من متطفلٍ كبير يقوم بالتنقيب بين الركام. لقد ساء الأمر كثيراً بالنسبة إليه، لدرجة أنه بدأ يتخيّل أشياء لم يكن لها وجود أساساً، غير أنها كانت بالنسبة إليه أكثر واقعية منا نحن... ».

استلقت جوانا على المقعد الطويل ونامت. أما أنا فقد دخّنتُ عدة سجائر، وذرعتُ الممر ذهاباً وإياباً. فجأة، ظهر كامبانو وهو يتصبّب عرقاً بالرغم من برودة الطقس، وراحت أصابعه ترتعش فيما كان يدخّن سيجارته. كان شعره مبللاً وأشعث، أما كمّاه فكانا مرفوعين إلى ما فوق مرفقيه.

«لقد تمكّنتْ من إزالة الضغط عن دماغه، وأجرتْ له عملية جراحية، وأوقفت النزيف. تبيّن وجود كسرٍ في جمجمته، ولكنها سوف تتعافى. إنه يتجاوب جيّداً مع العلاج. يعاني ليو أيضاً من كسرٍ في الكاحل، ولهذا سوف يضطر إلى استخدام كرسي متحرك عند خروجه من المستشفى. لن يستغني عن الكرسي لفترةٍ من الوقت».

سألتْ جوانا: «أيمكنني رؤيته؟». فأومأ كامبانو وقال: «لا تتوقعي الكثير؛ لأنه لن يستعيد وعيه قبل مرور عدة أيامٍ. وعندها، لن يستطيع فعل الكثير. اذهبي». ثم التفت نحوي وقال: «كاد يموت هناك في الداخل. وكان من الممكن أن أنقله بنفسي إلى المشرحة لشقّه. لكنني هنا لأخبرك أنه يجب عليك أن تهتم به

وترعاه، وتساعده في... حسناً... العودة إلى طبيعته». ثم ابتسم كامبانو بتكلّفٍ وتابع: «في مجال عملي، أنا لا أمتلك ما يكفي من الأسباب التي تجعلني أثق بحصول الأعاجيب، إلا أن ما فعلته أوتيليا في الداخل هناك يعتبر أعجوبة؛ ولا سيما في هذه الظروف. فما فعلته غير قابل للتفسير من الناحية الطبية... ».

بعد قليل، خرجت أوتيليا لكي تراني، وكان معطفها الأبيض ملوثاً بالدماء، وخصلات شعرها ملتصقة بجبينها. كنتُ محتاجاً إلى قسطٍ من النوم، وكان خوفي وحده هو الذي أبقاني مستيقظاً. لذا، عندما تلاشى خوفي، سيطرت عليّ حالة من الظلمة المريحة التي لا يمكن تصوّرها. «سوف يكون بخير، لكن من المستحسن أن يُنقل إلى مكانٍ آخر بعد أن يقضي أياماً قليلةً هنا. خذه إلى منزلك، وسوف آتي لفحصه عندما أستطيع». وقادتني إلى الغرفة التي يرقد فيها ليو فاقداً الوعي، ومربوطاً بشبكة من الأنابيب والحقن الوريدية. كان أحد الأجهزة في طرف الغرفة يصدر أصواته بصورةٍ منتظمة. انحنيتُ فوق ليو ولمستُ وجهه الذي كان أدفأ من ذي قبل، وبدا لي أنه يبذل جهداً للتعافي. سألتُ: «أين جوانا؟». وأردت بسؤالي هذا مشاركة جوانا بعض الارتياح الذي أشعر به، وأن أرى شعوري منعكساً على وجهها. بحثنا عنها، ولكننا لم نعثر عليها.

بعد ذلك، نُقِل ليو إلى غرفة كانت أقرب ما تكون إلى غرفة انتظار، وليست غرفة للعناية المشدّدة بالمرضى. وكانت الغرفة مكاناً حيث يتلقى المرضى العلاج، ثم يخرجون لمواجهة صراعٍ جديد وهم أقوى، وأفضل، وأكثر قدرةً على المقاومة. أما في الممرات المهجورة، فكانت عدوى الأمراض تتجول خفيةً، وكذلك الحشرات والفيروسات التي تبحث كلها عن جسدٍ جديد لتستقر عليه، وتنشب فيه أنيابها. وهكذا، كانت أماكن صيدها تتجدد باستمرار.

بعد مرور ثلاثة أيام، فتح ليو عينيه، وأمال رأسه في البداية نحو اليسار، وحيّاني بيدٍ مرتجفة. ثم مال برأسه إلى اليمين حيث كانت أوتيليا جالسة ومنهمكة

بالقراءة. استند ليو على مرفقيه، ورفع نفسه إلى المستوى الذي يمكّنه من رؤية الأشياء.

قال ليو بصوتٍ متشائم: «يا إلهي... إذا كنت حياً، وأنا أشك في ذلك كثيراً بعد أن تطلعت حولي، فإنني أطلب منكما أن تخرجاني من هنا قبل أن أموت».

وبعد مرور يومين، نقلنا ليو إلى شقتي، وكان كاحله مغطى بالضمادات. عثر أوزيراي على كرسي متحرك من الخيزران، وكان من النوع الذي استخدمه المستوطنون البيض في الكونغو للتجوال في باحاتهم العشبية المبتلة بالماء. كانت مظلة من الحرير الرمادي قابلة للتعديل مثبتةً على إحدى ذراعَي الكرسي، بينما كانت منفضة سجائر ومكانان مخصّصان لوضع زجاجة وكوب على الذراع الأخرى. كان هذا الكرسي مناسباً جداً لليو الذي بدأ بالتجوّل وكأنه نابليون الجالس على كرسي متحرك أثناء استعراضه الجنود.

ذات يوم، زارتني تلميذتنا جوليا، واصطحبَته في جولة أطلقت عليها وصف قيادة تجريبية. ثم أتت في اليوم التالي، وفي كل من الأيام التي تلته.

عرف ليو أن جوانا قد تركته قبل أن نعرف نحن ذلك، كما عرف أيضاً أنها تركته إلى الأبد. وهكذا، عندما توجّهتُ إلى شقتهما لكي أُحضر له أغراضه لم أجد شيئاً من أغراضها. لم أعثر على رسالة وداعية، ولكنني أعتقد أن أي وداعٍ حدث بينهما لا بد أنه جرى في المستشفى؛ فقد أرادت توديعه. أما هو فقد فهمَ حقيقة ما جرى؛ سواء أحصل ذلك عن طريق الاستيعاب غير المباشر، أم عن طريق التحوّل الذي طرأ على مزاجه. وهكذا، لم يذكرها بعد ذلك.

تكيّف ليو مع حياته الجديدة على كرسيّه المدولب، كما عاد إلى العمل بعد تمضيته عدة أيامٍ متجوّلاً في الشقة ومدخّناً ومتناولاً الشراب. كان يفعل ذلك في البداية على دفعاتٍ قصيرة؛ بسبب الألم الذي شعر به في رأسه وبسبب التركيز.

ولكن، مع استعادته قواه، بدأ يطلب القيام بنزهاتٍ ليلية قصيرة، فكنت أدفع كرسيّه، بينما يقوم هو بتدوين ملاحظاته على دفتر مونوكوم. كانت النزهة الأولى التي قمنا بها إلى الموقع الذي كان الدير يحتله قبل هدمه. رأينا حلقة مستوية من التراب وفارغة، محاطةً بشرائط مقصوصة راحت تتراقص مع النسائم.

اعتادت أوتيليا على زيارتنا كل يوم. وكانت تمكث لفترة أطول ممّا تتطلبه العناية التي يحتاج إليها ليو. لاحظتُ أن هناك شيئاً قد تغيّر فيها. انتزعنا الرصاصة بعد مرور عشرة أيام، وساعدنا ليو في الاستحمام. كان شبه ثمل ومشاكساً ويصعب تحريكه، فبدا كما لو أنه ولد مشاكس يبلغ وزنه حوالي 90 كلغ. وبعد أن ساعدناه على ارتداء ملابس النوم، استسلم ليو للرقاد، فأطفأنا المصابيح، وانسللنا إلى خارج الغرفة كاتميْن ضحكاتنا.

عادت إليّ أوتيليا تدريجياً؛ تماماً مثلما ابتعدت عني. عرضتُ عليها النوم في سريري ولكنها رفضت ذلك، وتوجهتْ بعد ذلك إلى غرفة المعيشة. في تلك الليلة، سمعتُ أنفاسها وشعرت بأنها ليست نائمة، ولاحظت أنه عندما يفتح المرء عينيه في الظلمة، فبإمكانك أن تسمع صوت أنفاسه. وحين لمستُ وجهها، قرّبتْ يدي إلى فمها.

«لماذا تركتِني؟».

«أعتقد أنني كنت ألومك، ولكن ليس بقدر ما ألوم نفسي. فقد فكّرت في بيتر، واعتقدت أنه كان من دون أخطاء ولا عيوب، أي كان إنساناً مثالياً. اعتقدتُ أنه بريء ورجل مبدأ، لذا لم أتمكّن من لومه على كل ذلك. ولهذا السبب وضعت اللوم علينا لأننا اعتقدناه كذلك».

«اعتقد الجميع أنه كذلك، وقد كان كذلك بالفعل، إلا أنه كان شيئاً آخر أيضاً».

قبل أسابيع قليلة، كانت مثل هذه التعليقات لا تستجلب إلا السخرية. «أعرف ذلك الآن، وقد حاولت أن أبقى طاهرة وبعيدة عن كل ذلك، وكنت ألومه على ما هو عليه، لكنني فشلت. حاولت ألا أتهاون، وأن أحسب لكل شيء حساباً؛ ليس بالنسبة إليّ على أية حال، بل بالنسبة إليه. ولكن، كان ينبغي لي أن أدرك ما يجري مع كل الوقائع التي قُدِّمَت لنا، وأن أتنازل قليلاً هنا، وأكسب قليلاً هناك... ».

«أنتِ تتكلمين مثل ليو».

«أنا! ربما... يُحتمل أن الوقت قد حان لأفعل ذلك قليلاً... ».

«يضطرّ الجميع إلى التنازل. كلنا هكذا، وبيتر كان سيكون كذلك من دون العمل لصالح قسطنطين، والمسألة هي الدرجة التي وصل إليها ذلك العمل».

«هل أنت مهدَّد؟ لا أعتقد أنك كذلك». والتفتت نحوي عابسةً وكأنها تفكّر في هذه المسألة للمرة الأولى.

«ماذا تعنين؟ هل كانت هذه مجاملة؟ يُحتمل أنه يجب عليّ أن أكون مُهدَّداً، ويُحتمل أن هذه مشكلتي».

«هذه هي المشكلة بالضبط. ولكي تكون مُهدَّداً يجب أن تمتلك حصة في الأشياء، ويجب أن يكون لديك شيء تخسره وشيء تربحه، وعليك أن تخاطر بنفسك، لكن ليس في كل الأوقات. لكن، عليك أن تمتلك ما يكفي من الوقت لتقييم الأشياء من أجل وضع المبدأ فوق الحفاظ على الذات، والمكاسب، والخسائر... إنكَ لا تمتلك كل هذا. إنك لا تملك أي حصة في أيٍّ من هذا».

«إنكِ تؤذينني بهذه الكلمات. فأنا أمتلك حصةً في كل شيء الآن؛ ليو، وتروفيم، ووظيفتي... لكنني لا أمتلك أي شيء خارج ما هو لي هنا. وهناك أنتِ، أليس

كذلك... ؟». بدأتُ بالتلعثم، فقبّلتني واستدارت، ثم ضغطت بجسدها على جسدي، ووضعت يدها على فخذي. «أليس كذلك؟».

الفصل السابع

عدتُ في ليلة التاسع من شهر تشرين الثاني من نزهة قمتُ بها مع ليو لأجد أوتيليا منحنيةً فوق جهاز الراديو. كانت تصغي السمع إلى شخصٍ يتحدث وسط ضجيجٍ شديد. وكان الضجيج يتقطع مع اهتزاز علبة جهاز الراديو الذي يلتقط الإذاعات التي تبث على الموجة الطويلة.

كان الصوت صوت هرجٍ ومرج، ولكنه هرج ومرج ناجم عن شدّة الفرح. وكان أحد المراسلين يحاول رفع صوته ليعلو على الأصوات التي تفيض سعادة. توقّف الرجل عن الكلام عدة مراتٍ للسيطرة على مشاعره. وهكذا، توزّعت كلماته عبر مجموعة من الجُمَل غير المكتملة قبل أن يبدأ مُجدداً. وقد أدّى التشويش الصادر عن جهاز الراديو، والذي ترافق مع الضجيج الصادر عن الأقمار الصناعية الرومانية المخصّصة للتشويش إلى فقداننا أجزاء مهمّة من الحديث.

كنّا نستمع إلى الاحتفال بسقوط جدار برلين، ورأينا سكان برلين الشرقية وهم يهوون على الجدار الإسمنتي بفؤوسهم ومطارقهم، بينما حمل بعضهم الشوَك والسكاكين، أو حتى هاجموا الجدار بأيديهم العارية وأظافرهم، وما لبث الجدار أن تهاوى تحت وقع ضرباتهم، فقالت أوتيليا: «سوف يُقتلون جميعاً». وفي هذه الأثناء، قال المراسل إن رجال الشرطة يقفون متفرجين، وإن حرس الحدود مصابون بالشلل أمام هول ما تراه أعينهم؛ وعلى الأخص بعد أن تلقوا للتو أمراً بالتنحي جانباً. كما أن بعضهم بدأوا بالصراخ مع الجمهور تعبيراً عن فرحتهم. وهكذا، لم تصمد السنوات التي قضوها في الخوف، وفرض هذا الخوف، ولم تعد تعني شيئاً.

عبّرنا أنا وليو عن فرحتنا بهذا الحدث، بينما كانت ردة فعل أوتيليا مختلفة؛

لأنها كانت تعتقد فعلاً أنهم سوف يُقتلون، وأن الدبابات سوف تملأ الساحة في أية لحظة. بدا لها المشهد وكأنه يحدث أمامها في الواقع، وذلك بسبب عجزها عن تصوّره. إذ لم يكن سقوط الجدار شيئاً واقعياً بالنسبة إليها؛ حتى إن سمعته وهو يتهاوى. وقد تطلّب الأمر من ليو استخدام خبرته بأجهزة التلفزيون والإشارات السلكية لتتمكن أوتيليا من مشاهدة الصور الحية مباشرة من برلين.

قدّم رئيس ألمانيا الشرقية إيريك هونيكر استقالته، وهو الذي كان قد زار بوخارست في شهر أيار. تذكّرتُ أنني رأيت موكبه المؤلف من السيارات السوداء اللامعة أثناء انسيابها مثل الزيت الذي يشق طريقه فوق الماء. يُضاف إلى ذلك أنه استقبل تشاوشيسكو في برلين الشرقية قبل أسبوعين من الزمن. وفي ذلك اللقاء، تبادل الرجلان المجاملات الأخوية والمحادثات؛ بوصفهما زعيمين يديران دفة الأحداث في بلديهما. لكن هونيكر ترك الآن الحياة السياسية، وهذا يعني أن المسألة مسألة وقت قبل أن تتحوّل هذه الاستعارة البحرية إلى سفينة محطمة وحطامٍ عائم...

استمر عرض الأخبار طيلة الليل، وقام أحد ممثلي هوليوود الذي يحمل اسماً ألمانياً، وهو نجم برنامج يُعرَض في وقت ذروة المشاهدة التلفزيونية، ويقوم بعرض برنامج عن المنقذين في كاليفورنيا، بتسلّق الجدار. وفي هذا الوقت، قامت إحدى الرافعات برفع مهرّج إلى أعلى الجدار، فبدأ بالغناء بطريقة سيّئة وغامضة لدرجة أن سكان برلين الشرقية المتجمهرين لتحطيم الجدار الإسمنتي توقفوا للحظاتٍ عديدة متطلّعين إليه بعبوسٍ شديد. عندها، أومأ ليو بطريقة فلسفية وقال: «هذا ثمن الحرية... » وما لبث أن انتزع حلقة غطاء علبة من الشراب ورفعها في الهواء ثم صاح: «نخب الحرية!».

حمل صباح العاشر من تشرين الثاني معه سُحُباً رماديةً، ورياحاً قارسة، كما عاد رجال الشرطة إلى مراكزهم الأساسية. لكن، عندما نادى بائع صحيفة سينتيا:

«اقرأوا كل شيء... العالم يتطلع مندهشاً... اقرأوا كل التفاصيل!». جمُدنا في أماكننا، وانتظرنا ما سيحدث بعد ذلك، وركّزنا أنظارنا على الصفحة الأولى. هل قامت صحيفة سينتيا بتغطية أخبار سقوط الجدار؟! «اقرأوا كل التفاصيل!» قال البائع بسخرية ظاهرة: «تم تدشين الجرار الجديد لرومانيا بنجاح في معرض ألبانيا الزراعي».

عندها، أطلق ليو شخرة عالية، وتوجّه بكرسيّه المتحرك نحو السيارة.

سأل بائع صحيفة سينتيا: «ماذا حدث يا رفيق؟ أولاً التشيك ثم الكروات... لن يطول الأمر قبل أن يبدأوا بنشر بعض الأخبار الحقيقية هناك... » وحرّك رأسه نحو المسلّة الإسمنتية العظيمة الموجودة في مبنى كازا سينتيا حيث تتم كتابة مقالات الصحفية وتحريرها، ثم مراقبتها، وطباعتها في مبنى ضخم مشيّد على الطراز السوفياتي.

أسرع ليو إلى مخالفة البائع في الرأي وقال: «لو كنتُ أنا الرفيق الأول، وتعذّر عليّ حضور إحدى حلقات كوجاك بسبب انهيار اشتراكية ألمانيا الشرقية فلن أفكّر وأقول: حسناً، ربما كنتُ مخطئاً بشأن هذه الشيوعية، ويُحتمل أنه يتعيّن عليّ إعادة النظر بشأن حقبة التنوير، ويُحتمل أنني أحتاج إلى إجراء انتخاباتٍ حرة... كل هذا هراء! بل سأقوم بتسريع الأمور، وسوف أواجههم بطريقة أقوى وأسرع وأقسى. وهذا ما يفسّر سبب كون الفترات الأخيرة لهذه الأنظمة اللعينة أكثر دموية، وأشد قذارة، وأعظم خطورة. أتذكرون ما قاله تشاوشيسكو الأسبوع الفائت؟ لقد قال: فعل ستالين كل ما كان يتوجب على رجلٍ في مثل مركزه فعله».

بدأ المؤتمر الرابع عشر للحزب في أول يومٍ من شهر كانون الأول. وقد امتلأت الفنادق بالمندوبين من دولٍ ومنظماتٍ صديقة. وهكذا، خيّم الشيوعيون

اليونانيون خارج فندق أثينيه بالاس مع الفرنسيين والصرب ومختلف أتباع أجنحة الستالينية الحديثة الذين جاءوا من مختلف أنحاء دول الغرب. أمّا الأفارقة فقد تجمّعوا كلهم في فندق الانتركونتيننتال الذي امتلأ بالأثيوبيين والتنزانيين والأنغوليين وغيرهم. وكان عددٌ كبير منهم لا يزال متورطاً في نزاعات لم تُعرَف تفاصيلها على وجه الدقة. وعلى الأخصّ، عندما يتبادلون اللكمات، أو يشرعون في البصق على بعضهم بعضاً في الممرات المعتمة. كانوا يتعاركون بسبب عدة أمور؛ الحدود، والمجال الجوي، والحظر التجاري المتبادل.

كان هذا الوقت بالنسبة إلى النافذ باندار، وزعيم القوّادين إيلي، أكثر أوقات السنة انشغالاً. وكان يجول مع موكبه على الحلقات الاجتماعية من أجل تأمين خدمات الجنس والمخدرات. كما كانت محطات القطار في بوخارست تمتلئ بالفتيات اللواتي يأتين من القرى من أجل تلبية الطلب المتزايد على العاملات في مجال الجنس. كان إيلي يكسب من المؤتمرات الدولية والمؤتمرات الحزبية مبلغاً يزيد عن مدخوله على مدار السنة بأكملها؛ وهو الأمر الذي يجعل من بوخارست بمثابة حاضنة ضخمة للأمراض التناسلية بسبب احتكاك الفتيات المحليات مع الغرباء. قال ليو إن الأمراض التناسلية قد حقّقت الشيوعي الحقيقي عند كل شخص، لأنها الشيء الوحيد المشترك بين الجميع.

لكنّ المدينة كانت ساكنةً في صميمها، فقد استمرت الحوّامات في القيام بدوريّاتها الجوية طوال الليل، واستمرّت حِزم الأنوار أسطوانية الشكل بالتنقل في أرجاء السماء وإنارة الشوارع الخالية في طريقها. أما الأمور التي كان قباطنة الطائرات يرونها فكانت على الشكل التالي: مدينة باردة وخالية من السكان، والتي تشبه حلقات الأسيجة فيها دوائر مناظير البنادق، وحيث يقع المقر الرئيس للحزب.

سيطر الجليد على كل مكان، وكان أشبه ما يكون ببساطٍ من المسحوق الأبيض

في أوقات الصباح المبكرة. كما بدت الأشجار متألقة بثمارها الجليدية. كانت بواكير الثلج بطيئة في التماعها باللون الأبيض، ولكنها سرعان ما ذابت وتحوّلت عند الظهر إلى وحلٍ لزجٍ رمادي اللون على الرصيف. «إنها بذار الثلج الأولى». هذا ما قاله لي بائع صحيفة سنتيا في صباح الافتتاح العظيم لمؤتمر الحزب. وقد شبّه الرجل الثلج بالبذار، وهكذا تبقى اللغة اليومية للناس قريبة جداً من الأرض، حتى إن كان الأشخاص الذين يتكلمونها قد اقتُلعوا من أراضيهم ونُقلوا إلى تلك الحجرات الإسمنتية. ازدادت كثافة الثلج في اليوم التالي، وانتشر بساط كثيف أبيض اللون فوق المدينة، ووصل حتى قصبة الساق. أما في ساحة الجمهورية، فقد بدأت آليات جرف الثلوج عملها في تجميعه، تاركة خلفها طبقةً من الملح والحصى. في حين أن المتنزهات العامة كانت خالية.

وفي يوم الثالث من كانون الأول، أقامت السفارة العراقية حفلاً بمناسبة إطلاق الترجمة العربية لكتاب تشاوشيسكو الاشتراكية والمجتمع العلمي. فقال ليو متفاخراً وملوّحاً ببطاقة الدعوة المزخرفة التي حملها بيده: «الحفل الأكثر إثارةً في المدينة».

أنزلتُه من السيارة بمساعدة أوتيليا، ثم ذهبنا إلى دار سينما قصر النور لمشاهدة فيلم بونويل سحر البورجوازيين؛ وهو فيلم سياسي ساخر وسوريالي يدور حول الرأسمالية، ويشبه كثيراً أفلام السخرية والسوريالية التي تدور حول الشيوعية. يبدو أن هذا الفيلم قد تمكّن من اجتياز حاجز الرقابة الرومانية بفضل مكانة المخرج السياسية، وليس بفضل مضمون الفيلم. ويبدو أن الشخصيات كانت أقرب ما تكون إلى أعضاء المكتب السياسي في الحزب، وزوجاتهم، والمتخمين بأطعمة كابسيا. أما ثرثراتهم السطحية فكانت تُطلِق الأشياء الوحيدة التي يفكرون فيها بعمق، أو على أقل تقدير الأشياء الوحيدة المتأصلة فيهم؛ ألا وهي الجشع الخنزيري، والخوف، وضحالة الروح.

كان المدرّج مسرحاً قديماً مزوداً بمقاعد مخملية مبقعة، وكذلك بمنافض سجائر مزخرفة برسوم من الفن الحديث، وموجودة على جوانب تلك المقاعد. لكنّ مشاهدة الأفلام كانت تتم وسط رائحة الكارباتي التي نادراً ما كانت تتغلب على رائحة فصوص الثوم التي يقوم المشاهدون بمضغها. إن هذا الفيلم يُثير ردة فعلٍ بكل تأكيد، ولكنني أشكّ كثيراً بأن تسمح الرقابة بعرضه مجدداً.

تعالت هتافات الترحيب من الجمهور المؤلف من الطلاب والعمال عندما تم إطلاق النار على البورجوازيين، غير أنهم أطلقوا صيحات احتجاج عند مرور الطعام الفاخر في تلك الأفواه البورجوازية في مشهدٍ إثر آخر من مشاهد الولائم الفاخرة. وتصاعدت في الطرف الآخر من دار العرض صيحات تقول: فليسقط الخنازير، وتشاوشيسكو مصّاص دماء. وعندما ظهرت على الشاشة سيدة بغيضة وهي تتناول حساءها، ارتفع صوت رجل يقول: «إيلينا! هيّا أسرعي، فالوجبة التالية قادمة!». وهكذا، راحت الضحكات تدوّي بأصواتٍ عالية.

انفتحت أبواب دار السينما على نحوٍ مفاجئ، ورأينا عند المداخل المضاءة رجال أمن يدخلون ويسدّون المخارج. وتصاعد صوتٌ صارخٌ من بين المتفرجين: «عودوا إلى أوكاركم!». فيما ضحك آخرون وصاحوا: «جرذان»، «نازيون»، «لصوص». وما لبثت الأبواب أن أُغلِقَت فابتهج الناس، لكنّ البسطاء منهم فقط هم الذين اعتقدوا أن رجال الأمن قد غادروا. فبعد انتهاء عرض الفيلم، قام رجال الأمن بتمشيط الممرات، طالبين رؤية بطاقات الهوية. غير أنّ عدداً قليلاً من المحتجّين استمر بالصراخ بعد إنارة دار السينما. فجأة، اقترب أحد الشبان من رجلَي أمن كانا واقفين عند المدخل، وتحدّاهما ملوحاً بذراعيه، وملوّحاً بما بدا أنه بطاقة حزبية.

كان ذلك الشاب هو إليانو، أحد تلاميذي، وعرّيف الصف. وبدا كما لو أنه يعاني من صراع مفاجئ بين تغيير المبدأ والنوبة العصبية. «لماذا تفعلان ذلك؟ هل

هذه هي الاشتراكية؟». كان الشاب يرتعش من الخوف والغضب، ويلوّح ببطاقته الحزبية أمام وجهيهما متسائلاً: «هل الاشتراكية هي القيام بدورياتٍ في دور السينما؟ هل الاشتراكية هي نشر الخوف تحت إشراف الدولة؟ هل هذا ما أراده لينين؟».

كان ذلك هو الشاب الذي ساند خط الحزب في كل النقاشات؛ بدءاً من الدور الاشتراكي للأدب، ومروراً باستخدام الوصف في القصيدة. وهو الشاب الذي كان ينتقد ما يقرأه قبل قراءته، وينقّح أفكاره قبل التفكير فيها. ولكنه الآن يخاطر بإلقاء القبض عليه، ويغامر بطرده من الحزب وبخسارته الوظيفة المخصّصة له. سارعت إلى التربيت على كتفه. لم يعرفني في البداية، ولكنه أغمض عينيه ودفع أوراقه نحوي، ثم تقدمته إلى خارج السينما حيث الأمان.

أدركت أنني لم أعرف اسمه الأول، وأنه كان واحداً من أولئك الناس الذين يبدو أن لا اسم أول لهم، والذين لا يقتربون من أي شخص آخر؛ حيث لا يحتاجون إلى ذلك الاسم. قلت له: «أوليانو. أتريد أن نصطحبك إلى مكانٍ ما؟».

تطلع الشاب نحوي بشرود، فقالت أوتيليا: «يبدو أنه واقعٌ تحت تأثير صدمة. مَن يكون على أية حال؟ وما هي هذه الشارة السخيفة الظاهرة على سترته؟». تفحّصت أوتيليا شارة شباب الحزب التي يحملها، ثم قادته عبر الأبواب المزدوجة لقصر النور. كان رجال الشرطة يحثّون الناس على التقدم بمساعدة الكلاب. أجلسْنا أوليانو في السيارة، ثم أخرجت أوتيليا الشراب الذي تستخدمه في حالات الطوارئ، ووضعت القليل منه في فمه. ابتلع الشاب الجرعة على الفور وسعل، ثم أصدر أنيناً خافتاً. وبعد ذلك، نظر إلى خارج السيارة، ثم نظر إلينا، وبدا وكأنه يرانا للمرة الأولى في ذلك المساء.

قلت له: «أنا آسف يا إليانو. إنني لا أعرف اسمك الأول. يبدو لي أنك واجهتَ

أول أزمة مبدأ كبيرة وعلنية في حياتك».

وقالت أوتيليا بشيء من السخرية العفوية: «هذا ما يحدث في الأساس عندما تعتنق مبدأً ما. إنها مرحلة تجاوزها معظمنا». انعطفت أوتيليا بالسيارة فجأةً لتتفادى الاصطدام بمجموعة من عربات التسوق التي اندفعت إلى الطريق مثل قطيعٍ مرتبكٍ من الماشية. فقد تعرّضت واجهات متاجر مونوكوم للتكسير، وبدأ الناس بنهبها، بينما وقف رجال الشرطة يتفرجون. رأيتُ على بُعد أبواب قليلة نيراناً تشتعل في متجرٍ لبيع الكتب تابعٍ للدولة.

بدا ليو متوتراً وثملاً عند وصولنا إلى المركز العربي، وأشار بإصبعه إلى ميناء ساعته وقال: «ما الوقت الآن برأيك؟». ثم فتح باب السيارة وأضاف: «وماذا يفعل لينين الصغير هنا!؟».

هدأ ليو قليلاً عندما أخبرناه بما حصل، لكنّ أوليانو وجد صعوبة في التغلب على خوفه الطبيعي من ليو، واعتبر أنه يمثّل الرأسمالية الفاسدة. يُضاف إلى ذلك أن أوليانو قد أمضى أشهراً عديدة في الإبلاغ عن نشاطات ليو، كما أرسل تقارير عن محاضراته. تنفّس ليو الثمل في وجه أوليانو، وأحاطه بذراعه، ثم دفع زجاجة من الشراب نحو شفتيه. لم يتمكن الفتى من تحديد طبيعة شعوره؛ أهو الخوف أم الخجل؟

سأل ليو: «أين تسكن يا رفيق؟ سوف نقوم بإيصالك إلى بيتك».

«لا، هذا ليس ضرورياً. يمكنني الوصول إلى منزلي سيراً على الأقدام».

«هذا هراء يا رفيق. أعرف أين تسكن، ومنزلك يبعد مسيرة أربعة أميال. تعرف أنه لا وجود للحافلات أو القطارات في هذه الساعة من الليل، كما أنني سوف أتضايق إذا اتّهم أحدهم ليو بعدم مساعدة أحد أعضاء شبيبة الحزب». ثمّ تمتم ليو بعنوان أوليانو، وكان يُقيم في مجمّع عادي بين المجمّعات التي يسكنها

الحزبيون من الدرجة الوسطى. كانت الحياة أفضل هناك، ولكن ليس بنسبة كبيرة، أو بما يكفي.

قال ليو مقهقهاً: «أترى؟ إننا نمتلك جميع الوسائل لجمع المعلومات أيها الشاب. والآن، اذهب وقل لوالديك إنك بأمان... في الوقت الحاضر... ».

راقبنا أوليانو أثناء اختفائه وسط العتمة التي بالكاد أنارتها مصابيح الشوارع الخافتة بقوة أربعين «واط».

سألتُ: «ألا تعتقد أنك كنتَ قاسياً معه بعض الشيء يا ليو؟».

وأضافت أوتيليا: «كان ما فعله من باب الجرأة، وربما بسبب الجنون. لكنّ ذلك تطلب منه جرأة كبيراً... ».

أسند ليو جبهته على زجاج نافذة السيارة وقال: «يُحتمل... يُحتمل أنه كذلك. يُحتمل أن يصبح أوليانو بطل الثورة، من يعرف؟ لكنّ ما أعرفه هو أنه على مدى السنتين الماضيتين كان هو الذي نقل كلّ ما يُقال في الصف، وهو الذي كان ينصب أفخاخاً لرفاقه ويوقِع بهم... مَن سوف يعوِّض رفاقه عن مقاعد الدراسة التي حرمهم إياها؟ ومَن سوف يمحو كل تلك العلامات السوداء التي وضعها في ملفاتهم؟».

«لكنّه على الأقل كان يقوم بما اعتقد أنه صحيح في النظام، أو بما كان يعتقد أنه كذلك... » بدأت أوتيليا تأخذ جانب الدفاع عن أوليانو، ولكنّ ليو لم يسمح لها بالذهاب بعيداً في هذا الاتجاه.

«وهل هذا يجعل الأمور أفضل؟ هل يُفترض بي أن أسامحه فقط لأنه كان مقتنعاً بما كان يقوم به؟ وهل يجعله هذا أفضل من الأشخاص الذين يفعلون ذلك من أجل منفعتهم الشخصية؟».

تطلعت أوتيليا إليه عبر مرآة الرؤية الخلفية وقالت: «أجل، أجل. أعتقد ذلك».

جاء صوت ليو متوتراً وموحياً بالملل: «ليس هذه المرة... الاقتناع أو عدم الاقتناع... كم مرة فكّرت في هذه المسألة، وكم من الناس ناقشتها معهم. هل من الأفضل لنا أن نفعل أشياء خاطئة للأسباب الصحيحة؟ أم نفعل الأشياء الصحيحة للأسباب الخاطئة؟ لكنني حسمتُ المسألة منذ زمنٍ بعيد، ولن أغيّر رأيي الآن. فأنا مع الذين يقومون بأشياء سيّئة من أجل المصلحة الشخصية؛ لأنّهم عندما تتغيّر مصالحهم يغيّرون ما يقومون به. إن المسألة بهذه البساطة. أما بالنسبة إلى الآخرين، فيمكنكم أن تتطلعوا حولكم... ».

«هذه هي الحذاقة في الكلام يا ليو، أو الهراء إذا كنت تفضّل هذه الكلمة. وأقول ذلك لأنك تدير أكبر، أو عفواً، ثاني أكبر مؤسسة فاسدة في المدينة، وقد أقنعتَ نفسك بأنها قوة من أجل الخير لأنك رجلٌ طيب، وبأنك تقوم بأشياء حسنة في دائرتك الضيقة، غير أن ما تقوم به يبقى كسباً غير مشروع يا ليو. إنك تجعل عدم الاقتناع والثقة بشيء ما فضيلة؛ لأن ذلك يساعدك على التعايش مع حقيقة أنك تعيش في نظامٍ تكرهه».

«هذا... النظام كما تسميه أنشأه متهوّرون مثل ذلك الشاب الصغير. وقد فعلوا ذلك عن طريق شارات الحزب واجتماعات الشبيبة الشيوعية... ».

«يُحتمل أن الأمر كذلك يا ليو. ولكنْ، عندما انتهى المتحمّسون من إنشائه سلّموه إلى المتشكّكين لإدارته، وهذا هو السبب في تمتّعك بكل هذا التساهل في السنوات القليلة الماضية».

فتح ليو فمه للرد بسرعة، ولكن لم يكن هناك أي شيء يمكنه قوله. إلا أنه ارتبك وشعر بالانزعاج لثوانٍ قليلة، وما لبث أن رفع يديه الاثنتين في إشارة إلى استسلامه.

كان ياسر عرفات هو الضيف المميز لآخر مؤتمرٍ عام للحزب الشيوعي الروماني. جلس عرفات في الصف الأمامي إلى جانب إيلينا ونيكولاي تشاوشيسكو الذي بدا نحيلاً وشاحباً، وظهر توتّره جلياً في نظرات عينيه. كان من الواضح أن سماعة الأذن التي يستخدمها كي لا يفوته شيء معطلة، أو ربما كانت تعمل بشكلٍ يفوق المطلوب. أدار تشاوشيسكو رأسه بحركاتٍ سريعة وغريبة وكأنه عصفور، ثم حرّك السمّاعة وانتزعها من أذنه وحدّق إليها.

تمكنتُ من التعرّف على عدة أشخاص من بين أولئك الجالسين خلف تشاوشيسكو، ومنهم بالين وزير التجارة وأفضل زبون عند ليو، وكذلك نائب وزير الخارجية، ووزير الطوائف، وبضعة أشخاص آخرين من ذوي المراكز الوسطى وحتى الرفيعة. جلس مانيا قسطنطين في منتصف الصف الثالث، وكان نحيف القامة وأنيقاً ومرتدياً بذلة تناسبه تماماً.

جلس الحاضرون بكل هدوء، من دون أن تعكس ملامحهم موجات الملل غير المرئية التي شعروا بها، وأنصتوا إلى الخطابات التي امتدّت ساعة من الزمن، كما كانوا يقفون ويلهبون أيديهم بالتصفيق الحاد. تضمّنت الخطابات أحاديث عن الجرّارات، والخطط الخمسية، والمحاصيل الوفيرة التي تقترب من حد الأعجوبة - إلا أنه لم تكن هناك أعاجيب - وعن التخطيط الاشتراكي العلمي الذي يؤتي ثماره، والاشتراكية العلمية. أما محور الخطابات التي أُلقيت في اليوم التالي فكان خطاباً بعنوان «عصر النور المنتشر»؛ وهو الخطاب الذي ألقاه وزير الثقافة، والذي شرح فيه كيف أنه تحت إدارة تشاوشيسكو تم تحسين كل جزء من السياسات الموضوعة، ورفع مستواها إلى أفضل مستوى ممكن. انتهى المساء مع جولة طويلة من التصفيق دامت نحو عشرين دقيقة، لكن تشاوشيسكو تجاهلها بتواضعٍ مصطنع.

بقي ليو في ثياب نومه بالرغم من انتصاف النهار، وقال لي: «اقرُصني». كان من

المقرّر أن يكون هذا اليوم هو الأخير الذي يقضيه في شقتي؛ لأنه بات قدراً على المشي والاهتمام بنفسه. ولكنه لم يُظهِر أي إشارة تدلّ على استعداده للمغادرة. «اقرُصني كي أعرف أنني لست في حُلم! إنني أعيش في عالم مثالي! إنني أعيش في عالم مثالي!».

سمعتُ صفيره في غرفة النوم التي طلب منا إخلاءها. وبعد قليل، خرج من الغرفة رجلاً عملياً وهادفاً، وبدا أنه تناول القليل من الشراب، وراح يعرج قليلاً. «أنا ذاهبٌ لأقول كلمة طيبة للينين الصغير، وسأُظهر لأوتيليا الحلوة أنني لا أضمر حقداً... » وانصرف ليو بعد ذلك ليبدأ يومه.

أُعيد انتخاب تشاوشيسكو بالإجماع في اليوم الرابع من المؤتمر. لكنّ كلمة إجماع هنا ليست دقيقةً. تفحصتُ صحيفة سينتيا بحثاً عن لائحة بأسماء أعضاء اللجنة المركزية، ورأيت فقرة صغيرة تتضمن دزينة من الأسماء التي لم يتمكن أصحابها من التصويت لأسبابٍ متعددة. فقد مات أحدهم في منتصف فترة انعقاد المؤتمر؛ فبعد أن شعر بألمٍ حاد في ذراعه اليسرى أثناء نوبة التصفيق الطويلة، مات داخل سيارته التي كانت من نوع داسيا بينما كان في طريق عودته إلى سناغوف. وهكذا، أصبح مايرون بناليسكو أحد أوائل ضحايا المؤتمر، ولكنه لم يوضع في خانة الشجعان، بل وُضِع في خانة المتواطئين والخائفين. غير أنّه عندما بدأت الثورة لاحقاً برثاء أبطالها وملاحقة خصومها، بدأتُ بالتساؤل عما إذا كانت قد تواجدت فئة من أمثال بناليسكو في هذا العالم؛ وهي فئة تطوف في فجوات التاريخ وكأنها ذراتٌ من الغبار؛ كمٌ كبيرٌ من الوسطية الرمادية المعذبة التي تصل إلى ما يفوق مجموع أجزائها، وذلك لأنها المكان الذي ينتهي إليه معظمنا.

أما الأسماء الأخرى في لائحة الذين تخلّفوا عن التصويت فلم تكن لأصحابها أية أهمية عندي، ولكنني عرفت الاسم الأخير: مانيا قسطنطين.

الفصل الثامن

أُفرِج عن أوليانو بعد أسبوعٍ من الزمن. ولكنه عندما توجّه إلى الجامعة اكتشف أنه خسر مقعده فيها؛ أي مثلما حصل مع الطلاب الذين تجسّس عليهم سابقاً. كان أوليانو يعرف ذلك الروتين جيداً؛ لأنه هو الذي تسبّب في حصول ذلك لغيره مرّات عديدة من قبل. وهكذا، سلّم بطاقته الجامعية، وأفرغ خزانته من أغراضه الخاصة. وخلال ذلك الوقت، سيطر الهدوء على ملامحه، كما تمكّن من تحديد هدفه. وبغضّ النظر عمّا تعرّض له في السجن فقد صنع منه رجلاً جديداً، ولم يحطّمه. حاول بوبيا - الرجل الذي كان مسؤولاً عن طرد أوليانو من الجامعة - عدم النظر إلى الضمادة فوق عينه، وإلى شفته المشقوقة، وإلى منظر الفتى الذي راح يُمسِك أضلاعه مع كل نَفَسٍ يتنفسه بسبب شعوره بالألم. لكنّ أحداً لم يتمكّن من تجاهل إحساسه بالكرامة الذي كان جديداً بالنسبة إليه، وكذلك كيف أنه بات يبدو أطول قامةً وأقوى، وأكثر ثقةً بنفسه.

كان ليو بانتظار أوليانو عند خروجه، فيما صوت محرك سيارته سكودا التي تقف فوق ثلج الصباح يهدر عالياً. وكان هناك رجلٌ كبيرٌ في السن يجلس على المقعد الخلفي معتمراً قبعته، وحاملاً صحيفة فرنسية بسطها أمامه فأصبح وجهه محجوباً.

وفى ليو بوعده بمعاملة أوليانو بطريقةٍ أفضل. وهكذا، عرّف أوليانو على تروفيم الذي عيّنه مساعداً له على الفور. وقد تمكّنّا على مدى الأسبوعين التاليين من ملاحظة التغيّر التام الذي طرأ على أوليانو. كان أوليانو في ما مضى جباناً يرسم المؤامرات، ويتلعثم مثل السياسيين الذين يجيدون شراء الوقت والتأجيل. وكان يضع نظارة ذات عدستين مربعتَي الشكل، ويدهن شعره بالزيت. أما سرواله

فكان قصيراً جداً، بينما يظهر رسغاه النحيلان من تحت كمَّي قميصه الواسع. لكنّ شعره الآن بدا مشعّثاً، كما بدأ بارتداء بنطال جينز وقميصٍ مفتوح عند العنق، فيما أصبحت عدستا نظارته مستديرتَي الشكل. وقد جعلته لحيته الصغيرة يبدو أقرب إلى تروتسكي الصغير منه إلى لينين الصغير. يُضاف إلى ذلك أن جسمه قد امتلأ، وبدأت عضلاته بالبروز.

بعد وقتٍ قصير، بدأ أوليانو بتدوين خطابات تروفيم، وبطباعة رسائله، ومرافقته إلى المناسبات العامة. وخلال هذه الفترة، قرأ أوليانو كتابات الاشتراكيين المنشقين من أمثال تروتسكي وفيكتور سيرج وروزا لوكسمبورغ وغرامسكي، كما أعاد تجديد أفكاره وأصبح حارساً فكرياً للشيوعية كما يُمكن أن تكون. لكنّ أوليانو لم يخسر ثقته بما يعتقده، بل اكتفى بتطوير ذلك.

وفي هذا الوقت، كانت التهديدات الموجّهة إلى تروفيم قد ازدادت، فبدأ بتلقي اتصالاتٍ تصف كيف ستوضع جثة زوجته لتنهشها الكلاب، وكيف أنهم سوف يأتون إليه لسلخ جلده حيّاً. كان الصوت يتغيّر في كل مرة، لكن لهجة التهديد بقيت ذاتها؛ مع توجيه كلام بذيء في كل ساعات الليل. لكنّ تروفيم تحمّل كل ذلك، حتى إنه صار يطلق الدعابات في ما يتعلّق بذلك، ويقول إنه صادف قدرة تخيّلية في هذه المكالمات الهاتفية أكثر من تلك التي صادفها خلال الأعوام العشرين التي تعامل خلالها بالأدب الرسمي. لكن تلك التهديدات أنهكته جسدياً، وقضّت مضجعه. وعندما قُطِع خطّه الهاتفي، بدأ المهدِّدون بالقرع على بابه، ووَضْعِ صور إباحية في صندوق بريده.

بدت كل تلك التهديدات مجردة، وبعيدة عن شوارع بوخارست. وفي هذا الوقت، انتشرت شائعات عن تنفيذ العمال إضرابات، وعن أعمال شغب لها علاقة بالمواد الغذائية، وعن انشقاقات متفرقة هنا وهناك. كما وردت أنباء عن إخماد تلك التحركات؛ مثل مداهمة المنازل عند منتصف الليل، ومداهمة

المستشفيات، والتهجير القسري، والاعتقالات العشوائية.

كانت الشيوعية تتهاوى، ولكننا لم نعرف ذلك آنئذٍ. انفتحت الحدود بعد هدم الجدار، وشاعت وعود الانتخابات الحرة، وتشكيل أحزاب جديدة، وتقديم المساعدات والبضائع الغربية، ولكنها لم تكن لنا. وإذا عدنا بالذكريات إلى تلك الأيام، فسنكتشف أنه من السهولة بمكان التفكير في أن كل حجرٍ سقط من سجن الشيوعية انفتحت معه ثغرة يدخل منها شعاع آخر من النور. يُحتمَل أن هذا كان المفهوم السائد في براغ أو وارسو أو برلين. أما في بوخارست، فكان ذلك تذكيراً لنا بأننا ما زلنا مسجونين، وأننا لن نشهد ما يكفي من النور. كان كل الارتياح الذي يحدث خارج البلد يجلب معه ضغطاً جديداً علينا. فالهنغاريون فتحوا حدودهم، لكنّ الرومانيين زادوا من التشدّد على الحدود. كما أرسلت ألمانيا الغربية المواد الغذائية والأموال إلى ألمانيا الشرقية. أما في هذا البلد فقد أُعلِنت أهدافٌ جديدة للتصدير، والتي من شأنها دفع الناس إلى المزيد من الإنتاج والحصول على مدخولٍ أقل. وقد وصلت الأمور إلى حدّ أن السوق السوداء قد تضررت أيضاً؛ وذلك مع إقفال أقنية السلع الواردة البديلة. وهكذا، لم يعد هناك مجال للاستفادة من الحدود العليا للحصص، ولا من أدنى حدود لأسعار السلع الموجودة بالفعل، ولم يعد بالإمكان إنقاص أي شيء، ولا مراهنات تسمح بالبيع أو بالمقايضة. كانت الكماليات لا تزال موجودة؛ وكأنها القشرة الملتمعة فوق مظاهر الحرمان، لكنّ المواد الأساسية نفدت في كل مكان.

وفي صباح 17 كانون الأول المثلج، فيما كنت ذاهباً إلى العمل رأيت موكب الرفيق الأول، أو واحداً من مواكبه الزائفة. كان الموكب مُسرِعاً نحو مطار أوتوبيني، وكانت السيارات تستخدم السلاسل المخصّصة للسير فوق الثلج الأسود. وكان الثلج الذائب يتساقط ببطء هنا وهناك على شكل كتل قبل أن يذوب على الأرض.

كانت أوقات الصباح الأولى تصيبني بالتوتر. لم أشاهد أحداً في الشوارع، لكنّ آثار الأقدام التي تقاطعت فوق بعضها بعضاً كانت تذكّر بوجود بعض ساعات الازدحام، وذلك عندما سار مئات الأشخاص أو ركضوا قاصدين أماكن عملهم، أو وقفوا بانتظار وسائل النقل العامة. كانت آثار الأقدام هذه تعطي شعوراً بالازدحام والعزلة في الوقت ذاته. ويُعتبر هذا الطقس مثالياً بالنسبة إلى الدولة البوليسية. وقد سألني ليو يوماً: «بعد أولى فترات التجمّد التي سادت العالم، أي الحرب الباردة، هل سبق لك أن فكّرت في سبب هذه التسمية؟». ثم أجاب عن سؤاله بالقول إن السبب لا يعود إلى كل ذلك الهراء عن العلاقات الباردة جداً القائمة بين الشرق والغرب؛ فالبردُ هنا هو السلاح، وهما يستخدمانه كما لو أنهما يستخدمان مسدساً أو مدفعاً مائياً... «أتذكر ما قاله نابليون عن تعرّضه للهزيمة على يد الجنرال منتصف الشتاء؟ حسناً، الشتاء هنا كان رجال الأمن... ».

أدى ميكو تحيةً صارمة أمام بوابات الجامعة، وبدا مرتعباً، لكنني فهمت السبب على الفور. إذ كان رجلا أمن جالسَين إلى طاولته، ويقومان بتفتيش الطلاب.

قرعتُ باب مكتب ليو ودخلت. «إنّهم يشدّدون الإجراءات الأمنية، كما أغلقوا قسم العلوم السياسية لمدة أسبوعٍ كامل. يُحتمل أن لهذا علاقة بزيارة الرفيق نيكولاي الرسمية إلى إيران. إنهم يشدّدون المراقبة كثيراً».

«وهل سيذهب إلى إيران؟».

«لا بد أنه أصيب بالجنون. لكنّ هذا ليس كل شيء. أتعرف من سيكون مسؤولاً عن البلد أثناء تناوله الفستق مع آيات الله؟».

فكّرت في هذه المسألة قليلاً، لكن الجواب البديهي كان أكثر الإجابات سخافةً: بالتأكيد لا أستطيع أن أعرف...

فقال ليو: «حصلتَ فوراً على الجواب». لم أقل شيئاً، لكن تعابير وجهي كانت كافية.

«أتعني الرفيقة الأكاديمية البروفيسورة إيلينا تشاوشيسكو؟».

«نسيتَ أن تضيف العالمة ذائعة الصيت عالمياً. ولكنني سأقول لك ما الذي أقصده. إن تلك المرأة تتجوّل في تيمشوارا، وبراسوف، وإياسي. والله أعلم بالأماكن الأخرى التي سوف تقصدها. لكن، ماذا سيفعل الزعيم؟ سيذهب إلى إيران، إيران بالله عليكم! من طلب منه أن يفعل ذلك؟».

بدأ بوبيا يجول قرب الباب.

«آه، حسناً فعلتَ بمجيئك... » وأشار له ليو للوقوف إلى جانب النافذة. لم يعد هناك شكّ الآن في أن بوبيا هو المسؤول. لكن، كان هناك شيء مختلف فيه هذا اليوم؛ وهو شيء يوحي بالرضى والتحكّم بالأمور. «تبدو راضياً عن نفسك أيها المسؤول. حسناً، هاتِ ما عندك».

أغلق بوبيا الباب، وبدا واثقاً من نفسه بصورة مخيفة، ثم أبرز بعض الأوراق. «إنها رسالة من عميد الكلية تُنهي وظيفتك بشكلٍ نهائي. وهناك رسالة أخرى من الوزارة تقضي بإلغاء تأشيرة دخولك إلى البلد، وكذلك إلغاء رخصة عملك، وسوف تصلك الرسالتان غداً. تم منحك أربعة عشر يوماً لمغادرة البلد. لكن للأسف، وبسبب الأخطاء المكتبية المعتادة بدأت فترة الأيام الأربعة عشر قبل اثني عشر يوماً. لا يمكننا تصحيح ذلك. وهذا يعني أن لديك ثماني وأربعين ساعة فقط حتى تغادر».

سبق أن تعرّض ليو للضرب والسجن والسرقة وحتى لمحاولة قتل، لكنْ هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها مهموماً بالفعل. قفزَ عن كرسيه، وأمسك بوبيا من ياقة قميصه، لكنّ بوبيا تابع كلامه: «إن لم تكن في هذا المكان وفي هذه الوظيفة

فأنت لا شيء ونكرة. كما أنك محاضرٌ عاطل عن العمل تجاوز تاريخ صلاحيته. أمضيتُ وقتاً طويلاً جداً وأنا أتلقى الأوامر منك. وراقبتك عندما مرّغت أنوفنا بالوحل، وعندما هدّدتَ الناس وقمتَ بابتزازهم، وقمتَ بإفساد النظام... حسناً، والآن بعد أن حان وقت رحيلك، يمكنني أن أقول لك إنني كرهتك منذ البداية. لكن، لا علاقة لي بمسألة طردك من البلد. يمكنك أن تفعل ما تريده: يمكنك أن تفضحني، وأن تذلّني، وأن تفقدني وظيفتي، وعندها سوف ينتهي كل شيء. أنت مراوغ».

عاد ليو للجلوس على مقعده وقال: «ما الذي تستطيع فعله لمساعدتي؟ ما هو المطلوب الآن؟».

«اللعنة عليك يا ليو. إنني سعيد بالقول إنه لا يمكنني فعل أي شيء. آه، لكن كن متأكداً من أنه لو كان بوسعي فعل أي شيء لكنت قد فعلته كما فعلت على الدوام؛ وذلك لكي أحمي نفسي فقط. في الواقع، لقد حاولت أن أفعل شيئاً، ولكنني أخشى أن أقول لك إنني لم أنجح في ذلك... أنا سعيدٌ بالقول إن هذا الأمر ليس في يدي. وهذا أمرٌ مريح بالنسبة لي يا ليو؛ لأنه حرّرني. يتعيّن عليك أن تجرّبه. اترك الأمور تجري من تلقاء نفسها وسوف ترى... ».

تذكّر بوبيا بعض التفاصيل الإضافية، فالتفت نحوي وقال لي: «أنت أيضاً مطرودٌ. ستبدأ إجازتك للكريسمس في العشرين من هذا الشهر، لكنّ تأشيرتك لن تُجدَّد. من الأفضل أن تجد لنفسك وظيفة أخرى، والأفضل أيضاً أن تكون هناك مقابلة قبل توظيفك... !». وابتسم بوبيا كما لو أنه يريد أن يقول إنني هدية إضافية بعد النصر الذي حقّقه في البداية. «على أية حال، لن تمكث هنا طويلاً بعد رحيل البروفيسور أوهاي... ».

«إذا اعتقد أولئك الأغبياء أنهم سوف يتخلصون مني فإن أمراً آخر سيكون

بانتظارهم. فأنا أمتلك أصدقاء كثيرين، وسوف أطلب منهم مساعدتي. سيضطرون إلى ربطي وتخديري ووضعي في الطائرة بأنفسهم، بينما يراقب الآخرون، ويتمنّون لو كانوا مكاني!».

تسلّم ليو رسالته من مسؤولين اثنين في الحكومة، وقد تضمّنت إلغاء إجازة عمله، وتأشيرته، وعقد عمله. أما أنا فلم أستحق برأيهم حتى الزيارة؛ لأن أوراق إلغاء التأشيرة وعقد العمل أُرسِلت إلى صندوق بريدي. وكان من المقرر أن أغادر بحلول الثالث والعشرين من هذا الشهر، أي بعد يومين من مغادرة ليو.

اعتقد ليو أنه بإمكانه الاستفادة من علاقاته في البلد، والاعتماد على عشرات الأشخاص النافذين الذين يدينون له بطريقة أو بأخرى. غير أنه كان مخطئاً؛ لأن أحداً منهم لم يردّ على اتصالاته. كما أنّ العدد القليل من الأشخاص الذين وافقوا على لقائه لم يحضروا إلى الموعد الذي تم الاتفاق عليه. مانيا وحده هو الذي أعطى رداً، وأرفقه برسالة قصيرة عرض فيها على ليو الاجتماع به يوم 28 كانون الأول، أي «في أول فرصة ممكنة في مفكرته». وكان مانيا يعرف جيداً أن موعد ترحيل ليو في الحادي والعشرين.

اجتاح المحتجّون المقر الرئيس للحزب في تيمشوارا في 19 كانون الأول، وأضرموا النار في محتوياته: لوحات تشاوشيسكو، وسجلات الحزب، والكتب، والصور؛ حتى إن الأثاث لم يسلم من الحرق. وفي هذه الأثناء، وقف رجال الشرطة على الحياد. في ذلك الحين، حلّت اللحظة التي كانت منتظرة منذ وقتٍ طويل لنهاية النظام، وفرضت نفسها.

رُفِع أول رمزٍ للثورة على شرفة المقر الرئيس للحزب في تيمشوارا؛ أي العلم الروماني مع مساحةٍ من السماء الزرقاء حيث كان يتواجد الشعار الشيوعي، ورمز الحزب الشيوعي الروماني. تجمّع الناس للمس هذا العلم الجديد،

وحملوه معهم. وقد أصبح العلم الوطني الجديد.

تزايد انتشار رجال الأمن، وامتد من كاليا فيكتوريا وحتى مبنى اللجنة المركزية. وقد وقف الشبان ببذلاتهم الرسمية، وبعد أن أخفوا مسدساتهم على بُعد عشر ياردات من بعضهم بعضاً. كانوا يدخّنون، ويراقبون، ويتفحصون الهويات، ويدفعون السيارات، ويستجوِبون أي شخص يتوقف ويتكلم في الشوارع لأكثر من لحظات قليلة. ساد في ذلك الوقت شعار: «اثنان يؤلفان حشداً». لكن في بعض الأحيان، كانت هناك استثناءات؛ فقد وقف عامل بناء في أعلى سقالة ببياتا أونيري حاملاً معه مكبر صوت، ونادى قائلاً: «تيمشوارا! تيمشوارا! تيمشوارا!». واستمر ينادي هكذا لمدة نصف ساعة قبل أن يتمكن رجال الأمن من إنزاله من مكانه. أما في باحة الأثينيوم فقد ظهرت لافتات كُتِب عليها فليسقط تشاوشيسكو فوق الباحة العشبية. أما لافتة الموت لمصّاص الدماء وزوجته فكانت مكتوبة باللون الأحمر ومُعلّقة على جدار متحف الحزب.

كان من السهل عند بداية محاولات قمع التمرد وضع حدٍّ للحياة الاجتماعية؛ فكلّ ما كان على السلطة فعله هو إيقاف إمدادات السلع الغذائية والمشروبات إلى المطاعم والمقاهي، حتى إن إرساتز اختفت من الأسواق. يُضاف إلى ذلك أن مقاهي الدولارات والفنادق العالمية وحدها هي التي بقيت عاملة. وحتى في تلك الفنادق بقي الوكلاء أكثر من الزبائن. أما كابسيا فقد استمرّ في تقديم خدماته إلى الدبلوماسيين ومسؤولي الحزب وإطعامهم. وقد استضاف كابسيا ليو في الأسبوع الذي كانت معنوياته فيه منخفضة، فكان ذلك بمثابة احتفالات الفايكنغ التي تتخلّلها ومضات من الخطر المميت والسوريالية السياسية.

استيقظنا أنا وأوتيليا في أولى ساعات يوم 20 كانون الثاني على أصوات ضجيجٍ بالقرب من شقتنا، وكان الضجيج عالياً بما يكفي لنشعر باهتزاز الرفوف الزجاجية في الحمّام. تطلّعت إلى الساعة فوجدتُ عقربَيها يشيران إلى الساعة

الرابعة من بعد منتصف الليل. كان الشرطي الذي يحرس المنزل شبه نائم أثناء وقوفه في الطابق الأرضي، فيما وقف شرطيان آخران وهما يدخنان على بُعد ياردات قليلة منه. لم يبدر منهما ما يشير إلى أنني غادرت المنزل. كان الضجيج قد بلغ ذروته في هذا الوقت، وكان عبارة عن أزيز آليات اهتزت الأرض بسببه. في البداية، ظننت أن ما يحصل هزة أرضية جديدة، غير أنني عندما سرتُ إلى تقاطع آليا ألكساندرو وآفياتوريلور أدركت أنني مخطئ؛ إذ كانت عشرات العربات المدرعة تتّجه إلى المدينة، وإنّما من دون إضاءة مصابيحها. ورأيت أيضاً شاحنات تحمل جنوداً، ودبابات تتقدم بسرعة مرعبة. لكن، لطالما تخيّلت أن الدبابات بطيئة وثقيلة، لذا أثارت سرعتها ورشاقة تحركها التي لا تُجارى رعبي.

عاد ليو عند انبلاج الفجر تقريباً وقال: «إنهم يرسلون الجنود إلى تيمشوارا». كان ليو صاحياً جداً هذه المرة بالرغم من أن رائحة الشراب والدخان قد فاحت منه، وتابع: «تم إلغاء إجازات الجنود جميعاً، وأعتقد أن شيئاً هاماً يحدث الآن، كما أن إيلينا تشاوشيسكو شخصياً قد تسلّمت مسؤولية الأمن».

«إنهم يجلبون المزيد من الجنود إلى هنا أيضاً. رأيت كل شيء: الدبابات وعربات نقل الجنود».

«الأمر ليس مفاجئاً؛ فهم يجلبون الجنود باستمرار من خارج المنطقة إذا أرادوا إطلاق النار على الناس. إنني أراهن بأن وحدات الجيش في تيمشوارا ستأتي إلى هنا، ووحدات بوخارست سوف تتوجه إلى تيمشوارا».

سألتْ أوتيليا: «ما الذي تعرفه على وجه التأكيد يا ليو؟». إذ شعرت أوتيليا بالسخط بسبب الشائعات التي انتشرت بكثرة، وكانت تعرف أن بعض الناس يُسعَدون بالشائعات ويعتبرونها أكثر إثارةً من الوقائع التي استدعتها. ولكنّها تعتبر الشائعات مملة، وقد سبق لها أن قالت لي: «إنها تشوّش على ردات

فعلك؛ ففي الوقت الذي تُرهق فيه نفسك بمواجهة الشائعة، لن يعود بإمكانك مواجهة الوقائع ذاتها... ».

«لا شيء. لا أعرف شيئاً على وجه التأكيد. ولكنني أعتقد أنه سوف تبرز منافسة على الزبائن بينك في المستشفى وبين كامبانو في المشرحة». وتغيّرت نبرة ليو في هذا الوقت وهو يتابع: «أعرف أنه يفترض بي أن أكون على متن تلك الطائرة في هذا الوقت، ولكنني لن أرحل. لكن، إذا أردتما المغادرة، فالآن هو الوقت المناسب، وبإمكاني مساعدتكما».

عندها، قالت أوتيليا بنبرة هادئة وحازمة كما كان بيتر سيفعل: «أنا لن أغادر. فهذا بلدي».

فما كان من ليو إلا أن أومأ وقال: «أتعرفين أنكِ بينما كنتِ تفكرين في الأمر حجزتُ في كابسيا. وقد اعتبرت أن حفلة وداعي من ضمن برنامجٍ مستمرٍ من الأحداث التي وصلت إلى ذروتها عندما لم أغادر مطار أوتوبني مساء يوم الجمعة. نلتقي عند الساعة السابعة».

توجّه ليو إلى الحمام، وسمعناه يصرخ عندما انهمرت المياه شديدة البرودة على كتفيه من صنبور المياه الساخنة. لم أناقش مع أوتيليا ما سيحدث بعد مغادرتي. فبدلاً من وضع الخطط، استمررنا بالتحدث وكأن كل شيء سيكون على ما يرام، وكأننا سوف نتواجد جميعاً هنا في الكريسمس. لم أتمكّن من التظاهر بأنني سوف أراوغ رجال الشرطة، وأجد طريقة للابتعاد عنهم. لكن، إذا أردتُ البقاء مع أوتيليا فسوف يتعين عليّ إيجاد طريقة للعودة. إذ لا يمكنني أن أتخيّل أننا نتشارك الحياة في أي مكانٍ غير هذا المكان. وبالرغم من عدم واقعية هذا التفكير إلا أنني توقّفت عن تصوّر حياتي في أي مكانٍ آخر غير هذا المكان.

في ذلك اليوم، خيّم على بوخارست سلام بوليسي ثقيل. أما رئيس البلد فقد بقي

في إيران، ونشر أفلاماً تُظهر اجتماعه بالملالي، وتركيزه على التزام رومانيا بالمسار الشيوعي. تمكّن آل تشاوشيسكو من الحصول على مصادر تأييد جديدة في أوقات اضطربت فيها الأحوال محلياً ودولياً. وهكذا، أعلنت صحيفة سينتيا أن نقابة حائكي السلال المحترفين قد منحتهما أرفع تكريمٍ في البلاد، أي وسام القشة الذهبية.

أُعلِن عن إقفال الجامعة وإخلائها عند الساعة الثالثة، بينما كانت الحوّامات تحلّق فوقنا. وفي ذلك المساء، انتشرت في كل مكان حواجز التفتيش العشوائية؛ حيث تم التدقيق في الأوراق الثبوتية، بينما حثّ رجال الشرطة الناس على التحرّك في كل مرة كانوا يتوقفون فيها للتحدث إلى بعضهم بعضاً. أما طوابير الانتظار للحصول على السلع الغذائية فقد تخلّلتها تعابير واضحة عن الغضب، أو الاحتجاجات العفوية؛ وهي الأمور التي ترافقت مع المزيد من المشاكل. فإذا دفع رجال الشرطة الناس للتقدم فإن أعمال الشغب سوف تنشب، وإذا سمحوا لهم بالمكوث طويلاً في أماكنهم فإن فرصة حدوث شغب ستزداد. أما خارج محلّ القصّاب، وهو الواقع في بوليفار ماغيرو، فإن الطابور أصبح أكثر خطورة. مررتُ بمحاذاة الطابور، فلاحظتُ وجود بائع صحيفة سينتيا الساخر الذي كان يقف منتظراً مع حقيبته. ناداني البائع فالتفت الناس نحوه. أدركتُ أنه يقوم بمخاطرة كبيرة في تحدّثه مع رجلٍ أجنبي أمام نحو مئة شاهدٍ، بالإضافة إلى رجال الشرطة. لاحظتُ ابتسامته التي تعبّر عن السخرية والألم وعدم الاكتراث، بالإضافة إلى نظرات عينيه الواسعتين.

«إنه عصر التنوير، أليس كذلك؟ تعالَ إلى هنا دومنول، تعالَ وقِف في الصف مع الناس السعداء الذين يجنون ثمار أسلوب حياتهم الاشتراكي... تعالَ وراقِب بينما أولئك الحمقى والبلهاء الآتون من القرى، والذين يرتدون الزي الرسمي يقومون بدفعنا وكأننا قطيعٌ من الماشية من طابورٍ إلى آخر. لكنك لا تقرأ كل هذا في

سينتيا، أليس كذلك؟».

ضحك الحاضرون بمرارة، وتطلعوا شزراً إلى رجال الشرطة وصاحوا بهم. وصاح أحدهم: «تيمشوارا! تشاوشيسكو قاتل!». وعلى الفور، تحرّك رجلان كانا واقفين في الطابور وراء بائع الصحيفة وتقدّما نحوه. وصلا إليه في غضون لحظاتٍ قليلة، وجذباه من كتفه بعيداً عن الحشد. كان الرجلان من مخبري رجال الأمن المزروعين بين الناس وكأنهم من الرومانيين العاديين، وكانا يرتديان سترتين ومعطفين غير مناسبة، ويعتمران قبعتين رخيصتين من فرو الأرنب، وينتعلان أحذية مونوكوم. عندها، أطلق البائع ضحكة جنونية وقد تبدّل قسمات وجهه، وقال: «لماذا تقفون في الطابور يا رفاق؟ أليست لديكم متاجر مخصّصة لرجال الأمن؟ لا تقولوا لي إنها فارغة الآن... » رأيتُ آثار قدميه على الثلج التي خلّفتها ركلاته يمنة ويسرة أثناء جرّه إلى شاحنة داسيا صغيرة مقفلة وسوداء. تحرّك رجال الشرطة من مراكزهم لتهدئة الجمهور المحتشد، وأبلغوا الناس بضرورة البقاء في طوابير الانتظار، وأنه لا يوجد شيء يستحقّ المشاهدة، ولكنهم تطلعوا إلى رجال الأمن باستياء.

تحركتُ بهدف التدخّل، لكنّ أحد رجال الأمن أشار إليّ طالباً مني البقاء بعيداً. غير أنني تابعت تقدّمي بينما صاح البائع المعتقل: «فاشيون، مجرمون، حثالة». عندها، تشجّع الأشخاص المتجمعون لدى سماعهم هذه الكلمات، وبدأوا بإهانة رجال الأمن الذين بدا عددهم قليلاً جداً، بالرغم من انضمام أربعة شبان إليهم؛ وهم الذين خرجوا من الشاحنة. رمى أحدهم حجراً على الزجاج الأمامي للشاحنة فهشّمه، وتناثر الزجاج بسرعة فوق الرصيف. عندها، تمكّن بائع صحيفة سينتيا من الاستفادة من هذه الفوضى السائدة، وسارع بفكّ وثاقه، ثم عاد مسرعاً إلى وسط الحشد، وبعد ذلك قصد شارعاً فرعياً. وفيما كنت أراقبه، لاحظت أن ثلاثة من رجال الشرطة قد سمحوا له بالمرور. لمحتُه عندما انعطف

وذهب في الاتجاه المعاكس. اختفى رجال الشرطة بدورهم، وتركوا معالجة الأمور على عاتق رجال جهاز الأمن وعملائهم الذين كانوا يرتدون ثياباً عادية.

كان كل ذلك تحضيراً لأعمال الشغب التي يتم الاستعداد لها. وهكذا، بدأ النفعيون بتكسير النوافذ والواجهات، ونهب المتجر، ثم الهرب بمسروقاتهم من اللحم الملفوف بورق الصحف. أما المثاليون فقد واجهوا رجال الأمن الذين رفعوا أسلحتهم واستعرضوا خياراتهم أمام الحشود. استمر الحشد بالتقدم، وبدأت الحجارة بالانهمار على الشاحنة المقفلة؛ فتكسر ما تبقى من نوافذها. لم يتبقَّ من المسافة الفاصلة بين الناس ورجال الأمن سوى عشر ياردات، لكنّ شاحنة داسيا مقفلة ثانية سوداء اللون أسرعت لتحتل المسافة الفاصلة، وكانت كل أبوابها مفتوحة استعداداً لتجميع عملائها الذين سرعان ما تقافزوا إلى داخلها. لكنّ أحدهم دخلها ببطء من الباب الأمامي بجانب السائق. كان الشاب يعتمر قبعة من الفراء، كما كان يضع نظارة. وقبل صعوده، جال بنظره ببطء في أنحاء المكان مستوعباً كل التفاصيل، ومتوقفاً عند كل وجهٍ من الوجوه، فيما كان رفاقه يحثّونه على الانضمام إليهم. أحسّ الجمهور المحتشد ببرودة الموقف وبالسلطة التي يمتلكها. تداعى الصف الأمامي من الحشد، وهكذا توقف التقدم بعد أن تطلع الجميع إليه، ولم يجدوا أي علامات خوف مرتسمة على وجهه.

عرفتُ أنه فينتول؛ حتى قبل أن ينزع نظارته وقبعته. لكنّ شيئاً ما في مظهره جعلني أدرك أن هذا هو مظهره الحقيقي بالفعل: فهو وسيم، وذو شعر قصير وعينين باللون الأخضر الشاحب وبشرة فاتحة. انتهى التمويه عند هذا الحد، ولكنه مرّر يده المغطاة بالقفّاز في شعره؛ وهذا تصرّف عفوي اعتاد عليه منذ أيام عمله متخفياً. ثم طوى نظارته، وتطلع إلينا من دون إظهار أي مشاعر، وأخيراً دسّ النظارة في جيبه، ونظر إلى وجهي ثلاث مرات. يُحتمل أنه لم يتعرّف

عليّ فشعرت بالارتياح. ويُحتمل أنه نسيني. قال فينتول شيئاً ما عبر الجهاز اللاسلكي الذي يحمله، ثم فتح باب الشاحنة المقفلة من دون انتظار الرد. كان فينتول على وشك دخول الشاحنة عندما توقف، والتفت مجدداً لينظر نحوي مباشرةً، ثم مرّر الباب بمحاذاة جسمه بيده اليمنى، وبعد ذلك جعل أصابع يده اليسرى على شكل مسدس، ثم أغمض إحدى عينيه، وصوّب يده نحوي، وحرّك أسطوانة مسدسه الخيالي في الهواء مرة واحدة، وابتسم. أطلق رصاصة واحدة، فهو لم يكن من النوع الذي يضيّع الرصاصة سدًى؛ حتى إن كانت وهمية. بعد ذلك، ربّت على سطح العربة، ثم دلف داخلها أثناء اندفاعها إلى الأمام.

تولّد عندي شكٌّ في أن أتمكّن من قراءة صحيفتي في اليوم التالي، ورحت أتساءل: إلى أين يذهب الناس بعد مواجهتهم رجال الأمن؟ وأين يمكنهم الاختباء؟ وإلى أي مسافة يمكنهم أن يركضوا؟ عاد رجال الشرطة أدراجهم، وبدأوا بمعاينة الأضرار التي لحقت بواجهة المحل: الزجاج المتكسر، وإطارات الأبواب المكسورة، ودماء الذبائح التي انتشرت فوق الثلج. بدأ رجال الشرطة بتنظيف المكان، فاقترب بعض المارة منهم مرحّبين بهم لأنهم امتنعوا عن مساعدة رجال الأمن. وفي ذلك الوقت سرت شائعة، وقد سمعتها مساءً بعد أن زاد الخيال والشراب والتمنيات من ضخامتها، ومفادها أن رجال الشرطة قد واجهوا رجال الأمن، كما ساعدوا المتظاهرين على الهرب...

توقفتُ قبل الساعة الخامسة تماماً أمام مكاتب شركة تاروم للطيران. كان ذلك هو الوقت الأنسب لي لشراء تذكرة سفر للعودة إلى بلدي. لكن، يُحتمل أن الوقت قد تأخر كثيراً، لأنني رأيت طوابير لأشخاصٍ اصطفوا أمام الأبواب. وعلمت أيضاً أن معظم الأثرياء من الأجانب قد رتّبوا أمور سفرهم فجأة؛ مثل موظفي السفارات، والمتعاقدين مع وزارة الدفاع، وتجار أجهزة المراقبة ومعدات مكافحة الشغب، والتي ستُفتح سوقها قريباً في ظل هذه التطورات. يعني ذلك

أن الوحيدين الذين بقوا هم الطلاب الذين جاءوا من الخارج، والأسر الجديدة التي علقت أثناء قضائها إجازات ممتعة ورخيصة الكلفة، والأوروبيون الشرقيون من البلاد التي لم يطل الوقت قبل أن تصبح شيوعية سابقاً، والذين حاولوا الالتحاق بثوراتهم السلمية قبل حلول الكريسمس. لكن أحداً لم يعرف بالضبط ما الذي يحدث، غير أنهم عرفوا ما يكفي لإقناعهم بالرحيل. انضممتُ إلى صف الانتظار، وتحسّست جواز سفري في جيب سترتي الداخلي، حتى إنني تحسّست أطرافه وزواياه الحادة.

رأيتُ ثمانية موظفين جالسين إلى طاولاتهم، لكنّ ستة منهم كانوا يقرأون الصحف، ويدخّنون، أو يلهون بأظافرهم. في هذا الوقت، خيّم على البلد مزيج من الذعر والهدوء. رأيت خرائط رومانيا مثبتةً على لوحات إعلانية من الفلّين تم تعليقها على الجدران. ورأيت كذلك صوراً تمثّل كنائس، وشواطئ، وجوقات الفنون الشعبية معلقة على الجدران. لكن، كم من هذه الكنائس بقي قائماً حتى الآن؟ وكم من المغنّين نُقلوا إلى المدن؟ وكم من الشواطئ اختنقت من التسربات النفطية، والأسماك المسممة، وجثث الكلاب المنتفخة؟

رأيت أمامي عائلة من السياح البريطانيين. وقد تألفت العائلة من ولدين متعَبين ووالديهما، ويبدو أن هذه الأسرة قد قطعت إجازتها في تيمشوارا ووُضِعت في قطارٍ متوجهٍ إلى بوخارست في هذا الصباح، وكانت تحاول تبديل تذاكر سفرها. سألتُ الوالدة عما رأوه، فتطلعت حولها قبل أن تردّ، إذ يبدو أنها اعتادت على مخاطر التحدّث مع الغرباء. «في واقع الأمر، نحن لم نرَ شيئاً لأن منطقة الوسطى قد عُزِلت يوم وصولنا إلى هناك. وقد منعونا طوال يومين من مغادرة الفندق. إنه أمرٌ مريع جداً، ولكنهم حشرونا هذا الصباح في حافلة نقلتنا إلى المحطة... » مسحت المرأة بعض الدموع عن عينيها، وأضافت أن الولدين ناما واقفين ومستندين عليها، بينما لوّح زوجها بأوراق نقدية من فئة

عشرة دولارات أمام الموظفين. كان الزوج يتعلّم بسرعة مثل كل الآخرين. كان المنظر أشبه ما يكون بالهلع الذي تشهده أسواق المال في بعض الأحيان، وليس بوكالة سفر. «كانت نوافذ الحافلة التي أدخلونا إليها مطلية، حيث لم نتمكن من رؤية أي شيء خارجها. توقفت الحافلة عدة مرات، ثم عادت أدراجها وكأنها غيّرت طريقها أو ما يشبه ذلك. وصلنا بعد ذلك إلى تيمشوارا، وكانت المنطقة بأكملها قد وُضِعت تحت حراسةٍ مسلحة. وضعونا فوراً في القطار، وهذا كل ما في الأمر. لم نرَ شيئاً ما عدا ما هو داخل الفندق، وداخل تلك الحافلة البائسة».

عاد زوجها حاملاً معه بعض التذاكر، وبدأ يسأل بلهجةٍ عدائية: «مَن يكون هذا الرجل؟».

«لا أعرف. أعني... إنه رجل بريطاني واقفٌ في الصف، وبدأتُ بالتحدث إليه... ».

«أجل، حسناً. فلنخرج من هنا. هل تسمحين؟ تمكنت من الحصول على مقاعد في رحلة ستغادر هذه الليلة، وسوف نذهب إلى المطار مباشرة. آسف يا صديقي... » وقف الرجل بيني وبين زوجته، وقال بلهجة من يرغب في إسداء نصيحة ثمينة: «يتدبر كل امرئ أموره بنفسه هنا». وحين ابتسمت له، أذهلته ابتسامتي، وما لبث أن شعر بالغضب. بعد ذلك، جرّ حقيبة عبر الباب، ثم صاح بزوجته مجدداً: «هل ستأتين أم لا؟». ابتسمت المرأة معتذرةً مني، وأسرعت لتلحق به حاملة طفلاً على كل ذراع، بينما برزت لعبة آكشن مان مع بندقية صغيرة من جيب معطفها.

تبعتُ الزوجين إلى الخارج. بلغت سماكة الثلوج في ذلك الحين أربع بوصات أو خمساً، بينما أصدرت دواليب السيارات قرقعة فوق الطرقات المملّحة. بدأ الليل بإرخاء سدوله، بينما أوحت أنوار مصابيح الشوارع الخافتة المنعكسة على بياض الرصيف أن المكان ليس إلا مستشفى مطلياً باللون الرمادي.

عند وصولي إلى المنزل، أعدتُ جواز سفري وأوراقي إلى درج طاولتي، وشغّلت جهاز الراديو. لم تقل هيئة الإذاعة البريطانية العالمية شيئاً عن تيمشوارا أو أي مكان آخر، ولذلك أبقيت جهاز الراديو شغالاً وذهبت للاستحمام. وعند عودتي، رأيت ليو جالساً على مقعدي الوثير، وكان يشاهد إحدى حلقات مسلسل كولومبو.

سألني من دون أن يرفع نظره عن جهاز التلفزيون: «ذهاباً، أم ذهاباً وإياباً؟».

«عمّ تسأل؟».

«هل ابتعتَ تذكرة ذهاب، أم تذكرة ذهاب وإياب من مكتب شركة تاروم؟».

فتحتُ الباب وقلت له: «هل حصلتَ على وظيفة مع رجال الأمن؟ هل تتجسّس على أصدقائك؟».

«في الواقع، عرفتُ عن طريق الصدفة. فقد زرتُ المكتب بنفسي بعد دقائق قليلة من مغادرتك لشراء بعض التذاكر لزبائني، وهكذا علمتُ أنك كنتَ هناك. أيُحتمل أن هذا ما كنتَ تريد الحصول عليه؟». وضع ليو تذكرة طائرة على طاولتي الصغيرة بقوة ثم خرج من الغرفة. كان اسمي مكتوباً على التذكرة، كما كان رقم جواز سفري مطبوعاً عليها: رحلة ذهاب إلى لندن في الثالث والعشرين من الشهر. ذهلتُ، ودفعت التذكرة جانباً. لكنني بعد دقيقة أو اثنتين عدت إلى رشدي، فتناولت التذكرة مع جواز سفري وأوراقي، ووضعتها في جيب سترتي.

«اسمع، اعتبِر هذه بمثابة ضمانة لك. إذ لا يمكنني أبداً معرفة ما سوف يحدث في الأسابيع القليلة القادمة، ولكنني أريد منك أن تحتفظ بهذه التذكرة... » وفي هذه الأثناء، لوّح ليو بتذكرة أخرى. «هذه تذكرة أخرى لأوتيليا، ولكنك تعرف أنه ليس لديها جواز سفر... جواز سفر روماني على أية حال».

«وأي جواز سفر آخر يُمكن أن يكون لديها؟!». طرحت عليه ذلك السؤال، ولكن كان يجدر بي أن أعرف أن ليو كان قادراً على...

«حصلت لها على جواز سفر روسي صالح تماماً، وقد كان مُلكاً لشخص آخر... سيكون جاهزاً في الوقت المناسب».

«لكنك تعرف أنها لن تغادر. أما بالنسبة لي، فقد قصدت مكتب تاروم بحثاً عن سببٍ لعدم شراء تذكرة سفر، وليس لأنني أردت مغادرة البلد، وها أنت الآن قد جلبت لي التذكرة بنفسك... ».

«أجل». قادني ليو إلى المطبخ حيث فتح النافذة، فظهرت ست زجاجات من الشراب مبردة في صندوق يحتوي على مكعبات الثلج. «أجل، فعلتُ ذلك لأنني أريدك أن تختار وتقرر بنفسك. أريدك أن تزن الأمور جيداً، وأن تتوقف عن الانجراف مع مجرى حياتك الزَلِق».

فقلتُ له وأنا أتخلص من ذراعه: «كان يجدر بك أن تؤلّف كتاباً عن الإرشاد الذاتي».

«فعلتُ ذلك. وأنا أتّبع كل خطوة واردةٍ في النظام الذي وضعته. ألا ترى ذلك بنفسك؟». ودار ليو في المطبخ دورة صغيرة على طريقة عارضي الأزياء. كانت السترة التي اختارها لهذا المساء باللون البنفسجي الفاتح؛ وهو اللون الذي لم يسبق لي أن رأيته سوى في نماذج لُعَب السيارات.

فتح ليو إحدى الزجاجات وقال: «تيمشوارا تغلي. لقد فتح رجال الشرطة النار علينا عندما كنا نتناول اللحم وحلوى الكريب سوزيت في كابسيا. لقد أُطلِقت النيران بقصد القتل. أعتقد أن هذا التصرّف إما سيكون صفحة مغمسة بالدم في تاريخ الشيوعية، أو بداية الثورة. إنه الوقت المناسب لاتخاذ القرارات، ليس فقطِ بالنسبة لك، وإنما بالنسبة إلى الجميع». ناولني ليو كوباً زجاجياً وقال:

«هذا النخب لي، ولأوتيليا، ولأشخاص مثل سيليا ومانيا؛ هذا إذا أرادوا البقاء في أعلى السلّم... هذا نخبُ الجميع، وحتى أولئك التعساء الذين يتجمدون برداً هناك في الأسفل». وأشار ليو إلى رجال الشرطة الذين كانوا يغرزون أقدامهم في الثلج وهم يتناولون الشراب، ثم رفع كوبه عالياً.

توقّف ليو خارج فندق الأثينيه بالاس، وتناول من يد حارس موقف السيارات ما بدا وكأنه وعاءٌ كبير يحتوي على المربى. ثم اصطحبني إلى الداخل، وطلب مني انتظاره. رأيته يختفي في الردهة التي تتصف بإضاءة أكثر من جيدة. كانت سترته تلمع بطريقة غريبة عند مروره تحت الأنوار الكشافة. انتظرته عشر دقائق، ثم رأيته عائداً وهو يحمل كيساً بدا أنه يتحرك. دقّقتُ النظر جيداً، فرأيت مجموعة من الكركند تتحرك ببطء، بينما رُبطت ملاقطها بأربطة مطاطية. قال لي شارحاً الأمر: «هذا للكابسيا، وهذه هي الليلة التي يجلب فيها الزبائن مقبلاتهم معهم. فالطرقات مقفلة، ولا يُسمح بمرور أي شيء».

كان مطعم كابسيا مزدحماً أكثر من أي وقتٍ مضى، وكانت معظم الطاولات محجوزة، بينما استمر النُدُل بالتجول فوق السجاد الأزرق الداكن، وكأنهم يستخدمون عجلاتٍ غير مرئية.

استقبلنا المسؤول عن استقبال الزبائن من دون أي حماسة، وأخذ الكيس الذي حمله ليو، والوعاء الذي تأكّدتُ الآن بأنه يحتوي على الكافيار الإيراني. كان من الواضح أن أحد موظفي الرفيق الأول قد قام ببعض التسوّق في طهران. لكن، عندما سأله ليو عن الطبق الذي ينصحنا به أجابه بكل هدوء، وببعض السخرية: «الكركند يا سيدي، إنه طازجٌ جداً». وما لبث أن نقل شبكته إلى المطابخ.

قادنا المسؤول إلى غرفة العمل المفضلة لدى ليو، والتي تُعرَف بصورة غير رسمية

باسم غرفة لابيس، وذلك على اسم الشاعر المنشق الشاب نيكولاي لابيس الذي ترنّح بعد تمضيته ليلة في العام 1956 وهو يتناول الشراب ويشارك في نقاش سياسي، ثم سقط على سكة القطار؛ الأمر الذي أسفر عن قطع رأسه. وقد حصل الحادث خارج مطعم كابسيا مباشرة، ولذلك طلب ليو هذه الغرفة بالتحديد.

كان الحزبيون وبعض كبار موظفي الدولة يتطلعون إلى بعضهم بعضاً، وإلى أطباق بعضهم بعضاً. رأيت أحد كبار ضباط الشرطة الذي كان مرتدياً زيّه الرسمي بالكامل جالساً مع ثلاثة رجالٍ آخرين مرتدين بذلات، كما رأيت مترجماً مع بعض الكوريين الشماليين الذين كانوا يرتدون ملابسهم العسكرية. فيما انشغلت مجموعة من العرب بشرب فانتا من قوارير بلاستيكية وُضعت في مستوعبات تحتوي على مكعباتٍ من الثلج. وكان وزير العمل جالساً بالقرب من طاولة تضم أربعة عازفين موسيقيين، وراح يُلاطِف مراهقةً خائفة من مغازلاته لها من تحت الطاولة. رأيت بالقرب من وزير العمل طاولات تخفيها ستائر بيضاء، وبدا أنها مخصّصة لأصحاب المناصب الرفيعة؛ حيث وقف عند كل طاولة نادلٌ مخصص لها. عرفتُ أحد الجالسين إلى تلك الطاولات، وكان الجنرال ميليا؛ رئيس أركان الجيش، ولكنه كان على وشك ارتكاب أكبر خطأ في حياته وآخر تلك الأخطاء.

أما في غرفة لابيس فقد وُضِعت طاولة بيضاوية الشكل بحسب طراز أواخر القرن التاسع عشر. كانت نار المدفأة مشتعلة، كما فاحت رائحة الشراب والأجبان. وصل أوزيراي ومالتشيف أولاً، ثم تبعهما بعد دقائق قليلة البروفيسور يونيسكو وزوجته، وكذلك روديكا التي لم تكن برفقة زوجها.

انضمّت أوتيليا إلينا بعد وقتٍ قصير، وطبعت قبلةً على خدّي، ثم همستْ في أذني: «الوضع سيئ جداً، فالجثث تصل من تيمشوارا بالعشرات... حتى الآن. ويقول كامبانو إنهم يرمون الجثث في المشرحة ويحرقونها بعد ذلك».

طرق ليو بيده على كوبه ثلاث مرات، ثم قال:

«يا أصدقائي، دعوني أشكركم جميعاً على مجيئكم. يعرف معظمكم أن هذه أيامي القليلة والأخيرة. أعني أيامي القليلة والأخيرة في عصر النور، وأيامي القليلة والأخيرة التي أقضيها في التنعّم بالشعاعات القليلة والأخيرة... آه، أسمعكم تسألون: الشعاعات الأخيرة لأي شيء؟ هذا هو السؤال: ليو أم عصر النور هذا؟».

تردّدت في الغرفة ضحكة تنم عن التوتر. وعلى الفور، جال يونيسكو في الغرفة بنظراته المرتعبة محاولاً أن يعرف مَن قَد يكون رجل الأمن المزروع في هذه الغرفة الليلة، ولكنه ارتاح عندما أدرك أنه هو نفسه المخبر الأكثر احتمالاً. كان بعض الحزبيين من بين الحضور، ولكنني أعرف أن ليو قد دعاهم ليكونوا ضمانة له ولأصدقائه، وهو الذي يمتلك معلومات عن فسادهم لأنه كان الوسيط الأكبر في عملياتهم. إذ استخدم ليو تكتيك عدم استبعاد الناس إذا كان بالإمكان إدانتهم.

وكزتني أوتيليا، وأومأت نحو مالتشيف الذي كان يقف في طرف مجموعة الحاضرين، متفحّصاً جهاز الاتصال الذي يحمله، ومُستمِعاً إلى شيء ما عبر سماعة أذن مخفية. أدركنا أن شيئاً مهمّاً يحدث الآن، لكن ذلك مختلف عن معرفة دلالات ذلك الشيء. تفحّصنا المؤشرات، وحاولنا توقّع ما سيحصل، ولكن من دون أن ننجح في معرفة ما تعنيه تلك المؤشرات. فقد امتلك كل شيء معنى مزدوجاً، ولم يعرف المرء ما إذا كان ما فهمه هو المعنى المقصود، أم المعنى الآخر.

سألني ليو: «أين تروفيم؟ اتصل به لتعرف ما يؤخره».

وعندما انصرف ليو، انضمّت إليّ أوتيليا قائلة: «لا أعتقد أن مزاجي يسمح لي

بالمشاركة في هذا الاحتفال الليلة. فليس من الصواب أن نجلس هنا لنأكل ونشرب ونتظاهر بأن الأمر برمته مزاح، فيما يُقتَل الناس حولنا».

أجبتها: «لا أعتقد أن أحداً منا أيضاً يمتلك المزاج للمشاركة. انظري... » كان مالتشيف يُمسك بما يسمى هاتفه المحمول. «سأبحث عن سيرجيو من أجل ليو، ثم سأتوجّه إلى منزلي». كان الهاتف الموجود بالقرب من المطابخ معطلاً، لذلك استدرتُ ونزلت إلى الممر السفلي، وتجاوزت غرف المستودعات. وفي نهاية الممر وصلت إلى باب القبو حيث يتم الاحتفاظ بالشراب. شممتُ رائحة التراب. كان الباب مفتوحاً، فرأيت المسؤول الذي تطلع نحوي بصمت، وكان يحمل معه قنديلاً يعمل على الزيت، فانعكست أنواره على الزجاجات. لكنْ قبل أن أتمكّن من طرح أي سؤال عن الهاتف، أشار الرجل إلى الباب الذي أخطأته، ثم أغلق الباب وراءه. بعد ذلك، سمعت أصوات أحاديث صاخبة، وشممتُ رائحة العفونة التي تميّز الغرف المزدحمة التي تفتقد إلى التهوئة. سبق لي أن تجاوزتُ هذه الغرفة من دون أن ألاحظها، وفكّرت في أن هذه الغرفة تشتمل على هاتف بكل تأكيد.

توقّف الكلام فور دخولي الغرفة، وسرعان ما شعرت بحرقةٍ في عينيّ بسبب الدخان. وضعتُ يدي على مقبض الباب لفترةٍ، ولكنني شعرت بأنها عالقة هناك، وما لبث الباب أن انغلق بشدة. لكنني تمكنت خلال هذه الفترة الوجيزة من رؤية الأشخاص المتحلقين حول الطاولة. كان بعضهم يرتدون الزيّ العسكري، بينما ارتدى الآخرون بذلاتٍ رسمية أو سراويل جينز. رأيت رجلاً لا أعرفه جالساً إلى رأس الطاولة، ولم يكن حليق الذقن، بينما كانت بشرة وجهه وشعره الرقيق داكنَين. ارتدى الرجل قميصاً متقاطع الخطوط، ومن دون أن يرتدي سترةً أو يضع ربطة عنق. لكن، بالرغم من كونه الأقل أناقة بين الحاضرين إلا أنه كان الأكثر سلطة بينهم. وقبل أن ألاحظ ما يجري، أقدم

أحدهم على جذب رسغيَّ معاً، وأمسكهما بسرعة بيدٍ واحدةٍ، بينما ضغط على أسفل عنقي وصدم وجهي بالجدار باليد الأخرى. لم أكن بحاجةٍ إلى النظر خلفي لكي أدرك أن الغرفة مليئة، وإنما ليس بالنُدُل.

«ماذا كنت تفعل بحق الله يا أندريا؟! هل نمتَ مجدداً؟».

أتى الصوت من خلفي: «آسف يا سيّدي. خرجتُ لكي أدخّن سيجارة، وعندما عدت وجدته وهو يحاول فتح الباب». كان وجه أندريا ضاغطاً على وجهي بشدة، بينما فاحت من أنفاسه رائحة الثوم النيء والشراب.

«عظيم. ماذا سيحدث الآن؟». كان ذلك صوت شخصٍ آخر، لكن الصمت ساد بعد ذلك. وأخيراً، سمعت صوت كرسي يُجَرُّ على الأرض، ووقع قدمين تتقدّمان نحوي. وأحسستُ بلمسةٍ على كتفي، وما لبث الشخص الذي احتجزني أن أرخى قبضته عليّ قليلاً. «أخرِجه من هنا يا سيرجيو». عرفت على الفور أن صاحب الصوت هو مانيا قسطنطين الذي بدا حذراً إلى أقصى درجةٍ من الحذر والحدة. «لا بأس، سأعالج الأمر». كان من المفترض أن أشعر بالارتياح، لكنّ الأمر لم يكن كذلك. سمعتُ صوت تروفيم آتياً من خلفي، وكان يقودني عبر الباب، وأمرني بألاّ أستدير أبداً.

فيما كنتُ عائداً إلى الممر مسحت عنقي، وكان تروفيم لا يزال ممسكاً بذراعي، وقد فعل ذلك متظاهراً بمساعدتي، ولكنني شعرت بالوهن يسيطر عليّ أثناء مسيرنا. قال تروفيم بلهجةٍ قاسية ترافقت مع ابتسامة ناعمة وعينين تشعان بهجة، وقبل أن أتمكّن من فتح فمي: «لا تسأل عن أي شيء. دعنا الآن نساعد ليو في حفل وداعه الرسمي».

كانت حفلة ليو باردة. عاد مالتشيف، وأدار ظهره إلى المدفأة مراقباً الباب. توقّف عن الكلام فور دخولنا، وتطلع نحو تروفيم الذي أومأ له بلطفٍ زائد.

فَهِمَ مالتشيف الإشارة وقال: «تلقّيت تقارير هذه الليلة - في الواقع، قبل دقائق قليلة - تفيد بوجود تمردٍ على نطاق واسع في تيمشوارا، وقيل لي إن التمرد آخذٌ في الازدياد. سرت شائعات أيضاً، ولكنها لا تزال غير مؤكدة، تفيد عن وقوع عددٍ كبيرٍ من القتلى. إذ تقوم قوات الأمن بإطلاق النار بقصد القتل. كما تحدّث بعض الشهود عن وجود ذخيرة حيّة، ودبابات، وغاز مسيلٍ للدموع. يبدو أنها ليلة دامية جداً».

وقف ليو إلى يمين مالتشيف حاملاً كوباً بإحدى يديه، وزجاجةً باليد الأخرى. لاحظتُ أن الطعام والشراب على الطاولة كانا على حالهما، وشعرت بالخوف والتوقع اللذين يسودان الغرفة، كما شعرتُ بالغضب وبشيءٍ آخر يشبه اليأس؛ وهو الإحساس الذي يُنبئنا بأننا نسير بسرعة نحو وضعٍ مجهول.

نهضت أوتيليا عن مقعدها وقالت: «تحدثت مع كامبانو في المشرحة في وقتٍ سابقٍ من هذا اليوم... وقد قال لي إنه تسلّم جثثاً، العشرات منها، وهو يتوقع تسلّم المزيد... وأضاف أن معظم الضحايا ماتوا بسبب الرصاص، وقال إنه لاحظ وجود مؤشراتٍ تدل على تعرّض أصحابها للتعذيب... كما أن الجثث تُحرَق ليلاً... ».

قال مالتشيف: «يكتسب التمرد زخماً بسرعة، في آراج، وسانيكولاو ماير، وأوراديا... كما انتشرت المظاهرات المعادية لتشاوشيسكو في مناطق عدة. أما في براسوف فإن جماعة تُطلِق على نفسها اسم مجلس العمال الجديد قد دعت إلى إضرابٍ عام، في حين ألقي القبض على قادة المتمردين، لكنّ الإضراب ما زال مستمراً، ومجال الاضطرابات آخذٌ في الانتشار».

في هذا الوقت، بدأ تروفيم بالكلام أثناء اقترابه من مالتشيف بعد أن سكب لنفسه كوباً من الشراب: «ما زال الرئيس في إيران، ولكنه يعتزم اختصار زيارته

والعودة إلى بوخارست غداً. قيل له إن ما يحدث هو احتجاج حول الأجور والحصص الغذائية، وهو يعتقد أنه قادر على معالجة الأمور. سوف نرى ما الذي سيفعله. أما الآن، فقد تسلّمت إيلينا زمام القيادة، وأعطت الأجهزة الأمنية تعليماتٍ محدّدة للرد على الاضطرابات. وهكذا، رأينا هذا الرد».

عندها، تدخّل ليو مقاطعاً: «هل هذا هو ما يدفع الجنرال ميليا لأكل الطيور السمان في الغرفة المجاورة. هل طُرِد من وظيفته أم ماذا؟ وهل يعرف ذلك الرجل البدين بما يجري؟».

فأجاب تروفيم متشككاً: «أشكّ كثيراً في أن يكون الجنرال متحكماً بزمام أموره وأقداره في هذه الأيام. فقد أصبح واضحاً أن ما يفعله تشاوشيسكو لهذه البلاد لا يفعله باسم الحزب، ولا يمكنني أن أتخيّل أن الحزب بأكمله يقف وراء هذه الموجة الأخيرة من القمع». والتفتَ بعد ذلك نحو مالتشيف ليتأكد من موافقته على هذا الكلام، فما كان من هذا الأخير إلا أن أومأ.

أدركتُ ما يعنيه تروفيم، وذلك لأنني اقتحمتُ للتو اجتماع أزمة عقده الشيوعيون المنشقّون مثل تروفيم، وأعضاء كبار في الحزب مثل مانيا قسطنطين، والذين كانوا مجتمعين تحت اسم جبهة الإنقاذ الوطني. أما من تبقى من الأشخاص الذين اجتمعوا في غرفة لابيس - وهم أكثر اعتياداً مني على الكلام المزدوج - فقد فهموا الوضع على الفور. رفع أوزيراي كوبه إلى فمه؛ وهي طريقة الدبلوماسيين في إخفاء ردود أفعالهم، فيما ابتسم يونيسكو متوقعاً استعادته وظيفته القديمة في ظل ما يجري من تقلبات؛ الأمر الذي سيجعل منه قوة لا تُقهر، وذلك نظراً إلى الظلم الذي تعرّض له، الأمر الذي يسمح له بالتعويض عن ذلك الظلم. وهكذا، سوف تتمكن كلية توردا التقنية من الحصول على بوابين جدد ضمن وقتٍ قريبٍ جداً.

لكن، بالرغم من أن الجميع كانوا يعرفون ما قصده تروفيم بكلامه، إلا أن ليو كان الشخص الوحيد الذي كان مستعداً لمناقشته.

«الحزب... ماذا تعني؟ يُقال إن الجرذان تهجر السفينة الغارقة، أليس كذلك؟ ولكنها سوف تعود للتتجمّع في مكان آخر، ولعلها سوف تنزل أكثر إلى أسفل تلك السفينة. يا إلهي، لماذا ألجأ إلى هذه الكنايات البحرية اللعينة؟! ما أعنيه هو أنهم سوف يعودون إلى متابعة أعمالهم كالمعتاد... ».

«لا علم لديّ بخطةٍ كهذه يا ليو». وتطلّع تروفيم نحوي، لكنني أشحتُ بنظري بعيداً، «إنني أتكلم الآن بصفتي الشخصية، وهو كلام لا علاقة له... ».

«أتعرف يا سيرجيو؟ لا أصدّق ذلك ولو للحظةٍ واحدة. لكن، إذا كان ذلك يسهّل الأمر بالنسبة إليك فليكن، لن أذكر ذلك مجدداً. فما أعرفه هو أن الانتهازيين في الحزب - من أمثالك - قد استثمروا شيئاً ما في النظام. ما هو المثل الروماني القديم؟ بيت دعارة جديد، لكن المومسات لا يزلن أنفسهن... ».

«إن ما تقوله يا ليو لا أساس له أبداً. لا فكرة لديّ عن أي خطط. أنا كما يُقال خارج الحلقة، لكنني سمحت لنفسي بالتوقّع... ».

وهنا قاطعه ليو قائلاً: «أتقول توقعات؟ أتعتقد أننا لا نعرف؟ كان من المقرر أن توضع قيد الإقامة الجبرية، ولكنك هنا رغم ذلك، كما تحظى باهتمامٍ أكبر مما كنت ستحظى به لو كنتَ سفيراً للأمم المتحدة! إذاً، ما الذي نفهمه من كل ذلك؟! كما ينتشر في طول البلاد وعرضها تمردٌ كبير، ويُطلَق الرصاص على المتظاهرين. أما الجيش ففي حالة تأهّب، والجنود يأتون تحت جنح الظلام... لكنّ سيرجيو تروفيم سمح لنفسه بزيارة أصدقائه في كابسيا، كما أن سيارات داسيا سوداء تصطف خارج شقته... وها هو يقول إنه خارج الحلقة! ما هذا؟».

وهنا تدخل مالتشيف قائلاً: «اهدأ يا ليو!».

«أمّا بالنسبة إلى سيرجيو مالتشيف الموجود هنا، حسناً، فتوجد قصةٌ أخرى يتعيّن على المؤرخين إلقاء الضوء عليها. لا أظن أن الرفيق مالتشيف يعرف أي شيء عن هذا التدفق المفاجئ للسياح الروس إلى تيمشوارا وكلوغ وبراسوف. أما في بوخارست، فليس بإمكان المرء التحرّك من دون أن يلتقي الروس. لكن، ما الذي يفعلونه هنا؟ هل يتسوّقون لمناسبة الكريسمس؟». كان ليو مُحقاً في ما يقوله لأن الأسبوعين الماضيين شهدا ارتفاعاً ملحوظاً في عدد الزوار الروس الذين جاءوا إلى البلدات والمدن الرومانية. فقد جاء الشبان غير المتزوجين بسياراتهم، حاملين معهم آلات التصوير الخاصة بهم، وكميات كبيرة من الدولارات، لكنّ أحداً منهم لم يكن يشبه الزوار العاديين.

تقدّم أوزيراي خطوة إلى الأمام، وقال: «أعتقد أننا جميعاً قد قدّمنا ما يكفي من التوقعات. لكنّ الغاية من هذه المناسبة هي توديع ليو الذي سوف يرحل؛ وهو الذي كان صديقاً طيباً، وقدّم لنا قدراً كبيراً من التسلية، ووضعنا في بعض الأوقات في خطر، غير أنه قام أيضاً بتأمين ما نحتاج إليه على أكمل وجه... » عندها، رفع ليو يديه عالياً في إشارة إلى موافقته، ودعا تروفيم وآخرين للجلوس إلى الطاولة. لكنّ مالتشيف كان لا يزال متأثراً بالاتهامات التي ساقها ليو، غير أنه لم يتوقّف عندها.

أمسكت أوتيليا ذراعي وهمست: «لا أستطيع تحمّل البقاء هنا. أريد الذهاب إلى المنزل».

حاولتُ أن ألفت انتباه ليو بعينيّ، ولكنه كان منشغلاً جداً، ومنهمكاً في المصافحة وشرب الأنخاب، وفي رنّ جرس الخدمة. لذا، غادرنا أنا وأوتيليا المكان بينما كانت أولى دفعات الطعام تبدأ بالوصول فوق العربات، والتي كانت عبارة عن أطباق الكركند المطبوخ. تمكّنت من سماع شهقات الدهشة أثناء مرور هذه المخلوقات البحرية في العربات، بينما كان ليو يتفاخر بأنه اصطادها بنفسه.

رفع النادل حاجبيه فيما كان يُبقي الباب مفتوحاً لنا أثناء خروجنا، وكان مندهشاً من مغادرتنا باكراً. عرض علينا استدعاء سيارة أجرة خاصة، غير أننا رفضنا عرضه هذا.

كان ذلك خطأ كبيراً من جانبنا؛ لأن سيارات الأجرة التي تمتلكها الدولة تتوقف عن العمل في هذا الوقت، وكذلك الحافلات. وهكذا، اضطررنا للعودة إلى المنزل مشياً على الثلج. رأينا عدداً قليلاً من سيارات داسيا السوداء مركونة بعيداً جداً عن المطعم، وافترضنا أن تلك السيارات لا تنتظر ركاباً.

وبينما كنّا نجتاز مستديرة باحة الجمهورية سألتني أوتيليا: «ألا تعتقد أن ليو سوف يغضب؟ فهذا عشاء وداعي له، وكان يتعيّن علينا ألا نفوّته».

«لا يعتزم ليو الذهاب إلى أي مكان. صحيح أنه حصل على تذكرة سفر، إلاّ أن ذلك لا يعني شيئاً. وإذا أرادوا ترحيله فسيضطرون إلى جرّه إلى المطار... وبالإضافة إلى ذلك، إنه لا يعتقد أن ذلك سوف يحدث... أنتِ تعرفين ليو، سيجد طريقة للتملص من قرار ترحيله، كما أنني لن أُفاجَأ إذا تلقّى رسالة من تشاوشيسكو نفسه لإبلاغه أنه بإمكانه البقاء في البلاد... ».

«إنه يعتقد ذلك بالفعل، أليس كذلك؟ أيعتقد أنه منذ الآن وحتى مساء غد سوف يتغيّر كل شيء؟».

«لا أعرف. يُحتمل أن هذه مجرد خدعة، ولكنني أعرف أنه لا ينوي الصعود إلى متن تلك الطائرة غداً».

«وماذا بشأنك أنت؟».

«ماذا بشأني؟».

«على متن أي طائرة سوف تكون؟».

«أتمنى أن أكون في الطائرة ذاتها التي ستكونين على متنها. فقد تمكّن ليو من الحصول على جواز سفرٍ لكِ، وسوف يكون جاهزاً في الوقت المناسب».

«سبق لنا أن ناقشنا هذا الأمر... ».

«كلا، لم نفعل. فقد قلتِ لي إنك لن ترحلي، وهذا لا يشبه أبداً مناقشة الأمر بالفعل... ».

اعترضَ طريقنا خارج الأثينيوم رجل شرطة، وطلب منا إبراز بطاقتَي الهوية. شعرت أوتيليا بالارتياح عندما رأته. صوّب الشرطي مصباحه اليدوي نحونا وتفحّص أوراقنا، ثم دوّن المعلومات المتعلقة بنا، واحتفظ بأوراق أوتيليا. في هذا الوقت، كانت ندف الثلج قد بدأت تتساقط بكثافة وكأنها قصاصات أوراق متناثرة. قال الشرطي: «يتعيّن عليكِ الحضور إلى مركز الشرطة غداً بين الساعة الثامنة والتاسعة صباحاً، وعندها سوف تستعيدين أوراقك». استنتجت من ملامح وجهه أنه يصرخ، لكنّ صوته وصل إلينا بما يشبه الهمس بسبب صفير الرياح والثلج المتساقط.

كان التيار الكهربائي مقطوعاً وكذلك إمدادات الغاز، كما كان البرد قارساً والظلمة حالكة، فشعرنا وكأننا لم نعش في هذه الشقة مطلقاً. أشعلتُ عود ثقاب، وأضأت شمعة، ثم تلمّسنا طريقنا نحو وسط غرفة المعيشة، وهناك قمتُ بتشغيل سخّان غازٍ صغير الحجم. أعطانا هذا السخّان الصغير ضوءاً يكفي للرؤية. ولحسن الحظ، كان جهاز الراديو مزوّداً ببطاريات. لكن، ما إن وضعت يدي عليه لتشغيله حتى أمسكت أوتيليا برسغي.

«لا تفعل، أرجوك. لا أريد أن أسمع المزيد من الأخبار والإشاعات والتوقعات. لا أريد أن أعرف بما يجري... » تبعتها إلى غرفة النوم، وحملت سخّان الغاز أمامي بعناية، ثم وضعته بجانب السرير. خلعنا ثيابنا وسط الظلمة والبرد الشديد،

وقمنا بعلاقة حميمة في العتمة إلى أن انطفأ السخان، وإلى أن تجمّد العَرَق على جسدينا. بعد ذلك، نهضنا وارتدينا ثيابنا مثل الأشخاص الذين يجهّزون أنفسهم استعداداً للذهاب إلى العمل، ثم عدنا إلى السرير لننام.

أذاعت جبهة الإنقاذ الوطني بيانَها الرسمي الأول في تلك الليلة. وبحلول الصباح التالي، تسلّم راديو موسكو، وراديو أوروبا الحرة نسخاً ورقية من البيان. وقد أعلنت الجبهة في بيانها عن كونها حزباً سياسياً ديمقراطياً رسمياً، ودعت إلى استقالة تشاوشيسكو، أو إلى قيام الحزب الشيوعي بتنحيته، كما أعلنت عن دعمها لحركات التمرد التي برزت في تيمشوارا وأماكن أخرى. وفي هذه الأثناء، زعمت التقارير الواردة من تيمشوارا أن المئات قد قُتلوا. يُضاف إلى ذلك أن العمّال في مصنع تيميس للكيماويات قد وجّهوا إنذاراً إلى الجيش، وخيّروا الجنود بين الانضمام إليهم أو مغادرة المدينة، وإلا فإنهم يعتزمون تفجير المصنع ومعظم المدينة.

أمضيتُ مع أوتيليا فترة الصباح في الاستماع إلى الراديو. وفي ذلك الوقت، كنا قد نسينا كل شيء عن ليو، ولكنني لاحظتُ وجوده فجأة. إذ وقف في مدخل الغرفة من دون أن يحلق ذقنه ومرتدياً ثياب نومه. عندها، بدأت بالكلام معتذراً عن مغادرتي باكراً في الليلة الفائتة، ولكنه ابتسم ولوّح بيده دلالةً على عدم اكتراثه.

قال ليو: «عاد الرفيق الأول من الخارج».

خيّم جوٌ ربيعي في غير موعده، وبشكلٍ مستغرب، على بوخارست في 21 كانون الأول. إذ كان الطقس مشمساً، وحركة السير عادية، والمتاجر مفتوحة. كما فتحت المقاهي والمطاعم التي تغلق أبوابها في موسم الشتاء أبوابها للزبائن الكُثُر الذين توافدوا عليها، وقدّمت لهم خدماتها. شربنا في الأثينيوم قهوة

الصباح بدلاً من إرساتز، ولاحظنا أن موادّ مثل الزبدة والطحين واللحم قد ظهرت في المحلات بشكلٍ مفاجئ. يُضاف إلى ذلك أن الوقود قد عاد ليتوافر في المحطات، وعادت أدخنة عوادم السيارات فجأةً لتملأ الأجواء؛ بمثل السرعة التي اختفت فيها.

تحولت المدينة إلى مصنعٍ كبيرٍ للشائعات، وكان أبرزها أن الشرطة في تيمشوارا قد انقلبت على الجيش، وأن الجيش قد انقلب على الشرطة، وأن الفريقين قد انقلبا على رجال جهاز الأمن. وأضافت الشائعات أن الجنرال ميليا قد استُدعِي إلى القصر حيث أُلقيَ القبض عليه، وأن المتظاهرين قد اجتاحوا المقر الرئيس للحزب في ألبا يوليا، وأن رجال الشرطة قد سمحوا لهم بالدخول. وفي هذه الأثناء، تزايدت أعداد الضحايا في تيمشوارا. لكن، بينما تحدّثت الصحافة العالمية عن عددٍ قليل من القتلى، تحدّثت الشائعات عن الآلاف منهم. وراجت بعد ذلك شائعات عن عمليات شنق عشوائية يقوم بها رجال الأمن على أعمدة مصابيح الشوارع في ماراموريس، وكرايوفا، وتارغوفيست. أما في سيبيو - وهي منطقة نيكولاي تشاوشيسكو - فقد أعلنت مجموعة من مسؤولي الحزب المنشقين عن تأييدها لجبهة الإنقاذ الوطني. أُلقي القبض على تلك المجموعة ثم أُطلِق سراحها، أما مقرّ الحزب الرئيس في سيبيو فقد أُحرق بكامله. وسرت شائعات أيضاً عن أن تشاوشيسكو يتعاطى الكوكايين، ويقوم بإطلاق النار على الناس بنفسه، وأنه استسلم للمتظاهرين، وأنه موجود في فرنسا. لم تكن أي من تلك الشائعات مستبعدة. غير أن المثير للسخرية هو أن الشائعة الوحيدة المُستبعَدة وغير القابلة للتصديق - وهي أن أحد القضاة الشجعان في منطقته قد أصدر مذكرة بحث وتحرٍّ عن نيكولاي، وأمر بإلقاء القبض عليه بتهمة الاغتصاب - كانت حقيقة.

كان الجو في الجامعة أكثر صخباً وحماسة، فقد وقف الطلاب في مجموعات

لرسم الخطط، بينما عمل رجال الشرطة على تفرقتهم؛ ولكنهم فعلوا ذلك من دون حماسة. وقد قام أحدهم بنسخ صورٍ على جهاز الستانسل وتوزيعها على جدران الممر، ويظهر فيها غورباتشوف مرتدياً ثياب سانتا، فيما ظهرت إلى جانبه هدية كبيرة على شكل خريطة رومانيا. وقد برزت على الجهة الأمامية من الهدية كلمة تيمشوارا بأحرفٍ بيضاء، كما تكررت فوق الفناء. بعد ذلك، مررتُ بمحاذاة غرفة التصوير التي كانت مقفلةً على الدوام فوجدتها مفتوحة، ولكنها كانت تحت حراسة روديكا. وفي الداخل، كانت تلميذتنا جوليا تنسخ الصفحة الأولى من عدد هذا اليوم من صحيفة هيرالد تريبيون، فتجمّعت مئات النسخات. وقد جاء العنوان الرئيس في الصحيفة على الشكل التالي، مجزرة في تيمشوارا، وتحت هذا العنوان كان العنوان الفرعي: تزايد المخاوف من حدوث ساحة تيان آن مين جديدة: الآلاف قد قُتلوا. سألتُها مشيراً إلى كلمة الآلاف: «هل هذا صحيح؟». فكان جوابها: «لا أهمية لهذا سواء أكان صحيحاً أم لا، بل المهم أن يعرف الشعب». وكان من الواضح أن ثقافتها الديالكتيكية لم تذهب سدى.

كنتُ الوحيد الذي التحق بوظيفته في ذلك اليوم، وقد شغلت نفسي بأعمال غير مهمّة. وقد كانت تلك طريقةً مناسبة لأتجنّب حقيقة انتهاء عملي، ولأقنع نفسي بأنني لا أزال هنا في الخامس من كانون الثاني. وهكذا، قمتُ بترتيب مهامّ عديدة لي في الأيام القادمة: موعدٌ غرامي هنا، وموعد اجتماع هناك. كما ملأتُ مفكرة مكتبي بيوميات ما حدث في شهر كانون الثاني. نظرت إلى باحة الجامعة للمرة الأخيرة ربما بالنسبة لي. كانت هذه هي المناظر الأخيرة التي شاهدها بيلانجر، وهنا كرسيّه، وهنا مكتبه. رأيت أيضاً ما خطّته يداه. وبينما كنت أقلّب ورقة الملاحظات اللاصقة والملفوفة التي تتضمن رقم هاتف سيليا، رحتُ أتساءل عمّا إذا كان بيلانجر يشاهد الأحداث وهي تتكشف أمامه على شاشة

التلفزيون، وعمّا إذا كان يختار في هذا الوقت الإشاعة التي يرغب في تصديقها من بين الإشاعات الخمسين المختلفة التي انتشرت؛ لا بدّ أن تكون الإشاعة التي تخدمه أكثر من غيرها. وفي تلك اللحظة رنّ هاتفي.

صاح ليو في الطرف الآخر من الخط: «لن يُعرض كوجاك هذه الليلة». كان ليو يتصل من أحد أكشاك الهاتف، ولكنني سمعت هدير طائرة في الجو. «سيُلقي الرفيق الأول خطاباً يُبَثّ على شاشات التلفزيون عند الساعة السادسة مساءً، وسيكون البث مباشراً، وسيوجّه الخطاب إلى الأمة».

«وماذا سيقول في الخطاب؟».

«ماذا سيقول؟؟!! كيف لي أن أعرف بحق الله؟ هل أنا كاتب خطاباته أم ماذا؟ على كل حال، ليس المهم ما سيقوله، بل المهم هو قدرته على إلقاء الخطاب».

«أين أنت الآن؟».

«أنا في المطار».

«ماذا؟! هل ستسافر؟».

«بالطبع لا. لكن، بما أنني حصلت على تذكرة سفر وجواز سفر فقد فكرت في أنه بإمكاني شراء شيء ما من السوق الحرة، وختم تأشيرتي، ثم الخروج في وقت إلقاء الرفيق الأول خطابه إلى الأمة. كما حصلت أيضاً على جواز سفر أوتيليا. ستسافر مع الآنسة تاتيانا بولوفا، طالبة الهندسة، وهي فتاة من لينينغراد».

كنتُ على وشك أن أسأل ليو عن كيفية خروجه من المطار، وعن كيفية تمكنه من إقناع أوتيليا بأخذ جواز السفر ومغادرة البلاد غير أنني تراجعت عن ذلك. فأنا أعرف أن كل شيء أصبح ممكناً الآن؛ فالبلاد تتوحد وتتفكك في الوقت ذاته، ولا بد أن ليو سوف يملأ حقيبته بالمشروبات والسجائر، وسوف يلجأ إلى

استعمال الرشوة للخروج من مبنى المطار بينما يكون اسمه وارداً في قائمة المسافرين. ويعني ذلك أن ليو سوف يكسب يوماً أو اثنين كحد أقصى. لكن، يُحتمل أن ذلك هو كل ما يحتاج إليه.

التقينا في كارباثيان بور، وهناك تكفّل ليو بدفع ثمن مشروبات كل الحاضرين. كان المكان مزدحماً جداً، لدرجة أننا اضطررنا إلى الوقوف جنباً إلى جنب لسماع خطاب تشاوشيسكو إلى الأمة. كان منحنياً إلى الأمام ليَقرأ من ورقة راحت تهتز في يده، بينما ظهرت إيلينا خلفه حاملة حقيبة يد، وبدت قلقة مثل ثاتشر، وظهرت ثلاث حقائب سفر إلى جانبها.

بدا الرفيق الأول متعباً وكبيراً في السن. وقد زعم تشاوشيسكو أن الشائعات المنتشرة والتي تتحدث عن مقتل آلاف الناس غير صحيحة، وأن عدد القتلى لا يزيد عن عشرة، وأنّ كلاً من أولئك القتلى كان عميلاً لجهاتٍ خارجية. استخدم الرئيس الشعارات الشيوعية المألوفة والجامدة، وأثنى على رجال الشرطة والجيش، كما استخدم عبارات مثل: المخرّبون الرأسماليون، وأعداء السيادة الرومانية، والمحرضون الرأسماليون... كانت العبارات المستخدمة تماثل تلك التي ظهرت في المحاكمات الستالينية. ضحك الناس وبصقوا على الأرض عند سماعهم هذه الشعارات، ووصفوه بالأخرق المسن، وستالين، ودراكولا. أنهى تشاوشيسكو خطابه الذي استمر لمدة خمسين دقيقة بالإعلان عن زياداتٍ على الأجور، بالإضافة إلى زيادة المنح الدراسية للطلاب. عندها، صاح أحد الحاضرين من الخلف: «وأين ذهب كل ذلك الإنفاق بحق الله؟». تصاعد التصفيق بعد أن أنهى تشاوشيسكو كلامه. لكن، إذا كان هذا التصفيق يصلح كمقياس للمزاج العام، فإن هذا يعني أن الرفيق الأول لم يعد باستطاعته الاعتماد على أكثر أسلحته فعالية؛ أي الخوف.

لكنّ حسابات تشاوشيسكو كانت خاطئة. وقد بدا ضعيفاً، ومراوغاً، ومتعباً من

السفر، ومشوّش الذهن؛ وهو الذي يكون عادة شديد الانتباه. كما كان صوته عالياً وأنفاسه متقطعة. وقد بدا جلده شاحباً، وبدا نحيلاً ومنتفخاً في الوقت نفسه. لا بدّ أن أداءه الليلة سيؤثر على تفسير كل تحركاته القادمة. فقد أظهر تشاوشيسكو ضعفه، ولا شك بأن الناس سينتقمون منه بسبب ضعفه هذه المرة، وذلك بالقدر نفسه الذي سينتقمون منه بسبب القوة التي كان يُظهِرها من قبل. «فعل ستالين كل ما كان سيفعله رجلٌ في مثل مركزه». أجل، هذا صحيح، لكنّ ستالين امتلك الخوف كسلاح بيده حتى النهاية. كان تشاوشيسكو يشبه قصره تماماً: مجرد واجهة تستند إلى فراغٍ متشعب.

عادت أوتيليا عند الساعة الحادية عشرة وإنما من دون هويتها. فقد طُلِب منها الانتظار في مركز الشرطة لمدة ساعتين من الزمن، ثم طُلِب منها مغادرة المكان، وقيل لها إن رجل الميليشيا الذي أخذ بطاقة هويتها قد نُقِل فجأة إلى قطاع آخر، وإنهم لن يطلبوا منها أي شيء بعد الآن. قال ليو: «إنهم يستمرون في مراقبة الناس طوال الوقت، ثم يتوقفون عن الاهتمام بهم فجأة». وقد كان ليو محقاً؛ لأن النظام بدأ بالتفكّك إلى مكوناته، أي الإرهاب وعدم الاكتراث. ولأن المركز بدأ بالانهيار، تُرِك هذان العنصران يتصارعان بعنف وغموض، ومن دون الوصول إلى أية نتيجة؛ فالإرهاب وعدم الاكتراث يشبهان رجلين ثملَين يتعاركان ببطء حول مقعدٍ في المتنزه.

ناول ليو أوتيليا جواز سفرها الروسي الجديد، فتفحّصته قليلاً ثم ضحكت قائلة: «تاتيانا بولوفا! سأتمسك به لأنه الورقة الثبوتية الوحيدة التي أمتلكها الآن... سأرى إلى أين سوف يُفضي بي». عندها، تطلّع ليو نحوي ورفع حاجبيه. إذ كنّا كلانا نعرف أنه لا يجدر بنا الضغط عليها. لكن، بقي احتمال استخدامها لتذكرة شركة تاروم وارداً.

عند الساعة الخامسة من صباح يوم 22 كانون الأول، تجمّعت قافلة من

العربات المدرعة بطول كيلومترٍ واحد على طول بوليفار أفياتوريلور، كما تمّ استدعاء المزيد من الجنود، ووصل مئاتٌ آخرون إلى مركز باساراب، حيث نقلتهم شاحنات عبر كاليا غريفيتاي إلى وسط المدينة. وبعد وصولهم إلى هناك، اختفى الجنود في معسكرات أمنية مغلقة، ولكنها مموهة على أساس أنها منازل عادية.

كان جهاز الراديو مصدر الأخبار المهمة عندنا، لكنّ الشارع هو الذي أعطانا تفاصيل الأحداث: فقد ظلّت محرقة المدينة طوال الليل مشغولة بإحراق جثث قتلى تيمشوارا التي تم نقلها بواسطة الحافلات، وذلك قبل إفراغها في الأفران؛ من دون الاكتراث للأسماء. أما في تيمشوارا ذاتها، فقد تراجع الجيش مُذعِناً للعمال. بدا الإضراب صلباً، كما بدأ بالانتشار. وهكذا، أصبحت منطقة الغرب بأكملها في حالة ثورة. ففي المناطق الحدودية مع يوغوسلافيا، وروسيا أو بلغاريا، بدأت أجهزة القمع بالتفكّك. ولكن ترافق مع كل هذه الفوضى شيء آخر؛ غياب الفعالية المنهجية المتطرفة، وغياب عناصر الجهاز الأمني. بينما عمدت أجزاء أخرى إلى الرد بشدّةٍ لا مثيل لها. أما في إياسي، فقد تراجع الجنود ورجال الشرطة ليسمحوا للناس باجتياح المباني العامة ونهب المحلات التجارية. وفي ماراموريس، اشترك الجنود ورجال الشرطة مع الناس في تلك العمليات. في حين أنهم في كلوج عذّبوا الناس، بل وقتلوهم وأحرقوا جثثهم في محارق النفايات.

تحدّث راديو بوخارست عن حالة الطوارئ للمرة الأولى. وراح المذيع يقرأ قائمة تضمّنت أسماء المشتبه بهم العاديين؛ أي المتمردين الإمبرياليين - الرأسماليين، والقوى الرجعية، والإرهابيين من الأجانب، وذلك قبل أن يبدأ بطمأنتنا بالقول إن الوضع تحت السيطرة. أُذيع خطاب آخر للقائد في وقتٍ لاحقٍ من هذا اليوم، وكان صدى مقصوداً للنصر العظيم الذي حققه قبل واحدٍ وعشرين عاماً،

أي بعد ربيع براغ. وكان من المُقرّر أن يُبثّ الخطاب تلفزيونياً من شرفة المقر الرئيس للجنة المركزية في باحة الجمهورية. أما اللافت في الموضوع فكان أن الرجل الذي أدان الروس لأنهم تدخلوا في تشيكوسلوفاكيا يُدينهم الآن بسبب عدم تدخلهم في بلده في هذا الوقت.

أصدرت جبهة الإنقاذ الوطني بيانها الثاني في غضون دقائق قليلة. وقد دعا البيان تشاوشيسكو إلى الاستقالة، والجيش والشرطة إلى عدم إطاعته، والعمال إلى الالتزام بالإضراب العام. لكنّ واقع تسليم جبهة الإنقاذ الوطني بياناتها لوسائل الإعلام الغربية في غضون دقائق قليلة من تسطيرها يوحي بأنها تمتلك درجة استثنائية من الوصول إلى وسائل الإعلام تلك. فكّرتُ في مانيا، وتروفيم، والآخرين الذين رأيتهم في تلك الغرفة، ورحت أتساءل: هل يتابعون جلستهم المفتوحة؟ وما هي الجهة التي تحميهم؟ وكيف يتمكنون من تهريب بياناتهم إلى الخارج؟

بعد مرور أسابيع عديدة من التظاهر بعدم الاكتراث، كانت رؤية بعض الهلع في السفارة البريطانية أمراً يدعو إلى الارتياح. إذ كان ما يجري في السفارة يأخذ شكل الاضطراب الرسمي المؤسساتي، والذي أتذكره من أيام الأفلام التي شاهدتها في المدرسة في الفترة التي قضيتها في الخدمة العامة وتعليماتها: في حال حصول انفجار نووي اختبئ تحت الطاولة، واحتفظ بمؤونة من الحبوب المشوية تكفي لمدة ستة أشهر. وفي هذه الأيام، خيّمت على البلد حالة مشابهة. فقد جاء الرد البريطاني الرسمي التقليدي بتخزين الأطعمة المعلبة، وتجهيز أوعية الشاي. أما الموظفون الذين لم يغادروا البلد في الأسبوع الفائت فقد امتنعوا عن التجوال، وبقوا في أماكنهم. وانهمكت زوجات الموظفين في السفارة في فتح علب الحليب الكرتونية التي تبقى صالحة لفترة طويلة، وعلب بسكويت ريتش تي. وقد عمد الموظفون أيضاً إلى وضع حفنات من أكياس الشاي في أوعية الشاي المعدنية

التي كانت ضخمة ومزودة بمقابض عند الجهة الأمامية منها والخلفية. تسمح الأزمة الحسنة بالانغماس فيها مباشرة، وبالتفرج عليها في الوقت ذاته. وقد كانت هذه أزمة حسنة بكل المعايير. وقد أدّت هذه الفترة من الهرج والمرج إلى إظهار أفضل ما عند البريطانيين.

كان ونترسميث في أفضل حالاته. وبغضّ النظر عن الحالة السائدة في البلد، كان منذ البداية يطمئننا بالقول إن كل شيء على ما يرام، وإن العمل يجري كالمعتاد؛ مع التركيز الشديد على كلمة العمل بحسب ما يقصده. كان أوزيراي محقاً؛ إذ تفرض الطبيعة ألاّ يتذكّر المرء الأخطاء أبداً لأنه ليس مسؤولاً عنها. والظروف نفسها هي المسؤولة؛ لأنها لم توضِّح مقصدها منذ البداية.

كان لقب فارس الإمبراطورية البريطانية بانتظار ونترسميث في نهاية المطاف؛ سواء أحصل عليه عن جدارة أم لا. وكان ذلك أمراً حتمياً ومفروغاً منه بالنسبة إليه. ارتدى الرجل بنطالاً مموهاً، واعتمر قبعة باناما، كما علّق سكين الجيش السويسري في حزامه. يُضاف إلى ذلك أنه أخذ دروساً من فرنكلين شاربنيل، وبدا كما لو أنه أحد أفراد الكشافة المغامرين.

«تلقّينا اتصالاً من جبهة الإنقاذ الوطني، ونحن مهتمون بالتحدث إليهم. لا توجد دلائل تشير إلى إمكانية وصول الأمور إلى درجة الخطر هنا في بوخارست. ويعني ذلك أنه إذا بقيت الحكومة في السلطة فإن شيئاً لن يتغيّر. أما إذا لم تبقَ في السلطة، فكل المؤشرات تدل على حدوث انتقال سلمي ومنظّم، ومن دون سفك الدماء؛ أي على غرار ما حدث في دول أوروبا الشيوعية».

«متى سوف يكون بإمكاننا معرفة أي شيءٍ سوف يحدث على وجه التأكيد؟».

«حسناً، سيُدلي الرئيس تشاوشيسكو ببيانٍ هذا المساء، وأتوقع أن تتوضح الأمور أكثر بعد إلقاء البيان. فمن المؤكد أنه سوف يُلقي الضوء على بعض السياسات.

فإما أن يتبع الخطاب انتقالٌ سلمي للسلطة، أو تحرير عام للنظام الحالي؛ فالتغيير ليس قلعةً رومانية حصينة ينبغي اقتحامها».

الدبلوماسية هي القدرة على مواجهة المستقبل وجهاً لوجه من دون النظر إلى عينيه.

كان من المقرر أن يتم بثّ خطاب الرفيق الأول مباشرةً عند الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم. أشار عقربا الساعة الآن إلى الحادية عشرة صباحاً. كان الثلج الممتزج بالأوساخ مكوماً على جوانب الطرقات، وقرب الجدران. وفي هذا الوقت، وُضِعت قوات الشرطة والجيش تحت مراقبة جهاز الأمن، وامتلأت الصفحات الأولى للصحف المعروضة في أكشاك البيع في ذلك اليوم بالبيانات التي تهدف إلى رفع المعنويات، وبالتشبيهات البرّاقة الجاهزة المأخوذة من كتب النمو الاقتصادي. كما زادت حدة الدعاية السياسية في هذه الأثناء، وظهرت لوحات جديدة على جوانب الطرقات، واستعادت الشعارات البطولية عافيتها: الوحدة، القوة، القيادة، وعاش الحزب الشيوعي الروماني، وتشاوشيسكو، بطولة، رومانيا، الشيوعية. قرأتُ قصيدة بالينسكو الجديدة سريعاً؛ وهي التي ظهرت في الصفحة الأولى من صحيفة سينتيا. وقد استخدمَتِ القصيدة صورة شبكة الكهرباء القومية لوصف محبة المواطنين الرومانيين العاديين لقائدهم؛ حيث يُقدِّم كل مواطن التيار الكهربائي الخاص به إلى محطة الطاقة العظيمة؛ وهي بلده.

وُضِع الكثير من الحواجز في باحة كاليا فيكتوريا، فانعدمت الحركة فيها. ونزلت حشود المواطنين من الحافلات المزدحمة التي ضجّت بالهتافات، حاملينَ معهم اللافتات القديمة، كما ارتفعت أصوات الموسيقى الشبابية من مكبرات الصوت، وصرخ رجال الشرطة بتعليماتهم حاملين أبواقهم وعصيّهم، وقاموا بتنظيم الحشود في صفوف. ولكن، برز فوق هذا المنظر مشهد ثلاثة من أفراد جهاز

الأمن الذين كانوا يراقبون بعضهم بعضاً بدلاً من مراقبة العمال. ولم يُظهِر أحد منهم أي إشارة تدلّ على أنهم لاحظوا استياء المتظاهرين المتزايد ومقاومتهم للسلطة.

كانت تلك هي المظاهرة الشعبية الضخمة التي كنّا نتوقعها، وكان العمال متحمّسين جداً لإظهار الولاء. تطلعتُ عبر الشارع إلى تقاطع آفياتوريلور ومودروغان، ورأيت جسم تروفيم المنحني قليلاً والمألوف لديّ. كان يسير وحده معتمراً قبعة أستراخان مصنوعة من فرو الحمل، وواضعاً بعناية وشاحاً حجب كل ملامح وجهه ما عدا عينيه. مرّت حافلة فحجبته عن ناظريَّ، وعندما تطلعت مجدداً إلى حيث كان يقف، كان قد اختفى.

وفي غضون نصف ساعةٍ من الزمن، تمكّنت من تعداد ثماني وعشرين حافلة مرّت. وكانت كل منها تحمل ما يزيد عن خمسين شخصاً. لكن، بالرغم من اعتيادي وعدم شعوري بالدهشة حيال أي شيء يحصل هنا بعد أن أمضيتُ وقتاً قصيراً في هذا البلد، إلا أنني دُهشت كثيراً من الطريقة التي عامل بها جهاز الأمن المتظاهرين. غير أنّ ذلك كان الوقتَ المناسب لإظهار قدرٍ قليل من الروح الرفاقية. لكن، هل كان من الحكمة أن تُملَأ المدينة برجالٍ في سن العمل في وقت الأزمة القومية، ثم أن يتم إقحامهم مثل قطيعٍ من الماشية في هذا المظاهرة من احتقار الذات؟ جرّ العمال لافتاتهم على الأرض فابتلّت بالوحل، والثلج رمادي اللون، والمياه الوسخة. واستمروا يبصقون أثناء تسليمهم صور تشاوشيسكو. تجادل عددٌ منهم مع رؤسائهم، وأولئك الذين كانوا منتمين إلى النقابات، أو العمال في المتاجر الذين بالكاد كانوا يتحكمون بزمام الأمور.

كانت هناك ساعتان ريثما يبدأ الخطاب المهم والمنتظر؛ هذا على افتراض أن الخطاب سوف يبدأ في الوقت المحدّد. لكن، فكرة مَن كانت هذه؟! فقد كانت فكرة غبية إلى درجة لا تُصدَّق. إذ إن القائد الذي يثق بالدعم الشعبي وولاء

المؤسسات وحده من يستطيع القيام بمثل هذه المخاطرة. لكنّ تشاوشيسكو كان يفتقر إلى هذه الثقة. وقد بدا على شاشة التلفزيون عجوزاً ومشوشاً. كان هو أو زوجته مَن أمر بارتكاب المجاز في تيمشوارا وبراسوف. وقد انتشرت الإضرابات والمظاهرات في كل أنحاء البلد. يُضاف إلى ذلك أن جماعة معارضة جديدة قد دعت إلى تنحيته. لكن، بالرغم من كل ذلك، قرّر - أو أُقنِع - نقل مئة ألف شخص إلى وسط المدينة لإظهار ولائهم له. «الناس يحبوننا. الناس يحبوننا، ولن يسمحوا بهذا الجنون... » هذا ما قالته إيلينا لاحقاً أثناء المحاكمة.

شعرتُ بجفافٍ في فمي وبضيقٍ في صدري، واقشعرّ بدني بسبب الدهشة، وعجزت عن توقع ما سيحدث. ولكنني شعرت به في ذلك الوقت؛ شعرت بالسكون الذي يسبق العاصفة والأحداث المهمة. كان ذلك هو الإحساس بأن شيئاً ما سوف يحدث، وهو الإحساس ذاته الذي تولّد لدى ليو، وأوتيليا، وتروفيم، وأوزيراي، ومالتشيف، وآخرين. لكنني عجزت عن إدراك كل ذلك حتى الآن. بدا الأمر وكأنني دخلت في نسيج الأحداث، لكنّ ذلك لا يعني أنني أتمكّن من التحكم بها أو حتى توقّعها، غير أنني شعرت بها وهي تتراكم - حتى إن كانت مبهمة قليلاً وغير واضحة - وقد أصبحت جاهزة لتتحقق.

في طريق عودتي زرتُ تروفيم، ولاحظت أن منزله من دون حراسة. لكنّ تناقصاً مفاجئاً في أعداد أفراد الشرطة كان ملحوظاً في كل مكان؛ ما عدا وسط المدينة. طرقتُ على الباب فلم أسمع رداً من أحد، إلا أنني سمعت أصوات أشخاصٍ يتحدثون، ثم ساد صمتٌ من نوع الأصوات المكتومة. وبعد قليل، أظلم منظار رؤية الزائرين للحظةٍ من الزمن، وما لبث أوليانو أن فتح الباب. كان مرتدياً بذلة وواضعاً ربطة عنق وحليق الذقن، وقد غابت عنه مظاهر الشاب البلشفي بنظارته مستديرة العدستين وذقنه التي كانت بمثابة علامة تميّز المنشقّين.

اكتسب الشاب الآن مظهر الرجل السياسي.

«آسف، منَعنا صوت الراديو من سماع طرقاتك على الباب». ثم تطلّع إليّ بعينين ثابتتَي النظرات تميّزان الكاذبين، ففهمتُ من كل ذلك أنه يريد مني الانصراف.

«أبلِغ سيرجيو أنني سأسافر غداً على متن رحلة الظهيرة، وأنني أحب أن أراه قبل رحيلي لأنني لا أعرف متى سأعود، أو لا أعرف ما إذا كانت عودتي أمراً ممكناً بعد... » غير أنني سرعان ما كنت أوجّه كلماتي إلى بابٍ مغلق. شعرت بخفةٍ كبيرة، وبأنني من دون قيودٍ مجدداً. كنت أنزلق إلى الهوامش حتى هنا وأنا موجود في مركز الأحداث. شعرت وكأن تياراً خفياً يدفعني إلى أماكن تتزايد تباعداً شيئاً فشيئاً.

عند وصولي إلى شقتي، كانت الساعة تقارب الواحدة. أسرعت بتشغيل جهاز التلفزيون الذي كان يعرض مجموعة مختارة من الأغاني الوطنية، ومشاهد من المؤتمرات الحزبية، وزيارات الدولة التي قام بها الرئيس. وتخلّلت هذا العرض مقاطع من التصفيق الحار والإحصاءات الاحتفالية عن مستويات الناتج القومي والإنتاج. لم أفهم عن أي إنتاجٍ يتحدثون! لكن، مهما كانت نوعية ذلك الإنتاج فقد كان متصاعداً عاماً بعد عام. أما الجرّارات، والنفط، وسيارات داسيا، والطحين، والفولاذ، والحديد... فقد كانت كلها وفيرة ويتم إنتاجها بفعالية؛ حيث إنها امتدت ارتفاعاً مع كل محورٍ عمودي للرسوم البيانية التي وُضِعت فيها. لكنّ العامل الوحيد الذي لم يعرف الزيادة كان عدد المشاهدين الذين لم يُصدِّقوا أي معلومة وردت في هذه الرسوم البيانية.

أخفضت صوت التلفزيون، لكن ما إن جلستُ على الأريكة حتى اقتحم ليو الغرفة قائلاً: «هذا هو الجنون بعينه. إنّ ما يحدث هناك جنون تام. فقد أحضروا الجميع إلى الباحة الرئيسة في المدينة، لكن من دون أن يفعلوا أي شيء

سوى الانتظار. وقد حدثت مشاجرات كثيرة هناك. تقف شبيبة الحزب في المقدمة بهدف التصفيق، وهم يقفون بثلاثة صفوف. أما على جوانب الحشود فيقف رجال الجهاز الأمني، ولكننا نجد في الوسط العمال الموالين الذين يتعرضون لشتّى أنواع المضايقات. صدّقني - أنا الذي رأيتهم بنفسي - حين أقول لك إنهم على وشك انتزاع عينَي الرفيق الأول من صوره. وقد بدأ رجال الأمن باعتقال الناس بالفعل. إذ يقوم رجال الأمن بين الحين والآخر باختراق الحشد وجرّ أحد المتظاهرين إلى الخارج، وسرعان ما يختفون معه. لكن، إلى أين يأخذونهم؟ الله وحده يعلم».

«رأيتُ الحافلات وهي تُفرِغ أولئك البائسين، ولكنهم لم يكونوا مبتهجين كثيراً عند وصولهم إلى هناك».

«لا شك في ذلك؛ فالأمور قد خرجت من عقالها. رأيت أثناء مروري في شارع كيسليف مئات النساء اللواتي وقفن عند أحد الحواجز بعد أن أُمرن بالعودة. لم تُعبّر النسوة عن أي ولاء، بل كنّ يصرخن ويتدافعن، بينما وقف رجال الشرطة في حيرة من أمرهم. اصطحبت بعض النسوة أولادهن معهن، وحملن أطفالهن الرضّع، بينما راح الأولاد الصغار يركضون في كل مكان. كما لوّحت الأمهات البطلات بأذرعهن السمينة. حدثت اعتصامات في كل المصانع، كما ظهر عمال المناجم في الشوارع... من دون أن تفعل الشرطة شيئاً. أما في المدينة ذاتها، فقد انتشرت المشاجرات وأعمال النهب، وكثرت الهجمات على مكاتب الحزب، فيما كان الجيش منشغلاً بالسيطرة على المظاهرات. وبالنسبة إلى تيمشوارا، لا أحد يعرف كم من الناس لقوا مصرعهم. لكن، بغضّ النظر عمّا يجري، يمكننا القول إن الأمور قد خرجت عن سيطرة الجيش. ويُضاف إلى ذلك أنني سمعتُ أن عدداً من الضباط قد رفض إطاعة أوامر إطلاق النار على المتظاهرين بقصد القتل».

«إذاً، لماذا تعتقد أنه رغم كون نصف البلد في حالة ثورة، قرّر تشاوشيسكو جلب مئات آلاف الناس إلى العاصمة من أجل التظاهر تعبيراً عن ولائهم له، في الوقت الذي يعتقد فيه المتظاهرون أنهم أكثر حماسة وثورية، وفي وقتٍ تبيّن فيه أنه لا يستطيع الاعتماد على خدمات قواته الأمنية؟».

تطلع ليو إليّ وأشعل سيجارته قائلاً: «حسناً، هناك احتمالان. الأول هو أنه لا يعرف ما يجري، ولذلك قرّر التصرف بقسوة، وإلقاء خطاب طويل، وإظهار الأعلام واللافتات. فقد نجح الأمر معه من قبل وعلى الدوام... والثاني أن أحداً ما قد نصحه بذلك، وكانت نصيحة سيئة. يُحتمَل أن تكون إيلينا هي التي فعلت ذلك، أو أحد مرافقيه من المتملقين، والذي خدعه بالقول له إنه محبوبٌ جداً. أو يُحتمَل أن يكون شخص ما قد أراد منه أن يذهب بعيداً جداً؛ وذلك من أجل الوصول إلى نقطة اللاعودة... سيأتي الناس إلى هناك، وإلى أماكن ليست بعيدة عن المكان الذي نتواجد فيه الآن... » وعندها، حرّك رأسه باتجاه هيراستراو ثم أكمل: «وسينتظرون ويراقبون ويتمنون انطلاق الشرارة».

عادت أوتيليا إلى المنزل، وكانت قد مضت خمس عشرة دقيقة على تأخر الخطاب المهم والمنتظر الذي سيلقيه الرئيس. جلب ليو معه الشراب ووضعه على الطاولة، لكنّ أحداً منا لم يشرب شيئاً لأننا أردنا أن نكون بكامل وعينا لكي نستوعب ما يجري حولنا.

تكرّر ما رأيته في ذلك اليوم للمرة الأولى مراتٍ عديدة، حيث أصبح من المستحيل بالنسبة لي أن أعزله عن مشاهداتي اللاحقة، والتي كانت متناغمة بشدة مع قصة سقوط تشاوشيسكو. تكررت هذه القصة مرة بعد مرة على محطات التلفزة الدولية، وعلى المحطة الرومانية، وفي محطة الإذاعة، وكذلك على مواقع الإنترنت؛ تلك التقنية التي ظهرت حديثاً. كانت تلك لحظة تاريخية، سواء أكانت برمزيتها أو بالأمور التي تمثّلها، أي الثورة. لكن بالرغم من أن

المشهد كان حاسماً إلا أنه يبقى بالنسبة لي خالداً، أي كما يقول ليو: «جديداً مثلما هو لينين في مدفنه».

إذ وقف تشاوشيسكو على شرفة مبنى اللجنة المركزية، والميكروفونات تكاد تلتصق بفمه. وقف الرئيس وحده، ولكننا تمكّنا من رؤية وجه إيلينا من وراء ستائر الواجهات الزجاجية التي كانت باللون الرمادي المائل إلى الفضي، وقد أوحت تعابير وجهها بالتحدي والاحتراس. ارتدى تشاوشيسكو معطفاً داكن اللون، واعتمر قبعة أستراخان من فرو الحمل، ولكنه بدا ضعيف البنية، وأكثر إجهاداً مما كان عليه البارحة. بدأ الرئيس بالكلام قبل أن يكون صوته جاهزاً، لذا بدأ حديثه ببحةٍ خفيفة وتأتأة، إلى أن انتهى به الأمر مُتنحنحاً. تصاعدت ضجة غير معتادة في مثل هذه المناسبات أثناء اعتلائه منصة الخطابة، واشتملت على زمجرةٍ انتهت بالترحيب والهتاف. لوّح العمّال الموالون الذين كانوا يقفون في المقدمة بلافتاتهم، وردّدوا شعاراتهم المألوفة. لكنّ شيئاً بالغ الأهمية كان يحدث وراءهم، وهو شيء كان يخرج من الأعماق ويتجمّع ويتسع. أما الموجودون على الشرفة فلم يكن بوسعهم أن يسمعوا أي شيء غير الأصوات الآتية من تحتهم مباشرة. بينما تمكنّا نحن من سماع الصوت الآخر، بل وتمكّنّا من سماعه مباشرة. كان صوتاً منخفضاً ومتوعداً، ولكنه قبل كل شيء كان أصيلاً. كان ذلك الصوت صرخةً من الصميم؛ صوتاً أجش مجرداً من الأنانية، صوت الغضب والكراهية.

بدأ تشاوشيسكو بالكلام مجدداً، ودار في ذهنه أنه يُعيد إحياء لحظة عظمته التي عاشها قبل واحد وعشرين عاماً، أي عندما عارض سحق ربيع براغ، لكن صوته أخذ بالخفوت تدريجياً. لم يكن الصوت واضحاً، لكن الحركة المتصاعدة بين الحشود كانت في غاية الوضوح، كما لوحظ تململٌ شديد عند الأطراف التي يشرف عليها رجال الشرطة. فقد بدأ الناس بمغادرة المكان، بينما تسلّل آخرون

من بين ثغرات الطوق المفروض. في تلك اللحظة، عادت عدسة الكاميرا إلى الرئيس الذي كان يقوم بإدانة المحرّضين على الشغب، وأعداء الاشتراكية.

فغر ليو وأوتيليا فميهما من هول الدهشة، بينما بقي كأساهما على حالهما. لكن ليو بدأ بإشعال السجائر ونسيانها بعد ذلك. رأيت خمسة أعقاب في منفضة السجائر، والتي تصاعد دخانها في الغرفة فبدت مثل مداخن المصانع في بيتيستي. أمسكت أوتيليا يدي بإحكام، واعتقدتُ أنها كانت تهمس في أذني بشيء ما، لكنّ ذلك لم يكن سوى صوت أنفاسها الخارجة من بين أسنانها التي صرّتها بشدة.

تصاعد الصراخ في المكان. وفي هذا الوقت، تمكّنّا من سماعه بوضوح: «تيمشوارا! تيمشوارا! تيمشوارا!». سمع تشاوشيسكو هذا الصراخ أيضاً، بينما سمعناه نحن من خلال محطة التلفزة، ووصل في هذه الأثناء إلى الشرفة التي نجلس عليها. كنا نعيش هذه المناسبة وفصولها المتتابعة في الوقت ذاته. كنا هناك، ولم نكن هناك في الوقت ذاته. دأب تشاوشيسكو على حكّ وجهه المجعّد بفارغ صبر، والتلويح بيده في الهواء. كانت تلك حركة غير إرادية يقوم بها قائد مستبد؛ وذلك لأنه لم تعد هناك سلطة. ترنّح الرئيس واستسلم أمام الصيحات الغاضبة بعد أن أفلت زمام الأمور من يده منذ الآن. وعَدَ بالمزيد من المواد الغذائية، وبالمزيد من الأموال، وبتمديد فترة العطلة القومية، لكنّ ذلك كله لم يُجدِه نفعاً. عندها، بدأ الموالون بالتبعثر، بينما استمر الناس بالمرور بمحاذاتهم متّجهين نحو الصفوف الأمامية. بدا تشاوشيسكو ضعيفاً ومرتعباً، بينما ذابت الإثارة مثل جدارٍ من الشمع أمام عينيه. بدا لي أنه ظهرت على وجهه النظرة ذاتها التي بدت على وجه الأميرة لدى عودتها من باريس.

سمعنا صوت إطلاق نار، وسرعان ما انتقلت الكاميرا إلى الجمهور للحظةٍ من الزمن قبل عودتها إلى الرئيس. وهكذا، بدأ الناس في التغلغل بين العملاء

والمخبرين. وتقهقر في هذا الوقت الطوق الذي فرضه رجال الشرطة، ثمّ بدأ الناس يركضون متجاوزين رجال الميليشيا، ودخل آخرون من الشوارع إلى طرف الباحة. سمعنا المزيد من أصوات الرصاص. كان أول انطباعٍ لدينا هو أن رجال جهاز الأمن هم الذين بدأوا بإطلاق النار، وأنهم إما أن يكونوا من القناصين، أو أن الطلقات قد أتت من مسدسات، ومن مسافةٍ قريبة.

رأينا حارساً شخصياً بديناً مُرتدياً بذلة ومُعتمِراً قبعة ويبدو مثل جزار في يوم أحد، يهرَع نحو تشاوشيسكو ويقول له شيئاً في أذنه. قال له الحارس شيئاً ما بسرعة وبلهجةٍ هجومية، غير أن تشاوشيسكو استمرّ بالكلام بالرغم من أنه لم يسبق له أن تكلّم بهذه الطريقة من قبل، لكنّ كلامه تحوّل إلى ثرثرةٍ مثيرة للشفقة. عندها، أمسك الحارس الشخصي بذراع تشاوشيسكو وجرّه إلى الداخل، فظهرت عدة أوجه من الخلف لتقييم هذه الفوضى المتزايدة. انفتحت الستارة من أمام تشاوشيسكو، ثمّ تماوجت قبل أن تحجبه عن الأنظار مجدداً. بدا المشهد مثل سطحٍ مائيّ يُعيد استعادة هدوئه فوق شخصٍ غارق، لكنّ هذا القول يماثل وضع نهاية لأحداثٍ بدأت لتوّها.

اختفت الصورة عن شاشة التلفزيون، وما لبثت الشاشة أن اسودّت، ولم نعد نرى شيئاً. لم تعرض المحطة إعلانات، كما أنها لم تُقدِّم تفسيرات لهذا الانقطاع. بعد قليل، سمعنا موسيقى وطنية. أما في الخارج، فقد سمعنا هديراً متصاعداً. بدا لنا هذا الهدير مكتوماً من المكان الذي نتواجد فيه؛ وكأنه انفجارٌ حدث تحت الأرض. فجأةً، امتلأت الشوارع بالناس.

بدأ الناس بالركض في كل الاتجاهات، ولكننا مع ذلك لم نرَ أي شرطي أو جندي. بدت الشوارع مزدحمة بالناس؛ وهي الشوارع التي عرفتها على مدى الأشهر الثمانية الماضية، والتي تخيّلت أن نصف منازلها فقط مأهولٌ. لكن الناس خرجوا من المنازل، وفُتِحت الأبواب، وتوجّه الرجال والنساء إلى وسط المدينة.

استمر إطلاق النار ولكنه كان بعيداً عنّا، غير أنه ازداد كثافة مع مرور الوقت. سمعنا أصوات رشاشات، ورأينا الدخان الأسود يتصاعد من مكانٍ ما في الباحة الرئيسة، وبالقرب من الجامعة. قال ليو إن هناك حريقاً في الجامعة، وكان متأكداً من مكان الحريق بالضبط: المكتبة.

أما في آليا ألكساندرو، فإن اثنين من رجال الميليشيا بدّلا ملابسهما العسكرية، وارتدى كل منهما سروال جينز وقميصاً، وانضمّا إلى الحشود محاولَين بذلك إنقاذ حياتيهما أو التخفي؛ كان من الصعب معرفة السبب على وجه التأكيد. لكن، مهما يكن الأمر، لم يكترثا بإيقافنا أنا وأوتيليا حين غادرنا الشقة لكي نعرف ما يجري في أفياتوريلور.

هبّت نسمة باردة جالبةً معها الغاز المسيل للدموع. وكانت الرائحة قوية جداً لدرجة أنها حرقت أعيننا، كما شممنا رائحة الحريق. انطلق الناس يغنّون ويصرخون ويتبادلون الشائعات والأخبار، كما سألوا كل القادمين من وسط المدينة عن تفاصيل ما يحدث. لكن، بالرغم من شراسة ما يحدث، ساد شعور بالاسترخاء والاحتفال بين الجميع. رأينا على بُعد مئة ياردة الدبابات الهادرة. كان احتمال تدخل الجيش، واحتمال أن يقوم بقتلنا جميعاً وارداً في أي لحظة. لكن، كان الناس أحراراً في مكاننا هذا، وفي هذه اللحظة. كانوا أحراراً بعمق، وبشكلٍ خطرٍ، لكن ربما ليس لوقتٍ طويل، ولكنهم كانوا أحراراً على أية حال.

قلت لأوتيليا إن هذا ما أراده بيتر. «كان هذا ما قصده. أجل، أتمنى لو أنه تمكّن من رؤية ما يحدث الآن». وأضافت بشيء من الغموض: «وعندها كنا سنعرف بالتأكيد لمصلحة أي جهة كان يعمل». ابتسمت أوتيليا وسبقتني إلى الطابق العلوي. وصلتُ إلى الباب، ورأيت الحقيبة نصف الفارغة بالقرب من حقيبتي، وكان جواز سفرها الجديد فوق جواز سفري.

سألتها: «ما الذي جعلكِ تغيّرين رأيك؟».

«سأذهب معك لأن هذه الطريقة هي الوحيدة التي تضمن لي عودتك».

عند حلول منتصف الليل، استعاد الجيش ساحة الجمهورية، وبدأ الجنود بإطلاق الرصاص - من دون استخدام الغاز المسيل للدموع - على أشخاصٍ تجمّعوا من دون أن يقاتلوا، بل كانوا مجرّد مجموعات من المعتصمين المسالمين، بينما شارك قسم آخر منهم بالمظاهرات والتجمّعات الحاشدة. أمس، تألفت الحشود بمعظمها من الرجال. أما اليوم، فالنساء والأطفال والمسنّون خرجوا للمشاركة بهدوء وانتظام وكرامة.

وقف الحرّاس في هيراستراو في مراكزهم، منتظرين أوامر لم تصل أبداً. لكن، كلما تغلغلتُ أكثر بين الحشود ازداد شعوري بالمأساة المكتومة التي تعانيها طبقة الموظفين الحزبيين، الذين احتاروا ما بين البقاء وحماية ممتلكاتهم، والخروج من المدينة بأمانٍ. وفي هذا الوقت، نُهِبت متاجر المواد الغذائية التابعة للحزب والقريبة من مكان سكن سيليا، وكان الناهبون هم زبائن هذه المتاجر بالذات. وقد انتُزِعت الأقفال، ورأيت امرأتين تبدوان مثل مغنيات الأوبرا خارجتين من المتجر وتحملان حقائب مليئة. وكانت المرأتان تأكلان بسرعة أي شيء تعجزان عن حمله.

أشار لي الحارس الواقف خارج المبنى الذي تسكنه سيليا بالدخول، ولاحظتُ أنه تخلّى عن زيّه الرسمي احتياطاً، وارتدى ملابس مدنية. سبق لي أن التقيت هذا الحارس بعد ظهر ذلك اليوم من أيار، أي عندما تحضّرتُ مع سيليا للقيام بعلاقة حميمة وتناول الشوكولا. أحسستُ وكأن ذلك قد حدث قبل عقدٍ من الزمن، ولكنه حدث بكل تأكيد قبل نظامٍ مضى. رأيت أمامي في الباحة مجموعةً من الأشجار التي راحت أغصانها العارية ترتعش، وأكواماً من الثلوج المجروفة،

وإطارات نوافذ خالية، وأشكالاً من الأعشاب المغطاة بالثلوج. لكن، لا بد أنني وقفت هناك لفترة طويلة وأنا أتأمل المكان للمرة الأخيرة؛ وذلك لأنه طرق على زجاج كشكه عدة مراتٍ ليشير إليّ بالدخول.

تحوّلت غرفة معيشة سيليا إلى مركز عمليات، وكان مانيا قسطنتين مسترخياً فوق أريكة، بينما أسند رأسه على وساداتٍ تركية. وكانت ساقه مغطاة بالجبس من الكاحل وحتى الفخذ، بينما كان جهازا تلفزيون يعملان في الوقت ذاته: أحدهما كان يعرض مشاهد من القمر الصناعي الألماني عن الأحداث الجارية على بُعد مئاتٍ قليلة من الأمتار فقط، أما الآخر فكان يعرض ما تبثّه محطة تابعة للتلفزيون الروماني، ويبثّ موسيقى وطنية. رأيت أحد رجال مانيا وهو يضع الأوراق في آلات تمزيق الورق، بينما انشغل آخر بوضع الأوراق الممزقة داخل أكياسٍ سوداء، لكنني لم أرَ أثراً لسيليا.

احتفظ قسطنطين بعدة هواتف إلى جانبه، وكانت أضواؤها تلتمع بين وقتٍ وآخر مثل أجهزة إنذار سيارات الشرطة. سمعت من خلال باب الغرفة المجاورة صوت سينزيا الهادئ والرقيق. نقل مانيا ساقه الموضوعة بالجبس بخفة لكي يُفسح لي المجال للجلوس.

«ماذا حدث لساقك؟».

«كان ذلك نوعاً من... يمكنك أن تعتبره حادثاً. انزلقتُ من فوق درج الوزارة بينما كنت في طريقي إلى اجتماعٍ طارئ مع الرفيق الأول. وقد اضطررتُ بعده إلى إلغاء كل مواعيدي في المستقبل القريب». وأطلق مانيا آهة ألمٍ مزيفة بوضوح ثم قال: «سأقدم لك شراباً. هل تحب الشراب الأسكتلندي؟».

التمع الضوء الأخضر في أحد الأجهزة الهاتفية، فردّت سينزيا بينما سارع مانيا بالنهوض وفتح خزانة ريفية أُعيد تجهيزها لتصبح خزانة مشروبات مزوّدة

بمرايا. تسلّلت أشعة الشمس المائلة من خلال الستائر التي كانت مفتوحةً قليلة، وانعكست على مجموعة مشروباته.

سألت بسخرية: «ألا يجدر بك أن تكون هناك في الخارج لمساعدة الرفيق الأول؟». تظاهر بأنه لم يسمع سؤالي، وسكب القليل من الشراب. «أين سيليا؟ هل أخرجتَها من البلد لكي تقيم لك مقراً في غرفتها؟ حسناً، بإمكانك على الأقل أن تخبرني بما يجري هناك في الخارج».

«يصعب عليّ أن أقول لك ما يجري، ولكنني سأكون صريحاً معك. إنّ ما يحصل صعبٌ جداً... ولكن لا يمكننا أن نستشرف كل ما يجري، وأنا لا أعرف إلا القليل أكثر مما تعرفه... » وتطلّع إليّ لكي يتأكد من معرفتي أنه يكذب، وكانت هذه طريقته في قول بعض الحقيقة، ثم تابع: «... لكنني أخشى أن أقول إن الرفيق الأول يواجه بعض المتاعب». وأشار إلى ساقه مجدداً قبل أن يقول: «أنا مضطر - كيف أقول لك هذا - إلى إراحتها. فعلاً... » لم تكن ضحكته الجافة خالية من المتعة الحقيقية. تجرّع كل ما كان في كأسه، ثم ملأها مجدداً. عاد مانيا إلى الجدية مجدداً وقال: «رحلت سيليا في الأسبوع الماضي متوجّهة إلى باريس. أرادت أن تراك».

«لكن، ليس إلى درجة أن تأتي لزيارتي... هل قلتَ الأسبوع الماضي؟ يبدو لي أنها حصلت على إنذار مسبق حول ما يجري الآن... أعني هذه الثورة التي لم تكن في الحسبان».

«أجل، حسناً... تمكنتْ من قراءة الإشارات، واختارت الرحيل. كان يجدر بك أن تحذو حذوها. إنني أشعر بالأسف على الدوام لأنكما لم تبقيا معاً. فقد كان بإمكانكما أن تكونا سعيدين في بريطانيا بعيداً عن كل ما يجري هنا». التمع الضوء الأحمر في أحد أجهزة الهواتف، فقال لي: «أنا آسف، يجب أن أردّ على

هذه المكالمة». وتناول السماعة وأصغى، ثم أجاب ببساطة: «أجل». كرّرها بفظاظة لمحدّثه الذي كان يسأله عن شيءٍ ما، ثمّ أنهى المكالمة قائلاً لي: «اسمعني جيداً. أمتلكُ سبباً قوياً لرغبتي في مقابلتك، والأمر لا يتعلق أبداً بتوديعك، بل برغبتي في تحذيرك. لا توجد أيّ ضمانة عند سقوط الرفيق الأول بأن الأمور سوف تكون أفضل بكثير؛ ليس في البداية على أية حال. أما ما يقلقني، ويجب أن يقلقك أنت أيضاً، فهو أنه عندما يحدث ذلك فالناس على مختلف مشاربهم سوف يعودون إلى بوخارست. يمتلك النظام مشاكله بكل تأكيد، ولكنه أبقى بعض الضوابط على طبقة المجرمين... ».

«ربما فعل ذلك عن طريق الحلول مكان تلك الطبقة... ».

«ربما. يُحتمل ذلك... سيكون لدينا الوقت الكافي لمعالجة هذه المسألة في الوقت المناسب. لكن، في هذه الفترة، الحدود مفتوحة والحكومة منهارة، ولكنهم سوف يعودون... ».

«مَن الذي سوف يعود؟».

«رجال العصابات، وتجار المخدرات، والمهربون، والقوادون، والفاشيون، وأعداء السامية، والذين يمارسون التطهير العرقي... رأيت بداية ذلك في يوغوسلافيا، أو لا أدري ماذا أصبحت تُدعى الآن، وسوف يحدث ذلك هنا».

«لكن، ما علاقة ذلك بي أو بليو؟». كنت أعرف ما يرمي إليه مانيا، ولكنني أردت سماع ذلك منه مباشرة.

«فلوريان بيلانجر سوف يعود إلى هنا. على الأقل، هذا ما يُقال، وأنا أصدّق ذلك. كنتُ على الدوام أعلم أن هذا سوف يحصل. وهذا هو سبب طلبيَ من سيليا أن ترحل. فهو سيزداد ثراءً عندما يعود، وسيكون أكثر نفوذاً، وأكثر طموحاً من أي وقتٍ مضى. سيبدأ بتسوية حساباته معي أولاً، ثم مع ليو،

ومعك أنت أيضاً. أعرف أن سيليا قد أُغرمت به منذ البداية، وكنت أتمنى لو استطعتَ انتشالها من بين براثنه، وربما فعلتَ ذلك لفترةٍ قصيرة. لا أعرف، لكنه سوف يعود لكي يسترجعها. وأعرف أنه لن يكون سعيداً لدى معرفته أنها كانت معك في تلك الفترة. وحين سيكتشف أنك صديق ليو سوف يحيك لكما المكائد معاً. لكن، يُحتمل أنه يعرف كل ذلك مسبقاً».

«لا تقلق، فأنا أستطيع الاهتمام بنفسي». تغاضى مانيا عن هذا التبجّح الفارغ. لكنني حين مددتُ يدي لمصافحته نهض عن الأريكة وعانقني. لم أرَ أثراً للحارس عند خروجي من المنزل.

الفصل التاسع

كان ليو وأوتيليا بانتظاري في السيارة، وكانت جوازات السفر جاهزة ومحرّك السيارة شغالاً. لم أمتلك وقتاً كافياً حتى لإلقاء نظرة أخيرة على الشقة، ولإغلاق الباب الذي يحمل لوحة كُتب عليها: «بيلانجر، الدكتور ف» ورائي عند مغادرتي.

أقيمت عدة حواجز تفتيش في محيط مطار أوتوبني. كان ليو يتوقّع أنّ تؤدي الفوضى إلى تسهيل عملية السفر، غير أنه كان مخطئاً. مررنا على أول حاجز تفتيش أقامته الميليشيا، وخضعت أوراقنا للتدقيق والتصديق على يد الحارس العسكري الواقف خارج بوابات المغادرة. وفي هذا الوقت، مُنِعتْ حشود المسافرين من الدخول، غير أننا تمكنا من اجتياز الحاجز التالي من دون عقبات. وبعد دخولنا مبنى المسافرين، اعتقدنا أننا نجحنا في الوصول، وأننا سنتمكن أخيراً من الصعود إلى الطائرة، وهكذا بدأت أوتيليا بتقبيل ليو مودعة إياه. ولكن، فجأةً انتبهت إلى اللاّفتة المرفوعة فوق مكتب تاروم: تمّ إلغاء جميع رحلات الشركة. كما كانت جميع مكاتب الشركة قد خلت من الموظفين؛ ذلك يعني أن تذاكرنا أصبحت بلا قيمة. كانت الشركتان الوحيدتان العاملتان في ذلك الوقت هما طيران الصين، وجات الطيران اليوغوسلافي. وقد قال لنا الموظف: «بيجينغ أو بلغراد... هذان هما الخياران الوحيدان الآن... » فالتفتّ نحو أوتيليا، ولكنها كانت قد اختفت. وانتبهت إلى أن ثلاثةً من رجال جهاز الأمن قد أخرجوها من صف المنتظرين، وراحوا يتفحصون جواز سفرها.

قال ليو في أذني: «اللعنة، لقد أفسدتُ الأمر. فقد ظننتُ أنه لا خوف على الروس، لكنّ الأمر ليس كذلك لأنهم يوقفون الروس. كان يجب أن أتوقّع ذلك! فالروس هم أعداء النظام! اللعنة! ماذا فعلت!؟».

سمعتُ أوتيليا وهي تتوسّل إلى رجال جهاز الأمن باللغة الروسية، وما لبثت أن اعتمدت اللغة الرومانية المتكسرة. وبعد ذلك، تطلعتْ إليّ، ولوّحت لي لتحثّني على المغادرة، ثم قالت كلمة «اذهب!» بصوت مكتوم.

وعند اقترابنا منها، قالت لي أوتيليا: «هيّا اذهب، لأن جواز سفري لن يُقبل بعد التدقيق به جيداً. لذا، يتعيّن عليّ أن أغادر المطار قبل عودة الرجال».

فقال ليو: «إنها محقّة. فعلتُ ما بوسعي، ولكن لم يكن بإمكاني استصدار جواز سفر صيني لها، أليس كذلك؟ يتعيّن علينا إخراجها من هنا. خذ هذه». وناولني تذكرة سفر ذهاباً إلى بلغراد من شركة الطيران اليوغوسلافية، فحرتُ في كيفية تمكّنه من تجاوز صفوف المنتظرين الفوضوية أمام مكتب جات.

قلت له وأنا أتأبّط ذراع أوتيليا: «لا أريد الذهاب، ولن أغادر البلد من دونها».

«بل ستغادر». قالت لي أوتيليا ذلك وهي تقبّلني قبل أن تبتعد عني. «ستذهب الآن، وبإمكانك العودة متى أصبح ذلك ممكناً. فإما أن تعود أنت، أو سيتمكن ليو من إصدار جواز سفرٍ أفضل لي، وعندها سآتي إليك. لكن، اذهب الآن... » دفعتني من صدري بشدة ثم اختفت بين الحشد، وأسرع ليو وراءها ممسكاً بيدها.

أصبحت وحيداً في المطار مجدداً، أي كما كنت قبل ثمانية أشهرٍ مضت. قيل لي في مكتب الطيران اليوغوسلافي إنني تأخرت عن التوجّه إلى الطائرة. ولهذا، تركت حقيبتي على الأرض الرخامية، وتوجّهت إلى مركز الجمارك، ولكنني التقيت هناك اللّصين ذاتهما اللذين يرتديان الزي الرسمي، وهما اللذان أخذا مني سابقاً الكثير من المال عند وصولي إلى البلد. لكنهما لم يُظهِرا أي شيء يشير إلى أنهما يتذكرانني، بل دقّقا في تأشيرتي منتهية الصلاحية، وقارناها مع قائمة مثبتة على جدار الكشك الذي يعملان فيه، ثمّ سرقا مني خمسين دولاراً وسمحا

لي بالمرور. أعرف أن النظام قد بدأ بالتفكك، لكن هنا، في عالمهما هذا المؤلّف من كشك الجمارك، كان العمل مستمراً كالمعتاد.

كانت بلغراد باردة ورطبة، كما انتشرت فيها أعدادٌ كبيرة من رجال الشرطة؛ أي تماماً كما هي الحال في بوخارست. انتقيت الفندق الذي سأمكث فيه بناءً على الاسم، والسعر، وقربه من محطة بلغراد. لم يمتلك «فندق بوخارست» أي شيء روماني فيه، إلا إذا أخذنا وجود المياه الساخنة، والمرطبات، والتدفئة بعين الاعتبار. تمكّنت من شمّ الروائح المتصاعدة من أكشاك الأطعمة المنتشرة على الرصيف، والتي تسلّلت إلى غرفتي عبر النافذة، كما تمكنت من سماع ضجيج حركة السير حول المحطة المركزية في المدينة. تمنيت لو أن الغرفة مزودة بجهاز تلفزيون، لكن غياب الجهاز كان من ضمن المزايا الرومانية للفندق. كنتُ قد انقطعتُ عن سماع الأخبار منذ ساعاتٍ عديدة، أما الآن وفي بداية مساء بلغراد، فقد انطلقتُ للبحث عن مكان يمكنني تناول الطعام فيه، وحيث سيكون بإمكاني مشاهدة أحدث الصور الواردة من رومانيا. رأيتُ شاشةً كبيرة في المطعم التابع للمحطة، وكانت تعرض الأخبار الواردة عبر الأقمار الصناعية من خارج الحدود. ويعني ذلك أن الفِرَق التابعة لمحطات التلفزيون الغربية قد وصلت إلى البلد.

علمتُ أن تشاوشيسكو قد تمكّن من الهرب في ذلك المساء بواسطة طائرة هليوكوبتر؛ وذلك بعد فشل محاولته في حشد الجنود حوله. أما الوحدات العسكرية الموالية للرئيس فقد احتفظت بالسيطرة على محطة التلفزيون، ومركز الاتصالات الهاتفية، لكن راديو بوخارست وقع في أيدي المتمرّدين، وهكذا بدأ على الفور في بثّ الأخبار والبيانات لحظةً بلحظة. أما في تيمشوارا وبراسوف وكلوج، وحتى في أماكن أخرى، فقد غيّر الجيش والشرطة الجهة التي يواليانها، في حين استمرّ رجال جهاز الأمن، وبعض وحدات الجيش في المقاومة. وفي هذا

الوقت، أُبقيَت الجثث فوق الأرصفة تمهيداً للتعرّف عليها، وإعلان الحداد على أصحابها. واستمر القتال في شوارع بوخارست شرساً كما كان قبل سفري. أما مكتبة الجامعة فكانت تحترق، بينما تحطّمت قبّتها المهيبة، واخترقت العوارض الخشبية المحترقة سحب الدخان.

وفي هذا الوقت، صوّبت الدبابات نيرانها على مقر اللجنة المركزية، فأحدثت فجوات في واجهة المبنى التابع لها. أمّا صور تشاوشيسكو في الشوارع فقد أُحرقت، لكنّ القناصين أطلقوا رصاصاتهم من النوافذ، فارتمت جثث المدنيين على الركام. واستمر أفراد الجهاز الأمني في القتال بتشكيلاتٍ صغيرة، أما الذين ألقي القبض عليهم فقد عُلّقوا على أعمدة إنارة الشوارع لتتجمّد جثثهم في البرد القارس أثناء تمايلها بفعل الرياح.

وفي ليلة الثالث والعشرين من ذلك الشهر، اكتشفت فِرَقُ التصوير غرف التعذيب الواقعة تحت الأرض، بما فيها من أسلاك متشابكة، وأدوات تعذيب أخرى تواجدت هناك، والتي بدت مثل مشابك المعاطف، وخراطيم الأنابيب... كما انتشرت الدماء المتجمدة في أرجاء الغرف. كانت الأوراق وملفات الضحايا الذين تعرّضوا للتعذيب مبعثرةً على الأرض، إذ لم يجد أحدٌ متسعاً من الوقت لحرقها. فقد كانت كل أنواع الوثائق في مختلف أنحاء رومانيا تُحرَق، أو يجري تلقيمها لآلات تمزيق الورق، لكنّ الأشخاص الأذكياء بالفعل لا يمزقون الأوراق بل يأخذون نسخاً عنها.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عند عودتي إلى فندق بوخارست. وعند وصولي، اكتشفت أن حقيبتي قد سُرقت واختفت معها كل العملة الصعبة التي كانت بحوزتي. كما اكتشفت أيضاً أنني كنت الضحية الوحيدة للسارقين، لكنّ موظف الفندق سارع في إلقاء اللوم على الرومانيين الذين تدفقوا إلى الفندق. لم يمضِ على وجود الرومانيين هنا سوى ساعات قليلة، وهم لم يضيّعوا الوقت أبداً،

بل بدأوا فوراً بالسرقة. وقد أشار المدير فوراً إلى لوحة كُتِب فيها أن الفندق لا يتحمّل أي مسؤولية عن السرقات التي قد تحصل فيه، أو الأضرار التي تلحق بممتلكات نزلائه. لكنني عندما هدّدتُ بالاتصال بالشرطة ربّت الموظّف على كتفي من الخلف، وضحك بشدة لدرجة أن شاربه ارتفع مثلما ترتفع ستارة. وهكذا، خسرتُ مئتي دولار؛ وهو ثمن تذكرة عودتي إلى بلادي، كما خسرت ثيابي أيضاً. وفجأة، أدركت أن كل ما بقي معي هو مبلغ لا يزيد عن عشرين دولاراً، وجواز سفري المُخبَّأ في جيبي، ونسخة عن قصائد آرغيزي؛ وهي التي أعطاني إياها تروفيم، بالإضافة إلى صورتي مع سيليا التي أهداني إياها لتكون تذكاراً.

ترافقت ليلة الكريسمس في بلغراد مع هطول أمطار تجمّدت فور وصولها إلى الأرض. كانت الحدود مفتوحة، كما لم ينقطع سيل اللاجئين إلى الغرب، لكنّ اليوغوسلافيين لم يقلقوا من ذلك؛ لأنهم كانوا مجرد مركز استراحة بالنسبة للعابرين. وصل آلاف الرومانيين إلى برلين، وباريس، وبروكسل. وانتشرت صورهم وهم يتسوّلون في شوارع المدن الغربية، وينامون على بطانيات في النوادي الرياضية بشكلٍ يثير الشفقة. وقد كانوا محقّين في استغلال الوضع إلى الدرجة القصوى. ولم تمضِ أسابيع قليلة حتى انطلق أولئك الغجر في موجات الجريمة، والاعتداءات، وسبّبوا الأمراض.

كان ينبغي لي التوجّه إلى القنصلية البريطانية قبل الظهر. ويُحتمَل أنني بقليلٍ من الحظ سأتمكن من ترتيب أمر الحصول على كفالة مصرفية تسمح لي باقتراض ما يكفيني من المال للوصول إلى بلدي. لاحظت أن نائب القنصل كان حزيناً بعض الشيء، وقد كان رجلاً ودوداً يرتدي بذلةً صيفية، ولكنه يتعرّق بالرغم من البرد. كان الرجل يدخّن أنواعاً متعددة من السجائر، ويُشعِل السيجارة من عقب السيجارة التي سبقتها؛ وكأنه يريد التوفير في علب الثقاب. كنتُ قد ملأتُ بعض الأوراق المعدّة مسبقاً، فأعطاني مبلغاً من المال يكفي لدفع

نفقات الفندق وبعض وجبات الطعام. كان ينبغي عادة الانتظار لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة لتسلّم المبلغ المتبقي، لكن نظراً إلى حلول الكريسمس، سيتوجّب عليّ انتظار حتى التاسع والعشرين من الشهر على الأقل. سألني عن المكان الذي أقيم فيه، ثم نصحني بالذهاب إلى فندق بمستوى نجمتين يقع في المنعطف المجاور لمبنى القنصلية. وقد كان الفندق مكتظاً بالنزلاء لأنه رخيص الكلفة، ونظيف، وأجهزة التلفزة فيه مزودة بأجهزة تحكّم عن بُعد. قال لي إن اسمه فندق لاستا، وأضاف مبتسماً: «لا تقف كثيراً عند الاسم». أعطاني نائب القنصل بطاقته: فرنسيس فيليمور، نائب رئيس البعثة. كان قد سبق لي أن سمعت بهذا الاسم من قبل، ولكنني عجزتُ عن تحديد زمن التقائي إياه، أو الشخص الذي ذكر اسمه أمامي.

وعند وصولي إلى خارج فندق لاستا، تقدّم مني رجلٌ طالباً مني بعض المال، ومدعياً أنه لاجئ من تيمشوارا. وحين خاطبته ببعض الكلمات الرومانية عجز عن الرد، ثم بصق نحوي وابتعد عني. كان ذلك يعني أن الوضع يفتح الفرص لوسائل جديدة للتسول الزائف. وعند دخولي فندق لاستا، اكتشفت أن جهاز التحكّم بالتلفاز عن بُعد المزعوم قد تم ربطه إلى التلفاز بسلسلة يبلغ طولها ست بوصات؛ الأمر الذي يجعل استخدامه من دون النهوض وعبور الغرفة أمراً مستحيلاً. كان ذلك أشبه ما يكون بالنكات الشيوعية الساخرة والغريبة التي أضحكتني وأفادتني على مدى الأيام المئة الأخيرة. استلقيت على السرير حاملاً زجاجة شراب بإحدى يديَّ وشطيرة لحم باليد الأخرى، وبدأت بتناول الشراب فيما كنت أشاهد الشريط المصور الأول عن اجتماع لجنة الإنقاذ الوطني. يبدو أن هذا الشريط لا يزال في خانة الحاضر الذي لا ينتهي.

ظهر وراء المجتمعين علمٌ روماني، ولكن مع فجوة في وسطه. وكانوا قد اجتمعوا في غرفة كبيرة ومليئة بالدخان تابعة للجنة المركزية للحزب. غير أن الحاضرين

راحوا يتكلمون في الوقت نفسه، وهم مستمرّون في تقليب الأوراق التي كان معظمها أبيض. لاحظت أن رجلاً يجلس إلى وسط طاولة مستطيلة الشكل يتسلم أوراق الفاكس والبرقيات، ثم يتفحّصها، قبل أن يبدأ بإملاء الردود عليها لأوليانو الذي وقف خلفه حاملاً جهاز الدكتافون وقلماً وورقة. كان الرجل يرتدي الملابس ذاتها التي رأيته فيها في كابسيا. إنه إلينسكو، رئيس جبهة الإنقاذ الوطني، والمدير السابق في الحزب، والذي أصبح مؤخراً منشقاً مرموقاً؛ أي أصبح قائد جبهة الإنقاذ الوطني من دون منازع. وكان مانيا قسطنطين بدوره موجوداً بالقرب من وسط الطاولة، وهو الذي كان وزير الداخلية وقد أصبح الآن وزير الإعلام. لم يبذل الرجل عناية كبيرة في انتقائه ملابسه، وكان ذلك مقصوداً بالنسبة إلى شخصٍ اعتاد الحرص على أناقته. حتى إنه حرص على عدم حلاقة ذقنه. وقد أوحى مظهره هذا بأنه كان في خنادق القتال طيلة الليل، علماً أن خنادقه في تلك الليلة كانت عبارة عن أريكة تركية تصلح للنوم، وخزانة للمشروبات، وجهاز تلفزيون يلتقط المحطات الفضائية. أما أسلحته فكانت عبارة عن أجهزة هواتف، وآلات فاكس، وآلة لتقطيع الأوراق. كان مانيا يشارك في اجتماعٍ لأول حكومة لما بعد تشاوشيسكو، وكان الوزير الوحيد الذي تولى حقيبتين وزاريّتين، ولكنني لم أجد أثراً للجبس الذي كان يلفّ ساقه.

كان الرجال الآخرون الحاضرون في الغرفة يشبهون كثيراً الأشخاص الذين حلّوا مكانهم، بل كانوا هم أنفسهم في معظم الأحيان. رأيته بعد ذلك. فقد ركّزت الكاميرا في البداية على طرف عصاه قبل أن تتنقل في أرجاء الغرفة، ثم عادت إلى حيث يجلس على كرسيّ وُضِع إلى اليسار قليلاً بالقرب من مقعد رئيس الوزراء الجديد. لم يشعر تروفيم بضرورة إهمال أناقة ملابسه، حتى إنه استمر في وضع شارة الحزب على صدره. أصغى الجميع إليه عندما بدأ بالكلام. لم يكن قد سبق لي أن لمحت تلك التعابير التي ارتسمت على وجهه؛ وهي تعابير نفّاذة تدل على

التركيز والحيادية. بدا تروفيم شخصاً آخر، غير ذاك الذي اعتدتُ أن أراه. كان حضوره أخّاذاً بالرغم من عدم تسلّمه مركز القيادة. غير أنه بإمكان المرء أن يستنتج سلطته بفضل الطريقة التي يستشيره فيها الجميع ويطلبون رأيه، ثم يعرضون عليه المراسيم الجديدة أثناء إقرارها. وقد بلغ عدد تلك المراسيم ثمانية عشر مرسوماً في الساعة الأولى من اجتماع الحكومة. لم يكن الرجل بحاجة إلى أن يتقلّد منصباً جامداً؛ وذلك يعني أن تروفيم قد تغيّر وظهرت شخصيته الحقيقية.

أعلن الناطق باسم جبهة الإنقاذ الوطني أنه أُلقِي القبض على تشاوشيسكو بعد فراره بواسطة طائرة هليوكوبتر، وأنه سوف يخضع للمحاكمة. وقد تمكّن ممثلو الشعب من السيطرة على محطات الراديو والتلفزيون، وكذلك على مبنى صحيفة سينتيا، كما وضعوا اللوم على رجال الأمن الموالين لتشاوشيسكو بسبب استمرارهم في القتال. وقد ادّعى الناطق بأن الجيش كان إلى جانب الشعب منذ البداية. يُحتمل أن هذه لم تكن الكذبة الأولى، ولكنها الكذبة الأولى التي لاحظتُها.

فوجئتُ بضحكةٍ نابعةٍ من الأعماق، وبموجةٍ عارمة من السخرية والمرح المريرين. كانت هذه الضحكة صادرة عني، ولكنها سرعان ما تحوّلت إلى شيءٍ مليءٍ بالغضب والتهكّم والسخرية من الذات. بعد ذلك، حان دور الدموع، وتمكنت من الشعور بطعمها اللاذع، وسرعان ما امتزجت بدخان السجائر ورائحة الشراب المتصاعدة من أحشائي. بيت دعارة جديد، لكن المومسات لا يزلن أنفسهن، ألم يكن ليو هو الذي قال ذلك؟

تلك الليلة، نمت من دون أن أخلع ثيابي، واستيقظت في وقتٍ متأخرٍ وأنا

محموم ومتعرق. وجدت عند طاولة الاستقبال في الفندق رسالةً هاتفية من فيليمور يدعوني فيها إلى المشاركة في حفل غداء بمناسبة الكريسمس. وقد ورد في الرسالة أن تقديم المشروبات يبدأ من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، كما تضمّنت العنوان حيث سيقام الحفل. أبلغني موظف الاستقبال في الفندق أن المكان قريبٌ جداً، ثم رسم لي خارطة الطريق على الخريطة السياحية التي أعطتني إياها شركة طيران جات.

فتح لي فيليمور الباب حاملاً بيديه قدحين من الشراب، وكان يعتمر تاجاً مائلاً على رأسه بطريقة مبتذلة. كانت غرفة معيشته مزخرفة بلوحات لأجداده المميزين، والأميرالات، والكومودورات، والذين حملوا أسماء مثل فورتسكيو وفيليمور مانرينغ، وانتهاءً بآخر فردٍ من السلالة، وذلك نظراً إلى أن أثاث الشقة يدل على أن صاحبها عازب ويعيش حياة عزلة. لكنّ زينته الوحيدة كانت كرة واحدة مزينة خصيصاً للكريسمس، والتي كانت معلقة على شجرة مطاطية.

فاحت رائحة الشواء من مطبخه الصغير. ورأيت هناك امرأةً صغيرة الحجم قد لفّتْ رأسها بوشاح. كانت تقوم بصبّ المرق على الإوزة تمهيداً لطبخها، وبفتح زجاجات الشراب. أما في غرفة معيشة فيليمور فقد كانت محطة يورو نيوز تعرض الصور المعتادة، إلاّ أن الزوجين تشاوشيسكو كانا قيد الاعتقال. بدا الزوجان شاردَين بوجهَيهما المجعّدَين، وشعرهما الأشعث، كما بدوَا مرتعبَيْن أمام آلات التصوير.

قال فيليمور: «آسف، يُحتمل أنك سئمت من كل هذا». وأسرع بعد ذلك في إطفاء جهاز التلفزيون، ثم ملأ كوبي بالشراب وقال لي: «لو كنت أعرف أنك صديق ليو - علماً أنك لستَ مضطراً على وجه الخصوص لتقول لي ذلك بطبيعة الحال - لكنت قد أمّنت حصولك على مبلغ من المال على الفور، ووضعتك على متن رحلة البارحة. على الأقل، كان بإمكانك الاحتفال بالكريسمس في بلدك».

ورمى فيليمور مُفرقعةً صغيرة نحوي.

سألته: «هل تعرف ليو؟». فجأةً، انفجرت المفرقعة، فجعلني صوتها الخفيف أقفز في مكاني.

«عرفته منذ سنوات، لكن مضى وقت طويل منذ المرة الأخيرة التي رأيته فيها. اعتدت أن أهتم ببعض الأشياء هنا بالنيابة عنه؛ مثل بعض المعاملات الورقية، والتأشيرات، ورُخص التصدير... في الواقع، إنها أشياء بسيطة، ولكنها مع ذلك مليئة بالفساد». وابتسم ابتسامةً مصطنعة، ثم رفع كوبه وقال: «أعتقد أنك ضيفي الوحيد في حفلة هذه الليلة، ولكن لدينا الكثير لنأكله ونتحدث عنه. لا مواعيد عندي لهذا اليوم، باستثناء رسالة الملكة بمناسبة الكريسمس؛ وذلك عند الساعة الرابعة، وتوزيع الشراب على موظفي السفارة. يمكنك الحضور إذا أردت... ».

يتميّز فيليمور بأنه لطيف المعشر، ولكنه يمتلك مسحة الحزن التي ترافق أولئك الذين اختاروا الوحدة بملء إرادتهم. كان مجرد التواجد قربه أمراً يثير الارتياح في النفس، ويزيل الهموم عنها. سألته: «إذاً، لقد اتصّل بك ليو».

«لقد اتصل بي في الليلة الماضية بشأن هاتفٍ محمول. وقال لي إن استقباله رديء، وطلب مني الاهتمام بك، فقلت له إن ذلك الاهتمام قد حصل فعلاً. ثم طلب مني أيضاً إبلاغك أن كل شيء على ما يرام، وأنهم بأمان. كما طلب مني مساعدتك بمبلغٍ من المال، وجعلني أقطع وعداً بأن أطلب منك العودة إلى بوخارست، لكنني إن فعلت ذلك فسأخالف نصيحة مكتب الشؤون الخارجية. اسمع، خذ هذا المبلغ وهو ثلاثمئة دولار - أي أنه يفيض عن حاجتك للعودة - وقرّر بنفسك المكان الذي ستذهب إليه. خذ المبلغ وأنا سوف أحاسب ليو في ما بعد».

استمعنا إلى خطاب الملكة أثناء تناولنا إوزة مشوية محشوة بالحنطة السوداء، وبعض الشراب الكرواتي.

انتهى الكريسمس عند آل تشاوشيسكو باكراً، لأنهما أُعدِما بعد أن أوقِفا قرب جدار، وتكفّل مسدسٌ يدوي بإنهاء ما تبقى من حياة في جسديهما.

شاهدت برفقة فيليمور عند الساعة الخامسة فيلم محاكمة آل تشاوشيسكو الذي عُرض على شاشة التلفزيون.

لم نشاهد في الفيلم سوى تشاوشيسكو وزوجته، وكانا جالسَين إلى طاولةٍ صغيرة في أحد أقبية تراغوفيست. وقد حافظا على نظرات التحدي حتى اللحظة الأخيرة، وكانا لطيفَين في سلوكهما إلى حدٍّ يدعو إلى العجب. لكنّ هذا اللطف في السلوك هو الذي يلتصق بالذاكرة. يُحتمل أنهما فعلا ذلك لأنهما قرّرا مواجهة عقوبة الموت للحظةٍ قصيرة، وإنهاء تلك المواجهة؛ وقد بدا ذلك واضحاً في طريقة تزرير إيلينا معطفها وهي تدفع ذقنها إلى الأمام بطريقة متحدية، وبالطريقة التي لامس بها نيكولاي يدها وشعرها نافخاً صدره. جالت كل هذه الحركات في ذاكرتي بكل حرية، وتساءلتُ عمّا إذا كانت قد أقدمت قبل دقائق من النهاية المحتومة على لفّ شالها حول عنقها. رأيتها مشوشةً جداً ومرتعبة وغير قادرة على التركيز، ولكنها تمكّنت من تدبُّر نظرة تحدٍّ جنونية ظهرت على وجهها. وحين سألها المحقق عن سنّها أجابت: «لا يجدر بك أن تسأل سيدة عن عمرها». حصل هذا الحديث قبل نصف ساعة فقط من إطلاق النار عليها.

تحفل محاكمات كل القادة المستبدين بلحظاتٍ مثل هذه حافلة بالشعور بالكرامة والكبرياء غير المتوقعَين، في وقتٍ يبدأ فيه تعطشنا لإراقة الدماء بالتلاشي بعد أن ثار بقوةٍ في أنفسنا. لكن، ما الذي يقوله تشاوشيسكو؟ كانت الشاشة تعرض الترجمات، وفهمنا بأنها تمتمات مثل: «أنا الرئيس»، «أنا لا أعترف

بهذه المحكمة غير القانونية... »، «سأقدّم أجوبتي أمام الشعب، والشعب وحده»...

أما هي فقالت: «نحن صنعناكم، واهتممنا بكم. هل هذه مكافأتكم لنا؟». «هذه سخافة كبيرة، فالشعب الروماني يحبّنا، ولن يقبل بهذا الانقلاب». هل كان كل ذلك شجاعة؟ أم مجرد تخيلات لا تلبث أن تفقد كل علاقةٍ لها بالواقع؛ أي مثل آخر نغمة في سيمفونية، والتي تنتهي بصمتٍ يبتلعها؟

أصدرت المحكمة قرارها بأنهما مذنبان ومسؤولان عن سلسلة من الجرائم؛ بدءاً من تجويع شعبهما، ومروراً بامتلاك أعداد ضخمة من الأحذية. وقد اضطر المدعي العام في إحدى المراحل إلى إسكات محامي الدفاع لأنه كان يكيل الشتائم لهما. أما الجهات الاتهامية فقد أُبقيت بعيدة عن عدسة الكاميرا. ويُضاف إلى ذلك أن أسماء تلك الجهات قد حُذِفت عند ذكر نيكولاي أو إيلينا لها، أو حُذِفت من أسطر الترجمة التي كانت تظهر على الشاشة. تمكّنتُ من تمييز بعض الأصوات العائدة للجهة الاتهامية في المحاكمة، وكان صوت مانيا أحدها. لكن، بالرغم من أنه تم الإعلان عن أسماء المشاركين في المحاكمة في وقتٍ لاحق، إلا أن اسم مانيا لم يظهر بينها.

انتهى كل شيء الآن، وتنقّلت عدسة الكاميرا فوق الجثتين. كان الوجهان سليمين، والجروح التي نتجت عن دخول الرصاصتين وخروجهما من الجهة الأخرى من جمجمتيهما دقيقة. وهكذا، انفتحت الجمجمتان من الخلف مثل شالٍ انتزعته العاصفة عن رأسيهما. استلقت إيلينا فوق الرصيف، أما نيكولاي فقد مات راكعاً على ركبتيه في حين أن جذعه ورأسه دُفعا إلى الوراء. قام أحد الأشخاص بفتح أعينهما، كما قاس نبضاتهما.

اهتزت الكاميرا اهتزازاً شديداً، فرأينا منظراً غير متوقعٍ لسماءٍ زرقاء عندما فقدَ

المصور توازنه. رأينا مجالاً لازوردياً كاملاً وفارغاً ولا وزن له. بعد ذلك، تمكّن المصوّر من استعادة توازنه، وقفز فوق الجثة الأولى ثم فوق الثانية. وهكذا، رأينا صورة قريبة لليدين اللتين كانتا متشابكتين وفرّقتهما قوة الرصاص. يُحتمل أن كل ما يعلق في ذاكرتنا عن الموتى هو ملابسهم. كانت إحدى فردتي حذاء إيلينا مفقودة، أما قبعة نيكولاي الأستراخان فكانت إلى جانبه؛ أما حقيبة إيلينا التي تمسّكت بها حتى النهاية فقد بقيت ثابتةً على مرفقها.

بعد فترة، قدّم لي فيليمور ورقة تهنئة من القنصلية، وذلك قبل تقطيع كعكة الكريسمس. تضمنت الورقة رقم هاتف طويلاً بعض الشيء. «إنه رقم هاتف ليو- أعني هاتفه المحمول... وقد طلب مني إعطاءك إياه. اتّصِل به من هنا إذا أردت». بعد ذلك، وضع فيليمور زجاجة شراب على الطاولة، وسكب القليل منها فوق الكعكة وأشعلها مستخدماً عود ثقاب.

كان ليو متقطع الأنفاس ومتحمساً، وسمعت الأصوات العالية الصادرة عن جهازَي التلفزيون والراديو اللذين كانا قريبين منه.

سألته: «أين أنت؟».

«أنا في الشقة. حسناً، في شقتك. والجميع هنا: أوتيليا، وجوليا، وأوزيراي؛ جميعهم حضروا. يُحتمل أيضاً أن يزورنا المستشار السياسي الرفيع في الحكومة الجديدة الرفيق تروفيم. أوتيليا نائمة الآن بعد أن أمضت الليلة بكاملها في المستشفى. إنها تريد منك أن تعود، وأعتقد أنها تعرف أنها عاجزة عن المغادرة. فهي تنتمي لهذا البلد».

«أعرف ذلك. كيف هي الأحوال عندكم؟».

«إنّ ما يجري هنا مذبحة، ولكننا ننتصر». لاحظت استخدامه صيغة الجمع. «أين أنت؟».

«أنا في مكان تعرفه جيداً؛ في ضيافة فيليمور، وسوف نحتفل بتناول كعكة الكريسمس».

«هل أعطاك سلفة؟ حسناً، لديك الآن عدة أيّام للتفكير في كل الأمور. لكن، حان وقت عودتك... على أي حال، المكان آمن هنا الآن».

«آمن! ما الذي تعنيه بكلمة آمن!؟ إنني أسمع أصوات الرصاص! كما أنني أشاهد القتال على شاشة هذا التلفزيون اللعين! لكن، ماذا حدث مع فينتول وستويكو وبقية أولئك الأشقياء؟».

«أتقول رصاص؟ لا، الأمر لا يزيد عن كونه بعض الشظايا المرتدة... لا أعرف شيئاً عن ستويكو، ولكنني أعتقد أنه يريد حماية نفسه. يُحتمل أن يعاود الظهور في ما بعد، ولكنه لن يؤذي أحداً طالما أن مانيا في سدة المسؤولية». فجأةً، تغيّرت نبرة ليو، فتخيّلته وهو ينظر حوله لكي يعرف مَن يستمع إليه، ثم سمعته أثناء انتقاله إلى غرفةٍ أخرى. وتكلّم بعد ذلك بصوتٍ منخفض وقال: «لكنّ فينتول لن يظهر مجدداً، ومشكلته قد انتهت».

«ما الذي تعنيه بقولك إن مشكلته قد انتهت؟».

«دعنا نكتفي بالقول إننا حصلنا على إخبارٍ من شخصٍ يعرف ما يجري. لقد حصلنا على الإخبار من ملازم، وقد قام بعض مرؤوسيه بالاهتمام به. فقد حاصره بعض الحمقى من جهاز الأمن، وسار الأمر كما يقول المثل: مارس الشعب العدالة النسبية».

كان ليو يعني أن مانيا قد أبلغ ليو عن مكان تواجد فينتول، فقام ليو بنشر الخبر. لكن، ليس من المستغرب أن تمنح الثورة الفرص لتسوية الحسابات القديمة. فهذا ما حدث مع مانيا، وأوتيليا، وليو، ومعي أنا على ما يبدو.

صاح ليو: «مرحباً، أما زلت معي؟ إذاً، ماذا تنوي أن تفعل؟ دعني أروي لك ما فاتتك مشاهدته».

«لا داعي لذلك يا ليو».

عرفتُ أن هناك قطاراً متجهاً إلى بوخارست عند منتصف الليل، فقرّرت أن أستقلّه إذا لم يتمّ إلغاء الرحلة. وأدركت حينها أن إحدى حسنات الشيوعية هي أن يوم الكريسمس يوم عمل عادي.

غادرت فندق لاستا، ورافقني فيليمور إلى المحطة.

وعند وصولي إلى مكتب التذاكر، طلبت تذكرة ذهاب فقط إلى بوخارست، ثم عددت ما معي من مال. عندها، تطلعت إليّ الموظفة بدهشة، وطلبت مني أن أعيد على مسمعيها اسم البلد الذي أقصده، ثم نوع تذكرتي. ومجدّداً، رافقني فيليمور إلى المنصة، وأعطاني كيساً يحتوي على ما تبقى من طعام الغداء، وزجاجة من المياه المعدنية.

ثم قال بلهجة حزينة: «أبلِغ ليو سلامي. يُحتمَل أنه صار بإمكانه الآن زيارتي مراتٍ أكثر».

رأيت القطار المتجه إلى بروكسل واقفاً على بُعد منصتين مني، وكان مكتوباً عليه بيوغراد/ بروكسل. كان الناس بالعشرات يتدافعون لدخوله، ويقفون في ممراته، أو يجرّون حقائبهم في طريقهم إليه. أما قطار بوخارست فقد كان أشبه ما يكون بقطار أشباح، وذلك بوجود اثنتي عشرة عربة فارغة إلا من بعض الإعلاميين. ففي هذا الوقت، تحوّلت رومانيا إلى جنة صحافية، ولا سيما مع فتح الحدود وقتال الشوارع، وموت آل تشاوشيسكو، واجتياح القصور والمنازل الفخمة.

انتقيتُ حُجرة في القطار، فيما راحت أمطار بلغراد تتحوّل إلى ثلوجٍ تجمّعت على النوافذ. أسندت جبهتي على الزجاج المتجمد من شدة البرودة، وشاهدتُ القطار المتوجّه إلى بروكسل أثناء تحرّكه إلى خارج المحطة. وصل طاقم قطارنا بعد نحو عشرين دقيقة بذقونٍ ملتحية، وستراتٍ رمادية غير مزرّرة. وسمعت أخيراً هدير محركات القطار.

كانت الحجرة الوحيدة المأهولة في القطار تقع على بُعد عدة حجرات فارغة. وكان ركاب تلك الحجرة من الميليشات؛ استناداً إلى مظهرهم، ويعتمرون قبعاتٍ سوداء، كما كان بعضهم يحملون الأسلحة. ولكنهم جميعاً كانوا من اليوغوسلافيين. راحوا يدخّنون ويتناولون الشراب، مُستمعين إلى موسيقى الروك القتالية. أمّا قائدهم فقد جلس بمفرده في الحجرة التالية، وأحاط نفسه بالصحف الفرنسية والألمانية والإنكليزية. كان مفتول العضلات، وذا شعرٍ أشقر. وما لبث أن تفحّصني ملياً رافعاً حاجبيه، ثم أسدل ستائر نافذته.

وصلنا إلى محطة بوخارست المركزية بعد مرور ثماني ساعات، وبعد أن توقّفنا عدة مرات لأسبابٍ لم أفهمها وللتدقيق في جوازات السفر، ثم انتظرنا ساعتين عند الحدود. عمّت الفوضى قطارات الذهاب والإياب، حتى إن بعضها لم ينجح في مغادرة المحطة. كانت بعض القطارات تغصّ بالرجال والنساء الذين تمسّك بعضهم بمقابض الأبواب، أما الأكياس والصناديق فكانت مربوطةً على سقف القطار. وفي الحجرات المخصّصة للنوم، كان أربعة ركاب يجلسون على مقعد واحد.

مُنعتُ من مغادرة حجرتي عند وقوف أحد اليوغوسلافيين من ذوي القبعات السوداء قرب الباب، وذلك كي يُفسح المجال لرئيسه وبقية رفاقه من الحراس الشخصيين للخروج. وبعد أن تمكّنت من النزول من القطار، رأيت أمامي رجلاً فارع الطول وأشقر الشعر يحيط به حرسه وبعض الحمّالين. كان الرجل يعرج

بشدة بالرغم من قدرته على التحرك بسرعة وقوة، كما كان يحمل معه عصا لتساعده على المشي، إلا أنه لم يستخدمها. ويبدو أنه كان يحملها لتذكيره وتذكير أولئك المحيطين به بمشكلة عرجه وكيف أنه تجاوزها. لم يصدر من الرجل ما يدل على أنه رأى ليو واقفاً تحت الساعة القديمة التي تعلو اللوحة الفارغة التي تظهر عليها عادة أوقات وصول القطارات. في هذا الوقت، كان ليو يتكلم عبر هاتفٍ محمول، مُديراً ظهره جزئياً، ومتأبطاً نسخةً من صحيفة التايمز. لم ألحظ أي حضورٍ لرجال الشرطة. وبالرغم من سماعي أصوات طلقاتٍ نارية صادرة من بعيد، إلا أنني لاحظت أن الحياة بدأت بالعودة إلى طبيعتها كما تتغلغل الأعشاب البرية من بين الإسفلت المتشقق: رائحة الخبز، وأصوات القطارات الكهربائية والحافلات، والأكشاك المفتوحة. لكنني دُهشتُ عندما رأيت صحفاً جديدة مثل أديفارول، والتي كان عنوانها الرئيس: محاكمة طاغية. وأُعلِن كذلك عن قصيدة جديدة من تأليف بالينسكو.

وعندما تعانقنا، سألني ليو: «ماذا دهاك؟ تبدو وكأنك رأيت شبحاً... ».

نظرت من فوق كتفه فرأيت سيليا مستندةً على سيارة مرسيدس سوداء وقد وضعت نظارتها الشمسية، وكانت ترتدي معطفها المصنوع من الفراء رمادي اللون. شعرت بتوترٍ في معدتي. هل عادت من باريس؟ أعتقد أن الاحتمال الأقرب هو أنها لم تغادر العاصمة أبداً. لاحقت بيلانجر بعينيّ، وتعمدت عدم إفلات ليو من عناقي. وهكذا، تمكنت من منعه من الاستدارة نحوهما. كانت سيليا تواجهني، ولكنني لم أكن متأكداً مما إذا كانت قد رأتني أم لا. وعلى أية حال، كانت ابتسامتها من نصيب بيلانجر. ضحكتْ سيليا عندما رفَعَها عن الأرض، وما لبثت أن دفعت رأسها إلى الأمام لكي تُمطِر وجهه بالقبلات. بعد ذلك، حملها بيلانجر إلى المقعد الخلفي للسيارة، ثم غادرا المكان.

قلتُ له: «لا، لم أرَ شيئاً. ظننت أنني رأيت شخصاً أعرفه». عندها، أفلتَ ليو من

عناقي، ثم انطلق وهو يجرّني خلفه بين حشود الناس، وسرنا في اتجاهٍ معاكس لسيرهم. حملت سيارة ليو السكودا - والتي أصبحت رسميةً الآن - بطاقة مغلفة وُضِعَت فوق لوحة القيادة، وقد كُتب عليها: سيارة تابعة للحكومة المؤقتة، كما ظهرت صفارة إنذار نقالة على المقعد المجاور للسائق. وفي هذه اللحظة بالذات، سمعتُ أصوات الرصاص في منطقة قريبة، وانبطح بعض الأشخاص على الأرض. لكن، يبدو أن ليو لم يسمع شيئاً.

«أوتيليا في انتظارك، كما حجزتُ لكما طاولة في كابسيا. ستشعر بالفرح لأنه لم يحدث أي تغييرٍ في النظام هناك... ».

وعند مرورنا ببوليفار النصر الاشتراكي، نظرت حولي، ولاحظتُ أن مدخل البوليفار بقي سليماً، ولم يصبه أي ضرر. قلت له: «أما بالنسبة إلى بقية البلد فدعني أخمّن: بيت دعارة جديد، لكن المومسات لا يزلن أنفسهن. أليس هذا ما كنتَ تقوله لنا؟».

تجاهل ليو سؤالي واكتفى بالقول: «حسناً، أنت تعرف كيف تسير الأمور... فالمهم هو الخبرة... ».

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

Telegram @read4lead